التفسير الوسيط

الجزء الأول

"المقدمة"

حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه
الخليفة الثاني للإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام

الشركة الإسلامية المحدودة

اسم الكتاب: التفسير الوسيط الجزء الأول "المقدمة"

الطبعة الأولى: ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦م

AT-TAFSĪR AL-WASĪṬ

By

Ḥaḍrat Mirzā Bashīr-ud-Dīn Maḥmūd Aḥmad, *(May Allah be pleased with him)* **Khalīfatul Masīḥ II**

Vol: 1

(Introduction to the study of The Holy Qur'ān)

Translated into Arabic from English By:
Mostafa sabit, Nader Al-Hosny & Fathy Abdel Salam

© Al-Shirkatul Islamiyyah

Published by:
Al Shirkatul Islamiyyah
"Islamabad"
Sheephatch Lane
Tilford, Surrey GU10 2AQ
United Kingdom

Printed and bound in Great Britain by:
William Clowes Ltd, Beccles, Suffolk

ISBN: 1 85372 864 0

جدول المحتويات

مقدمة الناشر	أ
مقدمة الترجمة	ج
تعريف بالمفسر ﷺ	ز
أسماء المراجع واختصاراتها	ر
كتب الحديث الشريف	ر
مراجع تفسير القرآن المجيد	ت
المعاجم ودوائر المعارف والدوريات	ث
مراجع التاريخ والجغرافيا	خ
مراجع التصوّف والعقائد	ذ
مراجع العلوم والفلسفة والأدب	ذ
مراجع قواعد اللغة	ذ
مراجع الفقه	ض
المعاني	ض
كتب المسيح الموعود عليه السلام	ض
أسفار الكتاب المقدس	ض
متنوعات	غ
مقدمة عامة	١
الحاجة لترجمة جديدة وتفسير جديد	١
الترجمة الحالية تفي بالحاجة	٢
سمات خاصة لهذا التفسير	٣

الحاجة الماسة للقرآن المجيد ٨
إله الكتاب المقدس إله قومي ٩
الفيدا (كتاب الهندوس) كتاب قومي أيضا ١٠
اللّٰه ﷻ واحد أحد ١٣
الدين ليس من نتاج مخيلة البشر ١٣
التعاليم المنزّلة تتناقض دائما متع الأفكار السائدة ١٧
لماذا تختلف تعاليم الأديان ١٩
الإسلام يقرر وحدانية اللّٰه ووحدانية الإنسانية ٢٠
المسيح ليس رسولا للعالم كله ٢٢
معنى الحضارة والثقافة ٢٥
المراحل المختلفة من الحضارة والثقافة ٢٨
الثقافة اليهودية والمسيحية ٣٠
سؤال هام ٣٣
المتناقضات في العهد القديم ٤٠
التعاليم الوحشية في العهد القديم ٤٨
التعاليم غير المنطقية في العهد القديم ٥٠
تشويه سمعة الأنبياء في الكتاب المقدس ٥٦
العهد الجديد في الميزان ٥٩
اعتراف السيد المسيح نفسه ٦٣
شهادة العلماء المسيحيين ٦٤
المتناقضات في العهد الجديد ٧١
الخرافات في الأناجيل ٧٣
الأخلاق المريبة في العهد الجديد ٧٩
الإضافات على الفيدا ٨٥
التعاليم الوحشية في الفيدا ٩١

الخرافات في الفيدا ٩٥
المتناقضات في الفيدا ٩٦
عدد آلهة الفيدا ٩٩
وعد الله ﷻ لإبراهيم عليه السلام ١٠٠
النبوءة الهامة في سفر التثنية ١٠٥
فاران جزء من بلاد العرب ١١٣
قريش من سلالة إسماعيل ١١٤
ذكر الرسول ﷺ في نبوءات حبقوق ١١٩
بعثة الرسول ﷺ كما ذكرها سليمان عليه السلام ١٢٢
نبوءات إشعياء ١٢٧
نبوءات دانيال ١٤٧
نبوءات العهد الجديد ١٥٢
نبذة عن حياة الرسول العظيم ﷺ ١٦٥
حياة الرسول ﷺ كتاب مفتوح ١٦٩
حالة جزيرة العرب عند مولد رسول الله ﷺ ١٧١
زواج رسول الله ﷺ من السيدة خديجة ١٧٨
رسول الله ﷺ يستقبل أول بشائر الوحي ١٨٠
المؤمنون الأوائل ١٨٢
اضطهاد المؤمنين ١٨٣
رسالة الإسلام ١٩٠
الهجرة إلى الحبشة ١٩٣
عُمر يقبل الإسلام ١٩٥
اشتداد الاضطهاد ١٩٧

الرسول ﷺ يذهب إلى الطائف	١٩٩
الإسلام ينتشر في المدينة	٢٠٣
بيعة العقبة الكبرى	٢٠٨
الهجرة	٢١٠
سراقة يلاحق الرسول ﷺ	٢١٢
رسول الله ﷺ يصل إلى المدينة	٢١٤
أبو أيوب الأنصاري يستضيف رسول الله ﷺ	٢١٥
الأخطار تحوم في المدينة	٢١٧
إبرام معاهدة بين مختلف قبائل المدينة	٢٢٠
مشركو مكة يستعدون لمهاجمة المدينة	٢٢٣
غزوة بدر	٢٢٦
نبوة عظمى تحققت	٢٣٣
غزوة أُحُد	٢٣٦
النصر يتحول إلى الهزيمة	٢٣٨
إشاعة عن وفاة رسول الله ﷺ تصل إلى المدينة	٣٤٤
المعركة مع بني المصطلق	٢٥٣
غزوة الخندق	٢٥٦
القتال ضد أحزاب ضخمة	٢٥٩
خيانة بني قريظة	٢٦٢
قوات الأحزاب تتشتت	٢٦٩
بنو قريظة ينالون العقاب	٢٧٢
حكم سعد يتوافق مع التوراة	٢٧٥
هل أراد رسول الله استمرار الحرب؟	٢٧٨
تعاليم اليهودية والمسيحية عن الحرب	٢٨٢
تعليم القرآن المجيد عن الحرب والسلام	٢٨٤

السنة النبوية حول الحرب ٢٩٣
هجوم واعتداءات متفرقة للكافرين ٢٩٦
خروج رسول الله ﷺ إلى مكة ٢٩٨
صلح الحديبية ٣٠٢
رسائل رسول الله ﷺ إلى مختلف الملوك ٣٠٥
كتاب رسول الله إلى ملك الفرس ٣٠٩
الكتاب إلى النجاشي ٣١٢
الكتاب إلى حاكم مصر (المقوقس) ٣١٣
الكتاب إلى عظيم البحرين ٣١٥
سقوط خيبر ٣١٦
تحقق رؤيا رسول الله ﷺ ٣٢١
موقعة مؤته ٣٢٤
مسير رسول الله إلى مكة في عشرة آلاف من أتباعه ٣٢٨
فتح مكة ٣٣١
رسول الله ﷺ يدخل مكة ٣٣٤
الكعبة تتطهر من الأصنام ٣٤٠
الرسول ﷺ يعفو عن أعدائه ٣٤٢
عكرمة يدخل الإسلام ٣٤٤
معركة حنين ٣٤٧
رسول الله ﷺ يناديكم ٣٤٨
العدو الحقود يتحول إلى تابع مخلص ٣٥٢
الرسول ﷺ يوزّع الغنائم ٣٥٣
مكيدة أبي عامر الراهب ٣٥٥
حملة تبوك ٣٥٦
حجة الوداع ٣٦٠

الرسول ﷺ يلمِّح عن قرب وفاته	٣٦٣
الأيام الأخيرة في حياة رسول الله	٣٦٦
اللحاق بالرفيق الأعلى	٣٦٨
شخصية رسول الله ﷺ وأخلاقه	٣٧٣
طهارة الفكر ونظافة البدن	٣٧٤
بساطة حياة النبي	٣٧٥
العلاقة مع الله ﷻ	٣٨٠
رفض تعذيب النفس	٣٨٨
حاله ﷺ مع أزواجه	٣٩٠
علوّ أخلاقه وسموها	٣٩١
ضبط النفس	٣٩٣
العدالة ونزاهة التعامل	٣٩٤
احترام الفقراء	٣٩٦
صيانة مكاسب الفقراء	٣٩٩
معاملته للعبيد	٤٠٠
معاملة النساء	٤٠١
معاملة الميت واحترامه	٤٠٤
معاملة الجيران	٤٠٥
معاملة الأقارب	٤٠٦
دوام الصحبة الصالحة	٤٠٩
اجتناب سوء الظن	٤٠٩
التجاوز عن أخطاء الآخرين	٤٠٩
الصبر عند البلاء	٤١٢
التعاون المتبادل	٤١٢
الصدق	٤١٣

التحسس والتجسس ٤١٥
الوضوح والشفافية والتعامل المستقيم ٤١٥
التشاؤم ٤١٦
القسوة على الحيوان ٤١٦
التسامح في القضايا الدينية ٤١٧
الشجاعة ٤١٨
مراعاته لغير المتحضرين ٤١٨
الوفاء بالعهود ٤١٩
إجلال العاملين على خدمة الإنسانية ٤١٩
جمع القرآن المجيد ٤٢١
وسائل المحافظة على النص القرآني ٤٢٣
معلمو القرآن المجيد ٤٢٥
قراء القرآن المجيد ٤٢٧
القرآن يحفظ عن ظهر قلب ٤٢٨
جمع القرآن المجيد في كتاب واحد ٤٣١
توحيد نُسخ القرآن المجيد ٤٣٢
استمرار عادة حفظ القرآن المجيد ٤٣٤
ترتيب السور والآيات في القرآن المجيد ٤٣٧
بعض نبوءات القرآن المجيد ٤٤١
خصائص التعاليم القرآنية ٤٤٨
الإيمان بالإله الحي ٤٤٩
المفهوم القرآني للنجاة ٤٥٣
المعجزات ٤٥٥
عبادة الله ﷻ ٤٦٢

المساجد في الإسلام ٤٦٣
الصيام في الإسلام ٤٦٥
الحج ٤٦٦
الزكاة ٤٦٦
شكل الحكومة في الإسلام ٤٦٨
القرآن المجيد والرق ٤٧٠
الروح البشرية ٤٧١
منهج القرآن المجيد للكون الروحاني ٤٧٥
إله الناس كافة ٤٧٩
الله ﷻ- السبب المطلق لكل الخليقة ٤٧٩
الصفات الإلهية الأساسية ٤٨٢
الصفات الإلهية الأخرى ٤٨٦
ثلاث مجموعات للصفات الإلهية ٤٨٧
الصفات الإلهية ليست متناقضة ٤٩٠
الإنسان- مركز الكون ٤٩٣
ذروة عملية التطور ٤٩٥
الغرض من خلق الإنسان ٤٩٨
قانون الطبيعة وقانون الشريعة ٤٩٩
تطور العالم الروحي يصل إلى منتهاه في الرسول ﷺ ٥٠٢
القرآن المجيد- الكتاب الكامل ٥٠٣
المبادئ التي يقوم عليها النظام الاجتماعي ٥٠٤
الحياة بعد الموت ٥٠٦
أحمد، المسيح الموعود عليه السلام ٥٠٨
الابن الموعود لمسيح الإسلام ٥١١
ترجمات معاني القرآن المجيد إلى اللغات الأخرى ٥١٤
شكر وتقدير ٥١٦

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

مقدّمة الناشر

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات. نحمده حمدًا كثيرا طيبا إذ وفقنا بعونه لإخراج الجزء الأول من التفسير الوسيط – لسيدنا مرزا بشير الدين محمود أحمد ﵁ الخليفة الثاني للإمام المهدي والمسيح الموعود ﵇ – بلغة حبيبه محمد المصطفى ﷺ، ويحتوي هذا الجزء على المقدمة المفصلة لتفسير القرآن الكريم.

لقد كان شرف نقله إلى العربية من نصيب الأساتذة الأفاضل: مصطفى ثابت، ونادر الحصني، وفتحي عبد السلام؛ وراجعه المهندس تميم أبو دقة. تقبل الله سعيهم، وجعله خالصا لوجهه الكريم، وأعانهم على إخراج الأجزاء الباقية من هذا التفسير القيم، آمين.

ثمة أمور ينبغي توضيحها عن هذه الترجمة، وهي:

أولا: هذا التفسير لم يكتبه سيدنا المفسر بنفسه، وإنما هو تأليف لمعارف قرآنية اقتبستها لجنة من كبار علماء الجماعة من خطب ومحاضرات ودروس قرآنية ألقاها حضرته باللغة الأردية في مناسبات شتى، ثم ترجمتْها إلى اللغة الإنجليزية، (كما أوضح حضرة المفسر ﵁ هذا الأمر في آخر هذا الكتاب)، ومنها تمت الترجمة العربية الحالية.

ثانيا: إن عددا كبيرا من المقتبسات من الحديث النبوي والسيرة وغيرهما من المراجع قد ذكرها المفسر ﵁ بألفاظه وأسلوبه، ولعل السبب أن مضمون معظم هذه المقتبسات مقتطف من أكثر من مرجع؛ فترجمْنا المضمون مع الإشارة إلى المرجع قدر المستطاع.

ثالثا: هناك مواضع في الأصل أشير فيها إلى أحداث إشارةً عابرة قد لا تعتبر

كافية لبعض القراء، فقمنا بتوضيحها في الهامش.

رابعًا: نرجو من القارئ الكريم أن يضع في الحسبان أن هذا المؤلَّف قد أُعِدَّ قبل أكثر من نصف قرن من الزمان، فهذا سوف يسهل عليه فهم كثير من الأمور.

وأخيرًا يجب أن لا ننسى أولئك العلماء الربانيين الأفذاذ الذين حملوا على عاتقهم مهمة تجميع وترجمة هذا التفسير وبذلوا جهودا مضنية في إنجاز هذه المأثرة العظيمة. وهم: حضرة ميرزا بشير أحمد ﷺ، حضرة المولوي شير علي ﷺ، وحضرة محمد ظفر الله خان ﷺ، وملك غلام فريد، وشودهري أبو هاشم خان، والقاضي محمد أسلم. ندعو الله تعالى أن يرفع درجاتهم في الجنة، ووفقنا للتأسي بأسوتهم الحسنة في التفاني في خدمة الإسلام والقرآن ورفْعِ راية محمد المصطفى ﷺ عالية خفاقة في العالم، آمين.

كما نتقدم بخالص الشكر والدعاء للإخوة السادة الأفاضل: الدكتور محمد حاتم حلمي، وفلاح الدين عودة، وهاني طاهر، وعبد المجيد عامر، ومحمد طاهر نديم، وعبد المؤمن طاهر لمساعدتهم المشكورة في شتى المجالات العلمية والفنية. فجزاهم الله جميعًا أحسن الجزاء.

ندعو الله العلي القدير أن يجعل هذا التفسير سببًا لانتشار معارف القرآن ودقائقه وأنواره وبركاته، وذريعةً لفهم كلام الله ﷻ والعمل به. آمين!

الناشر

جمادى الثانية ١٤٢٧ هـ

تموز/يوليو ٢٠٠٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الترجمة

الحمد لله العليم الرحمن، الذي أنزل الهدى في القرآن، وجعله نورا لبني الإنسان، وأرسل بفضله الكريم وخيره العميم، رسوله الصادق الأمين، ونبيّ البر والدين، محمد المصطفى خاتم الأنبياء والمرسلين، ورحمة الله لكل العالمين، فأتى بكتاب عزيز ونبراس مبين. اللهم فصَلِّ على نبيك دائما، في هذه الدنيا وفي يوم الدين. آمين.

وبعد، فقد كان لأخينا في الله الأستاذ الفاضل طه القزق (أبو المطيع) فضل تقديم اقتراح لسيدنا الخليفة الرابع مرزا طاهر أحمد – رحمه الله تعالى – بترجمة ونشر التفسير الكبير الذي كتبه باللغة الأردية سيدنا المصلح الموعود مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه، الخليفة الثاني للإمام المهدي عليه السلام. وقد تفضل حضرته بقبول اقتراح الأخ الفاضل الذي تبرّع أيضا بدفع جميع التكاليف المالية من حرّ ماله، فعسى أن يتقبل الله تعالى منه ويجزيه بهذا العمل الجليل أعلى الدرجات في الجنة.

وقد تم بالفعل نشر الجزء الأول والثاني من التفسير الكبير باللغة العربية*، وساهم في إتمام هذا العمل الكبير أستاذنا الفاضل الحاج محمد حلمي الشافعي، رحمه الله تعالى ورفع درجاته إلى أعلى عليين. وبعد وفاته صدر الجزء الثالث من التفسير الكبير، فتبين للإخوة العرب أن التفسير المذكور لا يحتوي تفسير السور القرآنية من سورة آل عمران إلى سورة التوبة، مما جعل القارئ العربي الذي نهل من كأس التفسير الكبير يشعر أنه لا يزال في حاجة إلى ما يطفئ ظمأه، ويشفي غليله من ينبوع تفسير القرآن المجيد.

* لقد نُشرتْ ترجمة ستة أجزاء من هذا التفسير باللغة العربية حتى عام ٢٠٠٦م. (الناشر)

وفي جلسة بمنْزل الدكتور حاتم الشافعي، النجل الأكبر لأستاذي الفاضل محمد حلمي الشافعي، تناول الإخوة هذا الموضوع بالبحث والمناقشة، واستقر الرأي على التقدم باقتراح لسيدنا مرزا مسرور أحمد الخليفة الخامس للإمام المهدي عليه السلام، بتعويض الأجزاء الناقصة في التفسير الكبير، من التفسير المنشور باللغة الإنجليزية. غير أن سيدنا أمير المؤمنين لم يوافق على دمج التفسيريْن أو الخلط بينهما، ورأى أن تُنشر الترجمة العربية للتفسير الكبير كما هي، وأن تُنشر أيضا ترجمة التفسير المنشور باللغة الإنجليزية كاملة، وبذلك يُتاح للإخوة العرب مصدران من مصادر التفسير باللسان العربي. وقد تفضل حضرته فأسند شرف القيام بهذا العمل إلى كاتب هذه السطور.

ونحمد الله تعالى أنه وفق بفضله الكريم بعض الأخوة الأفاضل الذين تعاونوا في ترجمة الجزء الأول من التفسير المكتوب باللغة الإنجليزية. ويحتوي هذا المجلد الإنجليزي على مقدمة في تفسير القرآن، وتفسير سورتي الفاتحة والبقرة. ولكن، لما كانت الحروف العربية أكبر حجما من الحروف الإنجليزية، تبين بعد إتمام ترجمة هذا الجزء أن حجمه قد تجاوز ١٢٠٠ صفحة، مما جعل من الصعب طبعه في مجلد واحد. ولذلك، وبعد موافقة سيدنا أمير المؤمنين الخليفة الخامس أيده الله تعالى بنصره العزيز، تقرر نشر مُقدمة تفسير القرآن المجيد منفصلة بذاتها، واقتصرنا على نشر تفسير سورتي الفاتحة والبقرة في مجلد آخر من التفسير الوسيط.

إن مقدمة تفسير القرآن على جانب كبير من الأهمية لكل دارس أو باحث في علوم القرآن المجيد، فهي تبين الحاجة إلى نزول القرآن الكريم، وتشرح كيف عانت الكتب المقدسة الأخرى من التغيير والإضافة والتحريف والتبديل، كما تُبين النبوءات التي ذكرها الأنبياء السابقون عن مَقْدم خاتم النبيين ﷺ. وتشتمل هذه المقدمة القيّمة على نبذة من حياة الرسول الأكرم ﷺ، وتفنيد لمزاعم الكُتّاب الغربيين التي انتقدوا فيها الإسلام وتعاليمه الكريمة السامية.

بقي أن نُذكّر القارئ العربي أن مادة هذا التفسير قد كانت في الأصل باللغة الأردية، ثم تُرجم منها إلى اللغة الإنجليزية، وكان الغرض من هذه الترجمة الإنجليزية هو الوصول إلى القارئ الغربي، وتقديم الإسلام إليه في صورته الصحيحة، ولذلك كان أسلوب الكتابة باللغة الإنجليزية يخاطب القارئ غير العربي وغير المسلم. ومن هنا جاءت الكثير من الأمور التي قد تكون غير مألوفة لدى القارئ العربي المسلم، و لم يتعوّد عليها في التفاسير القديمة، مثل ذكر الكثير من المقتبسات من التوراة والأناجيل، وذكر التواريخ الميلادية. كذلك اهتم المؤلف بإيراد آراء العلماء والمستشرقين الغربيين الذين كان لهم باع في نقد الخطاب الإسلامي، فردّ على أقوالهم وفنّد آراءهم ودحض اعتراضاتهم.

كذلك نلفت أنظار القارئ العربي أن هذا التفسير كان في أصله مجموعة من الدروس التي ألقاها حضرة المصلح الموعود ﷺ، وقد تم جمعه من الوريقات التي كان حضرته يسجل فيها بعض ملاحظاته، وتولت لجنة معيّنة من بعض الأفاضل من علماء الجماعة الذين جاء ذكرهم في نهاية مُقدمة تفسير القرآن، أمور الترجمة من هذه الوريقات إلى اللغة الإنجليزية، غير أنه لم يُتح لسيدنا المصلح الموعود أن يراجع أعمال هذه اللجنة أو يصحّح ما يمكن أن يكون قد جاء فيها من أخطاء. هذا وقد تم نشر هذه الترجمة الإنجليزية حول منتصف الأربعينيات من القرن العشرين، وقد انعكس هذا على المراجع التي استشهد بها المؤلف، وكلها بطبيعة الحال مما نُشر في القرن التاسع عشر أو في أوائل القرن العشرين.

ورغم هذه الأمور التي قد يظن البعض أنها من السلبيات، إلا أن القارئ العربي، المسلم وغير المسلم، سوف يجد في هذا التفسير كنوزا من المعارف، ولآلِئ من العلوم، ولا يمكن لأي باحث، جاد غير هازل، في علوم القرآن المجيد، أن يستغني عن هذا التفسير.

وأخيرا، نوَد أن نلفت أنظار القارئ العربي إلى أن ترقيم الآيات القرآنية جاء باعتبار أن البسملة هي الآية الأولى من كل سورة تبدأ بها.

وقد اشترك الكثير من الإخوة والأخوات العرب في أعمال الترجمة لإخراج هذا الجزء، وما يليه من أجزاء. وسوف يُنشر في مقدمة كل جزء قائمة بأسماء جميع من ساهم بجهد في إخراجه، داعين المولى الكريم أن يتقبله منهم، ويجعله خالصا ابتغاء وجهه ومرضاته، وراجين من القارئ العزيز أن يذكرهم في دعائه، عسى أن يجعل الله تعالى عملهم هذا في ميزان حسناتهم، كما يجعله سبحانه بعد وفاتهم، من العلم الذي ينتفع الناس به. آمين.

شكر وتقدير

يشرفني أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم التقدير لكل من تفضّل بمدّ يد المساعدة وساهمَ في إخراج هذا الجزء، وأخص بالذكر أولئك الذين قاموا بالأعمال المتعلقة بالترجمة، وهم كما يلي:

(١) الأستاذ نادر الحصني، الذي قام بترجمة الجزء الأول من مقدمة التفسير الوسيط، قبل الجزء الخاص بسيرة الرسول الكريم ﷺ.

(٢) الأستاذ المهندس فتحي عبد السلام، الذي قام بترجمة الجزء الخاص بسيرة الرسول الكريم ﷺ في مقدمة التفسير الوسيط.

(٣) الدكتور الطبيب محمد حاتم الشافعي، استشاري طب وجراحة العظام، الذي قام بالبحث عن النصوص العربية للأحاديث الشريفة وأيضا مراجعة النص.

(٤) الأستاذ فلاح الدين عوده، أستاذ اللغة العربية بالجامعة الأحمدية في كندا، الذي قام بالمراجعة اللغوية وتدقيق النص.

عسى أن يتقبل الله تعالى بفضله هذا العمل وينفع به الأجيال الحالية والقادمة من القراء العرب. آمين!

مصطفى ثابت

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

تعريف بالمفسّر رضي الله عنه

صاحب هذا التفسير هو الحاج مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه النجل العظيم والخليفة الثاني لحضرة مرزا غلام أحمد القادياني مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية.. الإمامِ المهدي والمسيح الموعود عليه السلام.

لقد تحقق بمولده النبأ الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: "ينـــزل عيسى بن مريم إلى الأرض فيتزوج ويولد له." (مشكاة المصابيح، باب نزول عيسى عليه السلام)

ويشير هذا القول النبوي الكريم إلى أن ثمرة هذا الميلاد ولدٌ صالح يشابه أباه في الفضل والنفع.

ولقد تلقى أبوه بشارة مولده في شهر شباط/ فبراير ١٨٨٦م حينما كان خائضا في نضاله التاريخي العظيم ذودًا عن حياض الإسلام وكرامة نبيه ﷺ.. ضد هجمات الأعداء من القساوسة وزعماء الهندوس وغيرهم. فعندما أعلن عن استعداده لإثبات صدق الإسلام بآيات سماوية.. سخر منه بعض الهندوس من قريته وطلبوا منه أن يريهم ما يدعي به. فتوجّه حضرته إلى ربّه العزيز القدير، واعتكف أربعين يوما.. يبتهل إلى الله تعالى ويتضرع أمام عتبته، ويسكب الدموع مستمطرا عونه عزّ وجلّ ليُري أعداء الإسلام آية من السماء.

فسمع الله صرخاته، واستجاب لدعواته، وبشره بولادة ابن عظيم في بضع سنين ومما أوحي إليه:

"سمعتُ تضرعاتك ودعواتك، وإني معطيك ما سألت مني وأنت من المنعمين. وما أدراك ما أعطيك؟ آية رحمةٍ وفضلٍ وقربةٍ وفتحٍ وظَفَرٍ. فسلام عليك، أنت من المظفَّرين. إنا نبشرك بغلام اسمه عنموايل وبشير. أنيق الشكل دقيق العقل

ومن المقربين. يأتي من السماء، والفضل ينـــزل بنـــزولـــه. وهو نور ومبارك وطيب ومن المطهرين.... قد ملئ قلبه علمًا، وباطنه حلمًا، وصدره سلمًا، وأُعطيَ لـــه نفَسٌ مسيحي، وبورك بالروح الأمين. يوم الاثنـــين. فواهًا لك يا يوم الاثنين، يأتي فيك أرواح المباركين. ولد صالح كريم ذكي مبارك. مَظْهَر الأول والآخر. مَظْهَرُ الحق والعَلاء، كأن الله نزل من السماء. يظهر بظهوره جلال رب العالمين. يأتيك نور ممسوح بعطر الرحمن، القائم تحت ظل الله المنان. يفكّ رقاب الأسارى وينجي المسجونين. يعظم شأنه، ويُرفع اسمه وبرهانه، ويُنشَر ذكره وريحانه إلى أقصى الأرضين. إمام هُمامٌ، يبارَك منه أقوام، ويأتي معه شفاء ولا يبقى سَقام، وينتفع به أنام...." (مرآة كمالات الإسلام، الخزائن الروحانية ج ٥ ص ٥٧٧- ٥٧٨)

"سيكون مليئا بالعلوم ظاهرة وباطنة... وسيأتي لينكشف به على الناس شرف دين الإسلام ومرتبة كلام الله".

وعندما أعلن عليه السلام هذه البشارة سخر منه أعداء الإسلامِ ونبيِّه ﷺ. ولكن الله تعالى.. الغيور على دينه وشرفِ المصطفى حبيبِه.. أنجز للإمام المهدي وعده، ووهبه غلاما زكيا وجيها في ١٢ كانون الثاني/ يناير ١٨٨٩م.

نشأ الابن المبارك في بيت أبيه، تكلؤه عين رعاية الله.. فظهرت عليه أمارات النبل والذكاء منذ نعومة أظفاره. ومع أنه لم ينل من العلوم الدنيوية إلا القليل، إلا أن الله تعالى آتاه من لدنه علما، وأسبغَ عليه نعمة حب القرآن المجيد والحديث النبوي الشريف، ونهل منهما الخير العميم فيما تلقاه من دروس على يد أستاذه مولانا الحافظ نور الدين رضي الله عنه الخليفة الأول للإمام المهدي عليه السلام.

كان الإمام رضي الله عنه كثير القراءة، حديد العزيمة، جمّ النشاط، شديد الحماس لتربية الشباب.. حتى أصدر، وهو لا يزال صبيًا، مجلة خاصة بهم في عهد أبيه عليه السلام سماها "تشحيذ الأذهان"، وأنفق عليها من جيبه ومساعدة بعض أصدقائه

من الشباب. عمل رئيسا لتحريرها وكتب فيها مقالات قيمة. ولا تزال هذه المجلة تصدر حتى اليوم.

وبلغ حبه وفهمه للقرآن الكريم مبلغا عظيما في صباه حتى شرع يلقي الدروس القرآنية في المسجد، ويغوص في بحار معاني القرآن ليأتي بجواهر المعارف ولآلئ الحقائق.. تخلب اللب، وتدهش الفكر.. كل ذلك وهو لا يزال دون العشرين من عمره!!

ولقد زادت هذه الموهبة الربانية مع تقدمه في السن بعد أن آتاه الله تبارك وتعالى علما خاصا حول ترتيب السور والآيات القرآنية والربط بينهما.. كما أعلن بنفسه أن ملاكا من ملائكة الرحمن علّمه تفسير سورة الفاتحة.

أعماله البارزة:

ولقد أدى حضرته ﵁ خدمات جليلة للإسلام والمسلمين نوجزها فيما يلي:

الدفاع عن الخلافة وتمكينها:

لقد أخبر سيدنا محمد المصطفى ﷺ عن عودة الخلافة الراشدة في آخر الزمان. وبالفعل أعادها الله تعالى عن طريق سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود ﵇. ولكن عندما اشتد المرض بمولانا الحافظ نور الدين الخليفة الأول ﵁ ظهرت حركة بين نفر من الجماعة ترمي إلى إلغاء منصب الخلافة وتوكيل اللجنة الإدارية المركزية في إدارة وتنظيم شؤون الجماعة. وعندما انتُخب حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد لمنصب الخلافة عام ١٩١٤م – وهو لا يزال ابن خمسة وعشرين عامًا – وفّقه الله تعالى للخروج بالجماعة سالمة من هذه الفتنة والفتن الخارجية وتمكين الخلافة بوضع نظام محكم لانتخاب الخليفة. فاستمرت الخلافة الراشدة تعطي ثمارها وبركاتها للأمة إلى يومنا هذا. ومضت الجماعة تحت قيادتها تنتقل من نصر إلى نصر ومن ازدهار إلى ازدهار.. على الرغم من الصعاب والشدائد والمؤامرات والمكائد.

تنظيم الجماعة ومؤسساتها:

أنشأ حضرته عديدا من النظم التي تكفل سير عجلة العمل في الجماعة بما يحقق أهدافها في خدمة الإسلام وتبليغ دعوته إلى جميع أرجاء الأرض. فوزّع العمل على دوائر لبيت المال والمحاسبة والأملاك، والتأليف والتصنيف، والإشاعة والنشر والتوزيع، والدعوة والتبليغ، والتربية والتعليم، والقضاء والفتوى، والضيافة، والأمور العامة والأمور الخارجية، وغيرها.

كذلك أنشأ مجلسا لشيوخ الجماعة وسماه "مجلس أنصار الله"، وآخر للشباب وسماه "مجلس خدام الأحمدية"، وثالثا للسيدات وسماه " لجنة إماء الله" ورابعا للبنين وسماه "أطفال الأحمدية"، وخامسا للبنات وسماه "ناصرات الأحمدية". ولكل هذه التنظيمات فروع في كل الجماعات المنتشرة في كل أنحاء العالم. لها هياكلها الإدارية واجتماعاتها الدورية واشتراكاتها الإلزامية ومجلاتها الخاصة.

"التحريك الجديد":

في سنة ١٩٣٤م وعلى إثر قيام طائفة الأحراريين* بمساندة من الحكام الإنجليز.. بالاعتداء على مركز الجماعة حينئذ (قاديان، الهند)، ومحاولة القضاء على الأحمدية.. أعلن حضرته إنشاء مشروع باسم "التحريك الجديد" (أي المشروع الجديد) بهدف نشر وتوطيد الدعوة الإسلامية الأحمدية في أنحاء العالم خارج شبه القارة الهندية، وفتح مراكز للتبليغ وتعمير المساجد. ولقد أعطت هذه الشجرة الطيبة أكلها بإذن ربها. فتوطدت الجماعة حتى الآن في ١٨٢ بلدا وبنت آلاف المساجد والمراكز في مختلف أنحاء العالم.

* الأحراريون أو حزب الأحرار كانوا بعض المشايخ المتعصبين وأشياعهم المتطرفين المعارضين للجماعة الإسلامية الأحمدية، وكانوا يوالون الهندوس ويعارضون فكرة تأسيس باكستان.

خدماته لمسلمي الهند:

في عام ١٩١٢م قامت حركة هندوسية متطرفة باسم (شدهي).. تهدف إلى استعادة الهنود المسلمين وضعفائهم إلى الهندوسية، وبالفعل تمكنوا من تضليل ستة ملايين منهم. وعندما استفحلت هذه الفتنة في عام ١٩٢٣م تصدى لها مرزا بشير الدين محمود أحمد ﷺ، وجمع حوله المخلصين من جماعته من كل المجالات: علماء، أطباء، تجارا ورجال القانون وغيرهم، وخاض بهم معركة باسلة ضد الهندوس المتطرفين. سلاحه فيها القرآن والسنة والدعاء إلى الله. فهزموهم بإذن الله، وتمكنوا من إقناع المرتدين التعساء وإنقاذهم من براثن الهندوسية.

هذا إلى جانب جهوده الجبارة لتحرير أبناء كشمير المسلمين. ولذلك اختاره المسلمون رئيسا للجنة كشمير. ولولا اندساس الأحراريين وإفسادهم لَكُلِّلتْ جهود اللجنة بالنجاح التام.

مواقفه المشهودة للعرب:

عندما كان الاستعمار ينفذ مؤامرته في فلسطين عام ١٩٤٨م كتب الإمام نشرتين: "هيئة الأمم المتحدة وقرار تقسيم فلسطين" و "الكفر ملة واحدة"، ندد فيهما بموقف الصهاينة والاستعمار. ودعا العالم الإسلامي إلى نبذ خلافاته وتوحيد صفوفه لمواجهة إسرائيل ومساعدة العرب.. ومما قاله حضرته:

"إن قضية فلسطين ليست بقضية عربية فحسب، بل إنها قضيةٌ تهم العالم الإسلامي كله. إنها ليست قضيّة فلسطين وإنما هي قضية المدينة المنورة. والمسألة ليست مسألة بيت المقدس وإنما هي مسألة مكة المكرمة ذاتها. القضيّة ليست قضيّة زيد أو عمرو بل هي قضيّة عِرض محمد رسول الله ﷺ. لقد اتّحد العدو ضد الإسلام متناسيًا أوجه الخلاف الكثيرة بينه. أَوَلاَ يتّحد المسلمون بهذه المناسبة رغم وجود آلاف من أوجه الاتفاق بينهم." ("الكفر ملة واحدة" نقلاً

عن جريدة "الفضل" ٢١/٥/ ١٩٤٨م)

ولقد نشرت بعض الصحف العربية ما جاء في "الكفر ملة واحدة" وأثنت على جهود الإمام والجماعة لإنقاذ فلسطين. (انظر جريدة النهضة عدد ١٢ تموز/ يوليو ١٩٤٨م)

خدماته العلمية:

بالإضافة إلى آلاف الخطب والمحاضرات في شتى المناسبات ألف حضرته عشرات الكتب منها: العرفان الإلهي، حقيقة ملائكة الله، حقيقة الرؤيا، منهاج الطالبين، نظام الاقتصاد في الإسلام، بداية نشوب الخلافات في تاريخ الإسلام، دعوة إلى الحق، تحفة الملوك، الأحمدية أي الإسلام الحقيقي، وحياة محمد ﷺ. وله ديوان شعر بالأردية اسمه: "كلام محمود".

التفسير الكبير:

ولكن أعظم خدماته العلمية هو تفسيره للقرآن الكريم: ويسمى (التفسير الكبير). وقد نُشر في عشرة مجلدات باللغة الأردية، ثم نُقل مختصرا إلى عدة لغات منها الإنجليزية (التي تمت منها الترجمة العربية الحالية). وأشادت جهات مختلفة بهذه التراجم. وقد قرظت جريدة "وكالة الأنباء العربية" عليها تحت عنوان بارز: "ترجمة القرآن الكريم" ما يلي:

"عمان، تلقى فضيلة الميرزا رشيد أحمد جغتائي المبشر الإسلامي المعروف وعضو الجماعة الأحمدية والمقيم حاليا بعمان نسخةً من الكتاب القيم الذي أصدرته الجماعة في الهند باللغة الإنكليزية حاويًا ترجمة القرآن المجيد. ويقع الكتاب في ٩٦٨ صفحة تضم ترجمة السور المجيدة الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة. وقد قدّم لها بمقدمة قيمة تقع في ثلاثمائة صفحة كتبها إمام الجماعة حضرة ميرزا بشير الدين محمود أحمد تضم مصادر الكتاب وبحوثًا قيّمة عن قيمة القرآن المجيد وسيرة الرسول الأعظم

وشخصيته وكيفية جمع القرآن وغيرها.

والترجمة الإنكليزية تفوق كل ترجمة سبقتها من حيث الإتقان وجودة الورقة والطبع والانسجام وصدق الترجمة الحرفية وتفسيرها تفسيرًا مسهبًا بأسلوب جديد يدل على علم غزير واطلاع واسع على حقائق الدين الإسلامي الحنيف وتعاليمه السامية.

والكتاب الثمين في مجموعه دفاع عن الإسلام وردٌّ على خصومه وخاصة المستشرقين.. يُبطل مزاعمهم بأسلوب علمي رائع....

ومما يجدر ذكره بأن المسز "زمرمان" الكاتبة الهولندية المعروفة قامت بترجمة القرآن المجيد من الإنكليزية إلى الهولندية، وما كادت تفرغ من ترجمتها حتى كانت قد اعتنقت الإسلام". (جريدة "وكالة الأنباء العربية" الصادرة في عمان والقاهرة في عددها ١/٢٠٥ بتاريخ ١٩٤٩/٢/٦م الموافق ٨ ربيع الثاني ١٣٦٨ هـ)

أما فيما يتعلق بشهادة علماء "الأزهر" فقد نشرت "مجلة الأزهر" تحت عنوان: "نقد الكتب.. القرآن المقدس" تعليقَ الدكتور محمد عبد الله ماضي على الترجمة الألمانية لهذا التفسير بما يلي:

"هذه الترجمة أو هذا الكتاب يحتوي على مقدمة مفصلة وعلى ترجمة معاني القرآن باللغة الألمانية. والمقدمة كتبها رئيس الطائفة الأحمدية الحالي حضرة ميرزا بشير الدين محمود أحمد.

أما الترجمة نفسها فقد اختبرتُها في مواضع مختلفة وفي كثير من الآيات في مختلف السور، فوجدتها من خير الترجمات التي ظهرت للقرآن الكريم في أسلوب دقيق محتاط، ومحاولةٍ بارعة لأداء المعنى الذي يدل عليه التعبير العربي المنـــزل لآيات القرآن الكريم. وقد نبه المترجم إلى أنه ليس في الاستطاعة نقلُ ما يؤديه الأسلوب العربي المحكم من الروعة البلاغية وسمات الإعجاز التي هي من

خصائص القرآن إلى لغة أخرى، فهي خصائص انفرد بها كتاب الله المنـــزل في أسلوبه العربي، الذي نزل به من عند الله على نبيه المرسل، والذي لا تبديل فيه ولا تحريف، فهو يمثّل كلام الله في معناه وفي مبناه، ولهذا فمن باب الاحتياط جُعل النص العربي بجوار الترجمة الألمانية، حتى يستطيع القارئ أن يقارن ويختار بنفسه المعنى الذي تطمئن نفسه إلى صحته.

وعلى وجه الخصوص اختبرتُ ترجمة الآيات التي تتعلق بالقتال والجهاد في سبيل الله، بحثًا عما عساه يكون قد ضمّن الترجمة مما يتصل بما يراه الأحمدية في الجهاد، ويخالفون به جماعة المسلمين، حيث إنهم يقولون: "إن الجهاد يجب ألا يقوم على امتشاق الحُسام، بل يجب أن يقوم على وسائل سِلمية.....

اختبرتُ ترجمة هذه الآيات المشار إليها فوجدتُها سليمة لا تتضمن أدنى الإشارات إلى هذا الذي كنت أخشى أن تتضمنه.

وفي المقدمة أورد كاتبها بحوثًا إسلامية فلسفية قيمة، وقسّمها إلى قسمين: تحدث في القسم الأول منهما عن حاجة البشرية التي اقتضت نزولَ القرآن، وبيّن أن الإسلام كان من تعاليمه وحدة الإله، وكان من عوامل توحيد البشرية. فذكر أنه لما ارتقت البشرية وأصبح الناس على اتصال يكونون جماعة واحدة، أصبحوا في حاجة إلى تعاليم سماوية شاملة، تشمل الناس جميعًا، وتصلُح لهم في كل زمان ومكان، وتدلّهم على قدرة الله وعظمة رب الناس كافة؛ فكان القرآن هو الذي أدى تلك الرسالة جميعها.

كما تحدث عن كتاب العهد القديم (التوراة) وكتاب العهد الجديد (الإنجيل)، وبيّن أنه نالهما التحريف والتبديل، فأصبحا معه لا يمثّلان كتبَ الله المنـــزلة. وذكر بعض المتناقضات فيهما، وبعض المبادئ التي تخالف العقل، وبعض الخرافات، وبعض القواعد الخُلقية غير الثابتة. كما تحدث عما ورد في التوراة والإنجيل من التبشير بظهور النبي محمد ﷺ، إلى غير ذلك مما أورده

صاحب المقدمة في القسم الأول.

وفي القسم الثاني من المقدمة كان الحديث عن بناء القرآن. فذكر المؤلف ما سبق أن تعرض لـــه من بيان أن القرآن هو الكتاب المقدس الذي يمثّل كلامَ الله المنـــزل، والذي حفظه الله من كل تحريف وتبديل، وتحدث في هذا الصدد عن المحافظة على القرآن بكل الوسائل المختلفة في عهد الرسول من كتابة الوحي وتقييده، ومِن وعي الحفّاظ لـــه. وتحدث كذلك عن ترتيب الآيات والسور، مبينًا أن ذلك كان بوحي من الله نزل على نبيه. وتابع الحديثَ عن الأمور الآتية:" (هنا يورد هذه المواضيع في قائمة طويلة ثم يقول)

"وإذا صرَفنا النظر عن بعض التلميحات العامة غير الصريحة المتصلة بمذهب الأحمدية في الجهاد، والتي وردت في صحيفة (١٣٤) من المقدمة تحت عنوان: المنازعات الدينية" فإننا نجد أن المقدمة بقسميها اشتملت في الجملة على بحوث إسلامية رائعة، ونقلت صورةً من الأفكار والتعاليم الإسلامية المتعلقة بالقرآن، في ثوب وإطار إسلامي إلى اللغة الألمانية."

بعدها يقول المعلق:

"ولكن، نعم ولكن، مع الأسف الشديد خُتمت هذه المقدمة بفصل عن المسيح المنتظر (مرزا غلام أحمد)..... وحبذا لو كان من المستطاع فصلُ هذا الجزء الأخير عن الترجمة وعن المقدمة، والعملُ على نشرها دون هذا الجزء، فإنه لو أمكن ذلك لكان فيه خير كثير."

("مجلة الأزهر" الجزء الثامن، القاهرة، شعبان سنة ١٣٧٨- فبراير (شباط) سنة ١٩٥٩-المجلد الثلاثون)

وكتبت جريدة أخرى تحت عنوان: "الجماعة الأحمدية وترجمة القرآن المجيد":

"بدأ الناس يُعجَبون، بالرغم من انهماكهم في أمور دنياهم، بنشاط الحركة

الأحمدية وجهادها لنشر الإسلام في القارات الخمس. ومن أعظم ما قام به الأحمديون في السنوات التي تلت الحربَ ترجمتُهم القرآنَ المجيد للغات الأجنبية الحية كالإنجليزية والألمانية والأفرنسية والروسية والإيطالية والأسبانية وغيرها، تحت إرشاد إمام الجماعة الأحمدية حضرة ميرزا بشير الدين محمود أحمد.

وقد طُبعت الترجمة الإنجليزية، فرأيناها تفوق كل ترجمة سبقتها من حيث الإتقان وجودة الورق والطبع والترتيب والانسجام وصدق الترجمة الحرفية وتفسيرها تفسيرًا مسهبًا، بأسلوب جديد يدل على علم غزير واطلاع واسع على حقائق الدين وروحه وتعاليمه السامية.

وقد كُتبت الآيات القرآنية في أعلى الصفحات بالعربية في الجانب الأيمن وترجمتُها بالإنكليزية في الجانب الأيسر، وتحت ذلك التفسير بلغة إنكليزية راقية.

وإن المطالع لهذا التفسير الجديد يرى أن حضرة إمام الجماعة الأحمدية في دفاعه عن الإسلام إنما يدافع عن الدين الحي الذي يجد الناس كافة فيه السبيلَ القاصد للقاء ربهم، وخاصة في الوقت الذي تعددت فيه الطرقُ على السالكين، فابتعدوا بها عنه.

وحضرته يرد في تفسيره هذا على خصوم الإسلام وبالخاصة المستشرقين، ويُبطل مزاعمهم ومطاعنهم بأسلوب علمي منقطع النظير.

وقد بين في تفسيره هذا علاقةَ السور ببعضها وكذلك الآيات وأسباب النـــزول وملخص مضامين السور في أوائلها ليزيد القراءَ علمًا وإيضاحًا لحقيقة المعاني. ولإتمام الفائدة أَلحقَ هذه الترجمةَ النفيسة بسيرة مسهبة للنبي ﷺ بقلمه، فجاءت هذه السيرة غايةً في الإتقان والأسلوب والمواضيع." (جريدة "الأردن" عمان ٢٠ محرم ١٣٦٨ الموافق ٢١ / ١١ / ١٩٤٨)

هذا ما قاله العلماء العرب من أهل التقوى وخشية الله. وجزاهم الله أحسن الجزاء.

وقد اعترف علماء الهند أيضا، علنا وبكثرة، بعلمه الغزير وكونه مفسرا لا يبلغ شأوه، فأثنوا عليه وكان مثل هذا الثناء والتقريظ من أهل النـــزاهة والاستقامة أمرًا عاديًّا في حياة سيدنا الميرزا بشير الدين محمود أحمد. ثم ما هو المعيار للحكم على منجزات شخص أفضل مما يشهد به أعداؤه ويعلنونه؟

هذا شودري فضل حق – زعيم حركة الأحرار، وهي منظمة نذرت نفسها لمعارضة الجماعة الإسلامية الأحمدية – يتحدث عن براعة سيدنا محمود ﷺ فيصرح:

"إن وراءه عقلاً فذًّا قادرًا على تدمير أعظم إمبراطورية في غمضة عين". (جريدة "المجاهد" ١٩٣٥/٨/١٥)

وهذا المولوي ظفر علي خان، وهو معارض شديد للجماعة الإسلامية الأحمدية.. يتحسر لما شهده من منجزات سيدنا محمود وينذر زملاءه وأصحابه:

"أَعيروني سمعَكم وأَنصِتوا أنتم وشركاؤكم أيها الأحراريون! إنكم لن تستطيعوا أن تهزموا الميرزا محمود حتى يوم الدين. إن الميرزا محمود يملك القرآن وعِلم القرآن. وإنكم لم تقرؤوا القرآن قط ولو في أحلامكم. مع الميرزا محمود جماعة مستعدة للتضحية بكل ما تملك عند قدميه. الميرزا محمود لديه دعاة: مبلغين وعلماءَ في تخصصات شتى. لقد ثَبَّتَ رايتَه في كل بلد من العالم." (ايك خوفناك سازش (أي مؤامرة مخيفة) للسيد مظهر علي أظهر ص ١٩٦)

وصيته للمسلمين:

في عام ١٩٥٩م عندما مرض المفسر ﷺ وظن أنه ملاق ربه.. كتب وصية لأبناء الجماعة في أنحاء العالم حثهم فيها على مواصلة العمل في خدمة الإسلام والتمسك بنعمة الخلافة الإسلامية الراشدة.. نقتبس منها قوله:

"كنا أذلاء لا يُعتد بنا، فشرفنا الله تعالى كرما منه وفضلا وجعلنا حماةً لدينه.

كنا ضعفاء عديمي الحيلة، فمنحنا الله تعالى القوة وأناط بنا مستقبل الإسلام.

كنا فقراء بلا إمكانيات، ومع ذلك فرض الله علينا نشر اسمه واسم نبيه المصطفى ﷺ إلى أقصى أطراف الأرض.

لقد كانت مهمة صعبة عجز الملوك عن القيام بها، ولكننا حملناها، ليس بكفاءتنا وإنما بفضل الله تعالى ورحمته وبركته ثم ببركة رسوله خاتم النبيين ﷺ. لم تكن بأيدينا الوسائل ولكنه تعالى نصرنا وأخزى أعداء الإسلام وأذلهم. فسبحان الذي أخزى الأعادي. وإني لواثق بأن الله تعالى سيظل ناصرا للإسلام إلى يوم الدين.

وأرجو أن يتابع أبنائي وبناتي.. وأبناء وبنات سيدنا المهدي والمسيح الموعود- عليه الصلاة والسلام - تضحياتهم لحمل اسم محمد ﷺ إلى أقصى أطراف الأرض ورفع لواء الإسلام خفاقا إلى الأبد.

وبنفس الثقة والرجاء.. أعهد إلى كل مسلم أحمدي أن يحمل هذه الأمانة. إن كل البركات تنبع من الخلافة. النبوة تزرع البذرة، فتتعهد الخلافة نموها ونشرها في العالم أجمع. فاعتصِموا بهذا النظام السماوي، ولتنتفع من بركاته الدنيا كلها.

هذه هي وصيتي الأخيرة لكم. رحمكم الله وأعزكم في هذه الدنيا وفي الآخرة. أوفوا بعهدكم حتى الموت".

وفاته:

بعد حياة مباركة حافلة بجلائل الأعمال والخدمات للإسلام والمسلمين، وبعد قيادة تاريخية فذة للجماعة الإسلامية الأحمدية لحوالي ٥٢ عاما.. لقي هذا الولي الصديق رفيقه الأعلى، ولبى نداء ربه صباح الثامن من تشرين الثاني / نوفمبر عام ١٩٦٥م في مدينة ربوة التي أنشأها، ودفن هناك.

لقد كتب السيد يعقوب خان - المحرر السابق للجريدة الرسمية المدنية والحربية (CIVIL & MILITARY GAZETTE) - مؤبِّنًا سيدنا محمود أحمد ﷺ بعد وفاته:

عظيم من بُناة الأمة

"بوفاة الميرزا بشير الدين محمود أحمد إمامِ الحركة الأحمدية – ربوة.. أُسدِلَ الستار على مسار حياةٍ هي الأحفل بالأحداث والأحشد بمشروعات بعيدة المدى لا تحصى. رجل ذو شخصية عبقرية متعددة المواهب، مفعمة بالنشاط والحيوية. لا يكاد يوجد مجال من مجالات الفكر والحياة المعاصرة من العلوم الدينية إلى تنظيم الدعوة والتبليغ، بل والقيادة السياسية.. إلا وترك فيها الفقيد أثرًا عميقًا في خلال النصف القرن الماضي.

هناك شبكة كاملة من البعثات الإسلامية والمساجد منتشرة في أنحاء العالم؛ واختراقٌ عميق للدعوة الإسلامية في أفريقيا، وإزاحةٌ للإرساليات النصرانية الراسخة منذ زمن طويل عن مواقعها. كل ذلك ينهض نصبًا تذكاريًّا وأثرًا خالدًا لما كان يتمتع به الفقيد من تخطيط مبدع؛ ومقدرة تنظيمية وطاقة لا تنضب. لا يكاد يوجد قائد قوم من زمننا الحاضر حَازَ كلَّ هذا الإخلاص العميق من جانب أتباعه.. ليس إبان حياته فقط، بل وبعد وفاته. فقد هرع ٦٠,٠٠٠ من كافة أنحاء البلاد ليقدموا واجب التكريم والتقدير الأخير نحو إمامهم الراحل. وفي تاريخ الحركة الأحمدية.. سوف يُسجَّل اسم الميرزا محمود على أنه عظيم من بُناة الأمة.. شيّد جماعةً متينة محبوكة النسج في مواجهة ظروف ثقيلة الوطأة، وجعل منها قوةً يُحسب حسابها" (جريدة "النور"، لاهور، ١٩٦٥/١١/١٦).

جزاه الله تعالى خير ما يجزي.. إماما في قومه، ومعلما ومربيا عن تلاميذه.. وأبا روحيا عن أبنائه وبناته، ونفعنا بعلمه ووعظه، وألحقنا به مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. اللهم صلّ على سيدنا محمد وآله وبارك وسلم إنك حميد مجيد.

الناشر

أسماء المراجع واختصاراتها

يستعمل بعض المفسرين حرفا أو مجموعة من الحروف اختصارا لاسم المرجع المستعمل، غير أن هذا لا يفيد القارئ كثيرا لأنه يضطر إلى الرجوع مرات ومرات إلى قائمة الاختصارات للتأكد من معنى الحرف المستعمل للدلالة على المرجع. وفي نفس الوقت يبدو أنه من غير المناسب كتابة اسم المرجع بأكمله في كل مرة يُذكر فيها. ولذلك اتّبعنا طريقا وسطا، وذكرنا اسما مختصرا للمرجع، فمثلا بدلا من كتابة اسم المرجع على النحو التالي: "البحر المحيط لابن حيّان"، اكتفينا بكتابة "البحر المحيط" أو "المحيط"، وبدلا من "السيرة النبوية للشيخ أبو محمد عبد المالك بن هشام" اكتفينا بكتابة "ابن هشام". وهذه الأسماء المختصرة تدل القارئ بسهولة على المرجع المقصود. أما المراجع التي تستعمل بكثرة فلم نذكر لها اختصارا، وبالنسبة لأسفار الكتاب المقدس، ذكرنا الصيغة التي يستعملها عادة أهل الكتاب، وهي ذكر اسم السِّفْر متبوعا برقم الإصحاح ثم رقم الفقرة أو الفقرات المستشهد بها. وفيما يلي قائمة بأسماء المراجع والاختصارات المستعملة، وقد راعينا كتابة اسم المرجع ومؤلفه كاملين.

كتب الحديث الشريف

الاسم المختصر	اسم المرجع والمؤلف كاملان
البخاري	صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري.
مسلم	صحيح مسلم، الحافظ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري.
الترمذي	جامع الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي.

أبو داود	سُنن أبي داود، الحافظ سليمان بن الأشعث أبو داود.
ابن ماجه	سُنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله بن ماجه القزويني.
المسند، أو مسند ابن حنبل	مسند أحمد بن حنبل، الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل.
النسائي	سُنن النسائي، الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي.
الموطأ	موطأ الإمام مالك بن أنس
البيْهقي	سُنن البيْهقي، أبو بكر أحمد بن حسين البيْهقي.
كنْز العمّال	كنْز العمال في سنن الأقوال والأفعال، الشيخ علاء الدين عليّ المتقي.
الدارقطني	سُنن الدارقطني، الحافظ علي بن عمر الدارقطني.
القسطلاني	إرشاد الساري، أحمد بن محمد الخاطب القسطلاني.
فتح الباري	فتح الباري، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن على العسقلاني.
الصغير	الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي
ابن عساكر	تاريخ ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر.
مردويه	مردويه، أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه.
الطحاوي	شرح معاني الأطهار، أبو جعفر الطحاوي.

المناوي	فيض القدير شرح الجامع الصغير، للإمام عبد الرؤوف المناوي.

مراجع تفسير القرآن المجيد

الطبري، أو ابن جرير	جامع البيان في تأويل آي القرآن، الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري.
ابن كثير	تفسير القرآن العظيم، أبو الفدا إسماعيل بن الكثير.
الكشّاف	الكشّاف عن غوامض التنْزيل، الإمام محمود بن عمر الزمخشري.
البحر المحيط	البحر المحيط، أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف الغرناطي، أبو حيان.
الدر المنثور	الدر المنثور، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي.
المعاني أو روح المعاني	روح المعاني، أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي.
البيضاوي	أنوار التنْزيل، القاضي نصير الدين أبو سعيد البيضاوي.
القدير أو فتح القدير	فتح القدير، محمد بن عليّ الشوكاني.
فتح أو فتح البيان	فتح البيان، أبو الطيب صدّيق بن حسن القنوجي.
الرازي	التفسير الكبير، الإمام أبو بكر فخر الدين الرازي.
البيان أو روح البيان	روح البيان، الشيخ إسماعيل حقّي.
التفسير أو التفسير الكبير	التفسير الكبير، حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد الخليفة الثاني للمسيح الموعود.

الثعلبي	الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الشيخ عبد الرحمن الثعلبي.
القرطبي	الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي.

المعاجم ودوائر المعارف والدوريات

بحار أو بحار الأنوار	مجمع بحار الأنوار، الشيخ محمد طاهر الغجراتي.
كليات أبي البقا	الكليات، أبو البقا الحسيني.
مفردات أو مفردات الراغب	المفردات في غرائب القرآن، الشيخ أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصفهاني.
لسان العرب	لسان العرب، الإمام أبو الفضل جمال الدين محمد بن مُكرّم.
تاج أو تاج العروس	تاج العروس، أبو الفيض سيد محمد مرتضى الحسيني.
لين أو موسوعة لين	المعجم العربي الإنجليزي E.W. Lane
القاموس	القاموس، الشيخ نصر أبو الوفا.
الصحاح	الصحاح، أبو النصر إسماعيل الجوْهري.
أقرب أو أقرب الموارد	أقرب الموارد، سعيد الخوري الشرتوني.
مصباح	المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي.
جسينياص	المعجم العبري الإنجليزي، جسينياص.
دائرة المعارف البريطانية	دائرة المعارف البريطانية، الطبعة ١٤.
دائرة معارف الأديان	دائرة معارف الأديان والأخلاق.
دائرة المعارف اليهودية	دائرة المعارف اليهودية.
دائر معارف الكتاب المقدس	دائرة معارف الكتاب المقدس.
دائرة معارف الإسلام	دائرة معارف الإسلام.

مجلة مقارنة الأديان	مجلة مقارنة الأديان.
كرودن	معجم كرودن لألفاظ العهد القديم والعهد الجديد والأبوكريفا.

مراجع التاريخ والجغرافيا

الطبري	تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.
ابن اسحاق	ابن اسحاق.
سيرة	سيرة خاتم النبيين، مرزا بشير أحمد.
موير	حياة محمد، السير وليام موير، ١٩٢٤.
الخلافة	الخلافة، قيامها وضعفها وسقوطها، للسير وليام موير.
ابن هشام	سيرة النبيّ، الشيخ أبو محمد عبد المالك بن هشام.
فتوح أو فتوح البلدان	فتوح البلدان، البلاذري.
الطبقات	الطبقات الكبرى، محمد بن سعد.
الخميس	تاريخ الخميس، الشيخ حسين بن محمد الديار البكري.
الزرقاني	شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، إمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني.
أُسُد الغابة	أُسُد الغابة في معرفة الصحابة، الحافظ أبو الحسن علي بن محمد.
زاد المعاد	زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية.
البلدان	معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي.

مروج الذهب	مروج الذهب والمدائن الجواهر، العلامة أبو الحسن علي بن حسين المسعودي.
الأثير	كامل ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، ابن الأثير.
مواهب	المواهب اللدنّية، شهاب الدين أحمد القسطلاني.
ابن خلدون	تاريخ الإمام ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربي.
السيرة الحلبية	السيرة الحلبية، عليّ بن برهان الدين الحلبي.

مراجع التصوّف والعقائد

فتوحات أو فتوحات مكية	فتوحات مكية، محيي الدين بن عربي.
عوارف	عوارف المعارف، أبو حفص عمر بن محمد.
الظاهري	داود الظاهري.
ملائكة الله	ملائكة الله، حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد، الخليفة الثاني للمسيح الموعود.

مراجع العلوم والفلسفة والأدب

المبرّد	كتاب الكامل، أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد.
المعلّقات	السبع المعلقات، القصائد السبع المشهورة لشعراء زمن ما قبل الإسلام.

مراجع قواعد اللغة

سيبويه	سيبويه، أبو البشْر عمرو سيبويه.
رايت	A grammar of the Arabic Language, by W. Wright, LL.D.

مراجع الفقه

المحلّى	المحلّى، الإمام أبو محمود عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم
ابن مردويه	ابن مردويه

المعـــــــاني

المختصر	المختصر المعاني، مسعود بن عمر، سعد التفتازاني.
المطوّل	المطوّل، مسعود بن عمر، سعد التفتازاني.

كتب المسيح الموعود عليه السلام

توضيح المرام	توضيح المرام.
مرآة كمالات الإسلام	مرآة كمالات الإسلام.
حقيقة الوحي	حقيقة الوحي.
إزالة الأوهام	إزالة الأوهام.
فلسفة تعاليم الإسلام	فلسفة تعاليم الإسلام.

أسفار الكتاب المقدس

التكوين	سفر التكوين
الخروج	سفر الخروج
لاويين	سفر اللاويين
العدد	سفر العدد
التثنية	سفر التثنية
نحميا	سفر نحميا
أشعياء	سفر إشعياء

حزقيال	سفر حزقيال
ملاخي	سفر ملاخي
متّى	إنجيل متّى
رؤيا	سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي

متنوعـــــات

المراجع التالية هي من بين الكتب الأخرى غير الموجودة في القائمة أعلاه، ولكن كانت ضمن المراجع التي استُخدمت في إعداد هذا التفسير، ولو أن هذه القائمة ليست جامعة شاملة:

أساس	حقيقة الأساس
الماوردي	الماوردي

إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء، حضرة شاه ولي الله

جريدة الحكم، قاديان.

جريدة الفضل، قاديان.

قبر المسيح عيسى ابن مريم، مفتي محمد صادق، قاديان.

الكتاب المقدس.

الزند–أفستا.

الدساتير.

الجماسبي، لجماساب، الخليفة الأول لزرادشت.

شرح السُنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي.

فصل الخطاب، مولانا مولوي نور الدين الخليفة الأول للمسيح الموعود.

خطبات أحمدية، للسير سيد أحمد خان.

Dictionary & Glossary of the Qur'an, by John Penrice.
Historians' History of the World.
History of the Arabs, by P. K. Hitti
Abbot's Life of Napoleon.
E. Renan's History of the People of Israel.

Josophus: History of the Jewish Nation.
Hutchinsons's History of the Nations.
The Apocrypha.
The Dawn of Conscience, by James Henry Breasted.
Moses and Monotheism, by Sigmund Freud.
Decline and Fall of the Roman Empire, by Edward Gibbon.
Biblical Cyclopaedia, by J. Eadie.
Diodorus Siculus (Translation by C.M. Oldfather, London, 1935).
The Pilgrimage, by Lieut. Burton.
The Jewish Foundation of Islam.
Scoffield Reference Bible.
Cyclopaedia of Biblical Literature (New York, 1877).
Leaves from Three Ancient Qur'ans, edited by Rev. A. Minganan, D.D.
Translation of the Targums, by J. W. Etheridge.
Capital Punishment in the Twentieth Century, by E. Roy Calvert.
Lalita Vistara (Sk.).
Buddha-Charita (Sk.).
The Making of Humanity, by Robert Briffault.
On Heros And Hero-Worship, by Thlmas Carlyle.
History of Palestine and the Jews, by John Kitto (London, 1844).
American Medical Journal.
Indo-Aryans, by R. Mitra, LL.D., C.I.E.
The Talmud (Selections by H. Polano).
Commentary, by C.J. Elliott, Lord Bisho[of Gloucester.
Commentaries on the Old and the New Testaments, published by Society for Promoting Christian Knowledge, London.
Decline of the West (Spengler).
A Study of History (Toynbee).
The Universe Surveyed (Harold Richards).
The Nature of the Universe (Fred Hoyle).
Commentary of the Bible (Bishop Barns).
Marvels & Mysteries of Science (Allison Hox).
Once to Sinai (H. F. Prescott).
Emotion as the Basis of Civilization.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عامة

الحاجة لترجمة جديدة وتفسير جديد

في تقديم هذه الترجمة الجديدة والتفسير الجديد للقرآن الكريم نجد من المناسب أن نشير إلى أن هذا ليس بمشروع تجاري، وليست أهميته الرئيسة كونه جديدا.

كان دافع جهودنا هو إيماننا بأن أولئك الذين لا يعرفون اللغة العربية هم في حاجة اليوم إلى ترجمة إنجليزية جديدة، بينما الجميع.. سواء كانوا يعرفون اللغة العربية أم لا.. فهُم في حاجة إلى تفسير جديد، وذلك لسببين:

أولا: ترجمات القرآن السابقة* وُضعت من قِبَل غير المسلمين، عدا بعض الترجمات باللغة الأردية واللغة الفارسية. ولم يكن لدى المترجمين غير المسلمين دراية كافية باللغة العربية، وأحيانا لم يكن لهم دراية بها على الإطلاق، فكانوا لذلك غير قادرين على تفهّم النص العربي للقرآن الكريم، ناهيك عن عدم تمكنهم من تقديم ترجمة صحيحة، فقد ترجم بعضهم عن ترجمات أخرى مما جعل المعنى أكثر بعدا عن الأصل من الترجمة الأولى.

ثانيا: لم تعتمد تفاسيرهم للكتاب العزيز على علم غزير باللغة العربية أو الشريعة الإسلامية، بل كانت مستقاة من تفاسير أقدم. ولما كان التفسير عبارة عن رأي الشخص المفسّر.. نجد أن قسما ما من التفسير قد يقبله شخص ما، بينما يقبل شخص آخر قسما آخر، وقد لا يقبل شخص ثالث أي قسم على

* كُتبت هذه المقدمة للترجمة الإنجليزية للقرآن الكريم لأول مرة عام ١٩٤٧ فكانت أول ترجمة إنجليزية ينشرها مسلم. (الناشر)

الإطلاق. والترجمة القائمة على التفسير قد تكون انعكاسا لرأي الشخص المترجم، ولا تكون بالضرورة المعنى الحقيقي للنص.

وإزاء هذا النقص في نقل المفهوم الصحيح للآيات الكريمة، واحتمال تحريف معاني كلماتها، تنشأ حاجة أساسية ملحة لترجمة جديدة من قبل علماء متمكنين من اللغة العربية، وعلى معرفة عميقة ودقيقة لمفاهيمها واصطلاحاتها.

الترجمة الحالية تفي بالحاجة

هذه الترجمة الحالية إلى اللغة الإنجليزية وُضعت لتفي بالغرض المقصود، وإن شاء الله سنتبعها مع مرور الوقت بترجمات أخرى مماثلة إلى لغات أخرى✪.

إن اللغة العربية لغة ذات منشأ فلسفي، وقد وُضعت كلماتها من أجل خدمة هدف معين، كما أن جذور المصادر المشتقة منها هذه الكلمات وُضعت في الأصل لكي تعبر عن العواطف الأساسية والمشاعر الأصيلة للتجارب الإنسانية. وبالتغيير الطفيف في هذه الكلمات المشتقة إذا بها تعطي مفاهيم واسعة المدى وفي نفس الوقت عميقة المغزى. وترجمة هذه الكلمات إلى لغة أخرى مع المحافظة على معانيها الصحيحة مهمة مستعصية، فالترجمة وحدها لا تكفي لنقل المفاهيم نقلا كاملا، ومن هنا كان لا بد من إضافة بعض الملاحظات التوضيحية لتفسير المدى الواسع للمعاني التي يحتملها النص. وترجمتنا هذه لا تخرج ولا تشذ عن معيار التراجم عامة، ولا نأمل أن تعبّر عن المعنى الكامل للنص العربي ولا حتى أن تقارِبه في شمول معانيه أو إحاطتها. وكل ما نرجوه هو أن نقدم أحد الوجوه لتلك المعاني أو أحد الاحتمالات لمضامينه، ولتعويض ذلك القصور والعجز الواضح في ترجمة النص، أضفنا عند الحاجة ملاحظات تشرح النقاط التي ركزنا

✪ بلغ عدد الترجمات التي نُشرت منذ نشر هذه الترجمة الإنجليزية ٦٢ لغة حتى اليوم. (الناشر)

الترجمة عليها، والسبب الذي حدانا إلى اتخاذ اتجاه ما فيها دون الآخر.

ولكن هذا الشرح لن يكون كافيا لتحقيق الفهم الواضح، فهو لا يوضّح المفهوم الكامل للنص العربي الذي تمت الترجمة منه.. ولكن يعوض إلى مدى بسيط عن بعض قصور الترجمة فقط.

وقد عدّدنا المعاني المختلفة التي يحتملها النص العربي تحت عنوان "شرح الكلمات". ومن هذه الكلمات نظمنا قاموسا تفسيرا أو معجما للمعاني التي تعتبر قياسية لا بالنسبة للمسلمين فقط بل لكل المتكلمين باللغة العربية من غير المسلمين. ونحن على ثقة بأن الدراسة اللغوية التي قدّمناها لهذه المواد ستلقي ضوءاً، وتعطي القارئ بصيرة نافذة لاستيعاب الترجمة، والاقتناع بأن المفهوم الذي نقلناه عن النص العربي ليس على سبيل التكهن، بل يستند إلى استعمال شائع في اللغة العربية ضمن الاصطلاحات المتعارف عليها. فالقارئ الذي لا يعرف العربية يجب أن يرتاح مطمئنا إلى أن أفكارنا المنقولة عن طريق الترجمة والتفسير.. على الرغم من أنها قد تكون غير مقبولة لدى البعض.. فإنها تعتمد على استعمالات لغوية لا ريب في صحتها، ولا يمكن معارضتها إلا إذا ظهرت بينات من آيات قرآنية أخرى أو استعمال لغوي عربي آخر يدل على النقيض.

سمات خاصة لهذا التفسير

بعد كل ما ذكرناه عمّا يختص بهذه الترجمة، تحدونا الرغبة لأن نقول شيئا عن تفسيرنا الملحق بها.

إن تفاسير القرآن السابقة كثيرة ومتعددة، والإضافة إليها لزيادة العدد يبدو أمرا ليس له مبرر، ولكن لدينا سبب وجيه للإقدام على التفسير عامة، ولتقديم هذا التفسير الجديد خاصة.

١- كما سبق وقلنا إن الكلمات العربية غنيّة بعدد كبير من المعاني وتشتمل على مفاهيم كثيرة، وبالتالي تحتمل العديد من التفاسير، ولكن في الترجمة لا

نستطيع سوى أن نقدم وجهة واحدة من جميع المعاني الممكنة، ولذلك اقتضت الضرورة أن نضيف تفسيرا ملحقا بالترجمة يشير إلى المعاني الأخرى التي يمكن أن يحتملها النص.

٢- إن جميع التفاسير الواسعة التي تتناول كل فكرة فتشرحها بالترتيب، وتتدرج من أول آية في القرآن الكريم إلى آخره.. هي جميعا باللغة العربية، ومن الواضح أن الشخص الذي لا يستطيع قراءة القرآن الكريم باللغة العربية لا يمكنه الاستفادة من هذه التفاسير.

٣- الملاحظات الملحقة بالترجمات التي قدّمها كُتّاب غير مسلمين قاصرة وغير مفيدة لسببين:

أ- لأنهم متأثرون بكتابات الأعداء المعارضين للإسلام.

ب- هؤلاء المترجمون لم يكن لهم دراية كافية باللغة العربية، وأحيانا لم يكن لهم بها أية دراية على الإطلاق، فلا قدرة لهم على قراءة التفاسير الكبيرة أو فهمها، لذلك نجد أن المترجمين الغربيين لم يذكروا هذه التفاسير الكبيرة كمصادر لهم، بل اكتفوا بذكر التفاسير الصغيرة والمتداولة منها، وإذا ما وجدت إشارة إلى التفاسير الكبيرة.. فهو ما تنقله التفاسير الصغيرة عنها.. وليست مأخوذة مباشرة من المصدر.

٤- إن فهم أي كتاب علمي يتدرج من فكرة إلى فكرة، ويُبنى المفهوم الكلي للكتاب في تسلسل منطقي. فلا تكفي معرفة اللغة التي كُتب بها الكتاب والاطلاع والتفهم للتفاسير والتعليقات التي وضعها اللغويون المتخصصون والعلماء المتضلعون بموضوع الكتاب.. ولكنها أيضا تحتاج إلى دراسة دقيقة للكتاب نفسه، وفهم وحس دقيق للأسلوب والمصطلحات والمبادئ الأساسية التي يقوم عليها الكتاب، والتي يستمد أفكاره ومعانيه من مفاهيمها. وأولئك الذين يحاولون ترجمة الكتاب الكريم بدون دراسته لن يجدوا مساعدة ذات قيمة من التفاسير. ويبدو أن المترجمين والمفسرين الأوروبيين للقرآن الكريم لم يتعمّقوا

في الدراسة الكافية له، فلا عجب أن تطوف تعليقاتهم حول حدود السخافة وغير المعقول.

٥- في كل عصر تقوم علوم جديدة يتعرض على ضوئها كل كتاب يحمل رسالة سماوية إلى انتقادات جديدة، فإما أن تثبت تعاليم الكتاب تجاهها، وتبرز قيمتها وجدارتها، أو يتعالى الشك فيها إلى ذروة أعلى. والقرآن الكريم لا يشذ عن هذه القاعدة. ومن هنا كان لا بد من وجود تفسير جديد على ضوء العلوم الحديثة، وبدونه لا نستطيع أن نحكم.. إلى أي مدى لا تزال تعاليمه فعالة ونافعة، وإلى أي حد تجلّت هدايتها على ضوء علوم العصر؟ وهل فاق اليوم رقمه القياسي في الماضي في برهان فعالية هذه التعاليم.

وعندما دُوّنت التفاسير القرآنية الأولى، لم يكن الكتاب المقدس موجودا باللغة العربية، و لم توجد منه نسخة واحدة كاملة. والمقتطفات المتناثرة منه التي سبق ترجمتها لم تكن في متناول مفسري القرآن، فعندما تدعو الحاجة لمناقشة موضع من القرآن فيه شواهد من الكتاب المقدس أو تاريخ العهد الموسوي، كانوا مضطرين للاعتماد على الأقوال السائدة أو على حدسهم الخاص وعلى ظنهم، فلا حاجة للقول بأن تعليقاتهم في ذلك المجال كانت مخيّبة للآمال، وأحيانا كانت غير معقولة بتاتا. وقد اعتبر الدارسون الأوروبيون أن أخطاء المفسرين هي أخطاء القرآن، وبالتالي اعتبروا أن القرآن الكريم، والعياذ بالله، هو الخارج عن المعقول، وأسقطوا من حسبانهم أن هؤلاء المفسرين لم يعرفوا الكتاب المقدس، وإنما اعتمدوا على الشائع من الأقوال في زمنهم، وعلى ما سمعوه من علماء اليهود والنصارى، فأخذوه على علاته دون أن يخامرهم الشك في أنه في الواقع مأخوذ من الكتب التي تحتوي على رواياتهم الموروثة أو عن محض تخيّلاتهم الخاطئة، وأنه مخالف لما ورد في الكتاب المقدس. وقد أبدى المفسرون في هذا النقل الخاطئ سذاجة وعدم الأخذ بواجب الحيطة والدقة، ولكن علماء اليهود والنصارى الذين زودوا المفسرين بهذه المنقولات الخاطئة خانوا الأمانة العلمية وصدق

المنهج. وعلى الكُتّاب الأوروبيين اليوم أن ينحوا باللائمة على سوء طوية أجدادهم بدلا من أن يصفوا المفسرين المسلمين بالسخافة والهراء.

ولكن الأمر يختلف اليوم، فعلوم الكتاب المقدس أصبحت في متناول الجميع، والمخطوطات الأصلية والعربية منها واليونانية واللاتينية والعبرية يستطيع العلماء المسلمون الاطلاع عليها جميعا، ويمكن بذلك إلقاء ضوء جديد على كثير من جوانب القرآن التي تستشهد بحوادث من الإنجيل أو العهد الموسوي.

٦- حتى عصرنا الحاضر، كانت الخلافات والتناقضات بين ديانة وأخرى قليلا ما تقوم على المبادئ الأخلاقية والمثاليات الاجتماعية، بينما كانت كثيرا ما تقوم على العقائد الدينية والشعائر التعبدية. ولذلك فإن التعاليم القرآنية الخاصة بالأخلاق والتربية الأخلاقية والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لم تلق أبدا الدراسة الوافية، بينما بدأ العالم اليوم يزداد اهتماما بهذه الأمور العملية. ومن هنا كانت الحاجة إلى تفسير جديد يتناول بشكل أوفى هذه التعاليمَ العَملية للقرآن المجيد.

٧- لما كان القرآن الكريم كتابا سماويا فإنه يحتوي على نبوءات غيبية. ولا يمكن بطبيعة الحال الخوض في بحث تلك النبوءات قبل أن تتحقق. ولذلك تقوم الحاجة إلى وجود تفسير جديد يتناول النبوءات الغيبية في القرآن التي تحققت حتى الآن والتي تقوم كجزء هام من الأدلة الرئيسة على أن القرآن المجيد كتاب منَزّل من عند الله تعالى.

٨- يتناول القرآن المجيد بالبحث مختلف معتقدات الأديان الأخرى، فيحتفظ بالصحيح منها، ويبين ضعف وخطأ ما أُدخل عليها. ولم يكن المفسرون الأوائل على علم بحقيقة هذه الأديان ومبادئها، ولذلك لم يكونوا في موقف يقدِّرون فيه ما كشف القرآن منها، أو يستوعبون بفهم كامل ما ورد فيه بصددها. واليوم خرجت جميع هذه العقائد الغامضة إلى النور، وبالتالي أصبحت التعاليم القرآنية بصددها واضحة المعالم، وعلى ذلك صارت هناك حاجة إلى وجود تفسير جديد

لتعويض النقص في هذا الصدد الموجود في التفاسير القديمة.

لكل هذه الأسباب نرى أن هذه الترجمة الإنجليزية، وهذا التفسير، يلبي حاجة حقيقية ملحّة، وبتقديمنا إياه نشعر أننا قد قمنا بتأدية واجب كبير علينا. ونأمل أن الذين يقرؤون هذا التفسير باهتمام ودون تعصّب، سيشعرون أن حواسّهم قد شُحّذت لتشاهد الإسلام من منظور جديد، ونأمل أيضا أن يقتنعوا بأن الإسلام على حقيقته لا غبار عليه، ولا يعتريه مأخذ، وليس محمّلا بالأخطاء كما يتصوّره المستشرقون الذين أنتجتهم حضارة أهل الغرب اليوم، بل هو على النقيض، روضة روحيّة تفوح بالرياحين، مفتّحة الأبواب، تستقبل زائريها بالعبق الزكي والجمال الأخّاذ، وتتيح للمتمعّن جنة الخلد التي بشّر بها جميع الرسل والأنبياء وأصحاب الشرائع والأديان.

وعندما نزل الوحي بالقرآن المجيد منذ أربعة عشر قرنا مضت، كانت هناك في العالم أديان كثيرة وكتب عقائدية متعدّدة. فبالقرب من الجزيرة العربية نفسها كان هناك من يؤمن بالكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وكثير من العرب اعتنقوا المسيحية أو أكنّوا في قلوبهم ميْلا إليها، وقليل منهم من اعتنق اليهودية، وكان أحدهم كعب بن الأشرف، أحد زعماء المدينة ومن أعدَى أعداء الإسلام. وكان أبوه، الذي ينحدر من قبيلة طيّ، يميل إلى اليهودية حتى إن اليهودي أبا رافع بن أبي عقيق أعطاه ابنته زوجة له، فولدت له كعبا بن الأشرف (الخميس ج١).

وفي مكة نفسها، كان بعض أهلها يميل إلى المسيحية بالإضافة إلى بعض العبيد من المسيحيين. كان ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة رضي الله عنها – وهي الزوجة الأولى للرسول الكريم ﷺ – كان قد اعتنق المسيحية. وكانت له دراية باللغة العبرية، فكان ينقل من الإنجيل إلى اللغة العربية. فقد ورد في الصفحة الثالثة من الجزء الأول من صحيح البخاري:

"كان امْرَأً تنصّرَ في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من

الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب".

وفي الشمال الشرقي من البلاد العربية، في إيران المسلمة اليوم، كان للفرس كتاب ونبيّ مرسل، وبرغم أن كتابهم "الزندفستا" عانى تحريفات وتبديلات فاسدة على يد أتباعه، فانحرف عن تعاليمه الأصلية، ومع ذلك فقد آمن بهذه الديانة مئات الألوف في ذلك الوقت، ودعمتها دولة فارس بعظمتها وقوتها.

وفي الهند، كان كتاب "الفيدا"* قد شغف القلوب لألوف من السنين، وكان هناك أيضا "الجيتا" لـ "سري كرشنا". وأيضا كانت هناك التعاليم البوذية، وقامت الكونفوشيوسية في الصين، إلا أن نفوذ البوذية ظل في تزايد حتى تغلبت عليها بالتدريج.

الحاجة الماسّة للقرآن المجيد

هل كان العالم في حاجة إلى كتاب سماوي آخر في وجود كل هذه الكتب والتعاليم؟ هذا هو السؤال الذي لا بد أن يخطر لكل من يبدأ في دراسة القرآن المجيد، والجواب عليه يحتمل وجوها كثيرة، وأسئلة عديدة.

السؤال الأول: أليست الخلافات القائمة بين الأديان سببا كافيا يستدعي مجيء دين جديد ليوحّد بينها جميعا؟

السؤال الثاني: ألم يمر العقل بمراحل من التطور كالتي مرّ بها الجسم البشري؟ وكما تكامل التطور الجسدي وبلغ غايته، أليس من المقدّر للملكات العقلية والروحية أن تنمو وتتكامل حتى تبلغ الغاية التي خلق الله الإنسان لأجلها؟

---

* الفيدا veda : وهي كلمة سنسكريتية معناها الحكمة والمعرفة. والفيدا كتاب مقدس للهندوس ويتألف من أربعة كتب هي: ١- رج فيدا أو ريك فيدا Rig-Veda ٢- ياجور فيدا Yajur veda ٣- ساما فيدا Sama veda ٤- أثرفا فيدا Atharva veda.

وكل واحد من هذه الفيدات يشتمل على أربعة أجزاء هي: سَمْهِتا والبراهمن وآرانياك وآبا نيشادات. (الناشر)

السؤال الثالث: ألم ينل التحريف من الكتب السابقة بشكل واسع، حتى إن الحاجة إلى كتاب جديد أصبحت ضرورة عامّة تحققت في القرآن المجيد؟

السؤال الرابع: هل الديانات السابقة كانت تعتبر رسالتها رسالة نهائية لا تأتي بعدها رسالة أخرى على الإطلاق؟ ألم يؤمن أتباعها باستمرار التقدم الروحاني؟ ألم تؤكد هذه الديانات لأتباعها بصورة مستمرة وتبشرهم بمجيء رسالة سماوية تجمع الناس قاطبة، وتوجههم إلى الغاية الأساسية التي خلقهم الله تعالى من أجلها؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة الأربعة هو جواب التساؤل عن الحاجة إلى القرآن المجيد مع وجود الكتب والرسالات السابقة.

ونشرع الآن في تقديم الإجابة على هذه الأسئلة كل على حدة.

السؤال الأول هو: أليست الخلافات القائمة بين الأديان سببا كافيا يستدعي مجيء دين جديد ليوحّد بينها جميعا؟

إله الكتاب المقدس إله قومي

للأديان غاية ذات شعبتين:

١- أن تمكِّن الإنسان من لقاء ربه.

٢- أن تعلِّمه واجباته بما يتعلق بأخيه الإنسان.

وعند ظهور الإسلام لم تكن الأديان الموجودة مختلفة ومتباينة بعضها مع بعض فقط، بل كانت متناقضة ومتعارضة. فالكتاب المقدس لم يتحدث عن إله البشر جميعا، بل تكلم عن إله بني إسرائيل. ونقرأ المرة تلو المرة، والفقرة بعد الفقرة:

"فقال داود لأبيجايل. مبارك الرب إلهُ إسرائيل الذي أرسلك لاستقبالي." (سفر صموئيل الأول، الإصحاح ٢٥: الفقرة ٣٢)

"مبارك الرب إله إسرائيل الذي أعطاني اليوم من يجلس على كرسيي وعيناي تبصران." (سفر أخبار الملوك الأول، الإصحاح ١: الفقرة ٤٨)

"مبارك الرب إله إسرائيل من الأزل وإلى الأبد. فقال كل الشعب: آمين، وسبّحوا الرب." (أخبار الأيام الأول ١٦: ٣٦)

"وقال مبارك الرب إله إسرائيل الذي كلم بفمه داود أبي وأكمل بيديه قائلا..." (أخبار الأيام الثاني ٦: ٤)

"تبارك الرب الإله إله إسرائيل الصانع المعجزات وحده." (المزامير ٧٢: ١٨)

وكان يسوع يعتبر نفسه أيضا معلما لبني إسرائيل فقط، فإذا قصده من لا ينتمي إلى بني إسرائيل صرفه عنه. إذ نقرأ في إنجيل متى الإصحاح ١٥: الفقرة ٢١- ٢٦ ما يلي:

"ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا. وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة: ارحمني يا سيد، يا ابن داود. ابنتي مجنونة جدا. فلم يجبها بكلمة. فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: اصرفْها لأنها تصيح وراءنا. فأجاب وقال: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة. قالت وسجدت له قائلة: يا سيد أَعِنِّي. فأجاب وقال: ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويُطرَح للكلاب".

وعلّم يسوع أيضا تلاميذه قائلا:

"لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا دركم قدّام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزّقكم." (إنجيل متى، الإصحاح ٧: ٦)

الفيدا (كتاب الهندوس) كتاب قومي أيضا

إن قراءة الفيدا أصبحت من خصوصيات الطبقات العليا المتميزة من بين أتباع

الفيدا ومقتصرة عليها حتى قال غوتاما ريشي◈:

"إذا حدث أن سمع الشودرا✷ شيئًا من الفيدا، فمن واجب الملك أن يصبّ في أذنيه مصهور الرصاص والشمع، وإذا لفَظ الشودرا ونطق بفقرات من الفيدا، فعلى الملك أن يقطع لسانه، وإذا حاول أن يقرأ الفيدا فعلى الملك أن يقطع جسده إربًا." (غوتاما سميريتي:١٢)

كذلك فإن تعاليم الفيدا حول الخصوم متطرفة ووحشية. ففي "أثرفا-فيدا" يؤمر المحافظون أن يضعوا من لا يؤمنون بالفيدا في الأصفاد وأن ينهبوا بيوتهم، إذ جاء ما يلي:

"بِسطوةِ الأسد اجمَعْ إليك كل ما يملكون، وببطشة النمر شرِّدْ خصومك واطردْهم من الأرض، أنت السيد الأوحد، والقائد، والمتحالف مع "إندرا"، اظفرْ بأعدائك واهزمهم، وما لهم فهو لك" (أثارفا-فيدا ٤، ٢٢: ٧).

وعلى نفس النمط نجد أن صلوات الفيدا التي توجه إلى الشمس والقمر وإندرا وحتى العشب والكلأ تطلب إبادة "الدارميين" الذين لا يؤمنون بالفيدا. وهكذا نقرأ:

◈ كلمة "الريشي" يطلقونها على عالم دين هندوسي أو ناسك على شاكلة الرهبان في المسيحية، وقد أخذت هذه الكلمة في الأصل من أربعة أشخاص نزل عليهم "الفيدا" كتاب الهندوس في بداية الكون حسب اعتقادهم، وكل واحد منهم يسمى "ريشي". (الناشر)

✷ ينقسم أتباع الديانة الهندوسية على أربعة طبقات هي: ١- البراهمة: وهم الذين خلقهم الإله براهما من فمه: منهم المعلم والكاهن، والقاضي، ولهم يلجأ الجميع في حالات الزواج والوفاة، ولا يجوز تقديم القرابين إلا في حضرتهم. ٢- الكاشتر: وهم الذين خلقهم الإله من ذراعيه: يتعلمون ويقدمون القرابين ويحملون السلاح للدفاع. ٣- الويش: وهم الذين خلقهم الإله من فخذه: يزرعون ويتاجرون ويجمعون المال، وينفقون على المعاهد الدينية. ٤- الشودر: وهم الذين خلقهم الإله من رجليه، وهم يشكلون طبقة المنبوذين، وعملهم مقصور على خدمة الطوائف الثلاث السابقة الشريفة ويمتهنون المهن الحقيرة والقذرة. (الناشر)

"اطمسْ حواسّ أعدائنا، وانتشلْ أجسادهم واذهب بها يا "أبفا". انقضّ عليهم وأَشعِلْ في قلوبهم النار واحرقْهم، واتركْ خصومنا يقيمون في ظلام أبدي."

"اشحذ سهامك وجهّز سلاحك المرهف، يا إندرا اسحق الأعداء وبدّد أولئك الذين يكرهوننا" (ساما- فيدا، القسم الثاني، الجزء التاسع، ٣: ٩)

"لكم العمى يا أعدائي، فتكونوا كالأفاعي التي بلا رؤوس. ليت إندرا يقتل أحسن من فيكم بعد أن تقطع دابركم نيران آغني" (ساما- فيدا، القسم الثاني ج٩، ٣: ٨)

"اخترقْ صفوفهم يا دربا. شوِّهْ ومثِّلْ بأعدائي وقلوب خصومي. قم بعزمك واهدم ودقّ رؤوسهم." (أثارفا- فيدا الجزء ١٩، ٢٩: ٤)

ونجد أيضا:

"لا تعقد أية مناقشات مع الدارميين الذين لا يؤمنون بالفيدا" (غوتاما دارم سوت. ٥)

"إذا انتقد أحد الفيدا فاطرده خارج البلاد، وأصدر عليه حكما مؤبّدا" (مانيو دارم شاسترا).

والكونفوشيوسية والزرادشتية أيضا أديان قومية، لم توجها رسالتيهما إلى العالم أجمع، ولا حاولتا نشر تعاليمهما على مستوى واسع. وكما اعتبرت الهندوسية الهند "أرض الله" المفضّلة، كذلك اعتبرت الكونفوشيوسية الصين أرض الله المختارة.

ولا يوجد سوى طريقين اثنين لحل هذا الانقسام وإزالة الخلاف بين الأديان:

١- إما أن نعتبر أن هناك آلهة متعدّدة، أو إذا كان الله واحدا فيجب أن نثبت وحدانيته.

٢- وإما أن تُستبدل كل هذه الأديان المتناقضة بدين واحد.

الله ﷻ واحدٌ أحد

لقد تقدم العالم اليوم. ولا يستدعي الأمر أن نرهق أنفسنا ببحث موضوع أنه إذا كان للكون خالق فلا بد أن يكون واحدا ولا يمكن إلا أن يكون واحدا. إن إله بني إسرائيل وإله الهندوس وإله الصين وإله إيران ليسوا آلهة متعددة، ولا إله العرب أو أفغانستان أو أوروبا يختلف عن إله المغول أو إله الساميين. إن الله واحد، كما أن القانون الذي يخضع له الكون قانون واحد، والنظام الذي يربط كل حلقة منه بالحلقة الأخرى نظام واحد. إن العلم يقوم على أن جميع التغييرات الطبيعية والميكانيكية صور لقانون واحد. وهناك مبدأ واحد يقوم عليه العالم وهو "الحركة"، كما يؤكد على ذلك الفلاسفة الماديون، أو أن له خالقا واحدا. وإذا كان هذا هو الحق، فقولنا إله إسرائيل، وإله العرب، وإله الهندوس، لا معنى له. ولكن إذا كان الله واحدا، فلماذا كل هذه الأديان المختلفة؟ هل هي من نتاج الفكر البشري؟ هل هي لأن كل أمّة كانت تعبد الإله الخاص بها؟ وإذا كانت هذه الأديان ليست من نتاج الفكر البشري، فلماذا هذا الاختلاف بين دين ودين؟ وإن كان هناك من سبب لهذا الاختلاف، فهل هناك من مبرر لاستمرار الخلاف؟

الدين ليس من نتاج مخيّلة البشر

أما عن تساؤل ما إذا كانت الأديان من نتاج الخيال البشري فالجواب بكل تأكيد أنها ليست كذلك، وذلك لأسباب عدة.

إن الأديان الموجودة في العالم تكشف عن سمات متميّزة:

أوّلاً: باعتبار جميع المقاييس المتعارف عليها نجد أن مؤسسي هذه الأديان كانوا رجالا لا حول لهم ولا قوة، ولم تكن لديهم الوسائل المادية من قوة أو مكانة، وقد بلّغوا رسالتهم للصغير والكبير، وبمرور الوقت نجد أنهم قد نهضوا مع

أتباعهم من مكانة متواضعة إلى أعلى المقامات في العالم. وهذا يدل على أن قوة عظيمة كانت تؤيدهم وتدعمهم.

ثانيا: جميع مؤسسي الأديان كانوا رجالا شرفاء، ينالون احترام الناس وإكبارهم، لطهارة حياتهم ونقاء أخلاقهم، حتى من أولئك الذين انقلبوا أعداء لهم بعد أن أعلنوا عن رسالتهم. ومن غير المعقول أن هؤلاء الذين لم يَكْذبوا على الناس قط، قد تحوّلوا فجأة ليكذبوا على الله تعالى. إن الإقرار العام بحسن أخلاقهم وطهارة حياتهم قبل إعلان دعوتهم لهو دليل على صدق دعواهم. والقرآن المجيد يؤكد هذه الحقيقة كما يقول:

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس:١٧)

إن هذه الآية تمثّل النبي الكريم ﷺ وهو يقول لمعارضيه: إنني قد لبثت فيكم وعشت بينكم عمرا، وقد أتيحت لكم الفرصة كي تطلعوا على كل سوانحي، وإنني أعتبركم شهداء على صدقي. فكيف تجرؤون على الظن أنني سأنقلب بين عشية وضحاها لكي أصبح كاذبا على الله تعالى؟

كذلك يقول القرآن الكريم:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (آل عمران:١٦٥)

كما تم التأكيد على نفس النقطة في الآية الكريمة:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ (التوبة:١٢٨)

وهذا يعني أن الرسول المرسل إليكم هو واحد منكم، وهو ليس شخصًا لا تعرفونه، وإنما هو شخص تعرفونه جيدا، وقد شهدتم بأنفسكم على نقاء سيرته وطهارتها.

وقد قدم القرآن الكريم نفس الدليل أيضا وأكد عليه بخصوص أنبياء آخرين غير النبي العظيم ﷺ. فقد ظهر هؤلاء الأنبياء بين أقوامهم، وليس

مقبولا منهم أن يقولوا إن هؤلاء الأنبياء الذين جاءونا لم نكن نعرفهم معرفة جيدة كافية. فعندما يُلقى أهل النار في جهنم فإن الله سيخاطبهم قائلا:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ (الزمر:٧٢)

وأيضا:

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ (الأنعام:١٣١)

وفي مكان آخر نقرأ قوله تعالى:

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (المؤمنون:٣٣)

وأيضا:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ (النحل:٨٥)

وكلمة ﴿شَهِيدًا﴾ في هذه الآية تعني نبيا. ويوم القيامة سوف يستدل الأنبياء بأنفسهم كبرهان مشهود على ما حققه وحي الله لهم. وسوف يصيب الله تعالى المكذبين بالخجل ويقول لهم: انظروا إلى أنبيائي وما وصلوا إليه، وانظروا إلى ما قادكم إليه تكذيبكم. إن جميع الأنبياء، كما ذكر القرآن المجيد، قد بُعثوا من بين أقوامهم، وهم يعلمون جيدا الظروف التي نشأ فيها كل نبي وكيف تفاعل كل نبي مع هذه الظروف. وعلى هذا، فإن كل قوم يكونون شهداء على طهارة النبي الذي بُعث فيهم ونقائه. وبالإضافة، لدينا أيضا الآيات القرآنية التالية:

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ (الأعراف:٦٦)

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ (الأعراف:٧٤)

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ (الأعراف:٨٦)

وتدل الآيات الثلاث على أن هودا وصالحا وشعيبا كانوا على علاقة وثيقة بأقوامهم، وبالتالي كان أولئك الأقوام يعرفون كل شيء عن أنبيائهم. ونقرأ في القرآن المجيد ما قاله قوم صالح عندما أعلن رسالته، فقالوا له:

﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَآ أَنْ نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ (هود:٦٣)

وبالمثل قال قوم شعيب له:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَآءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود:٨٨)

ويتّضح من هذه الآيات الكريمة أن الرسول ﷺ نفسه، كما هو الحال مع هود وصالح وشعيب وبقية الأنبياء عليهم صلوات الله، لم يكونوا نكرات غير معروفين في أقوامهم. لقد كان كل قوم يعلمون جيدا أية حياة كان يعيشها هؤلاء الأنبياء، ويعلمون جيدا أنهم كانوا أشخاصا شرفاء صادقين، يخشون الله تعالى ويتقونه حق تقاته. ولم يحدث أبدا أن قيل عن واحد منهم إنه نكرة كذّاب مجهول الهوية، يتربص الدوائر بقومه.

ثالثا: إن مؤسسي الأديان لم تكن لديهم القوى ولا الإمكانيات التي عادة ما تتوفر في القيادة الناجحة، ولم يكونوا من ذوي الخبرة بفنون وثقافات عصرهم. ومع ذلك فإن التعاليم التي أتَوْا بها كانت أكثر تقدما من زمانهم، وكانت ملائمة تماما لمجتمعاتهم ومناسبة للزمن الذي جاءت فيه. ولما اتّبع الناس تلك التعاليم بلغوا آفاقا عالية من الحضارة والثقافة، وظلوا يقرعون أبواب المجد لقرون طويلة. إن النبي الصادق وحده هو الذي يستطيع أن يحقق هذا. وإنه لمن غير المعقول أن رجلا يعوزه تحقيق إنجازات عادية، يتحوّل فجأة بمجرد الكذب والافتراء على الله تعالى ليحقق هذه الإنجازات الرائعة، وتشتد قوته ونفوذه حتى إن التعاليم التي أتى بها تظهر وتتفوق على التعاليم السائدة في زمنه. إن كل هذا ما كان يمكن أن يتحقق بغير تأييد من الله القوي القدير.

التعاليم المنَزّلة تتناقض دائما مع الأفكار السائدة

رابعا: حينما ننظر في التعاليم التي أتى بها هؤلاء الأنبياء نجد أنها كانت تتناقض دائما مع الأفكار السائدة. ولو كانت تعاليمهم تتفق مع ما يميل إليه الناس، لكان من الممكن أن يقال أن هؤلاء الأنبياء قد عبّروا فقط عن هذه الميول السائدة. ولكن كانت تعاليمهم تختلف تماما عما وجدوه سائدًا في زمنهم، ومن ثم انفجر صراع فكري رهيب، حتى بدا أن البلد كله قد اشتعل لهيبا. ومع ذلك فإن أولئك الذين قاموا ينكرون ويعارضون بشدة تعاليم الأنبياء اضطروا في نهاية الأمر إلى الخضوع والتسليم بقيمتها. وهذا يدل أيضا على أن هؤلاء الأنبياء لم يكونوا من نتاج زمنهم، وإنما كانوا معلمين ومجددين وأنبياء، تماما كما أعلنوا عن أنفسهم.

ففي زمن موسى عليه السلام، كم كانت دعوته إلى إله واحد تبدو غريبة. وكم كان شاذا غريبا أن يهتم المسيح عليه السلام بالأمور الروحية في زمن غلبت فيه المادية على دنيا اليهود الذين خضعوا لتأثير روما الفاسد. وكم كانت رسالته التي تدعو إلى العفو عن الأعداء تبدو في غير محلها وزمانها بالنسبة لقوم كانوا يعانون الأمرّين من استبداد الجنود الرومانيين، وينتهزون فرصة مواتية للانتقام؟ وكم كانت تعاليم كرشنا تبدو غريبة وقد دعا إلى الحرب من جهة، ومن جهة أخرى دعا إلى الانقطاع عن العالم المادي من أجل تنمية الروح؟ ولا شك أن تعاليم زرادشت التي شملت جميع مناحي الحياة، كانت تتصادم تماما مع التحرر من جميع القيود، الذي كان سائدا في زمنه. وحين جاء الرسول ﷺ في بلاد العرب ودعا اليهود والنصارى، كم كان غريبا عليهم أن تأتي هداية من السماء إلى أقوام غيرهم. ثم إنه دعا أهل مكة الذين كانوا يعبدون الأصنام إلى عبادة الله وحده، وأن الناس جميعا سواسية، فكم كانت تعاليمه تبدو غريبة على قوم كانوا يعتقدون اعتقادا راسخا بتفوّق عرقهم. إن تبصير السكارى والمقامرين المدمنين

بشرور أعمالهم، وانتقاد كل ما يؤمنون به تقريبا وكل ما يفعلونه، وهدايتهم إلى تعاليم جديدة، ثم توَقُّع النجاح بعد ذلك، كان يُعَدّ ضربا من المحال. إذ كان يبدو كمن يحاول السباحة ضد تيار عنيف جارف، وهو أمر يفوق تماما القدرات البشرية.

خامسا: لقد جاء مؤسسو الأديان جميعا بآيات بينات ومعجزات خارقة، وأعلن كل منهم منذ البداية أن التعاليم التي جاء بها سوف تعلو وتنتصر، وأن أولئك الذين يسعون لهدم هذه التعاليم سوف ينالهم هم الدمار والتبار. لقد كان الأنبياء ضعفاء، لا حيلة لهم، وكانت تعاليمهم تتناقض مع العقائد الراسخة في أذهان الناس، وتخالف العادات التي تمكنت منهم، وتسببت هذه التعاليم في إثارة زوبعة عاتية من المعارضة بين أقوامهم؛ ومع ذلك فقد نجحوا في مهمتهم، وتحقق كل ما سبق أن أعلنوا أنه سوف يتحقق. فلماذا تحققت نبوءاتهم ولِمَ وقع ما وعدوا بحدوثه؟ ولا شك أن هناك الكثيرين من القادة والزعماء المستبدين قد حققوا ما يبدو أنه نجاح وانتصار مماثل، ولكن القضية ليست في تحقيق النجاح والانتصار، بل إنه النجاح الذي سبق إعلانه، إنه النجاح المنسوب إلى الله تعالى والذي أعلن النبي عن حتميّة تحقّقه منذ البداية، إنه النجاح الذي وضع النبيُّ كلَّ سمعته وشرفه رهنَ تحقُّقه، والذي تحقق بالرغم من أسوأ أنواع المعارضة الشديدة وأشد أشكال المقاومة المستميتة. لقد صعد نابليون وهتلر♦ وجانكيز خان عاليا من بدايات مغمورة، ولكنهم لم يتصدوا بالمعارضة للتيارات الفكرية السائدة في زمنهم، ولا هم أعلنوا أن الله تعالى قد وعدهم بالنصر بالرغم من المعارضة الشديدة لتعاليمهم، بل إنهم لم يلقوا معارضة عاصفة من أقوامهم. إن الأهداف التي أرادوا تحقيقها كانت أهدافا مختلفة، ولو أنهم لقوا هزيمةً لما خسروا شيئا، بل لظلوا أبطالا في نظر شعوبهم. ولكن كان الأمر يختلف بالنسبة لموسى وعيسى

♦ كُتب هذا الكلام عندما كان هتلر يُعد بطلا قوميا في ألمانيا. (الناشر)

وكرشنا وزرادشت والرسول الأعظم – عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام. صحيح أنهم لم يخفقوا في مهمّتهم، ولكن لو كانوا قد فشلوا لكانوا خسروا كل شيء، فإن أقوامهم ما كانت لتعتبرهم قادةً عظامًا، وإنما كانوا سيعتبرونهم كذّابين دجّالين مثيرين للفتنة والفساد. وما كان التاريخ ليُفرد لهم مكانا مرموقا بين صفحاته، وما كان جزاؤهم سوى الخزي والمهانة الأبدية. فهناك فرق شاسع بينهم وبين رجال مثل نابليون وهتلر، فرق هائل حقا ذلك الذي بين نجاح الأنبياء وهؤلاء القادة. فليس هناك الكثير ممن يحملون التقدير والإجلال والاحترام لنابليون أو لهتلر أو لجانكيز خان. إن البعض يرون فيهم أبطالا ويُعجبون كثيرا بأعمالهم، ولكن هل يحملون لهم إخلاصا وولاء، ويحرصون على طاعتهم واتّباع أوامرهم؟ إن الولاء والطاعة من نصيب الأنبياء مثل موسى وعيسى وكرشنا وزرادشت ورسول الإسلام ﷺ. وهناك الملايين من الناس عبر الأجيال والعصور كانوا يحرصون على طاعة هؤلاء، ونفّذوا ما أمروهم به، وحرّموا على أنفسهم ما أمرهم هؤلاء الأنبياء أن يتجنّبوه، بل إن أفكارهم وكلامهم وأعمالهم كانت كلها خاضعة ومحكومة بما أمر به هؤلاء الأنبياء. فهل ينال الأبطال القوميون ذرّة من ذلك الولاء والإجلال الذي يناله هؤلاء الأنبياء؟ إن هذا يبين أن هؤلاء الأنبياء كانوا فعلا من عند الله تعالى، وأن ما جاءوا به من تعاليم كانت بالفعل من لدن الله تعالى.

لماذا تختلف تعاليم الأديان

والسؤال الذي يرد هنا هو إذا كان هؤلاء الأنبياء جميعا من عند الله تعالى، فلماذا تختلف تعاليمهم اختلافا كبيرا؟ هل يبعث الله تعالى بتعاليم مختلفة في الأوقات المختلفة؟ إننا نجد أن الأشخاص العاديين يحرصون على ألا تكون أقوالهم متناقضة تختلف بمرور الوقت. والجواب على هذا السؤال أنه إذا استمرت الظروف والأحوال على ما هي عليه، يكون من المنافي للعقل والمنطق أن تختلف

التعاليم. ولكن عندما تتغير الظروف، يكون من جوهر الحكمة أن تتغير التعاليم أيضا لتتناسب مع الواقع. ففي زمن آدم عليه السلام كان يبدو أن الناس يعيشون سويا في مكان واحد من العالم، فكان من المناسب أن تكفيهم تعاليم واحدة. ولعلهم ظلوا على هذا المنوال إلى زمن نوح عليه السلام. وحسب ما جاء في الكتاب المقدس، ظل الناس يعيشون في مكان واحد إلى زمن البابليين. ورغم أن الكتاب المقدس ليس بكتاب تاريخ، إلا أن هناك من الدلائل ما يؤيد هذا الرأي.

وعند جميع أمم الأرض، حتى عند البدائيين الذين كانوا يسكنون الجزر المنعزلة، نجد آثارا وأخبارا من واقعة طوفان نوح. ولا يبدو أن العالم كله قد انغمر تحت مياه الطوفان ثم انتشرت أخباره في أنحاء العالم، ولكن من المعقول أن يكون الطوفان قد حدث في جزء من العالم مما دفع السكان إلى الانتشار في أنحاء كثيرة متفرّقة. وإن لم يمكن الاستدلال على أن البشرية كانت واحدة حتى الزمن البابلي، فإن التاريخ يؤيد الرأي الذي يقول إنها كانت مجتمعة إلى زمن نوح، وبعد ذلك تفرّق الناس إلى بلاد مختلفة. وبالتالي، فإن آثار تعاليم نوح بدأت تندثر بسبب صعوبة الاتصال، ولم يكن من السهل على نبي أتى إلى بلد معين أن ينشر تعاليمه في البلاد الأخرى. وعلى ذلك، كان من المناسب في تلك الظروف أن يرسل الله تعالى أنبياء في مختلف البلدان لكي لا يظل بلد بغير هداية ربّانية. وتسبّب هذا في وجود تفاوت واختلاف بين دين وآخر، حيث إن العقل البشري لم يكن قد نضج نضوجا كاملا، ولم تكن الملكات الفكرية قد بلغت قمة التطور الذي كان من المقدّر لها أن تبلغه فيما بعد، لذلك جاء لكل قوم نبيّ بتعاليم تناسب مستوى التطور الفكري الذي بلغوه.

الإسلام يقرر وحدانية الله ووحدانية الإنسانية

لما بدأ الجنس البشري في تقدمه، وراح يعمر المزيد والمزيد من البلاد، وأخذت المسافات تقل بين البلاد، وتحسّنت وسائل الاتصال، بدأ العقل البشري

يشعر بالحاجة إلى تعليم عالمي يغطي مختلف الحاجات والظروف الإنسانية. ومن خلال تبادل الاتصال أخذ الناس يدركون وحدانية الجنس البشري ووحدانية خالقهم وهاديهم. وحينئذ، وفي الصحراء العربية أرسل الله تعالى رسالته الأخيرة للإنسانية جمعاء على يد الرسول ﷺ. ولا عجب أن تبدأ هذه الرسالة بحمد الله رب العالمين، فهي تذكر الله تعالى الذي يستحق كل أنواع الحمد، فسبحانه يشمل كل العالمين في جميع البلاد برزقه وفضله، أينما كانوا وبغير أية محاباة. فهو لا ينحاز إلى بلد بعينه، ولا يتحيّز إلى شعب دون غيره. ولذلك، فإن الرسالة التي تبدأ بحمد رب العالمين، لا بد أن تنتهي بالاستعاذة برب الناس، ملك الناس، إله الناس. إن النبي الذي أتى بهذه الرسالة كان آدم الثاني. ففي زمن آدم الأول، كان هناك قوم واحد وشريعة واحدة. وهكذا في زمن آدم الثاني صار العالم شعبا واحدا وأصبح له شريعة واحدة. فإذا كان هذا الكون قد خلقه إله واحد، وإذا كان هذا الإله الواحد يهتم بكل الخلق وجميع البلاد، يتحتم على ذلك في نهاية الأمر أن تتوحّد كل هذه الشعوب المختلفة، وكل هذه الأديان المتباينة، في عقيدة واحدة ودين واحد. وإن لم يكن القرآن المجيد قد جاء من عند الله تعالى، لما تحقق الهدف الروحي من خلق الإنسان. إن كان العالم لا يستطيع أن يجتمع حول مركز روحي واحد، فهل كان من الممكن لنا أن نشعر ونقدّر فعلا وحدانية الله تعالى؟ إن النهر قد تكون له روافد عديدة، ولكنها في النهاية تندمج كلها في مجرى واحد واسع، وحينئذ تظهر قوة النهر وتبدو عظمته. والرسالات التي أتى بها موسى وعيسى وكرشنا وزرادشت وبقية الأنبياء في جميع أنحاء العالم تماثل هذه الروافد التي تنبع قبل أن يُشكل النهر العظيم مجراه. كانت جميعها أديانا صالحة ومفيدة، ولكن كان لا بد أن تصبّ كلها في النهاية في نهر واحد، وتتجلى بذلك وحدانية الله تعالى، وتتحقّق الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق. فإذا لم يكن القرآن المجيد قد أتى لتحقيق هذا الغرض، فأين هي تلك التعاليم التي تحققه؟ إن الكتاب المقدس لا يحقق هذا الغرض، لأن الكتاب المقدس يتحدث

فقط عن إله بني إسرائيل. وليست تعاليم زرادشت، لأن زرادشت حصر النور الإلهي في الشعب الإيراني وحده. وليست تعاليم الفيدا، لأن "الريشي" فرضوا عقوبة صبِّ الرصاص المصهور في أذني "الشودرا"، سكانِ الهند الأصليين، الذين يتجرَّءون على سماع تلاوة صحف الفيدا. ولا يمكن أن يحقق بوذا هذا الهدف العظيم، فرغم أن الديانة البوذية قد انتشرت في الصين بعد وفاته، فإن فكره وتصوّره لم يتعدّ أبدا حدود الهند. وكذلك لا يستطيع المسيح ابن مريم أن يحقق هذا الغرض.

المسيح ليس رسولا للعالم كله

يقول يسوع:

"لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمّل. فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل" (متى ٥: ١٧- ١٨).

إن موضوع تعاليم موسى عليه السلام وتعاليم أنبياء بني إسرائيل من بعده، التي تتعلق بالشريعة أو الناموس، واقتصارها على بني إسرائيل وحدهم، قد أشرنا إليه فيما سبق. لقد ذهب المبشرون المسيحيون إلى جميع أنحاء العالم لنشر المسيحية، ولكن المسيح عليه السلام لم يشاطرهم هذا الأمر. وليس المهم هو ما يحاول أن يفعله المؤمنون بالمسيحية، وإنما السؤال هو ماذا كان تعليم المسيح نفسه؟ ماذا كان الهدف الذي أراد الله تعالى أن يحققه، وهو سبحانه الذي أرسل المسيح؟ لا يستطيع أحد أن يشرح ذلك الهدف ويعبر عنه أفضل من المسيح نفسه، وقد قال بوضوح ما يلي:

"لم أُرسَل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضّالة" (متّى ١٥: ٢٤).

"لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يخلّص ما قد هلك" (متّى ١٨: ١١).

وعلى ذلك، فإن تعاليم المسيح كانت لبني إسرائيل فقط، وليست للآخرين. ويقال إن المسيح أهاب بأتباعه أن يذهبوا إلى الأقوام الآخرين عندما قال: "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" (متّى ٢٨: ١٩).

ولكن من الخطأ الفادح الاستدلال بهذا القول على أن المسيح عليه السلام قد أمر تلاميذه أن يبلغوا رسالته إلى أقوام من غير بني إسرائيل، فهو يعني فقط أنه أمر أتباعه أن يبلغوا رسالته إلى جميع قبائل بني إسرائيل وليس إلى جميع أمم الأرض وشعوبها. فقد قال بنفسه وبكلمات واضحة:

"فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضا على اثني عشر كرسيا تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر" (متّى ١٩: ٢٨).

"لم أُرسَل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة" (متّى ١٥: ٢٤).

ولا يمكن أن يتصوّر أحد هنا أنه ينبغي على المبشرين المسيحيين أن يذهبوا أولا إلى المدن الإسرائيلية، ثم إلى المدن الأخرى. لأن الذهاب إلى خراف بيت إسرائيل الضالة لا يعني مجرّد زيارة المدن التي سكنوها، وإنما يعني أن عليهم أن يُحوّلوا أهلها إلى المسيحية. وهذا يعني أنه ما لم يتحول بنو إسرائيل إلى المسيحية، فلا ينبغي الاهتمام بغيرهم من الأقوام الآخرين. لقد أوضح المسيح عليه السلام تمام الوضوح أن التبشير لبني إسرائيل وتحويلهم إلى المسيحية لن يتم إلى حين عودته الثانية، ولذلك نقرأ قوله:

"ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى. فإني الحق أقول لكم لا تكلّمون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان" (متّى ١٠: ٢٣).

ويتضح من هذا أن العبارة المذكورة أعلاه في (متّى ٢٨: ١٩) (أي "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم") تحض المبشرين المسيحيين على أن ينشروا المسيحية في مدن

إسرائيل، وليس مجرد زيارتها. وقد جاء بوضوح تام أن واجب التبشير إلى بني إسرائيل لن يُستكمل إلى حين المجيء الثاني للمسيح عليه السلام. وبذلك فإن التبشير الذي يقوم به المبشرون المسيحيون لغير بني إسرائيل قبل مجيء المسيح الثاني يُعتبر مخالفا لما أوصى به المسيح نفسه وأمر به.

وقد اعتبر الرسل (الذين أعدّهم يسوع للتبشير بالإنجيل) أنه لا يصح التبشير بالإنجيل لغير بني إسرائيل. ولذلك نقرأ ما جاء في العهد الجديد:

"أما الذين تشتتوا من جراء الضيق الذي حصل بسبب استيفانوس فاجتازوا إلى فينيقية وقبرس♦ وأنطاكية وهم لا يكلمون أحدا بالكلمة إلا اليهود فقط" (سفر أعمال الرسل ١١: ١٩).

وأيضا حين سمع الرسل أن بطرس قام في أحد الأماكن بتبشير الإنجيل إلى غير اليهود امتعضوا كثيرا لذلك:

"ولما صعد بطرس لأورشليم خاصمه الذين من أهل الختان (أي اليهود) قائلين إنك دخلت إلى رجال ذوي غُلفة (أي من غير اليهود) وأكلت معهم" (أعمال الرسل ١١: ٢- ٣).

وعلى ذلك، لم يحدث لأي نبي قبل الرسول ﷺ أن وجّه رسالته إلى الناس كافة، ولم يحدث قبل القرآن المجيد أن وجّه كتاب سماوي نداءه إلى البشرية جمعاء، وإنما كان الرسول ﷺ وحده هو الذي أمره الله تعالى أن يعلن:

﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:١٥٩)

ولذلك فإن إحدى غايات القرآن المجيد هي إزالة الخلافات والانقسامات التي حدثت بين الأديان المختلفة، والأقوام المختلفة، التي كان لا بد أن تنشأ بسبب قصور التعاليم القديمة. ولولا نزول القرآن المجيد لاستمرّت هذه الخلافات، ولما عرف العالم أن له خالقا واحدا، ولما أدرك أنه خلق الخلق لغاية واحدة. إن

♦ المقصود هو "قبرص" فهي تُكتب بالسين أيضًا. (الناشر)

الخلافات التي كانت موجودة قبل الإسلام كانت تتطلب مجيء دين يوحّد بينهم جميعا.

السؤال الثاني هو: ألم يكن من المقدّر للنفس البشرية أن تمر بنفس عملية التطور التي مرّ بها الجسم البشري؟ وكما وصل الجسد في النهاية إلى شكله النهائي الذي استقر عليه، ألم يكن من المقدّر أيضا للنفس البشرية أن ترتقي لتصل إلى أوج تطورها الحضاري والأخلاقي والروحاني المقدّر لها أن تحققه؟

معنى الحضارة والثقافة

للإجابة على هذا السؤال يجب ألا نغفل أننا حينما نتفكر في الحضارات والثقافات التي قامت في الماضي بمختلف البلدان، نجد أنه كانت هناك العديد من المراحل التي مرت بها تلك البلاد. وخلال هذه المراحل الحضارية، بلغت بعض البلاد درجة عظيمة من التقدم، حيث لم يكن هناك من فرق كبير بين ما بلغته وما نحن عليه الآن من تقدم، إذا استبعدنا التقدم الآلي في العصر الحديث. وهناك أمور كثيرة متماثلة بيننا وبينهم في المدنية والثقافة. ولكن إذا أمعنّا النظر في الأمر، فسوف نجد أن ثمة فرقين أساسيين بين الحضارات السابقة والحالية.

غير أنه قبل أن نبدأ في الحديث عن هذين الفرقين، نود أن نوضح ما نقصده بتعبير الحضارة والثقافة. فإننا نعتبر أن للحضارة مفهومًا مادّيا بحتا. فعندما يتحقق التقدم المادي، يحدث نوع من التوافق بين الناس ويتمتعون بحياة سهلة. هذا التوافق والسهولة في الأمور الحياتية هو ما يُشكل الحضارة. فالناتج من الجهد الإنساني، ووسائل النقل اللازمة لتحريك هذا الناتج من مكان لآخر، تشكل تقدّما في الحضارة. وبالمثل، جميع الوسائل التي يتم اختراعها لنقل البضائع من بلد لآخر، وكل النظم التي تُقام من أجل نشر التعليم، وأساليب الصناعة، والأبحاث العلمية، كلها تشكل تقدما حضاريا. وبالمثل، كل ما يمكن عمله من أجل تحقيق

الأمن الداخلي، والدفاع ضد العدوان الخارجي يشكل أيضا حضارة. فكل هذه العوامل تؤثر في الأنشطة الإنسانية. والبلد الذي يحقق تقدما في هذه العوامل يمنح السكان المقيمين فيه نظاما للحياة يختلف عن غيره من البلدان. وهذا الاختلاف هو الذي يشكل اختلافا في الحضارة. ففي البلد الذي لا يكون فيه تقدم في الزراعة، نجد أن القوت اليومي لسكانه يختلف عن القوت اليومي لسكان البلد المتقدم في الزراعة. فالبلد المتقدم زراعيا يشجع على استهلاك أنواع عديدة من الأطعمة، وهو يعمل على توفير أنواع كثيرة من المأكولات التي توافق الأذواق المختلفة. ولكن البلد المتخلف في أمور الزراعة لن يستطيع أن يوفر هذه الألوان المتعددة من الأطعمة. ولن يكون لاختلاف الجسم أو الصحة أو التذوّق أي اعتبار في اختيار المأكولات، فالطعام المتاح هو ما يستطيع أن ينتجه ذلك البلد المتخلف زراعيا، دون وجود بدائل متنوّعة. وبالمثل، لن يستطيع البلد المتخلف صناعيا أن يتساوى بالبلد المتقدم صناعيا من حيث الملبس أو المسكن أو الأثاث أو الكماليات الأخرى التي تؤدي إلى حياة سهلة مريحة، إذ لن يتمكن البلد المتخلف صناعيا من توفير الملابس اللازمة لسكانه، ولن يكون هناك اهتمام خاص بطريقة حياكة الملابس وإنتاجها في أشكال متعددة. فالناس الذين يعيشون في مثل هذا البلد قد لا يعرفون شكل المعطف، ناهيك أن يرتدوا أنواعا مختلفة من المعاطف الملائمة للمناسبات المختلفة. وحتى القميص قد يبدو لهم أنه نوع من الرفاهية. أما الأحذية المصنوعة من الجلود الناعمة فهي أبعد من تصوّرهم. ويعتبر امتلاك أحذية من جلد مدبوغ نوعا من الرفاهية، بل إن استعمال الأحذية بوجه عام يكون أمرا نادرا في مثل هذه المجتمعات، فغالبا ما يمشي الناس حفاة الأقدام، أو يكتفون بربط أقدامهم بقطعة من الجلد أو بنعل ليس له شكل معين. ونحن نذكر هذه الأمور بشكل عام، ولا نستطيع أن نخوض في تفاصيلها، غير أننا لسنا في حاجة إلى الكثير من التفاصيل لإثبات أن التباين في المظاهر الخارجية لحياتنا ينتج عن الاختلاف في درجة التقدم التي تصل إليها مختلف الشعوب في

مجال الزراعة والصناعة والعلم والتعليم. وهذه الاختلافات كبيرة بمكان، حتى إن أولئك الذين ألِفوا نوعا معينا من الحياة لا يرغبون في الاختلاط أو الاندماج بالآخرين الذين تعوّدوا على نمط آخر من الحياة. وهذه الاختلافات هي التي تشكل في رأينا الفوارق بين الحضارات، كما تعتمد عليها أيضا إلى حد كبير أمور الحرب والسلام. وعلى المدى الطويل تؤدي هذه الفوارق إلى ظهور المطامع الإمبريالية والتطلع إلى القوة والهيمنة.

أما الثقافة فتختلف عن الحضارة. فالثقافة في رأينا ترتبط بالحضارة تماما كما ترتبط نفس الإنسان بجسده. إن فوارق الحضارة هي في النهاية فوارق في التقدّم المادّي؛ ولكن فوارق الثقافة تنبع من الفوارق في التقدم الروحي. إن ثقافة أيّ قوم تتكوّن من الأفكار والمبادئ التي تنمو في ظل التعاليم الدينية والأخلاقية. فالتعاليم تضع الأسس، ثم يبني أتباع هذه التعاليم على هذه الأسس. وأثناء عملية البناء هذه يحدث أن ينحرف هؤلاء الأتباع بعيدا عن التعاليم الأصلية، ولكنهم لا يفقدون تماما صلتهم بالأصل. فمثلا، المهندس الذي ينفذ تصميمات بناء ما، قد ينحرف عن هذه التصميمات الأصلية ما شاء له، ولكنه لا يمكن أن يغفل تماما الجوانب الأساسية في هذه التصميمات. والأديان والعقائد تقدم أيضا أسلوبا أساسيا للحياة، وما يبنيه أتباع كل من هذه الأديان والمعتقدات على الأساس الأصلي، يتحول إلى قوالب متميّزة من الفنون والأخلاقيات، حتى إن المراقب يضطر إلى تصنيف أتباع الأديان المختلفة في فئات مختلفة. وهذه الفروق فروق في الثقافة، وقد أصبحت هذه الفروق اليوم على جانب كبير من الأهمية. ولا شك أن التسامح وسعة الصدر أمر شائع اليوم بين أتباع الأديان، ولكن بالرغم من هذا نجد أن المسيحي العادي أو الملحد، يمكن أن يتجاوب بسهولة مع المسيحي المتعصّب أكثر مما يتجاوب مع المسلم العادي أو الملحد، أو مع المسلم المتعصّب. ولا شك أن المصالح السياسية في زمننا تتحكم أيضا في العلاقات المتبادلة بين الأمم، وتنبع هذه المصالح السياسية من الفروق في الحضارة. غير أن الفروق في

الثقافة لا تقل في أهميتها. فالمسلم الأوروبي مثلا يشعر بودّ تجاه مسلم من آسيا. وهذا الود تجاه أخ مسلم لا يظهر أبدا تجاه شخص أوروبي آخر. والمسيحي الأوروبي المتعصب ينحاز أيضا بعلاقته الحميمة تجاه الملحد الأمريكي. فهل هذا يعود إلى التعصب الديني؟ لا. إذ لو كان التعصب الديني هو العامل الوحيد المؤثر، لوجد المسيحي نفسه أقرب إلى قلب المسلم منه إلى قلب الملحد. ولكن الواقع يبيّن أن بين المسيحي والمسيحي الآخر، حتى ولو كان أحدهما ملحدا، يوجد ما يمكن أن نعتبره علاقات ثقافية، أو ثقافة مسيحية. إن المسيحي الملحد ليس في الحقيقة مسيحيا بالنسبة لمعتقداته الدينية، ولكن مشاعره وأعماله لا تخلو من تأثير الثقافة المسيحية. وهذا التأثير الذي يظهر ويتجلى خلال العديد من الأجيال، لا يمكن أن ينطمس ويزول بسهولة. فالفنان المسيحي، الذي قد يكون ملحدا في أفكاره، نراه لا يزال يُبدي التأثير المسيحي في لوحاته وفي موسيقاه. وفي الحقيقة، بغير هذا التأثير سوف يبدو عمله في غير مكانه، تماما كالأعشاب الطفيلية في حديقة الزهور.

المراحل المختلفة من الحضارة والثقافة

ويجب أن نشير هنا إلى أن فترات من الحضارة والثقافة تأتي أحيانا منعزلة عن بعضها، وأحيانا تجتمع سويا. فيحدث أحيانا أن تحقق أمة من الأمم حضارة عظيمة، ولكنها لا تحقق ثقافة عظيمة؛ وأحيانا تكون أمة على جانب كبير من الثقافة، ولكنها لا تصل إلى حضارة عظيمة. إن روما في مجدها كانت عظيمة في حضارتها، ولكن ليس في ثقافتها، إذ لم تنبثق فنونها وفلسفتها من أساس عقائدي. فكان لكل فرد الحرية في أن ينمو بالأسلوب الذي يراه، ويفسر مظاهر الحياة من حوله كما يقوده فكره، دون الرجوع إلى مبادئ عامة أساسية. وخلال القرون الأولى لوجود المسيحية، لم تعط العالم حضارة، ولكنها أعطته ثقافة من طراز رفيع، ثقافة تنبع من نظرة معيّنة للحياة، وبالتالي كان لها سماتها

المميزة. إذ كانت الأنشطة التي انخرط فيها المسيحيون الأوائل متأصلة في مبادئ معيّنة؛ وكانت تحكم حياتهم مُثُلٌ محدّدة. وقد جاءت إليهم هذه المبادئ والمُثُل من التعاليم الدينية التي آمنوا بها. ومن ناحية أخرى، فإن المبادئ والحدود التي كان الفكر الروماني يجول فيها، كانت تُمليها الدوافع المادية. وباختصار، كانت روما القديمة مثالا عظيما للحضارة، بينما كان المسيحيون القدماء مثالا عظيما للثقافة. وفيما بعد، امتزجت الحضارة بالثقافة. ولما تحوّلت روما إلى المسيحية، جمعت بين الحضارة والثقافة، ولكن حضارتها كانت خاضعة لثقافتها. وفي الزمن الحالي، تجمع أوروبا بين الحضارة والثقافة، ولكن، نظرا لطغيان الأفكار المادية، أصبحت ثقافتها خاضعة لحضارتها.

وبدراسة تاريخ العالم، يتبيّن أن الفترات التي نجح الدين فيها في نشر فلسفة حقيقية للأخلاق، أي ثقافة حقيقية، تبدو مماثلة جدا للوقت الذي نعيشه الآن، ولكن هناك فرقين يبرزان في هذا الموضوع. إن الحضارات والثقافات التي ظهرت قبل مجيء الإسلام لم تكن عالمية في مفاهيمها، ولم تُستخلص من مبادئ عامة. وأيضا، لم يكن الدين والحضارة فرعين ينموان من جذر واحد، وإن بدا في مرحلة ما أنهما كذلك، فإنهما كانا يفتقدان الوحدة الحقيقية. ولا شك أن هناك محاولات بُذلت في الديانة اليهودية للجمع بين الحضارة والثقافة. وفي العهد القديم من الكتاب المقدس، اجتمعت إلى حد كبير الأفكار والمثاليات الاجتماعية مع الأفكار المادية، وكلاهما تمركز حول الدين. غير أن هذه المحاولة التي قام بها العهد القديم، يمكن اعتبارها المحاولة الأولى فقط، وليست المحاولة الناجحة الأخيرة. ويمكن أن يقال نفس الشيء عن الديانة الهندوسية والزرادشتية. ولكن حاجات الإنسان الحياتية التي يصعب حصرها، كانت تتطلب مسالك في التفكير ومبادئ في الأنظمة تتسم بالمرونة الكافية، لكي تصلح لجميع الظروف وتلبي جميع الاحتياجات. بيد أن الأديان القديمة لم تستطع أن تقدم هذه المسالك والمبادئ الفكرية، بل قدمت تعاليم جامدة، غير مرنة، كانت تصلح لمجتمع معين.

غير أن حاجات المجتمع الإنساني بوجه عام، التي لا حصر لها، لا يمكن أن تلبيها تعاليم تفتقد المرونة المطلوبة. فهناك حقيقة هامة تميّز الإنسان عن الحيوانات الأخرى، وهي أنه بينما يتشابه الناس فيما بينهم، إلا أنهم في نفس الوقت يختلفون بعضهم عن بعض كثيرا. فعالم الحيوان يتميز بالتماثل التام. الجاموس، والبقر، والأسود، والنمور والصقور، والأسماك، أي الحيوانات والطيور، سواء كانت تعيش على الأرض أو في الماء أو في الهواء، تتشابه أفرادها في مظهرها الخارجي، كما تتطابق أيضا في تركيب المخ ومستوى الذكاء، ويبدو أنها جميعا تخضع لقانون واحد. ولكن الإنسان يختلف عن ذلك. فأفراد الجنس البشري يأتون إلى العالم بنفس الجسد، ولهم نفس المظهر، ولهم نفس الأطراف وأعضاء الحواس، ولكن بالنسبة لعقولهم وفيما يتعلق بما يفكرون فيه وما يشعرون به، فإنهم يختلفون بعضهم عن البعض. فإذا كان ينبغي أن تكون هناك تعاليم واحدة لجميع هؤلاء الأفراد من البشر، الذين يختلفون في طبائعهم وميولهم، فلا بد أن تكون هذه التعاليم على درجة كبيرة من المرونة.

الثقافة اليهودية والمسيحية

ومع استمرار التقدم، حاول العالم مرة بعد أخرى أن يحقق هذا المطلب المثالي. لقد أعطى موسى عليه السلام بني إسرائيل الحضارة والثقافة. ولكن تعاليمه كانت متشددة، ولا تفي بمتطلبات الدوافع الإنسانية المختلفة الموجودة في الطبيعة البشرية. وما أن بدأ تفكير بني إسرائيل يجول في مجالات مختلفة، ويحدوهم الطموح لتحقيق مآرب جديدة لم تكن من قبل في الحسبان، حتى تبيّن عجز تلك التعاليم التي تركها لهم موسى عليه السلام. ولم تنجح تلك التعاليم في تحويل الأجيال التالية من بني إسرائيل إلى مواطنين صالحين. صحيح أنهم ظلوا مرتبطين بتلك التعاليم، ولكنهم صاروا إما متمردين أو منافقين. ولذلك لم تملك المسيحية سوى أن تعلن أن الشريعة كانت لعنة، لأنها رأت أن الشريعة الجامدة التي تركها

موسى عليه السلام قد جعلت الناس متمردين أو منافقين. وجاءت رسالة المسيح عليه السلام قرونا عديدة بعد موسى عليه السلام، وبدا أن الشريعة الموسوية قد صارت مثل المعطف الذي حِيكَ من أجل طفل صغير، فلم يعد يصلح لشعب بني إسرائيل بعد أن وصل إلى مرحلة الشباب وقد أدرك المسيح عليه السلام عدم جدوى محاولة ارتداء الشاب الفتي ملابس الصبي الصغير. وقد تمرّد ضمير المسيح عليه السلام على تلك التعاليم الجامدة، أو لعله من الأوْلى القول بأن صوت الله تعالى قد انبعث من أعماق نفسه ليقول: "إن هذا الشعب تقدم به الزمن إلى مراحل أكثر تقدمًا مما كانوا عليه عندما تلقوا هذه التعاليم من موسى، وقد كانت هذه التعاليم كافية لهم طالما أنهم بقوا في الأحوال والظروف التي كانوا عليها، ولكنهم الآن صاروا في حاجة إلى تعليم جديد، إلى معطف أكبر حجمًا ليناسب حجمهم الجديد". ولكن التعليم الجديد للمسيحية، أو لعله من الأدق أن نقول إن التعليم الذي وضعه المسيحيون الذين جاءوا قرونا بعد المسيح ونسبوه إليه، يمكن تلخيصه في جملة واحدة: "إن الشريعة لعنة". ولا شك أن تناول الطعام الذي يكون فوق قدرة الإنسان على هضمه يُعَدّ نقمةً وليس نعمة، غير أنه من الخطأ اعتبار أن الطعام نفسه نقمة وليس نعمة. إن المعطف الصغير قد يبدو غريبا عندما يرتديه شخص كبير، والمعطف الكبير أيضا يبدو غريبا عندما يرتديه شخص صغير الحجم. نعم إن ارتداء الصغير للمعطف الكبير أو ارتداء الكبير للمعطف الصغير يبدو غريبا، ولكننا لا نستطيع القول بأن المعطف نفسه يثير السخرية. لذلك فمن الظلم أن يُنسب إلى المسيح عليه السلام أنه أتى بتعليم يعتبر فيه أن "الشريعة لعنة". إن كل ما قاله المسيح وكل ما كان يعنيه، هو أن الصيغة التي كانت مطبقة من تعاليم موسى عليه السلام قد صارت لعنة على الناس الذين كانوا يعيشون في ذلك الوقت. فإذا كان هذا ما يعنيه، فقد كان على حق. ولكن أتباعه شوّهوا هذه الحكمة وحوّلوها إلى شيء مروّع مناف للعقل. وعلى أية حال، سواء كان المسيح قد قال ما نظن أنه قاله، أو ما يخطئ المسيحيون في ظنهم أنه قاله، فلا

شك أن العقل البشري في زمنه كان قد تقدم كثيرا عما كان عليه في زمن موسى عليه السلام، وصار الأمر يتطلب هداية جديدة وأخلاقا جديدة، وحضارة جديدة، وثقافة جديدة. ولكن، بينما قيّد علماء بني إسرائيل الإنسان في تعاليم ذات أفق ضيق، فإن علماء المسيحية أطلقوا سراح الإنسان من الالتزامات الأخلاقية والدينية. لقد حصرت الشريعة الموسوية العقل الإسرائيلي ومنعته من التقدم عن زمن موسى، إلا في صورة تمرد أو نفاق. أما العلماء المسيحيون فقد جعلوا الإنسان حرا من جميع الالتزامات، وبثوا في عقول الناس عقيدة أن شريعة الله تعالى لا يمكن أن ترتفع بالإنسان إلى آفاق عالية من الأخلاق، وبدا كما لو أن الإنسان قد انتزع من الله تعالى مهمة تدبير أمر نجاته. وكانت النتيجة أن نفس الديانة التي ظنت أن التضحية بالله تعالى كانت ضرورية من أجل نجاة الإنسان، بدأت تعلّم أن الهداية الربانية ليست ضرورية من أجل تقدم الإنسان الأخلاقي. إن السجل التاريخي الكامل المتاح لنا هو سجل ديانة بني إسرائيل، ولذلك فقد قدمنا مثالنا من تاريخ بني إسرائيل. فعندما تتعين إجابة سؤال معين عن النهاية التي آلت إليها عملية التطور، ينبغي أن ترتبط هذه الإجابة بالسجلات التاريخية الكاملة في جميع مراحل التطور. وتاريخ ديانة بني إسرائيل يشهد على أن العقل البشري ظل ينمو لزمن طويل. وقد عبر مرحلة بعد أخرى، ولكنه كما يبدو لم يصل بعد إلى نهاية تطوره. وبالمثل، فإن تاريخ العالم يشهد على حقيقة أن العقل البشري قد تطور خلال مراحل من التقدم الاجتماعي، ولكنه لم يصل بعد إلى استيعاب فكرة الأخوّة الإنسانية الواسعة. وتشير هاتان الشهادتان إلى حقيقة أنّ العقل البشري، مثله في ذلك مثل الجسد البشري، ظل يمر خلال مراحل تطورية عديدة. ولكن إلى زمن مجيء الإسلام، لم يكن العقل البشري قد وصل بعد إلى نهاية التقدم الروحي. وخلال المراحل المختلفة للتقدم الاجتماعي التي مر بها العقل البشري، لم يستطع أن يسمو فوق قيود الأمّة والعصبيّة، ولم تتأصّل فكرة المساواة بين البشر، أو الإحساس بالأخوّة الإنسانية. لقد مر العقل

البشري خلال مراحل مختلفة من الثقافة، ولكنه لم يكن قد وصل بعد إلى شريعة مُرضية، شريعة تصلح للناس جميعا. ولا شك أن التعاليم الموسوية قد بذلت محاولة للجمع بين المثل الاجتماعية والثقافية، ولكن بعد مرور فترة من الزمن، بدأ الفشل يضرب أطنابه، وأخذ الفشل يدب لأن ما قدمته هذه التعاليم لم يكن هو المطلوب والمناسب. وقد حاول المسيح عليه السلام أن يحقق تغييرا، ولكن أثبت الزمن أن التغيير لم يكن كافيا، و لم يستطع أن يوقف تيّار التمرّد الذي غمر العقل البشري في تلك المرحلة. وكل ما بقي من تعاليم المسيحية كان ذلك القول الذي وصف الشريعة بأنها لعنة. وهذا القول، حين يؤخذ على علاته، يؤذي المشاعر وينافي الذوق ويتعارض مع الفكر السليم. وما لم يُفسَّر هذا القول تفسيرا سليما، يكون هو نفسه لعنة، لأنه لا يؤدّي إلا إلى صرف الإنسان عن الله تعالى، وتحريره من الهداية الربانية. ولذلك يبدو أن النهاية التي كانت تتوخّاها عملية تطور العقل البشري، لم تكن قد تحققت بعد. إن عملية تطور الحضارة والثقافة الإنسانية، والمراحل التي مرت بها، تشير إلى أن الحضارة والثقافة كانتا تخضعان لنفس قانون التطور الذي خضع له الجسم البشري لزمن طويل. ولذلك يبدو من المؤكد أن الحضارة والثقافة الإنسانية كان من المقدّر لهما أن تصلا إلى الكمال النهائي، تماما كما وصل الجسد البشري إلى صورته النهائية؛ وهذا وحده يدل على الحاجة إلى الإسلام رغم وجود الأديان الأخرى، أي الحاجة إلى دين يكون هو القمّة في تطور الثقافة للبشرية، القمّة التي تضمّنتها صفحات القرآن المجيد.

سؤال هام

السؤال الثالث، الذي يبين الحاجة إلى القرآن المجيد، هو: ألم ينل التحريف من الكتب السابقة بشكل واسع، حتى إن الحاجة إلى كتاب جديد أصبحت ضرورة عامّة تحققت في القرآن المجيد؟

للإجابة على هذا السؤال ينبغي أن نضع في الاعتبار أن المعيار الأول الذي يمكن به قياس فائدة كتاب معين هو خلوّه من الإضافات الخارجية. إن الكتاب الإلهي أعظم وأسمى من الكتاب الذي من تأليف البشر، لأن الكتاب الإلهي لن يقودنا إلى خطأ. إن الله تعالى هو الهادي، ولذلك فإننا لا نتوقع أن نجد في كتابه سوى النور والحق، وليس الظلام والخطأ. وإن لم يكن مفهومنا عن الله تعالى يقوم على هذه الثقة فيما أوْحى به، فلا قيمة بتاتا لهذا المفهوم. كذلك، إذا كان من الممكن أن يخطئ الوحي السماوي أيضا، فعلى أي أساس نعتبر التعاليم الإلهية أعظم وأسمى من التعاليم البشرية؟ إن الإيمان بكتاب سماوي يتضمّن الإيمان بأن ذلك الكتاب يخلو من الخطأ. ومع ذلك، فمن الممكن أن يعاني كتاب من التحريفات البشرية رغم أنه قد نزل في الأصل من عند الله تعالى. فإذا عانى كتاب من إضافات أو تغييرات بشرية، فإن هذا الكتاب لا يصلح بعد لأن يكون مصدرا للهداية.

وحينما نضع الكتب الإلهية القديمة تحت الفحص من هذا المنطلق، نجد أنها كلها غير مُرضية. إن أتباع العهد القديم من الكتاب المقدس يعتبرونه كتابا من وحي الله، والمسيحيون يعتبرونه أيضا كتابا منَزّلا من عند الله، والمسلمون كذلك يعتبرونه كتابا سماويّا. ولكن أن يكون الكتاب من وحي الله شيء، وأن يحتفظ الكتاب بهذا الوحي سليما بين دفّتيه شيء آخر. ولا شك أن الأقوام الثلاثة، اليهود والنصارى والمسلمين، يتفقون على أن الله تعالى قد شرّف بوحيه أنبياء العهد القديم، ولكنهم لم يعودوا يؤمنون بأن النص الموجود بين أيدينا اليوم للعهد القديم هو بنفسه الكلام الذي أنزله الله تعالى. وهناك أيضا شواهد أخرى تدل على أن النص قد تغير بالفعل. ونعلم من تاريخ بني إسرائيل أن كتبهم قد أحرقت في زمن نبوخذنصّر وانعدم وجودها تماما، ثم أعاد النبي "عزرا" كتابتها. ونقرأ عن "عزرا" في الأدب اليهودي:

"لقد فُقدتْ، ولكن عزرا أعادها". (دائرة المعارف اليهودية، ج ٥

ص٣٢٢)

وأيضا:

"أعاد عزرا كتابة التوراة، وأدخل فيها اللغة الآشورية، أو الحروف المربعة" (المرجع السابق).

وبالمثل نقرأ كذلك:

"لقد أبدى شكوكه في صحة بعض كلمات النص، وذلك بأن وضع نقاطا عليها. وقال إن وافق إيليا على النص، فيمكن إزالة النقاط؛ أما إذا لم يوافق تُزال الكلمات من النص" (المرجع السابق).

ويتضح من هذه المقتبسات أن التوراة، في أي شكل كانت موجودة فيه في ذلك الوقت، سواء كانت في الشكل الذي وضعها فيه عزرا، أو في الشكل الذي كانت عليه عند نزولها، كانت كتابا غير يقيني وغير قطعي. و لم يعد من الممكن اعتبار أن نصوصها تحتوي كلمة الله تعالى المحفوظة في نقاء خالص كامل. و لم يعد "سِفر عزرا" موجودا في الكتاب المقدس كما نعرفه اليوم، غير أنه ليس بأقل مرجعيةَ من أي سفر آخر من أسفار الكتاب المقدس. وهو يسمى "السفر اليوناني لعزرا". وفي الأزمنة القديمة كان موضعه قبل سفر عزرا ونحميا. ولكن فيما بعد، عندما كلف البابا القسّ المسيحي المشهور "جيروم" بتنقيح الكتاب المقدس، حدث أن أسقط جيروم هذا السفر من الكتاب على أساس أن الأصل العبري لهذا السفر لم يعد موجودا. والبعض يصفون هذا السفر باعتباره السفر الثالث لعزرا، والبعض يعتبرونه السفر الثاني. وعلى أية حال، يبدو أنه بالرغم من إسقاط هذا السفر من الكتاب المقدس، إلا أن الأغلبية من اليهود والمسيحيين يعتبرونه "سفر عزرا". وفي الفقرات ٢٠ إلى ٢٥ من الإصحاح الرابع عشر في هذا السفر، نقرأ ما يلي:

"يا رب، سوف أمضي كما أمرتني وأصلح الناس الموجودين، ولكن

أولئك الذين سوف يولدون فيما بعد، مَن يهديهم؟ لذلك فإن العالم قد خيّم عليه الظلام، وأولئك الذين يعيشون فيه، هم بلا نور. لأن شريعتك قد أُحرقتْ، ولذلك لا يعرف أحد الأشياء التي عملتَها، أو الأفعال التي سوف تبدأ. ولكن إذا وجدت نعمة أمامك، أرسِلْ فيَّ الروح القدس وسوف أكتب كل ما حدث في العالم منذ البداية، التي كانت مكتوبة في الشريعة، حتى يجد الناس طريقك، ولكي يحيا أولئك الذين يعيشون في الأيام الأخيرة. فأجابني قائلا: امض في سبيلك، اجمع الناس معا، وقل لهم أن لا يبحثوا عنك لمدة أربعين يوما. ولكن انتبه، عليك أن تحضر كثيرا من فروع الأشجار المجوفة، وخذ معك "ساريا" و "دابريا" و "سيليميا" و "إكانوس" و "آسيل"، هؤلاء الخمسة الذين على استعداد للكتابة سريعا؛ واحضر هنا، وأنا سوف أشعل شمعة فَهْم في قلبك، ولن تنطفئ إلى أن تتم الأشياء التي سوف تبدأ في كتابتها" (الأبوكريفا؛ عزرا الثاني، ١٤).

ويتبين من هذا أن عزرا وخمسة من الكَتبة عملوا بجهد لمدة أربعين يوما في معزل بمساعدة من الله وكتبوا ٢٠٤ من الأسفار.

وفي الفقرة ٤٤ من هذا الإصحاح نقرأ ما يلي:

"في أربعين يوما كتبوا مائتين وأربعة من الأسفار" (الأبوكريفا، عزرا الثاني، ١٤).

ومن هذا نستنتج ما يلي:

(أ) أنه في زمن النبي عزرا، الذي عاش قبل المسيح بمدة ٤٥٠ سنة، احترقت التوراة مع أسفار الأنبياء الآخرين؛

(ب) أنه لم تكن هناك نسخة موجودة موثوق بها لهذه الأسفار؛

(ت) أن عزرا كتب هذه الأسفار مرة أخرى.

صحيح أننا نقرأ أن هذه الأسفار قد أوحيَت، ولكن "الوحي" هنا يعني فقط أن الله ساعد في كتابتها، ولا يعني أن الله قد أوحى النص كلمة بعد كلمة. إذ

نعلم من التاريخ اليهودي أن عزرا نفسه استبعد أجزاء من النص باعتبار أنها غير موثوق بها، وقد ترك القرار الأخير عنها لإيليا. وعلى ذلك فإن التوراة كما نعرفها اليوم، ليست هي التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام. إنها التوراة التي سجلها عزرا من ذاكرته، والتي كان هو بنفسه يشك في أجزاء منها. بل ينبغي أن نقول إن التوراة الموجودة اليوم ليست هي حتى التوراة التي كتبها عزرا، لأن عزرا كتب ٢٠٤ من الأسفار، ولا نجد اليوم ٢٠٤ سفرا في الكتاب المقدس.

وقد عبر الكتّاب المسيحيون أنفسهم عن شكوكهم في ذاكرة عزرا. فيقول "آدم كلارك" أحد المفسرين المشهورين للكتاب المقدس، في تفسيره (١٨٩١)، تحت سفر أخبار الأيام الأول (٧: ٦)، إن عزرا قد أخطأ هنا في كتابة أسماء الأحفاد بدلا من أسماء الأبناء، وأن محاولة تبرير المتناقضات من هذا النوع لا طائل من ورائه (ص١٦٨). إذ نقرأ في (٧: ٦) أن "أبناء بنيامين بالع وباكر ويديعئيل، ثلاثة"؛ بينما في (٨: ١) نقرأ: "وبنيامين ولد بالع بكره وأشبيل الثاني وأخرخ الثالث ونوحة الرابع ورافا الخامس".

ويرى العلماء اليهود أن عزرا لم يعرف تماما ما إذا كان الشخص المذكور ابنا أو حفيدا لشخص آخر. فإذا كان هذا هو رأي العلماء اليهود والمسيحيين في ذاكرة عزرا، فكيف يطمئن العامة من اليهود والمسيحيين، وبقية الناس العاديين، إلى القيمة الروحية لكتاب يفتقد اليقين مثل الكتاب المقدس؟

ولننتقل الآن إلى الشك الذي تثيره المحتويات الموجودة في الكتاب نفسه. وأهم الأدلة وأكثرها حسمًا في هذا الموضوع ما جاء في سفر التثنية (٣٤: ٥- ٦):

"فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب. ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور، و لم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم".

هاتان الفقرتان تبينان بكل جلاء أنهما موضوعتان، وقد أضيفتا بعد مرور مئات السنين بعد موسى عليه السلام. فليس من المعقول أن الله تعالى قد كلم موسى

وقال له "لا أحد يعرف قبرك إلى هذا اليوم". فهل يُعقل أن تُوَجه مثل هذه الكلمات إلى إنسان لا يزال على قيد الحياة؟ هل يمكن أن يستعمل الله تعالى كلمات مثل "إلى هذا اليوم"؟

ثم نقرأ في الفقرة الثامنة:

"فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات موآب ثلاثين يوما، فكملت أيام بكاء مناحة موسى".

وتبين هذه الفقرة أيضا أنها لا يمكن أن تكون وحيا تلقاه موسى عليه السلام، وإنما من الواضح أنها إضافة تم وضعها فيما بعد.

ثم نقرأ في الفقرة العاشرة:

"ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجها لوجه".

وهذه الفقرة أيضا لا يمكن أن تكون وحيا لموسى، وإنما هي ابتداع أضيف بعد مرور مئات السنين على وفاته وأقحم على أسفار موسى. ومن الجائز أن يكون من فعل عزرا، ولكن من الجائز أيضا أن يكون من فعل شخص آخر.

وللمزيد من الدلائل المستقاة من داخل الكتاب المقدس نفسه على وجود ما يثير الشك في أن التوراة كما نعرفها اليوم قد كتبت بعد زمن موسى عليه السلام، وأنها تحتوي كتابات أشخاص آخرين، نقرأ في سفر التكوين الإصحاح ١٤ والفقرة ١٤:

"فلما سمع أبرام أن أخاه سُبي جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاث مئة وثمانية عشر وتبعهم إلى دان".

ولنقارنْ هذا النص بما جاء في سفر قضاة ١٨: ٢٧- ٢٩ الذي جاء فيه أن هذه المدينة التي تسمى "دان" في سفر التكوين كانت تسمى "لايش". وبعد مرور ثمانين عاما بعد زمن موسى عليه السلام غزا بنو إسرائيل هذه المدينة وأطلقوا عليها اسم "دان"، إذ نقرأ ما يلي:

"وأما هم فأخذوا ما صنع ميخا والكاهن الذي كان لـــه وجـــاءوا إلى لايش إلى شعب مستريح مطمئن، وضربوهم بحد السيف وأحرقوا المدينـــة بالنار. و لم يكن من ينقذ لأنها بعيدة عن صيدون، و لم يكن لهم أمـــر مـــع إنسان، وهي في الوادي الذي لبيت رحوب، فبنوا المدينة وســـكنوا بهـــا. ودعوا اسم المدينة دان باسم دان أبيهم الذي وُلد لإسرائيل، ولكن اســـم المدينة أولاً لايش".

وما يمكن استخلاصه من هذين المقتبسين أن الاسم الذي أُطلق بعد مرور ٨٠ عاما بعد زمن موسى لا يمكن أن يأتي في سفرٍ كَتَبَهُ موسى. وعلى ذلك، يكون من الواضح أن سفر موسى قد تعرض لزياداتٍ أضيفت إليه بعـــد موتـــه، وأن الكثير من الكتبة أدخلوا عليه أفكارهم ومفاهيمهم.

وهذا النوع من الإضافة لم يقتصر على الأسفار التي كتبها موسى عليه السلام، فإن الكثير من أسفار الكتاب المقدس قد عانت أيضا من الإضافة والتعديل. ففي سفر يشوع الإصحاح ٢٤ والفقرة ٢٩ نقرأ:

"وكان بعد هذا الكلام أنه مات يشوع بن نون عبد الرب ابن مئة سنة وعشر سنين".

وأيضا جاء في سفر أيوب الإصحاح ٤٢: ١٦- ١٧

"وعاش أيوب بعد هذا مئة وأربعين سنة ورأى بنيه وبني بنيه إلى أربعـــة أجيال. ثم مات أيوب شيخا وشبعان الأيام".

يتبين بجلاء من هذه المقتبسات أن يشوع لم يكتب السفر الذي يحمل اسمـــه، وكذلك لم يكتب أيوب السفر المنسوب إليه، بل هما من جمع وتصنيف أشخاص آخرين جاءوا فيما بعد، وجمعوا هذه الأسفار مما سمعوه من الناس الآخرين.

ويجوز أيضا أن الأنبياء الذين دُوّنت تعاليمهم في الكتاب المقدس، قد جمعـــوا كلمة الله كما تلقوها، غير أن السجلات التي تركوها لم تصمد أمـــام عوامـــل

الزمن، حتى إذا ما فُقدت هذه السجلات أو صارت نادرة الوجود، أعاد الناس الذين جاءوا فيما بعد كتابتها من الذاكرة، وخلال هذه العمليات أدخل الكتبة الكثير من أفكارهم ومفاهيمهم على النص. فهل من المستغرب أن تكون هذه الأسفار قد تشوّهت وتبدّلت، كما أثبتت الأدلة التاريخية ذلك، وكما برهنت الأدلة المستقاة من داخلها أيضا، فلم تعد تشفي غليل قرائها المتطلعين إلى طلب الهداية؟ وهل يعجب أحد عندما يرفع الله تعالى حفظه عن هذه الأسفار، فيأخذ الناس في التطلع إلى وجود كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يشمله الله تعالى بحفظه في لوح محفوظ بعيدا عن عبث أيدي العابثين. وبعد أن تبدلت هذه الأسفار وتشوهت وأصابها التحريف، إن لم يُنَزّل الله ﷻ للعالم أجمع كتابا يحتوي بالفعل كلمة الله، ويتعهد سبحانه بحفظه من تدخلات البشر بالحذف أو الإضافة أو التغيير، حيث لا يمكن أن يشك أحد في يقينيته وقطعيته، لكان لزاما في هذه الحالة أن نستنتج أن الله تعالى – وحاشا لله – لا يهتم بهداية عباده، وأنه – تعالى عن ذلك – لا يغرس بذرة الهداية في التربة التي تنتج يقينا وقناعة، وإنما يغرسها في التربة التي تؤدي إلى الشك وعدم اليقين، وأنه بذلك لا يريد أن يجعل الدين مصدرا للإيمان وطمأنينة القلب. ولكن هل يُعقل هذا؟ هل يليق هذا بالله سبحانه وتعالى؟ إن لم يكن صحيحا أن الله لا يهتم بهداية عباده، وهو حتما غير صحيح، فينبغي أن نبحث عن الكتاب الذي يحل محل الكتاب المقدس، والذي يعوّض البشرية عن هذا الخليط المشوّش للحق والباطل، وهذا المزيج المشوّه لكلام الله وكلام البشر.

المتناقضات في العهد القديم

يقدم وجود المتناقضات في النصوص التوراتية دليلا آخر على أن أسفار الكتاب المقدس لم تعد تحتوي الوحي الأصلي الذي تلقاه موسى أو الأنبياء الذين أتوا من بعده، عليهم جميعا صلاة الله وسلامه.

(١) فمثلا نقرأ في سفر التكوين ١: ٢٧

"فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه ذكرا وأنثى خلقهم".

ويلي ذلك في الإصحاح الثاني:١٧

"وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتا تموت".

إن هذين المقتبسين متناقضان. وإذا كان لا بد من التوفيق بينهما فيتحتّم أن نخرج بنتيجة لا يمكن أن تكون صحيحة، وهي أن الله لا يعرف الخير والشر. فكون آدم مخلوقا على صورة الله، وكان آدم لا يعرف الخير والشر، يترتب على ذلك أن يكون الله لا يعرف الخير والشر، مع أن الله تعالى هو العليم بكل شيء، وصفة "العليم" في الحقيقة إحدى صفات الله الحسنى. ومن ناحية أخرى، إذا كان الإنسان لا يعرف الخير والشر، فهو غير قادر على فعل شيء ذي شأن. إن كل شيء صالح وذي شأن هو ما يفعله المرء بإدراك تام وفهم لما يفعله. أما ما يفعله الإنسان بغير قصد، أو بغير إدراك، فليس له قيمة روحية أو أخلاقية. وإذا كان الإنسان لا يعرف الخير والشر، فلا يمكن أن يكون إنسانا أخلاقيا، ما دام لا يستطيع أن يفرّق بين الخير والشر، ولا يعرف ما هو الحق وما هو الباطل.

فهل يرى علماء اليهود والنصارى أن الله – تعالى عن ذلك – يفتقد أيضا هذه الصفات الأخلاقية؟ ألا يعلم ﷻ الخيرَ والشر؟ إن كان لا يعلم الخير والشر، فلماذا يرسل الأنبياء والرسل، وما هو ذلك الشيء الذي يبتغي أن يتعلمه الناس بواسطة أولئك المرسلين؟ ألا يريد سبحانه أن يحق الحق ويُزهق الباطل؟ إننا إذا أغفلنا للحظة واحدة أن الغرض الأول والأسمى الذي من أجله خُلق الإنسان، هو أن يعلم كيف يُفرّق بين الحق والباطل، وإذا كانت معرفة الحق والباطل قد حُجبت عنه ومُنع هو منها، فما هو الداعي إذًا لخلق الإنسان؟ وإذا كان الإنسان لا يعرف الحق والباطل، فكيف يقال أنه خُلق على صورة الله؟ إذا خلا الإنسان

من القدرة على معرفة الخير والشر، فإنه لا يمكن أبدا أن يكون على صورة الله. أما إذا كان فعلا قد خُلق على صورة الله، فمن الخطأ الظن بأنه قد مُنع من الاقتراب من شجرة معرفة الخير والشر. وإذا كان قد نُهي عن الاقتراب من شجرة معرفة الخير والشر، فمن الخطأ القول بأن الله قد خلق الإنسان على صورته.

(٢) في سفر التكوين ٢: ١٧ نقرأ:

"وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت."

وفي سفر التكوين ٢: ٩ نقرأ أيضا:

"وأنبت الرب الإله من الأرض كلَّ شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل، وشجرةَ الحياة في وسط الجنة وشجرةَ معرفة الخير والشر".

هذه العبارة يمكن أن تعني فقط أحد أمرين: إما أنه كانت هناك شجرة واحدة في وسط الجنة، لها القدرة على إعطاء الحياة كما أن لها القدرة على تعليم الخير والشر؛ وإما كانت هناك شجرتان، إحداهما تعطي الحياة، والأخرى تعطي القدرة على معرفة الخير والشر. فإذا كانت العبارة تعني وجود شجرة واحدة، فإن العبارة التي في التكوين ٢: ١٧ تكون بلا معنى، لأن العبارة رقم ٩ تصف الشجرة بأنها تعطي الحياة وليس الموت. أما إذا كانت العبارة تعني وجود شجرتين وليس شجرة واحدة، فإن العبارتين تكونان متناقضتين. فإذا كان آدم قد أكل من شجرة معرفة الخير والشر، فإن الموت بالنسبة له ليس حتميا، لأنه يستطيع أن يأكل من شجرة الحياة ويبطل تأثير شجرة معرفة الخير والشر. وحسب ما جاء في الكتاب المقدس يتبين أنه عندما أكل آدم من شجرة المعرفة، فإنه يمكن أن يكون قد أكل أيضا من شجرة الحياة. فإذا كان ما يترتب على الأكل من شجرة المعرفة هو الموت المؤكد، فإن ما يترتب على الأكل من شجرة الحياة هو الحياة الأبدية. إنه من الصعب فهم الموقف الذي وجد فيه آدم نفسه؛

شجرة تمنحه الحياة الأبدية، وأخرى تمنحه الموت.

ونعلم من الكتاب المقدس أن آدم وزوجه أكلا من شجرة الحياة. فنقرأ في التكوين ٣: ٢- ٣ ما يلي:

"فقالت المرأة للحيّة: مِن ثمر شجر الجنة نأكل. وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمسّاه لئلا تموتا."

ويظهر من هذه العبارة أن آدم وزوجه قد أكلا من ثمر جميع شجر الجنة ما عدا ثمر شجرة المعرفة. فإذا كان كلام الكتاب المقدس صحيحا، يكون آدم وزوجه قد أكلا بالفعل من ثمر شجرة الحياة، وإذا كانا قد أكلا من شجرة الحياة هذه، فكيف يمكن أن يموتا؟ ومع ذلك نقرأ في التكوين ٣: ٢٢ ما يلي:

"وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويحيا إلى الأبد".

وهذه العبارة تبين أن آدم لم يأكل شيئا من شجرة الحياة، وبالتالي فإنه من المستحيل علينا أن نقرر أي العبارتين هي الصحيحة. هل هي تلك التي تقول إن آدم لم يأكل من شجرة الحياة، أم تلك التي جاءت على لسان زوج آدم وتقرر أنه باستثناء شجرة المعرفة، فإنهما أكلا من جميع ثمر شجر الجنة؟ كذلك فإننا لا نستطيع أن نقرر ما إذا كان الأكل من شجرة المعرفة ينتج موتا مؤكّدا، أو أن الأكل من شجرة الحياة ينتج حياة أبدية.

إن هذه العبارات جميعها تناقض بعضها البعض، وكلام الله تعالى لا يمكن أن يتضمّن هذه التناقضات. ومن المؤكد أن هذه العبارات قد أضيفت إلى الكتاب المقدس بواسطة الكتبة الذين أدخلوا فيه أفكارا متناقضة. إن الكتاب الذي يحتوي على مثل هذه العبارات المتناقضة لا يمكن أن يُنسب إلى إنسان عاقل، ناهيك أن يُنسب إلى الله تعالى. غير أن موسى عليه السلام كان رسولا من رسل الله المكرمين، والتوراة كانت بكل يقين الكتاب الذي أوحى الله به إليه، ولذلك فلا بد لنا من

القول بأن هذه المتناقضات قد أضيفت فيما بعد. ولا يمكن إلقاء اللوم على الله تعالى ولا على موسى عليه السلام. وليس أمامنا سوى القول بأنه عندما قضى الله تعالى باستبدال الكتاب المقدس بكتاب آخر قدّر أن تكون فيه كتب قيّمة، فإنه رفع حفظه عن الكتاب المقدس، فلم يعد آمنا من تدخل أيدي البشر، ولا سليما من آثار الزمن.

(٣) في التكوين ٢٢: ١٤ نقرأ:

"فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يَهْوَهْ بَرْأَه حتى إنه يقال اليوم في جبل الرب يُرى".

ثم نقرأ في سفر الخروج ٦: ٣ ما يلي:

"وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء، وأما باسمي يَهْوَهْ فلم أُعرَف عندهم".

إن التناقض بين هاتين العبارتين واضح تمام الوضوح. فالعبارة التي في سفر الخروج تقول إن اسم يهوه قد كُشف عنه للمرة الأولى إلى موسى عليه السلام، وقبل زمنه لم يعرف أحد من الأنبياء، لا إبراهيم ولا إسحاق ولا يعقوب، اسم يهوه. غير أن العبارة التي جاءت في سفر التكوين تقول إن هذا الاسم قد أوحي إلى إبراهيم، وأنه قد سمّى جبلا باسم يهوه برأه.

(٤) وبالمثل في سفر العدد ٣٣: ٣٨ نقرأ:

"فصعد هارون الكاهن إلى جبل هور حسب قول الرب ومات هناك في السنة الأربعين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في الشهر الخامس في الأول من الشهر".

ولكن في سفر التثنية ١٠: ٦ نقرأ ما يلي:

"وبنو إسرائيل ارتحلوا من آبار بني يعقان إلى موسير. هناك مات هارون وهناك دفن، فكهن ألِعازر ابنه عوضا عنه".

ومن الواضح أن نفس الشخص لا يمكن أن يموت في مكانين مختلفين. ولا شك أن هاتين العبارتين المتناقضتين قد أدخلتا على الكتاب المقدس بواسطة اثنين من الكتبة اللذين كانا يسجلان مفهومهما الخاص، ثم صار ما كتباه فيما بعد يعتبر أنه كلمة الله تعالى.

(٥) في سفر صموئيل الأول ١٦: ١١- ١٣ نقرأ أن داود كان الابن الثامن ليسّى:

"وعبّر يسّى بنيه السبعة أمام صموئيل فقال صموئيل ليسّى: الرب لم يختر هؤلاء. وقال صموئيل ليسّى هل كمل الغلمان. فقال بقي بعد الصغير وهو ذا يرعى الغنم. فقال صموئيل ليسّى أرسل وأت به لأننا لا نجلس حتى يأتي إلى ههنا. فأرسل وأتى به وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر. فقال الرب قم امسحه لأن هذا هو. فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط إخوته. وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعدا".

ولكننا نقرأ في سفر أخبار الأيام الأول ٢: ١٣- ١٥ أن داود عليه السلام كان الابن السابع ليسّى:

"ويسّى ولد بكره أليآب وأبيناداب الثاني وشِمعي الثالث ونثنئيل الرابع وردّاي الخامس وأوصم السادس وداود السابع".

وهذا التناقض يبين أيضا أن المؤرخين من ذوي القناعات المختلفة قد أدخلوا آراءهم الخاصة في الكتاب المقدس. وعلى هذا، فإن الكتاب المقدس كما نعرفه اليوم لا يمكن أن يعتبر كتاب الله المحفوظ في صيغته الأصلية، ولا في نقاوته التي كان عليها في الماضي السحيق.

(٦) في سفر صموئيل الثاني ٦: ٢٣ نقرأ:

"ولم يكن لميكال بنت شاؤل ولد إلى يوم موتها".

بينما في نفس السفر ٢١: ٨ نقرأ أن لميكال بنت شاؤل خمسة أبناء:

"فأخذ الملك ابني رِصفة ابنة أيّة اللذيْن ولدتهما لشاول أرموني ومفيبوشث وبني ميكال ابنة شاؤل الخمسة الذين ولدتهم لعدرئيل ابن برزلاي المحولي".

وهكذا نرى في نفس السفر أن ميكال كانت بلا ولد في إصحاح، بينما في الإصحاح الآخر نجد أنها أم لخمسة من الأبناء.

(٧) وبالمثل نقرأ في سفر أخبار الأيام الثاني ٢١: ١٩- ٢٠ أن الملك يهورام قد تبوّأ العرش وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وظل في مُلكه ثماني سنين، ثم تنحّى عن العرش لمدة سنتين بسبب مرض خبيث، ثم مات بعد سنتين، أي أنه عاش اثنين وأربعين عاما:

"وكان من يوم إلى يوم وحسب ذهاب المدة عند نهاية سنتين أن أمعاءه خرجت بسبب مرضه فمات بأمراض رديّة ولم يعمل له شعبه حريقة كحريقة آبائه. كان ابن اثنتين وثلاثين سنة حين ملك وملك ثماني سنين في أورشليم وذهب غير مأسوف عليه ودفنوه في مدينة داود ولكن ليس في قبور الملوك".

ولكن في نفس السفر أيضا، بل وفي الإصحاح التالي مباشرة، أي الإصحاح ٢٢: ١- ٢ نقرأ:

"وملّك سكان أورشليم أخزيا ابنه الأصغر عوضا عنه (أي ابن يهورام) لأن جميع الأولين قتلهم الغزاة الذين جاءوا مع العرب إلى المحلة. فملك أخزيا بن يهورام ملك يهوذا. كان أخزيا ابن اثنين وأربعين سنة حين ملك وملك سنة واحدة في أورشليم".

إن المقتبس الأول يبين بكل وضوح أن يهورام كان عمره ٤٢ سنة عند موته. والمقتبس الثاني يؤكد على أن ابن يهورام الأصغر "أخزيا" كان عمره ٤٢ سنة

أيضا عندما تبوأ العرش عند وفاة أبيه. فإذا كان الابن الأصغر في سن أبيه، فهل كان إخوته الكبار الذين قتلهم الغزاة أكبر من أبيهم؟ هل يمكن لأي إنسان عاقل أن يتفوّه بهذه العبارات المتناقضة؟ الأب يموت وعمره ٤٢ سنة، وابنه الأصغر يخلفه على العرش وعمره أيضا ٤٢ سنة. إن مثل هذه العبارات لا تأتي في أي كتاب عادي من تأليف البشر، ناهيك أن يكون كتاب من عند الله تعالى العليم الذي يعلم الغيب والشهادة. ولا شك أن هذه المتناقضات لم تكن في ذلك الوحي الذي أنزله الله تعالى إلى أنبيائه الكرام، و لم يتفوّه أولئك الأنبياء بهذه العبارات المتناقضة. ولأنها عبارات متناقضة، فلا يمكن أن تُنسب إلى مؤلف واحد، ولذلك فليس أمامنا سوى القول بأن العديد من الأشخاص أدخلوا أفكارهم في كتاب الله، آملين أن يعتبرها الناس من وحي الله. إن أحد هؤلاء المؤلفين ظن أن يهورام كان ابن ٤٢ سنة حين مات، فكتب هذا. ولعل المؤلف الآخر ظن أنه كان قد بلغ مئة سنة من العمر، وبالتالي قدّر أن عمر ابنه الأصغر في ذلك الوقت كان ٤٢ فكتب ذلك. ولما جُمعت هذه الكتابات فيما بعد، تبين بعد الدراسة والفحص أنها متناقضة. ولا بد من الاعتراف بأن الكاتب الذي اعتقد أن يهورام قد مات في الثانية والأربعين من عمره، لم يكن يعتقد أن ابنه أخزيا كان أيضا في الثانية والأربعين من عمره عند وفاة أبيه، ولكن ربما في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره. ولا بد أيضا أن نعترف بأن الكاتب الذي كان يعتقد أن أخزيا كان في الثانية والأربعين من عمره عندما تولى العرش، لا يمكن أنه كان يعتقد أن أباه كان أيضا في الثانية والأربعين من عمره. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: ما هي الفائدة الروحية التي يمكن أن يجنيها المرء من كتاب كهذا؟ وأي إيمان أو أية ثقة يمكن أن يخلقها مثل هذا الكتاب في نفوس قرّائه؟ إن كان قد قيل إن التوراة عبارة عن مجموعة من العبارات التي كتبها ألوف من العلماء اليهود، فحتى حينئذ ربما يمكن أن يستخلص المرء بعض الفائدة من كتاب كهذا. ولكنا نجد أنه من ناحية يقال إن هذا الكتاب كتاب

مقدس يحتوي كلمة الله، ومن ناحية أخرى نجد أنه يحتوي ألوف المتناقضات. وهذا الادعاء الذي لا معنى له في وصف الكتاب المقدس، يذهب بكل فائدة يمكن أن تُجنى من ورائه، ومثل هذا الكتاب لا يصلح بعد لأن يكون هاديا للناس. فمن ذا الذي يستطيع القول بعد مثل هذا الكتاب أننا لسنا في حاجة إلى كتاب سماوي آخر؟

التعاليم الوحشية في العهد القديم

إن العهد القديم لا يحتوي فقط على تناقضات، بل إننا نجد فيه أحيانا بعض التعاليم بالغة الوحشية، تعاليم لا يمكن أن يكون مصدرها إله رؤوف رحيم.

(١) في الخروج ٢١: ٢٠- ٢١ نقرأ:

"وإذا ضرب إنسان عبده أو أَمَتَه بالعصا فمات تحت يده يُنتقم منه. ولكن إن بقي يوم أو يومين لا يُنتقم منه لأنه ماله".

فما أقسى هذه التعاليم على العبيد. إن إنسانا تملأ قلبه القسوة والوحشية، يضرب عبده أو أمته ضربا مبرحا شديدا، حتى إن الضحية المسكين يموت، رجلا كان أو امرأة، بعد يوم أو يومين، ومع ذلك فإن الكتاب المقدس لا يضع أية عقوبة لهذا القاتل القاسي، لأن العبيد والإماء تعتبر ملكا خاصا له. فهل يمكن أن تظل مثل هذه التعاليم إلى الأبد؟ ألا تستحق هذه التعاليم أن تُلغى وتُزال، لتحل محلها تعاليم أخرى تمنع العبودية، وتحول دون ظلم السادة لمن تحت أيديهم من العبيد؟ إن هذه التعاليم الأخرى هي بلا شك التي قدّمها الإسلام. فالإسلام لم يضع فقط القوانين التي تؤدي إلى إلغاء الرق، بل وضع أيضا القوانين التي تضمن معاملة إنسانية طيبة للعبيد والإماء الذين لم يستطيعوا أن يحصلوا على حريتهم. فقد حدث مرة أن ضرب أبو مسعود الأنصاري عبدا له، فسمع من ورائه صوتا يناديه: ''اعلم أبا مسعود، لَلّهُ أقدر عليك منك عليه''. ولما التفت أبو مسعود رأى الرسول ﷺ يقترب منه، فسقط السوط من يده، وقال: "يا رسول الله، هو

حرٌّ لوجه الله". فأجابه الرسول ﷺ: "أما لو لم تفعل للفحتك النار" (مسلم: كتاب الإيمان). وبالمثل، يقول أحد صحابة الرسول ﷺ: "رأيتُني سابعَ سبعة من بني مقرّن ما لنا خادم إلا واحدة لطَمها أصغرُنا، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نعتقها"، وقال: السيد الذي يضرب عبده لا يصلح لأن يبقيه (البخاري: كتاب العتق).

وقد ضرب الرسول ﷺ بنفسه أعلى الأمثلة في هذا الخصوص. فعندما تزوج السيدة خديجة رضي الله عنها، وهبته كل ما تملك، وكان من ضمن ذلك عبيدها، فأعلن ﷺ أنه لا يمكن أن يجعل إنسانا عبدا له، ثم أتبع قوله هذا بأن أطلق سراح جميع العبيد والإماء الذين أهدتهم إليه زوجه. وطوال حياته لم يملك عبدا أبدا.

(٢) في سفر اللاويين ٢٠: ٢٧ نقرأ:

"وإذا كان في رجل أو امرأة جانٌّ أو تابِعُه فإنه يُقتَل بالحجارة يرجمونه. دمه عليه".

وكذلك نقرأ في الخروج ٢٢: ١٨

"لا تدع ساحرة تعيش".

ما أشدَّ افتقادَ هذه التعاليم إلى المنطق والعقلانية، بل وإلى العدل أيضا، خاصة إذا كان المقصود بالسحر بعض الحيَل التي تقدّمها فئة من المحترفين لتسلية الناس. من الواجب أن نعتبر هذه الأمور من باب التسلية والترويح عن الناس، فهم يحتاجون إلى نوع من التسلية البريئة للتسرية عنهم في حياتهم التي تملؤها الهموم والمشاغل. وهؤلاء يمتهنون ذلك ليلعبوا دورهم في إمتاع الناس ببراعتهم وحيلهم البريئة. والقول بأن مثل هؤلاء يستحقون عقوبة الموت أمر يتعارض مع العدالة. أما إذا كان المقصود بالسحر هنا هو ما يحدث للشخصيات العجيبة في أقاصيص الأطفال وفي الأساطير، من تحويل الإنسان إلى ثور أو تحويل المرأة إلى عصفور،

فإن هذه التعاليم التي أُقحمت على الكتاب المقدس ليست غبية فحسب بل هي متوحشة أيضا. إن هذه الشخصيات العجيبة التي جاءت في الأساطير لم توجد أبدا في الحقيقة، واتهام أحد بأنه يمكن أن تكون له هذه القوى الخارقة، ثم الأمر بقتله بسبب ذلك هو قمة الوحشية.

(١) وفي التثنية ٧: ١- ٢ نقرأ:

"متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخلٌ إليها لتمتلكها وطرد شعوبا كثيرة مِن أمامك الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين سبعَ شعوب أكثرَ وأعظم منك. ودفَعهم الرب إلهُك أمامك وضربتَهم، فإنك تحرّمهم. لا تقطع لهم عهدا، ولا تشفق عليهم".

ما أشد قسوة هذه التعاليم للعدو المنهزم المقهور. إن قتل جميع الأفراد من الأعداء بعد أن تمت هزيمتهم، دون عقد أية معاهدة أو اتفاق معهم، والأمر بعدم الشعور بأية شفقة تجاههم، قد يكون أسلوبا يتّبعه أحد ملوك الدنيا القساة الغلاظ الذين لا يعرفون الرحمة ولا الشفقة، أما أن تُنسب هذه التعاليم إلى إله رحيم شفوق، فهذا ما لا يمكن أن يكون.

لا شك أن هذه التعاليم قد اخترعها بعض اليهود الذين جاءوا بعد موسى عليه السلام وقد غمرت القسوة قلوبهم، فأدخلوها في الكتاب المقدس دون اعتبار للإساءة الشديدة التي يلصقونها بهذا الكتاب.

التعاليم غير المنطقية في العهد القديم

إن العهد القديم يحتوي العديد من العبارات غير المنطقية.

(١) في سفر اللاويين ١١: ٦ نقرأ ما يلي:

"والأرنب لأنه يجترّ، لكنه لا يشق ظلفا، فهو نجس لكم".

وبالمثل نجد في سفر العدد ٢٢: ٢٨ أن حمار بلعام تحدث معه:

"ففتح الرب فم الأتان فقالت لبلعام: ماذا صنعت بك حتى ضربتني الآن".

وفي سفر التكوين ٤٦: ٢٧ نقرأ أن عدد بني إسرائيل عندما دخلوا مصر كانوا سبعين شخصا، ولكن بعد مرور مئتين وخمسين عاما، أي في زمن موسى عليه السلام، تضاعف عددهم حتى إن عدد الرجال البالغين بلغ ستمئة ألف. ففي سفر الخروج ١٢: ٣٧ نقرأ هذا الادّعاء:

"فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ست مئة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولادَ".

فإذا أخذنا في الاعتبار عدد البالغين من الرجال، يمكن أن نقدّر عدد جميع الرجال والنساء والأطفال بما يساوي اثنين ونصف مليون نسمة، وهو عدد مبالغ فيه يزيد كثيرا عن أية احتمالات معقولة. إن الحقائق التاريخية أيضا تتعارض مع هذا العدد. فعندما خرج موسى عليه السلام مهاجرا من مصر إلى أرض كنعان، كان عليه أن يعيش في البرية لمدة أربعين عاما مع هذا الجمع الغفير، فكيف عاش اثنان ونصف مليون شخص في البرية؟ هل وجدوا في الصحراء طعاما وشرابا يكفيهم لمدة أربعين عاما. صحيح أن الله تعالى قد أنزل عليهم المنّ والسلوى، ولكن كما يقول الكتاب المقدس، كانت هذه النعم تتنَزّل أحيانا، فكيف استطاع هذا العدد الهائل أن يجد الطعام والشراب ما دام لم يأت طعامهم وشرابهم من السماء.

ونعلم أيضا من الكتاب المقدس أن أسباط بني إسرائيل كانت تحصل على الماء من العيون، كل قبيلة لها عين من الماء. ولكن، كيف نصدق أن مليونين ونصف نسمة يمكن أن يحصلوا على ما يلزمهم من المياه من هذه العيون. إن الأراضي التي مروا بها لم تكن تحوي على قنوات أو أنهار. ربما ينبوع هنا أو هناك، ولكن هذه الينابيع كانت صغيرة، فكيف تكفي لمليونين ونصف من الأشخاص.

إن الكتاب الذي يحتوي مثل هذه العبارات غير المنطقية لا يمكن أن يُشبع حاجة الفكر الإنساني وعقله. لا شك أنه كان كتابا سماويا، دوّنه أنبياء الله، ولكنه فقد قوامه الأصيل وصار مشوّها لا نكاد نميز فيه الأصيل من الدخيل. واعتبار أن الكتاب الذي عانى بهذا الشكل من التحريف والتبديل، كلمة الله نصّا وحرفا، أمر يسيء إلى الله تعالى وإلى الدين عامة. لذلك كان من الضروري بعد مثل هذا الكتاب أن يأتي من الله كتاب آخر يكون خاليا من هذه التحريفات، ومحفوظا من الإضافات التي أدخلتها الأيدي البشرية. ويأتي القرآن المجيد لإنقاذ الموقف فيما يتعلق بأعداد بني إسرائيل فيقرر الحقيقة التي ضاعت فيقول:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ (البقرة: ٢٤٤)

فكما يقرر القرآن المجيد، كان عدد شعب بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر يبلغ بضعة ألوف. ويتضح أن هذا هو الرقم المعقول لأن اثنين ونصف مليون نسمة من اليهود لا يمكن أن يعيشوا في خوف من القبائل الفلسطينية الصغيرة. ففي أحسن العهود التي مرت على فلسطين، لم يزد عدد سكانها عن مليونين أو ثلاثة ملايين نسمة. وحتى في العصر الحالي يبلغ عدد سكان فلسطين حوالي مليون أو مليون ونصف من السكان. ويرفض العرب بشدة كل المحاولات لإسكان أعداد أخرى من السكان في فلسطين♦. وفي العصور القديمة لم يكن من المعتاد نقل المواد الغذائية من مكان لآخر. ولم يكن من الممكن للأعداد الكبيرة من الناس أن تعيش على طعام لا يُنتج محليا. وسكان فلسطين في ذلك الزمن لا يمكن أن يزيدوا عن بضعة ألوف. والأحداث التي سجلها تاريخ بني إسرائيل تبين أن الحروب التي وقعت بينهم وبين أعدائهم لم يزد فيها عددهم عن بضع مئات

♦ هذه الأرقام تشير ما كان عليه الحال في الأربعينيات من القرن العشرين قبل قرار تقسيم فلسطين حين تم نشر هذا الكتاب باللغة الإنجليزية. (الناشر)

أو ألوف قليلة. وإن كان موسى عليه السلام قد خرج من مصر على رأس مليونين ونصف من بني إسرائيل، فبغض النظر عن الفترة التي قضوها في الصحراء، وحتى في الظروف العادية، لم يكن من الممكن توفير الغذاء اللازم لهذا العدد الكبير. ومن ناحية معارضة سكان فلسطين لبني إسرائيل، لم يكن من الضروري خوض أية حروب، إذ لا يستطيع أحد أن يقف أمام جحافل هذه الأعداد الكبيرة.

(٢) وبالمثل نقرأ في سفر الخروج ٣٢: ١- ٦

"ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النّزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها. فنَزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالأزميل وصنعه عجلا مسبوكا. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه ونادى هارون وقال: غدًا عيدٌ للرب. فبكّروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة، وجلس الشعب للأكل والشرب، ثم قاموا للعب".

إن الأمر الذي لا يمكن تصوّره هنا، أن الإنسان الذي سمع صوت الله تعالى يمكنه أن ينسب القدرات والصفات الإلهية لآخر، ناهيك أن يكون ذلك الآخر عجلا. فالإنسان الذي يرى فيلا لا يمكن أن يعتبره فأرا، ومن يرى الشمس لا يمكن أن يعتبرها شمعة. هل يمكن لمن يرى إنسانا مثله أن يعتبره دودة؟ كذلك لا يمكن للنبي الذي رأى الله تعالى واستمع لصوته أن يعتبر الله عجلا من ذهب. إن هذا الخطل والخطأ لا نتوقعه حتى من إنسان مجنون، ناهيك أن يصدر عن نبي من أنبياء الله. إن العامة من بني إسرائيل قد يكون لهم بعض العذر، فهم لم يروا الله تعالى، ولم يتلقوا وحيه، ولم يسمعوا صوته، وإنما سمعوا فقط موسى وهارون يحدثونهم بكلام الله تعالى، فآمنوا وصدّقوا بما سمعوه. ولذلك فقد صدّقوا أيضا ما

قاله السامريّ عن العجل الذهبي. ولكن من المستحيل أن يُدان هارون عليه السلام. لقد رأى هارون الله تعالى وسمع صوته، فكيف يمكن أن يخدعه السامريّ، وينجح في إقناعه بأن الله عجل من ذهب صُنع بأيدي البشر؟ وهل من المعقول أن الإله العليم الخبير، الذي يعلم الخفايا في أعماق القلوب، يمكن أن يختار من أجل إصلاح وهداية بني إسرائيل رجلا من المقدّر له أن يكون ضعيف الإيمان بهذه الدرجة التي تنسبها التوراة لهارون عليه السلام؟ إن الملوك العاديين لديهم القدرة على اختيار قادة أكفاء ونواب قادرين على أداء المهمة التي يُكلَّفون بها، وهي ميزة تحسب لهم، مع أنهم لا يستطيعون أن يقرءوا ما في قلوب قادتهم ونوابهم. ولكن حسب ما يخبرنا به الكتاب المقدس، إن الله تعالى الذي يعلم جميع الأسرار، ويفوق علمه كل ما يعلمه أي إنسان وأي ملَك، قد اختار هارون وأسند إليه مهمة هداية بني إسرائيل إلى طريق الله، وكلّمه وأنزل إليه وحيه وتجلى عليه؛ ولكن السامريّ حين دعا هارونَ إلى عقائده الفاسدة، وعمله الشنيع المعادي لله، إذا بهارون يخضع له على الفور، ويأمر بني إسرائيل بجمع الذهب لعمل عجل من ذهب، ثم يرفع العجل إلى مكان مرموق ويعلن أنه إله بني إسرائيل! فهل نسي هارون الله تعالى خوفا من قومه، نسي ما كلفه الله تعالى من أعمال، نسي واجبه كرسولٍ لله تعالى، نسي كل حكمته ومنطقه، وراح كأي جاهل غبي يحني رأسه أمام عجلٍ لا حياة فيه؟

إن أولئك الذين أدخلوا هذا الهراء وهذه الخرافة في الكتاب المقدس، لا بد أن عقولهم كانت خاوية، حتى إنهم تصوروا أن من سيأتي بعدهم لن يستطيع أن يميّز هذا الكلام المدسوس. وبعد كل هذا التشويه والإضافات الخطيرة في التوراة، تظل الحقيقة بازغة واضحة، وهي أن التوراة لم تعد تحتفظ بصفة الكتاب السماوي المنَزّل من عند الله تعالى. واحتاج الأمر إلى كتاب آخر يكشف السخافات التي جاءت فيها، ويطمئن الدنيا بأن هارون لم يكن إنسانا كافرا أو مؤمنا بالأساطير والخرافات. ذلك الكتاب هو القرآن المجيد. لقد برّأ القرآن

هارون من تهمة الكفر بالله وعبادة الأصنام، وذكر أنه فضلا عن أنه لم يكن من الكافرين الضالين، فقد حذّر قومه من الكفر والضلال. إذ يقول عنه القرآن المجيد:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (طه:٩١).

ويتضح من هذا أنه حتى من قبل عودة موسى عليه السلام من جبل سيناء، حذّر هارون عليه السلام بني إسرائيل من أن الغرض من صناعة عجل الذهب هو فتنتهم وإضلالهم، وحثّهم على التمسك بالإيمان بالله تعالى، الرحمن الذي زوّدهم بكل ما يحتاجونه من طيبات الحياة، حتى من قبل أن يولدوا في هذه الدنيا. ولفت أنظارهم إلى أن العجل قد صُنع أمام أعينهم، وحضّهم على أن يتبعوه ويطيعوا أمره، ليبتعدوا عن كل مظاهر الشرك والكفر وعبادة الأصنام.

ويعود الأمر الآن إلى العقلاء من الناس، ليقرروا ما إذا كان ذلك الكتاب الذي كان قد أُنزل على موسى عليه السلام لا يزال يستحق إيماننا به، بعد أن أخذ يناقض الحقائق الثابتة ويروي لنا عقائد تخالف العقل والمنطق. ألا ينبغي علينا أن نبحث عن كتاب آخر يذكر لنا الحقيقة عن الأحداث التي وقعت في زمن موسى عليه السلام، حتى ولو جاء ذلك الكتاب بعد مرور ألفَي سنة من بعده؟

(٣) وفي سفر التكوين ١٩: ٢٦ نقرأ عن زوجة لوط عليه السلام ما يلي:

"ونظرتْ امرأته من ورائه فصارت عمود ملح."

إن هذا يبدو كالسحر الذي يُذكر في الأساطير، ومثل هذه العبارات قد تناسب الحكايات التي تُروى للأطفال عن الأشباح والجنّيات، ولكن ليس لها مكان في كتاب الله تعالى. أما عبارة القرآن المجيد التي جاءت عن تلك الواقعة فهي تبعد تماما عن كل الخرافات والخزعبيلات. يقول تعالى في كتابه العزيز:

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (الأعراف:٨٤).

إنها لم تتحول إلى عمود من ملح ولا إلى أي شيء آخر. لقد رفضت أن تذهب مع لوط عليه السلام، واختارت حب الأقرباء عن حب الله وقربه.

إن القرآن المجيد يحتوي أحداثا تتعلق بزمن موسى عليه السلام، ذكرتها التوراة الحالية بصورة خاطئة مشوّهة، ولكن القرآن المجيد الذي جاء بعد مضي ألفي عام، استطاع أن يصحح ما ورد عن هذه الأحداث من أخطاء. والأخطاء التي كشف عنها وبيّنها القرآن المجيد، لا تخفى على كل ذي عقل فهيم ومنطق سليم.

تشويه سمعة الأنبياء في الكتاب المقدس

كذلك تسللت إلى الكتاب المقدس عبارات لها مدلولات غير أخلاقية، وإنه من المستحيل إسناد الأعمال التي جاءت في هذه العبارات إلى الله تعالى ولا إلى أنبيائه الكرام.

(١) في سفر التكوين ٩: ٢٠- ٢٢ نقرأ ما يلي:

"وابتدأ نوح يكون فلاّحا وغرَس كَرْمًا. وشرب من الخمر، فسكر وتعرّى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء، فلم يبصرا عورة أبيهما".

هذه العبارة تصوّر نوح عليه السلام في صورة غير لائقة. فهي تذكر أنه زرع حقلا من عنب، ثم شرب الخمر، وكان عاريا في خيمته، وأن ابنه حام رآه عاريا فأخبر أخويْه عن ذلك. والعبارة كلها لا تليق بنوح عليه السلام الذي نقرأ عنه في سفر التكوين ٦: ٩

"كان نوح رجلا بارّا كاملا في أجياله وسار نوح مع الله".

وما لا يمكن فهمه ولا تصوّره، أن رجلا كهذا يمكن أن يرتكب هذا العمل المشين، فيتعرّى أمام أبنائه وهو مخمور. وما يصطدم بالمشاعر الأخلاقية

والإحساس بقيمة العدالة أن يرتكب نوح هذا العمل المشين، كما تزعم التوراة، ثم يصبّ اللعنات على "كنعان". لقد كانت غلطة حام، حسب هذه العبارة التوراتية، أنه رأى أباه عاريا، ولم يكن ليستطيع أن يفعل غير ذلك، إذ أنه لما وجد أباه عاريا ومخمورا، لم يستطع أن يتحاشى رؤيته. ومع ذلك، فعبارة التوراة تزعم أن نوحا قال: "ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته" (التكوين ٩: ٢٥).

فما ذنب كنعان؟ إن كنعان لا يستحق اللوم على الإطلاق. لقد كان كنعان ابن حام الذي لم يستطع أن يتحاشى رؤية أبيه عاريا. ومع ذلك لم يتفوّه نوح بكلمة في حق ابنه حام، بل راح يلعن ابن ابنه كنعان الذي لا ذنب له بتاتا. هل لأن حام كان ابنه، وأما كنعان فكان حفيده؟ إن هذا التصرف يمجّه الضمير الأخلاقي، ولا يمكن أن يُنسب إلى نبي من أنبياء الله تعالى. ومن يحاول إلصاق هذا التصرّف إلى نبي، يرتكب حماقة مشينة في حق نفسه. إننا نفهم بالطبع أن الله تعالى لم يوح بهذه التخرّصات إلى موسى عليه السلام، وهو لم يكتبها في أسفاره، وإنما لا بد أن الذي كتبها هم رجال الدين اليهود، الذين وصفوا رسل الله بأنهم لصوص وقطاع طرق، وهم الذين أقحموا هذه البذاءات في أسفار موسى عليه السلام، للتغطية على نقائصهم ومعاصيهم. إن تدخلهم غير المقدس في كتاب الله المقدس، جعل من الضرورة أن يبعث الله كتابا آخر يكون خاليا من مثل هذه الخزعبلات والضلالات التي تسربت إلى الكتاب القديم.

(٢) في التكوين ١٩: ٣٠- ٣٦ نقرأ ما يلي:

"وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البِكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلم نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلا. فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا

بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلا. فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة أيضا وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما".

ولا يحتاج الأمر إلى التعليق على هذه الرواية الفظيعة، فإنها تؤذي الإحساس السليم، وتهين المشاعر الأخلاقية والعقلية. غير أن التوراة الحالية لا تتردد في نسبتها إلى نبي من أنبياء الله ﷻ، ولذلك فلا بد من الإقرار بأن التوراة التي في أيدينا اليوم، ليست هي التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام. ولا بد أن التوراة الموجودة الآن قد أعاد كتابتها رجال الدين اليهودي، الذين كانت تطفح قلوبهم بالكراهية تجاه أبناء لوط عليه السلام، سواء كانوا أبناءه الحقيقيين أو المنسوبين إليه، وهما موآب وعمّون. لقد تلاشى إيمان رجال الدين أولئك، وقست قلوبهم حتى صارت كالحجارة أو أشد قسوة، حتى إنهم من أجل الإساءة والتشهير بموآب وعمون، لم يتورّعوا عن اتهام النبي لوط بهذا السلوك المشين، الذي لا يمكن أن يُنسب إلى نبيّ من الأنبياء بحال من الأحوال. فهل العالم المسيحي والعالم اليهودي اليوم على استعداد لقبول إلصاق هذه القاذورات بأنبياء الله؟ إن كانت الإجابة بالإيجاب، فإن هذا يكون دليلا آخر على ضرورة وجود كتاب آخر من أجل أن يُصلح العقلية الفاسدة في زمننا المعاصر.

(٣) وفي التثنية ٢٥: ٥- ٦ نقرأ ما يلي:

"إذا سكن إخوة معا، ومات واحد منهم وليس له ابن، فلا تَصِرْ امرأة الميّت إلى خارج لرجل أجنبي، أخو زوجها يدخل عليها، ويتخذها لنفسه زوجة ويقوم لها بواجب أخي الزوج. والبِكر الذي تلده يقوم باسم أخيه الميت، لئلا يُمحى اسمه من إسرائيل".

إن أقل ما توصف به هذه التعاليم أنها شاذة ومنحرفة، فاسدة ومفسدة إلى

أقصى حد. إنها تحض الأرملة على الخضوع لأخي زوجها، وتحمل منه أطفالا ليحملوا اسم الزوج الميّت. فهل يمكن للأبناء الذين أنجبهم شخص ما أن يحملوا اسم شخص آخر؟ إذا كان بالإمكان أن يستمر نسل الأخ من ولد أنجبه أخوه، فما هي ضرورة أن يجبر الأخ على الزواج من أرملة أخيه. أما كان الأفضل للتوراة أن تقرر بأن أحد أبناء الأخ يجب أن يُنسب إلى أخيه المتوفّى، فقد يتمشّى ذلك، إلى حد ما، مع المنطق. ولكن يبدو أن رجال الدين اليهود الذين قد اختلقوا تهمًا داعرة ونسبوها إلى لوط عليه السلام، قد جعلهم الله تعالى يُدخلون في التوراة من شطحات التعاليم ما يلمز بأنسابهم ويشكّك في طهارة أمّهاتهم، وبذلك انقلب عليهم ما حاولوا به إهانة لوط عليه السلام والتشكيك في نسب ذريته. إن هذه النقائص والمثالب في العهد القديم تشير بوضوح إلى الحاجة إلى الكتاب الكامل الخالي من هذه العيوب، وهذا الكتاب هو القرآن المجيد.

العهد الجديد في الميزان

رأينا فيما سبق أن العهد القديم قد عانى من التحريف والتبديل في أسلوبه وصلبه وموضوعاته، ولم يعد من الممكن أن يُفيد ككتاب يمنح الهداية للناس. ولنتوجه الآن إلى اختبار العهد الجديد.

إن الأسفار التي يحتويها العهد الجديد، ليست هي العبارات التي تفوّه بها المسيح عليه السلام ولا تلاميذه. وإن كانت هناك عبارات محفوظة تفوّه بها المسيح فعلا، فلا بد أن تكون محفوظة في اللغة العبرية. وينطبق نفس الأمر على كلام التلاميذ. ولكن، لا توجد في العالم كله نسخة واحدة من العهد الجديد باللغة العبرية. إن أقدم النسخ الموجودة كلها باللغة اليونانية. وقد حاول الكتاب المسيحيون تغطية هذا العيب الفظيع، بادّعاء أن اللغة اليونانية كانت هي اللغة المستعملة في الزمن الذي جاء فيه المسيح عليه السلام. ولكن هذا مستحيل لأكثر من سبب. إن الأمم لا تتخلى بسهولة عن لغتها، فهي بالنسبة لهم ميراث عزيز

يحرصون عليه كما يحرصون على أموالهم وممتلكاتهم. إن هناك أقواما في أوروبا الشرقية ظلوا ثلاثمئة أو أربعمئة سنة يعيشون تحت حكم الروس، ولكن لغاتهم ظلت كما هي لم تتغير إلى هذا اليوم. كذلك فقد حكمت فرنسا المغرب والجزائر لزمن طويل، ولكن لغة هذه الشعوب ظلّت هي اللغة العربية. لقد مر ألفان من السنين منذ زمن المسيح عليه السلام، ولكن اليهود لم ينسوا لغتهم. وإلى اليوم في بعض أنحاء أوروبا وأمريكا، يتكلم اليهود الإيدش، وهي صورة محوّرة من العبرية القديمة. فإذا كانت هذه الأزمنة الطويلة التي قضاها اليهود بين الشعوب والأمم الأخرى، لم تنجح في القضاء الكامل على اللغة العبرية، فهل يمكن أن تقضي عليها فترة قصيرة قضوها تحت حكم الرومان؟ ويجب أن نضع في الاعتبار أن حكم الرومان لفلسطين، لم يبدأ إلا قبل المسيح بما يقرب من خمسين عاما، وهي فترة ليست طويلة لكي تجعل شعبا ينسى لغته. وبالإضافة، هناك أمور أخرى ينبغي أن توضع في الاعتبار:

(أ) إن الشعوب التي تتبوأ أهمية خاصة في التاريخ لا تتخلى عن لغتها، ولا شك أن اليهود كانوا قوما على جانب كبير من الأهمية.

(ب) إن الديانة اليهودية كانت مدوّنة باللغة العبرية، ومن أجل هذا السبب بالذات، كان من المستحيل عليهم أن يتخلوا عن لغتهم.

(ت) في الميزان الحضاري والثقافي، لم يعتبر اليهود أنفسهم أمّة متخلّفة بالنسبة للرومان، بل كانوا يرون أنهم أفضل منهم، وهذا ما جعلهم يعتدّون بأنفسهم ويتمسّكون بلغتهم ولا يتخلون عنها.

(ث) كان اليهود يتطلعون إلى استعادة أمجادهم السياسية. إن الأمم التي تفقد الثقة بالمستقبل تشعر بالتشاؤم وتفقد كبرياءها، ويؤدي ذلك إلى التخلي بالتدريج عن لغاتهم القومية. غير أن اليهود في زمن المسيح عليه السلام كانوا في انتظار الملك الذي كان منوطا به أن يعيد تأسيس مملكة داود. والأمة التي تنتظر حدوث هذه الأمور لا تهمل أبدا المحافظة على لغتها.

(ج) إن المؤلفين والكُتّاب اليهود الذي كتبوا في ذلك الزمن، كتبوا مؤلفاتهم بلغتهم القومية أو بصيغة محوّرة منها. فإذا كانت لغتهم قد تغيرت، لكان من المحتم أن تكون كتبهم بلغة أخرى غير اللغة العبرية.

(ح) إن أقدم المخطوطات للعهد الجديد باللغة اليونانية. ولكن في زمن المسيح عليه السلام لم تكن الإمبراطورية الرومانية قد انقسمت إلى شرقية وغربية. وكانت روما لا تزال هي مركز الإمبراطورية. واللغة الرومانية واليونانية لغات صعبة للغاية. وإذا كان التأثير الروماني قد تغلغل في حياة اليهود، لأدّى ذلك إلى انتشار كلمات من اللغة اللاتينية (وليست اليونانية) في اللغة العبرية. ومع ذلك فإن أقدم المخطوطات للأناجيل هي باللغة اليونانية. وهذا يدل على أن الأناجيل قد كُتبت عندما انقسمت الإمبراطورية الرومانية، وصار الجزء الشرقي منها من ممتلكات الإمبراطورية اليونانية، وبذلك صارت اللغة اليونانية تضع بصماتها على المسيحية وآدابها.

(خ) هناك كلمات وجمل جاءت في الأناجيل بأصلها الذي كانت عليه باللغة العبرية، كما يتضح ذلك مما يلي:

(١) "أُوصَنَّا" (إنجيل متى ٢١: ٩)

(٢) "إيلي إيلي لما شبقتني" (إنجيل متى ٢٧: ٤٦)

(٣) "طليثا قُومي" (إنجيل مرقس ٥: ٤١)

(٤) "رباي" (إنجيل يوحنا ٣: ٢)

(د) من سفر أعمال الرسل (٢: ٤- ١٣) يتبين أنه بعد واقعة الصليب، كان اليهود لا يزالون يتحدّثون باللغة العبرية:

"وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا. وكان يهودٌ رجالٌ أتقياء من كل أمة تحت السماء ساكنين في أورشليم. فلما صار هذا الصوت اجتمع الجمهور وتحيروا، لأن كل واحد كان يسمعهم يتكلمون بلغته. فبهت الجميع

وتعجبوا قائلين بعضهم لبعض أتُرى ليس جميع هؤلاء المتكلمين جليليين. فكيف نسمع نحن كل واحد منا لغته التي ولد فيها. فرتيون وماديون وعيلاميون والساكنون ما بين النهرين واليهودية وكبّدوكيّة وبنتس وآسيا. وفريجية وبمفيلية ومصر ونواحي ليبية التي نحو القيروان والرومانيون المستوطنون يهود ودخلاء. كريتيّون وعُربٌ نسمعهم يتكلمون بألسنتنا بعظائم الله. فتحيّر الجميع وارتابوا قائلين بعضهم لبعض: ما عسى أن يكون هذا؟ وكان آخرون يستهزئون قائلين إنهم قد امتلأوا سُلافة".

ومن الواضح أنه في ذلك الزمن كانت اللغة التي تُستعمل في فلسطين هي اللغة العبرية. والتكلم بأية لغة أخرى يُعدّ شيئا غير مألوف. ومن أسماء اللغات المذكورة اللغةُ الرومانية التي كان يتحدث بها "الرومانيون المستوطنون يهود ودخلاء"، مما يدل على أن اللغة الرومانية لم تكن هي اللغة المستخدمة في فلسطين، ومن يتكلم بها يُعدّ غريبا. وليست غايتنا هنا تحليل قيمة النص المذكور، ولكنا نود أن نبين فقط أن هذا المقطع من سفر أعمال الرسل، يدل بدلالة حاسمة على أنه، حتى بعد واقعة الصليب، كانت لغة اليهود هي العبرية. أما أولئك الذين يعرفون لغات أخرى فكانوا استثناءات. وعندما تكلم بعض التلاميذ هذه اللغات الأخرى، وكانت اللغة اللاتينية من بينها، ظن بعض الناس أنهم سكارى يهذون. فلو كانت فلسطين كلها تتكلم اللغة الرومانية أو اليونانية، لما كان من الممكن أن يكون هذا رد الفعل.

لذلك من الجلي أن اللغة التي كان المسيح عليه السلام وتلاميذه يتحدثون بها هي اللغة العبرية، وليست اللاتينية أو اليونانية. وعلى هذا فلا بد أن نُسَخ العهد الجديد التي دُوّنت باللغة اللاتينية أو اليونانية، قد دُوّنت بعد مرور زمن طويل من بعد المسيح عليه السلام، أي في الزمن الذي بدأت المسيحية تتغلغل فيه داخل الرقعة الرومانية، وانقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى القسم الإيطالي والقسم اليوناني. ومثل هذه الكتب التي تم تأليفها بعد مرور مئة أو مئتي عام بعد المسيح، وبواسطة

مؤلفين مجهولين، ونِسبتُها إلى المسيح أو إلى تلاميذه لا جدوى منها لأي مؤمن اليوم. ولذلك كان من الضروري أن نحظى بكتاب سماوي آخر يخلو من هذه النقائص، كتاب يضفي على القارئ يقينا بأنه عندما يقرأه فإنه يقرأ بالفعل كلمة الله تعالى.

اعتراف السيد المسيح نفسه

لقد أعلن المسيح عليه السلام بكل جلاء أنه لم يأت لينقض أسفار الأنبياء السابقين، وإنما ليحقق ما جاء في تلك الكتب. وعلى هذا نقرأ في متّى ٥: ١٧- ١٨ ما يلي:

"لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل".

ونستدل من هذا أن مهمة السيد المسيح عليه السلام هي أن يعيد المفاهيم الصحيحة للتعاليم الموسوية (الناموس) ويحقق نبوءات الأنبياء. ولكن العهد الجديد، كما هو في أيدينا اليوم، يقول إن المسيح قد نسخ وأبطل تماما تعاليم الشريعة الموسوية. وعلى ذلك يكون من الواضح تماما أن العهد الجديد الحالي لا يحتوي على تعاليم المسيح عليه السلام، ولا ما دعا الناس إليه. إذ لا بد أن تعاليم المسيح عليه السلام كانت تحتوي صياغة جديدة سليمة للتعاليم الموسوية، تخلو مما أضاف الكتبة والفريسيون أنفسهم عليها. غير أن العهد الجديد، لم يكتف بإزالة ما أضافه الكتبة والفريسيون فحسب، بل بتصحيح ما كتبه موسى عليه السلام والأنبياء من بعده. وهذا الوضع متناقض، فإن جزءا من العهد الجديد يقول شيئا، والجزء الآخر يقول شيئا آخر. وعندما يتناقض الكتاب مع نفسه، لا يمكن أن يكون من وضع نفس المؤلف، ولا من تأليف مؤلف واحد.

إن ما يقال هو أن تلاميذ المسيح هم الذين كتبوا أسفار العهد الجديد، ونحن

نعلم أن أولئك التلاميذ كانوا أناسا عقلاء، فإن كبار تلاميذ الأنبياء كانوا دائما يتمتعون بالعقل والحكمة. لذلك فلا بد أن نقرر أنه من المستحيل أن يكون تلاميذ المسيح هم الذين أملوا أسفار العهد الجديد، وإنما هم حدّثوا الناس حيثما ذهبوا، وأولئك الذين سمعوهم نقلوا إلى غيرهم جوهر ما سمعوه، وهؤلاء نقلوا إلى غيرهم، وهكذا. وأخيرا، عندما أخذ الآخرون يدوّنون هذه الأمور أضافوا الكثير من أفكارهم، وكانت النتيجة أن العهد الجديد كما نعرفه اليوم عبارة عن مجموعة من المتناقضات.

شهادة العلماء المسيحيين

بعد أن استعرضنا الدلائل المستقاة من العهد الجديد نفسه على طبيعته المتناقضة، نستعرض الآن شهادة وآراء علماء المسيحية أنفسهم:

(١) في شرح الكتاب المقدس من تأليف هورن (١٨٨٢) نجد أن الحقائق المتعلقة بتدوين الأناجيل، والتي وصلت إلينا من مؤرخي الكنيسة القدامى، ليست حقائق يقينية، بل هي هزيلة ضعيفة، حتى إنه من الصعب استنتاج نتيجة محددة منها. ويبدو أنه حتى أفضل الثقات قبلوا المرويات السائدة في أزمانهم، باعتبارها حقائق إنجيلية. وأولئك الذين جاءوا من بعدهم، قبلوا آراءهم بدافع الاحترام المجرد لهم. وانتقلت هذه المرويات، التي كان بعضها زائفا وبعضها صحيحا، من يد كاتب إلى يد كاتب آخر، وبعد مرور بعض الزمن صارت تُعتبر كما لو أنها تعلو فوق النقد. (المجلد الرابع، الجزء الثاني، الفصل الثاني).

(٢) ونجد في نفس المجلد أن تدوين الإنجيل الأول، يبدو أنه قد حدث في عام ٣٧ أو ٣٨ أو ٤١ أو ٤٣ أو ٤٨ أو ٦١ أو ٦٤ بعد الميلاد؛ والإنجيل الثاني في أي وقت بين عام ٥٦ إلى ٦٥ بعد الميلاد، ويحتمل أن يكون بين عام ٦٠ و ٦٣؛ والإنجيل الثالث بين عام ٥٣ أو ٦٣ أو ٦٤؛ والرابع في عام ٦٨ أو ٦٩ أو ٧٠ أو ٩٧ أو ٩٨ بعد الميلاد. أما الأدلة التي تتعلق بسفْر الرسالة إلى العبرانيين،

ورسالة بطرس الثانية، ورسالة يوحنا الثانية والثالثة، ورسالة يعقوب، ورسالة يهوذا، وسفر رؤيا يوحنا اللاهوتي، والرسالة الأولى ليوحنا، فكلها مشوّشة بشكل يحسن ألا نتحدث عنه. وقد نُسبت كلها إلى التلاميذ دون أي دليل من عقل أو منطق.

(٣) ويكتب يوسيبيوس في كتابه "تاريخ الكنيسة" أن رسالة بطرس الأولى صحيحة، أما رسالته الثانية فلم تكن أبدا جزءا من أي كتاب مقدس، ولكنها كانت قراءة جارية. (الجزء الرابع، الفصل الثالث).

(٤) وفي نفس الكتاب (الفصل ٢٥) نقرأ أن رسالة يعقوب ورسالة يهوذا ورسالة بطرس الثانية ورسالة يوحنا الثانية والثالثة كلها كانت محل شك كبير. ولا يُعرف ما إذا كانت هذه الرسائل قد دُوّنت بواسطة الأشخاص الذين كتبوا الأناجيل أم بغيرهم ممن يحملون نفس أسماءهم.

(٥) ونقرأ في موسوعة الكتاب المقدس (الجزء ٤ ص ٤٩٨٠) ما يلي:

إن أسفار العهد الجديد كتبها المسيحيون للمسيحيين؛ وبالإضافة، لقد كُتبت باللغة اليونانية من أجل المجتمعات التي تتكلم باليونانية، وأسلوب الكتابة (ربما باستثناء رؤيا يوحنا) كان هو نفس الأسلوب المتّبع في المدوّنات الأدبية. ولم يحدث أي انقطاع حقيقي في استمرارية الكنيسة اليونانية، ولذلك نجد القليل من الأخطاء الفادحة في كتابة النصوص الموجودة. غير أن هذه الحال لم تمنع وجود اختلافات، لم تكن في معظم الأحوال من محض الصدفة. إن الأغلبية العظمى من "القراءات المختلفة" لمخطوطات العهد الجديد كانت منذ البداية تحتوي على اختلافات شاملة. ولم يكن للعهد الجديد في الفترات الأولى أية قداسة كنسية معترف بها، وكانت التغييرات والإضافات تتم بالفعل في الأماكن التي يُظن أنها تبدو تحسينات في النص.

وبمعنى آخر، إن العهد الجديد كتبه مسيحيون للمسيحيين. وبالإضافة، لقد كُتب باللغة اليونانية للناطقين باللغة اليونانية، وبالأسلوب الذي كان شائعا في

تلك الحقبة. ولم يحدث انقطاع في استمرارية الكنيسة اليونانية، وعلى ذلك، لم تكن هناك أخطاء في النّسْخ في التراجم السائدة، رغم أنه لا يمكن أن يقال بعدم وجود التناقضات. ولم تكن هذه التناقضات نتيجة محض الصدفة، وإنما كانت مقصودة. ويبدو أنه منذ البداية أدخل بعض الكتبة هذه التغييرات في نصوص العهد الجديد.

ويبدو أن الحقيقة هي أن العهد الجديد لم يكن يُعتبر في أول الأمر أنه كتاب مُنَزَّل من عند الله، ولذلك كانت هذه التعديلات تتم حيثما بدا أنه لا بد من تحسين النص.

(٦) ومرة أخرى نقرأ:

من المؤكد أنه عند منتصف القرن الرابع كانت المخطوطات اللاتينية تشكل مجموعة من أكثر المستندات تشويشا، وهذا نتج إلى حد ما من مراجعة بعض المخطوطات اليونانية المتقدمة، وأيضا بسبب التعديلات في الجمل والتعبيرات اللاتينية. وظل هذا التشويش إلى أن تم تصنيف جميع المخطوطات اللاتينية القديمة في نسخة جيروم بين سنتي (٣٨٣- ٤٠٠) وهو العمل الذي تم بناء على طلب البابا "دماسوس"، وأخيرا أصبحت هذه هي "الترجمة اللاتينية المعتمدة لدى الكنيسة الكاثوليكية". (موسوعة الكتاب المقدس ص ٤٩٩٣ الجزء الرابع)

(٧) وأيضا لدينا ما يلي:

وما هو أشد أهمية من هذه الأمور الخارجية، هي الاختلافات التي تسربت إلى النص نفسه مع مرور الزمن. ومعظم هذه الاختلافات كانت مجرد عثرات من العين، والأذن، والذاكرة، أو الحكم من جانب الشخص الذي يقوم بالنسخ، الذي لم تكن لديه النية لعمل شيء سوى أن يتبع ما هو أمامه. غير أن الناسخين، وخاصة الناسخين الأولين، لم يهتموا بالالتزام الدقيق لما ينسخونه، كما هو المتوقع من الذي يقوم بالتحرير في العصر الحديث. وقد أدخلت بعض التصليحات فيما يتعلق بالقواعد اللغوية أو سلامة الأسلوب. وأدخلت بعض

التعديلات من أجل أزالة بعض الصعوبة في الأسلوب، ثم جاءت الإضافات، وخاصة من الروايات المشابهة في الأناجيل، وصححت الاقتباسات من العهد القديم لتكون أكثر دقة. وقد حدث كل هذا بحسن نيّة تماما، ولأنه لم يكن يوجد معيار مشدد للالتزام بالواجب المفروض على الشخص الذي يقوم بأعمال النسخ، ويتضح هذا من الغياب الكامل تقريبا من محاولة تعمّد تزييف النص بسبب المتناقضات العقائدية. وبالإضافة لما قيل، لعله يكفي ذكر أن الملاحظات التي كانت تكتب في الهوامش، انتهى بها الأمر إلى أن تجد لها مكانا في النص، كما أن عادة قراءة الصحف المقدسة في طقوس العبادة العامة، أدت إلى إدخال بعض الإضافات من العبارات المقدسة، مثل تسبيحة "صلاة الرب"؛ كما أن البدء في إعطاء موعظة أو درس اكليركي منْزوعة من مكانها في النص كانت في العادة تحتاج إلى بعض الكلمات لتوضيح الموضوع، ولا تلبث هذه الكلمات أن تُعتبر جزءا من الأصل. (دائرة المعارف البريطانية، الطبعة ١٢، ص ٦٤٦، الجزء الثالث)

(٨) ومرة أخرى نجد ما يلي:

يبدو مما رأيناه حتى الآن، أن جزءا كبيرا من العهد الجديد قد تكوّن من كتابات لم تكن كتابات رسولية. (دائرة المعارف البريطانية، الطبعة ١٢، ج ٣، ص٦٤٣)

(٩) وأيضا هناك ما يلي:

ومع ذلك، ففي واقع الأمر، إن جميع أسفار في العهد الجديد، باستثناء الرسائل الأربع العظيمة لبولس الرسول، هي الآن بدرجة أو بأخرى محل خلاف، ومن المؤكد أن الإضافات قد أُدخلت عليها.

(١٠) إن العهد الجديد ليس خاليا اليوم من الإضافات والتعديلات، ونذكر ما يلي أمثلة على ذلك:

(أ) في إنجيل يوحنا ٥: ٢- ٥ نقرأ:

"٢) وفي أورشليم عند باب الضأن برْكة يقال لها بالعبرانية بيت حسدا لها خمسة أروقة. ٣) في هذه كان مضطجعا جمهور كبير من مرضى وعمي وعرج وعسم يتوقعون تحريك الماء. ٤) لأن ملاكا كان ينْـزل أحيانا في البرْكة ويحرّك الماء. فمن نزل أولا بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض اعتراه. ٥) وكان هناك إنسان به مرض منذ ثمان وثلاثين سنة. هذا رآه يسوع مضطجعا وعلم أن له زمانا كثيرا فقال له: أتريد أن تبرأ".

لعدة مئات من السنين، ظل هذا المقطع يوضع في الأناجيل، و لم يتبادر إلى ذهن أحد أنه ليس محل ثقة. ولكن، حين بدأت المناظرات بين المسلمين والمسيحيين في القرن التاسع عشر، أزيلت الفقرة رقم ٤ وجزء من الفقرة رقم ٣ من المقطع المذكور في النسخة المراجعة المطبوعة عام ١٨٨١، تحاشيا للانتقادات التي وجهها المسلمون، وذُكر في الحاشية أن الكثير من الثقات القدماء أدخلوا، كليا أو جزئيا، الكلمات التي أزيلت من النص. والسؤال هو، ما دام هذا الجزء كان موجودا في الكثير من الوثائق القديمة، فلماذا أزيل من النص؟ وبالإضافة، إن حقيقة أن وجود فقرة ما في بعض النسخ، وعدم وجودها في النسخ الأخرى، لهي دليل على أن النص الأصلي قد امتدت إليه يد العبث والتلاعب. وهناك احتمالان لا ثالث لهما: إما أن نعترف بأن الفقرة لم توجد في النص الأصلي، وفي هذه الحالة لا بد من استنتاج أن بعض من قاموا بعمليات النسخ والكتابة أعطوا لأنفسهم الحرية أن يُدخلوا بعض الكلمات من أنفسهم؛ وإما أن نعترف بأن الفقرة كانت موجودة في النص الأصلي، وفي هذه الحالة لا بد من استنتاج أن بعض الناسخين تعمّد إزالتها من النص. وفي أي من الحالتين، يكون النص قد عبثت به أيدي الإنسان.

(ب) وفي رسالة يوحنا الأولى ٥: ٧- ٨ نقرأ ما يلي:

"فإن الذين يشهدون (في السماء هم ثلاثة الآب والكلمة والروح القدس

وهؤلاء الثلاثة هم واحد، والذين يشهدون) في الأرض هم ثلاثة الروح والماء والدم والثلاثة هم في الواحد".

ظل هذا المقطع يشكّل جزءا من العهد الجديد لعدة قرون، ولكن لما احتدمت المناقشات بين المسلمين والمسيحيين وأخذ المسلمون ينتقدون فكرة الآلهة الثلاثة، غيّر المسيحيون كتابهم المقدس وأزالوا الكلمات التي بين القوسين من النسخة المنقّحة المنشورة عام ١٨٨١. والسؤال الآن هو إذا كانت هذه الكلمات التي أزيلت من النص غير موجودة في الأصل، فهذا يعني أن المسيحيين قد اعترفوا في عام ١٨٨١ بأن الأسفار المقدسة المسيحية قد تعرضت للإضافة. ولكن إذا كانت النسخ القديمة صحيحة وتحتوي فعلا على هذه الكلمات، وأن إزالة هذه الكلمات تم من أجل التغطية على بعض العيوب، فإن هذا يعني أن العبث بالأسفار المسيحية لا يزال مستمرا.

(ج) وفي إنجيل متى ١٧: ١٤- ٢١ نقرأ ما يلي:

"ولما جاءوا إلى الجمع تقدم إليه رجل جاثيا له وقائل يا سيد ارحم ابني فإنه يُصرَع ويتألم شديدا. ويقع كثيرا في النار وكثيرا في الماء، وأحضرته إلى تلاميذك فلم يقدروا أن يشفوه. فأجاب يسوع وقال: أيها الجيل غير المؤمن الملتوي، إلى متى أكون معكم؟ إلى متى أحتملكم؟ قدّموه إليّ ههنا. فانتهره يسوع، فخرج منه الشيطان، فشُفي الغلام من تلك الساعة. ثم تقدم التلاميذ إلى يسوع على انفراد وقالوا لماذا لم نقدر نحن أن نخرجه. فقال لهم يسوع لعدم إيمانكم. فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبّة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم. وأما هذا الجنس فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم".

يبدو أن المتحمسين للمسيحية على قناعة بأنه بعد الإيمان بيسوع ليس هناك من ضرورة لفعل الأعمال الصالحة من أجل الحصول على محبة الله تعالى ورضاه. غير أن المقطع المذكور سابقا يدل على أن الوصول إلى هذه الغاية لا يتم بغير

الصلاة والصوم. وعلى هذا فإن الصلاة والصوم وسيلتان من أجل نوال الفضل الإلهي. ولأن تلاميذ المسيح لم يستخدموا هذه الوسائل، فإنهم حسب ما يقوله الإنجيل، لم يستطيعوا أن يخرجوا روحا شريرة، رغم أنهم كانوا يؤمنون بالمسيح. وقد استخدم النقاد المسلمون هذا المقتبس لتوجيه نقد هام، فهم يقولون إن مجرد الإيمان بالمسيح لا يكفي، إذ إن الأعمال الحسنة الطيّبة ضرورية أيضا، والمسيح نفسه أكّد أهمية الصلاة والصوم، واستعملهما من أجل إحراز التقدم الروحي. فإذا كانت الصلاة والصوم ضرورية أيضا، فإن الإيمان وحده بالمسيح ليس كافيا، ولا يمكن أن يحرر الإنسانَ من واجباته في عمل الصالحات. لقد كان هذا النقد هاما وفعالا حتى إن المدافعين عن المسيحية وجدوا أنفسهم عاجزين عن تقديم أي رد. وكانت الوسيلة الوحيدة للهروب من ذلك الموقف المحرج هو إزالة الفقرة من الإنجيل. وبناء على ذلك، فإننا لا نجد بتاتا هذه الفقرة في إنجيل متى في طبعة النسخة المنقّحة. لقد أزيلت الفقرة بأكملها، وهذا يدل على أن الإنجيل لا يزال محل التدخل البشري.

ويقال إن كلمة "الصلاة" لا تزال مذكورة في إنجيل مرقس ٩: ٢٩؛ وإنه لو كان التغيير قد تم بدافع خبيث أو بنيّة سيّئة، لما بقيت كلمة "الصلاة" في إنجيل مرقس. ولكن هذا الدفاع لا يقف على قدم ولا على ساق. إن النقد الذي قدّمه المسلمون لم يكن مبنيا على كلمة "الصلاة"، لأن المسيحيين لا يزالوا يصلون. إن الاعتراض كان يقوم على كلمة "الصوم". إن الفقرة التي حُذفت تبين أن الصوم كان عادة متّبعة لدى المسيح عليه السلام، وكان يعتبره ضرورة من أجل التقدم الروحاني؛ وعلى ذلك فلا يمكن اعتبار الشريعة لعنة، وهي التي تحض على الصلاة والصوم. ومن أجل تلافي هذه الانتقادات أزيلت فقرة كلها من إنجيل متى وحُذفت كلمة "الصوم" من إنجيل مرقس. ومن الجائز أيضا أن فريقا من المراجعين ظنوا أنه من الضروري إلغاء الفقرة كلها، بينما ظن فريق آخر أنه يكفي حذف كلمة "الصوم".

وأيضا هناك المتناقضات في عبارات الأناجيل، وتثبت أيضا هذه المتناقضات أن الأناجيل ليست من وحي الله تعالى، أو أن التدخل البشري فيها قد غير الوحي الأصلي وجعله في صورة لم يعد فيها من الممكن التعرف عليه. إن المؤلف العادي الذي يتمتع بدرجة من الدقة، لا يسمح بوجود المتناقضات في كتابته، فكيف يمكن أن نتغاضى عن وجود تناقض في كتاب منسوب إلى الله تعالى؟ ونقدم فيما يلي بعض الأمثلة:

(أ) فيما يتعلق بمولد يسوع نجد مما جاء في إنجيل متى ١: ١- ٢٢، ومن إنجيل لوقا ١: ٣٢- ٣٣ أن المسيح إنسان عادي، ولو كان يدعى ابن الله. ولكن في إنجيل يوحنا ١:١ نجد أن المسيح هو الكلمة التي كانت دائما مع الله تعالى، وأنه في الحقيقة هو الله نفسه، الذي جاء منه كل شيء.

(ب) يبدو من إنجيل متى ٣: ١٣- ١٧، وإنجيل مرقس ١: ٩- ١٢، وإنجيل لوقا ٣: ٢١- ٢٢ و ٤: ١ أن المسيح قد عُمّد على يد يوحنا المعمّدان، ثم غادره بعد ذلك مباشرة أو في نفس اليوم. ولكن في إنجيل يوحنا لم يأت ذكر أية معمودية، وأن اللقاء بين المسيح ويوحنا المعمدان قد استمر لمدة يومين أو يزيد.

(ت) من إنجيل يوحنا ١: ١٩- ٤٤ يبدو أن المسيح بعد أن ظل مع يوحنا وتلاميذه عدة أيام ذهب مباشرة إلى الجليل. ولكن من إنجيل متى ٤: ١ وإنجيل مرقس ١: ١٢ وإنجيل لوقا ٤: ١ يبدو أن المسيح بعد تلقيه معمودية يوحنا ذهب إلى البريّة لكي يُجرّب من الشيطان، وظل هناك لمدة أربعين يوما.

(ث) يظهر من إنجيل يوحنا ١: ٣٥- ٥١ أنه بعد مقابلة يوحنا، نجح المسيح في تحويل اثنين من تلاميذ يوحنا ليكونا من تلاميذه هو، وكان أحدهما أندراوس والآخر لم يُذكر اسمه، وفي طريقه إلى الجليل نجح في اكتساب تلميذين آخرين هما سمعان بطرس ونثنائيل. ولكن من إنجيل متّى ٤: ١٢- ٢٢ ومرقس ١

:١٢- ٢٠ ولوقا ٤: ١٤- ١٥؛ ٥: ١- ١١، يبدو أن المسيح بعد مقابلة يوحنا المعمّدان ذهب إلى البرية وقضى هناك أربعين يوما صائما، وعندما سمع بسجن يوحنا ذهب إلى الجليل، وبشّر هناك في عدة أماكن لعدة أيام، وبجوار البحيرة في الجليل جعل سمعان بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنا من تلاميذه. أي أن المكان الذي صار فيه هؤلاء الأشخاص من تلاميذ المسيح حسب إنجيل يوحنا، لم يكن هو نفس المكان الذي ذكرته الأناجيل الأخرى. والزمن أيضا الذي صار فيه هؤلاء من تلاميذ المسيح يختلف عن الزمن الذي ذكرته بقية الأناجيل التي قالت إنه حدث بعد شهرين تقريبا.

(ج) في إنجيل يوحنا ٣: ٢٢- ٢٦ و ٤: ١- ٢ نعلم أن المسيح قد بدأ دعوته وتعميده الناس قبل سجن يوحنا المعمّدان، ولكن من متى ٤: ١٢- ١٧ ومرقس ١: ١٤- ١٥ نعلم أن المسيح بدأ دعوته بعد سجن يوحنا المعمّدان.

(ح) حسب لوقا ٣: ٢٣ نقرأ أن يوسف، زوج السيدة مريم، كان ابن هالي؛ ولكن متى ١: ١٦ يقول إنه كان ابن يعقوب.

(خ) لوقا ٣: ٣١ يذكر أن المسيح انحدر من سلالة داود من سبط ابنه ناثان، غير أن متّى ١: ٦ يتتبع سلالة المسيح إلى الابن الآخر لداود، الملك سليمان أخو ناثان.

(د) متّى يذكر سلالة المسيح بدءًا من إبراهيم عليه السلام إلى يوسف الذي تزوج السيدة مريم بعد ولادة المسيح، فيذكر ٤١ شخصا في هذه السلسلة. وأما لوقا فيذكر ٥٦ شخصا في السلسلة التي ذكرها، بالإضافة إلى اختلاف الأسماء أيضا بين السلسلتين.

(ذ) يخبرنا لوقا ٢٤: ٥٠- ٥١ أن المسيح صعد إلى السماء من بيت عنيا، ولكن سفر أعمال الرسل ١: ١٢ يذكر أن صعوده كان من جبل الزيتون.

(ر) يقول لوقا ٢٤: ٢١- ٢٩ و ٣٦ و ٥١ أن المسيح صعد في اليوم الذي

قام فيه من الأموات أو في الليلة التالية، ولكن في أعمال الرسل ١: ٣ نقرأ أن المسيح صعد بعد مرور أربعين يوما بعد القيامة من الأموات.

(ز) نقرأ في متّى ١٠: ٩- ١٠ أن المسيح قال لتلاميذه: "لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم، ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا لأن الفاعل مستحق لطعامه". ولكن مرقس ٦: ٨- ٩ يقول عن المسيح وتلاميذه: "وأوصاهم ألا يحملوا شيئا للطريق غير عصا فقط، لا مزودا ولا خبزا ولا نحاسا في المنطقة، بل يكونوا مشدودين بنعال ولا يلبسوا ثوبين". أي أن مرقس يقول إنهم أخذوا عصا وأحذية، بينما متّى يقول إنهم لم يأخذوا لا عصا ولا أحذية.

الخرافات في الأناجيل

إن دراسة العهد الجديد تكشف أنه لم يخل من عناصر الخرافة.

(١) في مرقس ١: ١٢- ١٣ نقرأ ما يلي:

"وللوقت أخرجه الروح إلى البرّية، وكان هناك في البرّية أربعين يوما يُجرّب من الشيطان وكان مع الوحوش وصارت الملائكة تخدمه".

إن الأمور المذكورة هنا ليست سوى شطحة خيال، تعارضها السنن الكونية التي خلقها الله تعالى. إن الإنسان يعيش على هذه الأرض في صحبة البشر، ولا يندمج في مجتمع يتكون من الوحوش والملائكة والشياطين. ولا يُعقل أن تكون القوانين الموجودة اليوم تختلف عن تلك التي كانت في الدنيا في ذلك الزمن. فليس هناك من شياطين ظاهرة للعيان تعيش مع الناس في هذه الدنيا، ولا نجد أن الملائكة تقوم بخدمات مرئية على مشهد من الحس والبصر. أما أن تُشاهد هذه الأمور في الأحلام أو في الرؤى فهذا أمر آخر. إن مثل هذه التجارب قد حدثت في الرؤى لبعض الناس في الماضي، ويمكن أن تحدث اليوم أيضا. ولكن لم يحدث لا في الماضي ولا في الحاضر أن عاش الناس مع الوحوش كالذئاب والأسود، ولم

يحدث أن جاء الشيطان إلى إنسان ليحمله معه بعيدا، حتى إن ذلك الإنسان يتبعه ويطيعه رغم أنفه، إلا في فترات قصيرة من التمرد. و لم يحدث كذلك أن جاءت الملائكة للناس لكي تقوم لهم بخدمات مثل الطبخ والخبز وإحضار الماء. قد يرد مثل هذا السرد في الحكايات وأقاصيص الأطفال، ولكن هل يمكن أن يكون لها مكان في العهد الجديد؟ لو كان العهد الجديد كتابا مثل كتاب "أقاصيص ملك الغابة" لاختلف الأمر تماما، ولكن العهد الجديد كتاب يُفترض أن يكون كتابا للهداية الدينية للإنسان. فما حاجة مثل هذا الكتاب إلى أقاصيص خيالية من هذا النوع؟ إن المسيح عليه السلام كان رجلا بارّا وفاضلا، ولا نستطيع أن ننسب إليه مثل هذه الخرافات. لقد كان نبيا كريما من رسل الله، أرسله سبحانه من أجل هداية قومه، ومن المستحيل أن يكون قد علّمهم هذه الأمور. من المستحيل أن تفسد تعاليمه التوازن العقلي لدى أتباعه، وتدفع بهم بعيدا عن طريق العقل والصواب إلى مستنقع الخيال والأوهام. ولذلك لا يسعنا إلا أن نقول بأن عناصر الخرافة هذه قد أضيفت إلى الأناجيل في زمان لاحق. إن المسيح عليه السلام ليس مسؤولا عنها، ولا تلاميذه أيضا، إذ تقع مسؤولية إقحام هذه الخزعبلات في نصوص الإنجيل على كاهل أولئك المسيحيين الذين جاءوا فيما بعد، الذين فقدوا الحس الروحاني، وفضّلوا تصفيق الجمهور على الصدق المأثور.

(٢) وفي مرقس ٥: ١- ١٤ نقرأ ما يلي:

"وجاءوا إلى عبر البحر إلى كُورة الجَدَريين. ولما خرج من السفينة للوقت استقبله من القبور إنسان به روح نجس. كان مسكنه في القبور و لم يقدر أحد أن يربطه ولا بسلاسل. لأنه قد رُبط بقيود وسلاسل فقطع السلاسل وكسّر القيود، فلم يقدر أحد أن يذلّله. وكان دائما ليلا ونهارا في القبور يصيح ويُجرّح نفسه بالحجارة. فلما رأى يسوع من بعيد ركض وسجد له، وصرخ بصوت عظيم وقال: ما لي ولك يا يسوع ابن الله العلي. أستحلفك بالله أن لا تُعذبني. لأنه قال له: اخرج من الإنسان يا أيها

الروح النجس. وسأله ما اسمك؟ فأجاب قائلا: اسمي لجئون لأننا كثيرون. وطلب إليه أن لا يرسلهم إلى خارج الكورة. وكان هناك عند الجبال قطيع كبير من الخنازير يرعَى. فطلب إليه كل الشياطين قائلين أرسلنا إلى الخنازير لندخل فيها. فأذن لهم يسوع للوقت، فخرجت الأرواح النجسة ودخلت في الخنازير، فاندفع القطيع من على الجرف إلى البحر، وكان نحو ألفين فاختنق في البحر. وأما رعاة الخنازير فهربوا وأخبروا في المدينة وفي الضياع، فخرجوا ليروا ما جرى".

هذا المقطع يحتوي على الكثير من الأفكار الخرافية الخيالية، حتى إنها لتترك القارئ مشدوها، يتعجب كيف تسنى لها أن تتسلل لتأخذ مكانها في النصوص الإنجيلية.

أولا: يخبرنا هذا المقطع أن إنسانا أصابته حالة من الجنون العنيف لدرجة أن أقوى السلاسل والجنازير لم تستطع أن تقيده. ولا شك أن العلوم الطبية والتجارب الإنسانية العادية تُكذّب هذا القول، فلا بد أن تكون هناك سلاسل قوية تكفي لربط وتقييد أي إنسان، مهما بلغ عُنف الهوس لديه. ألم يعرف الناس في ذلك الزمن كيف يصنعون سلاسل قوية تصلح لتقييد الناس؟

ثانيا: يخبرنا هذا المقطع أن ذلك المهووس كان يُجرّح نفسه بالأحجار، وهذا أمر في غاية الغرابة. إذ من العجيب أن يظل الرجل فيما يبدو لعدة سنين يُجرّح نفسه بالحجارة، ومع ذلك لم يؤد ذلك إلى موته!

ثالثا: نعلم من هذا المقطع أن المسيح خاطب ذلك الرجل المجنون وقال له: "اخرج من الإنسان يا أيها الروح النجس". ومثل هذا القول لا يصدر إلا من رجل ذي عقلية بدائية غارق في الجهل، ولا يمكن أن تصدر من نبي. فإذا كانت الأرواح النجسة تدخل في أجسام البشر، فلماذا لا نرى هذه الظاهرة اليوم إلا بين المتخلفين والجهلة من الناس؟ ألا توجد لدينا اليوم الوسائل لملاحقة هذه الأرواح الدنسة واكتشافها إن كان لها وجود؟ لقد تمكنت العلوم الطبّية اليوم من

التعرّف على الأمراض النفسية والعصبية مثل الانهيار العصبي والهستريا والخبل العقلي وما إلى ذلك، ولكن هذه العلوم الطبية تُرجع أسباب هذه الأمراض إلى أسباب أخرى، وليس إلى الأرواح النجسة. إن عبارة الإنجيل المذكورة تخبرنا أن إنسانا عاقلا صادقا مثل المسيح عليه السلام يظن أن الإنسان إذا أصابه خلل في عقله فإن ذلك يكون بسبب أن روحا نجسة قد دخلت فيه. وإنها لقسوة بالغة عندنا أن يُنسَب هذا الهراء إلى نبي من أنبياء الله، فهو ليس إلا عزوُ خرافات يؤمن بها بعض الجهلة إلى معلِّم عظيم مثل المسيح ابن مريم، الذي من المستحيل أن ينطق بهذه الأكاذيب والأساطير، كما لا يمكن أن يتحدث بها تلاميذه الذين تعلموا على يديه. ولا بد أنها إضافات اختلقها حتما بعض الناس فيما بعد.

غير أن الأفكار الخرافية لم تنته بعد، بل تزداد عمقا وتهويلا، إذ نعلم من هذا المقطع أن المسيح سأل الروح الدنسة عن اسمها، ولكنها أجابت قائلة: "اسمي لجئون لأننا كثيرون". ومعنى هذا أنها لم تكن روحا واحدة نجسة، وإنما كان جيشا من تلك الأرواح.

ثم نعلم بعد ذلك أن تلك الأرواح توسلت إلى المسيح ألا يرسلها خارج البلدة، ولكن يبدو أنه لم يوافق، فطلبت منه أن يرسلها في قطيع من الخنازير ليدخلوا فيه، "فأذن لهم يسوع للوقت، فخرجت الأرواح النجسة ودخلت في الخنازير"، فانطلقت الخنازير تجري بسرعة، وكانت النتيجة: "فاندفع القطيع من على الجرف إلى البحر"، وانتهت المأساة بأن غرقت ألوف من الخنازير في البحر.

فما أغبى هذا المقطع وما أشده حمقا وما أسخفها خرافة! إنه يقول إن الأرواح النجسة أرادت أن تستأذن لتخرج من الرجل وتدخل في الخنازير. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: إن هذا القطيع من الخنازير كان ولا بد ملكًا لبعض الناس، فمن أعطى يسوع الحق في أن يبيد ويبدد ما يملكه الآخرون؟ فإذا قيل إن ابن الله له الحق فوق كل ملكيّة، فيكون السؤال: لماذا يقال إن الله محبة؟ إذا كان الله القادر على كل شيء يرسل ابنه لتعليم الناس الاستهتار بحرمة

ملكية الغير والعمل على تبديدها، فما هو ذلك القانون أو النظام الذي يمكن أن يسود في العالم؟ وأي دليل يمكن أن يثبت إحسان الله تعالى ورحمته؟

وبالإضافة إلى هذا، هناك خرافة عجيبة أخرى يعلمنا إياها هذا المقطع العجيب أيضا. إذ يخبرنا أن هذه الأرواح النجسة عندما دخلت في الخنازير، انطلق القطيع كله وجرى من فوق الجرف إلى البحر. والسؤال هنا: لماذا هذا التناقض في التصرف؟ عندما دخلت الأرواح النجسة في الرجل لم يُلق الرجل بنفسه من فوق الجرف إلى البحر، ولكنها لما دخلت في قطيع من ألفين من الخنازير، انطلقت كلها إلى البحر فغرقت وماتت. والحقيقة إن المقطع كله غارق في الخرافة والغباء. وكل من يؤمن بعظمة المسيح عليه السلام وبحكمته وسعة عقله لا يمكن أن ينسب هذه الخرافات إليه أو إلى تلامذته. ولا مفر أمامه من الإقرار بأن هذا المقطع كان حتما إضافة دخيلة على الإنجيل بواسطة الكتبة المتأخرين.

(٣) يبدو من الروايات التي جاءت في العهد الجديد أن المسيح كان قد اعتاد على إعادة الموتى إلى الحياة، ولذلك نقرأ في إنجيل يوحنا ١١: ٤٣- ٤٤ ما يلي:

"ولما قال هذا صرَخ بصوت عظيم: لعازرُ هلُمَّ خارجا. فخرَج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأَقْمِطة ووجهُه ملفوف بمنديل، فقال لهم يسوع حُلّوه ودعوه يذهب".

وبالمثل نقرأ في إنجيل متّى ٢٧: ٥١- ٥٣ ما يلي:

"وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل. والأرض تزلزلت والصخور تشققت. والقبور تفتّحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين. وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين".

هل من الممكن إقناع أي إنسان عاقل بهذه الروايات؟ إن كان من الممكن إعادة الموتى إلى الحياة، فلماذا لا يحدث هذا اليوم؟ فإن قيل إن هذا كان امتيازا

خاصا للمسيح عليه السلام فإننا نقول إن هذا غير صحيح، لأن المسيح نفسه قال عن أتباعه إنهم لو كان لديهم مثقال حبة خردل من الإيمان لاستطاعوا أن يعملوا من الآيات أعظم من تلك التي عملها هو. إذ نقرأ في إنجيل يوحنا ١٤: ١٢- ١٤ ما جاء على لسانه:

"الحق الحق أقول لكم: مَن يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضا ويعمل أعظم منها لأني ماض إلى أبي. ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجّد الآب بالابن. إن سألتم شيئا باسمي فإني أعمله".

والسؤال هو: هل يستطيع المسيحيون اليوم أن يعيدوا الموتى إلى الحياة؟

(٤) في إنجيل متّى ١٤: ٢٥- ٢٧ نقرأ ما يلي:

"وفي الهزيع الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشيا على البحر. فلما أبصره التلاميذ ماشيا على البحر اضطربوا قائلين إنه خيال، ومن الخوف صرخوا. فللوقت كلمهم يسوع قائلا: تشجعوا، أنا هو، لا تخافوا".

ومن الواضح أن هذا المقطع أيضا من ضرب الخرافة، فأي إنسان ذلك الذي يمشي على الماء؟

(٥) وفي إنجيل لوقا ١١: ٢٤- ٢٦ نجد ما يلي:

"متى خرج الروح النجس من الإنسان يجتاز في أماكن ليس فيها ماء يطلب راحة. وإذ لا يجد يقول أرجع إلى بيتي الذي خرجت منه. فيأتي ويجده مكنوسا مُزيّنًا. ثم يذهب ويأخذ سبعة أرواح أُخَر أشرّ منه فتدخل وتسكن هناك، فتصير أواخر ذلك الإنسان أشر من أوائله".

أية خرافة سمجة هذه؟ ما الذي يمكن أن تعنيه مثل هذه الأساطير المتهافتة، وما عساه يكون المغزى الذي يقصده هذا السرد؟ وهل يليق أن تُنسب هذه الخرافات إلى إنسان فاضل مثل المسيح عليه السلام؟ إن الكذب خطيئة سيئة، واختراع مثل هذه الخرافات السمجة يعادل سوء الكذب، ولكن إلصاق هذه الأكاذيب

والخرافات بالله تعالى وبرسوله يُعتبر قمة الوقاحة. إن كتبة الأناجيل الذين ملكتهم الغفلة واستبد بهم الجهل هم المسؤولون عن ارتكاب هذه الحماقة، وهم بذلك أفسدوا الأناجيل وجعلوها غير أهل لأن تكون كتبا دينية.

الأخلاق المريبة في العهد الجديد

(١) في إنجيل مرقس ١١: ١٢- ١٤ نقرأ ما يلي:

"وفي الغد لما خرجوا من بيت عنيا جاع، فنظر شجرة تين من بعيد عليها ورق، وجاء لعله يجد فيها شيئا، فلما جاء إليها لم يجد شيئا إلا ورقا، لأنه لم يكن وقت التين. فأجاب يسوع وقال لها: لا يأكلْ أحد منك ثمرا بعد إلى الأبد. وكان تلاميذه يسمعون".

يبدو من هذا المقطع (أ) أن المسيح الذي عاش في بلاد ينمو فيها شجر التين بكثرة لم يكن يعرف متى يكون الموسم الذي يثمر فيه التين. (ب) يصوّر هذا المقطع السيدَ المسيح وكأنه - والعياذ بالله - كان مجرّدا من الأخلاق الحميدة، إذ بدلا من الاعتذار عن خطئه، راح يلعن شجرة لا روح فيها ويقول "لا يأكل أحد منك ثمرا بعد إلى الأبد". إننا نحن معشر المسلمين لا نؤمن بألوهية المسيح، وإنما نعتبره نبيا فقط مرسلا من عند الله تعالى، ومع ذلك فإننا لا نستطيع تصديق أنه قال شيئا مما هو منسوب إليه في هذا المقطع. وإننا لنعجب حقا من أولئك الذين يزعمون أنه ابن الله العلي، وأنه كان مثالا للأخلاق الكريمة، ومع ذلك فإنهم يقبلون أن يوصف بهذه المثالب التي تنسب إليه، والتي تتهمه بتصرفات تنم عن سوء الأدب. ولعلهم لم يتفكروا فيما إذا كان من الممكن أن يليق بالمسيح أن يتفوّه بهذه الأمور المنسوبة إليه أم أن أولئك الذين نسبوها إليه قد أخطأوا بعملهم هذا.

إن المسيحيين الذين يحاولون الدفاع عن المسيحية يميلون إلى تفسير هذا المقطع تفسيرا مجازيا، فيزعمون أن اللعنة هنا ليس المقصود بها شجرة التين، ولكن

المقصود بها الأمة الإسرائيلية، وهي تعني فقط أنّ اليهود منذ ذلك الوقت وفيما بعد لن يكون لهم أي ثمر. وهذا تفسير ضعيف، لأن أي إنسان مطّلع على صروف وأنواع الأدب المعتادة لن يقتنع بمثل هذه التبريرات الواهية. فإذا كانت شجرة التين مجرد رمز، واستخدمت للكناية عن بني إسرائيل، فهل كان الأمر يستدعي أن يمشي المسيح ويأتي إليها في الوقت الذي كان يشعر فيه بالجوع؟ لقد رأى المسيح الشجرة مورقة، كما يصف إنجيل مرقس الواقعة، فقرر أن يذهب إليها آملا أن يجد فيها ثمرا. وبعد أن رآها عن قرب، و لم يجد فيها غير الأوراق الخضراء (لأن موسم التين لم يكن قد جاء بعد) راح يصبّ لعناته على الشجرة. وباختصار، إن المسيح ذهب إلى الشجرة ليسد جوعه، وكانت الشجرة كثيرة الأوراق، فظن أن بها بعض الأثمار، ويضيف الكاتب أنه لم يكن بعد أوان ثمر التين، وكل هذا يبين بوضوح أن الواقعة لم تكن مجرد كناية أو رمز. لقد أوضح صاحب القصة بكل جلاء أن المسيح راح إلى الشجرة لأنه كان جوعانا، وكان يأمل أن يجد بعض أثمار التين في الشجرة، ولكن موسم الثمر لم يكن قد جاء بعد. وكان من الممكن أن تكون هذه الشجرة بالذات قد تأخرت في الإثمار، أو أن مرضا أصابها فلم تثمر، غير أن المسيح اغتاظ ولعن الشجرة. فإذا كان ما جاء في هذا المقطع صحيحا، ألا يكون من حقنا أن نتساءل عن سلامة عقول أولئك الذين يصبّون اللعنات على شيء غير واع كالأشجار والأنهار والجبال والأحجار. هل ظن ذلك الكاتب الذي ألصق هذا العمل بالمسيح عليه السلام، أن الأجيال القادمة من القراء الذين سوف يأتون فيما بعد، سوف يهضمون هذه الشخصية الكاريكاتورية المشوّهة لإنسان عاقل فاضل مثل المسيح عليه السلام؟ إن أتباع المسيحية قد يُخدَعون بهذه الحكايات ويأخذونها على علاتها، ولكنا نحن كمسلمين لا يمكن أن ننسب هذه الأمور إلى المسيح، ليس لأنه كان يختلف عن بقية الأنبياء، ولكن لأننا لا نتوقع أن تصدر مثل هذه الأمور حتى من الناس العاديين الذين هم على شيء من الخلق والتهذيب.

(٢) وفي إنجيل متّى ٧: ٦ نقرأ ما يلي:

"لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا دُرركم قدام الخنازير، لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزّقكم".

إن ما وُصف هنا بأنه "القدس" و "دُرر" هو في الواقع الوحي والآيات الربانية. وأما "الكلاب" و "الخنازير" فالمقصود بها الناس الذين رفضوا أن يؤمنوا بالمسيح. ولا شك أن آيات الله تعالى أقدس من كل مقدس، وهي بطبيعة الحال أغلى من كل الدرر، ولكن لا شك أيضا في أن هذه الأشياء المقدسة والتي هي أغلى من الدرر قد جاءت من أجل أولئك المحرومين منها. فالآيات الربانية يجب أن تُعرض على المحرومين من الإيمان بالله تعالى. وأنبياء الله ﷻ لا يأتون بالإيمان فقط لأولئك الذين تمتلئ قلوبهم بالإيمان، وهو أمر واضح جليّ من التاريخ أن الأنبياء لم يأتوا أبدا إلا في زمن انتشار الكفر والضلال. إنهم يأتون عندما يغشى الناس ظلام دامس، ومهمتهم أن يخاطبوا أولئك الذين يتخبّطون في غياهب الظلمات ويخرجوهم من الظلمات إلى النور. فمن أجل هؤلاء يأتي الأنبياء إلى الدنيا. ولا يبدو أن الإنسان الذي اصطفاه الله وأرسله لهداية الضالين يمكن أن يصف أولئك الذين أرسله الله إليهم بأنهم كلاب وخنازير، وليس لهم من جريرة أو ذنب سوى أن نور الإيمان لم يشعّ في قلوبهم بعد. وإنه لمن المستحيل على النبي أن يقول إن آيات الله يجب ألا تُقدّم للكافرين خوفا من أن يدوسوها بأقدامهم. وإذا جاز للنبي أن يتلفظ بمثل هذا القول، فكيف يتسنى للكافرين أن يؤمنوا؟ إن إلصاق مثل هذا القول بالمسيح عليه السلام افتراء وإساءة بالغة، وكأنه يصف الناس الذين أُرسل إليهم بأنهم كلاب وخنازير، لا لذنب جنوه، ولا لخطأ ارتكبوه، ولكن فقط لأن الحق لم يتجلّ لهم بعد.

ولنقارن هذا بالمثل الذي قدمه الرسول ﷺ، إذ نقرأ في القرآن المجيد:

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٤)

وتصف الآية الكريمة مدى حرص الرسول ﷺ على تبليغ رسالته إلى جميع

الكافرين. وعندما نقارن بين المسيح الذي تقدمه لنا الأناجيل وبين الرسول ﷺ نجد أن هناك بونًا شاسعا بين الاثنين، فإن أحدهما يكاد يقتل نفسه جهدا وحزنا من أجل أولئك الذين لا يريدون أن يكونوا مؤمنين، والآخر الذي ينصرف عنهم ويقول عنهم إنهم كلاب وخنازير، ويأمر تلاميذه بألا يتلوا عليهم آيات الله تعالى.

لا جرم أن رسول الإسلام ﷺ قد فاق جميع الأنبياء في كونه نموذجا أعلى للأخلاق الكريمة. غير أننا لا يمكن أن نتصوّر أن يكون المسيح عليه السلام محروما من حسن الخلق كما صوّرته الأناجيل. صحيح أنه لم يصل إلى قمة الكمال الروحاني التي بلغها الرسول ﷺ، ولكنه على أية حال كان نبيا أرسله الله تعالى ليعلّم الناس فضائل الأخلاق والسلوك الروحاني، ولا بد أن النموذج الذي قدمه كان يختلف عن ملايين الناس الذين كانوا يعيشون في زمنه، ولكن الويل كل الويل لأولئك الكتبة الذين ينسبون إليه هذا السلوك المشين.

وفي هذا الشأن لا نستطيع أن نغفل عن ذكر حادثة تلك المرأة الكنعانية التي جاء ذكرها في متّى ١٥: ٢١- ٢٦ وفي مرقس ٧: ٢٤- ٢٧، حيث جاء:

"ثم خرج يسوع وانصرف إلى نواحي صور وصيداء، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة ارحمني يا سيد يا ابن داود. ابنتي مجنونة جدا. فلم يجبها بكلمة، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين اصرفها لأنها تصيح وراءنا. فأجاب وقال: لم أُرسَل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة. فأتت وسجدت له قائلة: يا سيّد، أَعِنّي. فأجاب وقال: ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويُطرح للكلاب".

لقد تقدّمت هذه المرأة إلى المسيح بتواضع عظيم، وسقطت على قدميه حسب عادة قومها، ولم تطلب منه سوى أن يدعو لابنتها بالشفاء. ولكن الذين كتبوا هذه الأناجيل يُصوّرون لنا المسيح بأنه قال: "ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويُطرح للكلاب".

بأية حرقة ولوعة وأمل أقبلت هذه المرأة البائسة على المسيح. لم تذهب إليه لتستجدي منه خبزا أو لباسا أو متاعا دنيويا؛ إن كل ما أرادته متاعا روحيا، من هداية ودعاء. لقد طلبت منه ما جاء هو من أجل أن يعطيه. ولكن العبارة التي جاءت في الإنجيل تقول إن المسيح زجرها وطردها، ولم يكتف بذلك بل أهانها في وجهها وأساء إليها وشبهها بالكلاب. ولو كانت تلك العبارة صحيحة، فإنها تعني أن المسيح لم يسبّ تلك المرأة الكنعانية وحدها، بل سبَّ كل أنثى من أبناء جلدتها، وبرهن بقوله هذا على أنه لم يكن لديه شيء ليعطيه لهذه المرأة المسكينة. فإن كل فكره واهتمامه كان مركّزا على الجنس اليهودي فقط، وكان يُفضل أن تُقبّل قدميه امرأة يهودية من البغايا، وتمسحهما بشعرها وتدهنهما بالطيب، عن أن يقول كلمة طيبة لمواساة امرأة بائسة ليست من اليهود، حيث يقول إنجيل لوقا ٧: ٣٧- ٣٨ ما يلي:

"وإذا امرأة في المدينة كانت خاطئة إذ علمت أنه متّكئ في بيت الفرّيسي، جاءت بقارورة طيب، ووقفت عند قدميه من ورائه باكية، وابتدأت تبل قدميه بالدموع، وكانت تمسحهما بشعر رأسها وتُقبّل قدميْه وتدهنهما بالطيب".

فإذا كان المسيحيون يقبلون هذه الروايات الإنجيلية ويعتبرونها صحيحة، فلهم ما يشاءون. وأما نحن، فمن جانبنا لا نستطيع أن نصدّق أن تلاميذه يمكن أن يقولوا ذلك عنه. إن هذه العبارات في رأينا ليست سوى اختلاقات وتلفيقات كُتّاب متأخرين، وقد وُضعت في زمن اختفت فيه من الوجود الشخصية الحقيقية للمسيح عليه السلام، وحلّت محلّها شخصية خيالية تجسدت في أفكار بعض الكتّاب الجهلاء.

(٣) في إنجيل يوحنا ٢: ١- ٤ نجد ما يلي:

"وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل، وكانت أم يسوع هناك. ودُعي أيضا يسوع وتلاميذه إلى العرس. ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع

له ليس لهم خمر. قال لها يسوع: ما لي ولك يا امرأة، لم تأت ساعتي بعد".

وبالمثل نجد في إنجيل متّى ما يلي:

"فقال له واحد: هو ذا أمّك وإخوتك واقفون خارجا طالبين أن يكلّموك. فأجاب وقال للقائل له: مَن هي أمي ومن هم إخوتي؟"

هذه العبارات من إنجيل يوحنا وإنجيل متّى تبين أن المسيح لم يكن يحمل الكثير من الاحترام حتى لأمّه، وهي العلاقة التي تحظى بأعلى مقام من الاحترام والتبجيل لدى أي إنسان مهذّب جدير بالسمعة الطيبة. هل يخاطب الإنسان المسيحي العادي اليوم أمّه فيقول لها: "ما لي ولك يا امرأة"؟ هل يمكن أن يُعدّ الإنسان المسيحي العادي إنسانا مهذّبا إذا صرف أمّه وإخوته اليوم بهذا الاحتقار، قائلا "من هي أمي ومن هم إخوتي"؟ فلماذا ينفرد المسيح عليه السلام بهذه التصرّفات المشينة عند كُتّاب الأناجيل؟ إن احترام الأم فضيلة شائعة حتى في المجتمعات البدائية، وهو خلق يظهر غريزيا حتى عند أحط الناس. ولكن إذا صدّقنا رواية الإنجيل هذه، فإن هذا المعلم الأخير لبني إسرائيل، هذا البطل الذي جاء للمحافظة على تقاليد الشريعة الموسوية، الذي جاء ليخرج شعبا كله من الظلمات إلى النور ويعلمهم فضائل الأخلاق، كان فظّا غليظا مع أمه، وتصرّف تجاهها بشكل مُهين.

ويعلل المسيحيون الأمر بأن المسيح، حسب المعتقد المسيحي، كان ابن الله، ولم يكن إنسانا من البشر. فإذا كان المسيح ابن الله، فلماذا وُلد في حضن مريم الصدّيقة؟ فإذا قَبِل أن يولد في حضنها، وعرّضها لمصاعب الحمل وآلام الولادة تسعة أشهر، ورضي أن يرضع لبن ثديها لمدة سنتين، وظل لسنوات يرهقها بواجبات العناية به ومسؤوليات تربيته، أما كان الأحرى به أن يرد الفضل ولو ببعض المجاملة والاحترام؟ الحقيقة أن هذا العذر ليس له وزن على الإطلاق. ويبدو أن المسيحيين لا يحملون للمسيح من التبجيل نصف ما يحملونه لهذه الأناجيل الملفّقة، ولا غرْو، فإن هذه الأناجيل هي من اختلاقهم، ولكن المسيح

كان من خلق الله تعالى. وهم ليسوا على استعداد لأن يتّبعوا الصراط السويّ ويعترفوا بأن روايات الإنجيل خاطئة. ومن الأفضل لديهم أن يفتروا على المسيح عليه السلام ويسيئوا إلى سمعته بدلا من أن يرفضوا وينبذوا روايات الإنجيل. غير أن العقلاء من الناس الذين يتمتعون بفضائل الأخلاق، والذين يتفكرون مليّا في حياة المسيح، ويتفهمون حقيقة ذلك النموذج النقي الطاهر الذي قدّمه المسيح عليه السلام، لا يسعهم سوى الإقرار بأن الأناجيل التي نجدها بين أيدينا اليوم حافلة بالأخطاء وطافحة بالاختلاقات. فهي تتضمن أمورا لا تعمل على السمو بالفضائل الإنسانية، وإنما على العكس تعمل على هدم الرغبات الجياشة للارتقاء والسموّ الروحاني. وبهذه الحالة التي عليها الأناجيل اليوم، كان من الضروري أن يرسل الله تعالى للعالم أجمع وحيا جديدا خاليا من التعديل والتبديل، ومنزهًا عن الإضافات والاختلاقات، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ليمهد سبيل الخلق القويم أمام الإنسان، ويفتح أمامه الآفاق الواسعة للقرب من الله تعالى. هذا الوحي هو القرآن المجيد.

الإضافات على الفيدا

الديانة الثالثة من حيث الأهمية بالنسبة لعدد أتباعها هي الديانة الهندوسية. واستنادا إلى الآيات القرآنية الكريمة، فإننا على يقين بأن الديانة الهندوسية تقوم على أساس من الوحي السماوي. ولأن الهندوس يؤمنون بأن الفيدا هي المجموعة التي تشكل كتبهم المقدسة، فإننا ملزمون باعتبار أن الفيدا لا تزال تحتوي على بعض الوحي مما نزل على أنبياء الهندوس. غير أن الحالة التي نجد الفيدا عليها اليوم تؤدي إلى الكثير من التشوّش والاضطراب. فنحن لا نعرف حتى أسماء الأنبياء الذين تلقوا هذه الصحف. وقد ذكر "المانترا" في أول الفيدا بعض الأسماء. ولكن، كما يذكر علماء الفيدا الهندوس أنفسهم، هذه الأسماء ليست أسماء الذين تلقوا الوحي الفيداوي، ولكنها أسماء من جمعوا هذه الكتب. ولذلك

فإن القيمة التاريخية لكتب الفيدا محدودة جدا.

وفيما يلي بعض الآراء التي عبر بها علماء الفيدا عنها:

(١) يكتب الباندیت "موني" في كتابه "فيدا سارفاسفا" ص٩٧:

في الحقيقة، إن حالة التشوش والاضطراب التي آلت إليها كتب "آثارفا- فيدا" هذه لا مثيل لها في كتب الفيدا الثلاثة الأخرى. وحتى بعد "سيانا- كاريا" أضيف إليها الكثير من "السوكتا". وقد ابتدعوا أسلوبا جديدا في الإضافة. ففي المرحلة الأولى تُكتب كلمة "أثا" أي البداية، عند أول المقطع الدخيل من الكتاب، وتُكتب كلمة "إيتي" أي النهاية، في نهايته. وبعد أن يتعوّد القراء على التغيير، تسقط كلمة "أثا" و "إيتي" ويصبح المقطع الدخيل جزءاً من النص العام. وكما هو الحال في مجموعة "ريك- فيدا"، أضيفت "الفالكهيليا سوكتا"، وأيضا أضيفت "كونتابا سوكتا" في نهاية "آثارفا- فيدا". وإن سألت "من أين جاءت هذه السوكتا بدءا من "آنو- فاكا" الخامسة إلى "كونتابا"؟ فلن تجد إجابة على سؤالك. إن الجهل متفشّ بشكل عنيف مفرط، حيث في النهاية أصبحت الكلمات الثلاثة "آثارفا- فيتا" "سامهيتا" "سامابتا" كافية لضمان أن كل ما جاء سابقا تُكوّن مجموعة "آثارفا". و لم يتوقف أحد ليسأل من كان المؤلف ومن كان الناشر، وما هي المؤهلات التي خولتهم القيام بهذا العمل.

(٢) ويكتب باندیت ماهش شاندرا براشاد في كتابه "سنسكريت ساهيتيا كا إيتيهاس" ص١٦٠:

إن فاجا سانيا سكوكلا ياجور- فيدا سامهيتا مجموعة غريبة. ففيها تعتبر الفيدا والبراهمانا أجزاء منفصلة. ويوجد أربعون فصلا، ولكن معظم الناس يعتقدون أن ثمانية عشر منها فقط أصيلة، والبقية أضيفت مؤخرا. والفصول من ١ إلى ١٨ تناظر باجا تيريا سامهيتا وكرشنا ياجور- فيدا في أسلوبها وفقراتها. ولهذه الفصول الثمانية عَشَرَ شرحٌ كلمة بعد كلمة في البراهمانيات. ولكن بالنسبة لبقية الفصول نجد بعض الشروح فقط للقليل من المانترا هنا وهناك.

ويعتبر "كاتيايانا" الفصول من ٢٦ إلى ٣٥ إضافات دخيلة. وتحتوي الفصول من ١٩ إلى ٢٥ على سرد للتضحيات. ولا تتفق هذه مع تتيريا سامهيتا. والفصول من ٩ إلى ٢٩ تتكون في أغلبها من مانترا تتعلق بنفس طقوس التضحية المذكورة في الفصول الأولى، ويظهر منها بكل تأكيد أنها قد أضيفت فيما بعد.

(٣) ويكتب باندیت شانتي ديف شاستري في الكانكا ص ٢٣٢ (فبراير ١٩٣١):

ليس هناك وجود لما يؤكد على ما إذا كانت الفيدا تتكون من ثلاثة كتب أو من أربعة. فحسب رأي مانيو سمرتي وشاتاباثا برهمانا، تعتبر ريك- فيدا، وياجور- فيدا، وساما- فيدا هي وحدها كتب الفيدا، ولكن في رأي فاجا سانيا أوبانيشاد، وبرهمانا أوبانيشاد وموندكا أوبانيشاد، تتكون الفيدا من أربعة كتب.

(٤) ويكتب الباندیت هيرداي ناراين في الكانكا (يناير ١٩٣١):

إن كرانا فايوها والكتابات الأخرى لشوناكا ريشي لا تتطابق مع الإحصاء المقدم عن عدد جمل المانترا الفيديّة وعدد كلماتها وحروفها على الطبعات الحديثة للفيدا، مما يُبين أن كتب الفيدا قد عانت من الزيادة والنقصان.

(٥) ويكتب الباندیت شانتي ديف شاستري في الكانكا ص٢٣١ (فبراير ١٩٣١):

عندما كتبت كرانا فايوها حسب شوناكا ريشي، كان لشاكاليا سامهيتا في مجموعة ريك- فيدا ١٥٣٫٨٢٦ كلمة و ٤٣٢٫٠٠٠ حرف و ١٠٫٦٢٢ مانترا. ولكنك لا تجد هذه الأعداد اليوم.

(٦) ويكتب الدكتور تارباد شودري في الكانكا ص٧٤ (يناير ١٩٣٢):

وبالإضافة إلى ذلك، تجد في الفيدا كلمات تبدو لك بوضوح أنها أجنبية على النص. ويبدو أن النص قد تعرّض للعبث بسبب الأخطاء التي دخلت عليه لا

شعوريا من أولئك الذين كانوا يُمْلونه، وأولئك الذين كانوا ينسخونه.

(٧) ويكتب الباندیت فیدیك موني في كتابه فیدا- سارفاسفا ص ١٠٥-١٠٦:

كان زمن كتابة كوباثا براهمانا هو زمن المدافعين عن فكرة تقديم التضحيات في الحقل. وفي ذلك الوقت كان كهنة ريك- فيدا، وياجور- فيدا، وساما- فيدا، وآثارفا- فيدا منشغلين بخلافات حامية الوطيس، ومنهمكين في إدخال إضافات كثيرة متعللين بأسباب مختلفة. وأدخل كل منهم مانترا ريك- فيدا التي تخيلوها في كل من كتب الفيدا الخاصة بهم. وظن كل منهم أنه فوق النقد، وأضمر كل منهم البغض للآخر. و لم يقف الأمر عند هذا الحد، فإن الاختلافات التي تسللت إلى المخطوطات المختلفة تسببت في الانقسام بين كهنة كل فيدا. فكهنة فاشكالا سامهيتا انفصلوا عن كهنة شاكاليا سامهيتا، وانفصل كهنة مادنياندينا سامهيتا عن كانفا سامهيتا، وشوناكا سامهيتا عن بيبالادا سامهيتا. وكل منهم اعتبر أن النص الذي تخيله هو أفضل النصوص وأنه الأنقى، وكل نصوص الآخرين فاسدة ومختلقة. إن الاختلافات العديدة في كل نصوص الفيدا التي بين أيدينا اليوم قد وُلدت في تلك الفترة الفاسدة.

(٨) ويستمر نفس الكاتب فيقول ص ١٠٨:

وبالإضافة إلى هذا، فإن أجزاء من براهمانا كرانثا قد أضيفت أيضا إلى الفيدا، ويمكن للقارئ الفطن أن يتعرّف عليها على الفور. وتعاني أثارفا- فيدا من نفس الحالة. وعلى علمائنا المتخصصين في هذه الأمور أن يتدبروا الحال. وإنه من المؤسف جدا أن يكون كتاب دين في هذه الحالة السيئة.

(٩) ثم يضيف الكاتب فيقول في ص ١٠٩:

لقد سبقت الإشارة إلى أن لدينا اليوم نسختين مختلفتين من أثارفا- فيدا. إحداها بيبالادا سامهيتا، والأخرى شوناكا سامهيتا. والأولى يُعوّل عليها أكثر

من الأخرى. ولكن هذا لم يُذكر، ولم يكتب سايانكريا أي شرح عنه. والنسخ المطبوعة من شوناكا سامهيتا يمكن الحصول عليها في ثلاث نسخ طبعت بواسطة ثلاث مطابع. ومنها اثنتان تحتويان على النص مجردا، بينما تحتوي الثالثة على شرح سايانكريا بالإضافة إلى النص. وإحدى النسخ التي تحتوي على النص المجرد طبعت بواسطة مطبعة فيدا في أجمير، بينما طبعت الأخرى في مطبعة بومباي، وكان الذي طبعها هو سافاك لال. والنسخ الثلاث تختلف بعضها عن البعض في عدد الفصول وفقراتها.

(١٠) ويكتب عالم الآرياسماج باندیت راغونوندان شارما في كتابه ساهيتيا باشانا فايديك سامباتي ص٥٧٠- ٥٧١:

حسب علمنا، ليس هناك من دليل معروف على المكان الذي حدثت فيه الإضافات في الفيدا على وجه التحديد، وليس من الثابت أن الأماكن التي حدثت فيها الإضافات كانت غير معروفة لدى علماء الفيدا. فإن الأماكن التي حدثت فيها إضافات كانت معروفة لزمن طويل (منذ زمن براهمانا كرانثا). وهي ليست إضافات وإنما تعليقات أُدخلت على النص بسبب أخطاء الناسخين والطابعين، ويبدو أنها صارت جزءا من النص. فالكهيليا سوكتا في ريك- فيدا (وتبلغ كلها ١١ فصل و ٨٠ مانترا)، وكهيل أو براهمانا باكا في ياجور- فيدا (عدة فصول)، وأرانياكا وفصول ماهانامني (فصلانِ و٦٥ مانترا) في ماما- فيدا، وكونتابا سوكتا (عشرة فصول و١٥٠ مانترا) في أثارفا- فيدا؛ هذه هي الإضافات المعروفة للجميع، والتي يوجد عليها الكثير من الأدلة. وبالإضافة إلى هذه توجد فقرات أدخلت على ياجور- فيدا وأثارفا- فيدا وقد أضيفت هذه الفقرات ويمكن التعرف عليها بسهولة. وباختصار، كما أن هذه الإختلافات في العديد من نسخ الفيدا معروفة جيدا، والنسخ الخالية منها يمكن الحصول عليها، كذلك فإن الإضافات على الفيدا معروفة أيضا.... ونجد أن "الفاجا سانيا سماهيتا" (النسخة الحالية لياجور- فيدا) لها ١٩٠٠ مانترا ويحتوي هذا العدد على

شاكفاري مانترا، فقد قيل لنا.... أن لِـ "فاجا سانيا" أَلْفَي مـانترا إلا مئـة، ويحتوي هذا العدد ما يخص شاكفاري. وإذا كانت فاجا سانيا سامهيتا، فينبغي أن تحتوي فقط على فاجا ساميي مانترا. ولكنا نجد أن النسخة الحاليـة لفاجـا سانيي تحتوي ١٩٧٥ مانترا. ويتضح من هذا أن شاكفاري مانترا ليست بالقطع داخلة ضمن العدد ١٩٠٠، وبقية الخمسة والسبعين قد أضيفت من مكان آخر.

هذه العبارات تبين بوضوح أن الفيدا ليست خالية من التلفيقات. ويبـدو أن علماء الفيدا الأقدمين والحديثين متفقون على أن كثيرا من المانترا قد أضـيفت إليها. ولا جدوى من أن يقال، كما يدّعي العلماء الحديثون، أنه أمكن تتبع آثار الإضافات وعزلها عن الجزء الأصلي للنص. فإن كان علماء الفيدا على قناعة بأن بعض الأجزاء المعينة من المانترا ليست سوى إضافة مختلقة، فلماذا لم يـسقطوها من النص؟ إن حقيقة أن المانترا المختلقة لا تزال موجودة في النص تبين أن علماء الفيدا ليسوا على يقين من طبيعتها المزيفة. ويعترف كاتب الآرياسماج في النهاية أن ١٩٠٠ مانترا فقط من ياجور- فيدا أصلية، ويعترف بأن ٧٥ الباقية عبـارة عن إضافات تمت لاحقا. بل إنه يعترف أن الألف والتسعمئة مـانترا تتـضمن البعض من شاكفاري مانترا. هذه التصريحات بدلالاتها الواضحة، تبين لنا أن ما من أحد يعلم الحقيقة في الواقع، وأن الجميع يطرقون باب الظـن والـتخمين. ولكن، هل يمكن للظنون أن تصبح مصدرا للإلهامات الروحانية؟ إن الظـن لا يغني من الحق شيئا.

إن الحقيقة الثابتة هي أن صحة وأصالة أثارفا- فيدا ما زالت دائمـا محـلا للشك، وأن ياجور- فيدا وريك- فيدا متشابهان تماما في البنية والشكل، حـتى إنهما في أغلب الظن قد استعارتا على نطاق واسع، الواحدة من الأخرى. ولمـا كان الاضطراب والارتياب على هذه الدرجة، فمن يستطيع الجزم بـأن هـذه المانترا أصيلة أو أن تلك مضافة؟ إن الكتاب الذي يخضع لهذا الكم الكبير مـن الشك والريبة لا يصلح لهداية الإنسان، ولا بد من استبداله بكتاب آخر يخلـو

تماما من كل تشويش وريب، كتاب محفوظ من كل عبث وتدخل بشري، ويمكن أن يثق فيه الإنسان ويعتمد عليه، ويعتبره وحيا منَزّلا من لدن الله تعالى بنفس اليقين الذي يرى به المرء الأجرام السماوية، وبتأكيد من يتطلع إلى مفارش الأرض، بل وبيقين من يوقن بوجوده. فإن مثل هذا الكتاب هو الذي يستطيع وحده أن يثير في نفس الإنسان الرغبة في معرفة الخالق والثقة في نوال الهداية الربانية، وهذا الكتاب هو القرآن المجيد.

التعاليم الوحشية في الفيدا

نسرد فيما يلي بعض الأمثلة للتعاليم الوحشية التي في الفيدا:

(١) في أثارفا- فيدا (٤، ٢٢: ٧) نجد ما يلي:

"بسطوة الأسد ضَعْ يدك واستول على جميع قراهم، وبضراوة النمر شرِّدْ أعداءك. أنت القائد والسيد الأوحد المحالف لإندرا. اهزمْ أعداءك وانزعْ كل ممتلكاتهم".

(٢) في الساما- فيدا (الجزء الثاني، ٩، ٣، ٨) نجد ما يلي:

"لكم العمى يا أعدائي، ستصبحون كحيّة بلا رأس: عسى إندرا أن يبطش بخيركم والأفاضل منكم، بعد أن يرميكم آكني بلهب نيرانه".

(٣) في ساما- فيدا (١١: ١) نقرأ ما يلي:

"أيها الإله "إندرا" عساك تُسرّ بعصير الصوما الذي قدمناه إليك، وفي نشوتك تهب لنا الغنى والسلطة، ولخصومنا الهزيمة والخزي".

(٤) ومن ساما- فيدا (الجزء الثاني ٢، ٢، ٢، ٨)

"نناديك، فأهلِكْ خصومنا من الآريا يا إله الأبطال المقاتلين، وأهلِكْ خصومنا من الداسا، ندعوك فشرِّدْ أعداءنا جميعا".

وأيضا الجزء الثاني (٤، ١، ١٦): "دُسْ تحت أقدامك كل من يراقبنا ويسدد

إلينا سهامه".

(٥) في أثارفا- فيدا (الجزء ١٩، ٢٨: ٤- ١٠) نقرأ ما يلي:

"اشطر بسيفك أنت يا داربا، ومثِّلْ بأعدائي وانتزعْ القلوب من صدور خصومي، قم أنت واحصدْ رؤوسهم كما تفعل المناجل بأعشاب الأرض، وقطِّعْ المناوئين لي إربا يا داربا، واذبحْ حتى أولئك الذين يريدون قتالي... مزّقْ خصومي يا داربا... اسحلْهم وقطِّعْهم يا داربا... واشطرْ بسيفك أجسادهم يا داربا... وانفذْ فيهم برماحك يا داربا... اطعن الرجال الذين يكرهونني يا أميولت".

(٦) في أثارفا- فيدا (الجزء ١٩، ٢٩: ١- ٩) نجد ما يلي:

"اشطر أجساد أعدائي يا داربا... اسحق خصومي يا داربا... احرق أعدائي... اقض على المناوئين لي... اذبح خصومي يا داربا... اذبح كل من أراد بي الشر".

(٧) وفي ياجور- فيدا (٢٧: ٢) نقرأ ما يلي:

"يا أكني، كنْ أنت مع الخلصاء الذين يفنون في حبك، ولينلْ كهنتك المجد ولا أحد سواهم".

(٨) وفي ياجور- فيدا (١١: ٨٠) نجد ما يلي:

"يا أكني حوِّلْ إلى رماد كلَّ من يسعى لكي يؤذينا، من ينظر إلينا نظرة كراهية".

وبالإضافة إلى الفيدا، تحتوي كتب الهندوس الأخرى أيضا نفس نوعية التعاليم. ففي مانيو سمرتي، التي تعترف بها جميع المدارس الفكرية الهندوسية نجد ما يلي:

(١) "الرجل الذي ينتمي إلى الطبقات الثلاث العليا، إذا أدمن على كتب الهرطقة والكفر، وتعامل مع شعبتي القانون بازدراء، فيجب أن يُطرد

كالملحد الذي يحتقر الوحي ويُمنع من مصاحبة الصالحين" (٢: ١١).

فهل يحكم على من ينتقد الفيدا بالنفي من البلاد؟

(٢) "الرجل الذي ينتمي إلى الطبقة السفلى، الذي يضع نفسه بوقاحة على نفس المجلس مع رجل من الطبقة العليا، يجب إما أن يُنفَى مع وضع علامة على مؤخرته، وإما أن يأمر الملك بجرح بليغ في مقعدته" (٨: ٢٨١).

(٣) من حق البراهما إذا شعر بالحاجة أن يستولي بلا تردد على متاع عبده من الشودرا؛ باعتبار أن ذلك العبد ليس له أي ملَكيّة، فيستطيع سيده أن يستولي على متاعه." (٨: ٤١٧)

(٤) "ولكن الرجل الذي من الطبقة الخادمة، سواء كان مملوكا أو غير مملوك، يجب أن يُجبر على واجب الخدمة؛ لأن مثل ذلك الرجل بطبيعة وجوده، خُلق من أجل خدمة البراهما" (٨: ٤١٣).

(٥) "إن الرجل من طبقة الشودرا، حتى ولو كان قد أُعتق من قِبَل سيده، فلا تسقط عنه واجبات الخدمة، لأن الخدمة هي الوضع الطبيعي له، فمن يستطيع أن يخلعها عنه؟" (٨: ٤١٤).

(٦) "إذا تجرأ الشودرا، مدفوعا بالكبرياء، أن يوجّه رجال الدين فيما يتعلق بواجباتهم، فليأمر الملك بصبّ الزيت المغلي في فمه وأذنه" (٨: ٢٧٢).

من هذه العبارة المقتبسة من المانيو، يتضح أن البركات الإلهية، حسب الديانة الهندوسية، محصورة في بعض الطبقات المميّزة. فتعتبر قراءة الفيدا أو سماع تلاوتها خطيئة بالنسبة لبعض الناس، وإذا تخطَّوا الحدود وحاولوا أن يقرءوا الفيدا أو يستمعوا لها أو يحتفظوا في ذاكرتهم بأية أجزاء منها، فإن العقوبة التي تصل إلى حد الموت تكون هي الجزاء الذي يوقّع بهم.

إن هذه التعاليم تبين بكل وضوح أن دارما الفيدا لا تعني سوى فئة قليلة متميّزة من الناس. فهي ليست رسالة عالمية. إن طبقات البراهما، والكشاتريا، والفايشيا لا تشكل المجتمع بأكمله. فماذا تقدم الديانة الهندوسية للفئات الأخرى من الإنسانية كلها؟ ألا توجد هداية لهم؟ هل يمكن قبول فكرة أن يقتصر مفهوم الرحمة الإلهية على جزء من خلق الله، وحرمان الجزء الآخر؟ هل من المعقول هداية جزء من الناس إلى الجنة، وترك الجزء الآخر ليذهب إلى جهنم؟ إن هذه التعاليم ليست وحشية وهمجية فحسب، بل يمجّها الضمير، ولا شك أنها بغيضة إلى الله تعالى. إنه سبحانه رحمان تفيض نعمه على جميع خلقه، ووسعت رحمته كل شيء، فكل جزء من الدنيا تحت رحمته، وكل مخلوقاته تنال من فضله، سواء تلك التي تعيش على ظهر الأرض أو تحت الثرى، أو التي تحلق في الأجواء، كلها تعيش وتنمو وتحقق غرضها الذي كتبه الله لها تحت رعايته وفضله الذي يعمّ الجميع. وقد زوّد سبحانه جميع طبقات الإنسان بنفس القوى ونفس الدوافع ونفس المشاعر. إن الدوافع التي تدفع الإنسان ليتسلق الدرجات الروحانية، وزعها الله تعالى على الإنسان بالعدل والقسطاس، لم يشح بها على أمة ولا قتّر بها على قوم، سواء كانوا من أهل أوروبا أو أمريكا أو من اليابان أو أحد من أهل آسيا. والهندوس ليسوا أعلى من غيرهم في طموحاتهم الروحانية، ولا يزيدون عن غيرهم في قدراتهم الذهنية. ولا يمكن أن يكون الله تعالى قد حرم من هدايته جانبا كبيرا من خلقه، واختار سدس الجنس البشري ليخصهم بها. إن وجود مثل هذا التعليم على ما هو عليه اليوم يعلن بذاته أن زمانه قد مضى وانتهى. ونحن في أمسّ الحاجة الآن إلى كتاب يخاطب الإنسانية بأجمعها، الكتاب الذي يجمع العربي وغير العربي، ويتوجّه إلى اليهود والأمم، ويشمل البراهما وغير البراهما، ويجمعهم جميعا في جماعة واحدة، ويغرس فيهم شعورا بالأُخوّة، ويعلّمنا ألا نعامل المساكين والمستضعفين بازدراء أو احتقار، بل يكونون هم الأوْلى بالرأفة والشفقة والعناية. إن هذه الحاجة إلى كتاب جديد هي التي حققها القرآن

المجيد.

الخرافات في الفيدا

إن الفيدا طافحة بالخرافة. وبعض العناصر المادية تُعتبر فيها آلهة. صحيح أنه قيل إن هذه ليست آلهة بالمعنى المفهوم وإنما أسماء للصفات الإلهية، ولكن من الصحيح كذلك أن الفيدا تعتبر أيضا أن بعض الشعائر الدينية تتضمّن إشعال النار أو حرق الزيت والشحم وغيرها من الشعائر المماثلة (ريك- فيدا ٢، ١٠: ٤)، وليس هناك من شك أن الزيت والشحم وغيرها تعتبر طعاما لِـ"أكني"، إله النار. فإذا كان "أكني" صفة من الصفات الإلهية، فما هو الداعي لإشعال النار وتغذيتها بالمحروقات الثمينة؟ لا بد أن هذه الشعائر من باب الخرافات والأوهام التي غزت الفيدا. ومن ناحية أخرى، إذا كان أكني يعتبر حقا إلها، كما تشير بذلك هذه الشعائر، فعندها يكون الأمر في مجمله، الشعائر والعقيدة التي وراءها، كلها ليست سوى خرافات وأوهام.

وفي ريك- فيدا (٢، ١١:١١) نجد ما يلي:

"اشرب أنت يا بطل، يا إندرا، اشرب الصوما؛ ودع العصير المنعش يهبك النشوة والسعادة".

إن "إندرا" اسم يطلق على الله تعالى أو على ملائكته. فإذا كان إندرا اسم الله تعالى، تكون الفكرة التي جاءت في هذا المقطع فكرة ساذجة، تلك التي تحض الإنسان على تقديم شراب الصوما إلى الله تعالى. أما إذا كان إندرا اسم ملاك أو روح، فحتى حينئذ تقديم شراب الصوما هو ضرب من الخرافة. إن الله تعالى لا يحتاج إلى طعام ولا شراب، وملائكته مخلوقات نورانية ليست في حاجة إلى الشراب والعصائر.

ومن نفس المصدر في (١١: ١٥) نقرأ ما يلي:

"فليهنأ هؤلاء الذين يحظون برضاك، يا إندرا اشرب الصوما من أجل

قوّتك وسعادتك".

إن مجرّد الظن بأن عصير الصوما يعطي القوة لله تعالى أو للملائكة هو سخرية محضة إلى أقصى حد.

وليس الأمر مجرد فقرة أو فقرتين تلك التي تتضمّن خرافات من هذا النوع، هناك المئات من الفقرات التي على هذا المنوال، وفي بعضها أوصاف لآلهة تعبر السماء وهي تمتطي السحب أو عربات تطير في الهواء!

وهناك أجزاء كبيرة في الفيدا فيها تلميحات غير أخلاقية، تلك التي تتعلق بالأمور الجنسية، وهي فاضحة وجارحة، حتى إننا نخشى أن نذكر بعض المقتبسات منها كي لا نخدش حياء القارئ. إن النوازع والأعضاء الجنسية مذكورة بتفاصيل يمجّها الذوق وتثير الغثيان، حتى ولو كانت مذكورة في كتاب من كتب الطب.

ولهذه الأسباب، لا يسعنا إلا القول بأنه رغم وجود أجزاء في الفيدا تشير إلى أنها جاءت في الأصل من الوحي الإلهي، إلا أن أجزاء أخرى تثبت أنها قد تعرّضت لعبث البشر والتدخل الإنساني. ولهذا، فإن الفيدا لم تعد تصلح أن تُعتبر كتابا لهداية الإنسان. ونحن في حاجة إلى كتاب بديل يكون خاليا من مثل جميع هذه العيوب والنقائص، ألا وهو القرآن المجيد.

المتناقضات في الفيدا

الفيدا، على غرار الكتاب المقدس، تحتوي على الكثير من الإضافات التي أدخلها العديد من الأشخاص على مدى طويل من الزمن. ولا عجب أن يكون فيها الكثير من المتناقضات، وفيما يلي بعض الأمثلة:

(١) تثير الفيدا سؤالا عمن أوجد الشمس. وللإجابة على هذا السؤال تقدّم الفيدا إجابات مختلفة في أماكن مختلفة من الفيدا. ففي الريك- فيدا (٩، ٦٩: ٥)

نجد أن الشمس قد أوجدها الإله سوما. ولكن في الريك- فيدا (٨، ٣٦: ٤) نجد أن الشمس قد أوجدها الإله إندرا.

إن نفس الكتاب يذكر شيئا في أحد الفصول، ويذكر شيئا آخر في فصل آخر. ففي أحد الفصول يتبين أن الإله سوما هو الذي أوجد الشمس، وفي الفصل الآخر نجد أن إندرا هو الذي أوجدها. وإذا انتقلنا إلى كتب الفيدا الأخرى يصبح التضارب والتناقض أكثر خطورة.

ففي ياجور- فيدا (٣١: ١٢) نقرأ أن براهما هو الذي أوجد الشمس من عينه.

وتتناقض أثارفا- فيدا مع هذه المعلومة، ففي (١٩، ٢٧: ٧) نجد أن الآلهة كلهم تعاونوا بعضهم بعضا وصنعوا الشمس. ويختلف هذا الرأي مع كل الآراء الأخرى ويتناقض معها.

(٢) تقول الفيدا بأن الشمس كانت في أول الأمر على الأرض، ثم أُخذت بعد ذلك إلى السماء. وهذه العبارة قد تكون في منتهى السخافة من وجهة نظر العلوم الفلكية، غير أن اهتمامنا هنا ينحصر فقط في بيان أنه حتى هذه العبارة العجيبة قد صيغت في عدة صيغ نُقلت إلينا في أجزاء مختلفة من الفيدا بأساليب متباينة.

في كرشنا ياجور- فيدا تيتيريا سامهيتا (٧: ١) نقرأ أن الشمس كانت موجودة على الأرض، ثم حملتها الآلهة على ظهورها إلى السماء ووضعتها هناك.

وفي الريك- فيدا (١٠، ١٥٦: ٤) نقرأ أن إله النار حمل الشمس ووضعها في السماء.

ولكن في الريك- فيدا نفسها وفي مكان آخر (٨، ١٢: ٣٠) نقرأ أن الإله إندرا وحده حمل الشمس إلى السماء.

وفي مكان آخر أيضا في (١٠، ٦٢: ٣) نجد أن آتري ريشي حمل وحده

الشمس دون مساعدة من أحد.

وفي أثارفا- فيدا (١٣، ٢: ١٢) جاء ذكر أن آتري ريشي حمل الشمس إلى السماء دون مساعدة من أحد وذلك لكي تخلق الشهور.

وفي شوكلا ياجور- فيدا نجد أن الإله فارونا هو الذي وضع الشمس في السماء.

إن الإيمان بأن الشمس قد حُملت من الأرض إلى السماء هو محض خرافة سخيفة، ولكن الأسخف منه أن يكون هناك تضارب واختلاف حول هذا الأمر. فإن الريك- فيدا وحدها تعطي ثلاث عبارات متناقضة. إحداها أن إله النار هو الذي حمل الشمس إلى السماء. والثانية أنه الإله إندرا. والثالثة أن أبناء أنجيرا ريشي قاموا بهذا العمل. والياجور- فيدا تعطي أيضا آراء متناقضة، أحدها أن الآلهة تعاونوا في حمل الشمس إلى السماء، والأخرى أن الإله فارونا هو الذي قام وحده بهذه المهمة. ثم تعطي آثارفا- فيدا صيغة أخرى مؤداها أن من نفّذ هذا العمل كان الريشي آتري.

(٣) كذلك نجد في الفيدا العديد من الآراء حول خلق السماوات والأرض. وتتناقض هذه الآراء بعضها مع البعض تماما كما تتناقض حكايات الأشباح والجنّيات في حكايات الأطفال.

في ساما- فيدا، بورفا أرشيك (٦، ١: ٤)، نجد أن الإله سوما هو الذي أوجد السماء والأرض.

ولكن في الريك- فيدا (٨، ٢٦: ٤)، نجد أن الإله إندرا هو الذي أوجد السماء والأرض، وهو الذي كان يعيش على عصير الصوما.

وفي مكان آخر من الريك- فيدا (٢، ٤٠: ١)، نجد أن سوما وبوشان أوجدا السماء والأرض.

وفي ياجور- فيدا (١٣: ٤) مكتوب أن براهما هو الذي أوجد السماء

والأرض.

عدد آلهة الفيدا

إننا نرى، كما سبق ذكره من قبل، أن الفيدا كانت في الأصل من وحي الله تعالى، حيث إنها لم تعلّم سوى وحدانية الله تعالى وأحديته. ولكن الفيدا كما نجدها اليوم، ليست هي الفيدا التي أنزلها الله تعالى على الريشي. إن الفيدا اليوم أصبحت تعجّ بأوصاف من الشرْك، وهذه الأوصاف موجودة على نطاق واسع، لدرجة أن القليل الذي لا يزال يحمل آثارا من وحدانية الله تعالى، قد تصاغر وتضاءل حتى إنه لا يكاد يُرى. وفيما يلي بعض الأمثلة:

في ياجور- فيدا (٧: ١٩) نجد أن هناك ثلاثة وثلاثين إلها، أحد عشر إلها على الأرض، وأحد عشر إلها في السماء، وأحد عشر إلها في المياه.

وفي الريك- فيدا (٣، ٩:٩) نجد أن المجموع الكلي لعدد الآلهة هو ٣٣٤٠، وذلك، لأنه حسب الريك- فيدا، ذهب ٣٣٣٩ إلها إلى إله النار ليطعموه دهنا. وبانضمامه إلى المجموعة الكبيرة يصير العدد ٣٣٤٠. وعلى هذا، حسب ما جاء في الريك- فيدا (١٠، ٥٢: ٦) عدد الآلهة هو ٣٣٤٠. وهذا التناقض في عدد الآلهة الموجود في أماكن كثيرة من الفيدا يثير العجب إلى أقصى حد؛ فالياجور- فيدا تعتبرهم ٣٣ إلها، والريك- فيدا تعتبرهم ٣٣٤٠ إلها! إن الخروج عن عقيدة الإله الواحد خطر يهدد الإيمان، ولكن هذا التناقض في عدد الآلهة أسوأ من الخطر. إن مثل هذه التناقضات تدفعنا إلى الإقرار بأن الفيدا الأصلية قد نزلت حقا من عند الله، ولكن الفيدا الحالية لم تعد تحتفظ بصفاتها الأصلية والأصيلة، ولم تعد قادرة على أن شفاء غليلِ الذين يسعون نحو التقدم الروحاني. ولا بد أن تُستبدل الفيدا بكتاب آخر يخلو من كل التعاليم المتناقضة، والمنافية للأخلاق، والبربرية الوحشية، والخرافية. وهذا الكتاب، كما نؤكد، هو القرآن المجيد.

وعْد الله ﷻ لإبراهيم عليه السلام

السؤال الرابع، الذي تُلقي إجابته الضوء على الموضوع المتعلق بالحاجة إلى وجود القرآن المجيد، هو: هل كانت الأديان السابقة تعتبر نفسها الأخيرة؟ أم كان أتباعها يؤمنون بنوع من التقدم الروحي يصل إلى ذروته في تعليم عام يستهدف الإنسانية جمعاء؟

وللإجابة، لا بد من الإقرار بأن المصدر الوحيد لدراسة قصة متسلسلة للأنبياء تكشف لنا عن حلقة الاتصال بين النبي والذي يليه، هو الكتاب المقدس. ولإعادة صياغة قصص الأنبياء، فإن الاستعانة بالكتاب المقدس لها فوائدها. ولا يوجد غيره كتاب سماوي، قبل القرآن المجيد، يمكن أن يمدنا بهذه المعونة. ولإجابة السؤال عما إذا كانت الكتب السابقة والأنبياء السابقون قد ذكروا أو لم يذكروا مجيء تعاليم كاملة ورسول كامل بعدها، ينبغي أن نعود إلى الكتاب المقدس.

وحين نذهب إلى التوراة، نجد أن الله تعالى قد أعطى وعودا لإبراهيم عليه السلام. لقد وُلد إبراهيم في مدينة "أور" الكلدانية، ثم هاجر من هناك مع أبيه إلى كنعان، وقد توقف أبوه في الطريق عند حاران ومات هناك. وعند وفاة أبيه، أمره الله تعالى أن يترك حاران ويذهب إلى كنعان، وتلقى الوحي التالي:

"فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظّم اسمك وتكون برَكة. وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض" (التكوين ١٢: ٢- ٣).

وأيضا:

"لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد" (التكوين ١٣: ١٥).

ومرة أخرى أيضا:

"وقال لها (أي للسيدة هاجر) ملاكُ الرب: تكثيرا أكثّر نسلكِ فلا يُعدّ

من الكثرة. وقال لها ملاك الرب: ها أنت حُبلى فتلدين ابنا وتدعين اسمه إسماعيل، لأن الرب قد سمع لمذلّتك. وإنه يكون إنسانا وحشيا، يده على كل واحد ويد كل واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن" (التكوين ١٦: ١٠- ١٢).

وجاء كذلك:

"وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك: يُختَن منكم كل ذكر. فتختنون في لحم غُرلتكم، فتكون علامة عهد بيني وبينكم" (التكوين ١٧: ٩- ١١).

ثم جاء أيضا:

"وأما الذكر الأغلف الذي لا يُختن في لحم غرلته فتُقطع تلك النفس من شعبها، إنه قد نكث عهدي" (التكوين ١٧: ١٤).

وبالإضافة، يخبرنا سفر التكوين ١٧: ١٦ أن الله قال لإبراهيم إنه سيبارك سارة زوجته ويعطيه منها ابنا:

"وأباركها وأعطيك منها ابنا، أباركها فتكون أمما، وملوك شعوب منها يكونون".

ويخبرنا التكوين ١٧: ١٩ عن ذرية سارة (من خلال إسحاق):

"وأقيم عهدي معه عهدا أبديا لنسله من بعده".

وعن إسماعيل يخبرنا التكوين ١٧: ٢٠- ٢٢

"وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثّره كثيرا جدا، اثنيْ عشر رئيسا يلد، وأجعله أمّة كبيرة، ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية. فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم".

ومرة أخرى يذكر التكوين ٢١: ١٣

"وابن الجارية أيضا سأجعله أمّة لأنه نسلك".

وعن إسماعيل في التكوين ٢١: ١٧- ١٨ يقول الله تعالى للسيدة هاجر:

"فسمع الله صوت الغلام، ونادى ملاكُ الله هاجرَ من السماء وقال لها: ما لكِ يا هاجر. لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشُدّي يدك به، لأني سأجعله أمّة عظيمة".

ثم يقول التكوين ٢١: ٢٠- ٢١

"وكان الله مع الغلام فكبر، وسكن في البريّة وكان ينمو رامي قوس. وسكن في بريّة فاران وأخذت له أمّه زوجة من أرض مصر".

من هذه المقتطفات يتبين أن إبراهيم عليه السلام كان له ابنان، إسماعيل وإسحاق، وكان إسماعيل الأكبر سنا وإسحاق الأصغر. وقد وعد الله تعالى إبراهيم أنه سوف يُكثّر ذريته ويباركها. وينطبق الوعد على كل من إسحاق وإسماعيل. ومن هذه المقتبسات يتبين أيضا أن إسماعيل عاش في بريّة فاران، وأن أرض كنعان قد أُعطيت لأبناء إبراهيم، وكانت العلامة الخارجية على هذا العهد الذي أبرمه الله تعالى مع إبراهيم، هي ختان كل الذكور. وقد تحققت جميع تلك الوعود. لقد تضاعفت وزادت كثيرا ذرية إسحاق، ومن بينهم قام الكثير من الأنبياء مثل موسى وداود وحزقيال ودانيال وعيسى عليهم السلام جميعا. وقد حكموا أرض كنعان لمدة ألفي عام تقريبا، ولم تخرج من أيديهم تماما، ولو أن قبضتهم عليها كانت ضعيفة في بعض الأزمنة. إذ بعد القرن السابع بعد الميلاد، اضطر أبناء إسحاق، أولئك الذين تمسّكوا بحرفية شريعة موسى عليه السلام، إلى أن يتنحّوا عن أرض كنعان، وصار أبناء إسماعيل قادة تلك البلاد سياسيا وروحيا. وحقيقة أن بني إسرائيل قد اضطرّوا إلى التخلي عن أرض كنعان تُبين أنهم لم يعودوا يستحقون بركات الوعد الذي وعدهم الله تعالى إياه خلال إبراهيم عليه السلام. وكان هذا الوعد يتضمن استمرار وجود بني إسرائيل في هذه الأرض إلى "آخر الزمان"، وكان هذا الوعد صحيحا. وتعبير "آخر الزمان" في هذا الوعد لا

يمكن أن يعني زمان انتهاء العالم، ولكنه الزمان الذي ينتهي فيه أثر شريعة موسى عليه السلام، وتستبدل بشريعة أخرى من أجل استمرار هداية العالم بأجمعه. وفي لغة الوحي الإلهي، يُوصف مجيء شريعة جديدة بأنه بمثابة خلق سماوات جديدة وأرض جديدة. وكما أن خلق أرض جديدة وسماء جديدة لا يمكن أن يتم بغير حدوث انقلاب في الكون، يتعلق عادة بنهاية الزمان، كذلك يقتضي تأسيس شريعة جديدة حدوث انقلاب عظيم بين الناس الذين يتلقون هذه الشريعة. ولذلك حينما ذكرت النبوءة أن بني إسرائيل سوف يحتفظون بأرض كنعان إلى آخر الزمان، كان ذلك يعني أنهم سوف يظلون فيها إلى حين مجيء النبي العظيم صاحب الشريعة الجديدة. وفي أقوال داود، نجد تلميحا إلى هذا المعنى الذي نذكره للوعد المذكور في سفر التكوين عن وجود إسرائيل في أرض كنعان إلى آخر الزمان. إذ نجد في مزامير داود (٣٧: ٢٩):

"الصدّيقون يرثون الأرض ويسكنونها إلى الأبد".

فوراثة الأرض وسكناها إلى الأبد ليس لبني إسرائيل بصفتهم هذه، وإنما للصالحين. وبالحق كانت عبارة داود عليه السلام بمثابة إنذار بأن أيام حكم بني إسرائيل للأرض المقدسة قد صارت معدودة. ويبدو أن النبي داود قد أشار إلى أن الوعد الإلهي، بعد مرور فترة من الزمن، يجب ألا يُفهم بمعناه العرقي ولكن بمعناه الروحي؛ وأن أبناء إسماعيل سوف يرثون الوعد الذي قطعه الله تعالى لإبراهيم، وذلك من خلال وراثتهم للحق الذي يأتي من عند الله تعالى، الذي سيقطع معهم عهدا جديدا. وإن لم يكن تفسيرنا صحيحا، فإن السؤال التالي يفرض نفسه، وهو: لماذا جعل الله تعالى بني إسماعيل، والذين آمنوا برسالة القرآن المجيد، يحكمون أرض فلسطين؟ إن النبوءة كانت واضحة تماما. إن بني إسحاق سوف يملكون الأرض إلى آخر الزمان. والسؤال هنا هو: لماذا لم يتحقق ذلك؟ ولماذا سمح الله تعالى بانتقال القوة السياسية من بني إسحاق إلى بني إسماعيل؟ إذا كان هذا الانتقال قد استمر لفترة وجيزة لما اختلف مفهوم النبوءة. فالعثرات والهزائم

ثم الرفعة والمنعة شيء مألوف في تاريخ الشعوب. ولكن هذا الانتقال الذي نتحدث عنه كان انتقالا دائما. وقد مرّ عليه ألف وثلاثمئة سنة ولا زال بنو إسماعيل من المسلمين يقيمون في فلسطين. إن قوًى أوروبية والولايات المتّحدة الأمريكية يبذلون جهدا كبيرا لتغيير هذا الوضع، ولكنهم حتى الآن، على أية حال، لم ينجحوا في مساعيهم♦. وإذا حدث أن نجحوا في مساعيهم هذه، فإن نجاحهم هذا لن يستمر طويلا. فإما أن يتحوّل المستوطنون الإسرائيليون إلى الإسلام، وبذلك يستعيدون فلسطين بعهد جديد؛ وإما أن يضطرّوا إلى مغادرة فلسطين مرة أخرى. إن فلسطين من حق أولئك الذين يحافظون على العهد الذي قطعه إبراهيم مع الله تعالى. ولا شك أن المسيحيين يدّعون أنهم يحققون ذلك العهد، ولكنهم ينسون أن العهد قد حدّد علامة خارجية هامة؛ وهذه العلامة هي ختان الذكور. وهم لم يحافظوا على هذه العلامة بل حافظ عليها بنو إسماعيل فقط من قبل ومن بعد نزول القرآن المجيد.

وباختصار، إن نبوءة إبراهيم عليه السلام تَعِدُ بالبركات لكل من إسحاق وإسماعيل. وطبقا لهذا الوعد سوف يستقر بنو إسحاق في أرض كنعان، وبنو إسماعيل في بلاد العرب. ولكن حين جاء "آخر الزمان" بالنسبة لبني إسحاق، فحسب ما جاء في نبوءة داود عليه السلام، سوف يتحوّل الوعد من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل. ودعوى بني إسرائيل تقوم الآن على أساس عرقي بحت. أما دعوى بني إسماعيل بحقهم في الأرض فتقوم على أساس روحي. لقد تملّك بنو إسماعيل مكة والمناطق المحيطة بها على أساس حق قومي، كما جاء في سورة البقرة:١٢٥- ١٢٩. وقد أضافوا إلى ذلك أرض كنعان على أساس روحي، وذلك بعد التردي الديني الذي أصاب اليهود.

♦ نُذكّر القارئ بأن هذه المقدمة كُتبت قبل صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين. (الناشر)

النبوءة الهامة في سِفر التثنية

عندما ذهب موسى عليه السلام إلى جبل حوريب حسب أمر الله تعالى، قال لقومه بني إسرائيل:

"يقيم لك الرب إلهك نبيا مِن وسطك مِن إخوتك مثلي له تسمعون" (التثنية ١٨: ١٥).

وأوحى الله تعالى إلى موسى فقال له:

"أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. وأما النبي الذي يطغَى فيتكلم باسمي كلاما لم أوصه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى، فيموت ذلك النبيّ" (التثنية ١٨: ١٨).

ومن هذه المقتبسات يتضح أن موسى عليه السلام تنبأ عن نبي صاحب شريعة سوف يظهر من بعده، وسوف يكون من وسط إخوة بني إسرائيل.

وتدل جملة "نبيا ... مثلك" على أن النبي الموعود لن يكون نبيا عاديا، وإنما سوف يكون مثيلا لموسى عليه السلام، أي نبيا يؤتيه الله شريعة، فكما كان موسى نبيا مشرّعا، هكذا سيكون ذلك النبي الموعود نبيا مشرّعا. وكذلك جاء وصف النبي الموعود بأنه لا يتكلم من نفسه، وإنما يكلم الناس "بكل ما أوصيه به". ويتبين من هذا أيضا أن النبي الموعود سوف يكون صاحب شريعة. إن نشر شريعة جديدة يعني بداية اتجاه جديد وتكوين أمّة جديدة. ولذلك، فإن النبي الذي يؤتيه الله شريعة جديدة لا يكون مجرّد معلم أو مجدّدا كالأنبياء العاديين، فعليه أن يقدّم التعاليم المتكاملة الجديدة، ويجسّد المبادئ الأساسية التي يأتي بها، كما يوضّح أيضا تفاصيل القواعد التي في الشريعة. وبغير هذا لا يمكن أن تقوم أمّة جديدة. ولكن النبي الذي لا يأتي بشريعة جديدة، ليس عليه سوى أن يبين ويشرح

حقيقة تعاليم الشريعة الموجودة بالفعل. وقد يحدث أن يكون بعض الوحي الذي يتلقاه خاصا به شخصيا، ولذلك ليس من الضروري له أن يبلغ قومه بكل ما أوحي إليه.

وتشير النبوءة المذكورة إلى أن النبي الموعود سوف يتكلم "باسمي"، وأن من لا يسمع لكلامه الذي يتكلم به باسم الله تعالى، فإن الله سوف "يطالبه"، أي أن من لا يستمع لكلام ذلك النبي سوف يحاسبه الله تعالى، وسوف يعرّض نفسه لعقابه. كذلك تذكر النبوءة أن من يتقوّل على الله، أو يدّعي كذبا أنه يحقق هذه النبوءة في شخصه، سوف يلقى الموت.

وإذا وضعنا في الاعتبار جميع الجوانب المذكورة في هذه النبوءة، يتعيّن علينا الإقرار بأنه على الأقل إلى زمن المسيح عليه السلام، لم يظهر في العالم نبي يمكن أن تنطبق عليه الأوصاف المذكورة في هذه النبوءة للنبي الموعود. وعلى ذلك، عندما نبدأ البحث عن النبي الذي يمكن أن يحقق في شخصه هذه النبوءة، يمكن استبعاد جميع الأنبياء الذين ظهروا بين موسى وعيسى عليهما السلام، إذ لم يترك هؤلاء الأنبياء أتباعا ولا تعاليم يمكن أن تحقق ما جاء في النبوءة. وعلى هذا لم يبق غير المسيح عليه السلام الذي ترك من بعده أتباعا كثيرين، والذي يعتبره أتباعه آخر معلم سماوي جاء في العالم من لدن الله تعالى. ولكن، حينما نطبّق جميع بنود النبوءة، الواحد بعد الآخر، على المسيح عليه السلام نجد أنه لا ينطبق عليه أيٌّ منها:

أولا: إن النبي الموعود نبي يؤتيه الله شريعة. فهل كان المسيح نبيا تشريعيا؟ هل جاء إلى العالم بشريعة جديدة من عند الله تعالى لتحل محل شريعة أخرى؟ إن المسيح نفسه قال بكل وضوح:

"لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمّل. فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل" (متّى ٥: ١٧-١٨).

أما أتباع المسيح عليه السلام فقد شطّوا وشطحوا بعيدا حيث إنهم أعلنوا:

"ولكن الناموس ليس من الإيمان بل الإنسان الذي يفعلها سيحيا بها. المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا" (غلاطية ٣: ١٢-١٣).

إن المسيح عليه السلام لم يدّعِ أبدا أنه أتى بشريعة جديدة، كما أن أتباعه اعتبروا الشريعة لعنة، فكيف يمكن أن يُقال بأن المسيح وأتباعه يحققون هذه النبوءة التي جاءت في سفر التثنية؟

ثانيا: إن النبي الموعود لن يأتي من وسط بني إسرائيل، وإنما من وسط إخوة بني إسرائيل، أما المسيح عليه السلام فكان إسرائيليا من بني إسرائيل.

وحين يُواجَه أنصار المسيحية بهذه الحقيقة، يتحجّجون بأن المسيح لم يكن له أب من أهل الأرض، وعلى ذلك فمن الممكن أن يُقال إنه من إخوة بني إسرائيل. غير أن هذه حجة واهية لا يمكن الدفاع عنها. فالنبوءة تتحدث عن "إخوتهم"، إي إخوة لأمّة بني إسرائيل، وهذا يعني أمّة وجنس من الناس الموجودين على الأرض، والذين يكون منهم النبي الموعود. فلو كان هناك أبناء عديدون لله وجاءهم المسيح، لجاز أن يُقال إنه من "إخوتهم"، ويكون بذلك قد حقق النبوءة. ولكن المسيحيين يعتقدون أن المسيح وحده هو ابن الله. وبالإضافة إلى ذلك، فقد جاء في الكتاب المقدس بكل وضوح أن المسيح سيكون من نسل داود، (راجع مزامير داود ١٣٢: ١١؛ إرميا ٢٣: ٥). إن المسيح قد يتخلى عن أصله الإسرائيلي باعتبار أنه بغير أب من أهل الأرض؛ ولكنه في هذه الحالة لن يكون ابن داود، وبالتالي فلا يمكن أن يكون المسيح، لأن المفروض حسب النبوءات أن يكون المسيح من نسل داود.

ثالثا: تقول النبوءة: "وأجعل كلامي في فمه"، ولكن الأناجيل لا تتكوّن من كلمات وضعها الله تعالى في فم المسيح. إنها تحكي فقط قصة المسيح وبعض ما قاله في الكلمات التي ألقاها على الناس في اجتماعات عامة، وبعض ما قاله تلاميذه في مناسبات مختلفة.

رابعا: إن النبي الموعود سوف يكون "نبيا". بينما يعتقد المسيحيون أن المسيح لم يكن مجرد نبي، وإنما كان ابن الله. فكيف يمكن أن يحقق المسيح هذا الشرط المذكور في النبوءة؟

خامسا: جاء في النبوءة أيضا: "الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي". وإنه ليبدو من الغريب حقا، أنه لا يوجد في الأناجيل كلها مثال واحد لكلمات يمكن أن يُقال إن المسيح تلقاها من الله تعالى مصحوبة بأمر منه ﷻ أن يبلغها لقومه.

سادسا: جاء أيضا في النبوءة: "فيكلّمهم بكل ما أوصيه به". أي أن النبي الموعود سوف يعطي العالم شريعة كاملة وتعاليم شاملة. ولكن المسيح لم يدّع لنفسه هذه المهمة، وإنما اعتبر نفسه مبشرا برسول أعظم منه يأتي من بعده، إذ نجد في إنجيل يوحنا ما يلي:

"إن لي أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية" (يوحنا ١٦: ١٢-١٣).

يتضح من هذا المقطع أن نبوءة سفر التثنية لم تتحقق في المسيح. ولا يسعنا إلا الإقرار بأن كلا من العهد القديم والعهد الجديد قد سبق وأنبأ بمقدم نبي بعد المسيح ليرشد العالم "إلى جميع الحق"، فهو الذي سيقيم اسم الله على الأرض، ويثبت دعائم وحدانيته إلى الأبد. ونحن نقول إن الوحي القرآني ومجيء الرسول ﷺ هو الذي يحقق نبوءة سفر التثنية. والحقائق التالية تؤكد هذا الرأي:

(١) إن الرسول ﷺ من نسل إسماعيل، وبنو إسماعيل هم إخوة بني إسرائيل.

(٢) إن الرسول ﷺ هو الشخص الوحيد الذي أعلن أنه نبي مثيل لموسى.

فقد جاء في القرآن المجيد:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولا﴾ (المزّمل:١٦)

فالقرآن المجيد يؤكد بكل وضوح على المماثلة بين الرسول ﷺ وموسى عليه السلام.

(٣) النبوءة التي جاءت في سفر التثنية تصف النبي الموعود باعتباره "نبيا". والرسول ﷺ لم يقل عن نفسه سوى أنه نبي فقط. أما المسيح، فلم يعلن أنه نبي فقط، إذ نقرأ في إنجيل مرقس ما يلي:

"ثم خرج يسوع وتلاميذه إلى قرى قيصرية فيلبس، وفي الطريق سأل تلاميذه قائلا لهم: من يقول الناس إني أنا. فأجابوا يوحنا المعمّدان، وآخرون إيليا، وآخرون واحد من الأنبياء. فقال لهم وأنتم من تقولون إني أنا. فأجاب بطرس وقال له أنت المسيح. فانتهرهم كي لا يقولوا لأحد عنه" (مرقس ٨:٢٧-٣٠).

أي أن المسيح أقرّ بأنه لم يكن يوحنا المعمّدان، ولا إيليا، ولا واحد من الأنبياء. غير أن النبوءة التي في سفر التثنية تنص على أن الشخص الموعود نبي مثل موسى. وعلى هذا، فهي تنطبق على رسول الإسلام ﷺ وليس على المسيح.

(٤) تذكر النبوءة "وأجعل كلامي في فمه". إن الأناجيل لا تحتوي على مثل هذا الكلام. ومن ناحية أخرى، إن رسول الإسلام ﷺ قدّم للعالم كله قرآنا، يحتوي من أوله إلى آخره على كلمة الله، وهو يحوي الكلام الذي وضعه الله تعالى في فم الرسول ﷺ. والقرآن المجيد يذكر أنه كلام الله. (البقرة:٧٦)✪

(٥) تذكر النبوءة عن النبي الموعود "فيكلمهم بكل ما أوصيه به". وقد

✪ الآية المشار إليها هي قول الله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (المترجم)

ذكرنا الشواهد من الأناجيل على أن المسيح لم يقل لقومه كل ما تلقاه من الله تعالى، لأنهم لم يكونوا يحتملون هذا في ذلك الوقت، كما أشار إلى مجيء "روح الحق" من بعده الذي سوف "يرشدهم إلى جميع الحق". والرسول ﷺ هو الذي يحقق هذا الجزء من النبوءة. إذ نجد في القرآن المجيد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (المائدة:٦٨). وكأن هذه الآية تقول: "يا أيها النبي، هناك نبوءة قديمة جاءت عنك، وتقول إنك حين تأتي إلى الدنيا سوف تبلغ الدنيا بكل ما تلقيته من ربك، فلذلك عليك أن تبلغ الناس كافة جميع الحق الذي نزل إليك من ربك، سواء قبلته الدنيا أم لم تقبله". كذلك فإن الآية الكريمة التي نزلت في أواخر نزول القرآن المجيد تقول:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة:٤)

وهذا يعني: "إنه من خلال الوحي القرآني، بلغ الدين إلى مقام الكمال، وإن نعمة الهداية قد تمت عليكم، وإن السلام والأمن قد ارتضاه الله تعالى ليكون لكم دينا". وعلى ذلك، فإن الرسول ﷺ هو الذي بلّغ كل شيء، وكلم الناس بكل ما أوصاه الله به، ولم يُبق شيئا لم يقله. أما في زمن المسيح عليه السلام، فلم يكن الناس على استعداد لتلقي كل ما أنزله الله تعالى عليه، ولا الإيمان به. ولكن في زمن الرسول ﷺ كان الإنسان قد عبر جميع مراحل التطور الروحي، وحان الوقت لكي يتلقى العالم "جميع الحق".

(٦) تتحدث النبوءة عن "كلامي الذي يتكلم به باسمي". وقد تحقق هذا الجزء أيضا في الرسول ﷺ. فهو الوحيد الذي تكلم "باسم الله"، وذلك لأن كل سورة من سور القرآن المجيد الذي جاء به تبدأ بهذه الكلمات: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. إن هذه الآية العظيمة والعلامة الواضحة، لم تأت في القرآن المجيد عفو الخاطر، وإنما أنزلها الله تعالى لتكون دليلا على أن المرحلة الأخيرة في تقدم الإنسان الروحاني، والتي أشار إليها موسى عليه السلام، قد وصلت إلى ذروتها

بمقدم رسول الإسلام ﷺ.

(٧) تذكر النبوءة معيارا هاما، إذ تقول:

"وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاما لم أوصه أن يتكلم بـــه أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى، فيموت ذلك النبيّ"

إن هذه الفقرة تكشف للعالم كيف يميّز النبي الموعود في نبوءة سفر التثنيـــة، لكي يفرّق بينه وبين أولئك الذين يدّعون أنهم جاءوا مصداقا وتحقيقـــا لهـــذه النبوءة. وكان من الضروري أن يكون هناك معيار واضح تمام الوضوح. فقـــد أُسندت إلى النبي الموعود مهمّة استهلال المرحلة الروحيـــة الأخـــيرة في تقـــدّم الإنسان. فإذا قام بعض المدّعين ليدّعوا كذبا أنهم حققوا هذه النبوءة، فـــسوف يتعرض العالم كله لخطر فادح. ومن أجل إزالة هذا الخطر، وضع الله تعالى معيارا هاما، وهو أن يحل العقاب بالشخص المدّعي الكذّاب، فلا ينال ســـوى الهزيمـــة والموت. وقد أعلن الرسول ﷺ بأوضح ما يكون طوال حياته بعد الدعوة، أنـــه نبي مثيل لموسى، وأنه أتى بشريعة من عند الله، وأنه أسس أمة تقوم على ديـــن جديد. وعندما أعلن عن دعواه كان ضعيفا ولم يكن له من صديق أو معـــين. وكان عدوّه قويا يتفوق في العدة والعدد، ولم يترك بابا إلا طرَقه ولا واديـــا إلا قطَعه ولا طريقا إلا سلَكه، وأقبل عليه بخيلِه ورجلِه، ليقـــضي علـــى رســـالته ويقوّض دعواه ويضع نهاية لحياته. وقد وقف أمامه ملوك وقياصـــرة عظمـــاء، ولكنهم هم الذين لاقوا الخزي والهوان وليس الرسول ﷺ. لقد انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى بعد أن أحرز نجاحا لم يتحقق لأحد من الأنبياء من قبل. وعند وفاته كانت شبه الجزيرة العربية بأكملها قد أعلنت إيمانها به. وبعد وفاته، نـــشر خلفاؤه الأوائل الإسلام في ربوع العالم المعروف في ذلك الوقت.

إن موسى عليه السلام كان نبيا صادقا، والنبوءة التي جاءت في سفر التثنية نبـــوءة صادقة من وحي الله تعالى. فهل كان واجبا أن ينجح الرســـول ﷺ في مهمتـــه بالشكل الذي نجح به؟ وهل كان واجبا لأعدائه، الذين كانوا يتعطشون لدمائه،

أن يفشلوا بالشكل الذي فشلوا به؟ كلا! لم يكن نجاح الرسول ﷺ ولا فشل أعدائه مجرد صدفة. ومن جهة أخرى، كأن القرآن المجيد كان يشير إلى نبوءة سفر التثنية عندما أعلن أمام الأمة العربية كلها في أوائل البعثة النبوية:

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٨)

كذلك يتوجه القرآن المجيد إلى أعداء الرسول ﷺ بهذا الإعلان:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۞ إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (الجن:٢٧-٢٨)

أي بعد أن كَلّف الله تعالى رسوله بهذه المهمة العظمى، فإنه سبحانه لم يتركه بغير أن يشمله بحفظه من بين يديه ومن خلفه، ولا يمكن أن يصل إليه أعداؤه ولا أن يتمكّنوا من قتله.

إن هذه الآيات الكريمة تبين أن النجاح الذي أحرزه الرسول ﷺ لم يكن مسألة حظ. لقد أعلن منذ بداية مهمته، من خلال الوحي الذي تلقاه من الله تعالى والذي سجّله القرآن المجيد إلى هذا اليوم، أن الله تعالى سوف يشمله بحفظه من الهجمات القاتلة التي يشنّها عليه أعداؤه. وقد أعلن هو للعالم أنه لن يُقتل، ولن يلقى الموت على أيدي أعدائه، لأنه لم يكن مدّعيا كاذبا - والعياذ بالله - بل كان بالفعل النبيّ الموعود في نبوءة سفر التثنية.

وباختصار، منذ ١٩٠٠ سنة قبل مقدم الرسول ﷺ، أعلن موسى عليه السلام أن شريعته لن تكون الأخيرة في النظام الذي قدّره الله تعالى لهذه الدنيا، وأن شريعة أخرى، أكمل وأشمل وأعم من شريعته سوف تأتي للعالم أجمع فيما بعد، ومن أجل ذلك سوف يرسل الله تعالى في آخر الزمان رسولا آخر من لدنه. وسوف يرشد هذا الرسول كل الناس إلى جميع الحق، لأنه هو الذي تنتهي به مراحل الرقي الروحي للإنسان. وعلى الدنيا أن تنتظر مقدم كتاب آخر ونبي آخر بعد موسى.

وعلى ذلك، ما دام القرآن المجيد قد نزل على سيدنا محمد ﷺ بعد الكتاب المقدس، وأن الرسول ﷺ قد جاء بعد موسى وعيسى عليهما السلام، وباعتبار أنه أعلن أنه قد جاء من عند الله تعالى هدى للعالمين، فإن دعواه ينبغي أن ينظر إليها بالحق والعدل، وهي بلا مراء التحقق العملي للنبوءات القديمة. فالوحي القرآني لم ينْزل بلا مبرر أو بلا مسوّغ، بل جاء تلبية لحاجة وضرورة، وتحقيقا لوعود سبقت من الله تعالى على لسان أنبيائه، ولولا نزول القرآن الكريم ومقدم الرسول العظيم، لظلت هذه الوعود بغير تحقق، ولاتّجه العالم إلى الكفر ومال إلى الإنكار وأصيب بالشكوك ورفض الإيمان.

فاران جزء من بلاد العرب

جاء في سفر التثنية ٣٣: ٢ ما يلي:

"جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى مع عشرة آلاف قديس وعن يمينه نار شريعة لهم".

في هذه الفقرة وعَد الله تعالى موسى بثلاثة تجليات يظهر فيها مجد الله ﷻ. وقد حدث التجلي الأول من سيناء، كما أشار إلى ذلك سفر الخروج:

"ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل، ودعا الله موسى إلى رأس الجبل فصعد موسى" (الخروج ١٩: ٢٠).

هذا التجلي لمجد الله ظهر في زمن موسى نفسه، وقد شهد العالم البركات التي تحققت في هذا التجلي. ومضى الزمن. وكان من المقدّر أن يظهر التجلي الثاني الذي جاء ذكره في النبوءة في سعير. وسعير هو ذلك الجزء من العالم الذي ظهرت فيه معجزات السيد المسيح. ولذلك فإن جملة "أشرق لهم من سعير" تشير إلى مقدم المسيح عليه السلام. ونسبة سعير إلى سيناء، كما يفعل المفسرون المسيحيون، إنما هو خطأ فادح، لأن سعير في فلسطين. وكلمة "سعير" كما وردت في المخطوطات القديمة لها عدة أشكال أخرى محرّفة، أحدها يشير إلى اسم قوم

انحدروا من ذرية النبي يعقوب المعروفين باسم بنو أشير. ويشير أحدها إلى اسم المنطقة الشمالية الغربية من فلسطين. وعلى هذا، فإن كلمة سعير تمثل المظهر الثاني من التجلي الإلهي. واعتبارها تشير إلى فلسطين بشكل عام، والشمال الغربي حيث ظهر المسيح من الجليل، هو الأصح. واعتبار سعير ترتبط بسيناء ونسبة كل من التجليين إلى موسى عليه السلام لا يمكن أن يكون صحيحا، لأن موسى لم يدخل أبدا إلى أرض فلسطين. فقد مات في بقعة كان يمكن له منها أن يتطلع فقط إلى حدودها. وبعد موسى ومن قبل أن يأتي المسيح، لم يظهر أيّ تجلّ إلهي يمكن أن يقارن، أو حتى يقارب التجلي الإلهي في سيناء. ولذلك، فإن عبارة "أشرق لهم من سعير" تشير إلى بعثة المسيح التي حدثت في أرض كنعان، والتي كشف الله بها لعباده عن وجه رحمته للمرة الثانية.

والتجلي الثالث لوجه العظمة الإلهية كان مقدرا له أن يظهر من فاران. وفاران اسم للتلال الممتدة بين مكة والمدينة. وكان الجغرافيون العرب دائما يسمّون هذه المنطقة "فاران". وهناك محطّ في الطريق بين مكة والمدينة يسمى "وادي فاطمة"، وحين تمر به القوافل كان الأطفال من الجوار يقابلون تلك القوافل ويبيعونها الورود، وإذا سئلوا من أين هذه الورود، كانوا يقولون "إنها من برية فاران" (كتاب فصل الخطاب). وعلى هذا فإن فاران جزء من شبه الجزيرة العربية، بل من الحجاز على وجه التحديد. وحسب العهد القديم، إن إسماعيل عاش في هذه المنطقة من برية فاران، إذ يقول سفر التكوين:

"وكان الله مع الغلام إسماعيل فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس. وسكن في برية فاران وأخذت له أمة زوجة من أرض مصر" (التكوين ٢١: ٢٠-٢١).

قريش من سلالة إسماعيل

إن الوصف الذي يقدمه الكتاب المقدس لفاران يختلف نوعا ما عما يقدمه

الجغرافيون العرب. فحسب الكتاب المقدس، تعتبر فاران بقعة متاخمة لأرض كنعان. ولكن البقعة التي تتكون من التلال وتنمو فيها الأحراش لا بد أن تكون منطقة واسعة تمتد عبر مئات أو ألوف الأميال المربعة، ولا يمكن أن تكون مجرد شريط من الأرض يقع داخل منطقة أخرى أو على حدودها. ولا بد أن عبارة الكتاب المقدس تعني أن الأحراش والتلال التي تتكون منها فاران، تقع في منطقة بالقرب من أرض كنعان. ولا يمكن أن تعني أن فاران هي التخوم الجنوبية من أرض كنعان. وعلى أية حال، فالكتاب المقدس يعترف بأن إبراهيم عليه السلام كان له ابن اسمه إسماعيل، وأن ذلك الابن عاش في منطقة فاران. وشهادة أبناء إسماعيل الذين سكنوا في هذه المنطقة لا بد أن يكون لها وزنها وأهميتها. ورأي بني إسرائيل في هذا الموضوع لا وزن له، فإن معرفتهم بالتاريخ والجغرافيا لم تكن جيدة، إذ لم يستطيعوا أن يصفوا الطريق الذي اتخذوه عند خروجهم من مصر إلى أرض كنعان، فكيف يحكمون على جغرافية منطقة لم يذهبوا إليها ولم يعرفوها؟ إن قوما واحدا هم الذين يعيشون اليوم ويتتبعون سلالاتهم إلى إسماعيل، وهم أهل قريش. وهم يعيشون في الجزيرة العربية، ومكة مركزهم. ولم يكن هناك من سبب يدعوهم إلى افتعال هذه الدعوى، فإنها لا تضفي عليهم شرفا عند بني إسرائيل، حيث كان بنو إسرائيل ينظرون إليهم بازدراء في جميع الأحوال. ولا يوجد من سبب يستدعي من قوم يعيشون في الصحراء أن ينسبوا أنفسهم إلى إسماعيل ما لم يكونوا بالفعل من نسل إسماعيل.

كذلك إن لم تكن دعوى العرب صحيحة، فأين اختفت سلالة إسماعيل؟ فلقد كان لإسماعيل اثنا عشر ولدا وفقًا للكتاب المقدس، وكان من المقدر لهؤلاء الاثني عشر أن يتكاثروا ويكونون أمة عظيمة حسب قول الكتاب المقدس. ففي سفر التكوين نجد ما يلي:

"وابن الجارية أيضا سأجعله أمّة لأنه نسلك" (التكوين ٢١: ١٣).

وأيضا في التكوين ٢١: ١٨ نجد ما يلي:

"قومي احملي الغلام وشدّي يدك به لأني سأجعله أمّة عظيمة".

ومرة أخرى نجد في التكوين ١٧: ٢٠ ما يلي:

"وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثّره كثيرا جدا. اثني عشر رئيسا يلد وأجعله أمّة كبيرة".

ومعنى هذا أنه كان من المقدّر لسلالة إسماعيل أن يتكاثروا ويتضاعفوا إلى أن يصبحوا أمّة عظيمة. فإذا كانت دعوى العرب بكونهم من سلالة إسماعيل غير صحيحة، فلا بد أن تكون نبوءات الكتاب المقدس أيضا غير صحيحة. لأنه لا توجد أمة أخرى في العالم تقول إنها من نسل إسماعيل. فلا يمكن أن تعتبر نبوءات الكتاب المقدس صحيحة إلا إذا قبلنا دعوى العرب بأنهم سلالة إسماعيل.

إن أقوى الشواهد التاريخية تُستمد من الروايات الثابتة المتوارثة بين الناس. ولعدة مئات من السنين كان أولئك الناس يعتبرون أنفسهم من ذرية إسماعيل، ولم يوجد في العالم قوم آخر يعتبرون أنفسهم من سلالة إسماعيل. وهذا في ذاته خير دليل على صحة دعواهم.

وحسب الكتاب المقدس، عاش بنو إسماعيل في فاران، وفاران حسب الجغرافيين العرب، منطقة تمتد بين مكة إلى الحدود الشمالية لبلاد العرب. وعلى ذلك فإن فاران بكل تأكيد جزء من بلاد العرب كما أن قريش من سلالة إسماعيل. وقد كان من المقدّر أن يتجلى المجد الإلهي من فاران، أي أنه سوف يظهر في بلاد العرب.

كذلك فإن هناك ما يثبت من الكتاب المقدس أن بني إسماعيل قد استقروا في بلاد العرب. إذ نقرأ في سفر التكوين ٢٥: ١٣-١٦ أسماء أبناء إسماعيل الاثني عشر كما يلي:

١- نبايوت ٢- قيدار ٣- أدبئيل ٤- مبسام ٥- مشماع ٦- دومة ٧- مسّا ٨- حدار ٩- تيما ١٠- يطور ١١- نافيش ١٢- قدْمة

وتبعًا للعادات والتقاليد القديمة، يجب أن نتوقع تداول هذه الأسماء في سلالتهم وذرياتهم. فعلى سبيل المثال، نجد أن سلالة يعقوب قد تَسمَّوا باسم أبيهم إسرائيل، أي بني إسرائيل. وأيضا نجد أنهم سمّوا مُدنًا بأسماء آبائهم. وفي ضوء هذه الحقائق، يكون مسح السكان في بلاد العرب يكشف لنا أن أسماء الأبناء الاثني عشر لإسماعيل موجودة ومنتشرة في أجزاء مختلفة من بلاد العرب. فقد ملأت سلالة إسماعيل البلاد في طولها وعرضها.

إن الابن الأول كان نبايوت. ويعين الجغرافيون المنطقة المأهولة بسلالته بين خطّي عرض ٣٠ و ٣٨ شمالا، وخطّي طول ٣٦ و ٣٨ شرقا. وقد ورد في كتاب (خطبات أحمدية) أن القس كاتري بيكاري يعترف بهذا الرأي الذي يسوقه الجغرافيون، ويضيف بأن سلالة نبايوت تشغل المنطقة التي بين فلسطين ومدينة "ينبع" وهي ميناء المدينة المنوّرة.

وقيدار الابن الثاني، يشكل نسله أيضا جزءًا من السكان العرب. وإن المعنى الحرفي لكلمة قيدار هو "من العِير"، مما يشير إلى مكان سكنهم في منطقة بين الحجاز والمدينة. وقد وصف بطليموس وبليني سكان الحجاز، وذكروا قبائل قيدار وجيدور (ويبدو أنها كلمة محرفة عن قيدار)* . ويوجد من الأعراب اليوم من يعتبرون أنفسهم من ذرية قيدار.

الابن الثالث هو أدبئيل. وحسب المؤرخ يوسفوس، فإن الأدبئيليين يقطنون في نفس المنطقة أيضا. الابن الرابع هو مبسام. ولا نستطيع أن نجد أثرا لقبيلته أو منطقة بهذا الاسم في كتب الجغرافية المعروفة. ومن الممكن أن يكون الاسم قد تحرّف إلى لفظ لا نستطيع مقارنته بالأصل. الابن الخامس هو مشماع. وقبائل المشماع معروفون اليوم في الجزيرة العربية ولا يحتاجون إلى تعريف. الابن السادس هو دومة. وهناك منطقة معروفة في الجزيرة العربية تحمل اسم دومة،

* إن تحريف القاف لتصبح جيما أمر شائع في بعض اللهجات العربية حتى يومنا هذا، وهذه الظاهرة منتشرة في الجزيرة العربية والعراق وبادية الشام. (الناشر)

والجغرافيون العرب كانوا دائما ينسبون هذا الاسم إلى الابن السادس لإسماعيل. الابن السابع هو مسّا. واسمه لا يزال كما هو تحمله قبائل يمنية، كما يمكن تتبع آثارهم القديمة إليه، كما يقول كاتري بيكري. الابن الثامن هو حدار، وقد سُمّيت باسمه المدينة اليمنية المعروفة "الحديْدا".

الابن التاسع هو تيما. والمنطقة الممتدة ما بين نجد والحجاز تدعى تيماء، ويبدو أن نسله قد امتد منها شرقًا إلى الخليج الفارسي.

الابن العاشر هو يطور. ويمكن تتبُّع اليطوريين أيضا الموجودين في بلاد العرب باسم اليدوريين. إن تحوُّل الجيم إلى ياء والطاء إلى دال كثيرا ما يحدث في اللغة العربية.

الابن الحادي عشر هو نافيش. ويعتبر "فوستر" حسب رأي كل من يوسفوس والكتاب المقدس أن سلالة نافيش عاشت في براري الجزيرة العربية.

الابن الثاني عشر هو قدمة. وسُكنى سلالته في اليمن، وذلك حسب رأي الجغرافي المعروف "المسعودي". والقبيلة المعروفة باسم "أصحاب الرس" والمذكورة أيضا في القرآن المجيد هي من سلالة إسماعيل، وقد كانت تتكون من قبيلتين اسم أحدهما قدمة والأخرى يمين. وحسب رأي بعض المصادر تسمى القبيلة الثانية رعويل وليس يمين.

وعلى ذلك، فإن الدلائل التاريخية والجغرافية، تبين أن ذرية إبراهيم قد سكنت في بلاد العرب، وكانوا جميعهم يحملون أعظم آيات التقديس والتوقير لمكة المكرّمة. ومن هذا يظهر أن إسماعيل قد استقر أولا في مكة. وهذه هي المنطقة التي اسمها فاران حسب شهادة كل من العرب والكتاب المقدس. وشهادة الوحي الذي تلقاه النبي إشعياء ٢١: ١٣-١٧ تؤيد أيضا هذا الرأي:

"وحي من جهة بلاد العرب. في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الدانيين. هاتوا ماء لملاقاة العطشان، يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب

بخبزه. فإنهم من أمام السيوف قد هربوا، من أمام السيف المسلول، ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب. فإنه هكذا قال لي السيد، في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار. وبقية عدد قسي أبطال بني قيدار تقل لأن الرب إله إسرائيل قد تكلّم".

في هذه النبوءة صورة وصفية لمعركة بدر التي وقعت بعد سنة تقريبا من هجرة الرسول الأكرم ﷺ من مكة إلى المدينة. وفي تلك المعركة، لاقى أبناء قيدار "أهل مكة وضواحيها" الهزيمة المخزية، وباءوا بالفشل الذريع على أيدي المسلمين. لم يستطيعوا الصمود أمام السيف المسلول للمسلمين، ولا أمام القوس المشدودة للرماة، فانهارت فلولهم أمام شدة الحرب. ولاحظ الكلمات التي تبدأ بها النبوءة "وحي من جهة بلاد العرب"، وهنا تُذكر "تيماء" و "قيدار" على أنهما مناطق لقبائل عربية. وحسب هذا النص الذي أُوحي به للنبي إشعياء منذ سبعمئة وأربع عشرة سنة قبل المسيح، كانت سلالة إسماعيل تعيش في الحجاز.

وباختصار، من أي جانب نظرنا إلى هذا الموضوع، نجد الكثير من الدلائل على أن قريشا كانوا من سلالة إسماعيل، وأن فاران التي ذكرها الكتاب المقدس هي الأرض التي عاشت عليها هذه السلالة. وبالتالي فإن مجد الله الذي كان مقدرا له أن يتجلى من فاران حسب نبوءة موسى عليه السلام قد تحقق بالفعل عند بعثة الرسول محمد ﷺ.

ذكر الرسول ﷺ في نبوءات حبقوق

وقد وردت عن هذه البعثة الشريفة نبوءة أخرى على لسان النبي حبقوق، وجاءت في سفر حبقوق ٣: ٣-٧ منذ ٦٢٦ قبل ميلاد المسيح عليه السلام:

"الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران. سلاه. جلاله غطى السماوات، والأرض امتلأت من تسبيحه. وكان لمعان كالنور، له من يده شعاع، وهناك استتار قُدرته. قدامه ذهب الوباء، وعند رجليه خرجت

الحمّى. وقف وقاس الأرض، نظر فرجّف الأمم، ودُكّت الجبال الدهرية وخَسفت آكام القدم، مسالك الأزل له. رأيت خيام كوشان تحت بليّة، رجفت شُقق أرض مديان".

هنا جاء ذكر تيمان والقدوس من جبل فاران. ويتّضح من نبوءات موسى وحبقوق أن مجيء المسيح عليه السلام لا يشكّل المرحلة الأخيرة من تطور الإنسان الروحي، بل سيتبعها مقدم نبي آخر يشكّل التجلي الثالث للمجد الإلهي. وبذلك النبي وحده يتجلى كل من المظهرين الجلالي والجمالي للقدرة والمجد الإلهي، وسوف يأتي إلى العالم بشريعة نارية، وليست مجرّد رسالة للصفح والغفران.

إن مجيء الله من تيمان وظهور القدوس من جبل فاران يشير إلى الرسول ﷺ، وشريعته النارية تشير إلى القرآن المجيد الذي له فضل إحراق الشرور والنوازع الشيطانية التي تؤدي إلى ارتكاب الذنوب والمعاصي، وتحويلها إلى رماد. لقد قال موسى بحق عن النبي الموعود أنه سيأتي ومعه عشرة آلاف قديس، ويعلم العالم أجمع أن الرسول ﷺ هو النبي الذي ظهر في فاران ودخل مكة ومعه عشرة آلاف من الأتباع المخلصين. فهل يمكن القول بأن أيّا من المسيح أو داود أو موسى قد حقق هذه النبوءة العظيمة؟ هل جاء أحد منهم من فاران؟ هل انتصر أحدهم في معركة وكان معه عشرة آلاف من القديسين الأتباع؟ لقد كان للمسيح اثنا عشر من التلاميذ، باعه أحدهم من أجل دراهم معدودة، والآخر لعنه خوفا من العقاب. أما العشرة الباقون فقد ظلوا على الإيمان، ولكن كما تحكي الأناجيل، حتى هؤلاء هربوا وتفرّقوا عندما عُلّق المسيح على الصليب. وحتى لو كانوا قد وقفوا بجانب معلّمهم، فكيف يُقارَن بين عشرة أشخاص وعشرة آلاف من المؤمنين. ثم إن نبوءة موسى في التثنية ٣٣: ٢ تخبرنا بأن النبي الموعود الذي سيأتي من فاران سيأتي ومعه عشرة آلاف قديس، ولكن الأناجيل تخبرنا بأن العشرة الذين آمنوا بالمسيح تخلوا عنه وهربوا عند واقعة الصليب.

وإحدى علامات النبي الموعود التي ذكرها حبقوق هي أن الأرض تمتلئ

بتسبيح الله وحمد آلائه، نتيجة لانتشار شريعة ذلك النبي وتعاليمه، ويُضفي الله عليه صفاته الحميدة، فيكون محمدا في الأرض والسماء. وليس من الصدف أن يكون اسمه أيضا محمدا. ولما أنكره قومه وشجبوا دعوته وأرادوا أن يسبّوه، لم يعرفوا كيف يسبّون شخصا اسمه محمد، فغيروا اسمه من محمد إلى مذمم. ولما غضب الصحابة بسبب السبّ والإهانة التي وُجّهت إليه، طيّب خاطرهم وقال لهم: "ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وأنا محمد" (البخاري باب ما جاء في أسماء الرسول ﷺ). إن رجلا اسمه في جمال شخصيته وجمال صفاته هو وحده الذي يحقق نبوءة حبقوق عن النبي الموعود. وليست الأهازيج والقصائد الشعرية التي نُظمت في التغني بحسن صفاته في جميع أنحاء العالم بأقل دلالة على ذلك.

ثم يقول حبقوق أيضا في نبوءته:

"قدامه ذهب الوباء وعند رجليه خرجت الحمّى" (حبقوق ٣: ٥).

إن علامة النبي الموعود قد تحققت أيضا في نبي الإسلام ﷺ. صحيح أن النبوءة تذكر وباءً، أي مرضا ينتشر على نطاق واسع، ولكن المقصود هنا هو الموت والخراب الذي يأتي به الوباء. ولما كان المشركون قد عانوا الموت والخراب بشكل كبير في عدوانهم على الرسول ﷺ، يكون قد حقق أيضا هذا الجزء من النبوءة.

وتقول النبوءة أيضا:

"وقف وقاس الأرض، نظر فرجّف الأمم" (حبقوق ٣: ٦).

هذا الجزء من النبوءة، مثل جوانبها الأخرى، لا تنطبق على موسى ولا على عيسى عليهما السلام. فقد مات موسى وهو لا يزال يحارب أعداءه، بينما عُلّق المسيح على الصليب. إن النبي الذي نظر فارتجفت الأمم هو نبي الإسلام ﷺ. ولا غرو أنه قال عن نفسه: "نُصرت بالرعب مسيرة شهر" (البخاري).

ثم تقول النبوءة:

"ودُكّت الجبال الدهرية، وخسفت آكام القِدم، مسالك الأزل له" (حبقوق ٣: ٦).

وينطبق هذا الجزء من النبوءة على نبي الإسلام ﷺ. فقد قُطع دابر أعدائه و لم يعد لهم وجود. والجبال التي تُسمى أيضا الأعلام، هم كبار القوم أو الأعلام من الناس من ذوي القوة والسلطان.

ثم يذكر حبقوق أيضا:

"رأيت خيام كوشان تحت بليّة. رجفت شقق أرض مديان".

ويبين هذا الجزء بوضوح أن النبي الموعود لا ينتمي إلى بلاد الشام لأن خيام كوشان وميديان هي التي يصيبها الذعر وتكون تحت بليّة عندما تظهر جيوش النبي الموعود. وهذا الوصف لا يمكن أن ينطبق على موسى ولا عيسى – عليهما السلام – وإنما ينطبق فقط على نبي الإسلام ﷺ. فعندما خرج جيش المسلمين الصغير في زمن الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه وتقدَّمَ نحو فلسطين، دون اعتبار أنها كانت تحت سلطان القيصر الروماني، الذي كان يحكم نصف العالم المعروف في ذلك الوقت، ومع ذلك فإن الجيوش الرومانية الجرّارة انهزمت أمام قوة المسلمين الصغيرة. وأصبحت "خيام كوشان تحت بليّة ورجفت شقق أرض مديان"، فإن الأقوام التي تسكن هذه الأماكن وجدوا السلامة والنجاة في إلقاء السلاح أمام صحابة الرسول الأكرم ﷺ.

بعثة الرسول ﷺ كما ذكرها سليمان عليه السلام

(أ) جاء في سِفر نشيد الأنشاد ٥: ١٠-١٦ ما يلي:

"حبيبي سليم وأسمر لا عيب فيه. عَلَمٌ بين عشرة آلاف. رأسه ذهب إبريز. وغدائره نخيل حالكة بلون الغراب. عيناه حمامتان على مجاري المياه

مغسولتان باللبن وهما في محجريهما. خدّاه روضة أطياب وخميلة رياحين. شفتاه سوْسنتان تقطران عبير المرّ. يداه مجللتان بالذهب، مليئتان بالزبرجد. جسده مُغشّى بالعاج ومغلّف بالياقوت. ساقاه عمودا رخام على قاعدتين من إبريز. طلعته مثل لبنان، وهو مهيب كأرزه. ريقه أعذب ما يكون، وهو شهي كله. هذا حبيبي، هذا رفيقي يا بنات أورشليم". (الترجمة العربية من النسخة الجديدة المطبوعة عام ١٩٩٣ في بيروت)

هذه النبوءة تَعِد بظهور نبي يفوق الأنبياء الآخرين عظمة، وتسمو مرتبته على مراتبهم، وذلك لأن الوصف الجزل الذي جاء في سفر نشيد الأنشاد، كان إجابة على سؤال مذكور في الفقرة السابقة مباشرة لهذا الوصف في ٥: ٩ ويقول:

"ما فضل حبيبك على الأحباء أيتها الجميلة في النساء"؟

وتقول الإجابة إن هذا الحبيب سوف يقف "علم بين عشرة آلاف". وكما أن العلم يرمز أيضا للجيش، فكأن المقطع المذكور يقول إن هناك حدثا هاما حيث يتولى هذا المحبوب قيادة عشرة آلاف من أتباعه.

ونقرأ أيضا: " شفتاه سوْسنتان تقطران عبير المر" (٥: ١٣).

والمر هو نوع من الصمغ طعمه مرّ ولكنه ذو رائحة ذكية وله الكثير من الفوائد، فهو يستعمل في المراهم المضادّة للالتهابات، ويساعد على التئام الجروح، وهو قاتل للجراثيم، وتصنع منه الروائح والعطور.

ويذكر النص أيضا أنه "شهي كله"، والأصل العبري لهذه الكلمة هو "محمديم"، وهو يعني أن شخصه وصفاته تستحق الحمد وتجذب الحب والإعجاب.

إن هذه النبوءة تنطبق تماما على رسول الإسلام ﷺ. فهو الذي كان علما على رأس عشرة آلاف من الأبرار القديسين، سار بهم منتصرا من تلال فاران إلى وادي مكة، تماما كما سبق وأنبأ بذلك موسى عليه السلام. وإن تعاليمه هي التي ثبت

بالفعل أنها مثل "عبير المر" للعالم، فهي مرّة الطعم، ولكنها جميلة التأثير والنتائج. وهي تحتوي على مبادئ وقواعد تؤدّي كلها إلى خير المجتمع الإنساني، ومع ذلك فهي قد تحمل بعض المرارة لبعض الأمم. وإنه هو الذي يسمى، وبحق، محمدا.

ويعترض النقاد المسيحيون فيقولون إن الحبيب المذكور في هذه النبوءة اسمه محمديم وليس محمدا. ولكن هذا الاعتراض لا وزن له. فإن العهد القديم يستعمل لله تعالى اسم "إلوهيم". ومن المألوف في اللغة العبرية أن تُستعمل صيغة الجمع للتعبير عن التعظيم والتشريف للفرد. وهذا أسلوب معروف في اللغة الأردية أيضا.

(ب) في سفر نشيد الأنشاد، الذي يقال إن سليمان عليه السلام كتبه، نجد نبوءة أخرى أيضا عن رسول الإسلام ﷺ، في ٤: ٩-١٢ حيث جاء ما يلي:

"٩ قد سبَيْت قلبي يا أختي العروس، قد سبيْت قلبي بإحدى عينيك بقلادة واحدة من عنقك. ١٠ ما أحسنَ حُبَّك يا أختي العروس، كم محبّتك أطيب من الخمر وكم رائحة أدهانك أطيب من كل الأطياب. ١١ شفتاك يا عروس تقطران شهدا. تحت لسانك عسل ولبن ورائحة ثيابك كرائحة لبنان. ١٢ أختي العروس جنة مغلقة عين مقفلة ينبوع مختوم. ١٣ أعراسك فردوس رمّان مع أثمار نفيسة فاغية ونارْدين".

في هذا المقطع يخاطب سليمان عليه السلام في أسلوب أدبي محبوبته باعتبارها أخته وعروسه في نفس الوقت، وذلك كما جاء في الفقرة (٩، ١٠، ١٢). وخطابها بالأخت والعروس لم يرد عبثا، بل يهدف إلى مفهوم معيّن. فكلمة "أخت" تعني أن النبي الموعود سيكون من إخوة بني إسرائيل، وكلمة "عروس" تعني أن رسالة النبي الموعود لن تقتصر على قومه فقط كما كانت رسالات جميع أنبياء بني إسرائيل، بل تتعدّى العرب وتفتح أحضانها للأمم الأخرى أيضا. ويجب ألا يخدعنا استعمال صيغة المؤنث للمخاطب، فالمعنى جاء بأسلوب شعري في قالب من الاستعارات والكنايات، ولذلك فإن الفقرة الأخيرة من الإصحاح تستخدم صيغة

المذكر، وهو أمر متناقض ولكن له دلالة واضحة، إذ تقول:

"ليأت حبيبي إلى جنّته ويأكل ثمره النفيس" (٤: ١٦).

فالنبوءة المذكورة في (٤: ٩-١٢) تنطبق على رسول الإسلام ﷺ. إن المسيح عليه السلام كان من بني إسرائيل ولم يكن من إخوة بني إسرائيل، كما أن تعاليمه لم تكن سوى لقومه فقط.

(ج) وأيضا في سفر نشيد الأنشاد ١: ٥-٦ نقرأ ما يلي:

"أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم كخيام قيدار كشقق سليمان. لا تنظرْن إليّ لكوني سوداء لأن الشمس قد لوّحتني."

يبدو أن سليمان عليه السلام قد أخبر عن مجيء نبي يأتي من الجنوب، وأنه (أو قومه) يكون أسمر اللون عند مقارنته بأبناء إسحاق. ومن المعروف جيدا أن سكان الشام وفلسطين تميل بشرتهم إلى البياض أكثر من سكان الجزيرة العربية. وقد كان النبي ﷺ عربيا.

(د) وجاءت الفقرة التالية لتزوّدنا بعلامة أخرى للنبي الموعود كما يلي:

"بنو أمي غضبوا عليّ، جعلوني ناطورة الكروم، أما كرْمي فلم أنطره." (١: ٦)

هذا وصف صادق للقوم الذين ينتمي إليهم النبي الموعود. فعند مقدم الرسول ﷺ كان العرب قوما يفتقدون الطموح القومي، وكانوا يعملون لحساب الفرس والرومان، ولكنهم ما كانوا يعملون شيئا من أجل بلادهم. ولما جاء الرسول ﷺ استيقظ العرب من سباتهم، وقامت حركة بقيادة العرب، شملت كل زاوية من جوانب التقدم الإنساني، سواء كان روحيا أو فكريا أو سياسيا. ولم يصِر العرب نواطير (أي رعاة) كرْمهم (بلادهم) فحسب، بل أصبحوا رعاة كروم العالم كله.

(هـ) ويحتوي سفر نشيد الأنشاد تحذيرا لبني إسرائيل، ألا يتدخلوا في شؤون

النبي الموعود ولا يعرقلوا جهوده. إذ نقرأ في ٢: ٧ ما يلي:

"أحلّفكن يا بنات أورشليم بالظّباء وبأيائل الحقول ألا تُيَقّظن ولا تنبّهن الحبيب حتى يشاء".

ويستمر هذا التحذير في سفر نشيد الأنشاد، ويتكرر في ٣: ٥ ثم يُتابع في ٨: ٤، وهو يعني شيئا واحدا، إذ يشير إلى أن سليمان عليه السلام يحذر اليهود والنصارى، باعتبارهم فرعين لإسرائيل، أنهم سوف يعارضون ويضايقون النبي الموعود؛ ولكن لما كان ذلك النبي مبعوثا من لدن الله تعالى، فإنهم لن ينجحوا في معارضتهم، وإنما سيخيب مسعاهم ويلاقون هزيمة مخزية، ولذلك يحذّر سليمان قومه فيحلّفهم ألا يوقظوا أو ينبّهوا الحبيب حتى يشاء. أي أنه ينصح كلا من اليهود والنصارى ألا يفعلوا شيئا يؤذي النبي الموعود، وعليهم أن يقبلوه عندما يمتد نفوذه إلى بلادهم. فلا جدوى من معارضته، ومحاولة إيقاف مدّ دعوته ورسالته ستعود على المعارضين بالخسران والخراب. فإن من يقف عائقا في طريق مهمة الأنبياء يجعل من نفسه محط غضب الله تعالى وعقابه. وقد تحقق هذا التحذير. لقد صار اليهود والنصارى من المعارضين فجلبوا على أنفسهم العقاب الإلهي. ولو أن الناس اتخذوا موقفا حياديا تجاه النبي و لم يبادروه بالعنف، فلن يتخذ إزاءهم أية خطوات عدوانية، وإنما سوف يقتصر على الدعوة والإرشاد. وقد يحدث أحيانا أن يضطر النبي إلى أن يستل سيفه، ولكن هذا لا يكون إلا في مواجهة أولئك الذين استلوا سيوفهم ضدّه. فهو لا يحارب إلا من اعتدى عليه وبدأه بالحرب، وأراد أن يتصدّى بالقوة للقضاء على الرسالة التي أنزلها الله تعالى. وإن المثال الذي قدمه الرسول ﷺ هو خير مثال في هذا الشأن. وقد حذر سليمان قومه من المقاومة العقيمة ونتائجها الوخيمة التي سوف تحل بهم.

إن هذه النبوءات لا يمكن أن تنطبق على المسيح عليه السلام. فإن المسيح لم يظهر من جنوب فلسطين، ولا هو من بين إخوة بني إسرائيل، ولا كان له من وسائل المنعة ما يمكّنه من القضاء على مقاومة أعدائه من بني إسرائيل. لذلك فإن

النبوءات لا تنطبق إلا على نبي الإسلام ﷺ، فهو المحبوب الذي ذكره سليمان في نشيد الأنشاد، والأناشيد كلها ليست سوى ذكر شعري لأوصاف الرسول ﷺ.

نبوءات إشعياء

إن سفر إشعياء أيضا يعجّ بالنبوءات عن رسول الإسلام ﷺ، وكلها تشير إلى مقدم نبي عظيم آخر، يأتي برسالة السلام والطمأنينة للعالم أجمع. ولكن، حسب ما اقتضته السُنة الإلهية، فإن النبوءات دائما تأتي مغلفة بالرمز الذي يستدعي التفسير قبل أن يتّضح معنى النبوءة. وأحيانا تأتي الأسماء في هذه النبوءات، مثل أورشليم وصهيون وغيرها، بصفة رمزية. غير أن هذه الأسماء جعلت الكتاب المسيحيين يميلون إلى الظن أن هذه النبوءات تختص بالمسيح عليه السلام. ولكن الأسماء في حد ذاتها لا تُشكل أي جزء من هذه النبوءات. فإذا كان المضمون العام للنبوءات لا تنطبق على المسيح عليه السلام فإن اسم أورشليم أو إسرائيل أو صهيون لا تبرر انطباقها عليه. صحيح أن الأسماء لها معنى أيضا، ولكنه المعنى الذي يناسب المضمون العام للنبوءة. وعلى هذا فإن اسما كاسم أورشليم يعني الأماكن المقدسة، واسما كإسرائيل يمكن أن يعني شعبي المختار، وليس من المحتم أن تكون هذه الأسماء تعني أورشليم وإسرائيل بالذات.

(أ) النبوءة الأولى التي نود أن نذكرها من سفر إشعياء مذكورة في ٤: ١-٣، وهي كما يلي:

"في ذلك اليوم تتمسّك سبع نساء برجل واحد وتعلن له: نحن نطعم ونكسو أنفسنا، دعنا نحمل اسمك فتنْزع عنا عارنا. وفي ذلك اليوم يجعل الرب كل نبتة في الأرض جميلة زاهية وكل ثمرة فيها بهجة وفخرا للناجين من بني إسرائيل. ومن بقي في صهيون وتُرك في أورشليم يقال له قديس فتُكتب له الحياة".

عندما نعتبر أن الأسماء المذكورة في هذه النبوءات ليست إلا رمزا، نجد على

الفور أن مضمون النبوءة كلها انطبق على رسول الإسلام ﷺ ولا أحد سواه. فالنبوءة تذكر أن النبي الموعود يأتي بالثروة والجاه، وأن كنوز الدنيا تُلقَى عند قدميه، وأن قومه يُدعون قديسين، وأن تعدد الزوجات يكون القاعدة الدارجة في ذلك الزمن. فهل تنطبق هذه العلامات على المسيح وتلاميذه؟ هل جاءوا بزمن الثروة والجاه لقومهم؟ هل ألقيت كنوز الأرض عند أقدامهم؟ هل كان تعدد الزوجات شائعا في مجتمعهم؟ لا. إن جميع هذه العلامات تنطبق على رسول الإسلام ﷺ وعلى أتباعه وزمنه. إذ يقال إن المسيح لم يسمح بتعدد الزوجات، بينما أباح الرسول ﷺ تعدد الزوجات، بل وأمر به تحت بعض الظروف الخاصة. فقد استلزم الأمر في زمنه خوض الحروب للدفاع عن الدين، واضطر الكثير من الشباب أن يُضحّوا بأرواحهم، فكثرت الأرامل، بالإضافة إلى أن الفتيات اللاتي في سن الزواج أصبحن يجدن صعوبة في العثور على أزواج لهن. ولذلك أمر الرسول ﷺ بتعدّد الزوجات ليمنع انتشار الفاحشة، ولتعويض النفوس التي فقدت في الحروب.

(ب) وفي إشعياء ٥: ٢٦-٣٠ نجد ما يلي:

"فيرفع راية للأمم من بعيد ويصفر لهم من أقصى الأرض فإذا هم بالعجلة يأتون سريعا. ليس فيهم رازح ولا عاثر، لا ينعسون ولا ينامون ولا تنحل حُزم أحقائهم ولا تنقطع سيور أحذيتهم. الذين سهامهم مسنونة وجميع قسيّهم ممدودة، حوافر خيلهم تحسب كالصوّان وبكَرَاتهم كالزوبعة. لهم زمجرة كاللبوة ويزمجرون كالشبل ويهرّون ويمسكون الفريسة ويستخلصونها ولا منقذ. يهرّون عليهم كهدير البحر، فإن نُظِرَ إلى الأرض فهوذا ظلام الضيق والنور قد أظلم بسُحُبِها".

تشير هذه النبوءة إلى أن زمنا سوف يأتي حين يظهر رجل في مكان ما خارج أرض فلسطين، يحمل علما أو يرفع راية، فيدعو شعوب العالم فيهرعون إليه ويلتفّون حوله. وهؤلاء الذين يستجيبون له يخلعون عن أنفسهم ثوب التراخي

والكسل، ويقدّمون التضحيات العظيمة في سبيل غاياتهم السامية. وسيخوضون المعارك والحروب، فتقدح حوافر أقدام خيولهم نار الشرر، وسوف ينقضّون على أعدائهم كالعاصفة، فيُخضعون عدوهم حتى إن أحدا لا يستطيع إنقاذه من أيديهم. وأما لماذا يفعلون ذلك؟ فلأنهم يرون العالم من حولهم قد طواه الظلام وأصبح الأمر يحتاج لتغيير الحال.

وتنطبق هذه النبوءة بجميع محتواها على رسول الإسلام ﷺ، وهناك إشارة إليها في القرآن المجيد أيضا. وقد ظهر الرسول الأكرم ﷺ طبقا لهذه النبوءة من مكان خارج فلسطين، أي في مكة المكرّمة، ورفع رايته في المدينة المنوّرة؛ وهو الذي دعا للعالم كافة وأعلن نداءه:

﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:١٥٩)

لقد كان صوته هو الذي استجاب له الرجال والنساء من أقصى الأرض وخفّوا إليه يلبّون دعوته بعزم وحماس. وأما المسيح عليه السلام فلم يلبّ دعوته ولم يؤمن به طوال الثلاثة والثلاثين عاما التي قضاها في فلسطين فرد واحد من خارج فلسطين. وجاء كل تلاميذه من منطقة لا يزيد قطرها عن أربعين أو خمسين ميلا. ولكن المؤمنين بالرسول الأعظم ﷺ جاءوا من اليمن ومن نجد ومن إيران، وكان من بينهم عبدة الأصنام واليهود والنصارى. وقد قدّموا الكثير من التضحيات العظيمة تلبية لنداء الرسول ﷺ، وبذلوا أنفسهم مختارين دون أي تردّد، حتى إن أعدى أعداء الإسلام أنفسهم لم يجدوا بُدّا من الاعتراف بروح البذل والتضحية التي أبدوها. بل إن الله تعالى أثنى عليهم في القرآن المجيد، حيث يقول:

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة:١٠٠)

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا﴾ (الأحزاب:٢٤)

إن أتباع الرسول ﷺ هم الذين اضطروا إلى خوض الحروب وإلى استعمال القوس والسهام. وكانت سنابك خيولهم كالقداحة التي يخرج منها الشرر، وكانت كرّاتهم على عدوّهم كالزوبعة. ونجد في القرآن المجيد إشارة أيضا إلى هذا الوصف حيث يقول:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۞ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۞ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۞ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۞ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ (العاديات: ٢-٦)

هذا هو وصف المجاهدين في صدر الإسلام، وما أصدقه من وصف يتجاوب تماما مع نبوءة إشعياء!

وقد جاء في جزء من هذه النبوءة:

"فإن نُظر إلى الأرض فهوذا ظلام الضيق والنور قد أظلم بسحبها" (إشعياء ٥: ٣٠)

ويشير القرآن المجيد إلى هذا الوضع في العالم عند بعثة الرسول ﷺ فيقول:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم:٤٢)

أي أن الظلمات غطت على قبس الحكمة في عقول البشر، وأطفأت شعلة الهداية الإلهية، فأمست الحاجة شديدة إلى نبي جديد يحمل رسالة جديدة من الله تعالى.

ويقول تعالى أيضا:

﴿ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۞ رَّسُولا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (الطلاق:١١-١٢)

(ج) ولدينا من إشعياء أيضا:

"قدِّسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبكم. ويكون مقدسًا وحجر صدمة وصخرة عثرة لبيْتيْ إسرائيل وفخًّا وشرَكا لسكان أورشليم. فيعثر بها

كثيرون ويسقطون فينكسرون ويعلقون فيُلقَطونَ. صرّ الشهادة اختم الشريعة بتلاميذي. فأصطبر للرب الساتر وجهه عن بيت يعقوب وأنتظره" (إشعياء ٨: ١٣-١٧)

تذكر هذه النبوءة بوضوح نبأ ظهور رجل مقدس يكون مقدمه امتحان لكل من بيتي إسرائيل، ويكون فخا وشَرَكا لسكان أورشليم، الذين سوف ينهزمون فيسقطون وينكسرون إذا اختاروا أن يعارضوه ويقاوموه. وسوف تحل شريعته محل شريعة موسى، وسوف يصرف الله تعالى وجهه عن بيت يعقوب.

والكتّاب المسيحيون يلتزمون الصمت عن هذه النقطة. ولعلهم يفهمون أن المقصود ببيْتيْ إسرائيل هما الفريقان الذي أيد أحدهما ابن سليمان "رحبعام" والفريق الثاني الذي عارضه، وبذلك فقد أقاموا دولتين متنافرتين. ولكن لا يصلح هذا التفسير، لأن النبوءة تتحدث عن ظهور رجل مقدس، وتتكلم عن أمور وحوادث سوف تجري في زمنه. إن هذا الرجل المقدس لا بد أن يكون المسيح عليه السلام أو رجل آخر يظهر بعده، لأنه في المدة بين إشعياء والسيد المسيح لم تظهر شخصية دينية لها وزن، تكون قد واجهت بني إسرائيل برسالة لها أهميتها وقدرها. ولكن، هل واجه المسيح بني إسرائيل بمثل هذه الرسالة؟ وهل تكبّد بنو إسرائيل الهزيمة والخزي على يديه عندما وقفوا ضده؟ وهل ختم المسيح الشريعة لتلاميذه وأعلن لهم نسخ شريعة موسى؟ إن المسيح بنفسه يجيب على هذه النقطة الأخيرة بوضوح كامل حيث يقول:

"لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمّل. فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل" (متى ٥: ١٧-١٨)

لقد فصَل المسيح في القضية بنفسه، ليس في زمنه فحسب، بل للمستقبل أيضا. فإن ما أضافه إنجيل مرقس له دلالة خاصة حيث قال:

"فقال لهم يسوع هل يستطيع بنو العرس أن يصوموا والعريس معهم. ما

دام العريس معهم لا يستطيعون أن يصوموا. ولكن ستأتي أيام حين يُرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون في تلك الأيام" (مرقس ٢: ١٩-٢٠)

يتضح جليا من هذه التصريحات أن المسيح جعل طاعة الناموس الموسوي واجبا على تلامذته حتى بعد موته، وإلا لقال لهم إن أيام الصيام قد انتهت، ولكنه صام هو نفسه، وذكر أن تلامذته سوف يصومون أيضا من بعده. وعلى هذا، فإن ختم الشريعة لا يعني إلغاء الشريعة، ولا نبذ فكرة ضرورة القيام بتنفيذ الأوامر الدينية المحددة، وإنما يعني أنه في زمن الرجل المقدس الموعود سوف تحل شريعة أخرى جديدة محل الشريعة الموسوية. وإن لم يكن هذا التفسير صحيحا، فلماذا يستر الرب وجهه عن بيت يعقوب، كما قال: "فأصطبر للرب الساتر وجهه عن بيت يعقوب وأنتظره"؟ ألم يكن المسيح من بيت يعقوب؟ إن لم يكن من بيت يعقوب لما كان من نسل داود، وإن لم يكن من نسل داود لما كان هو المسيح الموعود به في النبوءات، حيث كان يتوجّب أن يكون المسيح من نسل داود.

(د) في سفر إشعياء ٩: ٦-٧ نجد ما يلي:

"لأنه يولد لنا ولد ونُعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبا مشيرا إلها قديرا أبا أبديا رئيس السلام. لنموّ رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته ليثبّتها ويعضُدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد، غيرة رب الجنود تصنع هذا".

تذكر هذه النبوءة مقدم ملك له خمسة أسماء أو أوصاف: (١) عجيب. (٢) مشير. (٣) إله قدير. (٤) أب أبدي. (٥) رئيس السلام. لا نهاية لنمو رياسته والسلام في مملكته، وسوف يجلس إلى الأبد على مملكة داود، ويثبّتها ويعضّدها بالحق والبر.

ويقول مفسرو الأناجيل في ملاحظاتهم الرئيسة في الحاشية على هذا الإصحاح إن هذه النبوءة تتعلق بمولد المسيح عليه السلام. ولكن، لا توجد بين

الصفات التي جاءت في هذه النبوءة أية صفة تنطبق عليه. وعلى سبيل المثال، هل أصبح المسيح ملِكًا في أي وقت من الأوقات؟ هل تنطبق عليه أية صفة من الصفات المذكورة: عجيب، مشير، إله قدير، أب أبدي، رئيس السلام؟ أما صفة العجيب، فلعله كان عجيبا بسبب مولده، ولكن هذا في أعين المؤمنين به فقط، لأن من أنكروه كانوا يعتبرونه ابن الخطيئة، ومن ثم فلا يمكن أن يصفوه بأنه عجيب. وأما أولئك الذين أيّدوه فكانوا في شك من سلالته، ففي رأي البعض منهم كان من نسل داود.

ثم نقرأ ما يلي:

"خلّص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلّصها، إن كان هو ملك إسرائيل فلينْزل الآن عن الصليب فنؤمن به. قد اتّكل على الله فلينقذه الآن إن أراده لأنه قال أنا ابن الله. وبذلك أيضا كان اللصان اللذان صُلبا معه يعيّرانه" (متّى ٢٧: ٤٢-٤٤)

يتبين من هذا أن المسيح لم يظهر أبدا بمظهر القوة والقدرة، و لم يوصف أبدا بأنه "قدير"، و لم يقل أحد أبدا عنه إنه كان قديرا، سواء كان صديقا أم عدوّا. ولو لم يكن الأمر كذلك لما تركه تلامذته وهربوا، إذ يقول متّى في إنجيله:

"وأما هذا كله فقد كان لكي تُكمّل كتب الأنبياء، حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا" (متى ٢٦: ٥٦)

فهل يلقى "القدير" مثل هذا المآل؟

الصفة الرابعة التي جاءت في النبوءة هي "ربا أبديا"، وهذه الصفة لا تنطبق أيضا على المسيح، فكما بيّنا فيما سبق أنه هو بنفسه أعلن عن مجيء شخص آخر بعده.

والصفة الخامسة هي"رئيس السلام"، وحتى هذه لا تنطبق على المسيح. فهو لم يكن ملكا أبدا، و لم يستطع أبدا أن يأتي بالسلام إلى العالم. بل على العكس،

لقد ظل مضطهَدا من أعدائه الذين نجحوا في النهاية أن يعلّقوه على الصليب.

ثم تذكر النبوءة علامة أخرى وهي "لنموّ رياسته وللسلام لا نهاية". ولم يصل المسيح أبدا لرياسة أي دولة أو أية حكومة، وعلى ذلك فما كان له أن يشهد أي نمو.

والعلامة التالية هي "على كرسي داود وعلى مملكته ليثبّتها ويعضُدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد". وهذه العلامة لا يمكن أن تنطبق على المسيح أيضا.

إن هذه العلامات تنطبق على رسول الإسلام ﷺ. فإنه هو الذي حمل على أكتافه مسؤوليات الدولة، بعد أن وجد نفسه ملكا، دون أن يسعى إلى الملك وبغير أن يطلبه. وإن المثير في الأمر أن المسيح لم يحظ أبدا بالملك، مع أنه كان دائما يتمنى أن يكون ملكا، وقد حوكم بتهمة أنه كان يدّعي لنفسه أنه ملك اليهود، كما جاء ذلك فيما يلي:

"فكان هذا كله لكي يتم ما قيل بالنبي القائل. قولوا لابنة صهيون هو ذا ملكك يأتيك وديعا راكبا على أتان وجحش ابن أتان" (متّى ٢١: ٤-٥)

"فوقف يسوع أمام الوالي فسأله الوالي قائلا أنت ملك اليهود، فقال له يسوع أنت تقول" (متّى ٢٧: ١١)

"فقام كل جمهورهم وجاءوا به إلى بيلاطس وابتدأوا يشتكون عليه قائلين إننا وجدنا هذا يُفسد الأمّة ويمنع أن تُعطى جزية لقيصر قائلا إنه هو مسيح ملك. فسأله بيلاطس قائلا أنت ملك اليهود؟ فأجابه وقال أنت تقول" (لوقا ٢٣: ١-٣)

أما الرسول ﷺ فقد كان ملكا حقيقيا، ومع ذلك فلم يكن يحب الملك، وكان يحذّر أتباعه دائما من تقليد أساليب كسرى وقيصر.

إن أحد الأسماء التي وردت في النبوءة هو "عجيب". وقد اعترف المسيح أن الذي يحمل هذا اللقب هو من سيأتي بعده، وقد جاء هذا الاعتراف في المثل

الذي ذكره عن " الكرم والكرّامين" ورواه متّى في إنجيله ٢١: ٣٣-٤٤، وهو كما يلي:

"كان إنسان رب بيت غرس كرْما وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجا وسلمه إلى كرّامين وسافر. ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبيده إلى الكرّامين ليأخذ أثماره. فأخذ الكرّامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا. ثم أرسل أيضا عبيدا آخرين أكثر من الأولين، ففعلوا بهم كذلك. فأخيرا أرسل إليهم ابنه قائلا يهابون ابني. وأمّا الكرّامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث، هلموا نقتله ونأخذ ميراثه. فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه".

فلما بلغ المسيح هذا الحد من سرد المثل، سأل تلاميذه قائلا:

"فمتى جاء صاحب الكرم، ماذا يفعل بأولئك الكرّامين"؟ (متّى ٢١: ٤٠)

وأولئك الذين كانوا يسمعوه أجابوا قائلين:

"أولئك الأردياء يهلكهم هلاكا رديّا ويسلم الكرْم إلى كرّامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها" (متّى ٢١: ٤١)

فقال لهم يسوع:

"أما قرأتم قط في الكتب، الحجر الذي رفضه البنّاءون هو قد صار رأس الزاوية، من قِبَلِ الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا. لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يُنْزع منكم ويُعطَى لأمّة تعمل أثماره. ومن سقط على هذا الحجر يترضّض، ومن سقط هو عليه يسحقه" (متّى ٢١: ٤٢-٤٤)

وهذا معناه أن بعد مقتل الابن، سيكون هناك آخر، مبعوث من لدن الله تعالى، الذي يكون هو "رأس الزاوية"، والذي هو "عجيب" في أعين المسيح والآخرين جميعا. وعلى ذلك فإن هذا الذي يسمى "عجيبا" سوف يأتي بعد مقتل الابن، فلا يمكن إلا أن يكون هو الرسول ﷺ الذي جاء بعد أن عُلِّق

المسيح على الصليب.

والاسم الثالث للشخص الموعود أنه كان "مشيرا". وهذا الوصف ينطبق بصورة أجلى على الرسول الأعظم ﷺ. فإن أمّة بأكملها تستشيره في أمور دينها، وهو بدوره كان يعقد بانتظام مجالس الشورى مع أتباعه، ووضع إلزاما على الدولة أن تستشير الرعيّة في كل الأمور الهامة. وقد بيّن القرآن المجيد أنه كان من أهم وأقدر المستشارين في قومه، إذ يقول:

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذينَ ءَامَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المجادلة:١٣)

ووجود أمر إلهي بفرض صدقة يقدمها الشخص الذي يبتغي المشورة من الرسول ﷺ تبين أن استشارته أصبحت شأنا من الشؤون المعتادة لدى المسلمين، واقتضى الأمر فرض صدقة تطوّعية من أجل جمع بعض الأموال للفقراء، من أولئك الذين يستطيعون تقديم الصدقات. فقد زاد عدد أولئك الذين يبتغون استشارة الرسول ﷺ مما تطلّب منه أن يخصص وقتا طويلا لهذه الاستشارات، فكان من الطبيعي أن تُفرض صدقة على القادرين ممن يرغبون في الاستشارة، فإن وقت النبي ﷺ يخص الناس جميعا، فمن أراد الاستئثار بجزء من هذا الوقت ينبغي عليه أن يساهم في رفع شأن الناس عن طريق المساهمة بالصدقات التي تؤول إلى المال العام، وبهذا فقد أصبحت استشارة الرسول أمرا منظما ومقنّنا. وعلى ذلك فإن الرسول ﷺ هو الذي يستحق أن يلقب بحق "مشيرا". وقد أرسى ﷺ نظام الشورى وجعله أساسا للحكم الناجح، ويقول في ذلك القرآن المجيد:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى:٣٩)

إن الأمور العامة والقواعد الإدارية العامة يجب ألا تُقنّن بدون استشارة الرعية أو ممثليها، وبناء على هذه القاعدة اعتبر الرسول ﷺ أن الشورى من أهم واجبات الخليفة. وقد رُوِيَ عنه أنه قال: لا خلافة بلا شورى. (إزالة الخفا عن

خلافة الخلفاء). إن الدولة التي تدار فيها شؤون الحكم بغير شورى لا تكون دولة إسلامية.

وفي المقابل من كل هذا، ماذا فعل المسيح ليكون "مشيرا"؟ لم يرد عنه أبدا أنه كان مشيرا على نطاق واسع، و لم يشجع مبدأ الشورى ويجعله قانونا واجب الاتّباع. وعلى هذا فإن الرسول ﷺ هو الذي كان بحق مشيرا وهو الذي تنطبق عليه نبوءة إشعياء.

الاسم الثالث الذي جاء في النبوءة هو "إلها قديرا". ويشير العهد القديم إلى مشابهة بين الله تعالى وموسى، حيث جاء في سفر الخروج:

"فقال الرب لموسى انظر أنا جعلتك إلها لفرعون وهارون أخوك يكون نبيّك" (الخروج ٧: ١)

وأيضا جاء ما يلي في سفر الخروج أيضا:

"وهو يكلم الشعب عنك وهو يكون لك فما وأنت تكون له إلها: (الخروج ٤: ١٦)

والمقصود أن تكون بمثابة الإله في مزاولة السلطة التي خوّلها الله لك. وفي اصطلاح الكتاب المقدس، قيل عن موسى أنه إله، بينما قيل عن المسيح أنه ابن الله. وفي إطار هذا الاصطلاح، حينما يوصف النبي الموعود في نبوءة إشعياء بأنه سيكون "إلها قديرا"، فإن النبوءة تشير إلى نبي مثيل لموسى عليه السلام. وقد أشرنا فيما سبق إلى النبوءة التي قالها موسى نفسه في سفر التثنية ١٨:١٨ وذكر فيها مجيء نبي مثله. ولا يوجد أحد يمكن أن تنطبق عليه نبوءته هذه سوى رسول الإسلام ﷺ. وبمفهوم هذا الاصطلاح نجد أن الرسول ﷺ هو الذي يمكن أن يُدعى بحق إلها قديرا، أو بمعنى آخر، مظهرا لقدرة الله ومجده. وفي القرآن المجيد أيضا، هناك ما يشير إلى هذه الاصطلاحات. ففي غزوة بدر، تناول الرسول حفنة من الحصى ورماها في وجه الأعداء. وكانت هذه الرمية التي رماها الرسول ﷺ بمنزلة

إشارة لهبوب عاصفة رملية تعمل على إعاقة العدو وتساعد على تحقيق النصر للرسول ﷺ. وبهذا الخصوص يخاطب الله تعالى رسوله الكريم بهذه الكلمات:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ (الأنفال:١٨)

وكذلك أشار القرآن المجيد إلى عهد البيعة الذي يقطعه المؤمنون الجدد مع الرسول ﷺ عند دخولهم في الإسلام، فيقول تبارك وتعالى في القرآن المجيد:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ (الفتح:١١)

إن الرسول الأكرم ﷺ عبد الله ورسوله وخليفته على الأرض، فهو يمثل الله تبارك وتعالى في الأرض، ولذلك فإن وصف "إلها" في النبوءة يتحقق فيه تماما دون أي إنسان آخر. وكذلك ينطبق عليه أيضا صفة "قديرا"، لأنه هو الذي أخضع أعداءه جميعا في حياته وسحق كل معارضة قامت في وجه الإسلام.

الاسم الرابع المذكور في نبوءة إشعياء هو "أبا أبديا"، وهذا لا ينطبق إلا على الرسول ﷺ وليس من أحد غيره. فإنه هو وحده الذي أعلن بكل جلاء ووضوح، أبدية رسالته ودوام شريعته إلى يوم القيامة. وقد أنبأ بالمجيء الثاني للمسيح، ولكن هذا المجيء الثاني يتم في شخص واحد من أتباع الرسول ﷺ، وليس مجيء أحد يناقض أبوّته الروحية الدائمة،

وإلى هذه الأبوة يشير القرآن المجيد:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۞ وَيَقُولُونَ مَتى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قُلْ لَّكُمْ مِّيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَّلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ (سبأ:٢٩-٣١).

إن اصطلاح ﴿كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ يشير بجلاء إلى الصبغة العالمية والأبدية لرسالة الإسلام. فهي للعالمين كافة في كل زمان وكل مكان. وقد كان الكفار يسخرون من الرسول الأعظم ﷺ ويقولون متى يتحقق ذلك الوعد المذكور هنا، أي متى يأتي ذلك اليوم الذي تتجلي فيه للعالم الصبغة العالمية والأبدية للإسلام؟

فيقول الله تعالى إجابة على هذا السؤال أن هذا اليوم سوف يأتي حتما كما قدّره الله تعالى، وقد أشارت إليه الآية التالية:

﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة:٦)

أما الأمر الذي يُدبره الله من السماء إلى الأرض، فهو الإسلام. ثم مع مرور الزمن يبدأ نفوذه وسلطانه في الاضمحلال، وفي خلال ألف عام سوف يرتفع مرة أخرى إلى السماء، وسوف يزول ذلك التأييد الإلهي الخاص الذي تمتّع به المسلمون في أوّل الدعوة ويُترك مصيرهم للقوى الطبيعية في العالم. ويبدو من القرآن الكريم ومن الأحاديث الشريفة أن الله تعالى قدّر للإسلام أن يواصل انتشاره لمدة ثلاثة قرون، وبعدها تبدأ فترة الاضمحلال التي سوف تستمر لمدة ألف سنة. وحين قراءة الآيات السابقة من سورة سبأ (٢٩-٣٢) ، والآية التي من سورة السجدة (٦)، يتّضح جليّا أن الناس سوف يظلون لزمن طويل على غير قناعة بأبدية الإسلام، وأن انعدام تلك القناعة سوف يعمّ العالم بأجمعه، بالنظر إلى فترة الاضمحلال الطويلة التي ستغرب فيها شمس الإسلام. ولكن، بعد مرور فترة ألف وثلاثمئة سنة سوف تبرز حقائق وظروف جديدة تؤدي إلى زوال الشك من قلوب الناس. فإن الآيات المذكورة تشير إلى موعد المجيء الثاني للمسيح، ذلك الذي وُعِد بمجيئه في القرآن والحديث، وتُذكّرنا هذه الآيات بأن هذا المجيء الثاني سوف يتحقق في شخص واحد من أتباع رسول الإسلام ﷺ. وحيث إن مجيء ذلك المسيح الموعود قد سبق أن تنبأ به الأنبياء الآخرون أيضا، فإن بعثته من بين أتباع الرسول ﷺ سوف تكون دليلا حاسما على أن المقام المميّز والدرجة الروحية السامية للرسول ﷺ باقية على الدوام، وما من مبعوث سماوي يأتي في العالم إلا ويكون من أتباعه وخدامه. أما الشريعة الإسلامية والسُنّة النبوية فسوف تظل كما هي، ولن يحل محلها كتاب آخر أو شريعة أخرى. وبالإضافة، ففي زمن المسيح الموعود، سوف تُوجّه أهمية كبرى، وتركيز مثابر، إلى واجبات

الدعوة والإرشاد إلى الدين، مما يؤدي في نهاية الأمر إلى انتشار الإسلام في العالم بأجمعه. وعندما يحدث هذا سوف تتحقق الصبغة العالمية للإسلام، وتظهر صفة الدوام والأبدية التي يتميز بها بما لا يدع مجالا للشك. وعلى هذا فإن الأب الأبدي الذي جاء ذكره في نبوءة إشعياء هو نبي الإسلام ﷺ وليس من أحد سواه.

الاسم الخامس الذي جاء في النبوءة هو "رئيس السلام". وكلمة "رئيس" تعني أيضا "ملك"، وبالتالي يمكن اعتبار الاسم يعني "ملك السلام"، وعلى هذا فلا يمكن أن ينطبق هذا الوصف إلا على رسول الإسلام ﷺ. إن الدين الذي أتى به من عند الله هو "الإسلام" وهو يعني أيضا "السلام".

ولا نعرف بأي معنى يمكن أن يُدعى المسيح "رئيس السلام". إن إحدى معاني هذا الاسم هي أن الشخص الذي يوصف به لا بد أن يكون له نصيب وافر من صفة السلام، كما ينبغي أن تنطوي طبيعته وفطرته على السلام، وأن تكون لديه القدرة على أن يمنح الآخرين السلام. وليس هناك من دليل على أن هذا كان حال المسيح عليه السلام. فلم تكن لدية الفرصة لتقلد منصب ذي سلطة فيستطيع أن يحكم بالعفو على أعدائه. صحيح أنه علم أتباعه الصفح والغفران وإدارة الخدِّ الآخر، ولكن هناك فرق كبير بين التعليم والممارسة. وما هو مهم وله قيمة حقيقية هي الممارسة. أما الممارسة فلدينا منها الكثير من الأدلة في شخص الرسول الأكرم ﷺ. فكم عانى من قسوة قومه، ولم تكن هناك من أعمال بربرية أو أفعال وحشية لم ترتكب في حقه وضد أتباعه. وقد قُتل الكثير من أعز أقاربه وأقرب صحابته إليه شر قتلة بغير رحمة أو شفقة. وقد كان شخص الرسول نفسه موضعا لممارسة هذه البربرية والقسوة البالغة. فقد كان هدفا لهم في الكثير من المناسبات والأحيان، وبمختلف الوسائل والأساليب. وقد اضطر أن يترك بلدته ويخرج مهاجرا ليلجأ إلى بلدة أخرى، كما اضطر إلى ذلك أيضا صحابته وأتباعه. وتكبّدوا جميعا آلام الغربة والبعد عن الأهل والأصحاب. ومُزِّقت

أجساد بعضهم أشلاء بأن قُيّدت أطرافهم في جملين يعدوان في اتجاهين مختلفين. وقُتلت بعض النساء بطعنة حربة في فروجهن. أما العبيد الذين آمنوا به فقد نُزعت عنهم ثيابهم وسُحلوا جرّا على الحصى والرمال المحرقة، وكان الغرض من كل أهوال التعذيب التي تعرّضوا لها وعانوا منها، هو أن يتنكروا لعقيدتهم ويتخلوا عن إيمانهم. وتعرضت أجساد أولئك الذين قتلوا في المعارك إلى التمثيل بها وتشويهها. وباختصار، لقد عانى المسلمون جميعا، رجالا ونساء، كبارا وصغارا، أحرارا وعبيدا، أحياء وأمواتا، أسوأ أنواع التعذيب والمعاناة والتشويه بشكل لم يتحمله أحد في تاريخ الأديان. ولكن في النهاية، كتب الله لهم النصر، وسار الرسول ﷺ على رأس عشرة آلاف من هؤلاء الأبرار ليدخل مكة منتصرا، وأصبح أولئك الأعداء تحت قدميه وهم على يقين بأن العقاب ينتظرهم على ما اقترفت أيديهم من ظلم وقتل وتعذيب. ومع ذلك فإن الرسول ﷺ قال لهم: "لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء" (سيرة ابن هشام). لقد أصبح يملك القدرة لأن يعاقب، وأن ينتقم لكل الفظائع التي ارتُكبت في حقه وحق أتباعه. ولكنه اختار أن يعفو، وأن يسامح، وأن يمتنع حتى عن أيّ عتاب قد يكون فيه إيذاء لمشاعرهم. وقد حدث عندما كان جيش المسلمين يتقدّم نحو مكة، أن قال أحد القادة، وكان سعد بن عبادة، "يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة"، يقصد أن يوم الانتقام لكل المظالم قد جاء (البخاري). ولم يكن من الرسول ﷺ إلا أن عزل ذلك القائد قائلا إن مثل هذه الأقوال تجرح مشاعر أهل مكة. فهل رأينا مثل هذه المواقف في حياة المسيح؟ أو في حياة تلاميذه؟ أو حتى في تاريخ المسيحية بأكمله؟ لاشك أن المسيحيين الأوائل عانوا الكثير من المصاعب والاضطهاد، وكانوا ضعفاء لا حول لهم ولا قوة. ولكن جاء الوقت الذي تولوا فيه زمام السلطة والقوة، فكيف كان تعاملهم مع أعدائهم؟ ألم يصطبغ التاريخ باللون الأحمر بسبب دماء أعدائهم التي سفكها المسيحيون؟ فكيف يمكن أن يوصف المسيح بصفة رئيس السلام؟ إنه هو نفسه لم يكن يملك من القوة ما

يستطيع به أن يمنح الآخرين أي سلام، ولكن أتباعه ملكوا القوة، ولكنهم لم يعطوا للعالم أي سلام، بل نشروا فيه الدمار والموت والخراب. أمّا رسول الإسلام ﷺ فقد ملك القدرة على أن يبطش بأعدائه وينْزل بهم العقاب، على ما جنت أيديهم من ظلم وقسوة ووحشية، تزيد عدة مرات عما اقترف اليهود في حق المسيح، ومع ذلك فقد اختار الرسول ﷺ أن يغفر ويعفو عن أولئك الأعداء، ولذلك فهو أمير السلام الذي أشارت إليه نبوءة إشعياء.

العلامة السابعة للشخص الموعود في نبوءة إشعياء هي: "لنموِّ رياسته وللسلام لا نهاية". وتنطبق هذه العلامة على نبي الإسلام ﷺ وليس على المسيح عليه السلام. فالمسيح لم تكن له أية سلطة سياسية، بينما ملك الرسول الأعظم ﷺ وأتباعه زمام السلطة في العالم المعروف حينئذ، وحكموا أعظم دولة في العالم بصورة لم يكن لها مثيل من الحق والبر والعدل.

العلامة الثامنة هي:

"على كرسي داود وعلى مملكته ليثبّتها ويعضُدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد". (٩: ٧)

فهل جلس المسيح على كرسي داود وملك زمام مملكته؟ ربما يكون أتباعه قد حققوا ذلك بعد ثلاثمئة سنة عندما دخل الإمبراطور الروماني قسطنطين في المسيحية، ولكن النبوءة تقول إن الحكم على عرش داود سوف يستمر إلى الأبد، غير أن الحكم المسيحي لفلسطين استمر لمدة ثلاثمئة سنة إلى أن انتهى بظهور الإسلام. وظلت فلسطين، أي مملكة داود، تحت حكم المسلمين لمدة ألف وثلاثمئة سنة. فأيهما أقرب إلى اصطلاح "الأبد" المذكور في النبوءة، ثلاثمئة سنة، أم ألف وثلاثمئة سنة؟ صحيح أن اليوم تتحكّم في فلسطين قوة مسيحية*. غير

* نذكّر القارئ أن هذه المقدمة نُشرت عام ١٩٤٧ عندما كان فلسطين تحت الانتداب البريطاني. (الناشر)

أنه من منظورنا نرى أن الانتداب البريطاني على فلسطين أمر مؤقت ولا يمكن أن يُشكّل تعارضا مع تحقق النبوءة.

إن الحكم الذي أسسه الرسول ﷺ في العالم من خلال أتباعه كان حكما يقوم على العدل والقسط، ولدينا شواهد من التاريخ على أن الحكم الإسلامي كان، كما تقول النبوءة، بالحق والبر. ففي زمن الخليفة الثاني "عمر بن الخطّاب" رضي الله عنه اضطرت بعض الجيوش الإسلامية إلى الانسحاب مؤقتا من بعض المناطق، تحت ضغط الجيوش الرومانية التي كانت متفوّقة في العدد والعتاد، وقبل الانسحاب جمعوا الأهالي وأخبروهم أنهم غير قادرين على حماية أرواحهم وممتلكاتهم، وأنهم سوف يضطرّون مؤقتا للانسحاب؛ وعلى ذلك فإنهم يُعيدون إليهم أموال الجزية التي جمعوها منهم كضريبة للدفاع عنهم. وقد تأثر سكان القدس المسيحيون كثيرا بهذا العمل الكريم وهذا التصرّف الذي يقوم على الحق والبر والعدل، حتى إنهم خرجوا يودّعون جيش المسلمين وهم يبكون، ويدعون الله أن يهيئ للمسلمين عودة سريعة (فتوح البلدان)◈. ولا عجب أن قال إشعياء عن النبي الموعود:

"على كرسي داود وعلى مملكته ليثبّتها ويعضُدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد". (٩: ٧)

◈ نورد هذه الواقعة كما جاءت في "فتوح البلدان" ص١٤٣: "حدّثنا سعيد بن عبد العزيز، قال: بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لواقعة اليرموك، ردّوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا: قد شُغِلنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم على أمركم. فقال أهل حمص: لَولايتُكم وعدلُكم أحبُّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم. ونهض اليهود فقالوا، والتوراةِ، لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نُغلب ونُجهد، فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود، وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد". (الناشر)

(هـ) ومن سفر إشعياء نقرأ أيضا في ١٩: ٢١-٢٥ ما يلي:

"فيُعرف الرب في مصر ويعرِف المصريون الرب في ذلك اليوم، ويقدمون ذبيحة وتقدمة وينذرون للرب نذرا ويوفون به. ويضرب الرب مصر ضاربا فشافيا فيرجعون إلى الرب فيستجيب لهم ويشفيهم. في ذلك اليوم تكون سكّة من مصر إلى أشور، ويعبد المصريون مع الأشوريين. في ذلك اليوم يكون إسرائيل ثلثا لمصر ولأشور بركة في الأرض. بها يبارك رب الجنود قائل مبارك شعبي مصر وعمل يديّ أشور وميراثي إسرائيل".

تذكر النبوءة أن زمنا سوف يأتي عندما يتجلى الله تعالى لأهل مصر، فيعرفون الله تبارك وتعالى بسبب هذا التجلي، فيقدّمون له التضحيات والذبائح، وتتحد فيه مصر مع بلاد الشام، ويزور سكان كل من البلدين البلد الآخر، ويشترك كل من البلدين في عبادة واحدة.

وقد تحققت هذه النبوءة في شخص الرسول ﷺ. لقد اعتنق أهل مصر الديانة المسيحية، ولكن لفترة قصيرة من تاريخهم. والآن، بعد مرور ألف وثلاثمئة سنة لا يزال المصريون والشاميون يعتنقون الإسلام ويعبدون عبادة واحدة. وفي كلمات إشعياء، يقول الله تعالى للمصريين: "مبارك شعبي مصر". وليتكلم أهل مصر عن أنفسهم، هل تبعيّتهم اليوم للمسيح أم لمحمد ﷺ؟

ثم تقول النبوءة: "وعملُ يديَّ أشورُ"✪. وبالمثل فلندَع الشاميين ليتكلموا عن

✪ إن آشور التاريخية هي مملكة نشأت في شمال العراق وجزء من الجنوب الشرقي لتركيا الحالية وكانت عاصمتها نينوى. ولكن هذه الدولة قد شهدت امتدادا إلى الجزء الشمالي من بلاد الشام وأحيانا إلى كل بلاد الشام والعراق تقريبا. ومع أن الآشورية كقومية قد زالت من الوجود إلا أن بعض المسيحيين العرب في العراق وبلاد الشام يصرون على أنهم ينتمون إلى هذا الشعب، ولهم كنيسة آشورية متواجدة في العراق وسوريا ولبنان. ومن المعروف أن الطائفة المسيحية السريانية هي طائفة منحدرة من الكنيسة الآشورية أيضا إلا أن انفصالهما كان لأسباب عقائدية لا عرقية، وهي فئة آشورية من حيث العرق كما يدعي الآشوريون. وعلى كل حال، فبما أن النبوءات

أنفسهم. هل كان عمل الله فيهم وهدايتهم عن طريق المسيحية أم عن طريق الإسلام؟

وتقول النبوءة: "وميراثي إسرائيل". فلِمَنْ أورث الله تعالى أرض إسرائيل، ومن الذي يقيم فيها اليوم؟

لا شك أن النفوذ الأوروبي والأمريكي يعمل على تشجيع اليهود على الإقامة في فلسطين، ولكن اليهود ليسوا أتباع يسوع المسيح. وعلى أية حال، لا زال المسلمون يشكلون أغلبية السكان في فلسطين، ولا يزال المسيحيون أقلية قليلة. وإذا حدث أن استولى اليهود على الأرض، فسوف يكون ذلك لمدة وجيزة فقط، وسواء بقيت في أيدي المسلمين أو استولى عليها اليهود، فليس للمسيح أي نصيب في النبوءة.

وتذكر النبوءة "في ذلك اليوم تكون سكّة من مصر إلى أشور"، أي أن هناك علامة على حدوث الاتصال بين البلدين. وتُصوّر النبوءة سكان البلدين بأنهم يتزاورون فيما بينهم ويشترك بعضهم مع بعض في أسلوب العبادة. فمن الذي حقق كل هذا؟ هل كان المسيح؟ كان للمسيحيين في حين من الأحيان السلطة في كل من مصر وبلاد الشام، وكان أغلبية السكان في هذين البلدين من المسيحيين، ولكن، هل تحققت في ذلك الحين الظروف التي تتكلم عنها النبوءة؟ إن النبوءة تذكر أن العلاقات بين البلدين سوف تتوطّد وتتقارب ويصبح البلَدان كشعب واحد، له لغة واحدة، وعقيدة وعبادات واحدة، ليس مجرّد الشيء العادي والمألوف من العلاقات الطيّبة بين بلدين متجاورين، بل إنها تصف علاقات خاصة، فوق العادية، تنجم فقط عن اندماج الشعبين وانصهارهما في قومية واحدة. وهذا لم يحدث أبدا في العهد المسيحي. وتحت الحكم الروماني، كانت مصر والشام جزءا من نفس الإمبراطورية، ولكن نظام الحكم في كل من

كانت في الفترة التي كان النفوذ الآشوري ممتدا إلى بلاد الشام فما المقصود بذلك إلا البلاد التي كانت خاضعة للنفوذ الآشوري وهي العراق وبلاد الشام. (الناشر)

البلدين ظل مختلفا، فكانت مصر مملكة شبه مستقلة، بينما وقعت الشام وفلسطين تحت الحكم الروماني المباشر، والكنيسة المصرية اختلفت أيضا عن الكنيسة السورية، أو السوريانية. ففي مصر، تحت تأثير كنيسة الإسكندرية، اتخذت المسيحية فيها شكلا يختلف عن المسيحية في فلسطين وسوريا. وكان المصريون يمارسون عبادتهم في لغتهم الخاصة القبطية، بينما مارس المسيحيون في الشام وفلسطين شعائرهم في خليط مضطرب من العبرية واليونانية. ولكن بمقدم الإسلام تغيرت الظروف تماما، وظلت مصر والشام لقرون طويلة تحت حكم واحد، وأخذ كل منهم يتكلم اللغة العربية ولا زالوا يتكلمون بها، وكل منهم يمارس نفس شعائر العبادة، وكل منهم يشترك مع الآخر في الحس والضمير. كان العلماء الشاميون يذهبون إلى مصر وينالون هناك الإكرام والتقدير، كما كان العلماء المصريون ينتقلون إلى الشام ويُقابَلون هناك بالإعزاز والتكريم. وحتى اليوم، رغم أن العالم الإسلامي قد صار مقطع الأوصال بتأثير الدبلوماسية الأوروبية، فإن جامعة الدول العربية توحّد بين المصريين والشاميين والفلسطينيين، ويبدو أن الشعوب في تلك الدول تفخر بقوميتها العربية المشتركة. وعلى هذا، فإن نبوءة إشعياء قد تحققت في رسول الله ﷺ وفي أتباعه. وإنه لمن المبالغة والهراء أن يُنسب تحقق هذه النبوءة إلى المسيح عليه السلام وإلى الكنيسة المسيحية.

(و) ونجد أيضا في إشعياء ٦٢: ٢ ما يلي:

"فترى الأمم بِرّك وكل الملوك مجدك وتُسمّين باسم جديد يعيّنه فم الرب".

ومن الواضح أن النبوءة تذكر نبأ حركة عقائدية جديدة، تحمل اسما جديدا، لا يقترحه البشر، وإنما يتنَزّل من لدن الله تعالى في كلمات الوحي. وينسب شُرّاح الكتاب المقدس هذه النبوءة إلى الكنيسة المسيحية، متجاهلين الحقيقة المعروفة وهي أن كلمة "مسيحي" و "المسيحية"، أو الأسماء الكثيرة المتعددة التي

تُعرف بها الفرق المسيحية، لم تكن أبدا من وحي الله تعالى، وإنما كانت من اختيار الناس. إن هناك قوما واحدا في العالم هو الذي سمّاه الله تعالى باسمه، وجاء هذا الاسم في كلمات الوحي من لدنه تعالى، إذ يقول الكتاب العزيز:

﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ (الحج:٧٩)

وهذه إشارة واضحة إلى نبوءة إشعياء. وكأن الآية القرآنية تقول: "لقد سبق النبأ بأن تسميتكم لن تكون من اختياركم، بل إن الله سيختارها لكم، وعلى ذلك فقد سماكم المسلمين". والاسم مشتق من "السلام"، الأمر الذي يتفق مع لقب النبي الموعود "رئيس السلام". إن النبوءة عجيبة ومدهشة حقا، ومن العجيب أيضا أنه لا يوجد أتباع ديانة تلقوا اسمهم من الله تعالى، ومن كلمات الوحي التي أنزلها، غير المسلمين وحدهم. لقد تنبأ إشعياء عن مَقْدم نبي يختار الله بنفسه اسم أتباعه، وأنه سوف يعلن هذا الاسم في الوحي الذي يتنَزّل من لدنه. ورسول الإسلام ﷺ هو ذلك النبي، وأتباعه هم الذين سماهم الله المسلمين، ودينه هو الذي سماه الله تعالى باسم الإسلام.

نبوءات دانيال

رأى الملك نبوخذنصّر ملك بابل، حسب ما جاء في الإصحاح الثاني من سفر دانيال، رؤيا عجيبة سرعان ما نسيها. فجمع حكماء مملكته وطلب منهم أن يخبروه بالحلم وأن يخبروه أيضا عن تأويله. ولم يستطع أحد منهم أن يفعل ذلك. وأما دانيال النبي، فقد دعا الله تعالى، فأخبره الله بالحلم وأخبره أيضا بمعناه. وكان الحلم كما يلي:

"أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم، هذا التمثال العظيم البهي جدا وقف قبالتك ومنظره هائل. رأس هذا التمثال من ذهب جيّد، صدره وذراعاه من فضّة، بطنه وفخذاه من نحاس. ساقاه من حديد، قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف. كنتَ تنظر إلى أن قُطِع حجر بغير

يدين، فضرب التمثال على قدميه اللتيْن من حديد وخزف فسحقهما. فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا، وصارت كعصافة البيْدر في الصيف، فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان، أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلّها" (دانيال ٢: ٣١-٣٥).

وكان التعبير الذي فصّله دانيال للملك كما يلي:

"أنت أيها الملك ملك الملوك لأن إله السماوات أعطاك مملكة واقتدارا وسلطانا وفخرا. وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك وسلّطك عليها جميعها، فأنت هذا الرأس من ذهب. وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتتسلّط على كل الأرض. وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد، لأن الحديد يدق ويسحق كل شيء، وكالحديد الذي يكسّر تسحق وتكسّر كل هؤلاء. وبما رأيت القدمين والأصابع، بعضها من خزف والبعض من حديد، فالمملكة تكون منقسمة ويكون فيها قوة الحديد من حيث إنك رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين. وأصابع القدمين بعضها من حديد والبعض من خزف، فبعض المملكة يكون قويا والبعض قصمًا. وبما رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس، ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما أن الحديد لا يختلط بالخزف. وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السماوات مملكة لن تنقرض أبدا ومُلكها لا يُترك لشعب آخر وتسحق وتُفني كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد. لأنك رأيت أنه قد قُطع حجر من جبل لا بيدين فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب، الله العظيم قد عرّف الملك ما سيأتي بعد هذا، الحلم حق وتعبيره يقين" (دانيال ٢: ٣٧-٤٥).

وحسب تعبير دانيال للرؤيا، كانت الرأس الذهبية للتمثال ترمز لملك بابل، وكان الصدر والذراعان من الفضة يرمز إلى مملكة مادي وفارس التي قامت بعد

مملكة بابل. أما الساقان اللتان من نحاس فكانا يرمزان إلى الإمبراطورية اليونانية تحت حكم الإسكندر الأكبر التي قامت بعد مملكة مادي وفارس. وكانت الأرجل الحديدية ترمز للإمبراطورية الرومانية التي علا نفوذها وقوتها بعد أن اضمحلت الإمبراطورية اليونانية. وعن هذه الإمبراطورية الأخيرة تقول الرؤيا: "قدماه (أي قدما التمثال) بعضهما من حديد والبعض من خزف" (دانيال ٢: ٣٣).

ويشير هذا الوصف إلى حقيقة أن الإمبراطورية الرومانية سوف تشمل أجزاء من أوروبا ومن آسيا أيضا. والرجْلان الحديديتان ترمزان إلى الجزء الأوروبي من الإمبراطورية الرومانية، وتشير إلى القوة وإلى القومية الواحدة والدين الواحد، ولكن الأقدام كما جاء في الحلم، كان بعضهما من حديد وبعضهما من خزف. وهذا يعني أن القوة الأوروبية سوف تخضع بعض الأجزاء من آسيا، وبذلك فإنها سوف تصير قوة إمبراطورية. والقوى الإمبراطورية تتحكم في مناطق شاسعة وثروات كبيرة، ولكنها تعاني أيضا من الشغب الداخلي الذي يأتي بسبب عدم التلاحم والتجانس بين الشعوب التي تحت إمرتها. ومن الواضح أن الحلم يعني أن الإمبراطورية الرومانية سوف تأخذ في الاضمحلال في آخر الزمان بسبب عدم التجانس هذا. ويمضي الحلم فيخبرنا عن أشياء على جانب كبير من الأهمية:

"كنت تنظر إلى أن قُطِع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما. فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب وصارت كعصافة البيدر في الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان، أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلّها" (دانيال ٢: ٣٤-٣٥).

هنا نبوءة واضحة عن ظهور الإسلام. فإن الإسلام في أيامه الأولى اصطدم بالإمبراطورية الرومانية ثم بالإمبراطورية الفارسية. وحين اصطدم المسلمون بالرومان، كانت روما قد هزمت الإمبراطورية اليونانية التي أنشأها الإسكندر

المقدوني، وصارت أقوى من ذي قبل. وحين اصطدم المسلمون بالفرس كانت الإمبراطورية الفارسية قد امتدت واستولت على ممتلكات الإمبراطورية البابلية. وحين هزم المسلمون كلا من الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية، تحققت النبوءة فانكسر الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب كلهم بعضهم مع البعض، وصارت كل هذه الممالك كعصافة البيدر التي بددتها ريح الصيف. إن تتابع الأحداث في الحلم، والتعبير الذي قدّمه دانيال لتلك الأحداث، لا يترك مجالا للشك في معناها ومدلولاتها.

إنها من الحقائق المعلومة للداني والقاصي أن الإمبراطورية البابلية قد خضعت لإمبراطورية مادي وفارس، وأن الإسكندر المقدوني قد حطم قوة مادي وفارس، ثم حلّت الإمبراطورية الرومانية محل الإمبراطورية اليونانية، ومن المركز الشرقي للإمبراطورية في القسطنطينية، قامت إمبراطورية قوية على أجزاء من أوروبا وآسيا. وقد هُزمت هذه الإمبراطورية الآسيوية ودُمّرت على أيدي الرسول ﷺ وصحابته الكرام. وقد حدث مرة أنه تلقى بعض الأنباء عن عزم القوات الرومانية بالهجوم على المسلمين، فقاد بنفسه غزوة خرج فيها إلى حدود بلاد الشام، ولكن لم يقع أي قتال في تلك المرة. وظلت المناوشات قائمة بين حين وآخر إلى أن استؤنفت المعارك مرة أخرى في عهد الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، وقد أدّت هذه المصادمات في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى تقطيع أوصال الإمبراطورية واندحارها الكامل، كما هُزمت أيضا الإمبراطورية الفارسية أمام الجيوش الإسلامية. وهكذا تقلصت هاتان الإمبراطوريتان إلى دويلات صغيرة، بعد أن كانتا من زمن قريب تُعتبران القوى العظمى في العالم.

ونجد إشارة إلى "الحجر" الذي جاء في نبوءة دانيال في سفر إشعياء وفي إنجيل متى. ففي إشعياء ٨: ١٤ نقرأ عن الشخص المقدس:

"ويكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لبيتيْ إسرائيل وفخّا وشرَكا لسكان أورشليم".

ونقرأ في الفقرة التالية ٨: ١٥ ما يلي:

"فيعثر بها كثيرون ويسقطون فينكسرون ويعْلقون فيُلقطون".

ومن إنجيل متّى في الإصحاح ٢١ يظهر أن النبي الموعود – أي الحجر المذكور في النبوءة – ليس هو المسيح عليه السلام، ولكنه شخص آخر يأتي بعد المسيح، وفي ٢١: ٤٤ نجد وصفا جميلا للحجر كما يلي:

"ومن سقط على هذا الحجر يترضّض، ومن سقط هو عليه يسحقه".

ونجد في المزامير ١١٨: ٢٢ أيضا ما يلي:

"الحجر الذي رفضه البنّاءون قد صار رأس الزاوية".

ونقرأ في إنجيل متّى إشارة إلى هذا الحجر الذي صار رأس الزاوية في ٢١: ٤٢ كما يلي:

"قال لهم يسوع أما قرأتم قط في الكتب الحجر الذي رفضه البنّاءون هو قد صار رأس الزاوية، من قِبَل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا".

لقد ذكرنا فيما سبق أن المسيح عليه السلام نفسه قد رفض أن هذه النبوءة تتعلق به، إذ أنها تتعلق بشخص سوف يأتي من بعد مقتل الابن. ويولع المسيحيون اليوم بمحاولة تطبيق هذه النبوءة على الكنيسة المسيحية، ولكن هذا لن يجديهم شيئا. فحسب النبوءة التي جاءت في سفر دانيال، كان بطن التمثال وفخذاه من النحاس، والأرجل من الحديد (أي الإمبراطورية الرومانية)، وقدماه من الحديد والخزف، وقد ضرب الحجر التمثال على أقدامه. ويعني هذا أن الإسلام في أيامه الأولى سوف يصطدم بالأجزاء الأسيوية من الإمبراطورية الرومانية ويحطمها. لقد كانت الإمبراطورية الرومانية هي الممثل الدنيوي للكنيسة المسيحية، وعلى هذا فقد كان مقدّرا أن يصطدم الحجر بالكنيسة. ولذلك لا يمكن أن يكون الحجر هو الكنيسة نفسها، فإن الكنيسة لا تصطدم بنفسها. كذلك لا يكون المسيح هو ذلك الحجر، فإن المسيح جاء قبل زمان طويل من وجود الإمبراطورية

الرومانية الشرقية. إن من حطّم قوة هذه الإمبراطورية الرومانية هو الذي حقق هذه النبوءة. وعلى هذا تنطبق النبوءة على رسول الإسلام ﷺ وعلى أتباعه، وليس على أحد آخر.

وتقول النبوءة بعد ذلك:

"أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها" (دانيال ٢: ٣٥)

وهذا هو ما حدث تماما. لقد هزم الرسول ﷺ وصحابته الكرام قيصر وكسرى، وأصبح المسلمون هم حكام معظم العالم المعروف في ذلك الوقت، وظلت زمام الأمور في العالم في يد المسلمين لمدة ألف سنة، يملون سياسة العالم ويوجهّون دفّتها.

نبوءات العهد الجديد

نتحوّل الآن إلى النبوءات التي جاءت في العهد الجديد عن نبي الإسلام ﷺ.

(أ) ففي متّى ٢١: ٣٣-٤٦ نقرأ ما يلي:

"اسمعوا مثلا آخر، كان إنسان رب بيت غرس كرما وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجا وسلمه إلى كرّامين وسافر. ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبيده إلى الكرّامين ليأخذ أثماره. فأخذ الكرّامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا. ثم أرسل أيضا عبيدا آخرين أكثر من الأولين، ففعلوا بهم كذلك. فأخيرا أرسل إليهم ابنه قائلا يهابون ابني. وأما الكرّامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث، هلموا نقتله ونأخذ ميراثه. فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه. فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرّامين. قالوا له أولئك الأردياء يهلكهم هلاكا رديّا ويسلم الكرم إلى كرّامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها. قال لهم يسوع أما قرأتم قط في الكتب، الحجر الذي رفضه البناءون هو قد صار

رأس الزاوية، من قِبَل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا. لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يُنْزع منكم ويُعطَى لأمّة تعمل أثماره. ومن سقط على هذا الحجر يترضّض ومن سقط هو عليه يسحقه. ولما سمع رؤساء الكهنة والفرّيسيّون أمثاله، عرفوا أنه تكلم عليهم. وإذ كانوا يطلبون أن يمسكوه خافوا من الجموع لأنه كان عندهم مثل نبي".

لقد أشرنا إلى بعض أجزاء من هذه النبوءة من قبل. ففي هذا المثال الجميل قدّم لنا المسيح ملخصا تصويريا لتاريخ الأنبياء. ولا يترك السياق التمثيلي في هذا المقطع مجالا للشك في أن العالم الدنيوي هو الكرْم؛ وأن الكرّامين هم بنو البشر على وجه العموم؛ والأثمار التي يريد المالك أن يجمعها هي الفضيلة والتقوى والإخلاص لله تعالى؛ وأما العبيد فهم الأنبياء الذين كانوا يأتون إلى العالم واحدا تلو الآخر؛ والابن هو المسيح الذي جاء بعد سلسلة طويلة من الأنبياء. ولقد أهين الابن وقتله الكرّامون. وبعد أن قال السيد المسيح هذا، انتقل إلى ذكر "الحجر الذي رفضه البنّاءون، فهو نفسه الذي صار رأس الزاوية". والحجر الذي رفضه البناءون هو ذرّية إسماعيل، وقد درج أبناء إسحاق على معاملة ذرية إسماعيل باحتقار واستعلاء. وحسب ما جاء في هذه النبوءة، فإن واحدا من ذرّية إسماعيل كان من المقدّر له أن يصبح رأس الزاوية، أو ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ كما يقول عنه القرآن المجيد، فهو ليس نبيا كالأنبياء العاديين الذين عرفتهم الدنيا، وإنما كان هو الذي يحمل الشريعة الكاملة إلى العالم بأجمعه. وكان مجيء أحد أبناء إسماعيل لهذا المقام العظيم يبدو غريبا أيضا. ومع ذلك، فكما قال المسيح، لقد أخذ الله مملكته من بني إسرائيل وأعطاها إلى بني إسماعيل، الذين ثبت أنهم أمّة تعطي الثمرات الطيبة، أي أنهم أمّة تنشر عبادة الله تعالى في الأرض وتبقي عقيدة الوحدانية حية. وإنه لأمر واضح للعيان أن النبي البارز الوحيد ذي المكانة العالية، الذي جاء بعد السيد المسيح، والذي تنطبق عليه هذه الأوصاف هو رسول الإسلام ﷺ. إنه هو النبي الوحيد الذي اصطدم به كل من اليهود والمسيحيين،

وكان نتيجة عدوانهم عليه أن تبدّد نفوذ كل من الفريقين. لقد كان هو الـــذي كان من ذرية إسماعيل التي نبذها بنو إسرائيل. وفي شخصه وحده تحقق ما جاء في النبوءة: "من سقط عليه يترضّض ومن سقط هو عليه يسحقه".

(ب) وفي متّى ٢٣: ٣٨-٣٩ نقرأ ما يلي:

"هو ذا بيتكم يُترك لكم خرابا. لأني أقول لكم إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب".

ويعني هذا المقطع أن المسيح سوف يفارق قومه، ولن يستطيع قومه أن يروه مرة أخرى إلى أن يقولوا: "مبارك الآتي باسم الرب".

وهنا نجد نبوءتين عن مجيء شخصين، المجيء الأول بعد المسيح، وهذا المجيء كأنه مجيء الله تعالى. والمجيء الآخر هو مجيء المسيح الثاني. وقد أوضح الـــسيد المسيح أنه ما لم يأت "الآتي باسم الرب"، فإن المجيء الثاني للمسيح لن يتحقـــق. وقد بيّنّا فيما سبق أن ذلك الذي يأتي باسم الرب هو من يماثل موسى عليه السلام.

إن نبوءة المسيح وحقيقة مجيء الإسلام ورسوله الكريم ﷺ لا يتـــرك مجـــالا للشك في أنه في التقدير الإلهي لم يكن مجيء المسيح الأول يشكل المرحلة العظمى الأخيرة من مراحل التقدم الروحي. إن هذه المرحلة الأخيرة تتميّز بمجيء "الآتي باسم الرب". ولا يصح القول بأنه ما دام من المقدّر أن يأتي المسيح مرة أخرى، فإن مجيئه هو الذي سيشكل المرحلة الأخيرة من التقدم الروحـــي، وذلـــك لأن المسيح عليه السلام نفسه قد أوضح حقيقة الأمر، حيث قال:

"إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب" (متّى ٢٣: ٣٩)

أي أن الذين يستطيعون أن يروا صدق المسيح ويتعرّفوا عليه في مجيئه الثـــاني، هم أولئك الذين قبلوا وآمنوا بمن جاء مثيلا لموسى عليه السلام. إن من ينكر "مثيـــل موسى" لن يستطيع أن يتعرّف على المسيح عندما يأتي للمرة الثانية، لأن ذلـــك

المجيء الثاني للمسيح عليه السلام سوف يتحقق في واحد من أتباع "مثيل موسى". لذلك فلن يؤمن بالمسيح في عودته الثانية إلا أولئك الذين آمنوا أولا "بمثيل موسى". وعلى هذا فإن المسيح في المجيء الثاني لن يكون نبيا مستقلا في تعاليمه، بل إنه سيكون تابعا بكل معنى الكلمة، وصورة طبق الأصل، "لمثيل موسى". وبهذا، تتم المرحلة الأخيرة من مراحل التقدم الروحي على يد ذلك "مثيل موسى"، وليس أحد آخر.

(ج) ونقرأ في إنجيل يوحنا ١: ٢٠-٢١ أن الناس ذهبوا إلى يوحنا المعمّدان ليسألوه عما إذا كان هو المسيح الموعود بمجيئه في النبوءات، فأجاب بالنفي. وهذا ما حدث:

"وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويّين ليسألوه من أنت. فاعترف و لم يُنكر وأقر إني لست أنا المسيح. فسألوه إذًا ماذا؟ إيليّا أنت؟ فقال لست أنا، النبي أنت؟ فأجاب لا. فقالوا له من أنت لنعطي جوابا للذين أرسلونا ماذا تقول عن نفسك؟ قال أنا صوت صارخ في البريّة قوّموا طريق الرب .... فسألوه وقالوا له فما بالك تُعمّد إن كنت لست المسيح ولا إيليّا ولا النبي؟" (يوحنا ١: ١٩-٢٥)

ويتضح من هذا أن في الزمن الذي كان الناس يتوقعون ظهور المسيح، كان هناك ثلاث نبوءات شائعة بين الناس: (١) المجيء الثاني لإيليا؛ (٢) مجيء المسيح؛ (٣) مجيء "ذلك النبي"، أي النبي "مثيل موسى" الذي ذكرته نبوءة سفر التثنية ١٨:١٨. وهؤلاء الأفراد الثلاثة هم ثلاثة أشخاص يختلف كل منهم عن الآخر.

وقد أعلن المسيح بنفسه أن يوحنا المعمّدان حقق في نفسه المجيء الثاني لإيليا، إذ جاء في إنجيل يوحنا ١١: ١٤ قوله:

"وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليّا المزمع أن يأتي".

وأيضا يتبيّن من إنجيل لوقا (١: ١٧) أنه قبل مولد يوحنا، تلقى أبوه زكريا

الوحي التالي:

"ويتقدّم أمامه بروح إيليّا وقوّته"

وكذلك في إنجيل مرقس (٩: ١٣) نجد أن المسيح قد أعلن بنفسه عن يوحنا:

"لكن أقول لكم إن إيليّا أيضا قد أتى وعملوا به كل ما أرادوا"

وأيضا في إنجيل متّى يتحدث المسيح عن يوحنا في ١٧: ١٢ ويقول عنه ما يلي:

"ولكني أقول لكم إن إيليّا قد جاء و لم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا"

من كل هذه المقتطفات يتّضح جليّا حسب ما جاء في الأناجيل كلها أن المجيء الثاني لإيليّا النبي قد تحقق في شخص يوحنا. أما المسيح، فمن المتّفق عليه أنه لم يكن غير يسوع الذي ذكره العهد الجديد. وعلى هذا لم يبق غير "ذلك النبي". وهو ليس يوحنا ولا هو المسيح، لأنه يختلف عن كليهما، فهو الشخصية الثالثة المتوقع ظهورها. ومن المعروف أن "ذلك النبي" لم يكن قد ظهر بعد إلى زمن المسيح عليه السلام. وبعد المسيح لم يعلن أحد أنه "ذلك النبي" و لم يحقق أحد بالفعل الأوصاف التي جاءت في "ذلك النبي" إلا رسول الإسلام ﷺ.

(د) جاء في إنجيل لوقا ٢٤: ٤٩ ما يلي:

"وها أنا أرسل إليكم موعد أبي، فأقيموا في مدينة أورشليم إلى أن تُلبسوا قوّة من الأعالي".

ويتبيّن من هذا أيضا أن بعد المسيح سوف يكون هناك آخر، ومن يكون هذا سوى الرسول ﷺ؟ ليس من أحد سواه أعلن أنه هو ذلك الشخص.

(هـ) ونقرأ في إنجيل يوحنا ١٤: ٢٦ ما يلي:

"وأمّا المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلّمكم كل شيء ويُذكّركم بكل ما قلته لكم"

وتنطبق أيضا هذه النبوءة على رسول الإسلام ﷺ. صحيح أنه قيل: "الذي سيرسله الآب باسمي"، ولكن كلمة "باسمي" لا يمكن أن تعني سوى "أنه سوف يشهد بصدقي". وقد شهد الرسول ﷺ بصدق المسيح عليه السلام باعتباره نبيا كريما ومعلما عظيما، كما أعلن خطأ وضلال أولئك الذين قالوا بأنه كان ملعونا. كذلك تقول النبوءة بوضوح: "فهو يعلّمكم كل شيء". وتماثل هذه الكلمات نفس الكلمات التي جاءت في نبوءة سفر التثنية. وهذا الوصف يوافق فقط الرسول الأعظم، الذي كان المعزّي للعالم بحق، فإن تعاليمه هي التي جلبت الأمل والعزاء والراحة والاطمئنان إلى العالم أجمع.

(و) النبوءة الخامسة جاءت في إنجيل يوحنا ١٦: ٧-١٤ كما يلي:

"لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يبكّت العالم على خطيّة وعلى برّ وعلى دينونة. أمّا على خطيّة فلأنهم لا يؤمنون بي. وأما على برّ فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضا. وأمّا على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين.

إن لي أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجّدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم".

وتبيّن النبوءة أن المعزّي سوف يأتي بعد ذهاب المسيح. وعندما يأتي المعزّي سوف يُبكّت العالم على خطيّة، وعلى برّ، وعلى دينونة. أما الخطيّة فهي أنه يدين أولئك اليهود الذين رفضوا الإيمان بالمسيح عليه السلام. وأما البرّ، أي الصدق واتباع الحق، فلأنه سوف يصحح العقيدة الخاطئة عن موت المسيح وقيامته من الأموات، ولأنه سوف يؤكّد للعالم أن المسيح الناصري، المعلم والنبي الذي جاء إلى بني إسرائيل، لن يأتي إلى العالم مرة أخرى بشخصه. وأما الدينونة، أي العدل

والقسط، لأنه سوف يضع نهاية لجميع القوى الشيطانية. وتقول النبوءة أيضا إنه عندما يأتي روح الحق، فهو يرشد الناس إلى جميع الحق، وأن الكتاب الذي أوحي إليه لن يحتوي كلمة من كلام البشر، وأنه سوف ينبّئ العالم بأمور آتية من أمور الغيب، وأنه سوف يمجّد المسيح ابن مريم ويبرئه من جميع الاتّهامات التي تُلصق به والعيوب التي تُنسَب إليه.

إن النبوءة تنطبق تماما على الرسول ﷺ. فهي تقول بكل وضوح إنه إن لم يرحل المسيح، فإن المعزّي لن يأتي. ومن سفر أعمال الرسل ٣: ٢١-٢٢ يتبيّن أيضا أن النبي الموعود في سفر التثنية *١٨:١٨ سوف يظهر في زمن بين رحيل المسيح ومجيئه الثاني. وعلى هذا فإن المعزّي ليس سوى النبي الموعود في سفر التثنية ١٨:١٨. إن النبوءة تقول إن النبي الموعود سوف يبكت من لا يؤمنون بالمسيح، فلا يمكن أن يكون النبي الموعود مسيحيا، فإنه من الطبيعي أن يدافع الأتباع عن معتقداتهم ويبكّتوا المنكرين الذين يؤمنون بنبيّهم. فلا بد أن تتعلق النبوءة بشخص آخر ينتمي إلى قوم آخر، بلا رابطة دينية أو رابطة قومية بالمسيح، ولكن لكونه نبيا صادقا مرسلا من لدن الله تعالى، فإنه يحترم رسالات جميع الأنبياء، ويؤيد الحق الذي جاءوا به، وينشر الاحترام والتبجيل الذي يستحقونه بين كل الناس. وقد كان نبي الإسلام ﷺ من بني إسماعيل، ولم يكن مسيحيا ولا يهوديا. ولكن يا له من مدافع عن شرف ومجد المسيح عليه السلام!. إذ يقول القرآن المجيد عن اليهود:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ۞ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ۞ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ۞ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ

* والنبوءة الورادة في المرجع المذكور هي: "أقيم لهم نبيا من وسط إخْوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه، فيكلّمهم بكل ما أوصيه به". (الناشر)

الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ۞ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً﴾ (النساء: ١٥٧-١٦١)

إن التجاوزات التي ارتكبها اليهود كانت تتضمّن كفرهم بالمسيح عليه السلام، وتقوّلهم الظالم بالبهتان في حق مريم، وبافترائهم الكاذب بأنهم قتلوا المسيح رسول الله. وإن الحقيقة هي أنهم فشلوا في قتل المسيح سواء كان ذلك بالسيف أو عن طريق الصلب. لم يكن في أيديهم سوى الظن بأن المسيح قد مات على الصليب، ولكنه كان مجرّد ظن وليس إيمانا يقينيا. وقد ظلوا يختلفون بين أنفسهم ولم يتّفقوا على رأي واحد فيما يختص بما حدث للمسيح. ولما كانوا يفتقدون الحقيقة فقد راحوا يخمّنون ويتصوّرون ما كان من الممكن أن يحدث. ولكن ما كان يقينا في الأمر هو أنهم لم يقتلوه، فقد أنجاه الله تعالى من موت اللعنة على الصليب، ورفع مقامه ودرجته وقرّبه إليه، فإن الله عزيز، يفعل ما يشاء، كما أنه حكيم في عمله وكل أفعاله. أما كل فرد من أهل الكتاب فسوف يظل يؤكد على إيمانه بمقتل المسيح على الصليب، ولكن في يوم القيامة سوف يشهد المسيح بنفسه ضدّهم ويؤكد على كذب ادعائهم. وبسبب هذه التجاوزات التي ارتكبها اليهود، فقد نزع الله تعالى منهم تلك الأفضال والنعم التي كانت من نصيبهم، وكانت تبدو أنها من حقهم كما لو كانت إرثا ورثوه عن أجدادهم. ولا شك أن هذا الاقتباس القرآني يبيّن الحقائق كما هي.

والعلامة الثانية في نبوءة يوحنا (١٦: ٧-١٤) هي أن النبي الموعود سوف يصحح العقيدة الخاطئة عن قيامة المسيح من الأموات، ويثبت أنه لن يأتي مرة أخرى إلى هذه الدنيا. وقد أدّى رسول الإسلام ﷺ هذا الواجب على أكمل وجه، وكشف الغطاء عن حقيقة أن المسيح لم يمت أصلا على الصليب، وبالتالي فهو لم يقم من الأموات، ولم يصعد إلى السماء، وهو لا يعيش فيها إلى الآن. ويقول القرآن المجيد:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ

إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة:١١٧-١١٩)

إن السؤال والجواب المذكورين في هذا المقتبس القرآني سوف يحدثان في يوم القيامة. ومن الواضح أن هذا المقطع يقرر وفاة المسيح ابن مريم عليه السلام، كما ينفي حياته في السماء؛ غير أن أتباعه رفعوه إلى مقام الألوهية بعد وفاته وانتقاله من هذا العالم. إن صعوده إلى السماء لا يعني سوى أنه بعد أن أدّى مهمّته وبلّغ رسالته انتقل إلى جوار خالقه مكرّما ومعزّزا.

إن نبوءة يوحنا ١٦: ٧-١٤ تقول أيضا إن الشيطان والقوى الشيطانية سوف تنسحق بأيدي النبي الموعود. ومن بين جميع الأنبياء، يقف الرسول الأكرم ﷺ في موقف بارز متميّز من حيث اتّخاذ الوسائل اللازمة ضد القوى الشيطانية وتأثيراتها، وضبط نوازع النفس الأمّارة بالسوء، ومن أجل نشر الفضيلة والبر في حياة الإنسان. ولا نستطيع هنا أن ندخل في تفاصيل هذه الأمور، ولا أن نتحدّث بإسهاب عن تلك الموازين التي وضعها بالقسط، وسوف يجد القارئ هذه الأمور مذكورة في هذه المقدمة في مكانها المناسب حينما نقدم للقارئ نبذة عن حياة الرسول ﷺ. ولكن نكتفي هنا بذكر معيار واحد فقط يدل على صدق ما نذكره عنه، وهو الدعاء إلى الله تعالى طلبا للنجاة من تأثير الشيطان، وهو ذلك الدعاء الذي علمه الرسول ﷺ لأتباعه، والذي ينبغي تكراره في المناسبات المختلفة، وهو "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". وقد اعتاد المسلمون استخدام هذا الدعاء، ولا نعلم أي دعاء مماثل في تعاليم الأنبياء الآخرين. وقد فاق المسلمون الأمم الأخرى في يقظتهم وصراعهم اليومي مع وساوس الشيطان، وقد

تلقوا من نبيهم هذا التوجيه بشكل لم تتلقه أمّة أخرى. ولذلك فهم الذين يستحقون أكثر من أية أمّة أخرى أن ينالوا الوعد المذكور في النبوءة. ولا شك أن نبيّهم قد حقق هذه النبوءة، فإن قتل الشيطان لا يعني قتله على الفور بحيث لا يبقى له أثر في الدنيا، فإن هذا لم يحدث قط، ولن يحدث أبدا. إن التأثيرات الشيطانية وإغراءاتها لا بد أن يستمر وجودها، فبدونها لا تكون هناك أية قيمة للإيمان. وعلى ذلك فإن المقصود من قتل الشيطان هو تخفيف الآثار الفاسدة لقوى الشر، والتقليل من نفوذها على الإنسان، وحصرها في أقل قدر ممكن، ونشر التأثيرات الطيبة، والعمل على زيادة دوافعها بأكبر قدر ممكن، فتشيع في الدنيا مخافة الله تعالى، وينتشر العدل والبر. ولا تستطيع الكنيسة أن تدّعي لها نصيبا في هذا الجزء من النبوءة، لأن الكنيسة قد أعلنت أن الشريعة لعنة، وألقت بذلك بذور الشك في مفهوم الخير والشر. وقد بيّنّا فيما سبق توافق العبارة التي جاءت في نبوءة إنجيل يوحنا: "وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق" مع النبوءة التي جاءت في سفر التثنية ١٨:١٨.

كذلك فقد جاء في النبوءة الوعد: "ويخبركم بأمور آتية". ويكفي القول بأن أحدا لم يخبر الدنيا بأمور آتية كما فعل رسول الإسلام ﷺ.

ثم تأتي العبارة التي تصف ذلك النبي الموعود فتقول: "لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلّم به". ولا شك أن هذا الوصف لا ينطبق إلا على رسول الإسلام ﷺ، فإن العهد الجديد والعهد القديم لا يحتوي أحدهما على سفر من الأسفار يخلو من كلام البشر الذي اختلط بكلام الله تعالى. أما القرآن المجيد فهو لا يحتوي إلا كلمة الله الطاهرة النقيّة من بدايته إلى نهايته. ولم تختلط به كلمة واحدة من كلمات الرسول نفسه، ناهيك عن كلام غيره من البشر.

والعلامة الأخيرة في النبوءة هي عبارة: "ذاك يمجّدني"، وهي أيضا تنطبق على الرسول ﷺ. فهو الذي برّأ المسيح عليه السلام من تهمة أنه كان ملعونا والعياذ بالله، بموته على الصليب؛ كما برّأه أيضا من تهمة ادّعاء الألوهية؛ أو أنه كان كذّابا

مفتريا على الله كما يصمه بذلك اليهود؛ بالإضافة إلى التهم الأخرى التي ألصقوها به.

(ز) جاء في سفر أعمال الرسل (٣: ٢١-٢٤) ما يلي:

"الذي ينبغي أن السماء تقبله إلى أزمنة ردّ كل شيء التي تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القدّيسين منذ الدهر. فإن موسى قال للآباء إن نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم، له تسمعون في كل ما يكلّمكم به. ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي تُباد من الشعب. وجميع الأنبياء أيضا من صموئيل فما بعده، جميع الذين تكلّموا سبقوا وأنبأوا بهذه الأيام".

يشير هذا المقطع إلى النبوءة المذكورة في سفر التثنية ١٨:١٨ وتؤكد على أن النبي الموعود في سفر التثنية يجب أن يأتي قبل أن يتحقق المجيء الثاني للمسيح عليه السلام، كما تؤكد نبوءة التثنية على أن النبي الموعود سوف يأتي بشريعة من عند الله تعالى. والإشارة إلى نبوءة التثنية في سفر أعمال الرسل تبيّن لنا بكل وضوح أن تعاليم المسيح سوف تنتهي فعاليتها وتحل محلها تعاليم ذلك النبي الموعود به. فإن الشريعة الجديدة لا تعني إلا هذا. وعلى هذا فإن النبي الموعود به في سفر التثنية (وفي هذا المقطع من سفر أعمال الرسل) سوف يكون هو بشير المرحلة الأخيرة من التقدم الروحي للإنسان. فإن شريعته هي التي تحل محل شريعة موسى التي اتبعها المسيح، وهو الذي سوف يمنح العالم تعاليم جديدة وشريعة جديدة.

إن المقطع السابق من سفر أعمال الرسل يقول:

"وجميع الأنبياء أيضا من صموئيل فما بعده جميع الذين تكلموا سبقوا وأنبأوا بهذه الأيام". (٣: ٢٤).

لقد ذكرنا نبوءة موسى عليه السلام، وقد جاء المسيح عليه السلام بعد النبي صموئيل، وهذه الفقرة من سفر أعمال الرسل تعني أنه في الفترة بين موسى إلى المسيح، قد سبق وأنبأ كل نبيّ عن مجيء ذلك النبي، وهذا يعني أنه إلى أن يأتي ذلك النبي،

فلن تكتمل الأسس الروحية التي يمكن أن يقيم الإنسان بناءه عليها. ولما كان ذلك النبي، حسب العلامات التي ذكرها الكتاب المقدس، ليس سوى رسول الإسلام ﷺ، فينبغي أن نعترف بأن الرسول ﷺ هو النبي الموعود الذي تنبأ به جميع الأنبياء، وأن شريعته هي الشريعة التي تكلم عنها جميع الرسل. فمن ذا الذي يقول بعد هذا إنه لم يكن هناك من داع لوجود القرآن في وجود العهد الجديد والعهد القديم؟ إن جميع الأنبياء الأوائل قد ألمحوا إلى الحاجة إلى القرآن المجيد وتنبئوا عنه. وليس هناك من سبب أو من حجة يتذرّع بها أتباع أولئك الأنبياء كي لا يتّبعوا القرآن المجيد. وكل ما يمكن أن نقوله هو إنهم إذا أنكروا الحاجة إلى القرآن المجيد، فإنهم يلقون بستائر الشك على صدق أنبيائهم، ومدى صدق نبوءاتهم التي تحدثوا بها. ألم يقل موسى عليه السلام:

"فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب، بل بطغيان تكلم به النبي، فلا تخف منه." (التثنية ١٨: ٢٢)

نبذة عن حياة الرسول العظيم ﷺ

أجبنا فيما سبق عن الأسئلة المتعلقة بقضية الحاجة إلى تنْزيل القرآن في ظل وجود كتب سماوية أخرى. ونود الآن أن نعطي القارئ لمحة عن حياة الرسول الأعظم ﷺ، فهناك صلة حميمة بين الوحي وبين الإنسان الذي يتلقَّاه، ومن الصعب أن نفهم أحدهما دون فهم الآخر.

إن الفيلسوف يستطيع أن يفصل بين الشخص وبين ما يقوله ذلك الشخص، ويمكن له أن يُقيّم كل منهما بصرف النظر عن الآخر. وهناك مثل عربي يعتبر أن كلام الشخص هو المهم، أكثر من الشخص نفسه، وهناك وجهة نظر ترى أنّ كلاً منهما مُهم كالآخر. وحين ندرس كتابًا منـــزَّلاً من عند الله تعالى، فإن من الأهمية بمكان أن نأخذ في الاعتبار دائمًا شخصية هذا الرجل الذي تلقى ذلك الكتاب من الله تعالى، وكيف كانت حياة ذلك الرجل الذي اختاره الله ليبلغ رسالته إلى قومه. فالتعاليم الدينية، مهما بلغت قوة حججها، لا تصل إلى قلوب الناس إلاَّ إذا تأثرت هذه القلوب بشخصية قوية آسرة جذابة، وذلك لأن قوانين الشريعة الدينية تهدف إلى غاية تختلف عن غاية القوانين العلمانية الدنيوية. فالدولة تعتني بفرض النظام والاستقرار، ولا تريد سوى أن يطيع الناس القانون ظاهريًا؛ ولذا يكفيها أن تضع القوانين التي تضمن سلوك الناس السويّ من الناحية الشكلية، أما الدوافع الداخلية في النفس فلا تعنيها، طالما لا يوجد خرق واضح للقانون تراه العين. ولذلك فإن المحاكم لا تعاقب أحدًا على الدوافع الآثمة في نفسه، ما لم تتمثل في سلوك مرئي مخالف للقانون. ولكن للدين وجهة نظر مختلفة، فالدوافع مهمّة كالأفعال المبنيّة عليها، بل إنها أكثر أهمية. صحيح أن الأفعال أيضًا مهمّة، فهي التعبير الظاهر عن الدوافع الكامنة في النفس والتي لا تراها العين، ولكن إصلاح الأفعال الظاهرة لا يضمن إصلاح الدوافع الكامنة، بينما إصلاح الدوافع الكامنة هو الضمان لصلاح الأفعال الظاهرة. وكما أنه من

المحال أن يوجد اللهب ولا توجد الحرارة، كذلك من المحال أن يوجد نقاء القلب ولا يوجد نقاء السلوك. نعم، قد يكون القلب نقيًّا وتحدث بعض الزلات العارضة، ولكن من حيث العموم، فإن نقاء القلب يؤدّي حتمًا إلى نقاء السلوك.

والآن، في حالة النبوة، فإن نقاء القلب وطهارة السريرة قد ظهرت في مثال واقعي وملموس. إن القانون الرائع قد يروق للعقل ويجذب الانتباه، ولكن المثال التطبيقي الرائع حقًّا يجذبنا من الأعماق، ويتعلق به الوجدان وتنعطف إليه القلوب؛ القانون الرائع يحث على التفكير، ولكن المثال العملي الرائع هو الذي يحث على الفعل والتقدم. عندما يتهذب الفكر فقد يحدث تهذيب مقابل في آداب السلوك ورقيّ في مدارج الروح، وقد لا يحدث.. قد يؤدّي تهذيب الفكر إلى نوبة من السلوك الصالح، ولكنها غير ثابتة ولا مستقرة الجذور. هذه المسألة يمكن توضيحها بالفرق بين الإيثار العادي والإيثار النابع من الغريزة الطبيعية، كما هو الحال في غريزة الأمومة. فالإيثار العادي يقوم على العقل أساسًا، ولكن الإيثار الآخر ينبع غالبًا من العاطفة الغريزية المغروسة في النفس. إن السلوك النابع من العقل وحده لا يمكن أن يغلب السلوك النابع من قوة الفطرة الداخلية الجارفة، ولا ينافس الطبيعة الشخصية التي تتشكل وتنمو وترسخ بالتربية.

إن حب الأُمّ ورعايتها لوليدها ينبعان من الفطرة، أو من طبيعتها الشخصية التي تنمو وتترسخ من عواطفها الغريزية. وأما حين يرعى الفيلسوف أو الشخص الملحد جاره، فإنه يفعل ذلك بناء على الإيثار القائم على العقل. والسلوك الذي يقوم على العقل وحده ليس ثابتًا ولا مستديمًا، لأن التفكير العقلاني وحده قد يخطئ، خاصة إذا لم تكن جميع الحقائق المتعلقة بالموضوع موجودة ومتاحة أمام العقل قبل أن يصدر قراره بالفعل. وقد يطول زمن التردد والتروّي، فالتردد والتروّي هما من العناصر الأساسية لكل السلوكيات المبنيّة على العقل وحده. ولكن السلوك النابع من العاطفة الفطرية، أو من الميول المكتسبة من العواطف الفطرية فهو سلوك تلقائي، راسخ ومستديم. وقد تبدو الأم مضحية بأكثر مما

يجب، ولكن الاحتكام إلى العقل لن يثنيها عن الطريق الذي جُبلت عليه وصار من طبيعتها. وعندما يكون طفلها في خطر، فإنها لن تقبع هناك لتتروّى وتفكر عقلانيًا فيما ينبغي اتخاذه، ولكنها في التو واللحظة ستأخذ موقفًا عمليًا لتنفيذ ما تراه صالحًا للطفل، وكل تفكيرها سيكون موجهًا ومكرّسًا نحو هذه الغاية. من أجل ذلك، فإن دعوات الإصلاح الأخلاقي لن تنجح إلا إذا تعلم الناس أن يتصرّفوا بطبيعتهم وحسب عواطفهم المتأصلة في نفوسهم، حتى إذا دعا الداعي للعمل، لا تتأخر الاستجابة بحجة التروّي الذي لا معنى له، وإنما تصدر الاستجابة تلقائيًا من أعماق كل شخص، دون الحاجة إلى فرضها عليه من الخارج عن طريق مناشدة العقل أو استثارة الفكر.

صحيح أن العواطف والميول النفسية والخصال الشخصية تحتل عادة مكانة ثانوية بالنسبة للعقل. هذه حقيقة، لأننا نفكر فقط في العواطف الضالة أو الميول التي لم تُهذَّب. ولكن السلوكيات التي يصبح الضمير هو مصدرها الوحيد، والخصال القوية الصالحة، تقلل من فترة التردد والتروّي بين الدعوة إلى الفعل والقيام بالفعل نفسه، وقد تلغيها تمامًا، ولا بد من إلغاء هذه الفترة إذا كان الأمر يتطلب العمل السريع والمتعدد. والإنسان الذي يصرف وقتًا طويلاً في التروّي، أو يُكثر من التروّي قبل كل عمل، يُضيّع الوقت الذي كان ينبغي أن يُصرف في أداء العمل. ولكن الشخص الذي يستوعب الحقيقة، ثم يحوّل هذه الحقيقة إلى خُلق ثابت أو عواطف ومشاعر داخلية، لا يتردد على الإطلاق إذا ما دعا داعي العمل. والعمل الذي يؤديه شخص كهذا يتفوّق عشرين مرة على عمل الشخص الذي يُكثر من التروّي قبل كل عمل. وتلقائيته هذه، أو ما يبدو أنه اندفاع في أداء العمل لا يقلّل أبدًا من قيمة ما يعمل، لأنه في الحقيقة لا يتصرّف باندفاع آلي، بل هو يتروّى ويتفكر، ويتدبر الوسائل والغايات، ويكتسب البصيرة التي تمكنه من حسن أداء العمل. ثم يلتحم هذا التفكر والتدبر بدوافعه الداخلية، وتصطبغ عواطفه ومشاعره ببصيرته التي اكتسبها، فيندفع إلى العمل

تلقائيًا وكأنه لم يُعِرْه التفكير اللازم، مع أن أعماله تقوم على أساس عقلاني، وهي نتيجة للتروي العميق. غير أنه عندما يتضح له الأمر بعد التروّي، فلا يرى ضرورة لإعادة التروّي مرارًا وتكرارًا، فالتروّي المفرط أو المعاد والمتكرر ليس من العقل في شيء. ولذلك، فإن أية خطة تبتغي الإصلاح على نطاق عالمي واسع، أو تهدف إلى إعادة بناء العالم على أساس سليم، لا بد أن تنتظر، ليس بسبب غياب الوضوح الفكري ولا الاقتناع العقلي، بل لأنها لا بد أن ترتبط بمشاعر الإنسان وتتفق مع دوافعه ومقاصده. إن الوضوح الفكري مهما عظم، لن يحررنا من الشك وعدم اليقين، وهناك طريقة واحدة لطرد الشكوك، وهي استيعاب الحقيقة ثم الاتصاف والتطبع بها وممارستها. وعندما يتم ذلك، لن تكون الحقائق شيئًا يُخشى منه أو يُستهان به، بل تصير إشارات وأدلة هادية للعمل والإنجاز. وبالنسبة للشخص العادي، لا يمكن استيعاب الحقيقة والتطبع بها لتكون جزءًا من طبيعة الإنسان التي تميز جميع خصاله في سلوكه اليومي إلا بتأثير القدوة العملية الصالحة. إن الحجج والبراهين قد تساعد على الفهم، ولكنها لا تطبع الإنسان على التضحية وإنكار الذات، وإنما ما يستطيع ذلك فعلاً هو دافعٌ يُستمد من المثال الحي للتضحية بالنفس وإنكار الذات. إن الكلمات التي تعودناها في الصلاة قد تكون آسرة ومقنعة، ولكن لا شيء يبعث فينا الشوق إلى حالة الذوبان التي نحتاجها في الصلاة أكثر من مرأى عابد حقيقي يذوب في صلاته.

غير أنه يجب ألا يُسيء أحد فهم ما نقول، إن المثال أو القدوة يمكن أن يكون مضلِّلاً وخطرًا، لذلك يجب أن يتعرّض المثال للفحص، ويوضع القدوة تحت الاختبار قبل أن يُسمح له بالتأثير فينا. وما لم يتم فحص القدوة والتأكد من تحقيقه للغرض الكامل، فلن يُؤدّي تمثّله وتقليده في الحياة سوى إلى وجود أشخاص تسيّرهم العادات ومجتمع توجّهه التقاليد. وما نحتاجه إذن هو الأمران معًا؛ تعاليم تخاطب العقل، وقدوة عملية طاهرة من كل شائبة. والحمد لله،

فالكتب المنـــزّلة من لدنه ﷻ قد أوحيت إلى الأنبياء، و لم تسقط على الناس من السماء. إن الكتب السماوية تجذب منا الفهم وتُنبّه الفكر، وأسوة الأنبياء تجذب القلب وتؤثر في الوجدان. ولا عجب إذن أن كان الأنبياء أعمق أثرًا في الناس من الفلاسفة، ولقد نجحوا حيث فشل الفلاسفة، إذ يلتمس الفلاسفة أن ينيروا فكرنا، لا أن يغيرونا بقدوتهم الحسنة. ولكن الأنبياء فعلوا الأمرين: فهم يستثيرون منا الفكر من خلال كتبهم المقدسة، ويعملون على تطهير القلوب من خلال قدوتهم الحسنة؛ إن تعاليمهم المدوّنة تشحذ الأفهام، بينما العلامات الصادقة على الوجود الإلهي، والمشهودة في تَقْوَى أشخاصهم، ترقَى بنا إلى الإيمان واليقين والتوَهّج.

وعلى ذلك، نشعر أنه مما ينبغي علينا حقًّا في هذه المقدمة العامة أن نقدم شرحًا مختصرًا لحياة وأخلاق نبي الإسلام العظيم ﷺ.

حياة الرسول ﷺ كتاب مفتوح

إن حياة مؤسس الإسلام العظيم ﷺ مثل الكتاب المفتوح، الذي يمكنك أن تجد فيه تفاصيل تثير الاهتمام وتخلب اللب، كلما بحثت في أي جزء منه، وتعمّقت في دراسته. و لم يحدث أن تم تسجيل وقائع حياة نبي أو حياة معلم آخر تسجيلاً جيدًا ومتاحًا للدارسين، مثل حياة الرسول الأعظم ﷺ. وصحيح أن هذه الغزارة في الحقائق والمرويات المدوّنة، قد أعطت النقاد الماكرين فرصتهم المنتظرة، ولكن من الصحيح أيضًا أنه حين تتم دراسة الانتقادات بعناية، ويتم الرد الحاسم عليها، فإن ما تثيره فينا حياة الرسول ﷺ من الإيمان والحب الغامر والتقوَى، لا يماثلها فيه حياة أي شخص آخر. إن الحياة الغامضة التي لا يعرف الناس شيئًا عن تفاصيلها قد تسلم من النقد، ولكنها لا تفلح في بث الإقناع وزرع الثقة في قلوب المتبعين لأصحابها. إذ تظل صعوبات الغموض، وظلمات الحيرة، وخيبة الأمل، قابعة في القلوب. ولكن الحياة الغنية بالتفاصيل المدوّنة، مثل

حياة الرسول ﷺ، تثير فينا التأمل العميق ومن ثم تثبّت الاقتناع. وعندما يتم تصفية الحسابات الخاطئة للانتقادات والمفاهيم الزائفة، بكشف الحقائق وتسليط الأضواء عليها، فمن المحتم أن تجذب حياة الرسول ﷺ منَّا كل حب وإعجاب وتقدير، وتثير فينا كل إعزاز وإكبار وتوقير، بشكل كامل ودائم وإلى الأبد.

وعلى ذلك، فمن الجليّ البيّن أنه من الصعب تقديم ملخص كامل متوازن لحياة كحياة الرسول ﷺ، التي كانت واضحة كالكتاب المفتوح، وشديدة الثراء بما تحتويه من وقائع ومواقف وأحداث. والممكن هنا فقط هو أن نحاول إعطاء مجرّد لمحة، ولكن حتى هذه اللمحة لها وزن وثقل.

إننا نرى أن الجاذبية التي تخلقها دراسة كتاب دين من الأديان هي جاذبية محدودة، ما لم تصحب هذه الدراسة معرفة واضحة عن المعلم الذي حمل هذا الكتاب. وتلك هي النقطة التي غابت عن أديان عديدة. فالديانة الهندوسية مثلاً تقدس كتاب "الفيدا"، ولكن العُبّاد من رجال (الريشي) الذين تلقوا كتاب "الفيدا" من الله، لا يوجد خبر عنهم على الإطلاق. ولا يبدو أن أنصار الهندوسية وشُرّاحها قد أدركوا مدى الحاجة إلى أن تُستكمل الرسالة ببيان عن الرسول الذي حملها.

وكذلك، لا يتورّع علماء اليهود والمسيحية عن انتقاد أنبيائهم واتّهامهم علانية بما يُشينهم. وينسون أن الوحي الذي يفشل في تقويم الشخص الذي تلقّاه، لا يفيد الآخرين كثيرًا. وإذا كان الشخص الذي يتلقى الوحي يخالف ما يطلبه الله منه، فلماذا اختاره الله؟ وهل كان على الله أن يفعل ذلك؟ إن كلا من الفرضين يبدو غير معقول. وفكرة أن الوحي الإلهي قد عجز عن إصلاح الأنبياء الذين نزل عليهم، تعني أن الله تعالى لم يكن لديه بديل سوى أن يختار رسلاً غير مؤهلين ليحملوا وحيه، وهذا كله غير معقول. لقد وَجَدَت مثل هذه الأفكار طريقها إلى مختلف الأديان، ربما بسبب طول المدة التي انقضت منذ تأسيسها، أو بسبب أن الفكر الإنساني، حتى شروق شمس الإسلام، لم يكن قادرًا على إدراك

وجه الخطأ في هذه الأفكار. وكم كان من الضرورة بمكان، بل ومن أعظم الفوائد، أن يتم حفظ القرآن المجيد وحفظ وقائع حياة المعلم الأول له معًا، في وقت مبكر من الإسلام. لقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها إحدى أزواج الرسول ﷺ، وكان عُمرها قد بلغ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة حين تم زفافها إلى الرسول ﷺ، وعاشت زوجًا له حوالي ثماني سنوات، وعندما انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان عمرها حوالي اثنين وعشرين عامًا. كانت فتاة أمّية، ومع ذلك فقد أدركت أن التعليم لا يمكن أن ينفصل عن المعلم. وحين سُئلت مرة عن خُلق الرسول ﷺ، أجابت على الفور: "كان خُلقه القرآن" (مسند أحمد). لقد كان كل ما يعمله ﷺ يتفق تمامًا مع تعليم القرآن المجيد، ولم تكن تعاليم ذلك الكتاب العزيز تختلف في شيء عما كان يعمله ﷺ. ولا شك أنه مما يضيف إلى الرصيد المجيد للرسول ﷺ أن امرأة شابّة أمّية من أتباعه استطاعت أن تفهم وتستوعب الحقيقة التي غابت عن علماء الديانات الهندوسية واليهودية والمسيحية.

لقد عبّرت السيدة عائشة – رضي الله عنها – عن حقيقة هامة وعظيمة، في جملة صغيرة بارعة قاطعة؛ إنه لمن المستحيل على المعلم الصادق الأمين أن يعلِّم الناس شيئًا ثم يفعل غيره. وقد كان الرسول ﷺ معلمًا حقيقيًا، صادقًا وأمينًا، وهذا هو ما أرادت السيدة عائشة أن تقوله بجلاء. لقد كان يمارس ما يعظ به، وكان يعظ بما كان يمارسه؛ وإذا عرفته فقد عرفت القرآن المجيد، وإذا عرفت القرآن المجيد فيمكنك أن تتعرّف عليه.

حالة جزيرة العرب عند مولد رسول الله ﷺ

وُلد الرسول ﷺ في مكة في شهر أغسطس/ آب سنة ٥٧٠ ميلادية. وسُمي محمدًا، ومعناه الشخص الذي هو محمود الصفات. ولكي نفهم حياته وأخلاقه، فلا بد من معرفة الظروف التي كانت سائدة في بلاد العرب وقت مولده.

عندما ولد الرسول ﷺ، كانت الجزيرة العربية كلها، مع بعض الاستثناءات هنا وهناك، تعتقد بتعدد الآلهة. ويرفع معظم العرب نسبهم إلى إبراهيم عليه السلام، ويعلمون أنه كان نبيًّا يُعلّم التوحيد، وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة، وكانوا مشركين يمارسون عبادة الأصنام. وفي معرض تبرير هذه الممارسات قالوا إن بعض الناس من البشر يتميّزون بخصائص مدهشة في صلتهم بالله تعالى، ولذلك يستطيعون أن يشفعوا لدى الله تعالى نيابة عن الآخرين، وتلقى شفاعتهم هذه قبولاً لديه. ثم إن الله متعال مجيد، ومن الصعب على الإنسان العادي أن يصل إليه، وإنما يستطيع ذلك الإنسان الكامل وحده. ولذلك، فالإنسان العادي يحتاج إلى وسيط من أولئك الأبرار ليتوسط له لكي يقبله الله فينال مرضاته وعونه. وبهذه الأفكار استطاعوا أن يجمعوا بين إيمانهم واحترامهم لإبراهيم عليه السلام، وهو الذي كان موحِّدًا، وبين عقائد تعدد الآلهة لديهم. فإبراهيم عليه السلام كما يقولون، كان رجلاً ربانيًا من الأبرار، وكانت له إمكانية الوصول إلى الله تعالى بدون شفاعة وبغير وساطة. وأما أهل مكة العاديّون فليس لديهم القدرة للوصول إلى الله بغير وساطة من أشخاص آخرين صالحين وربانيين. ولطلب هذه الشفاعة، صنع أهل مكة أصنامًا لكثير من أسلافهم الصالحين، وهؤلاء هم الذين عبدوهم، وقدّموا إليهم القرابين في سبيل إرضاء الله من خلالهم.

كان هذا مسلكًا بدائيًا وغير منطقي، وكان يشوبه الكثير من العيوب والثغرات، ولكن ذلك لم يقلق أهل مكة في شيء، فلم يكن لديهم نبي مُوَحّد لزمان طويل. وإذا ضرب مرض تعدد الآلهة بجذوره في مجتمع، فإنها تمتد فيهم بغير حدود، إذ يبدأ عدد الآلهة في ازدياد، ثم يستمر في التزايد. وقد رُوي أنه عندما وُلد الرسول ﷺ، كانت الكعبة وحدها، المسجد الحرام، والبيت العتيق الذي بناه إبراهيم وابنه إسماعيل لعبادة الله تعالى، تحتوي ثلاثمئة وستين صنمًا. ويبدو أنهم قد جعلوا صنمًا لكل يوم من أيام السنة. وفي الأماكن الأخرى، وفي

المراكز الكبرى غير مكة، كانت هناك أصنام أخرى. ولذلك، يمكننا القول إن كل أنحاء الجزيرة العربية كانت غارقة في العقائد الوثنية.

كان العرب مخلصين للثقافة الشفاهية، وكانوا يهتمون اهتمامًا شديدا بلغتهم المنطوقة، حريصين على رفع شأنها. غير أن طموحاتهم الفكرية كانت محدودة، ولم يكن لهم علم ولا دراية بالتاريخ ولا الجغرافيا ولا الرياضيات وغيرها. ولما كانوا من سكان الصحراء، كانوا يضطرون إلى التعرّف على طريقهم في تلك الصحارى دون الاعتماد على علامات أرضية مستقرّة، ولذلك نما لديهم اهتمام شديد بالفلك. وفي كل الجزيرة العربية لم تكن هناك مدرسة واحدة، وقد قيل إن حفنة قليلة فقط من أهل مكة كانوا يعرفون القراءة والكتابة.

ومن الناحية الأخلاقية، كان العرب شعبًا متناقضًا. فقد كانوا يعانون من بعض العيوب الأخلاقية الفظيعة، ولكنهم في نفس الوقت كانوا يتّصفون ببعض الصفات الرائعة. فقد اعتادوا الإفراط في شرب الخمر إلى حد الثمالة، ومن الفضائل عندهم، وليس من الرّذائل، أن يسكر الإنسان ويتصرف بجموح تحت تأثير الخمر. وكان الرجل الشهم الكريم في اعتبارهم، هو من يستضيف أصدقاءه وجيرانه إلى حفل للسُكْر، وعلى الشخص الغني أن يقيم حفل لشرب الخمر خمس مرات على الأقل كل يوم. أما القمار، فكان رياضتهم القومية، ولكنهم حوّلوه إلى فن دقيق. لم يقامروا ليكونوا أغنياء، بل كان على الفائزين أن يستضيفوا أصدقاءهم. وفي زمن الحروب، كانت تُجمع الأموال من خلال المقامرات. وحتى اليوم، نرى مؤسسات اليانصيب تجمع المال لأجل الحرب، وقد انتعشت هذه المؤسسات في عصرنا على يد شعوب أوروبا وأمريكا؛ ولكن عليهم أن يتذكروا أنهم في هذا إنما يقلدون العرب قبل الإسلام فقط. وعندما تقع الحرب، كانت القبائل تجتمع وتقيم حفلات المقامرة، وأيًّا كان الفائز فعليه أن يتحمل القسط الأكبر من تكاليف القتال.

لم يكن العرب يعرفون شيئا عن وسائل الترفية المتحضرة، وإنما كانوا يجدون

تعويضًا في الخمر والميسر. وكانت التجارة هي مهنتهم الأساسية، فكانوا يرسلون قوافلهم إلى جهات بعيدة للتجارة؛ فتاجروا مع الحبشة والشام وفلسطين، وكانت لهم علاقات تجارية حتى مع الهند. وكان الأغنياء منهم يُعجَبون بالسيوف الهندية إعجابًا كبيرًا، وأما ملابسهم فكانت تأتي أساسًا من اليمن والشام.

كانت المدن هي مراكز التبادل التجاري. أما بقية بلاد العرب، عدا اليمن والأجزاء الشمالية، فكانت بادية ليس بها استقرار دائم، ولا أماكن ثابتة للسُكنى. وقد اقتسمت القبائل المختلفة هذا الوطن فيما بينها، بحيث يستطيع أعضاء القبيلة أن يتجَوّلوا ما شاء لهم التجوال في المنطقة التي تخصهم من البادية. وعندما يشحّ الماء في مكان ما، كانوا يرتحلون إلى مكان آخر غيره ليستقروا فيه. رأس مالهم الغنم والماعز والإبل، ومن الصوف والوبر صنعوا الملابس، ومن جلود الأنعام صنعوا الخيام، وما زاد عن حاجتهم باعوه في الأسواق. كانوا يعرفون الذهب والفضة، ولكن مقتنياتهم منها كانت نادرة. والفقراء والعامة من الناس صنعوا الحلي من الوَدع والمواد ذات الرائحة العطرة، كما ثقبوا بذور البطيخ وجففوها بعد تنظيفها، ونظموها معًا ليجعلوها عقودًا وقلائد.

كانت الجرائم والانحرافات الخلقية من أنواع مختلفة متفشية على نطاق واسع. السرقة كانت نادرة، ولكن السطو والغزو كان شائعًا. فالهجوم على الآخرين وسلبهم كان يعتبر حقا مكتسبا. ولكنهم في نفس الوقت احترموا كلمتهم أكثر من أي شعب آخر، وحين يلجأ إنسان إلى زعيم قوي أو قبيلة طالبًا الحماية، فإن ذلك القائد أو تلكم القبيلة كانت مُلزَمة بحمايته بموجب تقاليد الشرف، وإلا فقدت القبيلة سمعتها في جميع بلاد العرب. وقد تمتع الشعراء بمكانة خاصة بين العرب، فكانوا يلقون الشرف والمجد والإعزاز كالزعماء الوطنيين. وكان يُنتظر من الزعماء أن يكونوا بلغاء في الحديث، أو أن يملكوا القدرة على نظم الشعر. وكان كرم الضيافة تقليدًا ذا شأن لديهم حتى صار فضيلة عظيمة، وعندما يصل

المسافر الغريب إلى رئيس القبيلة، كان يُعامل معاملة الضيف الشريف؛ فتُعد له أفضل الذبائح، وتُقدم له كل آيات الاحترام. لم يكونوا يهتمون بشخصية الزائر، إذ يكفي أن زائرًا قد وصل إليهم؛ فالزيارة تعني شرفًا للقبيلة ورفعة في المكانة، ومن ثم ينبغي على القبيلة أن تحتفي بالزائر وتكرمه، فإكرامه يعتبر إكرامًا لأنفسهم.

ولم يكن للمرأة في هذا المجتمع العربي مكانة عالية، ولا حقوق مرعية. وكان يُعد وأد البنات عملاً شريفًا لدى بعض العرب. غير أنه من الخطأ الظن أن عادة كهذه كانت واسعة الانتشار في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، لأن تقليدًا كهذا لا يمكن أن يتسع نطاق ممارسته في أي بلد، وإلا أدّى هذا إلى انقراض أهل ذلك البلد. والحقيقة أنه في الجزيرة العربية، كما هو الحال في الهند، وفي كل بلد آخر يمارس قتل الأطفال، كان هذا الفعل محصورًا في أسر قليلة. وكانت هذه الأسر تبالغ في تصوّرها عن تدنّي وضعها الاجتماعي، أو أنها كانت تعاني من بعض الظروف الصعبة، أو ربما كانوا لا يستطيعون العثور على أزواج يناسبون بناتهم. وتحت تأثير هذه الأفكار دفعوا أطفالهم للموت. إن قبح هذا التقليد يكمن في قسوته وبدائيته، وليس في نتيجته المؤثرة على تعداد السكان. وقد استُخدمت طرق كثيرة في قتل البنات الوليدات؛ منها خنقهن ودفنهن أحياءً.

كان المجتمع العربي لا يعتبر الأُمَّ سوى الأمّ الحقيقية الوالدة، أما زوج الأب فلم تُعتبر في منـــزلة الأم، ولم يكن هناك مانع يمنع الولد أن يتزوج زوجة أبيه عندما يموت أبوه. أما تعدّد الزوجات فكان شائعًا على نطاق واسع، ولم يكن هناك حدّ لعدد الزوجات المسموح بهن للرجل. وكان يمكن للرجل أن يجمع بين الأخوات في نفس الوقت.

وأسوأ أنواع المعاملة كانت تتوقع من الطرفين المتحاربين. وعندما تشتد البغضاء لم يترددوا في تمزيق أجساد الجرحى، بل واستخراج أجزاء منها وأكلها بطريقة أَكَلة لحوم البشر، بالإضافة إلى تشويه جثث الأعداء، وكان من أشكال

القسوة لديهم شيوع قطع الأنوف والآذان واقتلاع الأعين.

كان الرق منتشرًا، وكان أفراد القبائل الضعيفة يُؤخذون عبيدًا. ولم يكن للعبد وضع اجتماعي يحفظ كرامته كإنسان، إذ كان السيد يفعل مع عبده ما يشاء، ولم يكن هناك من إجراء يمكن اتخاذه ضد السيد الذي يسيء معاملة عبيده، بل إن السيد يمكنه قتل عبده دون أن يتعرّض للمساءلة. وإذا قام سيد بقتل عبد مملوك لسيد آخر فإنه حتى في هذه الحالة لا يتعرّض لعقوبة القتل، وكل ما كان عليه هو أن يعوّض السيد مالك العبد المقتول بشكل مادّي مناسب. أمّا الإماء فكن يستخدمن في إشباع الشهوات الجنسية، وكان الأطفال المولودون من هذه العلاقة يعتبرون عبيدًا، وكذلك الأم الأمَة كانت تظل أمَة.

أما باعتبار التحضر والتقدم الاجتماعي فقد كان العرب شعبا متخلفا. إذ لم يكن للتعاطف ومراعاة مشاعر الآخرين وجود، وكان للنساء أسوأ اعتبار ممكن. ورغم ذلك، فقد كان العرب لا يزالون يحتفظون ببعض الفضائل؛ فالشجاعة الفردية على سبيل المثال، بلغت أحيانًا مستويات بالغة السمو والرفعة.

ولقد ولد رسول الإسلام ﷺ بين هؤلاء الناس. مات أبوه عبد الله قبل أن يولد، فتولى جده عبد المطلب رعايته هو وأمه. وتولت إرضاعه امرأة كانت تعيش في مكان بالقرب من مدينة الطائف، وكانت هذه عادة عربية في ذلك الوقت؛ أن يسلموا الأطفال للمرضعات في البادية حيث الخلاء، وحيث يكون من واجبهن تربية الطفل وتعليمه الكلام الفصيح. وهناك يكتسب الطفل جسمًا سليمًا صحيحًا في بداية حياته.

وعند ما بلغ الرسول ﷺ السادسة من عمره، صحبته أمه في رحلة إلى المدينة، وماتت أثناء عودتها حيث دفنت في الطريق، وقامت الخادمة باصطحاب الطفل إلى مكة، وأسلمته إلى جده. ولما بلغ الرسول ﷺ الثامنة توفي جده كذلك، حيث تولى عمه أبو طالب كفالته من بعده حسب وصية الجد.

ولقد أتيحت للنبي ﷺ فرصتان أو ثلاث للسفر خارج الجزيرة العربية، الأولى

عندما كان في الثانية عشرة، إذ صحب عمّه أبا طالب إلى الشام، ويبدو أن الرحلة وصلت به فقط إلى المدن الواقعة جنوب شرقي الشام، لأن المصادر التاريخية لهذه الرحلة لم تذكر أماكن مثل "بيت المقدس". وقد ظل في مكة منذ ذلك الوقت إلى مشارف الرجولة.

ومنذ طفولته الباكرة كان يخلد إلى التأمل العميق والتفكير الطويل. ولم يكن ينحاز إلى أحد في المنافسات والصراعات التي تحدث بين الآخرين، إلا أن يتدخل لفضّها. ويُرْوَى أن قبائل مكة وما حولها، بعد أن ملّوا الصراعات الدموية التي لا تنتهي، قرّروا أن يعقدوا حِلفًا يهدف إلى مساعدة ضحايا العدوان والمعاملة الظالمة، وعندما سمع به الرسول ﷺ انضم إليه بكل سرور. وقد تعهد أطراف هذا الحلف* بأنهم سوف يساعدون أولئك الذين تعرضوا لظلم، وسوف يردّون إليهم حقوقهم، طالما بقيت قطرة من ماء في البحار، وإن لم يفعلوا ذلك فإنهم سوف يُعوّضون المظلوم من مالهم الخاص. (راجع الروض الأُنُف للإمام السُهيلي).

ولا يبدو أن أحدًا من الأعضاء الآخرين في هذا الحلف قد طُلب منه أن يفي بما التزم به في هذا الميثاق الجليل، ولكن جاءت الفرصة بعد أن أعلن الرسول ﷺ عن رسالته ونبوّته. كان أبو جهل هو عدوّه اللدود، كما كان أيضا أحد الزعماء الكبار في مكة، وكان يدعو إلى مقاطعة الرسول ﷺ واضطهاده. وفي ذلك الوقت جاء رجل من البدو إلى مكة، وكان له دَيْن مالي على أبي جهل، ولكن أبا جهل رفض أن يؤدي للرجل ما عليه من حق، فاشتكى الرجل لبعض أهل مكة. وانتهز بعض الشباب الفرصة لخلق الأذى للرسول ﷺ ووضعه في موقف صعب، فنصحوا الرجل أن يذهب إلى محمد (ﷺ) ليشكو له، ظانّين أنه سيرفض مساعدته خوفًا من المعارضة الشاملة التي قوبلت بها دعوته بوجه عام، وخوفًا من معارضة أبي جهل بوجه خاص. فإذا رفض الرسول ﷺ مساعدة

* أي "حِلف الفضول". (الناشر)

الرجل، فسوف يُقال إنه نقض عهده الذي قطعه على نفسه في حلف الفضول، وإذا لم يرفض وذهب بالفعل إلى أبي جهل لمطالبته بسداد ديْن الرجل، فمن المحتّم أن يطرده أبو جهل باحتقار وازدراء. وقد ذهب الرجل إلى الرسول ﷺ فعلاً وشكا له أبا جهل، فلم يتردد الرسول ﷺ لحظة واحدة، بل نهض في التوّ وذهب مع الرجل إلى أبي جهل ودق عليه الباب، فخرج أبو جهل ورأى دائنه يقف بجانب الرسول ﷺ. وذكر الرسول ﷺ موضوع القرض وأمره بسداده. وكأن أبا جهل قد أُخذ على غرّة، فإذا به يقوم بسداد القرض على الفور دون أن يحاول التذرّع بأية حجة لعدم السداد. وعندما سمع زعماء مكة الآخرون بذلك، راحوا يوبّخون أبا جهل ويؤنّبونه على ضعفه البالغ وتناقضه الذي أوقع نفسه فيه، إذ أنه يحضّ الجميع على مقاطعة محمد ﷺ، بينما يقوم هو بطاعة أمره ويسدّد القرض الذي عليه. فقال أبو جهل دفاعًا عن نفسه: إن أي شخص آخر كان سيفعل نفس ما فعله هو، وأخبرهم أنه لما رأى محمدا واقفًا على بابه، رأى جملين متوحشين يتأهبان لمهاجمته ويقفان عن يمين محمد وعن شماله.

ونحن لا يمكننا أن نقول شيئًا عن كُنه هذه التجربة. هل كان تجليًا لكشف إعجازي قصد الله به إلقاء الرعب في قلب أبي جهل، أو أنه كان خوفًا أصابه به جلال محضر الرسول ﷺ فأثار لديه هذه الهلوسة؟ فها هو رجل تكرهه البلدة كلها وتضطهده، ومع ذلك تدفعه الشجاعة أن يذهب هكذا وحده إلى زعيم هذه البلدة، ويأمره بسداد ديْنه. ولعل هذا المشهد غير المتوقع هو الذي أخاف أبا جهل وأذهله للحظات، فنسي قسَمه الذي أخذه على نفسه أن يفعل كل ما هو ضد أمر محمد ﷺ، وجعله الآن يفعل ما أمره به (انظر ابن هشام).

زواج رسول الله ﷺ من السيدة خديجة

عندما بلغ الرسول ﷺ الخامسة والعشرين من عمره، كانت سُمعته قد شاعت في مدينة مكة كلها بالأمانة والصدق والعطف على الناس وكمال

أخلاقه. كان الناس يشيرون إليه بأصابع التعجب قائلين: ها هو الرجل الذي يمكن أن نأمنه وأن نثق به. وبلغت هذه السمعة آذان أرملة غنية، فتقدمت إلى عمه أبي طالب ليأذن له بقيادة قافلة تجارية لها إلى الشام. وذكر أبو طالب ذلك للرسول ﷺ فوافق، ولقيَت هذه الرحلة نجاحًا كبيرًا، وحقّقت ربحًا فاق جميع التوقعات. وشعرت السيدة خديجة أن هذا النجاح لم ينشأ عن ظروف السوق في الشام، بل رأت أيضًا أنه جاء بسبب حُسن تصرّف وأمانة وكفاءة قائد القافلة. وسألت مملوكها "ميْسرة" عن ذلك، فأيّد لها ميْسرة وجهة نظرها، وأخبرها أن أسلوب محمد العطوف والأمين في إدارة العمل شيء لم ير له مثيلاً من أيّ شخص آخر. وكان لحديث ميْسرة تأثير شديد عليها. كانت السيدة خديجة في الأربعين من عمرها، وقد ترمّلت مرتين حتى ذلك الوقت. فأرسلت امرأة من صديقاتها إلى محمد ﷺ لاستطلاع ما إذا كان من الممكن إقناعه بالزواج منها. فقامت هذه المرأة بزيارة الرسول ﷺ وسألته عن سبب عزوفه عن الزواج، فأجابها بأنه لا يملك مالاً يكفيه ليتزوج. فسألته المرأة عما إذا كان يقبل الزواج لو أنه وجد امرأة غنية شريفة. فسأل محمد ﷺ عمّن تكون تلك المرأة، فقالت إنها خديجة. وهنا اعتذر الرسول ﷺ قائلاً إنها أعلى من أن تقبل الزواج منه. فقالت المرأة إنها سوف تتكفل بتذليل كل الصعوبات، وحينئذ أبدى الرسول ﷺ موافقته على الزواج. فأرسلت خديجة بالأمر إلى عمه، وتم عقد الزواج بينهما.

وهكذا فُتح باب عجيب للازدهار ليدخل منه رجل فقير كان يتيمًا في طفولته، ولقد صار الآن غنيًا، ولكن الأسلوب الذي اتخذه إزاء هذا الغِنى صار مثلاً يُحتذى لكل الإنسانية. فبعد الزواج، شعرت السيدة خديجة أنه ليس مما يعزز سعادتها أن يظل هو فقيرًا بينما هي غنية. لذلك عرضت نقل ملكية الثروة التي تملكها إليه، وكذلك مماليكها من العبيد. ولما تأكّد الرسول ﷺ أنها جادة في قرارها، أعلن أنه حالما تصير إليه ملكية أحد من عبيد خديجة فإنه سوف يطلق سراحه حُرًّا، ولقد فعل. بل هناك ما هو أكثر، لقد وزّع الجزء الأكبر من الثروة

التي آلت إليه بين الفقراء. وكان من بين العبيد الذين حرّرهم واحد اسمه زيد، كانت تبدو عليه ملامح الذكاء الحاد والتيقظ أكثر من الآخرين. لقد كان ينتمي إلى أسرة محترمة، اختُطف منها طفلاً وبيع كعبد مرارًا حتى بلغ مكة. وقد أدرك هذا الشاب لفوْره، بعد أن نال حريته أخيرًا، أن من الأفضل له أن يُضحّي بهذه الحرية في سبيل أن ينال العبودية عند محمد ﷺ. وعندما أعتق الرسول ﷺ عبيده، رفض زيد الحرية، وسأله مُلِحًّا أن يستبقيه ليظل إلى جواره. ولقد استجاب الرسول ﷺ لرغبة زيد، ومع مرور الوقت ازداد تعلقه بالرسول ﷺ. في ذلك الوقت كان والد زيد وعمه قد اقتفيا أثر الابن المخطوف، وسمعوا أنه في مكة. وهناك تتبعا أثره حتى بيت الرسول ﷺ، فأتوا إليه وطلبوا منه أن يعتق زيدًا، وعرضوا عليه أن يدفعوا له الفدية التي يطلبها. فقال الرسول ﷺ إن زيدًا حر، ويمكنه أن يذهب معهم متى شاء. واستدعى زيدًا وقدّمه لأبيه وعمه، وبعد لقاء الأحضان والعناق والبكاء ثم تجفيف الدموع، أخبره أبوه أن سيده الكريم قد وهبه حريته، وأن عليه أن يستعد للعودة معه، فقد تألمت أمه كثيرًا بسبب فراقه. فأجاب زيد: من ذا الذي لا يحب والديه يا أبتاه؟ إن قلبي مليء بحبك أنت وأمي، ولكنني أحب هذا الرجل حبًّا لا أتصور معه الحياة في أي مكان بدونه. لقد لقيتك وإني سعيد بهذا اللقاء، ولكني لا أطيق مفارقة محمد. وقد بذل الوالد والعم جهدهما لإقناع زيد بالذهاب معهما، ولكن زيدًا رفض. وإزاء ذلك قال الرسول ﷺ إن زيدًا كان رجلاً حُرًّا قبل هذه اللحظة، ولكنه منذ ذلك اليوم فإنه يُعتبر ابنه، يرث كل منهما الآخر. وأمام هذه الرابطة العاطفية الجياشة بين زيد والرسول ﷺ، غادر والد زيد وعمه المكان عائدين، وبقي زيد مع الرجل الذي سيُبعث نبيًّا ﷺ.

رسول الله ﷺ يستقبل أول بشائر الوحي

عندما اجتاز الرسول ﷺ الثلاثين من عمره، أخذ حُب الله ﷻ وحُب التعبّد

له يشتد ويزداد مع الوقت. ولما كانت نفسه تأنف الفساد الشائع في مكة، وتنفر من الآثام وسوء أعمال الناس، اختار بقعة تبعد ميلين أو ثلاثة✪ يخلو فيها مع نفسه للفكر والتأمل. وكان ذلك في كهف على قمة جبل، وكانت السيدة خديجة تُعدّ له ما يكفيه من زاد للأيام العديدة، فيأخذه ويصعد إلى الغار في جبل حِراء، حيث كان يعبد الله نهارًا وليلاً.

وعندما بلغ الأربعين من عمره الشريف، رأى في ذلك الكهف العتيد ظهورًا لشخص يأمره أن يقرأ، فأجاب الرسول ﷺ أنه لا يعرف كيف يقرأ، فأصر هذا الشخص أن يقرأ، ثم جعله يقرأ الآيات التالية:

﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ منْ عَلَق ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذي عَلَّمَ بالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:٢-٦)

هذه الآيات هي أول ما أُوحي إلى الرسول ﷺ، وقد صارت جزءًا من القرآن المجيد، شأنها شأن الآيات الأخرى التي أوحيت إليه فيما بعد. وكانت تحمل معاني عظيمة وعديدة. لقد أهابت بالرسول ﷺ أن ينهض وأن يكون على أهبة الاستعداد لأن يُعلن على العالم اسم الله الأحد، الخالق الأوحد، الذي خلق الرسول وكل كائن آخر، الذي فطر الإنسان وغرس في طبيعته محبة الله تعالى، كما جعل في فطرته أيضًا حب أبناء جنسه. لقد أُمر الرسول أن يبلغ رسالة هذا الإله الأحد، وتلقّى وعدًا بالعون والحماية من الله تعالى عند تبليغ هذه الرسالة. وتنبأت الآيات بمجيء عصر يتعلم فيه العالم كله جميع أنواع المعارف بمساعدة القلم، وسوف يطّلع الإنسان على علوم لم يسمع بها أحد من قبل.

وتُشكّل هذه الآيات خلاصة شاملة للقرآن المجيد. وكل ما تَعلمه الرسول ﷺ من الوحي اللاحق فهو كامن كالجنين في هذه الآيات. لقد تم فيها وضع أساس عظيم للتقدم والرقي الروحي لم يكن معروفًا حتى ذلك اليوم. إن شرح ومعاني هذه الآيات سوف يأتي ذكرها في مكانه من هذا التفسير. ونحن نشير إليها هنا

✪ المسافة الحقيقية هي حوالي سبعة أميال. (الناشر)

لأنّ تنْزيلها على الرسول ﷺ شكّل حدثًا عظيمًا طرأ على حياته، فحينما نزلت عليه الآيات امتلأ قلبه بالخوف من هذه المسؤولية التي ألقاها الله على عاتقه. إن أيّ شخص آخر في مكانه كان سيشعر بالفخر، ويملؤه الإحساس بأنه صار عظيمًا. ولكن الرسول ﷺ كان أمره مختلفًا، إذ كان يفعل أشياء عظيمة دون أن يفتخر بإنجازه. وبعد هذه التجربة العظمى التي مر بها في الغار، وصل الرسول ﷺ منْزله عائدًا وهو شاحب الوجه، يرتجف بقوة. ولما سألته السيدة خديجة عمّا ألَمّ به، قصّ عليها كل ما حدث، ثم أفصح لها عن مخاوفه لأنه كان يعتبر نفسه ضعيفًا، وتساءل كيف يحمل هذه المسؤولية التي حمّله الله إياها، وأنه لذلك كان يخشى على نفسه. فأجابت السيدة خديجة لتوّها:

"كَلاَّ وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا. إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ" (البخاري: كتاب بدأ الوحي).

وصحبته إلى ابن عمها ورَقة بن نوفل، وكان نصرانيًا. فلما سمع الخبر صاح قائلاً: "هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى" (البخاري، كتاب بدأ الوحي). ومن الواضح أن ورَقة كان يشير بكلمته هذه إلى نبوءة سفر التثنية (١٨:١٨).

المؤمنـون الأوائـل

عندما بلغت الأنباء زيدًا بن حارثة، مولى الرسول ﷺ الذي حرّره وتبناه، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره، أعلن زيد إيمانه به، كما آمن به أيضًا ابن عمه عليّ ابن أبي طالب، الذي كان في الحادية عشرة من عمره. أما أبو بكر.. صديق طفولته، فقد كان خارج مكة، ولما عاد سمع بما كان من أمر الرسول ﷺ، وقيل له إن صديقه قد أصابه الجنون، فراح يدّعي أن الملائكة تأتيه برسائل من عند الله.

كان أبو بكر يثق بالرسول ﷺ كل الثقة، ولم يشكّ لحظة واحدة في صدقه،

فقد عرفه عاقلاً صادقًا. فذهب يدقّ بابه، ولما أُذن له بالدخول على صديقه سأله عما حدث. وبدأ الرسول ﷺ في شرح مطوّل، لخشيته أن يسيء أبو بكر الفهم، فأوقفه أبو بكر قائلاً إن كل ما يريد أن يعرفه ما إذا كان حقًّا قد نزل إليه مَلَك من عند الله يحمل له رسالة. وأراد الرسول ﷺ أن يشرح الأمر ثانية، لكن أبا بكر قال إنه لا يريد أن يسمع شرحًا، لكنه يبتغي فقط إجابة على سؤاله عن الرسالة التي يحملها من الله. فأجاب الرسول ﷺ: ''نعم''. عند ذلك أعلن أبو بكر لفوره أنه يؤمن به. ثم قال بعد أن شهد بصدق الرسول ﷺ إن مناقشة الأمر كانت ستقلل من قيمة إيمانه، فقد كانت معرفته بالرسول ﷺ طويلة وحميمة، فما كان ليشك في صدقه، ولذلك لم يكن في حاجة إلى أيّ دليل آخر يقنعه بصدق هذا الصديق الصدوق.

هذه المجموعة الصغيرة من المؤمنين الأوائل هي التي بدأ بها تاريخ الإسلام: امرأة بلغت من العمر مبلغًا، وصبي في الحادية عشرة من عمره، وعبد محرر يعيش غريبًا عن وطنه، وصديق شاب، بالإضافة إلى الرسول ﷺ. هذا هو الفريق الذي عقد العزم في هدوء أن يبدّد الظلام وينشر النور الإلهي في العالم كله. ولما سمع بذلك أهل مكة وقادتهم ضحكوا، وقالوا إن هؤلاء قد أصابهم الجنون. لم يكن هناك ما يدعو للخوف أو القلق، ولكن مع مرور الوقت، بدأ فجر الحقيقة يُشرق. وبدأ الوحي يتنَزّل على الرسول ﷺ، كما سبق أن روي عن إشعياء النبيّ منذ زمان طويل:

> "فكان لهم قول الرب أمرا على أمر، أمرا على أمر، فرضا على فرض، فرضا على فرض، هنا قليلا هناك قليلا، لكي يذهبوا ويسقطوا إلى الوراء وينكسروا ويُصادوا فيؤخذوا" (إشعياء ٢٨: ١٣)

اضطهاد المؤمنين

بدأ الله تعالى يكلّم سيدنا محمدًا ﷺ "بلسان آخر" أي بكلام مختلف عما

يعرفون، وبدأ شباب البلدة يعجبون. وأخذ أولئك الذين يعنيهم البحث عن الحقيقة يولون الانتباه لما يجري وما يُقال. ونتيجة الاحتقار والسخرية بدأ الإعجاب والتأييد يتزايدان، وبدأ العبيد المطحونون، والنساء اللاتي لا حقوق لهن، والناشئون من الفتية والشباب يلتفون حول الرسول ﷺ، فقد كان في رسالته وتعاليمه أمل للحزانى والمكلومين. واستبشرت النساء أن الوقت قد حان لاستعادة حقوقهن، وراود العبيد الأمل أن زمن الحرية قد أتى، ورأى الشباب أن طرق التقدم والازدهار سوف تنفتح لهم. وعندما أخذت السخرية تتحوّل إلى تأييد، وتنقلب اللامبالاة إلى اهتمام، بدأ قادة مكة وأعيانها يغشاهم الخوف، فاجتمعوا وتشاوروا، وقرروا أن السخرية ليست هي الطريق الأمثل لمواجهة هذا التهديد الجديد، وأن الأمر يتطلب حلاً أكثر حزمًا وجدّية، فلا بد من قمع هذا النفوذ الجديد بالقوة. وتقرر أن الطريق الذي ينبغي انتهاجه هو الكثير من الاضطهاد وبعض المقاطعة. وعلى الفور بدأوا في اتخاذ خطوات عملية لتنفيذ ما اتفقوا عليه، وهكذا دخلت مكة في صراع جِدّيٍّ ضد الإسلام. ولم يعد أحد بعد ذلك ينظر إلى الرسول ﷺ وأتباعه القليلين كحفنة من المجانين، بل صار يُنظر إليهم على أنهم أصحاب نفوذ جديد يتنامى ويتصاعد، وإذا تُرك ينمو دون إخماد فسوف يتحوّل إلى خطر كاسح، يهدّد دين مكة وهيبتها وعاداتها وتقاليدها.

لقد شكّل الإسلام تهديدا للبنيان القديم للمجتمع المكي، فتراءَى لهم أنه يعيد خَلْقَ سماء جديدة وأرض جديدة، مما يعني اختفاء سماء الجزيرة العربية القديمة وفؤادها وضميرها، وخلق نظام جديد. ولم يعد أهل مكة يسخرون من الإسلام، فلقد كان هذا هو التحدّي الذي يعني الموت أو الحياة بالنسبة لهم. كان الإسلام يشكّل تحديًا، وقد قبل أهل مكة التحدّي كما قبل كل أعداء الأنبياء تحدّي أنبيائهم. وقد قرروا أنهم لن يقابلوا الحجة بالحجة، بل يسلوا السيوف ويقمعوا الدين الجديد بالقوة الغاشمة. إنهم لن يضارعوا المثل العليا التي يقدمها الرسول ﷺ وأتباعه بمُثُلٍ أعلى منها، ولن يجيبوا على كلمات المودّة والسلام بمثلها أو بأحسن

منها، بل بإساءة معاملة الأبرياء وظلمهم، وبإيذاء أولئك الذين يخاطبونهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويدعونهم بالتي هي أحسن. وهكذا، بدأ الصراع مرة أخرى في هذا العالم بين الإيمان والكفر، وأعلنت قوى الشيطان الحرب على الملائكة.

كان المؤمنون لا يزالون حفنة، ولا قوة لهم على مقاومة هذه الحملة الشرسة من العنف والإرهاب. ولقد بدأت حملة وحشية عليهم، كانت النساء تُسفك دماؤهن بلا حياء، ويُذبح الرجال بلا رحمة. أما العبيد الذين أعلنوا إسلامهم، فقد سُحِلوا على الرمال الحارقة والصخور الملتهبة، وغطت جلودهم طبقة ميّتة من البشرة حتى صارت مثل جلود الحيوان. وبعد انقضاء وقت طويل، عندما انتشر الإسلام في البقاع القريبة والبعيدة، كان واحد من المؤمنين الأوائل، وهو خبّاب بن الأرَتّ، يكشف عن أجزاء من جسده فيرى أصدقاؤه جلده متصلّبًا كجلد الحيوان، فلما يسألونه عن السبب كان يجيب ضاحكًا: "لا شيء، إنها ذكرى لتلك الأيام الأولى عندما كان العبيد المؤمنون يُسحلون في طرقات مكة على الرمال والحجارة الحارّة." (المسند جزء ٥ صفحة ١١٠)

لقد جاء العبيد الذي آمنوا بالإسلام من كل المجتمعات. فكان بلال ﷺ حبشيًا، وكان صُهيْب ﷺ روميًا. وكانوا ينتمون من قبل لعدة أديان، فكان صُهيْب نصرانيًا، وبلال وعمّار كانا وثنيين. وكان بلال يوضع على الرمال الحارقة، وتُوضع على بدنه صخور ثقيلة، ويرقص الصبيان على صدره، ثم يأتي سيده أميّة بن خلف ليعذبه بالسوْط، ويأمره أن يتبرأ من الله ورسوله محمد، ويشيد بحمد آلهة مكة: اللات والعُزّى. غير أن بلال لا يزيد عن قوله: "أَحدٌ، أَحد". ولما يفيض بأميّة الغضب، يسلمه إلى صبيان الشوارع طالبًا منهم أن يضعوا حبلاً حول عنقه ويجرّوه على أديم طرقات البلدة، وعلى الصخور الساخنة المدبّبة. ويتدفّق الدم من جسد بلال، ولكنه يظل يتمتم: "أَحدٌ، أَحدٌ". وفيما بعد، عندما استقر المسلمون في المدينة المنوّرة، واستطاعوا العيش وعبادة الله في أمان نسبي، عيّن الرسول ﷺ بلالاً مؤذّنًا يدعو المؤمنين للصلاة، ولأنه إفريقي يصعب عليه النطق بحرف الشين في

"أشهد"، فقد كان بعض مؤمني المدينة يضحكون على هذا العيب في نطقه، ولكن الرسول ﷺ أنّبهم وأخبرهم عن مكانة بلال عند الله تعالى لقوة إيمانه التي أظهرها لأهل مكة وهو تحت نير تعذيبهم. ولقد قام أبو بكر ﷺ بدفع ثمن عتق بلال، وحرّره مع الكثير من العبيد الآخرين فحقق لهم النجاة، ومنهم صُهيْب التاجر الناجح، الذي استمر أهل مكة يؤذونه ويسخرون منه حتى بعد عتقه. وعندما هاجر الرسول ﷺ من مكة ليستقر في مدينته المنوّرة، أراد صهيب أن يلحقه، فمنعه أهل مكة قائلين إنه لا يمكنه مغادرة مكة حاملاً معه ما حصل عليه من ثروتها، فسألهم: لو تخلى لهم عنها جميعًا هل يدَعونه يمضي؟ فقبِل أهل مكة هذا العرض. وعلى هذا، بلغ صهيْب المدينة خالي الوفاض، ولقي الرسولَ ﷺ الذي استمع إلى قصته، فهنّأه وقال: هذه أربحُ صفقة قمتَ بها في حياتك .

إن أغلبية هؤلاء العبيد الذين اعتنقوا الإسلام ظلوا ثابتين على إيمانهم ظاهرًا وباطنًا، ولكن القلة منهم كانت ضعيفة. ولما اشتدّت الفتنة والتعذيب، رأى الرسول ﷺ عمّارًا يئنّ من الألم ويمسح دمعه. ولما اقترب منه الرسول ﷺ أخبره عمّار بأنه قد ضُرب ضربًا مبرحًا، وأُكره على أن يرجع عن الإسلام، فسأله الرسول ﷺ كيف يجد قلبه، فقال إنه مطمئن بالإيمان، فطمأنه الرسول ﷺ أن الله تعالى سوف يغفر له ضعفه.

وأما ياسر، والدُ عمّار، وأمُّه سميّة، فقد عذّبهما أيضا الكافرون. وفي إحدى المناسبات، حدث أن مرّ عليهم رسول الله ﷺ وهم يُعذَّبون، فقال لهم وقلبه يعتصره الحزن والألم من أجلهم: "صبرًا آل ياسر إن موعدكم الجنة". وقد تحققت الكلمات النبويّة لفورها، فقد سقط ياسر شهيدًا بسبب شدّة التعذيب، وقام أبو جهل بقتل زوجته سمية بحربة.

وكذلك زنيرة، وهي أمَة مؤمنة، فقدت عينيها بسبب التعذيب الذي نالته على أيدي المشركين.

وأبو فُكيْهة؛ كان مملوكًا لصفوان بن أميّة، فكان يضعه على الرمال الحارقة،

ويضع على صدره الصخور الساخنة الثقيلة، وتحت وطأة الألم الشديد كان لسانه يتدلى خارج فمه.

وعانى العبيد الآخرون أشكالاً وأنواعًا أخرى من سوء المعاملة، والتعذيب الشديد.

هذه الوحشية، وهذه القسوة الفظيعة، كانت فوق كل تحمّل، لكن المؤمنين الأوائل تحمّلوها لأن قلوبهم اكتسبت قوة وثباتًا من اليقين الذي كان الله يتولاهم به كل يوم. كان القرآن ينْزل على الرسول ﷺ، ولكن الصوت الإلهي الذي يأتي باليقين كان يتنَزّل على كل المؤمنين. وبدون ذلك، لم يكن المسلمون بقادرين أبدًا على تحمّل ذلك التعذيب الوحشي الذي تعرضوا له. فقد هجرهم الرفاق، وتخلى عنهم الأصدقاء، وقاطعهم الأقارب، ولم يبق معهم إلا الله ﷻ، ولم يعد يهمهم أن يكون معهم أحدٌ سواه. ومن أجله ﷻ بدا كل تعذيب وتنكيل كأنه تكريم وتبجيل، وصار الأذى والتحقير كأنه ثناء وتوقير، وأصبحت الحجارة الحارقة كأنها نسمة الندى أو لمس الحرير.

أما المؤمنون من المواطنين الأحرار، فلم يكن نصيبهم من الوحشية أقلّ من العبيد؛ فقد تولى كبراؤهم من أهليهم وزعماؤهم تعذيبهم بأساليب شتى. كان عثمان بن عفان ﷺ غنيًا في الأربعين من عمره، وعندما أجمعت قريش أمرها على اضطهاد كل من يُسْلِم، قام عمه الحَكَم بشدّ وثاقه وضربه. والزبير بن العوام ﷺ؛ ذلك الغلام الشجاع الذي صار فيما بعد مسلمًا عظيمًا وقائدًا مقدامًا، كان عمه يلفه في حصير، ويسلط عليه الدخان من تحته، ويتركه يعاني من الاختناق وآلامه، ولكنه لم يتنكر قط لإيمانه، لقد وجد الحقيقة ولن يتخلى عنها مستسلمًا أبدًا.

أبو ذر الغفاري ﷺ، سمع بالرسول ﷺ وذهب إلى مكة ليتحرّى الأمر. فحاول أهل مكة صرْفه عن ذلك قائلين إنهم يعرفون محمدا حق المعرفة، وإن حركته تهدف لأغراض شخصية. غير أن ذلك لم يؤثر في أبي ذر، وذهب إلى الرسول الكريم ﷺ واستمع منه مباشرة إلى الرسالة، ودخل في الإسلام. وتساءل أبو ذر عما إذا كان

يمكنه أن يسر إيمانه، فرخّص له الرسول ﷺ في ذلك إلى حين. ولكن حدث عندما كان يمرّ في طرقات مكة أن سمع جماعة من رؤساء مكة يسبّون الرسول ﷺ ويغتابونه بخسّة، فلم يطق أن يظل على كتمان إيمانه، وأعلن صائحًا في الحال: "أشهد ألاَّ إله إلا الله لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله". هذه الصيحة في جمع من الكافرين بدت لهم نوعًا من الوقاحة، فقاموا في غضب يضربونه حتى سقط مغشيًّا عليه. ومرّ عليهم العباس عمّ الرسول ﷺ الذي لم يكن قد دخل الإسلام بعد، فدفعهم عن الضحية قائلاً: إن قوافل طعامكم تمرّ على قبيلة أبي ذرّ، وإذا ما غضبوا بسبب تعذيبه فإنهم يستطيعون تجويعكم حتى الموت. في اليوم التالي ظل أبو ذرّ في البيت، ولكنه في اليوم الذي يليه ذهب إلى نفس المكان، فوجدهم يقولون على الرسول ﷺ نفس القول المؤذي. فذهب إلى ساحة الكعبة، فوجد الناس يفعلون هناك نفس الشيء، فلم يملك نفسه وقام يعلن شهادة الإسلام في صوت جهْوَري. ومرة أخرى تعدّوا عليه وآذوه أشد الإيذاء. وتكرر نفس الأمر في مناسبة ثالثة، وبعدها غادر أبو ذرّ عائدًا إلى قبيلته.

والرسول الكريم ﷺ نفسه لم يُستثن من المعاملة الوحشية التي تلقاها المؤمنون. وفي إحدى المناسبات بينما كان يصلي، وضع جماعة من الكفار وشاحًا حول عنقه وشدّوه عليه حتى جحظت عيناه. ثم حدث أن جاء أبو بكر ﷺ فأبعدهم عنه باكيًا وقال: "أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله"؟! وفي مرة أخرى كان الرسول ﷺ ساجدًا في صلاته، فجاءوا بأمعاء بعير وألقوها على ظهره، فلم يستطع النهوض حتى جاءت ابنته فاطمة وأزالت هذه الأثقال عنه. وفي حادثه ثالثة كان يمر بالطريق، فتبعته جماعة من الصبيان أخذوا يصفعون رقبته صائحين بالناس أنه يدّعي النبوة. هكذا كان الرسول ﷺ يلقَى العداوة والكراهية من هؤلاء الناس، وكان يبدو في أيديهم بلا حول ولا قوة. كان الناس يرجمون بيت الرسول ﷺ بالحجارة من أسطح المنازل المجاورة، وكانوا يلقون على مطبخه الرّوَث والقاذورات ونفايات الحيوانات المذبوحة. وكثيرًا ما كانوا يحثون عليه التراب أثناء أدائه الصلاة، ولذلك

كان يلجأ إلى مكان آمن إذا أراد الصلاة مع الجماعة.

هذه الوحشية التي كانت تُقترف ضد مجموعة ضعيفة بريئة من الناس، وضد قائدها الأمين الذي لا حول له، لم تذهب هباء ولا ضاعت بغير فائدة. فقد رأى الكرام من الناس كل ما يجري وتأثروا به، فشعروا بشيء ما يجذبهم نحو الإسلام. حدث مرة في صباح أحد الأيام أن كان الرسول ﷺ يستند بظهره إلى الصّفا، وهو مرتفع صغير بجوار الكعبة، فمر عليه أبو جهل عدوّه اللدود، وأمطره بوابل من السباب الأثيم، ولم يقل الرسول ﷺ شيئًا ومضى إلى بيته. وكانت إحدى الإماء التي تعمل في البيت ترى ذلك المشهد المؤسف. وكان حمزة ﷺ، عم الرسول ﷺ، رجلاً مقدامًا يهابه جميع أهل البلدة، وحدث أنه عاد ذلك اليوم من رحلة صيد، ودخل البيت معتزًّا بنفسه، يحمل قوسه على كتفه. فلما رأته الجارية التي لم تنس مشهد الصباح، قالت له بشيء من السخرية، إنه يظن نفسه شجاعًا، ويتجوّل فخورًا بسلاحه، ولكنه لا يدري ما صنع أبو جهل بابن أخيه البريء في الصباح. واستمع حمزة إلى ما حدث، ومع أنه لم يكن مؤمنًا إلا أنه كان يتمتّع بنبل الخُلُق. ولعله كان قد تأثر برسالة الرسول ﷺ، ولكن ليس إلى الحد الذي يجعله يجهر باعتناقها. غير أنه لما استمع إلى ما قام به أبو جهل من عدوان على الرسول ﷺ لم يقو على الانتظار، وتلاشى تردده حول الدين الجديد، وبدأ يشعر أنه قد انتظر طويلاً بلا داع، فتوجّه لفوره إلى الكعبة حيث كان زعماء مكة يجتمعون ويتآمرون كعادتهم، وتناول قوسه وشجَّ به رأس أبي جهل قائلاً: اعلم أني من أتباع محمد من اليوم. أشتمتَه في الصباح لأنه لا يرد عليك؟ تعال، وبارِزْني إن كنت تملك شيئًا من الشجاعة. فصُعق أبو جهل لهول الموقف، فخفّ إليه أصدقاؤه ليعينوه ولكنه أوقفهم خوفًا من حمزة وقبيلته، وكان يرى أن قتالاً مفتوحًا بلا حدود سوف يكلف الكثير من الأرواح الغالية، واعترف أنه كان في الحقيقة هو الملوم عما حدث في الصباح (ابن هشام والطبري).

استمرت المعارضة تتصاعد، وفي نفس الوقت ظل الرسول ﷺ وأتباعه يبذلون كل جهد لإيضاح رسالة الإسلام لأهل مكة. كانت رسالة ثريّة الجوانب، وذات محتوى بالغ السمو، ليس فقط للعرب وحدهم بل للعالم بأجمعه. كانت رسالة من الله ﷻ، وكانت تقول:

إن الله خالق العالم هو واحد، ولا أحد غيره يستحق العبادة. وقد آمن به الأنبياء دائمًا وأبدًا إلها واحدًا، وعلّموا أتباعهم نفس الشيء. وينبغي على أهل مكة أن يتخلوا عن كل الأصنام والأوثان، ألا يرون أن الأصنام عاجزة عن طرد الذباب التي تحطّ على القرابين الموضوعة عند أقدامها؟ وإذا اعتدى عليها أحد فإنها لا تردّ عن نفسها العدوان، وعندما يُوجّه إليها سؤال فلا تجيب عليه، وإذا طُلب منها العوْن فلا تُقدّمه. ولكن الله الواحد الأحد يعين كل من يطلب عَونه، ويجيب كل من يدعوه في الصلاة. إنه سبحانه أخضع كل أعدائه، وأعزّ كل من تذلل أمامه. وعندما ينْزل نور من لدنه، فإنه يضيء عباده المخلصين. لماذا إذن غفل عنه أهل مكة وولّوا وجوههم إلى أوثان وتماثيل ميّتة وأضاعوا عندها حياتهم؟ ألا يرون أن غفلتهم عن الله تعالى وافتقادهم الإيمان بالله الحق الأحد قد جعلهم يؤمنون بالخرافات ويتخلفون في كل مجال؟ إنهم يجهلون ما هو طاهر وما هو نجس، وما هو صحيح وما هو خطأ، فلم يكرموا أمهاتهم، وعاملوا أخواتهم وبناتهم ببشاعة، وأنكروا عليهن حقوقهن. لم يحسنوا معاملة أزواجهم، وعذّبوا الأرامل، واستغلوا اليتامى، والفقراء، والضعفاء. وسعوا لبناء ثرواتهم على حساب خراب الآخرين. لم يكونوا يخجلون من الكذب والخيانة، ولا من السلب والنهب. في لوثة الميسر والخمر كانت سعادتهم، ولا يهتمون بالثقافة ولا بتقدّم أمّتهم. إلى متى يصرّون على إهمال الله الأحد الحق والمضي قُدُمًا في

خسران يتبعه خسران، ومعاناة بعد معاناة؟ أليس لديهم طريق أفضل للإصلاح؟ أليس من الخير لهم أن يتخلوا عن كل شكل من أشكال استغلال الفرد للآخر، وأن يحفظوا الحقوق لأصحابها، وأن ينفقوا ثرواتهم على ما ينفع أوطانهم، وأن يحسنوا من نصيب الفقراء والضعفاء في الثروة والأجور، وأن يعاملوا اليتامى كأبنائهم، ويعتبروا حمايتهم واجبًا مفروضًا، وأن يعينوا الأرامل، وأن يشجّعوا الأعمال الصالحة في كل المجتمع الإنساني، وأن يغرسوا العطف والرحمة وليس فقط العدل والمساواة؟ إن الحياة في هذا العالم يجب أن تكون مفعمة بالأعمال الصالحة: اتركوا بَعدكم أعمالا حسنة.. أنتم آخر الأمم، فلن تأتي بعدكم أمّة أخرى لتزرع وتنتج أثمارًا. الفضيلة هي في بذل العطاء للآخرين لا في الأخذ منهم. تعلموا أن تُسلموا نفوسكم لله تعالى لتكونوا أكثر قربًا منه. مارسوا إنكار الذات من أجل رفاقكم من الناس، فتضاعفوا بذلك رصيدكم عند الله تعالى. صحيح أن المسلمين ضعفاء، ولكن لا يضلنّكم هذا الضعف ولا تنخدعوا به لتذهبوا بعيدًا، فالحق سوف يعلو وينتصر، وهذا هو حكم السماء. ومن خلال هذا الرسول سوف ينبثق على العالم فجر مقاييس جديدة، وتشرق شمس معايير جديدة لقياس الصالح والطالح، والحق والباطل. إن الرحمة والعدل سوف يعلوانِ، ولن يُسمح بالإكراه في أمر الدين ولا بالعبث به، وسوف تنمحي ألوان العذاب الوحشي الذي تتعرّض لها النساء والعبيد، وسوف تقوم وتتأسس مملكة الله تعالى وتحل محل مملكة الشيطان.

وما إن بلغت هذه الرسالة أهل مكة، وبدأ أصحاب الفطرة الصالحة يتأثرون بها، حتى وقف كبار مكة موقفًا صارمًا مما كان يحدث، فذهبوا في وفد إلى عم الرسول ﷺ أبي طالب وقالوا له: إنك من زعمائنا، ولم نتعرض لابن أخيك "محمد" حتى الآن من أجلك. ولكن قد آن الآون أن نضع حدًّا لهذه الأزمة القومية والخلاف

الدائر بيننا. إننا نطالبك أن يكفّ محمد عن عيب آلهتنا. يمكنه أن يعلن واحدانية الله، ولكن يجب ألا يقول شيئا ضد آلهتنا. فإذا وافق على ذلك فلسوف ينتهي الخلاف الدائر بيننا. ونطالبك أن تقنعه بذلك، أما إذا كنت لا تستطيع فعل ذلك، فلا بد من أحد الأمرين: إما أن تخذله أنت، أو سنخذلك نحن. (ابن هشام ✪).

كان أبو طالب في مواجهة خيار صعب. إذ كان من الصعب عليه أن يتخلى عن ابن أخيه، كما كان من الصعب عليه أيضًا أن يتبرأ منه قومه. لم يكن العرب يُعوّلون كثيرًا على المال، ولكن كرامتهم وهيبتهم كانت في سيادتهم. كانوا يعيشون من أجل قومهم، ويعيش قومهم بهم، ولذلك فقد أصاب أبا طالب همٌ كبير. فأرسل إلى الرسول ﷺ وشرح له ما طلبه كبار القوم، وقال له والدموع تملأ عينيه: إن لم ترض بما يقولون، فإما أن أخذلك، وقومي سيخذلونني .

كان الرسول ﷺ في تعاطف جليّ مع عمه، وترقرقت الدموع في عينيه وهو يقول له:

إنه لا يسأله أن يدَع قومه، ولا يطلب منه أن يسانده، وإنما له أن يُسلمه ويتخلى عنه. ثم أقسم له قائلا: "يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهِره الله أو أهلكَ فيه، ما تركتُه". (ابن هشام والزرقاني)

هذا الرد الحازم الثابت، والقوي المستقيم، والصادق المخلص، جعل أبا طالب يفتح عينيه، فاستغرق في تفكير عميق. ومع أنه لم يكن يملك الشجاعة كي يؤمن، فقد رأى أنه كان ذا حظ عظيم أن يعيش حتى يرى هذا البيان العالي للإيمان، وهذا الاحترام البالغ للواجب. فالتفت إلى الرسول ﷺ وقال:

✪ نص ما ورد في السيرة النبوية لابن هشام هو: "يا أبا طالب إن لك سنًا وشرفًا ومنْزلة فينا، وإنَّا قد استنهيناك مِن ابن أخيك، فلم تَنْهَه عنَّا. وإنَّا واللّه لا نصبر على هذا مِن شتْم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيْب آلهتنا، حتى تكفّه عنَّا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين". (المترجم)

"اذهب يا ابن أخي، فقُلْ ما أحببتَ. فليخذلْني قومي، فوالله لا أُسلِمك لشيء أبدًا". (ابن هشام)

الهجرة إلى الحبشة

عندما بلغ الطغيان أقصاه، جمَع الرسول ﷺ أتباعه وأشار إلى الغرب، وأخبرهم عن أرض خلف البحر، لا يُقتل الناس فيها بسبب تغيير عقيدتهم، ويستطيعون عبادة الله بلا ترويع، ويوجد بها ملك عادل. واقترح عليهم أن يرحلوا إليها، فعسى أن يجدوا فيها الأمن والسلام. وأخذ بهذا الاقتراح طائفة منهم، رجالاً ونساء وأطفالاً، وذهبوا إلى الحبشة.

كانت الهجرة على مستوى محدود، وكانت مثيرة للشجن إلى حد عميق. فالعرب كانوا يرون أنفسهم حرّاسَ الكعبة المشرّفة، وهم كانوا كذلك فعلاً. ولذلك كان ترك مكة بالنسبة لهم أمرًا مؤلمًا مضنيًا، ولا يوجد عربي يمكن أن يفكر في ذلك إلا إذا أصبحت الحياة في مكة مستحيلة. و لم يكن أهل مكة ليسمحوا أيضًا بهذه الهجرة، فما كانوا ليتركوا ضحاياهم يفلتون من أيديهم لينالوا الحياة في مكان آخر. ولهذا اضطرت هذه المجموعة المهاجرة إلى كتمان استعداداتها للرحلة، والعمل على مغادرة البلدة حتى بدون كلمة وداع للأقارب والأصدقاء. ولكن مهما يكن من أمر، فإن مغادرتهم أصبحت معروفة لدى بعض الناس، وقد تركت فيهم آثارًا عميقة. فعمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي صار فيما بعد الخليفة الراشد الثاني في الإسلام، كان لا يزال كافرًا، وكان عدوًّا لدودًا يضطهد المسلمين. وتصادف أن التقى بمجموعة من الأفراد المهاجرين، ومنهم امرأة تُدعى أُمّ عبد الله. وعندما رأى عمر الأمتعة محزّمة، والأدوات المنْزلية محمّلة على الإبل، فَهِمَ للتوّ أنهم فريق يغادر مكة ليلجأ إلى مكان آخر. فسأل عمر رضي الله عنه: "أراحلون أنتم"؟ فأجابت أُمُّ عبد الله: "بلى، إن الله معنا، وسنذهب إلى بلاد أخرى، فقد عذّبتمونا هنا، ولن نعود حتى يجعل الله لنا يسرًا". فتأثر عمر رضي الله عنه وقال: "ليكُن الله معكم". وكان في صوته نبرة تهدّج، فقد ملأ هذا المشهد الصامت قلبه بالحزن والأسى.

وعندما عرف أهل مكة بالأمر أرسلوا جماعة للمطاردة، وقد وصلت هذه الجماعة إلى ساحل البحر، ولكنها وجدت المهاجرين المسلمين قد ركبوا البحر وغادروا البلاد إلى الحبشة. ولما عجز أهل مكة عن اللحاق بهم قرروا إرسال وفد إلى الحبشة لإثارة الملك ضد اللاجئين، ولإقناعه بتسليمهم ثانية إلى أهل مكة. وكان عمرو بن العاص ﷺ أحد أعضاء هذا الوفد، وهو الذي قد أسلم فيما بعد وقام بفتح مصر. وذهب الوفد إلى الحبشة والتقوا بالملك وتآمروا مع الحاشية، ولكن تبين أن الملك شديد المراس. ورغم أن ضغط الوفد وحاشية الملك الخاصة كان حريًّا أن يؤثر عليه، فإنه رفض تسليم المسلمين اللاجئين إلى مضطهديهم، فعاد الوفد بخُفَّي حنين خائبين. ولكنهم دبّروا في مكة خطة أخرى للتعجيل بعودة المسلمين من الحبشة، فقد أذيعت في القوافل الذاهبة إلى الحبشة إشاعة تقول إن مكة كلها قد قبلت الإسلام. وعندما بلغت الإشاعة الحبشة، عاد كثير من المسلمين في بهجة إلى مكة، ولكنهم فوجئوا عند وصولهم أن الخبر الذي بلغهم كان مفتعلاً. فعاد بعضهم ثانية إلى الحبشة، وقرر البعض البقاء، ومن بينهم عثمان بن مظعون ﷺ وهو ابن أحد سادات مكة. وقد دخل عثمان في جوار أحد أصدقاء أبيه وهو الوليد بن المغيرة، وبدأ يعيش في أمان. ولكنه رأى المسلمين الآخرين يعانون الاضطهاد القاسي والظلم البالغ، فجعله ذلك يحس بالحزن والبؤس والأسى، فذهب إلى الوليد وردّ إليه جواره. لقد أحسّ أنه لا يصحّ له أن ينعم بالحماية بينما يظل بقية المسلمين في معاناة. وقد أعلن الوليد ردّ الجوار إلى بقية أهل مكة.

وفي أحد الأيام كان لبيد بن أبي ربيعة، وهو شاعر من كبار شعراء العرب، يجلس بين سادات مكة، يقرأ عليهم شعره، فقال البيت التالي:

ألا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ وكلُّ نعيـــم لا محالـــةَ زائلُ

ويعني البيت أن كل أنواع النعيم لا بد أن تكون لها نهاية، فقام عثمان بالاعتراض بجرأة عليه قائلاً: "إن نعيم الجنة لا يزول". وإذا بلبيد الذي لم يتعوّد الاعتراض الجريء يفقد رزانته ويقول: "ما كان ضيفكم يُضام هكذا من قبل، فمتى

حدثت هذه البدعة فيكم يا معشر قريش"؟ ومن أجل تهدئته نهض أحد الحضور وقال: "أتمِمْ يا لبيد ولا تبال بهذا الأحمق". وأصرّ عثمان على أنه لم يقل شيئًا يوصف بالحمق، فوثب الرجل مغضبًا على عثمان وسدّد إليه لكمة فقأت عينه. كان الوليد حاضرًا، وكان صديقًا مقرّبًا لوالد عثمان، و لم يتحمّل أن يرى معاملة كهذه لابن صديقه الراحل. غير أن عثمان لم يكن تحت حمايته المعلنة، والعادة العربية يومها تمنعه من التدخل، ولذا لم يستطع أن يفعل شيئًا. وقال وهو يعاني من الغضب والألم في نفس الوقت: "يا ابن أخي! ألم تكن عينك غنية عن هذا لو أنك لم تردّ عليّ جواري"؟ فردَّ عثمان: "والله إن عيني الأخرى لفقيرة إلى ما أصاب أختها في سبيل الله. ولتعلم أنه طالما ظل الرسول ﷺ يعاني فلا نريد أن ننعم نحن بالسلام". (السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٤٨)

عُمر رضي الله عنه يقبَل الإسلام

في ذلك التاريخ، وقعت حادثة أخرى على جانب كبير من الأهمية. فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي صار فيما بعد ثاني الخلفاء الراشدين، لا يزال واحدًا من أشد الأعداء وأشرسهم نقمة على الإسلام. وأحسّ عمر أنه لم تُتّخذ بعد الخطوة الحاسمة ضد الحركة الجديدة، فقرّر أن يأخذها هو بأن يضع حدًّا لحياة الرسول ﷺ. وخرج من بيته يحمل سيفه بغير جرابه، فلقيَه صديق له، أخذته الدهشة للحالة التي رآه عليها فسأله عما ينوي أن يفعله، فقال عمر: "أريد أن أقتل محمدًا". فقال له: "أتظن بني هاشم تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا، ألا تدري أن أختك وزوجها قد أسلما"؟

ونزل عليه الخبر نزول الصاعقة، وانقبض صدره بشدة فقرر أن يبدأ بأخته وزوجها أولاً. وعندما بلغ بيت أخته سمع صوت تلاوة في الداخل، وكان الصوت هو صوت "خبّاب بن الأَرَتّ" يعلمهم القرآن الكريم، فدلف عمر إلى البيت مسرعًا. وأحسّ خبّاب بريبة من الخطوات المتسارعة وهي تقترب فاختبأ. وقامت

فاطمة أخت عمر بتنحية الأوراق القرآنية جانبًا. وواجهت أخاها هي وزوجها، فقال عمر: "لقد سمعت أنكما صبأتما"، يقصد أنهما تخليا عن دينهما. ورفع يده ليصك زوجها الذي كان من أبناء عمومته، فألقت فاطمة نفسها على زوجها كي تحول بينه وبين عمر، فهبطت الضربة على وجه فاطمة، وأصابت أنفها التي أخذت تنْزف الدماء بغزارة. ولكن الضربة زادت من شجاعة فاطمة، فقالت: "نعم، لقد أسلمنا، ولن ندع هذا الدين، فافعل ما بدا لك". كان عمر ﷺ شهمًا مع خشونته تلك. وقد جعله وجه أخته المصبوغ بالدم من أثر يده يشعر بالندم، فإذا به يتحوّل إلى شخص مختلف تمامًا. طلب منهم أن يرى أوراق القرآن التي كانوا يقرأونها، فرفضت فاطمة خشية أن يمزقها ويلقي بها، فوعد عمر أنه لن يفعل. ولكن فاطمة قالت إنه غير طاهر، فعرض عمر أن يغتسل. وبعد أن تطهّر وهدأت نفسه، تناول الصحائف القرآنية في يده وكانت تحوي جزءًا من سورة طه. فراح يقرأ فيها إلى أن وصل إلى قوله تعالى:

﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ۞ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ (طه: ١٥-١٦)

إن هذا التوكيد الجازم لوجود الله تعالى، وهذا الوعد الساطع بساعة قادمة حتمية، يؤسس فيها الإسلام عبادة حقيقية مكان تلك التي اعتادت عليها مكة، كل ذلك مع حشد من الأفكار الأخرى المرتبطة بها، لا بد أنها جميعًا حركت مشاعر عمر، فلم يملك نفسه أمام تدفق ينبوع الإيمان في قلبه، وقال: "ما أعجبَ هذا الكلامَ وما أروعَه"! فخرج خبّاب من مكمنه وصاح: "فليشهد الله! لقد سمعتُ رسول الله بالأمس فقط يدعو الله أن يهدي للإسلام عمرَ بن الخطاب أو عمرو بن هشام. وأرجو أن تكون هدايتك ثمرة دعائه". وعقد عمر العزم على اعتناق الإسلام، وسأل أين يكون الرسول ﷺ، وعلى الفور اتخذ طريقه إليه في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وكان قد أخذ سيفه معه. وعندما طرق الباب، رأى الصحابةُ عمرَ من شقوق الباب، فخشوا أن يكون ثمة نية سوء لديه، ولكن الرسول ﷺ أمرهم أن

يدَعوه يدخل. ودخل عمر والسيف لا يزال في يده. فقال له الرسول ﷺ: "ما جاء بك يا ابن الخطاب"؟ فقال عمر: "يا رسول الله، لقد جئت لأُسلِم". فكبَّر رسول الله ومعه الصحابة: "الله أكبر.. الله أكبر"، وردّدت قمم الجبال صدى الصوت. وانتشرت أخبار اعتناق عمر الإسلام كالنار في الهشيم. ومن اليوم فصاعدًا، أصبح عمر رضي الله عنه يعاني من الاضطهاد، شأنه في ذلك شأن بقية المسلمين، بعد أن كان هو الذي يقوم باضطهاد المسلمين وكانوا يخشون بأسه. وأصبح يجد عذوبة في العذاب من أجل الإسلام، كما كان يجد عذوبة في تعذيب المسلمين من قبل. وعاد يسير في طرقات مكة ويسمع من أهلها السباب والتحقير دون انقطاع.

اشتداد الاضطهاد

اشتدّ الاضطهاد، وأصبح أكثر خطورة وأشدّ قسوة بشكل يصعب احتماله. وغادر كثير من المسلمين مكة، والذين بقوا صاروا يلقون معاناة أشدّ وأكثر من ذي قبل. ولكن المسلمين لم يتزحزحوا قيد أنملة عن طريقهم الذي اختاروه. وظلت قلوبهم تسكنها الشجاعة، وظل إيمانهم ثابتًا كالطود. كان حبهم لله تعالى يزداد بقدر كراهيتهم لأصنام مكة. واتخذ الصراع صورة خطرة لم تحدث من قبل. ودعا أهل مكة إلى اجتماع كبير آخر، وقرروا فيه المقاطعة التامة للمسلمين. فلم يعد أهل مكة يتعاملون بأي شكل من الأشكال مع المسلمين كما كان الحال من قبل، فلا يشترون منهم شيئًا ولا يبيعونهم شيئًا على الإطلاق. وقد اضطر الرسول ﷺ وأسرته وعدد من أقاربه الذين وقفوا إلى جانبه، رغم أنهم لم يكونوا مسلمين، إلى اللجوء إلى مكان منعزل يُسمى شِعْب أبي طالب لأنه كان يملكه، وانحصروا هناك بدون مال، وبدون وسائل الحياة الضرورية، وبلا مؤونة من الزاد. وقد عانى الرسول ﷺ وعائلته وأقاربه شدة لا يمكن التعبير عنها تحت هذا الحصار الذي دام لسنوات ثلاث، لم تخفّ خلالها حدّته. وفي النهاية، ضاق بعض الكرام من أهل مكة بهذا المشهد، وثاروا في وجه هذه الشروط المجحفة الظالمة، وذهب خمسة منهم

إلى العائلة المحاصرة لإنهاء المقاطعة وطلبوا منهم الخروج، فخرج أبو طالب وعنّف قومه على هذه القسوة. وعرفت مكة كلها بثورة الرجال الخمسة، غير أن المشاعر الطيبة عادت لتثبت وجودها في الإنسان ثانية، وقرر أهل مكة أنه يجب عليهم إلغاء المقاطعة الوحشية. ولكنهم لم يستطيعوا إلغاء آثارها، ففي غضون أيام قلائل لقيَت السيدة خديجة رضي الله عنها.. زوج الرسول ﷺ المؤمنة المخلصة ربها، ولحق بها أبو طالب بعد شهر.

وهكذا فقدَ الرسول الكريم ﷺ مساندة وصداقة السيدة خديجة، وفقدَ الرسول ﷺ والمسلمون معه المساعي الحميدة لأبي طالب. وبطبيعة الحال، فقد أدّى موتهما إلى فقْد المسلمين بعض التعاطف العام. وقد بدا في أول الأمر أن أبا لهب، العم الآخر للرسول ﷺ، سيقف معه، بعد أن أثرت فيه صدمة وفاة أخيه، وكانت وصيّته وهو على سرير الموت لا تزال حيّة في مخيّلته. ولكن أهل مكة نجحوا في استعدائه على الرسول ﷺ مستغلين تأثير العادة وقوة التقاليد، فقد كانت تعاليم الرسول ﷺ تنص على أن الكفر بوحدانية الله عار وعورة وتجلب العقاب في الآخرة، وكان هذا التعليم يتعارض مع كل ما تعلموه من آبائهم الأولين. وهكذا قرر أبو لهب أن يأخذ جانب معارضة الرسول أكثر من ذي قبل. وأصبحت العلاقات بين المسلمين وأهل مكة متصدعة، وقد أدّت ثلاث سنوات من المقاطعة والحصار إلى اتساع الهوّة بينهما. وصار الاجتماع والدعوة إلى الإسلام والحوار في حكم المستحيل. ولم يعبأ الرسول ﷺ بالمعاملة السيئة ولا بالاضطهاد، فلم يكن لذلك اعتبار طالما أنه يستطيع أن يلتقي بالناس ويحادثهم، ولكن بدا له الآن أنه لن يستطيع أن يحقق ذلك في مكة. وبالإضافة إلى هذه العداوة العامة، وجد الرسول ﷺ أنه لا يستطيع الظهور في أيّ مكان عام أو في الطرقات، لأنه إذا فعل فإنهم يحثونه بالتراب ويعيدونه إلى داره. وقد عاد مرة إلى بيته ورأسه مكسيّ بالتراب، فبكت ابنته فاطمة وهي تنفض التراب عنه، فقال لها الرسول ﷺ: "لا تبكي يا بُنيّة، فإن الله مانع أباك". إن المعاملة المهينة لم تكن هي ما يزعج الرسول ﷺ، بل لعله

كان يرحب بها كدليل على الاهتمام برسالته. فعلى سبيل المثال، حدث في يوم من الأيام أن كاد له أهل مكة مكيدة، إذ لما خرج من بيته ومر في الطرقات، لم يجد أحدًا من أهل مكة يكلمه ولا يردّ عليه، وفي نفس الوقت لم يزعجه أحد بمعاملة سيئة من أي نوع، فعاد الرسول ﷺ إلى بيته مبتئسًا، حتى أتاه صوت الله تعالى يطمئنه ويخرجه إلى قومه مرة أخرى.

الرسول ﷺ يذهب إلى الطائف

بدا الآن أنه لا أحد في مكة بات يصغي إلى الرسول ﷺ، وقد جعله ذلك حزينًا، وشعر بأن دعوته قد جُمِّدت وركدت، فقرر أن يتوجه إلى مكان آخر كي يبشر برسالته. واختار الطائف، وهي مدينة صغيرة تبعد ٦٠ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من مكة، واشتهرت بالفاكهة وبمزروعاتها. وكان قرار الرسول ﷺ جاريًا على سُنة الأنبياء جميعًا. فقد توجّه موسى عليه السلام إلى فرعون حينا، وإلى بني إسرائيل حينا آخر، كما ذهب إلى مديَن، وكذلك حدث للمسيح عليه السلام، فقد دعا أهل الجليل حينا، ثم عبر الأردن، ودعا الناس هناك حينا، ودعا أهل بيت المقدس حينا آخر. وكذلك لما وجد الرسول ﷺ أن أهل مكة يسيئون المعاملة ولا يستمعون، تحوّل إلى الطائف. ولم تكن الطائف تقل عن مكة في الشرْك بالله، ولم تكن الأوثان المنصوبة في الكعبة هي وحدها المعبودة ولا وحدها المهمّة في بلاد العرب. ففي الطائف كان هناك صنم هام هو "اللات"، وبسببه كانت الطائف مركزًا للحجيج. وكانت أواصر الدم تربط بين أهل الطائف وأهل مكة، كما كان أهل مكة يملكون أغلب البساتين التي بين مكة والطائف. وعند وصول الرسول ﷺ إلى الطائف زاره سادة المدينة عدة زيارات، ولكن لم يَبد أن أحدهم كان مستعدًا لقبول رسالته، والعامة من الناس اتبعوا زعماءهم ولم يعيروا كلامه أيّ اهتمام. ولم يكن ذلك غريبًا، فالناس المنغمسون في الأمور الدنيوية يرون مثل هذه الرسالة دائمًا على أنها نوع من التدخل في حياتهم، بل يعتبرونها إهانة لهم. ولما كانت الدعوة تبدو لهم بلا سند

ملموس يدعمها، كعدد الأتباع وقوة السلاح، كانوا يشعرون أيضًا أن بإمكانهم أن يرفضوها بلا مبالاة بل وبازدراء. ولم يكن الرسول ﷺ استثناء من ذلك. وقد سبقته أخباره إليهم، وها هو الآن قد أتى إليهم بلا سلاح ولا أتباع، فرْدٌ وحيدٌ ليس معه أحد سوى رفيق واحد هو زيد. واعتبر أهل الطائف أن الرسول ﷺ مصدر للضيق يجب وضع نهاية له من أجل إرضاء سادتهم وزعمائهم. فسلطوا عليه سفهاءهم والصبية المشردين في الطرقات، فحصبوه بالحجارة وطردوه خارج المدينة. وقد جُرح زيد كما كان الرسول ﷺ ينْزف بغزارة، ولكن الملاحقة استمرت حتى صار الرسول ﷺ وزيد على بُعد أميال خارج الطائف. وكان الرسول ﷺ محزونًا وموجوعًا ومغتمًّا عندما جاءه مَلَك وسأله إن كان يريده أن يهلك أولئك الذين عاملوه بهذه القسوة البشعة، فرفض الرسول ﷺ وقال: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا." (البخاري: كتاب بدء الخلق).

وتوقف الرسول ﷺ بعد أن أنهكه التعب، ونال منه الغم، واعتصره الألم، في كَرْم يملكه رجلان من أهل مكة تصادف وجودهما في ذلك اليوم. ورغم أنهما كانا من بين الذين يضطهدون المسلمين في مكة، إلا أنهما كانا متعاطفين في تلك المناسبة. فهل كان السبب أن أهل الطائف قد أساءوا معاملة رجل من مكة، أم كان السبب شرارة من العطف الإنساني توهجت فجأة في قلبيهما؟ لقد أرسلا إلى الرسول ﷺ طبقًا مليئًا بالعنب مع مملوك نصراني يسمى "عدّاسا" من مدينة نينوَى. وقدّم عدّاس الطبق إلى الرسول ﷺ وصاحبه بينما أخذ يرنو إليهما بعينيه متفكرا، ثم اشتد فضوله كثيرًا عندما سمع الرسول ﷺ يقول: "بسم الله الرحمن الرحيم". وانتعشت ذاكرته المسيحية، وأحسّ أنه في حضرة أحد أنبياء العبرانيين. وسأله الرسول ﷺ إلى أين ينتمي، فقال عداس: إنه من أهل نينوى. فقال الرسول ﷺ: "نينوَى، بلدة الرجل الصالح يونس بن متّى. ذاك أخي، فهو نبيّ مثلي". وقد أخبر الرسول ﷺ عدّاسا عن رسالته، فتأثر عدّاس كثيرًا بكلامه

وآمن به في الحال، وعانق الرسول ﷺ والدموع تتقاطر من عينيه، وراح يقبّل رأسه ويديه وقدميه. وبعد هذا اللقاء توجه الرسول ﷺ إلى الله تعالى بالدعاء فقال:

"اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى مَن تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أمْ إلى عدوّ ملّكتَه أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلماتُ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، مِن أن تُنْزل بي غضبك، أو يحلّ علي سخطك. لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك." (ابن هشام والطبري).

بعد هذا الدعاء، توجَّهَ عائدًا إلى مكة، وفي الطريق توقف عند "نخلة" لبضعة أيام ثم قفل عائدًا إلى مكة. وحسب تقاليد مكة فإنه لم يعد مواطنًا مَكّيًا. لقد غادرها بسبب عدائها له، فلا يمكنه العودة إلا بموافقة أهل مكة. بعث الرسول ﷺ برسالة إلى مُطعم بن عديّ، أحد أشراف مكة، يطلب جواره لدخولها. ورغم أن المطعم كان عدوًا لدودًا كالآخرين، لكنه كان يملك قلبًا نبيلاً، فجمع أولاده وأقاربه، وحملوا سلاحهم وذهبوا إلى الكعبة، ووقفوا في ساحة المسجد الحرام، وأعلن المطعم أنه قد أجار محمدًا ليعود إلى مكة. وعاد الرسول ﷺ وطاف بالكعبة مع المطعم وأبنائه وأقاربه وسيوفهم مسلولة، ثم صحبوه إلى داره. و لم يكن هذا الجوار الذي أعلنه المطعم يعني منح الحماية الكاملة للرسول ﷺ، إذ لم يتعد ما فعل المطعم سوى بلاغ رسمي يسمح له بالعودة فقط، ولقد استمر الرسول ﷺ يعاني من الاضطهاد مثل غيره، و لم يستطع المطعم أن يمنع عنه شيئًا.

إن رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف قد انتزعت المدح حتى من أعداء الإسلام. فقد تحدث السير وليام موير عن رحلة الطائف في كتابه عن سيرة الرسول ﷺ،

فقال:

هناك شيء شامخ وبطولي في هذه الرحلة التي قام بها محمد إلى الطائف؛ رجل وحيد، محتقر ومرفوض من قومه، يذهب في جسارة باسم الله، مثل يونس إلى نينوَى، ويدعو مدينة من الوثنيين كي يتوبوا ويساندوه في مهمته. إن ذلك يُلقي ضوءاً يدل على شدّة إيمانه بالأصل الإلهي لدعوته (حياة محمد، تأليف السير وليام موير، طبعة ١٩٢٣م، ص ١١٢ – ١١٣).

وعادت مكة إلى عداوتها القديمة. ومرة أخرى أصبح وطن الرسول ﷺ والبلدة التي يعيش فيها جحيمًا بالنسبة له، ولكنه استمر يخبر الناس برسالته، وبدأت جملة "لا إله إلا الله" تُسمع هنا وهناك. وظل الرسول ﷺ بكل حكمة ومحبة، وشعور بالتعاطف، يدعو الناس بإصرار ومثابرة. وأعرض عنه الناس، ولكنه خاطبهم ليلاً ونهارًا، وأعاد مخاطبتهم مرارًا وتكرارًا، ولقد صدع بدعوته سواء اهتم الناس به أم لا، وكان لا بد أن يأتي الإصرار بأثماره. كذلك فإن تلك الحفنة من المسلمين التي عادت من الحبشة وقررت البقاء، راحت تبشر بالدين الجديد في سرّية بين الأصدقاء والجيران والأقارب. وقد اعتنق بعض هؤلاء الإسلام، وأعلنوا عن أنفسهم على الملأ، وشاركوا المسلمين الآخرين أشكالاً وأنواعًا من المعاناة التي كانوا يقاسون منها، ولكن الكثيرين لم يتمتعوا بشجاعة كافية أن يعترفوا علانية، وإن كان القلب قد سكنه الاقتناع، فقد فضّلوا الانتظار إلى أن يأتي نصر الله.

خلال ذلك الوقت كان الرسول ﷺ يتلقى وحيًا يحتوي على تلميحات عن قرب إمكانية الهجرة من مكة. وقد تلقى أيضًا ما يفيد أن مكان الهجرة سيكون بلدة تتميز بوجود الآبار وحدائق النخيل، وقد ظن الرسول ﷺ أنها اليمامة، ولكن سرعان ما استبعد هذه الفكرة، وانتظر أمر الله تعالى يحدوه اليقين بأنه أيًّا

كان المكان الذي ستتم الهجرة إليه، فلا بد أن الله ﷻ قد قدّر له أن يكون مهد الإسلام.

الإسلام ينتشر في المدينة

اقترب موسم الحج، وبدأ الحجاج يتوافدون إلى مكة من جميع أنحاء بلاد العرب. وكان الرسول ﷺ يذهب حيثما يجد مجموعة من الناس، ليخبرهم عن الله الواحد، ويطلب منهم أن يكفّوا عن كل أنواع التطرّف والتجاوزات، وأن يعبروا الطريق إلى ملكوت الله تعالى. وقد أصغى البعض وأبدَى شيئًا من الاهتمام، والبعض أراد أن يستمع ولكن أهل مكة حالوا بينهم وبين ذلك، والبعض ممن ركب رأسه توقف ليسخر ويخرج ما في داخله من حقد واحتقار. وكان الرسول ﷺ في وادي "مِنى" حين رأى مجموعة من ستة أو سبعة من الأفراد ينتمون إلى قبيلة الخزرج، وهي قبيلة تسكن في يثرب وتتحالف مع اليهود، فسألهم إن كان يمكنهم الإنصات لما يريد أن يقوله. كانوا قد سمعوا عنه، وأثار اهتمامهم بأمره، فوافقوا. وقضى الرسول ﷺ بعض الوقت معهم ينبّئهم بأن مملكة الله صارت على الأبواب، وأن الأصنام سوف تزول وتختفي، وأن فكرة وحدانية الله سوف تعلو وتسود، كما سوف تسود قيم النقاء والطهارة مرة أخرى وينتشر الورع بين الناس، فهل يمكن أن يرحّبوا بهذه الرسالة في المدينة؟ وكان لكلام الرسول ﷺ وقع جليل في قلوب هذه المجموعة فقبلوا الرسالة، ووعدوا أن يجتمعوا بالآخرين عند عودتهم إلى المدينة، ويبحثوا معهم الأمر، وفي العام القادم سيرفعون رأيهم للنبي ﷺ عما إذا كانت المدينة على استعداد لاستقبال المهاجرين المسلمين القادمين من مكة. وعندما عادوا التقوا بأصدقائهم وأقاربهم وتحدثوا معهم فعلاً.

في ذلك الوقت كان في المدينة قبيلتان عربيتان وثلاث قبائل يهودية. القبائل العربية هي الأوس والخزرج، والقبائل اليهودية هي بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو

قينقاع. كانت الأوس والخزرج في حرب دائمة، وكانت قبيلتا بني قريظة وبني النضير في حلف مع الأوس، أما بنو قينقاع فكانت في حلف مع الخزرج. وكان الجميع قد تعبوا من الحرب ومالوا إلى السلام، وقرروا في النهاية تنصيب زعيم الخزرج عبد الله بن أُبيّ بن سلول ملِكًا على المدينة. وكان الأوس والخزرج قد سمعوا من اليهود الكثير من النبوءات المكتوبة في التوراة، كما سمعوا أيضًا الروايات اليهودية عن المجد المفقود لليهود، وعن مقدم نبيّ "مثيل لموسى". وتعوّد اليهود أن يقولوا إن مقدم هذا الرسول قد صار على الأبواب، وقد أوشك أن يظلهم زمانه، وأن مقدم ذلك الرسول سيكون علامة على عودة مجد بني إسرائيل والقضاء على أعدائهم. وعندما سمع أهل المدينة عن أن الرسول ﷺ قد ظهر في مكة، تأثروا بذلك تأثرًا بالغًا، وتساءلوا إن كان هذا هو الرسول الذي سمعوا عنه من اليهود.

وقد آمن الكثير من الشباب في الحال، وفي موسم الحج التالي جاء إلى مكة اثنا عشر رجلاً ليبايعوا الرسول ﷺ. كان عشرة منهم ينتمون لقبيلة الخزرج واثنان من قبيلة الأوس، ولقوا الرسول ﷺ في وادي "مِنى"، ووضعوا أيديهم في يد الرسول ﷺ وبايعوه على الإيمان بوحدانية الله تعالى وعزمهم على الكفّ عن كل الآثام المعروفة، والامتناع عن وأد البنات، وقوْل الزّور، وأن يطيعوه في كل ما يأمرهم به من معروف. ولما عادوا إلى المدينة، راحوا ينشرون الدين الجديد بين جميع الناس. وزادت حماستهم وحميّتهم. وتم نزع الأصنام من محاريبها وقُذف بها في الطرقات. وأولئك الذين تعوّدوا الركوع أمام التماثيل والأصنام بدأوا يرفعون رؤوسهم عاليا، فقد عقدوا العزم على ألا يركعوا إلا لله الواحد الأحد. وتعجب اليهود!! إن قرونًا من الصداقة والمناقشات مع العرب فشلت في إحداث الأثر الذي أحدثه ذلك المعلم الذي ظهر في مكة في أيام معدودات. وكان أهل المدينة يتوافدون على القلة الذين أسلموا ليعرفوا منهم المزيد عن الإسلام، ولكن هذا العدد القليل لم يكن ليستطيع الإجابة على هذا الكم الكبير

من التساؤلات، ولم تكن لديهم المعرفة الكافية التي تؤهلهم لذلك، فقرروا أن يرسلوا إلى الرسول ﷺ ليطلبوا منه أن يبعث إليهم من يقوم بتعليمهم أمور الإسلام، ووافق الرسول ﷺ على إرسال مُصعَب بن عُمَير رضي الله عنه، وهو أحد شباب المسلمين الذين ذهبوا إلى الحبشة، فكان مُصعب أوّل مبشر إسلامي يخرج من مكة.

وفي تلك الأثناء، تلقى الرسول ﷺ وعدًا عظيمًا من الله جل جلاله. فقد رأى رؤيا جليلة، ورأى نفسه في بيت المقدس وقد اصطف الأنبياء خلفه لصلاة الجماعة. وكان بيت المقدس في الرؤيا يرمز للمدينة المنوّرة التي كان من المقدّر لها أن تكون المركز الإسلامي الذي تنطلق منه عبادة الله الواحد الأحد، أما الأنبياء الآخرون الذين احتشدوا خلف الرسول ﷺ فقد كانوا يرمزون إلى أتباع الأديان الآخرين الذين سوف ينضمون إلى الإسلام، وأن الإسلام سيصبح دِينًا للعالم أجمع.

ومع مرور الوقت، كانت الظروف في مكة تزداد حرجًا، وصار الاضطهاد في أبشع صوره التي من الصعب تصورها. وقد سخر أهل مكة من هذه الرؤيا التي أعلن عنها الرسول ﷺ ووصفوها بأنها أحلام يقظة وأماني الخيال. وقليلاً ما كانوا يعلمون أن الأساس قد أقيم بالفعل لبناء "أورشليم الجديدة" كما جاء في نبوءات الكتاب المقدس، وأن الناس في الشرق والغرب في شوق ولهفة ليسمعوا الرسالة العظمى الأخيرة من الله تعالى.

وفي تلك الأيام، اشتعلت الحرب بين قيصر الروم وكسرى فارس، وانتصر الفُرْس على الروم، واحتلت جيوش الفرس الشام وفلسطين، ودمروا القدس، واستولوا على مصر وآسيا الصغرى، واستطاع القادة الفُرس أن ينصبوا خيامهم على مشارف البسفور، على بعد عشرة أميال فقط من القسطنطينية. وتهلل أهل مكة للنصر الذي حققه الفُرس، وقالوا إن حكم الله قد صدر، فها

قد انتصر أولئك الذين يعبدون الأصنام في فارس على أهل الكتاب من الروم. وفي ذلك الوقت تلقى الرسول ﷺ الوحي القرآني التالي:

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۞ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣- ٧)

وتحققت النبوءة في سنوات قلائل، فقد هزم الروم الفرس واستردوا جميع البلاد التي فقدوها. وقد تحقق أيضًا الجزء الذي يقول: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ﴾، فقد بدأ الإسلام يتقدم. وكان أهل مكة قد اعتقدوا أنهم قضوا على الإسلام لما أقنعوا الناس ألا يستمعوا إلى المسلمين، بل يظهروا لهم العداوة والاحتقار. وفي نفس الوقت، تلقى الرسول ﷺ وحي الله ﷻ يخبره بأنباء انتصار المسلمين والقضاء على نفوذ أهل مكة. وقد أعلن الرسول ﷺ الآيات التالية:

﴿وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى ۞ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ۞ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ (طه: ١٣٤- ١٣٦)

لقد طالب أهل مكة أن يروا آية من عند الله تعالى، فأخبرهم سبحانه أن النبوءات التي وردت في الكتب السابقة عن الرسول والإسلام يجب أن يكون فيها الكفاية، ولو أن الله تعالى أهلكهم بعذاب قبل أن يتم شرح الإسلام لهم لقالوا إنهم لم تكن لديهم الفرصة لدراسة الآيات. وعلى ذلك، ينبغي على أهل مكة أن ينتظروا.

وتوالى كل يوم نزول الوحي الذي يَعِدُ بنصر المؤمنين وهزيمة المشركين.

وعندما ينظر أهل مكة إلى قوتهم ويسر حالهم، وإلى ضعف المسلمين وفقرهم، ثم يسمعون وعود التأييد الإلهي وانتصار المسلمين وهي تتوالى يوميًا في الوحي النازل على الرسول ﷺ كانوا يتعجبون أشد التعجب. فهل أصابهم الجنون أم أن الرسول ﷺ هو الذي أصابه الجنون؟ لقد كانوا يأملون أن يُرغم التعذيب المسلمين على الخضوع وترك إيمانهم والعودة إلى دين أهل مكة، وأن الرسول نفسه وأتباعه المقربين سوف يبدأ الشك يساورهم في صدق دعواه. ولكنهم بدلاً من ذلك استمعوا لتوكيد جازم واثق كما يلي:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ۞ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ ۞ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ۞ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ۞ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۞ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ۞ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ۞ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۞ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۞ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الحاقة: ٣٩-٥٣)

لقد أنذر الله تعالى أهل مكة أن جميع آمالهم الغالية سوف تنهار وتتحطم، فالرسول ﷺ ليس بشاعر، ولا بكاهن، ولا يتقوّل على الله، وإن القرآن المجيد تذكرة للمتقين. صحيح أن منهم من يكذبه، ولكن هناك أيضًا مَن هم معجبون به في الخفاء، ولكنهم لا يريدون أن يعترفوا بعظمته علنًا، لأنهم يغارون من جمال تعاليمه، وجلال حقائقه. ولا شك أن جميع الوعود والنبوءات التي جاءت فيه سوف تتحقق يقينًا. وعلى الرسول ﷺ ألا يهتم بالمعارضين، بل يستمر في تسبيح ربه العظيم.

وأقبل الموسم الثالث للحج، وكان بين حجاج المدينة رهط من المسلمين، وقد رغب هؤلاء المسلمون في الالتقاء بالرسول ﷺ على حِدة بسبب المعارضة

الشديدة من أهل مكة.

كان تفكير الرسول الخاص يتجه أكثر وأكثر إلى المدينة كمكان واعد محتمل للهجرة، وقد ذكر الرسول ﷺ هذا لبعض المقربين إليه من أقاربه، ولكنهم حاولوا إقناعه بالعدول عن كل الأفكار التي تنحو هذا النحو. وقالوا ينصحونه إنه رغم المعارضة الشديدة في مكة، فإن له قرابات عديدة من ذوي النفوذ. ثم إن احتمالات النجاح في المدينة غير مؤكدة، وإذا تبين أن المدينة مثل مكة في العداء أو أشد، فكيف يستطيع أقاربه في مكة حينئذ أن يقدّموا له يد المساعدة؟ غير أن الرسول ﷺ كان مقتنعًا أن الله تعالى قد كتب أن تكون المدينة هي مكان الهجرة، ولذلك رفض نصيحة أقاربه وقرر الهجرة إلى المدينة.

بيعة العقبة الكبرى

بعد منتصف الليل التقى الرسول ﷺ مرة ثانية بمسلمي المدينة في وادي العقبة مع عمه العباس رضي الله عنه. كان عدد مسلمي المدينة يبلغ ثلاثة وسبعين، اثنان وستون منهم من الخزرج، وأحد عشر من الأوس. وضمّ الرهط امرأتين، الأولى هي أمّ عمارة؛ من بني النجار الذين تعلموا الإسلام من مُصعب بن عُمَير، وكانوا قومًا يملؤهم الإيمان واليقين. وقد أثبتوا جميعًا أنهم أعمدة للإسلام، وكانت أمّ عمارة رضي الله عنها نموذجًا لهم، فقد غرست في نفوس أبنائها ولاءً لا يتزحزح للإسلام. وفي الحرب التي وقعت مع مسيْلمة الكذاب بعد وفاة الرسول ﷺ، أُخذ أحد أبنائها، وهو حبيب بن زيد بن عاصم رضي الله عنه، أسيرًا إلى مسيلمة الكذاب. وقد حاول مسيلمة زعزعة عقيدة حبيب؛ فسأله قائلاً: "هل تؤمن أن محمدًا رسول الله"؟ فأجاب حبيب: "نعم". فسأله مسيلمة: "وهل تؤمن أني رسول الله"؟ فقال حبيب: "لا". وعندئذ أمر مسيلمة بقطع أحد الأطراف من جسد حبيب. ثم سأله مرة أخرى: "أتؤمن أن محمدًا رسول الله"؟ فأجاب حبيب: "نعم". فسأله: "أتؤمن أني رسول الله"؟ فأجاب حبيب: "لا". وعند ذلك أمر مسيلمة بقطع

طرف آخر من جسد حبيب، وظل هكذا يقطع طرفًا بعد طرف حتى تمزّق جسد حبيب إلى أشلاء. ولقد مات حبيب ميتةً قاسية بشعة، ولكنه ترك خلفه مثالاً لا يُنسى للبطولة والتضحية من أجل العقيدة الدينية. (السيرة الحلبية، ج٢، ص١٧)

وأما أم عمارة فقد صحبت الرسول ﷺ في العديد من الغزوات.

وباختصار، لقد حقق هذا الرهط من مسلمي المدينة تميزًا كبيرًا في الولاء والإيمان. لقد جاءوا إلى مكة لا من أجل الثروة، بل من أجل اليقين، ولقد نالوا فيضًا وافرًا من هذا اليقين.

وتكلم العباس رضي الله عنه، مدفوعًا بالروابط الأُسرية والإحساس بالمسؤولية الشرعية عن سلامة الرسول ﷺ، فقال للوفد:

"يا معشر الخزرج، إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه. فهو في عزٍّ من قومه ومنعة في بلده. إلا أنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِموه وخاذِلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدَعُوه، فإنه في عزّ ومنَعة من قومه وبلده".

فقام البراء رضي الله عنه قائد الرهط وأجاب:

"لقد سمعناك. وإن قرارنا لحازم في هذا الشأن، وحياتنا رهنُ أمرِ رسول الله، لقد عزمنا وإننا ننتظر قرار الرسول." (السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨)

عرض الرسول ﷺ الإسلام مجددًا وبيّن تعاليمه. وأخبر الوفد أنه سيذهب إلى المدينة إذا كانوا سيمنعون الإسلام كما يمنعون نساءهم وأطفالهم. ولم يكن قد أكمل حديثه حين صاح الرهط الثلاثة والسبعون في صوت واحد: نعم نعم.

وفي غمرة حماسهم نسوا أنه قد يسمعهم أحد. وحذرهم العباس حتى يخفضوا الصوت. ولكن الإيمان كان يتدفق في قلوب ذلك الرهط وكان وجدانهم يموج باليقين، فلم يعد الموت شيئًا مرهوبًا في عيونهم. وعندما سمعوا تحذير العباس صاح أحدهم بصوت عال: يا رسول الله إنَّا لسنا خائفين، وإذا أذنت لنا فإنّا نستطيع أن نقاتل أهل مكة الآن وننتقم لما أجرموا في حقك. لكن الرسول ﷺ قال إنه لم يُؤمر بقتال. عند ذلك عقد الوفد بيعة الوفاء وانفضّ الاجتماع.

عرفت مكة بأمر الاجتماع. فذهبوا إلى خيام أهل المدينة حيث اشتكوا هؤلاء الزائرين لسادتهم، لكن عبد الله بن أبيّ بن سلول، وهو سيد سادتهم، لم يكن يدري شيئًا عما حدث، فأكد لأهل مكة أن هذا الخبر إشاعة كاذبة، فلقد اختاره أهل المدينة زعيمًا ولا يمكنهم فعل شيء كهذا بدون علمه ورضاه. لم يكن عبد الله قد علم بعد أن أهل المدينة قد طرحوا حكم الشيطان، ورضوا بحكم الله بدلاً.

الهجـرة

عاد الوفد إلى المدينة، وبدأ الرسول ﷺ وأتباعه يستعدّون للهجرة. وبدأت الأسر تختفي الواحدة بعد الأخرى. كانت الشجاعة تملأ قلوب المسلمين ليقينهم أن ملكوت الله قريب. وأحيانًا كان الزقاق كله يتم إخلاؤه في ليلة واحدة، ويصبح أهل مكة ليروا أبواب كل منازل هذا الزقاق مغلقة، فيعلمون أن قاطنيها قد هاجروا إلى المدينة. ولقد أدهشهم أن يكون للإسلام كل هذا التأثير العجيب.

وفي النهاية، لم يبق أحد من المسلمين في مكة سوى بعض العبيد، والرسول ﷺ نفسه وأبو بكر ﷺ وأهله، وعليّ بن أبي طالب ﷺ. وتأكد لأهل مكة أن فريستهم توشك أن تفلت، فاجتمع سادتهم ثانية وقرروا أنه لا بد من قتل الرسول ﷺ. وبتدبير إلهي خاص، كان الموعد الذي حدّدوه لقتل الرسول ﷺ

هو الموعد الذي حدّده الله تعالى لنجاته. وعندما اجتمعوا عند باب بيت الرسول ﷺ في نيّة مبيّتة لقتله، كان ﷺ ينسلّ خارجًا في سرّية تحت جنح ظلام الليل. ولا بد أن أهل مكة قد خافوا أن يحبط تدبيرهم الأحمق بعمل من طرف الرسول ﷺ، لذلك باشروا عملهم بحذر، وعندما مرّ الرسول ﷺ نفسه عليهم ظنوه شخصًا آخر، وانسحبوا متوارين جانبًا. وكان أبو بكر، وهو الصديق الأثير لدى الرسول ﷺ، قد علم بخطة الرسول ﷺ قبل التنفيذ بيوم، فانضم إليه في حينه. وغادر الاثنان مكة، ولجآ إلى غار يسمى غار ثور؛ على قمة جبل يبعد ثلاثة أميال من مكة. وعندما علم أهل مكة بإفلات الرسول ﷺ، اجتمعوا وأرسلوا قوة مسلحة تطارده، يقودها قصّاص أثر. وبلغت القوة جبل ثور، وأمام الغار الذي يختفي فيه الرسول وأبو بكر، وقف قصّاص الأثر قائلاً إن محمدًا إمَّا أن يكون في الغار أو أنه صعد إلى السماء. وسمع أبو بكر رضي الله عنه ذلك، فدقّ قلبه بعنف وقال في همس: "لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآنا". فقال الرسول ﷺ: "لا تحزن إن الله معنا". فقال أبو بكر: "إني لا أخشى على نفسي بل أخشى عليك، فإنني إن مت فما أنا إلا امرؤ عادي، ولكن لو أنك مت فذلك يعني موت الإيمان والدين" (الزرقاني). فطمأنه الرسول ﷺ قائلاً له: "ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما" (البخاري، كتاب المناقب).

كان الله ﷻ قد قدّر أن ينتهي طغيان مكة، وكتب العزة والانتشار للإسلام. لذلك فقد خدع المطاردون أنفسهم؛ فسخروا من قول قصّاص الأثر، وقالوا له إنّ الغار مكشوف ولا يُغري باللجوء إليه، ونظرًا لوجود الحيات والأفاعي به، فمن الخطر أن يلجأ إليه أحد. ولو أنهم انحنوا قليلاً لرأوا الرسول ﷺ وصاحبه، ولكنهم لم يفعلوا، فصرفوا قصّاص الأثر، وعادوا إلى مكة.

وانتظر الرسول ﷺ وأبو بكر يومين بالغار، وفي الليلة الثالثة حسب الخطة الموضوعة، جاءت ناقتان سريعتان إلى الغار؛ إحداهما للرسول ﷺ والدليل الذي سيرشد إلى الطريق، والأخرى لأبي بكر وخادمه عامر بن أبي فُهَيرة.

سراقة يلاحق الرسول ﷺ

قبل أن ينطلق الرسول ﷺ، نظر خلفه إلى مكة، وتفجّرت المشاعر في قلبه. لقد كانت مكة مسقط رأسه، عاش فيها طفلاً ورجلاً، وتلقّى فيها دعوة الله ﷻ. لقد كانت المكان الذي ازدهر فيه آباؤه منذ إسماعيل عليه السلام. ومع جيشان هذه الخواطر، ألقى عليها نظرة أخيرة طويلة وقال: "عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللهِ وَأَحَبُّ الأَرْضِ إِلَى اللهِ وَلَوْلا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ". عند ذلك قال أبو بكر رضي الله عنه: "هل تنتظر قرية أخرجت نبيّها سوى الهلاك"؟

عندما فشلت خطة المطاردة، وضع أهل مكة جائزة مقدارها مئة جمل لمن يأتي بالهاربيْن إلى مكة حيّين أو ميّتين، محمد ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه. وأُعلن الخبر في القبائل المحيطة بمكة، وأغرت الجائزة سُراقة بن مالك؛ أحد سادة البدو، فبدأ في مطاردة الرهط المهاجر، وأخيرًا لمحهم على الطريق إلى المدينة. رأى جملين على البعد محمّلين، فخمّن أنهما لا بد يحملان محمدًا ﷺ وأبا بكر. فهمز حصانه، غير أنه قبل أن يذهب بعيدًا، إذا به يتعثر ويسقط، ومعه سراقة. إن رواية سُراقة في هذا الصدد لذات مغزى. قال سُراقة:

فلما عثرتْ بي فرسي وخررتُ عنها، استقسمتُ بالأزلام على عادة العرب من التطير، فخرج السهم بما أكره. ولكن إغراء الجائزة كان شديدًا، فركبت فرسي ثانية، وواصلت ملاحقتهم حتى اقتربت منهم. وظلَّ النبي (ﷺ) مستويًا على راحلته في سكينة ووقار، بينما كان أبو بكر يكثر الالتفات إلى الوراء – من الواضح أن ذلك كان خوفا على سلامة الرسول ﷺ – فلما اقتربت منهم عثرت فرسي مرة أخرى، وسقطت. فاستقسمت بالأزلام مرارًا، فخرج الذي كنت أكرهه. كانت فرسي قد ساخت في الرمال، فوجدت ركوبها واستئناف الملاحقة صعبًا جدًّا؛ فعلمتُ أن الركب تحت حماية الله تعالى. فناديتهم ليتوقفوا. فلما اقتربت منهم أخبرتهم بسوء إرادتي من قبل وما حصل في قلبي من انقلاب، وأنني

راجع الآن تاركًا ملاحقتهم. فخلّى النبي ﷺ سبيلي إلا أنه أخذ مني وعدًا بأن لا أكشف أمرهم لأحد. لقد اقتنعت أن النبي ﷺ صادق ولا بد أن ينتصر في نهاية المطاف. فسألته أن يكتب لي كتاب أمن لينفعني عند غلبته. فأمر ﷺ عامر بن فُهَيرة بذلك، ففعل. وحين أردت أن أعود بالكتاب تلقَّى النبي ﷺ وحيًا عن المستقبل، فقال: يا سُراقة، كيف أنت إذا لبستَ أسورة كسرى الذهبية؟ فسألته في دهشة: أيّ كسرى؟ كسرى بن هرمز.. إمبراطور الفُرس؟ قال الرسول ﷺ: نعم." (أُسُد الغابة)

وبعد هذا اليوم بستة عشر أو سبعة عشر عامًا، تحققت النبوءة حرفيًّا. لقد دخل سراقة الإسلام، وذهب مهاجرًا إلى المدينة، ومات الرسول ﷺ، وبعده مات أبو بكر رضي الله عنه، ثم أصبح عمر رضي الله عنه خليفة الإسلام. ودفع نفوذ الإسلام المتنامي الفُرس إلى الإحساس بالغيرة، فهاجموا المسلمين. ولكنهم بدلاً من إخضاع المسلمين، خضعوا هم للمسلمين. وسقطت عاصمة الفُرس في يد المسلمين حيث استولوا على كنوز كسرى، وفيها سواراه الذهبيان اللذان كان يلبسهما عند ممارسة السُلطة. وكان سُراقة بعد إسلامه قد تعوّد على تكرار ذكر مطاردته للرسول ﷺ ورهطه، وكان يقصّ ما جرى بينه وبين رسول الله. وعندما وُضعت غنائم الحرب أمام عمر رضي الله عنه، لمح السوارين وتذكّر ما قال الرسول ﷺ لسُراقة. لقد كانت نبوءة عظيمة، نطق بها الرسول ﷺ وهو في أقصى درجات الضعف. وقرر عمر رضي الله عنه أن يقدّم تحقيقًا عمليًا للنبوءة على رءوس الأشهاد. فدعا سُراقة، وأمره أن يلبس السواريْن. واعترض سُراقة لأن ارتداء الذهب محرّم على الرجال في الإسلام. فقال عمر رضي الله عنه إن ذلك حق، ولكن تلك المناسبة كانت استثناء. لقد رأى الرسول ﷺ سواري كسرى على معصميه، فكان لا بد له من لبسهما. لقد كان اعتراض سُراقة قائمًا على احترامه لتعاليم الرسول ﷺ، وإلا فإنه كان يتلهف على تحقيق هذه النبوءة العظيمة تحقيقًا عمليًا. فلبس السواريْن، ورأى المسلمون نبوءة رسول الله وقد تحققت. (أُسُد

الغابة)

لقد أصبح الرسول المطارَد ملكًا. ورغم أنه لم يعد هو نفسه في هذا العالم، إلا أن أولئك الذين اتبعوه استطاعوا أن يشاهدوا كلماته ورؤياه تتحقق.

رسول الله ﷺ يصل إلى المدينة

وعودة إلى قصة الهجرة، واصل الرسول ﷺ رحلته دون ترويع من أحد بعد أن صرف سُراقة، ولما وصل إلى المدينة وجد الناس ينتظرونه بشوق عظيم وصبر بالغ، فلا يمكن أن يطلع عليهم فجر يومٍ أسعد من هذا اليوم؛ فإن الشمس التي كانت تشرق بنورها على مكة قد جاءت لتشرق على المدينة. لقد وصلتهم الأخبار بأن الرسول ﷺ قد غادر مكة، ولذا كانوا يتوقعون وصوله. ولعدة أيام، ظل الكثيرون منهم، في مجموعات وطوائف، يغادرون المدينة في الصباح، وينتظرونه على مبعدة أميال منها، ثم يعودون في المساء كاسفي البال. وعندما بلغ الرسول ﷺ المدينة أخيرًا، قرر التوقف عند قباء فترة، وهي قرية قرب المدينة. ورأى أحد اليهود البعيريْن، وحدَس أن راكبيْهما الرسول ﷺ وصاحبه، فارتقى ربوَة ونادَى عاليًا: يا بني قيلة، ها قد جاء الذي أنتم تنتظرون. فهرع إلى قباء كل من سمع النداء، بينما ملأت الفرحة أهل قباء بوجود الرسول ﷺ بينهم، وراحوا ينشدون ويتغنون بتشريفه لهم.

وقد تجلّت البساطة المطلقة للرسول ﷺ في حادثة وقعت حينذاك بقباء. لم يكن أغلب أهل المدينة قد رأوا رسول الله من قبل، ولما رأوه ومرافقيه جالسين تحت شجرة يستظلون، ظن أكثرهم أن أبا بكر هو الرسول، إذ أن لحيته كانت أكثر شيبة من لحية رسول الله، كما كانت ملابسه تبدو أفضل من ملابس الرسول ﷺ، ولذلك تحوّلوا إلى أبي بكر وجلسوا أمامه، بعد أن قدموا له آيات الاحترام والإجلال الواجبة للرسول. فلما رأى أبو بكر أنهم أخطأوا، نهض وخلع عباءته وحجب بها أشعة الشمس عن الرسول ﷺ وقال: يا رسول الله، إنك

تجلس في الشمس فدعني أظلّلك (البخاري). وبهذه البراعة واللطف، بيّن أبو بكر لأهل المدينة ببساطة ما أخطأوا فيه.

مكث الرسول ﷺ عشرة أيام في قباء، وبعدها أخذه أهل المدينة إلى بلدهم. وعند دخوله المدينة، وجد الناس جميعًا قد جاءوا لاستقباله، رجالاً ونساءً وأطفالاً، ومما أنشدوه ترحيبا به كانت هذه الأبيات (السيرة الحلبية):

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

لم يدخل الرسول ﷺ المدينة من الجانب الشرقي، فلماذا ذكروا طلوع البدر؟! لقد كانوا يقصدون أنهم كانوا يحيون في ظلام قبل أن يأتيهم ﷺ ليشرق بنوره عليهم.

لقد دخل ﷺ المدينة يوم الاثنين، ودخل غار ثور يوم الاثنين، وربما يبدو غريبًا أنه فتح مكة يوم الاثنين أيضًا، بعد عشر سنوات من هذا التاريخ.

أبو أيوب الأنصاري يستضيف رسول الله ﷺ

عندما دخل الرسول ﷺ المدينة، تلهّف الجميع لنيل شرف استضافته. وأثناء مرور بعيره على الدروب، كانت القبائل تصطف لاستقباله ويقولون: "هلم إلى العدد والعُدّة والسلاح والمَنعة". كانوا يعرضون بيوتهم، وأموالهم، وأنفسهم، لاستقباله وحمايته. وأظهر كثيرون حماسًا وحمية ولهفة بالغة، فكانوا يواجهون الناقة ويأخذون بعنانها، ويصرّون أن يترجّل الرسول ﷺ عند أبواب دورهم ليدخلها فينالوا شرف استضافته. ويرفض الرسول ﷺ بكل أدب قائلاً: "دعوها فإنها مأمورة".

وأخيرًا توقفت الناقة عند موقع يخصّ يتيمين لبني النجار، فترجّل الرسول ﷺ قائلاً: هذا المنْزل. وجاء كافل اليتيمين وعرض المكان ليستخدمه رسول الله، فردّ بأنه لن يقبل المكان إلا شراء، وتم الاتفاق على الثمن، وقرر الرسول ﷺ أن يبني في هذه البقعة مسجدًا وبعض البيوت. وبعد هذه الترتيبات، سأل الرسول ﷺ عن أقرب الجيران، فجاء أبو أيوب الأنصاري وقال إن منْزله هو الأقرب، وإن كل ما لديه رهن لخدمة رسول الله، فطلب ﷺ منه أن يعد له غرفة في منْزله، وكان منْزل أبي أيوب مكوّنًا من طابقين، فعرض أن يسكن الرسول ﷺ الطابق الأعلى، ولكنه فضّل الطابق الأول، لأنه كان أيسر لزوّاره.

وتجلى الحب الشديد الذي يكنه أهل المدينة للرسول ﷺ مرة أخرى، إذ وافق أبو أيوب أن يدع الرسول ﷺ يسكن الدور الأول في منْزله، ولكنه رفض أن ينام على سقفٍ ينام رسول الله تحته. فقد رأى هو وزوجه في ذلك نوعًا من عدم اللياقة. وحدث أن انكسر إناء للماء فانساب منه الماء على الأرض، وخشي أبو أيوب أن يتساقط بعض الماء على الغرفة التي يشغلها الرسول ﷺ، فأخذ لحافه وجفف به الماء قبل أن يتسرب. وفي الصباح، زار أبو أيوب الرسول ﷺ وحكى له أحداث الليلة البارحة. وعندما سمع الرسول ﷺ، وافق أن يسكن الطابق العلوي. كان أبو أيوب يعدّ وجبات الطعام ويرسلها إلى فوق، فيأكل الرسول ﷺ ما يشاء، ويأكل أبو أيوب وزوجه ما يتبقى. وبعد أيام قلائل طلب آخرون أن ينالوا شرف استضافة الرسول ﷺ، وقد استضافه أهل المدينة إلى حين أن تم إعداد البيت الذي استقر فيه. وكانت هناك أرملة لها ولد وحيد يسمى "أَنَسًا"، في الثامنة أو التاسعة من عمره، فجاءت بولدها إلى الرسول ﷺ وقدّمته له ليكون في خدمته الخاصة. وقد صار لأَنَس هذا شأن كبير خلّده تاريخ الإسلام، فقد أصبح عالمًا عظيمًا كما صار غنيًا أيضًا، وعاش إلى أن بلغ من العمر مئة عام. وفي أيام الخلفاء كان يتمتع باحترام بالغ من كل شخص. وقد رُوي عن أنسٍ أنه خدم الرسول ﷺ منذ كان صبيًا وحتى وفاة الرسول ﷺ، ومع ذلك فإنه لم

يحدث قط أن عنّفه ولا لامه ولا كلفه يومًا بعمل لا يطيقه. وكان أنس خادمه الوحيد طوال إقامته بالمدينة. وتُبين شهادة أنس حقيقة خُلُق الرسول ﷺ في الفترة التي بدأ يباشر فيها السلطة ويتقلد السلطان في المدينة، وتنفتح له أبواب القوة والازدهار.

وفيما بعد، أرسل الرسول ﷺ زيدًا إلى مكة ليُحضر أسرة النبيّ وأقاربه. كان أهل مكة مذهولين بسبب مفاجأة هجرة النبيّ وأتباعه التي أُحكِم تنفيذها والتخطيط لها. ولبعض الوقت لم يفعلوا شيئًا يثير غضبه، وعندما غادرت أسرة الرسول مكة مع أسرة أبي بكر لم يثيروا لهم أية متاعب، ووصلت الأسرتان المدينة دون صعوبات. وفي ذلك الوقت، وضع الرسول ﷺ أساس المسجد في المكان الذي اشتراه لهذا الغرض، وبعد ذلك بني بيوتًا له ولبعض صحبه ورفقائه، وفي سبعة أشهر كان البناء قد تم.

الأخطار تحوم في المدينة

خلال أيام من وصول الرسول ﷺ إلى المدينة، أوْلت القبائل المشركة هناك الكثير من الاهتمام بالإسلام، واعتنقته الغالبية منهم، ولكن كان فيهم الكثير ممن لم تستيقن قلوبهم بعد. وبهذا فقد انضمت إلى المسلمين طائفة لم تكن قلوبها مسلمة لله. وقد قام أفراد هذه الطائفة بأداء أسوأ الأدوار في التاريخ اللاحق، غير أن بعضهم تاب وأصبح مخلصًا، ولكن الآخرين ظلوا علي غلّهم يكيدون للإسلام والمسلمين. ولقد رفض بعض المشركين كلية أن ينضووا تحت لواء الإسلام، ولم يطيقوا تحمل تزايد أثر الدين الجديد، فهاجروا من المدينة إلى مكة، وأصبحت المدينة بلدًا مسلمًا، وتم فيها تأسيس عبادة الله الأحد. لم تكن هناك مدينة أخرى في العالم كله تستطيع أن تدّعي ذلك الشرف، ولم تكن فرحة النبيّ وصحبه قليلة، أن يحدث ذلك خلال أيام قليلة من هجرتهم، وأن تقلع مدينة بأكملها عن عبادة الأصنام، وأن تؤسس بدلاً منها عبادة الله الأحد، الذي ليس

كمثله شيء.

ولكن، لم يكن هناك سلام بعد، ولم يستتب الأمن تمامًا للمسلمين. ففي المدينة نفسها كانت هناك طائفة اعتنقت الإسلام ظاهريًا فقط، وفي بواطنهم كانوا أعداء ألداء للرسول ﷺ. وكذلك كان هناك اليهود الذين كانوا يكيدون له بلا توقف. وكان الرسول ﷺ يعي كل هذه الأخطار، فظل يقظًا، وحثّ أصحابه وأتباعه أن يكونوا على حذر، وكان عادة يظل يقظًا طوال الليل (فتح الباري ج ٦ ص٦٠). وأخيرًا طلب المساعدة ذات ليلة بسبب الإجهاد الذي أصابه من كثرة السهر، وعلى الفور سمع صوت السلاح، فسأل: "منْ هذا؟" فرد عليه المجيب قائلاً: "سعد بن أبي وَقَّاص يا رسول الله. جئتُ أحرسك". (راجع البخاري ومسلم)

ولقد تحمّل أهل المدينة نصيبهم من المسئولية بأمانة وكفاءة. فقد دعوا رسول الله أن يأتي ليقيم بينهم، وأصبح من واجبهم الآن أن يحموه ويذودوا عنه. فاجتمعت القبائل في المدينة، وقرروا أن يقوموا بحراسة داره مناوبة بينهم.

ولم يكن هناك من فرق كبير بين الأخطار التي كانت تحدق بحياة الرسول ﷺ في مكة والأخطار التي كانت تهددها في المدينة، وأيضًا لم ينعم أتباعه بالسلام في المدينة كما لم ينعموا به في مكة. وكان الفرق الوحيد هو أن المسلمين في المدينة كانوا يقومون بعبادة الله تعالى في المسجد الذي بنوه لعبادته ﷻ، فكانوا يجتمعون من أجل ذلك خمس مرات دون أن يتعرضوا للمنع أو الضرب. غير أن الأخطار ظلت تحوم في المدينة، وخاصة حينما يرخي الليل أستاره.

ومر شهران أو ثلاثة. وأفاق أهل مكة من ذهولهم، وبدأوا في وضع الخطط لمضايقة المسلمين، ولم يمض زمن طويل حتى أدركوا أن الاكتفاء بمضايقة المسلمين الذين بقوا في مكة ومن حولها لن يجدي شيئًا، وأنه لا بد أن يهاجموا النبيّ وصحبه في المدينة، ويدفعوهم إلى ترك ملجئهم الجديد. فوجّهوا خطابًا إلى

عبد الله بن أبيّ بن سلول، زعيم المدينة، الذي كان أهل المدينة قد أجمعوا على تنصيبه ملكًا قبل وصول الرسول ﷺ. وقالوا في هذا الخطاب إنهم صُدموا لوصول النبيّ إلى المدينة، وأن أهل المدينة ارتكبوا خطأ بالغًا بتوفير ملجأ له. وفي النهاية أقسموا بالله أنهم سيهاجمون المدينة مادامت قد آوت عدوّهم، إلا إذا طرده أهل المدينة أو قاتلوه. وأنهم حين يهاجمون المدينة فسوف يضعون السيف في كل الرجال، وسوف يسترقّون كل النساء. وجاء في سنن أبي داود، كتاب الخراج:

"إِنَّكُمْ آوَيْتُمْ صَاحِبَنَا، وَإِنَّا نُقْسِمُ بِاللهِ لَتُقَاتِلُنَّهُ أَوْ لَتُخْرِجُنَّهُ، أَوْ لَنَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ بِأَجْمَعِنَا حَتَّى نَقْتُلَ مُقَاتِلَتَكُمْ وَنَسْتَبِيحَ نِسَاءَكُمْ".

وخُيّل لعبد الله بن أبي بن سلول أن في هذه الرسالة نجدة إلهية، فاستشار المنافقين الآخرين في المدينة، وأقنعهم أنهم لو تركوا النبيّ يعيش في سلام بينهم، فسوف يجلبون على أنفسهم عداء مكة، لذا لا بد من محاربته حتى ولو من أجل تهدئة أهل مكة. وعلم الرسول ﷺ بذلك، فذهب إلى عبد الله بن أبي بن سلول، وحاول إقناعه أن خطوة كهذه ستكون انتحارية، فكثير من سكان المدينة صاروا مسلمين، وهم على استعداد للتضحية بحياتهم من أجل الإسلام. فإذا أعلن عبد الله الحرب على المسلمين، فإن أغلبية أهل البلد سيقاتلون إلى جانب المسلمين، وحرب كهذه سوف تكلفه غاليًا، وسوف يكون فيها هلاكه هو بالذات. وتأثر عبد الله بهذه النصيحة، واقتنع بالعدول عن خطته.

وفي ذلك الوقت اتخذ الرسول ﷺ خطوة أخرى هامة. فقد جمع المسلمين، واقترح عليهم أن يشكل كل اثنين من المسلمين معًا رابطة تجمعهما كأخَوَيْن. وتقبّل المسلمون الفكرة بقبول حسن. فاتخذ الأنصارُ من أهل المدينة.. المهاجرين من أهل مكة إخوةً لهم. وفي ظل هذه الأخُوّة، عرض مسلمو المدينة على مسلمي مكة مشاركتهم في ثرواتهم وممتلكاتهم؛ حتى إن أحد مسلمي المدينة

عرض أن يطلق إحدى زوجتيه ليتزوجها أخوه المكّي المسلم. ورفض المهاجرون من أهل مكة هذه العروض الكريمة التي قدّمها إخوانهم من الأنصار، ولكن الأنصار ظلوا على إصرارهم. وعُرض الأمر على الرسول ﷺ، واحتج الأنصار بأن مسلمي مكة هم إخوانهم، ومن ثم فلا بد لهم من مشاركتهم ما يملكون. وإن لم يكن المهاجرون يعلمون كيف يفلحون الأرض ويزرعونها، فيمكنهم مقاسمة الأنصار في غلة الأرض إن لم يملكوا الأرض نفسها. ورفض مسلمو مكة شاكرين هذا العرض السخي الكريم، وفضّلوا البقاء في مهنة التجارة. ولقد فتح الله تعالى للمهاجرين أبواب الرزق فصاروا أغنياء ثانية، ولكن ظل مسلمو المدينة يذكرون دائمًا أن عرضهم بالمشاركة مع المهاجرين في ما يملكون ظل قائمًا. وقد حدث مرارًا بعد أن مات واحد من الأنصار، أن قام أبناؤه باقتسام ممتلكاتهم مع من تآخوا معهم من المهاجرين. واستمر هذا التقليد معمولاً به لسنوات طويلة إلى أن أبطله الوحي القرآني بما جاءت به تعاليمه حول تقسيم الميراث (البخاري ومسلم).

إبرام معاهدة بين مختلف قبائل المدينة

وبالإضافة إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، عقد الرسول ﷺ ميثاقًا يربط بين كل سكان المدينة، وبهذا الميثاق اتحد العرب واليهود مع المسلمين في مواطنة مدنية مشتركة. وشرح الرسول ﷺ للعرب واليهود أنهم قبل وجود المسلمين كانوا فريقين اثنين في بلدتهم، والآن صارت الفرق ثلاثاً. ولذلك يتطلب الأمر أن يدخلوا معًا في اتفاق يربط الجميع، ويحقق للكل الاستقرار والسلام. وأخيرًا تم الوصول إلى اتفاق وكان يقول ما معناه:

- هذا عهد بين رسول الله والمؤمنين به من جهة وبين كل الآخرين سواهم (من سكان المدينة) ممن رضوا بالدخول فيه.
- إذا قُتل مسلم مهاجر فديّته تُدفع للمسلمين المهاجرين، وعليهم تقع

مسئولية فك أسراهم، وكذلك الأمر في كل قبائل المسلمين في المدينة فيما يتعلق بالديّات وفك الأسرى.

- كل من يثير العداوة أو يدعو للخصومة والفوضى سيعتبر عدوًا للجميع، وعلى الجميع واجب القتال ضده حتى ولو كان قريب أحدهم أو ولده، فلا يحميه والده ولا قريبه. وإذا قَتَل مسلم كافرًا في معركة فإن أقرباءه المسلمين لا يُطالَبون بانتقام، ولا يساعدوا كافرًا ضد مسلم.

- ولليهود الداخلين في هذا الميثاق حق المعونة من المسلمين، ولا يكابدوا الصعوبات. ولا يُعان عدوّهم ضدهم.

ولا يقوم كافر بإيواء أيّ مكّي، ولا يقوم بحراسة ولا منع ممتلكات أهل مكة، ولا ينحاز إلى أيّ جانب في قتال يقع بين المسلمين والكافرين.

- وإذا أوذي مسلم وظُلم بلا سبب، فمن حق المسلمين القتال ضد من اعتدَى.

- ولو هاجم العدوّ المدينة فإن اليهود سيقاتلون إلى جانب المسلمين ويتحمّلون معهم نفقات الحرب.

- والقبائل اليهودية المتحالفة مع القبائل الأخرى في المدينة لهم نفس حقوق المسلمين، ولليهود دينهم. وللمسلمين دينهم. وما يتمتع به اليهود من حقوق فهي لأتباعهم.

مواطنو المدينة ليس لهم الحق في إعلان الحرب بدون أن يجيز الرسول ذلك، ولكن ذلك لا يجحف بحق فرد أن يعاقب فردًا قد أجرم في حقه.

واليهود سيتحملون تكاليف مؤسساتهم وتنظيمهم، وعلى المسلمين تحمل ما يخصّهم، ولكنهم في حال الحرب يشتركون كوحدة واحدة في تحمّل التكاليف.

وتُعتبر المدينة حرمًا آمنًا مقدسًا لا تُنتهك حرمته من الأطراف الموقّعة على هذا الميثاق.

وكل غريب يجيره ويحميه مواطن من أهل هذا الميثاق سيعتبر مواطنًا، ولا يحق لأهل المدينة أن يُدخلوا إليها امرأة لتصبح مواطنة بدون إذن أهلها، وكل خصام ونزاع فمردّه إلى الله وإلى الرسول.

أطراف هذا الميثاق متّفقون على مقاومة عدوّهم ولا يجوز الاتفاق مع أهل مكة وحلفائهم؛ ذلك لأن أطراف الميثاق متّفقون على مقاومة عدوهم المشترك.

المتعاهدون سيبقون متّحدين في الحرب والسلام على السواء، لا يدخل أحد منهم في سلام منفصل، ولا يسمح لطرف أن يتّخذ طرفًا آخر في حرب خاصة به.

كل من دخل في الميثاق وارتكب خرقًا له سيكون مُعَرَّضًا لعقاب الله، هو الوكيل وهو ناصر المتقين ومحمد نبيّه (انظر ابن هشام).

هذا هو الميثاق في عجالة، تم جمعه من نتف الروايات التي سجلها التاريخ، وهو يؤكد دون شك أن الأسس الهادية في تسوية النّزاعات والخلافات بين طوائف المدينة كانت أمينة وواقعية وعادلة.

وأولئك الذين خالفوا الميثاق وخرجوا عليه، تقع عليهم مسؤولية المخالفات وما ترتب عليها. وقد أوضح الميثاق بجلاء أن الرسول ﷺ كان يتعامل فعلاً بتمدّن وتعاطف مع جميع مواطني المدينة الآخرين، وكان يحترمهم ويتعامل معهم

كإخوة. فإذا كانت النّزاعات والصراعات قد حدثت بعد ذلك، فإن المسؤولية تقع على اليهود.

وكما سبق أن قلنا، مرّ شهران أو ثلاثة قبل أن يُعبّئ أهل مكة خططهم المعادية ضد الإسلام، وجاءتهم الفرصة حين وصل سعد بن معاذ ﷺ سيد الأوس إلى مكة ليطوف بالكعبة، فرآه أبو جهل فقال له: "أتتوقعون أن بإمكانكم المجيء إلى مكة والطواف بالكعبة آمنين بعد أن قدّمتم الحماية لهذا المارق محمد؟ أتظن أنك تستطيع منع محمد وإنقاذه؟ أقسم بالله أنه لو لا أبو سفيان لم تستطع أن تعود لأهلك سالمًا". فردّ سعد بن معاذ ﷺ قائلاً: "خذها مني كلمة، لو منعتمونا من الطواف بالبيت والحج، فلن تجدوا سلامًا في الطريق إلى الشام".

وحول هذا الوقت، مرض الوليد بن المغيرة مرضًا شديدًا، وهو أحد سادات مكة، وتوقع أن نهايته قد حانت. وكان سادات مكة الآخرون حول فراشه. ولم يستطع الوليد أن يتمالك نفسه فأخذ يبكي، فتعجب السادة الآخرون لبكائه، وسألوه عما يبكيه. فأجاب: "أتظنون أني أخشى الموت؟ ليس الموت ما أخشاه، بل أخشى أن ينتشر دين محمد وأن يتبعه الناس حتى تبايعه مكة نفسها". وعند ذلك أقسم له أبو سفيان أنهم سيقاومون هذا باذلين أرواحهم ضد انتشار هذا الأمر (الخميس جزء ١).

مشركو مكة يستعدّون لمهاجمة المدينة

يتضح من هذا السّرد للأحداث أن هدوء عداوة مكة كان أمرًا مؤقتًا، إذ كان سادة مكة يستعدون لاستئناف الهجوم على الإسلام. لقد أخذ الزعماء الراحلون على هؤلاء الذين بقوا من بعدهم مواثيق مغلظة أن يظلوا على عداوة الرسول ﷺ مدى الحياة، واستنفروهم واستنهضوهم للحرب ضدّه وضدّ أتباعه. وقد حرّض مشركو مكة أهلَ المدينة على حمْل السلاح ضد المسلمين وطرْدهم من المدينة، كما أنذروهم بالهجوم على المدينة، وقتل رجالهم واستعباد نساءهم

إن لم يفعلوا المطلوب. فلو كان الرسول ﷺ قد تنحّى جانبًا ولم يفعل شيئًا للدفاع عن المدينة، لكان قد فرّط في حق مسؤوليات جسام. ولذلك فقد أسّس الرسول ﷺ نظامًا للاستطلاع، فأرسل مجموعات من الناس إلى أماكن مختلفة حول مكة ليتعرّف علامات استعداد مشركي مكة للحرب. ومنذ وقت لآخر، كانت تقع بعض الحوادث والاشتباكات والمعارك بين هذه المجموعات وبين أهل مكة.

يقول الكُتّاب الأوروبيون إنّ النبيّ هو الذي أشعل شرارة هذه الأحداث، وإذن فهو المسؤول عن الحرب التي نجمت بعد ذلك، ولذا فهو يُعتبر الطرف المعتدي. ولكن أمامنا ثلاثة عشر عامًا من طغيان أهل مكة، ومن ثم مكائدهم لاستعداء أهل المدينة على المسلمين، والتهديد بالهجوم على المدينة نفسها. ولا يمكن لمن يضع كل هذا نصب عينيه أن يتّهم الرسول ﷺ بالمسؤولية عن إشعال الحرب. وإذا اضطر أن يرسل بعض السرايا للاستطلاع، فهذا دفاع عن النفس. إنّ ثلاثة عشر عامًا من الطغيان والاضطهاد والقتل والتعذيب كانت كافية لأن يتّخذ المسلمون كافة الوسائل للدفاع عن أنفسهم، وإذا نشبت الحرب بينهم وبين أهل مكة فإن المسؤولية لا تقع على عاتق المسلمين في ذلك.

إنّ الأمم المسيحية اليوم تعلن الحرب لأسباب أدنى وأوهن كثيرًا من ذلك، ولو أن نصف ما ارتكبه أهل مكة ضد المسلمين قد ارتكبه بلد في حق أحد الشعوب الغربية، لوجدوا فيه المبرر الكافي الذي يدفعهم لشنّ الحرب بسببه؛ فحين يقوم شعب في بلد ما بالتدبير والتخطيط والتعبئة الشاملة للقضاء على شعب آخر، وحين يُرغم شعبٌ ما شعبًا آخر على الخروج من دياره، ألا يعطى هذا للضحايا الحق في شنّ الحرب؟ إنّ المسلمين لم يكونوا في حاجة إلى سبب إضافي لشنّ الحرب على مكة بعد أن اضطرهم أهلها للخروج منها والهجرة إلى المدينة. ورغم ذلك فإنّ الرسول ﷺ لم يعلن الحرب. لقد أظهر تسامحًا، وقصر كل أنشطته الدفاعية على الاستطلاع فقط، بينما استمر أهل مكة في إثارة قلق

المسلمين وإزعاجهم، وحرّضوا أهل المدينة ضدّهم، وتدخّلوا فمنعوهم حقهم في الحج، وغيروا طرق قوافلهم المعتادة، وبدأوا يندسّون في القبائل المحيطة بالمدينة ويحرّضونهم ضد المسلمين.

وتهدّد سلام المدينة. وهكذا صار واجبًا واضحًا على المسلمين أن يقبلوا التحدّي، تحدّي الحرب الذي كان أهل مكة يطرحونه طيلة أربعة عشر عامًا كاملة، وتحت هذه الظروف والملابسات لا يمكن لعاقل أن ينازع في حق المسلمين أن يقبلوا التحدّي.

وبينما كان الرسول مشغولاً في أعمال الاستطلاع، فإنه لم يهمل الاهتمام بتلبية الاحتياجات اليومية العادية والضرورات الروحانية لأتباعه في المدينة. وكان فيها غالبية عظمى من السكان قد صاروا مسلمين ظاهرًا وباطنًا، وبعضهم أظهر الإسلام فقط ولم يزد. وبدأ الرسول ﷺ يؤسّس الشكل الإسلامي للحكومة في المدينة.

وفي الأيام الخوالي، كان العرب يحسمون نزاعاتهم بالسيف أو بالعنف. وقد أدخل الرسول ﷺ نظام التقاضي، فعين القضاة للنظر في الدعاوى التي يقيمها الأفراد أو المجموعات بعضهم ضد الآخر. وما لم يُصدر القاضي إعلانًا بصحة الدعوَى فلا تُعتبر التهمة قائمة بعد. وفي الماضي كان العرب يزدرون المهن الذهنية، فاتخذ الرسول ﷺ خطوات لمحو الأمية وإشاعة الرغبة في التعليم، وطلب ممن يجيدون القراءة والكتابة أن يُعلموا الآخرين هذه الفنون. ووضع نهاية للظلم والقسوة، كما فرض القواعد لحفظ حقوق النساء. وتصدّق الأغنياء من أجل حاجات الفقراء وتحسين مستوى الحياة الاجتماعية للمدينة. وتمت حماية العمال من الاستغلال، ووُضعت التدابير لحفظ حقوق الورثة الضعفاء من اليتامى وتعيين الأمناء عليهم وعلى أموالهم. وبدأ تسجيل القروض بالكتابة، والتأكيد على الأهمية القصوَى للوفاء بالعهود. كما تم إلغاء التجاوزات في معاملة العبيد،

وتوَجّه الاهتمام بأمور النظافة الشخصية والصحة العامة، كما تم إجراء إحصاء للسكان. ومُهّدت الطرق والدروب وتم توسيعها، واتخذت الخطوات اللازمة للاحتفاظ بنظافتها. وباختصار، فإن العرب البدائيين، ولأول مرة في تاريخهم، بدأوا يخطون على درْب التهذيب والتمدّن.

غـزوة بــدر

كان أهل مكة يستعدون من أجل ترتيبات الحرب، وكان الرسول ﷺ يخطط من أجل وضع الترتيبات العملية وإرساء القواعد وسن القوانين التي لن تفيد مجتمعه وجيله الخاص من العرب فحسب، بل تفيد الإنسانية كلها، وعلى مدى التاريخ. وهكذا بينما كان الرسول ﷺ يخطط لإرساء القانون الذي يضع منهجًا للحياة يكون كفيلاً لأن يجلب السلام لقومه وللآخرين، ويفتح للجميع طريق المجد والتقدم، كان أعداؤه من أهل مكة على العكس من ذلك يخططون من أجل تحطيم ذلك المنهج، والقضاء على ذلك القانون. وقد ترتبت على خططهم نتائج وتداعيات، أثمرت ثمرتها في معركة بدر.

كان قد مرّ على الهجرة ثمانية عشر شهرًا. وكان أبو سفيان على رأس قافلة تجارية عائدة من الشام. وتحت مظلة الاحتجاج بحماية هذه القافلة، حشد أهل مكة جيشًا ضخمًا وقرروا تسييره إلى المدينة. وعرف الرسول ﷺ بهذه الاستعدادات، وجاءه الوحي من الله تعالى أن الوقت قد حان لسداد الدَيْن إلى العدو وبنفس الطريقة. خرج الرسول ﷺ من المدينة ومعه عدد من أصحابه، ولم يكن أحد يعلم حتى هذا الأوان ما إذا كانت هذه الفئة المسلمة ستلقَى القافلة العائدة من الشام أو الجيش القادم من مكة، وكان عدد المسلمين حوالي الثلاثمئة.

لم تكن القوافل في تلك الأيام تقتصر على الإبل المحمّلة بالبضائع، بل كانت تشمل أيضًا جنودًا مسلحين يحرسون القافلة ويصحبونها خلال رحلتها. وعندما اشتد التوَتّر بين أهل مكة ومسلمي المدينة، أخذ سادة مكة يُولون عناية خاصة

لتسليح القوة المرافقة للقوافل. وسجّلت الوثائق التاريخية حقيقة أن هناك قافلتين أخريين مرّتا على هذا الطريق قبل فترة قصيرة، وبلغ عدد الحرس المرافقين في واحدة منهما مائتي رجل مسلح، وفي الأخرى ثلاثمئة.

وإنه لافتراض خاطئ أن نظن.. كما يفعل الكتّاب المسيحيون.. أن الرسول ﷺ أخذ معه ثلاثمئة من أتباعه وتوجّه بهم ليهاجم قافلة تجارية لا ترافقها قوة للدفاع؛ فإن هذا ظن فاسد وليس له أساس من الصحة. فتلك القافلة القادمة من الشام كانت ضخمة، وبالنظر إلى حجمها وحجم الحراسة المسلحة التي ترافق القوافل الأخرى، كان من المتوقع أن تكون تلك القافلة في حراسة قوة كبيرة تتراوح بين أربعمئة أو خمسمئة من الحراس المسلحين المرافقين لها.

وإنه لمن الظلم البالغ الزعم بأن فئة قليلة من المسلمين، قوامها ثلاثمئة فرد ضعفاء التسليح، قد خرجوا بقيادة الرسول ﷺ لمهاجمة وسلب قافلة جيدة التسليح كهذه. إن هذا تفكير المتحاملين على الإسلام الذين لا يضمرون سوَى سوء النية المتعمّد بغير عقل أو منطق. ولو كان رهط المسلمين قد خرج لمواجهة هذه القافلة وحدها فقط، فإن مغامرتهم يمكن أن توصف بأنها مغامرة حرب؛ مع أنها كانت حربًا دفاعية. وسبب اعتبارها مغامرة؛ هو قلة عدد المسلمين وضعف تسليحهم مقابل ضخامة عدد أهل مكة وجوْدة تسليحهم، واستعدادهم الطويل لشنّ العدوان على المسلمين في المدينة.

وفي الحقيقة، إن الظروف التي خرجت فيها هذه الفئة القليلة من المسلمين كانت أشد خطرًا. وكما أسلفنا، فإنهم لم يكونوا يعرفون ما إذا كانوا سيلقون القافلة العائدة من الشام أم سيضطرون لمواجهة الجيش القادم من مكة. وعدم وضوح الهدف أمامهم أدّى إلى حالة "عدم اليقين" التي أشار إليها القرآن المجيد، وكان عليهم أن يتوقعوا الأمريْن. وترجع مغادرة المسلمين للمدينة في ظل حالة عدم اليقين هذه إلى اطمئنانهم بالإيمان وإخلاصهم الصادق الذي لا حدود له.

وبعد أن صاروا على مسافة من المدينة، أخبرهم الرسول ﷺ أنهم ملاقو الجيش الضخم القادم من مكة بدلاً من القافلة القادمة من الشام.

بلغت المسلمين أنباء متضاربة تتعلق بحجم جيش مكة، وأقربها للحقيقة كان يحدّد العدد بألف، كلهم من المقاتلين المجهزين بالسلاح والمدربين على فنون الحرب. وكان العدد الذي صحب الرسول ﷺ يبلغ ثلاثمئة وثلاثة عشر ليس إلا، منهم كثيرون بلا خبرة ولا تدريب، وأغلبهم ضعيف التسليح، وكانت الجمهرة الكبرى منهم يمشون على أقدامهم أو محمولون على إبل، وليس عندهم جميعًا سوى فرسين.

لقد اضطرت هذه الفئة القليلة التي كانت تفتقر إلى أسلحة الحرب وخبرة القتال إلى مواجهة قوّة تبلغ ثلاثة أمثالها في العدد، تتكوّن في غالبيتها من مقاتلين مدرّبين ذَوي حنكة وخبرة. وإنه لمن الواضح تمامًا أن اتخاذ قرار بهذه المواجهة كان أكثر القرارات التي تم اتخاذها على الإطلاق في خطورتها على مدى التاريخ.

وكان الرسول ﷺ من الحكمة بحيث يتأكد أن لا يشترك أحد في المعركة القادمة بغير علم سابق، أو دون أن تكون موافقته نابعة من صميم قلبه وإرادته الحرة. فأخبر أصحابه بوضوح أنهم لم يعودوا يواجهون احتمال لقاء القافلة، بل هو جيش مكة الآن، وسأل الناس المشورة. وقام الواحد تلوَ الآخر من المهاجرين يؤكدون للرسول ﷺ ولاءهم وحماسهم وتصميمهم على القتال ضد جيش مكة، الذي جاء ليهاجم مسلمي المدينة في وطنهم وبيوتهم. وكرّر الرسول ﷺ طلب المشورة بعد كل مرة يستمع فيها إلى واحد من المهاجرين. وكان الأنصار من أهل المدينة صامتين حتى الآن، فالمعتدون كانوا من مكة، وتربطهم روابط الدم بكثير من هؤلاء المهاجرين الذين كانوا يشكلون جزءًا من هذه الفئة القليلة. وقد خشي الأنصار أن يقولوا شيئًا قد يجرح مشاعر إخوانهم المهاجرين، إذا أظهروا رغبتهم وحماستهم لقتال أهل مكة.

ولكن لما أعاد النبي ﷺ قوله: "أشيروا عليّ أيها الناس"، قام أحد الأنصار وقال: يا رسول الله، لقد أُشير عليك كثيرًا، ومع ذلك تكرر قولك هذا، "والله لكأنك تريدنا نحن الأنصاره؟". قال: "أجل". قال: ربما تفعل ذلك لأنك حين جئتنا تعاهدنا معك على أن نقاتل العدو معك إذا دهمك وأصحابَك داخل المدينة فقط؛ ولكن بما أننا قد خرجنا الآن من المدينة فتظن أننا برآء من ذمتنا. يا رسول الله، لم نكن نعرفك حين عقدنا معك العهد كما نعرفك الآن. لقد علِمنا الآن سموّ منـــزلتك الروحانية، فلا نبالي الآن بما تعاهدنا معك من قبل. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون. فسوف نقاتل عن يمينك وشمالك وأمامك ووراءك، ولن يصلك العدو إليك إلا على جثثنا الهامدة. فامضِ يا رسول الله، لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو أمرتنا بأن نخوض هذا البحر أمامنا لخضناه غير مترددين. (انظر البخاري كتاب المغازى، وابن هشام).

كانت تلك هي روح الحب والتضحية التي أظهرها المسلمون الأُوَل، والتي لم يوجد لها مثيل في تاريخ العالم كله. لقد ذكرنا سابقًا مَثَل أصحاب موسى عليه السلام، وكيف رفضوا قتال العدو. وهكذا كان حال حواريي المسيح عليه السلام، الذين تركوه في أحرج المواقف، إذ خانه أحدهم وأسلمه لقاء مبلغ حقير، وأنكره الآخر وصبّ عليه اللعنات، بينما لاذ الباقون بالفرار في ساعة العسرة. أما المسلمون من الأنصار في المدينة الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ، فلم يكن قد مضى على صحبتهم له سوى عام ونصف، ومع ذلك فقد بلغوا تلك القوّة التي لا مثيل لها في عالم الإيمان، بحيث لو أمرهم الرسول ﷺ أن يلقوا بأنفسهم في خضمّ البحر لكانوا طوْع أمره دون أيّ تردد. لقد حصل الرسول ﷺ على المشورة التي طلبها، ولكنه لم يكن لديه أدنى شك في حب أتباعه وصدق إخلاصهم. لقد طلب المشورة ليغربل منهم الضعيف ويقصيه بعيدًا، فوجد

المهاجرين من أهل مكة، والأنصار من أهل المدينة، وكل منهم يباري الآخر في التعبير عن الحب والتضحية، وكلاهما قد صمّم ألا يولي العدو دبره، حتى ولو كان العدو يفوقهم في العدد أضعافًا ثلاثة، وكان أفضل منهم كثيرًا في السلاح والعتاد، وأشد منهم خبرة بفنون القتال. لقد وضعوا كل ثقتهم في وعد الله ﷻ، وأظهر كل من الأنصار والمهاجرين معًا عظمة تقديرهم للإسلام، وقدّموا أرواحهم ومهجهم للدفاع عنه.

وتقدم الرسول ﷺ بعد أن تحقّق من إخلاص كل من مسلمي مكة والمدينة، حتى بلغ مكانًا يسمى بدرًا، فأخذ بمشورة أحد صحابته وأمر رجاله أن يعسكروا قريبًا من ماء بدر. وقام المسلمون بتأمين مصدر المياه هذا، غير أن منطقة الأرض التي كانوا عليها كانت رملية لا تثبت عليها الأقدام حين تقتضي المعركة المناورات بين الرجال، وأظهر الصحابة قلقهم الطبيعي لهذا العيب الذي يشوب المكان، وشاركهم الرسول ﷺ القلق، فأمضى الليل كله يدعو ربه:

"اللهم، أنجِزْ لي ما وعدتَني. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبَد في الأرض أبدًا". (راجع الطبري)

سمع الله تعالى تضرع نبيّه، ونزل المطر أثناء الليل، فأصبح الجزء الرملي من الميدان الذي كان يشغله المسلمون رطبًا ومتماسكًا، أما الجزء الآخر الذي نزل به العدو فأصبح طينيًّا زلقًا. ولعل الأعداء من أهل مكة قد اختاروا هذا الجزء وتركوا الجزء الرملي للمسلمين عمدًا، لأن عيونهم الخبيرة فضّلت الأرض الجافة لتسهيل حركة المشاة والفرسان. ولكن الله قلب عليهم الطاولة في الوقت الدقيق المحكم. لقد تصلبت المنطقة الرملية التي كان عليها المسلمون بفعل المطر ليلاً، وأوْحلت المنطقة الصلبة التي كان عليها أهل مكة وصارت مزلقة للأقدام. وخلال الليل، تلقّى رسول الله إشارة من ربه ﷻ أن رءوسًا مهمّة من رجال العدوّ ستلقَى حتفها. بل لقد أُوحي إليه بأسماء الأشخاص، وأُوحي إليه بالمواضع

التي سيلقون فيها مصرعهم. ولقد هلكوا كما سماهم ﷺ، وسقطوا حيث سبق وأخبر به.

وعندما دارت المعركة ذاتها، أظهرت هذه الفئة القليلة من المسلمين جسارة عجيبة وتفانيًا رائعًا. ولتوضيح ذلك، نكتفي بذكر حادثة واحدة، حدثت لأحد قادة المسلمين ويسمى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه؛ وهو أحد سادات مكة، وواحد من الجنود القليلين في جيش المسلمين الذين لهم خبرة بفنون القتال. وعندما بدأت المعركة، التفت عن يمينه وشماله ليرى نوع المساندة التي لديه، فلم يجد لدهشته سوى فتيَين حديثي السن من الأنصار. دقّ قلبه وقال في نفسه: إن كلّ قائد يحتاج عونًا على جانبيه، وأنا أحوَج إلى العوْن في يومي هذا، ولكن ليس لديّ إلا فَتَيانِ عديما الخبرة، فماذا أفعل بهما؟ وما كاد عبد الرحمن ينتهي من حديث النفس هذا، حتى لَمسه أحدُ الفتيين بكوعه، فلما مال إليه ليسمعه قال: يا عمّ، أَرِني أبا جهل، فقد سمعنا أنه يسبّ رسول الله ويؤذيه، فإني أريد نِزاله. ولم يكد عبد الرحمن يجيب هذا الفتى حتى غمزه الفتى الآخر فقال له مثل ما قاله الأول. فتعجب عبد الرحمن من شجاعة الفتيين وعزيمتهما. ولم يفكر عبد الرحمن، رغم كونه جنديًا محنكًا، أن يهاجم وحده قائد الجيش المعادي. وأشار لهما عبد الرحمن بإصبعه إلى أبي جهل وكان مدجّجًا بالسلاح، يقف خلف الصفوف، يحرسه قائدان كبيران شاهرين سيوفهما من جانبيه. وما إن خفض عبد الرحمن أصبعه التي أشار بها حتى انقضّ الفتيان على صفوف العدو في سرعة الصقر متجهين إلى هدفهما المنشود، وكان الهجوم مفاجئًا أذهل الجنود والحراسة المحيطة بأبي جهل، فهاجموا الفتيين، وفقد أحدهما ذراعه، غير أن ذلك لم يوهن منهما ولم يثنهما عن عزمهما، فهاجما أبا جهل بعنف ساحق، وسقط قائد مكّة الكبير على الأرض مصابًا بجراح خطيرة أصابت منه مقتلاً.

ومن هذه الروح العالية من التصميم والإصرار التي كانت تملأ قلبيْ هذيْن الصبيين، يمكن للمرء أن يدرك مدى التأثر العميق الذي شعر به صحابة الرسول

ﷺ، الصغير منهم والكبير، بأخبار الاضطهاد الفظيع، والتعذيب الوحشي الذي تعرّض له رسول الله ﷺ وأتباعه.

إننا نقرأ عن هذا التعذيب فقط في التاريخ، ومع ذلك نتأثر بعمق، ولكن مسلمي المدينة سمعوا الوقائع من شهود العيان الذين حكوا عن الممارسات الوحشية العديدة، ويمكننا أن نتخيّل جيدًا كيف أحسّوا بمعاناة إخوانهم. لقد سمعوا عن وحشية المشركين من أهل مكة من ناحية، ومن ناحية أخرى سمعوا عن حلم الرسول ﷺ وصبره عليهم، فلا عجب أن كان تصميمهم بالغًا، كي يقتصّوا للجرائم التي ارتُكبت في حق الرسول ﷺ والمسلمين الضعفاء في مكة. لقد انتظروا الفرصة السانحة ليخبروا أهل مكة الذين عذبوا المسلمين، أن المسلمين لم ينـــتقموا منهم ليس بسبب عجزهم عن ذلك، ولكن بسبب أن الله تعالى لم يكن قد أذن لهم بعد.

ويمكن أن نتصوّر مدى شدة تصميم هذه القوّة الصغيرة المسلمة على القتال المستميت من حادثة أخرى. فقبل أن ينشب القتال، أرسل أبو جهل أحد قادة البدو إلى جهة المسلمين ليأتي له بتقدير لعددهم. فعاد ذلك القائد وأخبره أن عدد المسلمين كان ثلاثمئة أو يزيدون. وملأ السرور أبا جهل وأتباعه، وظنوا أن المسلمين سيكونون فريسة سهلة. ولكن القائد البدَوي أكمل حديثه فقال: "ولكن نصيحتي ألا تقاتلوا هؤلاء القوم. لأن كل واحد منهم قد جاء يتمنى الموت. إني لم أر رجالاً، بل رأيت الموت محمولاً على ظهور الإبل" (الطبري وابن هشام). ولقد صدق حدس القائد البدَوي، فالذين هم على استعداد لمجابهة الموت، ليس من السهل أن ينال الموت منهم.

اقترب موعد المعركة، فأطل الرسول ﷺ من عريش كان قد نُصب له ليصلي فيه، وقال معلنًا:

﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾

كانت هذه هي الكلمات التي سبق أن أوحيت إليه في مكة من قبل، وكانت تخص هذه الموقعة. فحين بلغت وحشية مكة أقصى الحدود، وراح المسلمون يهاجرون إلى الأماكن التي يستطيعون أن يجدوا فيها الأمان، تلقى الرسول ﷺ من ربه الوحي التالي الذي تضمنه هذه الآيات:

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۞ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ۞ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۞ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ۞ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۞ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ۞ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۞ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (القمر:٤٢-٤٩)

هذه الآيات جزء من سورة القمر، وقد نزلت هذه السورة طبقًا لكل الروايات في مكة، وحدّد المفسرون المسلمون التاريخ الذي نزلت فيه بين السنة الخامسة والعاشرة من بعثة الرسول ﷺ، أي بثلاث سنوات قبل الهجرة من مكة إلى المدينة، والاحتمال الأقرب هو ثماني سنوات قبل الهجرة. ويتفق الباحثون الأوروبيون مع هذا الرأي، إذ يرى "نولدكه" أن السورة كلها نزلت بعد السنة الخامسة للبعثة، ولكن "ويري" يرى هذا التاريخ مبكرًا قليلاً، إذ يرى أن السورة قد نزلت بين السنة السادسة والسابعة قبل الهجرة أو بعد البعثة. وهكذا يتّفق كل المفسرين المسلمين وغير المسلمين على أن السورة نزلت قبل الهجرة بعدة سنوات. إن قيمة الأنباء الغيبيّة المذكور في الآيات الكريمة فوق كل شبهة

واختلاف؛ فهي تحمل إشارة واضحة إلى ما يخبئه القدر لأهل مكة في معركة بدر، وقد جاء بوضوح نبأ المصير الذي هم منْزلقون إليه. وعندما أطلّ الرسول ﷺ من العريش، كرّر ذكر شرح النبأ الغيبي الوارد في السورة، ولا بد أنه قد تلقى من الله تذكيرًا بهذه الآيات خلال صلاته في العريش، وبتلاوته إحداها فقد ذكّر صحابته أن الساعة الموعودة في السورة قد حانت.

وفعلاً كانت الساعة قد حانت، كما سبق أن تنبأ بها إشعياء النبيّ (٢١: ١٣-١٧). لقد بدأت المعركة، مع أن المسلمين لم يكونوا على درجة الاستعداد المطلوبة، ورغم أن مشركي قريش تلقوا النصح ألا يتورطوا فيها. كان هناك ثلاثمئة وثلاثة عشر من المسلمين، أغلبهم لا خبرة لهم ولم يتعوّدوا القتال، وجميعهم تقريبا بلا عدّة، يواجهون عدوًا يبلغ ثلاثة أمثالهم عددًا من الجنود، كلهم من المقاتلين المتمرّسين. وفي ساعات قلائل لقيَ العديد من زعمائهم البارزين حتفهم، تمامًا كما تنبأ إشعياء النبي حيث قال: "يفنى كلُّ مجدِ قيدار"، وفرّ جيش مكة في عجلة بائسة، تاركًا خلفه قتلاه وبعض الأسرى.

ومن الأسرى كان العباس، عمّ الرسول ﷺ الذي كان يسانده عادة عندما كان في مكة، وقد أُرغم على الانخراط في جيش مكة، وقتال النبيّ. وأسير آخر هو أبو العاص، زوج ابنة الرسول ﷺ. ومن القتلى كان أبو جهل، القائد الأعلى لجيش مكّة، وكان بحق رأس أعداء الإسلام.

وجاء النصر، ولكنه أتى معه بكثير من الأحاسيس المختلطة للرسول ﷺ. لقد فرح بتحقق وعود الله المتكررة خلال أربعة عشر عامًا خلت، وعود جاء ذكرها أيضًا في كتب بعض الأديان السابقة، ولكن أصابه الحزن على المأزق الذي حلّ بأهل مكة، فما أشقاها تلك النهاية التي آل حالهم إليها. ولو كان شخص آخر غيره قد حقق هذا النصر لقفز فرحًا وسرورًا، ولكن منظر العباس أمامه مقيد الأرجل مغلول اليدين أسال الدمع من عيني الرسول ﷺ ومن عين صديقه

المخلص أبي بكر ﷺ. لقد رأى عمر ﷺ ذلك المنظر أيضًا، وهو الخليفة الثاني للإسلام بعد أبي بكر، ولكنه لم يستطع أن يفهم السبب في بكاء النبي وأبي بكر بعد أن تحقّق النصر. كان عمر متحيرًا، ولذا تجاسر ليسأل الرسول ﷺ: لم البكاء يا رسول الله وقد منّ الله عليك بهذا النصر العظيم؟ فإن كان لا بد من البكاء بكيتُ معك، أو تباكيت على الأقل. فأشار الرسول ﷺ إلى بؤس الأسارى من أهل مكة، ذلك البؤس الشديد الذي يُرثى له، فهذا ما يؤدّي إليه عصيان الله تعالى.

لقد تكلم إشعياء النبي مرارًا وتكرارًا عن عدل هذا الرسول العظيم، الذي خرج ظافرًا من معركة قاتلة. وقد ظهر مصداق ذلك بجلاء ووضوح في هذه المناسبة. وفي أثناء العودة إلى المدينة، استراح الرسول ﷺ ليلة في الطريق، ولكن صحابته المخلصين رأوه يتقلب على جانبيه ولا يستطيع النوم، إذ كان العباس بالقرب منه يرسف في قيوده. وخمنوا أن السبب في أَرَقِ الرسول ﷺ هو صوت عمه العباس الذي يئنّ على مسمع منه وقيوده مشدودة باعتباره أسير حرب، فخفّفوا من وثاق العباس ليكفّ عن الأنين. وراح الرسول ﷺ في النوم بعد أن كفّ أنين العباس عن إزعاجه. لكنه بعد قليل نهض وسأل متعجبًا، لِمَ لَمْ يعد صوت العباس مسموعًا؟ ولعل الرسول ﷺ ظن أن عمه قد فقد الوعي، ولكن الحراس من صحابته صرّحوا له أنهم أرخوا قيود العباس قليلاً كي يستطيع الرسول الحصول على قسط من النوم. فرفض ﷺ أن يُظلم أحد من الأسرى بالتفرقة بينه وبين غيره، وذكر لهم أنه إذا كان العباس من أقربائه، فإن الآخرين كذلك أقرباء لآخرين منهم، وعلى ذلك ينبغي عليهم أن يرخوا القيود عن كل الأسرى أو يشدّوها على العباس مثل الباقين. وقد استمع الصحابة لهذه اللفتة، وقرروا أن يرخوا القيود عن كل الأسرى، وتحملوا هم على عاتقهم مسؤولية الحراسة الآمنة لهم.

أما عن الأسرى، فمن كان بينهم من القارئين الكاتبين فقد نالوا وعدًا

باسترداد حريتهم إن هم علّموا عشرة صبية من أبناء المهاجرين القراءة والكتابة، وكانت هذه فديتهم مقابل الحرية. وأما الذين لم يكن لهم من يدفع فديتهم، فقد وُهبوا حريتهم عندما سألوها. وأما الذين أمكنهم دفع الفدية، فقد نالوا الحرية بعد دفع ما عليهم. وبتحرير كل الأسرى بهذه الطريقة، وضع الرسول ﷺ نهاية للممارسات الوحشية التي كانت تحوّل أسير الحرب إلى عبد مملوك.

غـزوة أُحُـد

بعد فرار جيش مكة من المعركة في بدر، عادوا فأعلنوا عن نيّتهم في مهاجمة المدينة ثانية لينتقموا لأنفسهم من المسلمين لما عانوه في هذه المعركة. وبعد عام واحد شنّوا هجومهم وهم في عدّة تامة. لقد أحسوا بالمهانة وبالعار حتى إن رؤساء مكة حرّموا على أقرباء الذين لقوا مصارعهم في بدر أن يبكوا حدادًا وحزنًا عليهم. وقرروا كذلك أن تساهم أرباح القوافل التجارية في ميزانية الحرب. وهكذا هاجم المدينة جيش من ثلاثة آلاف مقاتل، كاملي العدة والعتاد والاستعداد تحت قيادة أبي سفيان. وعقد الرسول ﷺ اجتماعًا للمشورة، وسأل أتباعه ما إذا كانوا يلقون العدوّ في المدينة أو خارجها، وكان هو يُفضل البقاء في المدينة، وأن يأتي العدو المهاجم إليهم في وطنهم، فيضع بذلك مسؤولية العدوان على العدوّ. ولكن تلك الخطة لم تكن مقبولة لدى كثير من المسلمين الذين لم تتح لهم فرصة المساهمة في غزوة بدر، وكانوا في شَوق للقتال في سبيل الله، وأرادوا أن تتاح لهم فرصة قتال مباشر مفتوح، لعلهم ينالون شرف الشهادة في سبيل الله. وقَبِل الرسول ﷺ رأيَ الأغلبية.

وبينما كان هذا الجدل جاريًا ذكر الرسول ﷺ رؤيا له بشأنه، قال:"إني رأيت بقرة تُذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلمًا، ورأيت أني أدخلتُ يدي في درع حصينة، ورأيت كأنني أمتطي كبشًا. وسأله الصحابة عن تفسير ذلك فقال ﷺ: أما ذبح البقر فالمراد به قتل بعض أصحابي في الحرب، وأما انفصام سيفي

فأوّلتها شخصًا كبيرًا من أهل بيتي يُقتل، أو قد أُصابُ أنا بضرر ما، أمّا إدخالي يدي في الدرع الحصينة فيعني أننا لو بقينا في المدينة كان خيرًا لنا، وأما الكبش الذي أركب فأوّلته أننا سنتغلب على قائد الكافرين، وأنه سيُقتل بأيدينا، إن شاء الله. (انظر البخاري وابن هشام والطبقات الكبرى).

وكان واضحًا من هذه الرؤيا وتفسيرها أن البقاء في المدينة أفضل للمسلمين، غير أن الرسول ﷺ لم يصرّ على ذلك، لأن تفسير الرؤيا كان من اجتهاده ولم يكن وحيًا تلقّاه، فقَبِلَ رأيَ الأغلبية وقرر الخروج للقاء العدو. وبينما هو يعدّ عدّته، راجعت الفئةُ الأكثرُ حماسة من أصحابه أنفسَهم، وقالوا للرسول ﷺ بعد أن أدركوا خطأهم: يا رسول الله، إن ما أشرت أنت به علينا هو الأفضل. علينا البقاء في المدينة ونلقَى العدوّ في طرقاتنا. فردّ عليهم قائلاً: ليس الآن. إن نبي الله قد لبس سلاحه، سنمضي قدمًا مهما حصل الآن. لو بقيتم ثابتين صامدين فإن الله سينصركم. (انظر البخاري والطبقات الكبرى)

ومضى الرسول ﷺ في قوّة مؤلفة من ألف جندي، وعسكروا على مسافة قليلة من المدينة ليلاً. وكان من عادة الرسول ﷺ أن يدع قوّاته المقاتلة تستريح قبل لقاء العدو، وفي صلاة الفجر رأى الرسول ﷺ بعض اليهود وقد انضموا للمسلمين، وزعموا أن لهم معاهدات مع قبائل المدينة، ولأنه كان على معرفة بكيد اليهود فقد صرفهم ليعودوا. وعند ذلك انسحب عبد الله بن أبيّ بن سلول زعيم المنافقين مع ثلاثمئة من أتباعه قائلاً إن جيش المسلمين أضعف من أن يقوم لعدوّه، وإن دخول المعركة صار موتًا مؤكدًا، وإن الرسول أخطأ عندما أعاد الحلفاء اليهود إلى المدينة. ونتيجة لهذا الانسحاب الذي تم في اللحظة الأخيرة، فقد تبقّى تحت قيادة الرسول ﷺ عدد لا يتعدّى السبعمئة مسلم، كان عليهم أن يتصدّوا لجيش يفوق أربعة أمثالهم، وأما الفرق بينهما في العدة والسلاح فيفوق أضعاف الفرق في العدد. كان في جيش مكة سبعمئة مقاتل يرتدون الدروع، ولم يكن لدى المسلمين سوى مئة مدرع، وكان جيش مكة يحوي مائتي فرس،

بينما لا يملك المسلمون سوى فرسين.

وبلغ الرسول ﷺ منطقة أُحُد، وعلى ممر مرتفع فوق التلال هناك، وضع خمسين من جنده من الرماة لحراسة الممر، وكلفهم بواجب واضح وهو منع أيّ هجوم على جيش المسلمين من هذا المكان، ومنع استيلاء العدوّ عليه. وأبلغهم الرسول ﷺ بمهمتهم في جلاء، وأنّ عليهم البقاء صامدين في مكانهم وألاَّ يتزحزحوا عنه حتى يأتيهم الأمر أن يفعلوا، بصرف النظر عما يحدث للمسلمين. ثم ذهب الرسول ﷺ ليخوض معركته مع ٦٥٠ من الجنود الباقين ضد جيش يفوقهم عددًا بخمسة أمثالهم تقريبًا، ولكنهم بعوْن الله وفي وقت قصير، شتّتوا جيش العدوّ الذي يتكوّن من ثلاثة آلاف جندي، وراحوا يطاردونهم بعد أن انسحبوا مسرعين.

كان موقع الممر الذي يحرسه الجنود الخمسون خلف ميدان المعركة، فقال الحرس لقائدهم إنّ العدوّ قد هُزم، وهذا وقت الاشتراك في المعركة لنوال الثواب في الآخرة. فأوقفهم القائد، وذكّرهم بأنّ أمر الرسول ﷺ كان واضحًا، ولكن الرجال فسّروا الأمر بمعناه وليس بحرفيته، فلا معنى للاستمرار في الحراسة بعد هروب العدوّ لينجو بحياته.

النصر يتحول إلى هزيمة

وبناء على فهمهم هذا ترك الحرّاس الممر، وغاصوا في خضمّ المعركة. وكان خالد ابن الوليد.. الذي صار فيما بعد قائدًا عظيمًا من القادة المسلمين.. ضمن جيش مكة المنسحب. وبعينه الفاحصة الحادة لاحظ الممر المهجور، ولم يكن هناك الآن سوَى قلة من الرجال يحرسونه. ونادى خالد على عمرو بن العاص، وهو قائد آخر في جيش المشركين، وطلب منه استطلاع الممر الخلفي، ففعل عمرو ورآها فرصة العمر. وأوقف كل من القائديْن رجالهما المسارعين بالفرار، وانطلقوا يتسلقون الجبل، وقتلوا المسلمين القلة الباقين في الحراسة، ثم بدأوا في

الهجوم على المسلمين من موقعهم البارز المتميّز.

وإذا بجيش مكة المنكسر يجمع شتاته ثانية، بعد سماعه لصرخات الحرب الصادرة من رجاله المهاجمين، وعادوا إلى ميدان المعركة. وكان وقْع الهجوم على المسلمين مفاجئًا، إذ كانوا قد تفرّقوا في أنحاء الميدان خلال مطاردتهم لجيش مكة، فلم يتمكن المسلمون من جمع شتاتهم لمقاومة هذا الهجوم الجديد، ولم يكن سوى بعض الأفراد من المسلمين يناجزون العدو، بينما سقط الكثير منهم صرعَى وهم يقاتلون، وتقهقر الباقون، بينما صنعت قلة تبلغ عشرين رجلاً من المسلمين سياجًا من أجسادهم حول الرسول ﷺ. وهاجم جيش مكة هذه الحلقة المحيطة بالرسول بشراسة، وتحت ضربات سيوفهم تساقط المسلمون المحيطون بالرسول الواحد بعد الآخر، ومن قمة الجبل أطلق الرماة وابلاً من السهام. وفي ذاك الوقت، لاحظ "طلحة" رضي الله عنه وهو مسلم قرشي من المهاجرين، أن سهام العدو كانت جميعًا مصوّبة نحو وجه الرسول ﷺ، فمد يده وستر بها وجهه الشريف. كانت السهام تصيب يده الواحد تلو الآخر ومع ذلك لم تتزحزح ولم تنخفض، مع أن السهام كانت تخترقها مع كل رمية، وتشوّهت اليد إلى أقصى حد، وهكذا فقد طلحة يده، وظل طوال ما بقي من حياته يسعى بيد مشوّهة مشلولة. وفي زمن الخليفة الراشد الرابع للإسلام عندما نشبت فتنه داخلية بين المسلمين، عيّر طلحةَ رضي الله عنه أحدُ خصومه بأنه "مقطوع اليد"، فأجاب عنه صديق له قائلاً: مقطوع اليد؟ نعم، ولكن هل تعلم أين فقد طلحة يده؟ في موقعة أُحُد، حيث رفع يده ليحمي بها وجه رسول الله من سهام العدو.

وبعد زمن من معركة أُحُد، كان أصحاب طلحة رضي الله عنه يسألونه: "ألم يكن وقعُ السهام يَخزّ يدك ويجعلك تصرخ من الألم؟ فردّ طلحة: لقد كانت تخزّني بالألم وتكاد تجعلني أصرخ، لكنني قاومت الألم والصراخ لأنني كنت أعلم أن يدي لو اهتزت عن مكانها قليلاً لتعرّض وجه رسول الله لوابل من سهام العدو".

إن الرجال القلائل الذين بقوا مع الرسول ﷺ لم يكن لهم أن يقاوموا الجيش الذي يواجهونه، فتقدّم قسم من العدوّ ودفعهم بعيدًا فكشفهم عنه، وإذ ذاك وقف الرسول ﷺ وحده كسدّ منيع، فتعاورته الأحجار حجرًا بعد حجر، الأوّل أحدث به جرحًا عميقًا في جبهته، والثاني جعل حلقتي المغفر تدخلان في خده، وبينما كانت السهام تتساقط غزيرة متسارعة والرسول ﷺ مثخن بالجراح إذا به يدعو الله قائلاً: "ربِّ اغفر لقوْمي فإنهم لا يعلمون" (مسلم: كتاب الجهاد والسير). ثم انحنى حزينًا ينظر إلى الموتى الذين فقدوا حياتهم وهم يدافعون عنه، وعاد بعض المسلمين ليدفعوا عنه الهجوم المتزايد، فسقطوا صرعَى كذلك، وخرّ رسول الله مغمَى عليه بين هذه الأجساد الصريعة، وعندما رأى العدوّ ذلك حسبوه ميّتًا، فانسحبوا متيقّنين أنهم حققوا النصر المرغوب.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من بين المسلمين الذين دفعهم الهجوم العنيف وأبعدهم عن الرسول ﷺ أثناء دفاعهم عنه. وكانت ساحة المعركة قد خلت إلا من الغبار الذي ظل يتطاير في الهواء، وأجساد القتلى التي ظلت ملقاة على الأرض، فاستيقن عمر أن رسول الله قد مات لما رأى ذلك المنظر. كان عمر رضي الله عنه شجاعًا، وقد أثبت ذلك مرارًا، وكان أفضل إثبات لذلك هو قتال إمبراطوريتين في نفس الوقت؛ الروم والفرس، ولم يجفل أبدًا أمام الصعوبات ولا اهتز أمام الشدائد. ومع ذلك، فإن عمر هذا جلس على حجر مبتئسًا، وقد نكّس رأسه، وراح يبكي مثل الطفل الصغير. وفي تلك الأثناء جاء أحد المسلمين، وكان اسمه أنس بن النضر رضي الله عنه، وقد تصوّر أن المسلمين قد حققوا النصر، فلقد رآهم يتغلبون على العدوّ، فانسحب من الميدان إذ لم يكن قد ذاق طعامًا منذ ليلة الأمس، ثم عاد ومعه بضع تمرات في يده. وحالما رأى عمر باكيًا توقّف في عجب وسأله: يا عمر ماذا حدث لك حتى إنك تبكي بدلاً من أن تفرح بالنصر العظيم الذي ظفر به المسلمون؟

رد عمر قائلاً بما معناه: "إنك لا تدري ماذا حدث يا أنس، لقد رأيتَ الجزء

الأول من المعركة، ولا تعلم أنّ العدوّ انتهز الفرصة واحتلّ الجبل وهاجمنا بعنف شديد. لقد تفرّق المسلمون بعد أن تصوّروا أنهم انتصروا، و لم يجد العدوّ مقاومة إلا من رسول الله ﷺ وحفنة من حرّاسه الذين صمدوا ضد جيش كامل، وسقطوا جميعًا صرعى وهم يقاتلون". فقال أنس متسائلاً: "إن كان هذا هو الحق، فما بقاؤنا هنا نبكي؟ فلنذهب إذًا حيث ذهب إمامنا". كانت التمْرات الأخيرة في يد أنس وكان على وشك أن يضعها في فمه، ولكنه رمى بها بعيدًا قائلاً: "لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه لتكونن حياة طويلة، والله إني لأجد ريح الجنة". ثم استل سيْفه وألقَى بنفسه في صفوف العدوّ، فكان بمفرده في مواجهة جيش بأكمله من ثلاثة آلاف. لم يستطع أن يفعل الكثير، ولكن روحًا مؤمنة أعظم وأقوَى من جمع غفير. وقاتل أنس ﷺ ببطولة، وسقط في النهاية جريحًا، ولكنه استمر يقاتل، وعند ذلك انقضّت عليه جموع العدو، وظلوا يضربونه بسيوفهم بوحشية بالغة. وبعد أن انفضت المعركة، لم يمكن التعرّف على جسد أنس بين القتلى، فقد تمزّق جسده إلى سبعين قطعة. وفي النهاية تعرّفت عليه أخته من أصبع ممزقة بين الأشلاء، فقالت هذا هو جسد أخي. (انظر البخاري).

ولما انسحب العدوّ، عاد المسلمون الذين كانوا في حلقة حول الرسول ﷺ ثم انكشفوا عنه تحت ضغط هجوم العدو، ورفعوا جسد الرسول ﷺ من بين القتلى، وقبض أبو عبيده بن الجراح بأسنانه على حلقات المغفر التي انغرست في خدّ رسول الله وجذبها فسقطت ثنيتاه، وبعد قليل عاد الرسول ﷺ إلى وعيه. وأرسل حرّاسه المحيطون به من ينادي المسلمين ليجتمعوا ثانية إلى نبيّهم. وبدأت تجتمع حوله قوة من المسلمين، رافقته إلى أسفل الجبل.

ورأى أبو سفيان.. قائد العدو.. هذه البقيّة من المسلمين فصاح بصوت عال: "لقد قتلنا محمدًا". وسمع الرسول ﷺ الصيْحة المتبجّحة، ولكنه منع المسلمين أن يجيبوه خشية أن يعرف العدوّ الحقيقة فيعاود الهجوم، ثم يضطر المسلمون الجرحَى والآخرون الذين نال منهم التعب والإعياء أن يقاتلوا ضد كل هذا الحشد

البربري.

ولما لم يتلقّ أبو سيفان جوابًا من المسلمين، أيقن أن الرسول ﷺ قد مات، فأردف صيحته الأولى بثانية وقال: "لقد قتلنا أبا بكر أيضًا". ومنع الرسول ﷺ أبا بكر أن يرد عليه. فأردف أبو سفيان بصيحة ثالثة وقال: "وقد قتلنا كذلك عمر". ومنع الرسول ﷺ عمر أيضًا أن يرد. فصاح أبو سفيان نشوان طربًا بأن الجميع قد قتل، وعندئذ لم يتمالك عمر نفسه فصاح قائلاً: خسئت يا عدوّ الله. إننا جميعًا أحياء بفضل الله، وعلى استعداد لقتالكم وتحطيم رؤوسكم. فرفع أبو سفيان عقيرته بالهتاف القومي للمشركين: "اعْلُ هُبَل" (وكان هبل صنم مكة القومي). عندها لم يتحمل رسول الله هذا التباهي ضد الله الذي لا إله إلا هو، والذي لأجله يضحّي هو وجميع المسلمين بكل عزيز لديهم. لقد رفض الردّ على أبي سفيان عندما أعلن عن موته، كما رفض الردّ عندما أعلن عن موت أبي بكر وعمر لأسباب تكتيكية، ولم يكن قد بقيَ له إلا فضلة من قوّة قليلة، وكانت قوات العدو ضخمة، وقد أطربها الفرح، ولكن العدوّ الآن قد سبّ الله تعالى. ولم يتحمّل الرسول إهانة كهذه، فاشتعلت روحه ونظر بغضب إلى المسلمين المحيطين به وقال:"ألا تجيبون له؟" قالوا يا رسول الله ما نقول؟ قال: "قولوا اللهُ أعْلَى وأَجَلُّ". ورفع المسلمون هذه الهتافات، فإذا بهتافاتهم وأصواتهم تُذهل العدوّ، وتصيبه بالإحباط بعد أن أدرك أن رسول الله لا يزال على قيد الحياة بعد كل هذا. وأمامهم وقفت حفنة من المسلمين، منهم الجرحَى ومنهم من أنهكه الإعياء، ومع ذلك لم يتجاسر العدوّ على مهاجمتهم مرة أخرى، واكتفوا بما حققوه وعادوا يهللون لنصرهم بفرح وطرب.

لقد تحوّل انتصار المسلمين في موقعة أُحُد إلى هزيمة، ورغم ذلك، فقد أثبتت المعركة صدق الرسول ﷺ حيث تحققت فيها النبوءات التي أنبأ بها قبل الخروج إلى الميدان. فقد انتصر المسلمون في البداية، وقُتل حمزة رضي الله عنه.. عمّ رسول الله الحبيب إليه وهو يقاتل، وقُتل حامل لواء العدوّ مبكرًا في بداية المعركة، وجُرح

الرسول ﷺ نفسه، كما قُتل الكثير من المسلمين، وكلّ هذا حدث تمامًا كما أنبأ به الرسول ﷺ في رؤياه.

وبالإضافة إلى تحقّق الأحداث التي سبق الإنباء عنها، فقد قدّمت هذه المعركة دلائل عديدة على إخلاص المسلمين وتفانيهم في حب الله ورسوله. لقد بلغ سلوكهم من المثالية بمكان لم يستطع التاريخ أن يجد ما يوازيه، ولقد سبق أن قصصنا بعض الأحداث التي تثبت هذا بجلاء، غير أن هناك واقعة أخرى تستحق الذكر، وهي تُظهر مدى قوّة الاقتناع واليقين وعمق الولاء الذي أبداه صحابة رسول الله ﷺ. فعندما تراجع الرسول ﷺ إلى سفح جبل أُحُد، مع حفنة من المسلمين، أرسل بعض أصحابه لتفقّد الجرحَى في الميدان. ووجد أحد الصحابة بعد طول البحث جريحًا مسلمًا من أهل المدينة، وكان على مشارف الموت، فانحنى الصحابيّ عليه وقال: السلام عليكم. ورفع الجريح المسلم يده المرتجفة وأخذ بيد الزائر وقال: كنت أنتظر أن يأتي إليّ أحد، فرد الزائر على الجندي قائلاً ما معناه: إنك في حال حرجة فهل تريد أن أبلّغ ذويك وأهلك شيئًا؟ فرد المسلم المحتضر: نعم نعم، أقرِئْ أهلي السلام وأبلِغْهم أنني بينما أموت هنا فإني تركت لهم أمانة ثمينة ينبغي عليهم أن يحافظوا عليها بأرواحهم، وهذه الأمانة هي رسول الله ﷺ. وأملي أن أقاربي سيحفظون رسول الله بأرواحهم، ولا ينسون وصيتي الوحيدة قبل الموت. (الموطأ والزرقاني)

كان لدى المحتضرين الكثير مما يوَدّون قوله لأقربائهم، ولكن هؤلاء المسلمين الأوّلين السابقين لم يكونوا، حتى في لحظات الموت، يُفكرون في أقربائهم ولا أبنائهم ولا بناتهم ولا أزواجهم، ولم يفكروا في ممتلكاتهم، بل كل ما فكروا فيه هو الرسول ﷺ. لقد واجهوا الموت مستيقنين أن رسول الله قد جاء لينقذ العالم، وأن أبناءهم لو عاشوا بعدهم فلن يحققوا سوَى القليل، ولكنهم لو ماتوا دفاعًا عن رسول الله فسيكونون قد أدّوا حق الله تعالى وحق الإنسانية كلها. لقد آمنوا أنهم عندما يُقْدِمون على التضحية بأنفسهم وبأسرهم فداء لرسول الله، فإنهم

يكونون قد أدّوا خدمة جليلة للإنسانية وأرضوا ربهم، وأن موتهم في هذا السبيل هو ضمان الحياة الأبدية للمجتمع الإنساني بأكمله.

وجمع الرسول ﷺ إليه الجرحَى والقتلى، وتلقّى الجرحَى إسعافاتهم الأوّلية، وتم دفن القتلى. وعلِم الرسول ﷺ أن العدو قد تعامل مع المسلمين بأقصى صوَر البدائية الوحشية؛ فقد مزّقوا أجساد قتلى المسلمين، وقطعوا أذنًا هنا وأنفًا هناك. ومن الأجساد التي مثّلوا بها كان جسد حمزة عمّ الرسول ﷺ، فوقف محزونًا بجواره وقال إن تمثيلهم بأجساد المسلمين يبرر لنا الآن ما كنا نراه غير مسوغ من قبل. ولكن الله تعالى أمره أن يدَع الكافرين له ﷻ، وأن يظل على سبيل الرحمة التي اختطّها طوال حياته.

إشاعة عن وفاة الرسول ﷺ تصل إلى المدينة

وصلت إلى المدينة إشاعة عن مقتل الرسول ﷺ وتشتّت جيش المسلمين، وذلك قبل أن تصل بقايا القوّة المسلمة إلى البلدة، وأسرع الأطفال والنساء إلى جبل أحُد في جنون، ومن ثم عرفوا الحقيقة وعادوا مع بقايا الجيش. ولكن امرأة من بني دينار استمرت في المشْي حتى بلغت أحُدًا، لقد فقدت هذه المرأة زوجها وأباها وأخاها في المعركة، وتذكر بعض الروايات التاريخية أنها فقدت أيضًا ولدها. ولقيَها أحد الجنود العائدين وأخبرها أن والدها قد قتل، فقالت: "أنا لا أسألك عن هذا، بل أخبِرْني عن رسول الله". كان الجندي يعلم أنه لازال حيًا، ومن ثم لم يجب على سؤالها لتوّه ومضى يخبرها عن أخيها وزوجها اللذيْن ماتا أيضا. وفي كل مرة تستمر هي في سؤالها عن الرسول ﷺ لا تتزحزح عن ذلك: "ماذا فعل رسول الله"؟ لقد كان ذلك تعبيرًا غريب الاستعمال، ولكنا إذا تذكرنا أن امرأة هي التي كانت تتفوّه به زالت الغرابة، فعواطف المرأة قوية، وهي أحيانًا تتحدث إلى الشخص الميّت كما لو كان حيًّا، ولو كان الميّت قريبًا لها فإنها تميل إلى أن تشتكي إليه وتتساءل لماذا تركها وذهب دون أن يهتم بها أو يعتني بها.

وهي عادة شائعة عند النساء أن ينُحْن بهذه الطريقة على أعزائهن المفقودين، وعليه فإن تعبيرًا كهذا يناسب امرأة محزونة على موت الرسول ﷺ. لقد كانت هذه المرأة تعتبر أن الرسول ﷺ أحبّ إليها من أيّ شخص آخر، ورفضت أن تصدق خبر موته بعد أن سمعت به، وفي نفس الوقت لم تنكر الأنباء، وظلت تقول في حزن نسائي حقيقي: "ماذا فعل رسول الله"؟ وبقولها هذا كانت تتمثل الرسول ﷺ حيًّا وتشتكي: كيف لقائد مخلص محبّ مثله أن يجرّعهم آلام الفراق عنه.

وعندما وجد الرجل العائد من الميدان أن هذه المرأة لم تهتم كثيرًا بموت أبيها وأخيها وزوجها، أدرك مدى عمق حبها للرسول ﷺ، فقال لها: "أمّا رسول الله فهو كما تحبين، حيّ يُرزق". فطلبت المرأة من الجندي أن يريها إياه، فأشار إلى ركن في ساحة المعركة، فهرعت إليه وبلغت مكان الرسول ﷺ وأمسكت بطرف عباءته بيديها وقبّلتها وقالت: فداك أبي وأمي يا رسول الله. ما دمت سالمًا فلا أبالي بمن يموت بعد ذلك. (انظر ابن هشام)

يمكننا إذن أن نرى مدى العزم والثبات والحب والإخلاص الذي أبداه المسلمون رجالاً ونساءً في هذه المعركة. إن الكُتّاب المسيحيين يقصّون باعتزاز قصة مريم المجدلية ورفقائها، ويحكون لنا عن إخلاصهم وشجاعتهم. وقيل إنهم تسللوا في الساعات الأولى للصباح من خلال اليهود وذهبوا إلى قبر السيد المسيح، ولكن ماذا يكون هذا الفعل بالمقارنة مع إخلاص هذه المرأة المسلمة من بني دينار؟

مثال آخر سجله التاريخ. فبعد دفن القتلى وأثناء عودة الرسول ﷺ إلى المدينة، رأى النساء والأطفال الذين خرجوا إلى ظاهر المدينة للقائه، وكان حبل بغلته في يد سعد بن معاذ ﷺ سيّد المدينة. كان سعد يقود البغلة بفخر واعتزاز، وكأنه يعلن للعالم كله أنه رغم كل ما حدث، فقد استطاع المسلمون أن يعودوا

برسول الله سليمًا معافى إلى المدينة. وحدث أن رأى أمّه العجوز تتقدم لتلقى الجموع العائدة. كانت هذه العجوز ضعيفة النظر جدًا، وعرفها سعد والتفت إلى الرسول قائلاً: "يا رسول الله، هذه أمّي"، فقال الرسول ﷺ: "دَعْها تتقدم". وجاءت المرأة تتقدم إلى الأمام، وببصر كليل حاولت أن تعثر على وجه الرسول ﷺ، وأخيرًا، لما استطاعت أن تتبيّنه ظهرت عليها أمارات السعادة.

بلغ الرسول ﷺ المدينة، ومع أن الكثير من المسلمين قد قُتل وجُرح في هذه المعركة، غير أنه من الصعب القول إنها انتهت بهزيمة المسلمين. والحوادث التي رويناها من قبل تدل على العكس، فهي تثبت أن معركة أُحُد كانت انتصارًا للمسلمين. والمسلمون الذين يقلبون صفحات تاريخهم المبكر يمكنهم أن يستمدّوا قوةً وإلهامًا من غزوة أحُد.

وفي المدينة، عاد الرسول ﷺ مرة أخرى إلى ممارسة مهمّته النبويّة، فانهمك ثانية في تعليم وتدريب أتباعه. ولكن، كما كان الحال فيما مضَى، لم يستمر عمله هذا يمضي طويلاً بلا إعاقة. فبعد غزوة أحُد صار اليهود أكثر جسارة، وبدأ المنافقون يطلون برءوسهم ثانية. لقد ظنوا أن اقتلاع الإسلام قد صار في متناول أيديهم، وما عليهم إلا أن يبذلوا المزيد من الجهد لتحقيق غاياتهم. وبناء عليه، شرع اليهود في استخدام سبل جديدة لإثارة المشاكل والمضايقات، فبدأوا ينشرون السباب في أبيات من الشعر، يهدفون بذلك إهانة الرسول وآل بيته. وحدث مرة أن دُعي الرسول ﷺ للفصل في خصومة، واضطر للذهاب إلى قلعة يهودية، فدبّر اليهود أمر إسقاط قالب من الحجر عليه ليضعوا نهاية لحياته. وتلقى الرسول إنذارًا مسبقًا من الله تعالى، ولقد تعوّد أن يتلقّى مثل هذه الإنذارات في وقتها المناسب، فترك مجلسه دون أن يلفظ بكلمة، وقد اعترف اليهود بعد ذلك بتدبيرهم الأحمق. وكان اليهود يقومون بالإساءة إلى النساء المسلمات في الطرقات، وفي إحدى تلك الحوادث فقد أحد المسلمين حياته. وفي حادثة أخرى رضخ اليهود رأس فتاة مسلمة بين حجرين وقتلوها بطريقة أليمة. وقد أدّى

سلوك اليهود هذا إلى توتر علاقاتهم مع المسلمين، الأمر الذي أعطاهم الحق في قتال اليهود. ولكن المسلمين اكتفوا بإجلائهم عن المدينة، فهاجرت إحدى القبيلتين اليهوديتين إلى الشام، وأما الأخرى فهاجر بعض أفرادها إلى الشام، واستقر البعض الآخر في خيبر؛ القلعة اليهودية الحصينة إلى الشمال من المدينة المنوّرة.

في فترة السلام، بين غزوة أحُد والموقعة التالية، شهد العالم مثالاً بارزًا لا نزاع في أنه يدلّ على مدى تأثير الإسلام في أتباعه، ونحن نشير بذلك إلى تحريم الخمر. وعند وصفنا الظروف التي كانت تسود المجتمع العربي قبل الإسلام، كنا قد ذكرنا أن العرب كانوا سكّيرين مدمنين، وكان شُرب الخمر خمس مرات يوميًا تقليدًا عاديًا في كل بيت عربي، وأما فقد المرء لوعيه تحت تأثير الخمر فقد كان ممارسة عامة، ولم يكن العرب يشعرون بأيّ خجل من هذا، بل كانوا يعتبرونه فضيلة. وعندما يصل ضيف، كان من واجب الزوجة أن ترسل أدوارا متتابعة من الشراب. وكي يُفطم شعبٌ كالعرب عن هذه العادة المميتة، لم يكن ذلك بالأمر الهيّن.

وفي السنة الرابعة للهجرة، تلقّى الرسول ﷺ أمرًا بتحريم الخمر، ومع إعلان هذا الأمر اختفت الخمر من المجتمع المسلم. وسجّل التاريخ أنه حين تلقّى الرسول ﷺ الوَحي بتحريم الخمر، أرسل لأحد صحابته وأمره أن يعلن أمر الله الجديد في طرقات المدينة. وفي تلك الأثناء كان جماعة يشربون الخمر في بيْت أحد الأنصار، كان هناك أشخاص كثيرون مدعوُون، وأكواب كثيرة قد أعدّت للشرب، وجَرَّة كبيرة مليئة بالخمر قد فرغت، وأخرى قد فُتحت للشراب. كان البعض قد فقد وعيه، والبعض الآخر في طريقهم لذلك. وفي هذه الحال سمعوا شخصًا يعلن أن الخمر قد حُرّمت بأمر رسول الله بعد أن نزل إليه وحي الله بذلك. نهض أحد أفراد الجماعة وقال: "يبدو أن هناك إعلانًا ضد شرب الخمر، فلننظر إن كان الأمر كذلك". فنهض آخر وضرب بعكازه الجرة الفخارية المليئة

بالخمر فتحطمت قطعًا وقال: لنطع الأمر أولاً ثم نستفسر لاحقًا، ويكفينا أن نسمع إعلانًا كهذا، فلا يليق أن نظل نشرب بينما نستفسر عن الأمر، بل ينبغي علينا أن ندع هذه الخمر تسيل في الطرقات أولاً ثم نبحث الأمر بالتفصيل فيما بعد (انظر البخاري ومسلم كتاب الأشربة). كان هذا المسلم على حق، فلو كانت الخمر قد حُرّمت، لصاروا مذنبين لو استمروا يشربون، ولو لم تكن الخمر قد حُرمت، فلن يكونوا قد خسروا كثيرًا عندما قاموا بترك قدورهم يسيل منها الخمر في الشوارع. ولقد اختفَى شرب الخمر من المجتمع الإسلامي بعد هذا الإعلان. لم تكن هناك حاجة إلى حملة قومية أو جهود خاصة لإحداث هذا التغيير الثوري.

إن المسلمين الذين سمعوا هذا الأمر وشهدوا الاستجابة الفورية التي استُقبل بها، عاشوا بعد ذلك سبعين أو ثمانين سنة، ولم يوجد من بين هؤلاء فردٌ واحد صدر عنه ما يدل على أنه قد شعر بأدنى إحساس بالسخط إزاءه. ولو وُجدت حالة كهذه، فلا بد أنها كانت لواحد من الذين لم ينالوا فرصة وجوده تحت التأثير المباشر للرسول ﷺ. ولنقارن هذا مع حركة الامتناع عن شرب الخمر الأمريكية، أو الجهود التي بُذلت لترويج فكرة الاعتدال في الشرب ولسنوات طويلة في أوروبا.

في الحالة الأولى كان إعلان بسيط قام به الرسول ﷺ كافيًا لمحو إثم اجتماعي متفشّ ومتأصّل في أعماق المجتمع العربي.

وفي الحالة الثانية كان المنع مشرّعًا بقوانين خاصة، تساندها الشرطة، والجيش، وضباط الجمارك، ومفتشو الضرائب؛ وكلهم كانوا يبذلون جهودهم المشتركة كفريق موَحد، محاولين القضاء على رذيلة شرب الخمر، ولكنهم فشلوا واضطروا للاعتراف بفشلهم. وفاز السكّيرون، ولم يمكن هزيمة رذيلة شرب الخمر. ويُقال عن عصرنا إنه عصر التقدم الاجتماعي، ولكن حين نقارن عصرنا

بعصر الإسلام المبكر فإننا نعجب متسائلين: أيّ العصريْن يستحق هذه التسمية، عصرنا هذا أو العصر الذي أحدث الإسلام فيه هذه الثوْرة الاجتماعية العظيمة.

إن ما حدث في أُحُدٍ لم يكن ليُنسى بسهولة، فأهل مكة رأوا في تلك المعركة نصرهم الأول، ولقد أذاعوا الأخبار في كل أنحاء الجزيرة العربية، واستخدموها لإثارة قبائل العرب ضدّ الإسلام، ولكي يقنعوهم أن المسلمين ليسوا مستعصين على الهزيمة. وإذا كانوا قد حققوا نجاحًا وازدهارًا، فلم يكن ذلك بسبب قوّة سرّية كامنة فيهم، بل كان بسبب ضعف المتمسّكين بالمعتقدات العربية وضعف الوثنيين العرب، ولو قام العرب الوثنيون بعمل مشترك، فلن يكون من الصعب القضاء على المسلمين. وبدأت حملات الكراهية ضد المسلمين تشتد نتيجة لهذه الدعاية، وأخذت القبائل العربية الأخرى تنافس أهل مكة في إزعاج المسلمين، وراح بعضهم يهاجمهم جهارًا، بينما أوْقع البعض بالمسلمين الكثير من الخسائر في الأرواح.

ففي السنة الرابعة للهجرة، أرسلت قبائل عضل والقارة ممثلين عنهم إلى الرسول الكريم ﷺ، ورفعوا إليه التماسًا يطلبون أن يرسل إليهم بعض المسلمين المتضلعين في تعليم الإسلام والقرآن، ليعيشوا بينهم، ويعلّموهم الدين الجديد، حيث إن الكثير من رجالهم قد مالوا إلى الإسلام.

كانت هذه في الحقيقة مكيدة مدبّرة رسم خطوطها بنو لحيان، رأس أعداء الإسلام. فقد أرسلوا هذا الوَفد إلى الرسول ﷺ، ووعدوا أفراد الوَفد بمكافأة ثمينة.

تلقّى الرسول الطلب دون أن يرتاب فيه، وأرسل لهذه القبائل عشرة من المسلمين ليعلّموهم مبادئ الإسلام وعقائده. وعندما بلغ الجمع أرض بني لحيان، جاءت الأخبار إلى رجال القبيلة تأمرهم بالقبض على النفر المسلم أو قتلهم، وبناء على هذا الإيعاز الآثم، خرج مائتا رجل مسلح من بني لحيان لمطاردة النفر

المسلم حتى أدركوهم في النهاية عند مكان يقال له "الرجيع". وحدثت منازلة بين عشرة مسلمين ومائتين من العدوّ، كان المسلمون مملوئين بالإيمان واليقين، ولم يكن لدَى العدوّ من ذلك شيء. وتسلق المسلمون العشرة قمة من القمم وتحدّوا المائتين، وحاول العدوّ أن يتغلب على المسلمين بمكيدة آثمة، فعرضوا عليهم أن يُبقوا على حياتهم إذا هبطوا إليهم، ولكن قائد المجموعة ردّ بأنهم رأوا ما يكفي من وعود الكافرين. ثم اتجهوا بعد ذلك إلى الله تعالى بالدعاء، وهو سبحانه العليم بهم، فقد أخبر نبيّه بما هم فيه. وعندما رأى الكافرون ذلك النفر الصغير بهذه الصلابة الشديدة، بدأوا في مهاجمتهم. فقاتل النفر دون أن تطرق خواطرهم الهزيمة، فسقط سبعة منهم وهم يقاتلون. وأعاد الكافرون وعودَهم على مسمع الثلاثة الباقين بالإبقاء على حياتهم لو هبطوا إليهم من القمّة، فصدّقهم الثلاثة واستسلموا. وبمجرّد أن فعلوا ذلك أوْثقوهم بسيور القسي، فقال أحد الثلاثة: "هذا أول الغدر، والله يعلم ما أنتم صانعون بعد"، وأبى أن يصحبهم، فجرّوه واعتدوا عليه ليصحبهم فأبى، فلما هالهم ما أبداه من مقاومة قتلوه في ذلك المكان. وانطلقوا بالاثنين الآخرين وباعوهما كعبيد إلى قريش في مكة. كان أحدهم الصحابي خُبَيْب ﷺ، والثاني كان زيد بن الدثنة ﷺ، وكان الذي اشترى خُبيْبا يريد قتله انتقامًا لأبيه الذي قتله خُبيْب يوم بدر. وفي أحد الأيام طلب خُبيْب شفرة للحلاقة، وكان الموسى في يد خُبيْب عندما دخل طفل من أهل البيت واقترب منه في فضول، فأخذ خُبيْب الطفل وأقعده على ركبتيه بحنان. ورأت أمّ الطفل ذلك فأصابها فزع شديد، إذ لم يخطر على بالها إلا كلّ التوَقعات السيئة، فذاك رجل سيقومون بقتله خلال أيام يمسك بشفرة حادة خطرة قريبًا من ولدها، فلم يخطر ببالها سوى أن خُبيْباً يريد قتل الطفل. ورأى خُبيْب الفزع المرتسم على وجه المرأة، وأدرك ما تفكر فيه فقال: "هل تتخيلين أني سأقتل الطفل؟ هل يخطر ببالك لحظة أني أفعل ذلك؟ إنني لا أستطيع أن أرتكب هذا الغدر الدنيء، فالمسلمون لا يغدرون بأحد". وتأثرت المرأة بصدق

خُبيْب وأمانته وخلقه القويم، وظلت تذكر هذا دائمًا، وكانت تقول إنها لم تر مطلقًا سجينًا مثل خُبيْب.

وفي نهاية الأمر، قاد أهل مكة خُبيبًا إلى ساحة مفتوحة للاحتفال بقتله أمام الملأ. ولما حانت اللحظة المرتقبة، طلب خُبيْب أن يتركوه ليصلي ركعتين، فوافقت قريش. وتوَجّه خُبيْب إلى الله بآخر صلواته في هذا العالم أمام الجمهور، وعندما سلّم في نهاية الصلاة قال: "والله لولا أن تقولوا إن ما بي جزعٌ لزدتُ". ثم أسلم عنقه إلى الجلاد في هدوء، وتمتم وهو يفعل ذلك بهذه الأبيات:

ولست أبالي حين أُقتَل مسلِمًا على أي شقٍّ كان لله مصـــرعي

وذلك في ذات الإله وإنْ يشأ يباركْ على أوصـــالِ شِلْـــوٍ ممزَّعِ

ولم يكد خُبيْب يتم غمغمته بهذه الأبيات، حتى نزل سيف الجلاد على عنقه، وسقط رأسه جانبًا. وكان سعيد بن عامر واحدًا من الحشد الذي حضر هذا الإعدام العلني، وقد صار مسلمًا فيما بعد. ورُوِي أنه كان كلما سمع قصة قتل خُبيب تُذكر في حضوره، كانت تصيبه نوبة من الغثيان.

وأخذوا السجين الآخر زيد بن الدثنة ليقتلوه. وكان أحد المشاهدين هو أبو سفيان؛ سيد مكة. فالتفت إلى زيد وسأله: "ألا يسرك أن يكون محمد في مكانك لنضرب عنقه بينما تكون أنت في أهلك"؟ فأجاب زيد بأَنَفَة واستنكار: ماذا تقول يا أبا سفيان؟ لا والله، ما يسرّني أني في أهلي وأن رسول الله في مكانه في المدينة تصيبه شوكة تؤذيه. وبهت أبو سفيان لهذا الإخلاص والحب. ونظر إلى زيد مذهولاً وقال بلا تردد، ولكن في نبرة حذرة: والله ما رأينا أحدًا يحبّ أحدًا مثل ما يحبّ أصحابُ محمد محمدًا. (انظر ابن هشام جزء ٢)

وحول ذلك الأوان جاء وفد من نجد أيضًا إلى الرسول ﷺ يسألونه إرسال بعض المسلمين كي يعلّموهم الإسلام. ولم يثق بهم الرسول ﷺ، ولكن أبا البراء سيدَ قبيلة عامر تصادف أن كان موجودًا بالمدينة وقتها، فعرض أبو البراء أن يجير

الوفد، وأكد للرسول ﷺ أن أهل نجد لن يفعلوا سوءًا بالمسلمين، فاختار الرسول ﷺ سبعين رجلاً من قراء القرآن وحُفّاظه، وأرسلهم مع أبي البراء حتى بلغوا بئر معونة.

ذهب واحد من الرهط المسلم، وهو حرام بن ملحان ﷺ، إلى عامر بن الطفيل سيد قبيلة بني عامر، ابن أخي أبي البراء، ليبلّغه رسالة الإسلام. وفي ظاهر الأمر تم استقباله بترحاب، ولكنه بينما كان يخاطب سيدهم، انسل رجل خلف حرام وطعنه برمح فقتله لساعته. وبينما كان الرمح يخترق عنق حرام سمعوه يقول: "الله أكبر، فزتُ ورب الكعبة". (البخاري).

وبعد قتل حرام بهذا الشكل الخسيس. استنفر زعيم القبيلة بني عامر لفوره إلى قتال الباقين من المعلمين المسلمين، ولكنهم أبوا عليه ذلك بسبب البراء، فاستنفر القبيلتين اللتين كانتا قد ذهبتا إلى الرسول ﷺ تطلب منه المعلمين وقبائل أخرى معهم، فأجابته قبائل عصية ورعل وذكوان، وهاجموا وفد رسول الله.

و لم تجْد مناشدتهم الواضحة السهلة أثرًا عند المعتدين عندما قالوا لهم إنهم قد جاءوا للتبليغ والتعليم وليس للحرب والقتال. فأعملوا فيهم ضربًا وتقتيلاً حتى قتلوهم جميعًا، السبعين، ما عدا ثلاثة. أحدهم كان أعرجا، وكان قد تسلق قمة جبل قبل بداية المنازلة، والاثنان الآخران كانا يرعيان سرح المسلمين، وهما عمرو بن أميّة الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر، فلما عادا وجدا ستة وستين من أصحابهم مقتولين. فتشاورا وقال عمرو بضرورة إبلاغ الرسول ﷺ عما حدث، وعارض المنذر مغادرة المكان الذي أمرهم أميرهم بالانتظار فيه، وراح وحده يقاتل المشركين حتى قُتل مع أصحابه، وأُسِر عمرو ابن أمية، فلما أخبر أنه من مضر، جز عامر ناحيته وأعتقه عن رقبة كانت على أمه.

كان في القتلى عامر بن فُهَيرة، الذي اعتقه أبو بكر ﷺ، قتله جبّار الذي أسلم بعد ذلك. وذكر جبّار أن سبب تحوّله للإسلام كانت هذه المذبحة الهائلة

للمسلمين. وقال: "عندما أردت قتل عامر سمعته يقول: "فزتُ ورب الكعبة"، فسألته: يا عامر، لماذا يقول المسلم شيئًا كهذا عندما يلقى حتفه؟ فأجاب عامر موضحًا: إن المسلمين يرون الموت في سبيل الله سعادة ونصرًا". وتأثر جبار تأثرا عميقًا بهذه الإجابة، فبدأ في دراسة منظمة للإسلام، تُوّجَت بإسلامه (ابن هشام وأُسد الغابة).

وصلت أخبار الحادثتين إلى المدينة متزامنتين، حادثتان راح ضحيتهما ثمانون رجلاً تقريبًا من المسلمين نتيجة للمكر السيئ. لم يكن هؤلاء القتلى أناسًا عاديين، بل كانوا من حملة القرآن. لم يقترفوا جُرمًا، ولم يُشكّلوا خطرًا على أحد، ولم يدخلوا في معركة، بل وقعوا في شباك العدوّ بسبب كذبة قيلت تحت اسم الله والدين. هذه الحقائق كلها تدل بدلالة قاطعة على أن العداوة للإسلام كانت على درجة كبيرة من العمق والتصميم. وفي المقابل، فإن حماسة المسلمين وحميتهم للإسلام كانت على نفس الدرجة من العمق والتصميم.

المعركة مع بـنـي المصطلق

بعد معركة أحُد حدثت مجاعة خطيرة في مكة، وقد قام الرسول ﷺ بجمع ذخيرة من المؤن لمساعدة فقراء مكة في أزمتهم القاهرة، بصرف النظر عن كل العداوة التي يحملونها له في مكة، وبصرف النظر عن كل المكائد التي كانوا يمارسونها لنشر النفور منه في أرجاء الجزيرة العربية كلها. ولقد استمرت كراهيتهم له دون أن تهدأ أو تخفّ، بل في الحقيقة صارت أسوأ وأشدّ، حتى إن القبائل التي كانت شديدة التعاطف مع المسلمين، صارت تحمل لهم العداوة والبغضاء، ومنهم كانت قبيلة بني المصطلق.

فقد كان لهم علاقات حسنة مع المسلمين، ولكنهم الآن صاروا يعدّون العدّة للهجوم على المدينة، ولما سمع الرسول ﷺ عن استعداداتهم للعدوان، أرسل رجالاً لتقصّي الحقيقة، وعاد الرجال وأكدوا الأخبار. وقرر الرسول ﷺ التحرّك للقاء

هذا الهجوم الجديد، وبناء عليه فقد حشد قوّة وقادها إلى ديار بني المصطلق، وعندما لقيَ المسلمون العدوّ حاول الرسول ﷺ إقناعهم بالانسحاب دون قتال فأبوا، وفي ساعات قلائل حدث الاشتباك وهُزم العدو.

ولأن كفار مكة كانوا قد عقدوا العزم على خلق الفساد والإساءة للمسلمين، والقبائل الصديقة كانت تتحوّل إلى العداء والعدوان، فقد غامر المنافقون في هذه المناسبة بالاشتراك في المعركة إلى جانب المسلمين، ولعلهم ظنوا أن الفرصة قد حانت للنيْل من الإسلام. غير أن معركة بني المصطلق انتهت بالنصر في ساعات قلائل، ولم يجد المنافقون فرصة للإضرار بالمسلمين. وقرر الرسول ﷺ البقاء في ديار بني المصطلق بضعة أيام، وخلال ذلك نشب عراك بين واحد من المهاجرين وآخر من الأنصار على الاستقاء من بئر هناك. وكان المسلم المهاجر عبدًا محرّرًا، فضرب الأنصاريَّ الذي صاح: "يا للأنصار". وصاح الآخر: "يا للمهاجرين". وغلب الحماس على الناس، ولم يتبين أحد ماذا حدث، وسل الشباب الصغار من الفريقين سيوفهم، وظنها عبد الله بن أبي بن سلول فرصة جاءت إليه من السماء، فقرر أن يصبّ الوقود على النار قائلاً: "لقد ذهبتم بعيدًا في إكرام المهاجرين، ولقد أدارت المعاملة الطيبة رءوسهم، والآن صاروا يكاثرونكم بكل سبيل". ولعله ظن أن كلامه سيؤدي إلى النتيجة المطلوبة، أو لعله تصوّر أن النّزاع سوف يتطوّر ليكون ذا خطورة بالغة، ولكن ذلك لم يحدث. لقد أخطأ عبد الله بن أبيّ في تقدير الآثار السيئة لخطابه على الأنصار، واستمر موغلاً في تصوّره أن الأنصار قد اقتنعوا بحديثه فقال: "لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ". (البخاري)

لقد قصد نفسه بقوله: الأعزّ، وقصد الرسول ﷺ بقوله: الأذلّ. وحالما قال ذلك، أدرك المؤمنون المخلصون من المسلمين حقيقة الأذى الكامن والضرر المتربّص في ذلك الحديث، وأحسّوا أن ما استمعوا إليه من كلام لم يكن كلامًا بريئًا، كان الكلام للشيطان الذي جاء ليقودهم إلى الضلال. ووقف رجل شاب

وأبلغ الرسول ﷺ بالأمر، فأرسل إلى عبد الله بن أبي بن سلول وصحبه وسألهم عما حدث، فأنكر عبد الله هو وصحبه أنهم فعلوا شيئًا من ذلك، أو أنهم ساهموا في هذه الحادثة.

ولم يقل الرسول ﷺ شيئًا، ولكن الحقيقة بدأت تظهر وتنتشر، وبعد ساعات وصلت أنباء الحادثة إلى سمع ابن عبد الله ابن أبي ابن سلول واسمه "عبد الله"، وفي الحال ذهب لرؤية الرسول ﷺ وقال له: "يا رسول الله، لقد أهانك أبي، وعقابه على ذلك هو الموت، فإذا رأيتَ ذلك فإني أريدك أن تأمرني بقتله، فإنك لو أمرت أحدًا غيري بذلك فقتله، فربما كبر عليّ أن أرى قاتل أبي يمشي على الأرض فأقتله فأُغضب الله ويعذبني".

ولكن الرسول ﷺ لم يوافق على قتل عبد الله بن أبيّ، وذكر لابنه أنه سيستمر في معاملة أبيه برحمة وتقدير. وعندما قارن ذلك الشاب عبد الله خيانة والده وجفاءه مع رحمة وعطف وكرم الرسول ﷺ، عاد إلى المدينة مليئًا بغضب مكتوم ضد أبيه. وفي الطريق إلى المدينة أوْقف والده وقال له إنه لن يدعه يدخل المدينة حتى يسحب الكلام الذي قاله ضد رسول الله، وقال له: "إن اللسان الذي قال إن الرسول هو الأذل وأنت الأعز، يجب أن يقول الآن إن الرسول هو الأعز وإنك أنت الأذل، ولن أدعك تذهب حتى تقول ذلك". وصُدم عبد الله بن أبي بن سلول وخاف، وقال: "حقًّا ما قال ابني؛ إن محمدًا هو الأعز وأنا الأذل". وعند ذلك أفسح عبد الله لأبيه الطريق. (ابن هشام ج٢)

لقد قلنا من قبل إن هناك قبيلتين يهوديتين أقصيتا خارج المدينة من جراء إساءاتهما الخبيثة، ومكرهما السيئ، والمؤامرات التي تسببت في قتل بعض المسلمين.

كانت بنو النضير إحدى القبيلتين، وقد هاجر بعضهم إلى الشام، وذهب الباقون إلى خيبر؛ وهي بلدة تقع في شمال المدينة. كانت خيبر مركزًا يهوديًا

حصينًا جدًا في الجزيرة العربية، وراح اليهود الذين هاجروا هناك يعملون على إثارة العرب ضد المسلمين. كان أهل مكة بالفعل أعداء ألداء للإسلام، و لم يكونوا في حاجة إلى أية إثارة جديدة تحمّسهم ضد المسلمين، وكذلك الشأن مع غطفان من نجد؛ فكانوا يكرهون المسلمين أيضًا بسبب صداقاتهم لأهل مكة. وقد اعتمد اليهود الذين استقرّوا في خيبر في تنفيذ مؤامراتهم على قريش في مكة، وغطفان في نجد، بالإضافة إلى أنهم خطّطوا كي ينقلب بنو سليم وبنو أسد ضد الإسلام. ونجحوا أيضًا في إقناع قبيلة بني سعد التي كانت تحالفهم، كيْ يتّحدوا مع أهل مكة في حلف يجابه الإسلام. وبعد مكائد عديدة وتدابير طويلة الأمد، تم تنظيم اتحاد لحرب المسلمين، وكان هذا الاتحاد يضم أهل مكة، والقبائل المقيمة في الأراضي المحيطة بمكة، وقبائل نجد، ومعهم القبائل التي كانت تقيم في الأراضي الواقعة شمال المدينة.

غـزوة الخنـدق

في السنة الخامسة للهجرة، احتشد جيش ضخم قدّر المؤرخون قوّته بعدد يبلغ عشرة آلاف أو أربعة وعشرين ألف رجل، ولكن جيشًا يحتشد من القبائل المختلفة في الجزيرة العربية لا يمكن أن يكون تعداده عشرة آلاف، لذلك تبدو الحقيقة أقرب إلى الأربعة والعشرين ألف مقاتل؛ ولعلهم كانوا ثمانية عشر أو عشرين ألفًا.

و لم تكن المدينة التي يرغب كل هذا الحشد في مهاجمتها سوى بلدة متوسطة الحجم، لا تستطيع على الإطلاق أن تقاوم غزوًا منسقًا تقوم به كل الجزيرة العربية. كان تعداد المدينة إذ ذاك لا يتعدّى ثلاثة آلاف من الذكور، بما في ذلك الشيوخ والشباب والأطفال. وفي مواجهة هذا التعداد السكاني، حشد العدوّ جيشًا من عشرين ألفًا إلى أربعة وعشرين ألفًا من الرجال الأشداء، المتمرّسين على الحرب وفنون القتال. وحيث إنهم جاءوا من الأجزاء المختلفة في الجزيرة

العربية، فقد أُحسن اختيارهم ليكونوا ضمن هذا الجيش.

ومن ناحية أخرى، كان كل من يمكن استدعاؤهم لمقاومة هذا الجيش الجرّار، هم جميع السكان الذكور في المدينة، ويمكن الحكم على احتمالات نجاح مواجهة مثل هذا العدد الهائل الذي كان على سكان المدينة أن يناجزوه، فقد كان نِزالاً غير متكافئ إلى أبعد الحدود. فالعدوّ كان يضم من عشرين إلى أربعة وعشرين ألفًا من المقاتلين الأقوياء، بينما لا يكاد يبلغ المسلمون ثلاثة آلاف، هم كل ذكور المدينة كما سبق ذكره، بما فيهم الكبير والصغير.

وعقد الرسول ﷺ اجتماعًا لطلب المشورة، عندما سمع عن الاستعدادات المعادية الهائلة. وكان سلمان الفارسي رضي الله عنه بين الذين استشارهم الرسول ﷺ، وكان المسلم الأوّل من بلاد فارس. فسأل الرسول ﷺ سلمان عما يفعلونه في بلاده إذا أرادوا الدفاع عن مدينة ضد جيش عرمرم؟ فقال سلمان: إذا لم تكن المدينة حصينة، وكانت قواتها المحلية صغيرة للغاية، فإن العادة جرت لدينا على حفر خندق حول المدينة والدفاع عنها من داخله. وقبل الرسول ﷺ الفكرة.

كانت القمم الوَعرة تحف بالمدينة من أحد جوانبها، وكان ذلك يضمن حماية طبيعية من هذا الجانب. جانب آخر مملوء بالدروب الضيقة المكتظة بالسكان المتقاربين، ومن هذا الجانب فإن المدينة لا يمكن مباغتتها دون علم سكانها. وفي الجانب الثالث كانت غابات النخيل وبعض البيوت. وعلى مسافة منها حصون القبيلة اليهودية بني قريظة. وكان المسلمون قد عقدوا عهدًا مع بني قريظة للتعايش في سلام وللدفاع المشترك، ولذلك كان هذا الجانب يُعتبر آمنًا أيضًا من هجوم العدو.

في الجانب الرابع كان هناك سهل منبسط مفتوح، وكان الخوف أن يهجم العدوّ من هذا الجانب لأنه الأكثر احتمالاً، ولذلك قرر الرسول ﷺ حفر خندق على هذا الجانب المفتوح لمنع العدوّ أن يباغت المدينة بالهجوم. ووُزّعت المهمّة

بين المسلمين، كلّ عشرة أشخاص عليهم حفر عشر أذرع من الخندق، وكان على الجميع حفر ميل كامل بعرض وعمق كافيَين.

وعندما كان الحفر يمضي على قدم وساق، اعترضت صخرة صلبة طريق الحفر، ولم يستطع أحد من المسلمين أن يتمكن منها، فرفعوا تقريرا بذلك للرسول ﷺ فحضر إلى المكان في الحال، وأخذ المعوَل وضرب الصخرة بقوّة، وتطايرت منها بعض الشرارات فصاح الرسول ﷺ عاليا: "الله أكبر". وضرب الصخرة ثانية، ومرة أخرى تطاير الشرر فصاح الرسول ﷺ ثانية: "الله أكبر". وضرب الصخرة ضربته الثالثة، وتطاير الشرر كذلك، فهتف الرسول ﷺ: "الله أكبر". وتفتّتت الصخرة إلى شظايا، وسأل الصحابة رسول الله عن كل ذلك، ولماذا قال الله أكبر مرارًا؟

وأجاب بما معناه:

لقد ضرب الصخرة بهذا المعوَل ثلاث مرات، وفي المرات الثلاث رأى مشاهد مجد الإسلام تُوحَى إليه وتنكشف له. فرأى في الشرارات الأولى قصور الشام في إمبراطورية الروم، وأُعطيَت له مفاتيح تلك القصور. وفي المرة الثانية رأى قصور فارس في المدائن قد أضاءت، وأعطيَت له مفاتيح ملك الفُرس. وفي المرة الثالثة رأى أبواب صنعاء وأعطيَت له مفاتيح مملكة اليمن. وأخبرهم أن هذه وعود الله وأنه يثق فيها، وحثّهم على أن يتوكلوا على الله، ولن يضرهم العدوّ، إلا أذىً. (الزرقاني ج ٢ وفتح الباري ج ٧)

ومن وجهة النظر العسكرية الاستراتيجية، فلم يكن من الممكن حفر خندق عظيم نظرًا لقلة عدد القوّة العاملة للمسلمين، لكن بدا هذا الخندق على الأقل كحاجز يؤمّنهم ضد الاقتحام المفاجئ للمدينة، رغم أنه لم يكن منيعًا على العبور، ولقد برهنت الأحداث التالية على ذلك، ولم يكن هناك جانب آخر يناسب العدوّ للهجوم على البلدة، وهكذا بدأ جيش ضخم من رجال القبائل

يصل إلى المدينة، وحالما عرف الرسول ﷺ ذلك، خرج إليهم ليدفعهم عنها في ألف ومائتي رجل بعد أن أرصد المجموعة الأخرى الباقية من الرجال للدفاع عن الأجزاء الأخرى للمدينة.

لقد قدّر المؤرّخون عدد المدافعين عن الخندق بتقديرات مختلفة، حدّده البعض بثلاثة آلاف، وبعضهم قدّره بألف ومائتي رجل، وقدّره آخرون بسبعمئة، وهي تقديرات يبلغ اختلافها درجة يبدو أن من الصعب التوفيق بينها، ولكن بعد تحليل مختلف القرائن يمكن أن نستنتج صحّة جميع التقديرات المتعلقة بعدد المسلمين المنخرطين في الدفاع عن الخندق، لأنها ترجع في اختلافها إلى مراحل مختلفة في هذه الموقعة.

القتال ضد أحزاب ضخمة

لقد سبق وذكرنا أنه بعد انسحاب المنافقين من أُحُد، كان عدد من بقيَ من المسلمين في الميدان سبعمئة، و لم تحدث موقعة الخندق إلا بعد عامين من أحُد، وخلال هذين العامين لم يسجّل التاريخ أن أعدادًا كبيرة من الناس قد دخلوا في الإسلام.

وليس من المتوقع أن يزيد عدد المسلمين المقاتلين في خلال ذلك الوقت من ٧٠٠ إلى ٣٠٠٠، كذلك من غير المعقول أيضًا أن تنعدم زيادة عدد المسلمين المقاتلين بين معركتي أحُد والخندق، فقد استمر دخول الناس في الإسلام، ومن الطبيعي أن نتوَقع ثمة زيادة معقولة بين موقعة أحُد وغزوة الأحزاب (الخندق). ومن هذين الاعتبارين، يبدو أن التقدير الأصوَب لعدد المسلمين في الموقعة هو ١٢٠٠ مقاتل، والسؤال الذي يمكن أن يرد على ذلك هو: لماذا قال بعض المفسرين إن العدد ٣٠٠٠، وقال البعض الآخر إنه ٧٠٠؟ وإجابتنا على هذا السؤال هي أن الرقمين يرجعان إلى مرحلتين من مراحل الموقعة.

كانت هناك ثلاث مراحل لهذه المعركة، المرحلة الأولى قبل أن يصل العدوّ إلى المدينة عندما كان المسلمون منغمسين في حفر الخندق، خلال هذا الوقت يمكننا أن نفترض مطمئنين أن الصبيان ونسبة ما من النساء قد جاءوا للمساعدة في إزالة التراب المحتفَر من المكان. ولذلك من المعقول أن تكون أعداد المسلمين الذين اشتركوا في أعمال الحفر قد بلغت ثلاثة آلاف، ويشمل هذا الرقم الصبية وبعض النسوَة. فالصبية كانوا قادرين على المساعدة في حمل الأتربة، وهناك ما يؤكد هذا الافتراض، فلقد دُعي الصبْية إلى الحضور بمجرّد بدء الحفر. والنسوَة اللائي تنافسن مع الرجال دائمًا على المساعدة في كل حروب المسلمين، لا بد أنهن كن مفيدات في أداء الأعمال المساعدة المرتبطة بالحفر، ومن الوجهة الفعلية فلقد ساهم كل سكان المدينة في العملية. ولكن بمجرد حضور العدوّ إلى ميدان المعركة، أمر الرسول ﷺ كل صبيّ دون الخامسة عشرة بمغادرة المكان وترك مشهد العمليات، وسمح لمن هم فوق الخامسة عشرة بالمساهمة في المعركة لو أرادوا. (انظر السيرة الحلبية جزء ٢)

ومن ذلك يتبيّن أن عدد المسلمين وقت الحفر كان يفوق عددهم عند بدء المعركة، فقد انسحب الصبْية والنسوَة ولم يبق عند الخندق سوَى المقاتلين من الذكور البالغين وحدهم، وهؤلاء هم الذين ذكرت بعض التقديرات أن عددهم كان ١٢٠٠ مقاتل.

بقي التقدير الثالث الذي لم نبيّنه حتى الآن، وهو ذلك الذي ذكر أن عدد المقاتلين عند الخندق كان سبعمئة مقاتل، ونرى أن هذا التقدير كان صحيحًا أيضًا. وقد طرحه ابن إسحاق وهو ثقة، كما أيّده فيه ابن حزم، ولذلك من الصعب أن نشكّ في مصداقيته. وعند مراجعة التفاصيل المتعلقة بهذه المعركة، يتبين لنا أن تقييم هذا العدد كان صحيحًا. فقد حدث أن نقض بنو قريظة الحلف الذي عقدوه مع المسلمين بالاشتراك معهم في الدفاع عن المدينة إذا تعرّضت للعدوان. وكان قد عُهِد إليهم بالدفاع عن جزء من المدينة. فلما تبيّن

للرسول ﷺ أن بني قريظة قد خانوا عهدهم وعلم بنيّتهم الخبيثة بالهجوم على المدينة من الخلف، رصد حراسة بقوّة من المسلمين في ذلك الجزء من المدينة المعرّض للهجوم من طرف بني قريظة. ومن المعروف أن الرسول ﷺ أرسل فرقتين إحداهما مؤلفة من مائتي رجل والأخرى من ثلاثمئة، لحماية جزأين من المدينة بمجرد أن بلغه نبأ خيانة بني قريظة، وبالتالي فلم تعد النساء والأطفال في مأمن، وأمر الرسول ﷺ القوّة المرسلة أن يرفعوا أصواتهم بالتكبير ليعلم بقية جيش المسلمين أن النساء والأطفال آمنون. وتكشف هذه التفاصيل صحة تقدير ابن اسحاق بأن عدد المقاتلين عند الخندق كان سبعمئة مقاتل، لأن انسحاب ٥٠٠ رجل من ١٢٠٠ لإرسالهم لظهر المدينة يؤدّي إلى بقاء ٧٠٠ مقاتل، هم الذين اشتركوا في المعركة ضد الأحزاب عند الخندق.

ولهذا فإن نتيجة التقديرات الثلاثة لعدد جيش المسلمين في معركة الخندق كانت صحيحة، وعلى ذلك لم يكن لدَى الرسول ﷺ سوَى ٧٠٠ رجل فقط ليدافعوا عن الخندق. صحيح أن الخندق كان قد تم حفره، ولكن كان يبدو من المستحيل على جيش المسلمين أن يواجه جيشًا بهذه الضخامة، ويردّه على الأعقاب حتى ولا بمساعدة الخندق، ولكن المسلمين كعادتهم وثقوا في الله ربهم وتوكلوا على معونته، وانتظروا جيش العدوّ، بينما أرسلوا الأطفال والنساء إلى منطقتين من البلدة بدتا آمنتين في ذلك الوقت.

وعندما بلغ العدوّ الخندق أخذته الدهشة والذهول، لأن العرب في الجزيرة العربية لم يألفوا هذه الحيلة من قبل في أيّة معركة، لذلك قرروا أن يضربوا خيامهم على جانب الخندق الذي هم عليه، حتى يتدبروا أمرهم ويبحثوا أفضل الطرق للهجوم على المدينة. فقد كان جانب منها يحميه الخندق، والجانب الثاني به قمم وعرة ذات حصانة طبيعية، وعلى جانب ثالث توجد بيوت حجرية مع حدائق النخيل والبساتين، فكان من المستحيل على العدوّ أن يباغت أيّ جانب من المدينة. وعقد قادة العدوّ مؤتمرًا جامعًا، وقرروا أنه قد بات من الضروري

استمالة بني قريظة إليهم، وفصلهم عن المسلمين وحلفهم، وأن يطلبوا منهم الانضمام إلى الأحزاب في هذا الهجوم الشرس والحرج على المدينة، وكان كل ما عليهم أن يفعلوه هو أن يفسحوا طريقًا لجيش الأحزاب إلى البلدة. وفي النهاية اختار أبو سفيان حُيَيّ بن أخطب؛ زعيم قبيلة بني النضير اليهودية، التي تم نفيها من المدينة، والتي كانت المحرّض الأساسي للقبائل العربية ضد المسلمين، وكلفه أن يتفاوض مع بني قريظة للحصول منهم على تسهيلات تمكنهم من الهجوم على المدينة من الخلف. وذهب حُيي بن أخطب إلى الحصن اليهودي كي يلقَى قائد بني قريظة. وفي البداية رفضوا رؤيته، لكنه لما شرح باستفاضة كيف أن هذه اللحظة هي فرصتهم لدحر المسلمين، نجح في استمالة كعب، أحد رجالات بني قريظة، وأوْضح له أنّ العرب عن بكرَة أبيهم قد خرجوا جميعًا للهجوم على المسلمين والقضاء عليهم، وأنّ الجيش الذي يقف على الجانب الآخر للخندق ليس جيشًا عاديًا، بل هو بحر يموج بالرجال الأشدّاء الذين يستحيل على المسلمين أن يقاوموهم. وأخيرًا تم الاتفاق على أنه بمجرد أن ينجح المشركون في اقتحام الخندق، فإنّ بني قريظة سيهاجمون هذا الجزء من المدينة الذي أوْدع فيه الرسول ﷺ كلّ النساء والأطفال طلبًا لسلامتهم. وبدوا متأكدين أن هذه الخطة كفيلة بتهشيم مقاومة المسلمين، وستكون بلا شك فخًّا مميتًا لقوم النبيِّ ﷺ؛ رجالاً ونساءً وأطفالاً. وحقًّا لو أتيح لهذه الخطة ولو نصيب محدود من النجاح، لكلفت المسلمين غاليًا، ولجعلت كل شيء صعبًا شديد التعقيد بالنسبة إليهم، فلن يكون لهم مخرج من هذه الورطة القاتلة.

خيانة بني قريظة

كان بنو قريظة كما أسلفنا في حلف مع المسلمين، وحتى إذا لم يكونوا قد ساهموا في الحرب مع المسلمين، فقد كان المتوقع منهم على الأقل أن يقوموا بحجز العدوّ من جانبهم وإعاقته، ولهذا السبب فقد ترك الرسول ﷺ هذا الجانب

في أوّل الأمر بلا حراسة على الإطلاق. وكان بنو قريظة يعلمون أن المسلمين يثقون بحسن نيتهم، ولهذا عندما قرروا الانضمام إلى أحزاب العرب، فقد اتفقوا ألا يكون هذا الانضمام جهارًا واضحًا، حتى لا يتنبّه المسلمون ويتّخذوا الخطوات اللازمة لحماية المدينة من جانب بني قريظة. لقد كانت الخطة شديدة الخطورة ومحبوكة الأطراف.

وعندما تم الاتفاق على مهاجمة المسلمين في المدينة من جانبين، راح جيش أحزاب العرب يحاول اقتحام الخندق، ولكن مرّت عدّة أيام دون تحقيق أيّة نتيجة. ثم طرأت لهم فكرة، أن يجمعوا رُماتهم على مرتفع، ويأمروهم أن يهاجموا المجموعات المدافعة عن الخندق من المسلمين، وأن يقف هؤلاء على حافة الخندق تفصلهم مسافات قصيرة، وعندما تلوح من المسلمين أيّة أمارات تتيح إحداث ثغرة ضعيفة، يعبر الكفار الخندق على الفور بمساعدة فرسانهم الأكفاء.

لقد تصوّروا أنهم إذا كرّروا الهجوم فسيمكّنهم هذا من الحصول على رأس جسر في الجانب المسلم، بحيث يستطيعون أن يعبروا وتتجمّع قوّاتهم عليه للقيام بهجوم كاسح على البلدة. وهكذا وقع هجوم بعد هجوم، واضطر المسلمون المدافعون إلى القتال دون انقطاع. وفي أحد أيام القتال هذه، ظلوا منخرطين في دفع هذا الهجوم المتكرّر حتى فاتتهم صلاة من صلواتهم اليومية عن موعدها المحدد. وقد حزن الرسول ﷺ بشدة من أجل ذلك وقال: "مَلأَ اللهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ". وتدل هذه الحادثة على عنف الهجوم المعادي، كما تدل كذلك على أن عناية الرسول ﷺ واهتمامه أولاً وأخيرًا كان موجهًا إلى عبادة الله تعالى.

صارت المدينة محاصرة من كل الجوانب، كما صار أهلها رجالاً ونساءً وأطفالاً يواجهون موتًا محققًا، وأصاب البلدة كلها شعور بالجزع، ولكن ظل تفكير الرسول ﷺ مرتبطًا بالحفاظ على أداء الصلوات في أوقاتها المحددة. إن

المسلمين لا يعبدون الله مرّة واحدة كل أسبوع شأن المسيحيين والهندوس، بل هم ملتزمون بالصلاة خمس مرات كل يوم. وعندما تنشب المعارك يكون من الصعب أداء صلاة واحدة في الجماعة، ناهيك عن خمس صلوات في اليوم في جماعة. ولكنّ الرسول ﷺ كان يدعو إلى الصلاة الجامعة خمس مرات كل يوم حتى أثناء المعركة، ومع ذلك يصيبه الألم عندما يفوته أداء صلاة واحدة من هذه الصلوات بسبب هجوم العدوّ.

كان العدوّ يهاجم من الأمام، وخطّط بنو قريظة للهجوم من الخلف، ولكن بطريقة لا تؤدّي إلى تنبيه المسلمين إلى الخطر. لقد أرادوا دخول المدينة من ظهرها، وقتل كلّ النساء والأطفال المتحصّنين هناك. وأرسل بنو قريظة جاسوسًا ذات يوم ليرَى إن كان الحرّاس قد أرصدوا لحماية النساء والأطفال، وما هي قوّتهم. كان هناك حصن احتمت فيه بعض الأسر، وقد اعتبره العدو هدفًا خاصًا مهمًّا. وجاء الجاسوس، وأخذ يطوف بالحصن ويحوم حوله بريبة، وبينما هو كذلك إذا بصفية بنت عبد المطلب عمّة الرسول ﷺ قد رمقته، ولم يكن هناك سوَى رجل واحد في نوبة حراسته الواجبة، وكان مريضًا كذلك. وأخبرته صفية بما رأت، واقترحت عليه أن يقبض على هذا الجاسوس حتى لا يخبر العدو عن خلوّ حصن الأطفال والنساء من الحماية في ذلك الجزء من البلدة. ولكن لم يستطع ذلك المسلم المريض أن يفعل شيئًا، فالتقطت صفية بنفسها عمودا وراحت تقاتل هذا الزائر الطفيلي، وبمساعدة نساء أخريات تمكنت من التغلب عليه وقتله. ولقد تبين بعد ذلك أن الرجل كان بالفعل عينًا لبني قريظة.

أصبح المسلمون متوَجّسين، فقد توَقعوا أن يشنّ عليهم العدوّ هجومًا بعد آخر من هذا الجانب الذي كانوا يظنونه آمنًا إلى حد بعيد، ولكن ثقل الهجوم من الأمام كان شديدًا لدرجة استغرقت كل القوّة المسلمة لمقاومته، ومع ذلك فقد قرر الرسول ﷺ إرسال جزء من القوّة التي معه لحماية النساء والأطفال. وكما سبق ذكره عند مناقشة أعداد المسلمين التي ذكرها المؤرخون في هذه

المعركة، فقد أرسل الرسول من الألف ومائتي رجل، خمسمئة رجل ليقوموا بحماية النساء، ولم يبق إذن للدفاع عن الخندق سوى سبعمئة رجل، يقاتلون عدوًّا يتراوح تعداده من ثمانية عشر إلى عشرين ألفًا. ومع ذلك لم يفقد الكثير من المسلمين رباطة جأشهم إزاء الحشود الهائلة التي كان عليهم أن يواجهوها. وذهبوا إلى الرسول ﷺ وبيّنوا له كم كان الوضع حرجًا، وكيف أنه صار يبدو من المستحيل إنقاذ المدينة. وطلبوا منه أن يدعو الله تعالى، وطلبوا منه كذلك أن يعلمهم دعاء خاصًا بهذه المناسبة. وطمأنهم الرسول ﷺ ألا يخافوا وأن يدعوا الله أن يقيهم من ضعفهم، وأن يثبّت قلوبهم ويؤمّن روعاتهم ويُذهب عنهم الريب. وتوجّه هو إلى الله ﷻ بالدعاء التالي:

"اللهم مُنـــزلَ الكتاب سريعَ الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزِلْهم، وانصُرْنا عليهم". (البخاري، كتاب الجهاد والسير)

ودعا ثانية:

"اللهم يا سميع الدعاء من البائسين والمحزونين، يا مجيب الخائفين، أَذهِبْ عني حزني وغمّي وخوفي، أنت الأعلم بما حشدوا لي أنا وأصحابي." (الزرقاني)

أصبح المنافقون أكثر قلقًا وأشدّ توَترًا من المسلمين الآخرين في القوة المسلمة، وتلاشَى من قلوبهم كل احترام لاعتبارات الشرف والاحترام للجانب الذي كانوا فيه، أو لأمن مدينتهم ونسائهم وأطفالهم. ولما كانوا قد توَقعوا الخزي والهزيمة، أرادوا ألا يحدث هذا في وجودهم. لذلك بدأوا ينسلون الواحد بعد الآخر، تاركين المسلمين ومتعللين بأعذار هزيلة. وقد أشار القرآن المجيد إلى ذلك في الآية ١٤ من سورة الأحزاب حيث قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ

فِرَارًا﴾

وقد وصف القرآن المجيد في الآيات التالية حالة المعركة في تلك اللحظة، والظروف التي أحاطت بالمسلمين وأحوالهم إزاءها:

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَ ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ۞ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ۞ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا﴾(سورة الأحزاب: ١١-١٤)

وقد ذكّر الله تعالى المسلمين في هذه الآيات، كيف هوجموا من الأمام بواسطة الأحزاب المتّحدة من القبائل العربية، ومن الخلف بواسطة اليهود، وذكّرهم بمدى الكرب الذي كانوا يعانونه حينئذ؛ أبصارهم زاغت، وقلوبهم بلغت الحلقوم، بل بدأ الشك يخالجهم في وعْد الله تعالى. كان المؤمنون إذن في محنة، كانوا في هزّة عنيفة جميعًا، فبدأ المنافقون وضعاف الإيمان يقولون: لقد خُدعنا كلنا بوعود زائفة من الله ونبيه المرسل، وبدأ جزء منهم يوهنون من عزيمة المسلمين الآخرين قائلين لا سبيل أمامنا إلا العودة. كذلك فقد وصف القرآن المجيد سلوك المؤمنين الحقيقيين المخلصين، فقال تعالى في الآيتين ٢٣ و ٢٤ من نفس السورة:

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۞ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾

لم يكن المؤمنون الصادقون كالمنافقين وضعفاء الإيمان ومرضَى النفوس. وعندما رأوا العدد الهائل للعدّو، تذكّروا أنّ الله ورسوله قد أخبرا بذلك بالفعل من قبل، وهذا الهجوم المنسّق من طرف قبائل العرب لم يكن إلا إثباتًا لصدق الله ونبيه. لذلك بقيَ المؤمنون المخلَصون غير مزعزعين، بل إنهم ازدادوا من روح الطاعة، وامتلأوا بحماسة الإيمان وحميته. لقد انحاز المؤمنون الصادقون ومالوا بجمعهم مع الله وأوْفوا بعهدهم معه. ونال بعضهم مبتغاهم بالفعل ولقوا مصرعهم، والآخرون منهم ينتظرون الموت في سبيل الله لتحقيق أمنيتهم.

هاجم العدوّ الخندق بشراسة ودون انقطاع، ونجح أحيانًا في عبوره، ونجح مرة أحد قادة العدوّ في المرور عبره، ولكنهم هوجموا بشجاعة بالغة من المسلمين فعادوا على أعقابهم. وفي هذه المعركة فقَدَ نوفل حياته، وهو من كبار قادة المشركين وزعمائهم، وكان من عظم مكانته لدى الكافرين أنهم لم يقبلوا ترك جثته عند المسلمين؛ لذا أرسلوا للرسول ﷺ أنهم يقبلون دفع عشرة آلاف درهم إذا هو أعاد إليهم جثة زعيمهم هذا، وكان هذا ثمنًا باهظًا لجثة أحد الموتى. وقد قدّموا عرْضهم دون أيّ إحساس بالذنب، فقد مثّل الكافرون بجثث المسلمين في أحُد، وكانوا يخشون أن يفعل بهم المسلمون نفس الشيء، ولكن تعاليم الإسلام تختلف عن ذلك، فلقد حرّم الإسلام كلّ صور التمثيل بالجثث كافّة. وعندما تلقّى الرسول ﷺ عرْض المشركين ورسالتهم، قال إن المسلمين ليسوا بحاجة إلى جثة كهذه، وأنهم لا يبتغون شيئًا مقابل إعادتها، وإذا كانوا يريدون الجثة فليأخذوها. (الزرقاني ج٢، ص ١١٤)

ولا مانع من نقل مقطع في هذا المقام من كتاب السير وليام موير: "حياة محمد" (لندن ١٨٧٨ ص ٣٢٢) يصف بوضوح عنف الهجوم على المسلمين، فيقول:

"في الصباح التالي، وجد محمد كلّ قوات العدوّ وقد اصطفت على

طول الخندق في مواجهته، واقتضى ذلك من جانبه يقظة وحذرًا لا يفتران حتى يحبط مناورات العدوّ، فهم على ما يبدو يهدّدون بهجوم عام شامل. ثم انقسموا إلى مجموعات تهاجم المواقع المختلفة للنبيّ ورجاله في سرعة وتوال يبعث على الارتباك. وفي النهاية يحاولون انتهاز فرصة لهم، فربما استطاعوا حشد كل قواتهم تجاه النقطة الأقل حصانة، ومنها يحاولون عبور الخندق تحت غطاء وابل لا ينقطع من رمي السهام القاتلة. وبتكرار المحاولة، حدثت هجمات قويّة من بعضهم نحو المدينة، بل نحو خيْمة النبيّ، من قِبَل قادة مشهورين مثل خالد وعمرو، ولكنّ هذه الهجمات رُدّت على أعقابها بعد هجوم مضاد مستمر ورمي منهمر من السهام، وظل هذا دأبهم طول اليوم. ولأن جيش محمد كان بالكاد كافيًا لحراسة خط دفاعه الطويل، فإنه لم يكن يجد متنفسًا للراحة. وحتى في الليل، فقد ظل خالد مع قوة من فرسانه الأشداء يصعّد هجومه، ويهدّد خط الدفاع، ويهاجم مخافر المسلمين الأمامية والمرصودة على مسافات متكررة مهمة. ولكن كل هذه المحاولات المعادية كانت بلا أثر، ولم يتمّ عبور الخندق".

واستمرت المعركة ليومين، ولم يكن هناك قتال متلاحم يدًا بيدٍ، ولم تُسفك الكثير من الدماء، إذ لم يسقط من جانب العدوّ خلال أربع وعشرين ساعة من القتال سوَى ثلاثة قتلى، وخمسة في جانب المسلمين، وجُرح سعد بن معاذ ﷺ زعيم قبيلة الأوْس وأحد المؤمنين المخلصين المحبين لرسول الله. وقد أدّى تكرار الهجوم إلى إحداث بعض الخسائر، مما سهّل الهجوم المتوالي. وتجلت مواقف عظيمة للشجاعة والولاء، ففي ليلة كانت باردة، بل ربما كانت أبرد ليلة في الجزيرة العربية، تروي لنا السيدة عائشة زوج الرسول ﷺ أنه كان يستيقظ من نومه مرارًا ليحرس الأجزاء التي ضعفت من الخندق، حتى إذا أصابه التعب عاد إلى فراشه لينال شيئًا من الدفء، ثم يذهب ثانية لحراسة الخندق. وفي أحد الأيام

بلغ منه التعب مبلغًا حتى بدا تمامًا أنه لا يستطيع الحركة، فقال إنه يرغب أن يحل محله أحد المسلمين المخلصين ليريحه قليلاً من الجهد البدني في حراسة الخندق في برد الليل. ولفوره سمع صوتًا، وكان لسعد ابن أبي وقاص ﷺ، ولما سأله عن سبب مجيئه قال إنه جاء لحراسته. فقال الرسول ﷺ إنه ليس في حاجة لأن يحرسه أحد، والأوْلى بسعد أن يحرس ذلك الجزء من الخندق الذي أصابه الدمار حتى يكون المسلمون في أمان. فذهب سعد للمهمة، واستطاع الرسول ﷺ أن يحصل على قسط من الراحة. ولعلها كانت من المصادفات أنه لما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة، وهدّدت سلامته بعض الأخطار، كان سعد بن أبي وقاص أيضًا هو الذي ذهب لحراسته.

وفي مناسبة أخرى في ذلك اليوم العصيب، سمع الرسول ﷺ صوت سلاح، فسأل عمّن يكون، وجاءت الإجابة بأنه عَبَّاد بن بِشْر ﷺ. فسأله الرسول ﷺ عما إذا كان معه أحد، فقال عَبَّاد إنه معه بعض أصحاب رسول الله، وأنهم يحرسون خيْمته. فطلب منهم الرسول ﷺ أن يدَعوا خيْمته، وأن يذهبوا بالحريّ لقتال المشركين الذين يريدون عبور الخندق. (السيرة الحلبية ج٢)

وكما ذكرنا من قبل، حاول اليهود أن يدخلوا المدينة خفية، وفقد جاسوس يهودي حياته في المحاولة، وحين عرفوا أن كيدهم انكشف بدأوا في التعاون جهْرة مع الأحزاب. ولم تقع محاولة منسّقة للهجوم من الخلف، لأن هذا الجانب كان ضيّقًا، وبوجود الحرس المسلم المرصود هناك صار من المستحيل القيام بهجوم كاسح. ولكن بعد بضعة أيام، قرر اليهود والأحزاب الوثنيون القيام بهجوم متزامن ومفاجئ على المسلمين.

قوات الأحزاب تتشتت

ولقد أحبط الله هذه الخطة البالغة الخطورة بتدبير معجز. فإن نُعَيْم بن عبد الله

من قبيلة غطفان مال إلى الإسلام، وكان قد جاء مع جيش الوثنيين يتحين الفرص لكي يُعين المسلمين. لم يكن يستطيع عمل الكثير بمفرده، ولكنه لما رأى اليهود قد ضمّوا جهودهم إلى جهود العرب ليناصروهم، وبدا أن المسلمين يواجهون موتًا محتّمًا وهلاكًا مؤكدًا، عقد نُعيْم العزم على أن يفعل ما في وسعه لإنقاذ المسلمين. لقد كان يكتم إسلامه، فذهب إلى بني قريظة وحادَث رؤساءهم، وسألهم عما هم صانعون إذا ذهبت جيوش العرب، وماذا يتوقعون أن يصنع بهم المسلمون. كان بعض اليهود يميل إلى البقاء على عهده مع المسلمين، و لم يكن هؤلاء على استعداد لتحمّل العقاب الشديد بسبب البعض الآخر الذين تبين أنه لا عهد لهم.

وقد بعثت هذه التساؤلات العقلانية الخوف في نفوس القادة اليهود، فسألوه عما يجب عليهم فعله. فنصحهم نُعيْم أن يطلبوا سبعين رهينة من المشركين. فإذا كان المشركون جادّين في القيام بهجوم منسّق معهم، فلن يرفضوا الطلب. وأوصاهم أن يقولوا للمشركين إن هؤلاء السبعين سوف يقومون بحراسة بعض الأماكن الهامة، بينما يقومون هم بأنفسهم بمهاجمة المسلمين من الخلف. وبعد هذا الحديث مع اليهود، ذهب نُعيم إلى قادة جيش المشركين وسألهم عما هم صانعون إذا عاد اليهود إلى حلفهم مع النبيّ، أو إذا حاولوا استرضاء المسلمين بطلب رهائن من المشركين ثم سلموهم للمسلمين. وقال لهم إنه من الأهمية بمكان أن يختبروا إخلاص اليهود، فيطلبوا منهم المساهمة في هجوم عام شامل على الفور الآن. وتأثر قادة المشركين بهذه النصيحة وعملوا بها، فأرسلوا رسالة إلى اليهود يطلبون منهم الهجوم فورًا على المسلمين من الخلف، لكي يتمكن جيش الأحزاب من الهجوم من المقدّمة. فأجاب اليهود بأن اليوم التالي هو يوم السبت، وأنهم لا يستطيعون أن يقاتلوا المسلمين في هذا اليوم. وقالوا أيضًا إنهم يعيشون في المدينة بينما يعيش الأحزاب خارجها، فإذا حدث أن انسحب العرب من المعركة، فماذا يكون مآلهم مع المسلمين. ولذلك طلبوا من الأحزاب أن

يبعثوا إليهم بسبعين من رجالهم كرهينة حتى يمكنهم في تلك الحال أن يقوموا بدورهم في الهجوم. وبدأ الشك يعمل في القلوب. ورفض الأحزاب أن يجيبوا اليهود إلى طلبهم، وأدركوا أن لو كان اليهود مخلصين فعلاً في اتفاقهم، فليس هناك ما يستدعي تقديم مثل هذا الطلب. وساورهم الشك في صدق نيّة اليهود، بينما شك اليهود في صدق نيّة الأحزاب. وكما يقال، إن الشك يقضي على الشجاعة، فتخاذل الفريقان، ودبّت الفُرقة بين صفوفهم، وخارت عزائمهم، وفقدت جيوش العرب حماسها وحميتها. وعندما جاء المساء، ذهبوا إلى النوم مرهقين بمشاعر الشك والضيق وأشكال الحرج. فذهب الجند والقادة إلى خيامهم يملؤهم الإحباط وتسيطر عليهم الكآبة.

ثم حدثت المعجزة، وجاءت مساعدة السماء إلى المسلمين. بدأت الريح القاصفة تعصف، فقوّضت خيام المشركين، ولم تدع قِدرًا إلا أكفأتها، ولا نارًا إلا أطفأتها، واقتلعت حبال الخيام.

كان العرب يتفاءلون بالنار المشتعلة في المكان، ويتشاءمون من انطفائها. وعندما تصبح النار يوما مطفأة أمام خيمة، فإن سكانها يعتبرون ذلك نذير شُؤم، ويعزمون على التراجع في هذا اليوم، وأن يعودوا بعد ذلك للاشتراك في الهجوم. وكانت الشكوك قد عصفت بالقادة قبل أن تعصف بهم الريح. وعندما حزَم بعض المعسكرين متاعهم للانسحاب، ظن الآخرون أن المسلمين قاموا بهجوم كبير ليلاً. وانتشر هذا الظن بين جموع الأحزاب كما ينتشر الوباء المعدي، وبدأ الجميع يحزم متاعه وينصرف من الميدان. ويُروَى أن أبا سفيان كان نائمًا في خيمته فبلغت مسامعه أخبار الانسحاب المفاجئ لفرق المشركين، فنهض مرتجفًا، وسارع إلى ركوب جمله الذي كان موثقًا في عقاله، وهمز البعير، ولكن الجمل لم يتحرك. فأشار أصدقاؤه إلى أن الجمل مربوط، وتم حل عقال البعير، وأصبح بإمكانه هو وصحبه أن يخلوا الميدان.

عندما مضى ثلثا الليلة كان قد تم إخلاء المكان تمامًا، واختفى جيش مؤلف من عشرين إلى خمسة وعشرين ألف مقاتل ومرافق تابع، تاركين خلفهم الميدان خاويا. وفي نفس هذا الوقت تلقّى الرسول ﷺ وحيًا يخبره أن العدوّ قد فر نتيجة لما فعله الله تعالى بهم. وأراد الرسول ﷺ أن يستطلع ما حدث، ورغب أن يرسل أحد أتباعه ليمسح الميدان بعينيه ويعرف ما حدث ثم يقدم له تقريرًا بالأمر. كان الجوّ باردًا كالثلج، ولا عجب أن أطراف المسلمين قد تجمّدت من شدة البرد، حيث إنهم لم يكونوا يرتدون ما يكفي من الملابس لمقاومة البرد. وسمع بعضهم صوت الرسول ﷺ ينادي، وأرادوا أن يجيبوه ولكنهم لم يستطيعوا؛ فقد منعهم البرد تمامًا من القدرة على النطق، ما عدا حُذَيْفة الذي أجاب في صوت جهْوَريّ: "نعم يا رسول الله، ماذا تأمرنا أن نصنع"؟ فنادى مرة أخرى، ولم يجب أحد هذه المرة أيضًا إلا حُذيفة الذي أجاب ثانية. فأمر الرسول ﷺ حُذيفة أن يذهب ويستطلع ميدان المعركة، لأن الله تعالى أخبره أن العدوّ قد ولى الأدبار. فذهب حذيفة قريبًا من الخندق، ومن هناك رأى أنّ العدوّ قد أخلى الميدان، فلم يكن هناك جنود ولا رجال. وعاد حُذيفة إلى الرسول ﷺ فقرأ عليه كلمة الشهادة، وأخبره أنّ العدوّ قد انسحب. وفي الصباح، بدأ المسلمون يزيلون خيامهم أيضًا، وجمعوا متاعهم ليعودوا أدارجهم إلى المدينة. لقد انتهت محنة خطيرة دامت ما يقرب من عشرين يومًا.

بنو قريظة ينالون العقاب

تنفس المسلمون الصعداء في أمان مرة ثانية، ولكنهم كانوا يعيشون مع بني قريظة في بلدة واحدة، وقد خان بنو قريظة عهدهم مع المسلمين، وهذا ما لا يمكن السكوت عليه.

جمع الرسول قواته المنهكة وأخبرهم أنهم لا يجوز لهم الراحة الآن، وأمرهم ألا

يُصلّوا العصر إلا في بني قريظة، وأن يهاجموا حصونها، ثم أرسل عليًّا ﷺ ليسألهم لماذا نقضوا عهدهم مع المسلمين؟ و لم يُبْدِ بنو قريظة ندمًا أو أسفًا، أو أيَّ ميْل لطلب الصفح، بل إنهم بدلاً من ذلك قاموا بإهانة عليّ ﷺ ورجال الوفد الذين كانوا معه. وبدأوا يسبّون الرسول ﷺ ونساء بيته سبًّا قبيحًا فاحشًا، وقالوا إنهم لا يقيمون وزنًا للرسول، و لم يكن لهم يومًا عهد معه.

وحين عاد عليّ ليطلع الرسول ﷺ على ردّ اليهود، وجده هو والصحابة متجهين نحو حصونهم، ولدى وصوله عاود اليهود سبّ الرسول ﷺ وأزواجه وبناته.

وحرصًا على عدم إصابة الرسول ﷺ بالألم والأذى لسماعه سباب اليهود، فقد اقترح عليّ أن يضطلع الصحابة بمعالجة الأمر دون وجود الرسول ﷺ. وفهم رسول الله المراد، وسأل عليًّا ما إذا كان يرغب به عن سماع سبّهم، فأجاب عليّ بالإيجاب. فذكر الرسول ﷺ أن موسى كان من بني جلدتهم وأقرب الأقرباء إليهم، ومع ذلك فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر.

واستمر الرسول ﷺ في تقدمه. ونصب اليهود دفاعاتهم وبدأوا يقاتلون، وانضمت إليهم نساؤهم. كان بعض المسلمين يقفون عند أسفل حائط الحصن، فألقت امرأة يهودية حجرًا ضخمًا عليهم عندما لمحتهم فقُتل أحدُهم ويسمى خلادا. وضُرب الحصار عليهم أيامًا، وفي نهايتها أحس اليهود بالعجز عن الاستمرار تحت الحصار، فأرسل زعماؤهم إلى الرسول ﷺ رسالة يطلبون فيها أن يرسل إليهم أبا لبابة ﷺ؛ وهو زعيم من الأوس الذين كانوا في علاقة معهم قديمًا. لقد أرادوا استشارته حول التسوية الممكنة، فأرسل الرسول ﷺ أبا لبابة إلى اليهود، فسألوه عما إذا كان الأصلح لهم هو النّزول والاستسلام وقبول حكم الرسول ﷺ، فقال أبو لبابة إن ذلك هو ما يجب فعله، لكنه في نفس الوقت قام بإمرار أصبعه على عنقه يعطيهم إشارة الموت، وكان ذلك من عند

أبي لبابة لا من عند الرسول ﷺ.

لم يكن الرسول قد قال شيئًا لأحد عن هذا الموضوع، ولكن أبا لبابة تصوّر في فكره أن الجريمة التي ارتكبها اليهود لا تستحق إلا عقوبة الموت، فأشار بهذه العلامة متسرعًا، حيث عبر بها عن مصير الموت الذي ينتظرهم. لذلك رفضوا نصيحته المنطوقة، ورفضوا قبول حكم الرسول ﷺ فيهم، ولو كانوا قبلوه فإن أقصى عقاب كان ينتظرهم هو الطرد من المدينة، ولكن حظهم السيء دفعهم لرفض حكم الرسول ﷺ، وأرسلوا يقبلون حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، زعيم حلفائهم من الأوس؛ راضين بأيّ عقاب يعرضه سعد عليهم. ودبّ خلاف بين اليهود، فبدأ بعضهم يقول إن اليهود هم الذين نقضوا الميثاق مع المسلمين، وإن المسلمين أثبتوا أنهم على العكس أمناء وصادقين، وأن دينهم أيضًا صادق. وهؤلاء الذين قالوا ذلك انضموا للمسلمين. كذلك قام زعيم من زعماء اليهود، هو عمرو بن سعدي، يلومهم ويُبكّتهم قائلاً: "لقد نكثتم العهد، ورجعتم في كلمتكم التي قطعتموها على أنفسكم، والطريق المتاح لكم الآن هو الإسلام أو دفع الجزية". فقالوا: "أبدًا، لن نعتنق الإسلام، ولن نعطي الجزية، الموت أحبُّ إلينا من دفع الجزية". فأجاب عمرو، إنه بذلك يكون قد فعل ما عليه، وقد أعذر إليهم فلا لوم عليه، قال ذلك وغادر الحصن.

ورآه محمد بن مسلمة، قائدُ مفرزة للمسلمين، فسأله من يكون، وعرف هويته، فتركه يمضي في سلام. ودعا محمد ابن مسلمة الله قائلاً: "اللهم أَعِنّي أبدًا على ستر أخطاء الصالحين".

وما كان يعنيه هو أن هذا اليهودي قد أبدى الندم والأسف، ولام قومه على سلوكهم، والواجب الخلقي يحتّم على المسلمين أن يعفوا عن رجال مثله، ويتركوهم يمضون في سلام. وأنه بتخلية سبيله يكون قد فعل عملاً صالحًا، ودعا الله أن يعينه على أعمال مماثلة مرارًا وتكرارًا. ولما علم الرسول ﷺ بما فعل محمد

بن مسلمة، لم يلمه على تركه لهذا القائد اليهودي، بل وافقه ورضي عما فعله.

كان بعض الأفراد فقط من اليهود هم الذين فضلوا قبول السلام والنّزول على حكم الرسول ﷺ، وأما الأغلبية من قبيلة بني قريظة فظلوا على رأيهم، ورفضوا حكم الرسول ﷺ وطلبوا بدلاً من ذلك حكم سعد بن معاذ (البخاري، والطبري). وقبِل الرسول ﷺ طلبهم، وأرسل إلى سعد، الذي كان يرقد جريحًا، أن يأتي ويصدر حكمه على اليهود الذين نكثوا الميثاق. وحالما أعلن الرسول ﷺ قراره، أسرع أفراد من قبيلة الأوس الذين كانوا حلفاء لبني قريظة طويلاً إلى سعد، وضغطوا عليه ليصدر حكمًا في مصلحة بني قريظة، وقالوا له إن الخزرج طالما حاولوا إنقاذ حلفائهم من اليهود، وعلى سعد بدوره أن ينقذ حلفاء الأوس قبيلته. وذهب سعد راكبًا إلى بني قريظة يُحيط به رجال قبيلته من جانبيه يحثّونه ألا يعاقب بني قريظة. وكان كل ما رد به سعد عليهم هو أن الشخص الذي أُسند إليه إصدار حكم من الأحكام يحمل أمانة، وأن عليه أن يؤدّي أمانته بشرف وكرامة، وقال إنه سوف يصدر حكمه واضعًا في حسابه كل الاعتبارات، وأيضًا بلا رهب ولا رغب. وعندما بلغ حصن اليهود رأى بني قريظة مطلين عليه مصطفين على أسوار الحصن ينتظرونه، وفي الجانب الآخر وقف المسلمون. واقترب سعد من المسلمين وسألهم: "أتقبلون حكمي"؟ قالوا: "نعم".

حكم سعد يتوافق مع التوراة

توجّه سعد بدوره إلى بني قريظة وسألهم نفس السؤال، فوافقوا كذلك. عند ذلك توجّه سعد على استحياء إلى الجانب الذي يقف فيه الرسول ﷺ، وسأل ما إذا كان الجمع في هذا الجانب يقبل حكمه، فلما سمع الرسول ﷺ السؤال قال: "نعم". (الطبرى وابن هشام)

عند ذلك أصدر سعد حكمه حسب تعاليم التوراة، التي تقول:

"حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استَدْعِها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويُستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عَملتْ معك حربًا فحاصِرْها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضربْ جميعَ ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًّا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبقِ منها نسمةً ما بل تحرّمها تحريمًا الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحيويين واليبوسيين، كما أمرك الرب إلهك، لكي لا يعلّموكم أن تعمَلوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم، فتخطئوا إلى الرب إلهكم". (سفر التثنية ٢٠: ١٠ – ١٨)

فحسب تعليمات التوراة، لو انتصر اليهود وهُزم الرسول ﷺ، فكل المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً سيلقون مصرعهم. ونعلم من التاريخ أن هذا كان قصد اليهود، وأقل ما كان سيصنعه هؤلاء هو قتل الرجال واستعباد النساء والأطفال، وإتلاف كل ممتلكات المسلمين أو نهبها، فهذه هي التعاليم المدوّنة بسفر التثنية في التعامل مع الأمم المعادية التي تسكن أقطارًا بعيدة.

كانت تربط سعد ببني قريظة علاقة طيبة، وكانت قبيلته في حلف معهم. وعندما رفض اليهود حكم الرسول ﷺ، ورفضوا بذلك الحكم الأخفّ الذي يقضي به الإسلام، قرر أن يُنْزل بهم الحكم البديل، وهو الحكم المكتوب في كتاب موسى عليه السلام.

إن مسؤولية هذا الحكم لا يتحمّلها الرسول ﷺ ولا المسلمون، بل يتحمّلها تعليم موسى عليه السلام، ويتحمّلها اليهود الذين عاملوا المسلمين بكل وحشية.

كانت لديهم الفرصة لقبول حكم رحيم، وهو حكم الإسلام الذي كان سيصدره رسول الله ﷺ، وهو من بعثه الله تعالى رحمة للعالمين. وبدلاً من قبول حكم الإسلام أصرّوا على قبول حكم سعد، ولم يكن لسعد من خيار سوَى أن يُصدر حكمه حسبما ورد في كتاب موسى عليه السلام. وإلى الآن، يقوم المسيحيون دون انقطاع بتشويه سمعة الرسول ﷺ قائلين إنه كان قاسيًا مع اليهود. والسؤال هو: لو كان الرسول قاسيًا مع اليهود، فلم لم يكن قاسيًا مع الشعوب الأخرى أو في المناسبات الأخرى؟ هناك مرات عديدة ألقت شعوب وقبائل بنفسها تحت رحمة حكم رسول الله ﷺ، ولم يحدث أن ضاع طلبهم للعفو دون جدوَى. وفي هذه المناسبة أصرّ العدوّ على حكم شخص غير الرسول ﷺ، واختاروه هم بأنفسهم، فقام بدوره كحَكَم بينهم وبين المسلمين، وسأل الرسول ﷺ كما سأل اليهود في العلن أمام الجميع إذا كانوا يقبلون حكمه، أي أنه لم يصدر حكمه إلا بعد موافقة الأطراف عليه جهارًا. ثم ماذا كان حكمه؟ لم يكن سوى تطبيق لحكم شريعة موسى على المذنبين من اليهود، فلماذا لا يقبلونه؟ ألا يعُدّون أنفسهم أتباعًا لموسى عليه السلام؟ فإذا كان هناك سبب للقسوة، فهو قسوة اليهود على اليهود. لقد رفض اليهود حكم الرسول ﷺ فاستجلبوا بدلاً منه تطبيقًا لشريعتهم الدينية عقوبة لإثمهم.

لو كانت هناك قسوَة تم ارتكابها، فيُسأل عنها موسى عليه السلام الذي سجّل هذه العقوبة للعدوّ المحاصر، وكتب في كتابه أن هذه العقوبة كانت بأمر الربّ. وليس من حق الكُتّاب المسيحيين أن يصبّوا جام غضبهم على نبيّ الإسلام ﷺ، بل عليهم أن يدينوا موسى عليه السلام الذي سجّل هذه العقوبة القاسية، أو لعلهم يدينون الكتاب المقدس الذي سُجّلت فيه هذه العقوبة.

انتهت معركة الخندق، وأعلن الرسول ﷺ أن المشركين لا يغزون المسلمين بعد اليوم، بل سيغزوهم المسلمون بدلاً من ذلك. كان المد في طريقه ليتحوّل إلى جزْر، وكان المسلمون في طريقهم إلى الهجوم على القبائل والأحزاب التي طالما

هاجمتهم بلا مسوّغ وتحرّشت بهم دون مبرر. ولم يكن كلام الرسول ﷺ تهديدًا أجوف، ففي معركة الخندق لم يخسَر الأحزاب شيئًا يُذكر، وكل ما فقدوه هو بضعة رجال. وفي أقل من عام كان من الممكن لهم أن يأتوا لمعاودة الهجوم على المدينة، مع استعداد أحسن وتجهيز أفضل. وبدلاً من جيش تعداده عشرون ألفًا، كان باستطاعتهم رفع العدد في الهجوم الجديد إلى أربعين أو حتى خمسين ألفًا. وهؤلاء لا يصعب عليهم هزيمة جيش من ألف وخمسمئة. ولكن ها هم المشركون، بعد مُضيّ واحد وعشرين عامًا، وبعد أن بذلوا أقصى ما في وسعهم للقضاء على الإسلام والمسلمين، يهتزّون بعد الفشل المستمر لخططهم. لقد بدأ الشك يساورهم أن يكون دين محمد ﷺ صحيحًا، وأن تكون هذه الأصنام والأوثان القومية مجرد زيف، وأن يكون الله الخالق الذي لا يُرى، والذي يتكلم عنه محمد ﷺ، هو الحق.

بدأ الخوف يغزو قلوبهم خشية أن يكون محمد ﷺ على حق، وأن يكونوا هم على باطل، ومع ذلك لم يتجلَّ هذا الخوف على تصرفاتهم. فمن الناحية المادية، أخذ الكافرون يسلكون نفس السلوك الذي عهدوه، وراحوا إلى أوثانهم يتوجّهون إليها بالدعاء كما هي عادتهم، ولكن روحهم الداخلية كانت قد انكسرت. في الظاهر عاشوا حياة المشركين والكافرين، وفي الداخل بدأت قلوبهم تردّد صدى شعار المسلمين أنه لا إله إلا الله.

وكما سبق أن ذكرنا، قال الرسول ﷺ بعد موقعة الخندق: "الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ". لقد بلغت درجة تحمّل المسلمين أقصاها، وحان الآن لموجة المد أن تنقلب. (البخاري: كتاب المغازي).

هل أراد رسول الله ﷺ استمرار الحرب؟

في المعارك التي وقع فيها قتال، كان المسلمون إمّا في المدينة أو خرجوا على مسافة قريبة منها لصد هجوم الكافرين. لم يبدأ المسلمون هذه المعارك، ولم

يُبدوا أبدًا أيّة رغبة في استمرارها بعد أن بدأت، فهم لم يحرصوا بتاتًا على استمرار الحرب.

وعادة عندما تبدأ المعركة بين طرفين، فإنها يمكن أن تنتهي بإحدى طريقتين لا ثالث لهما: إما سلام يُتفق عليه، أو يخضع أحد الطرفين للآخر. وفي المعارك التي وقعت بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحين، لم يحدث أيّ إلماح إلى السلام، ولا خضع طرف من الأطراف للآخر. صحيح أن القتال كان يتوقف أحيانًا، ولكن لا يمكن القول إن الحرب بينهما قد توقفت في هذه الوقفات المؤقتة. وحسب العرف المعمول به، كان من حق المسلمين أن يهاجموا القبائل المعادية ويجبروهم على الاستسلام، ولكنهم لم يفعلوا ذلك. فعندما كان العدوّ يكفّ عن القتال، كان المسلمون يتوقفون كذلك. كانوا يتوقفون وهم يتصوّرون أن الكفّ عن القتال قد يعقبه كلام عن السلام. ولكن بعدما صار واضحًا أن الحديث عن السلام لا وجود له مع المشركين، ولا يبدو أن لديهم أية نية في الخضوع، فكّر الرسول ﷺ أنه ربما قد حان الوقت لإنهاء الحرب، إما بعقد اتفاق للسلام أو بخضوع طرف للآخر، ولكن لا بد من إنهاء حالة الحرب لكي يحل السلام. ويبدو أنه بعد موقعة الخندق، عقد الرسول ﷺ العزم على تحقيق أحد الأمرين: إما السلام أو الاستسلام. وكان من المستحيل بالطبع أن يستسلم المسلمون للكافرين، فلقد كان وعْد الله لهم هو تمام نصر الإسلام على المشركين الذين عارضوه واضطهدوا المسلمين، وقد أعلن الرسول ﷺ هذا الوعد مرارًا في مكة قبل الهجرة. فهل كان على المسلمين أن ينادوا بالسلام؟ إن طلب السلام يمكن أن يأتي من الجانب الأقوى أو الأضعف، وعندما يطلب الطرف الأضعف السلام، فإنه بذلك يتنازل مضطرًا – سواء بشكل مؤقت أو على الدوام – عن بعضٍ من أرضه أو دخله، أو يقبل مضطرًا أية شروط أخرى يفرضها العدوّ عليه. وعندما يعرض الجانب الأقوى سلامًا، فإن هذا يعني أنه لا يهدف إلى القضاء على الطرف الأضعف قضاءً تامًا، بل يعني أنه يريد أن يتركه ليحتفظ باستقلال

كامل أو جزئي، وذلك في مقابل شروط معينة يفرضها عليه. وفي المعارك التي نشبت حتى ذلك الوقت بين المشركين والمسلمين، فشل المشركون مرة بعد أخرى في تحقيق أهدافهم، غير أن قوّتهم لم تكن قد تحطمت بعد، وكل ما حدث هو أنهم فشلوا في محاولاتهم للقضاء على المسلمين. والفشل في القضاء على العدوّ لا يعني الهزيمة، بل يعني أن الهجوم لم ينجح، وقد ينجح إذا تكرر الهجوم. وهكذا لم يكن أهل مكة قد تلقوا الضربة القاصمة بعد؛ بل كل ما حدث هو فشل عدوانهم على المسلمين. ومن الناحية العسكرية، كان المسلمون قطعًا هم الجانب الأضعف. صحيح أنهم صمدوا في الدفاع عن أنفسهم، ولكنهم كانوا لا يزالون يشكلون الأقلية الأضعف، الأقلية التي لم تكن قادرة على اتخاذ مبادرة الهجوم، وإن كانت قد نجحت في مقاومة هجوم الأكثرية. ولذلك لم يكن المسلمون قد أسسوا صرح استقلالهم حتى ذلك اليوم، ولو أنهم دعوا إلى السلام لفُهم من ذلك أن دفاعاتهم قد انهارت، وأنهم أصبحوا الآن على استعداد لقبول ما يمليه عليهم المشركون. لذلك فإن عرضًا لطلب السلام من جانبهم يكون كارثة على الإسلام، وهو يعني إلقاء أنفسهم إلى التهلكة، وقد يبعث الروح من جديد في عدوّ أوْهنته المحاولات الفاشلة المتكررة التي قام بها، وقد تتيح له فرصة لتجديد الآمال وإذكاء الطموحات لديه، وربما ظن الكفار أن المسلمين، رغم نجاحهم في إنقاذ المدينة، إلا أنهم قد صاروا يتشككون في تحقق نصرهم النهائي وتحقيق غلبتهم على المشركين. ولذلك، فلا يمكن أن يصدر الاقتراح بطلب السلام من الجانب المسلم، وإنما يمكن أن يأتي من جانب أهل مكة، وهو الجانب المعتدي، أو من طرف ثالث، إذا كان للطرف الثالث وجود، ولكن لا يوجد طرف ثالث في هذا الصراع، فقد كانت المدينة تقف ضد جميع العرب في الجزيرة العربية. وبذلك فإن المشركين وحدهم هم الذين كان عليهم أن يبادروا المسلمين بالسلام، غير أنه لم تكن هناك علامة واحدة في هذا السبيل، مما يعني أن الحرب بين العرب والمسلمين كان يمكن أن تستمر إلى الأبد. فالمسلمون لا

يمكنهم عرض السلام، والعرب لا يريدون عرض السلام، وعلى ذلك فقد بدا أنها حرب أهلية بلا نهاية، على الأقل لمئة سنة قادمة.

كان هناك سبيل وحيد للمسلمين إذا أرادوا وضع نهاية لهذا الصراع، وهم لم يكونوا مستعدين أن يُخضِعوا عقولهم وعقائدهم للعرب، وأن يتنازلوا عن حقهم في الإيمان بما يرونه حقًّا، وأن يمتنعوا عن ممارسة شعائر الدين الذي يؤمنون به وعن الدعوة إليه، وفي نفس الوقت، لم تكن هناك أية بادرة لإحلال السلام من جانب المشركين. كان المسلمون قادرين على دفع هجوم المشركين المتكرر، وهذا يعني أنه ينبغي لهم أن يدفعوا العرب إلى الاستسلام أو إلى قبول السلام، وهذا هو ما قرر الرسول ﷺ أن يفعله.

فهل كانت الحرب هي ما ابتغاه الرسول ﷺ؟ لا. لم تكن الحرب، بل هو السلام الذي أراد الرسول ﷺ أن يقيمه ويُرسي دعائمه. ولو أنه لم يفعل شيئًا في هذا الوقت، فإن الجزيرة العربية كانت ستظل في قبضة الحرب الأهلية، والخطوة التي اتخذها ﷺ كانت هي الخطوة الوحيدة نحو إحلال السلام. لقد سجّل التاريخ وقوع حروب طويلة عديدة، استغرق بعضها مئة عام، والبعض ثلاثين عاما أو نحوها أو أكثر، وما كانت الحروب الطويلة لتستمر إلا بسبب الافتقار إلى خطوة حازمة يخطوها طرف من الطرفين. والخطوة الحازمة كما قلنا ليس لها إلا أحد وجهين، الاستسلام التام أو التفاوض لإقرار السلام.

فهل كان ينبغي للرسول ﷺ أن يتخذ موقفًا سلبيا؟ هل كان ينبغي له أن ينسحب مع قوته الصغيرة من المسلمين، ويقبع خلف جدران المدينة، تاركًا كل شيء آخر في مهب الريح؟ مستحيل. لقد كان المشركون هم الذين بدأوا بالهجوم، و لم تكن السلبية لتعني انتهاء الحرب بل استمرارها؛ فإن السلبية تعني أن للمشركين أن يهاجموا المدينة متى يحلو ذلك لهم، وأن يتوقفوا عن الهجوم أو يعاودوه كما يشاءون. وتوقف المعركة لبعض الوقت لا يعني انتهاء الحرب، وإنما

يعني فقط مناورة استراتيجية.

تعاليم اليهودية والمسيحية عن الحرب

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: هل يجوز القتال من أجل الدين؟ ولنبدأ بمعالجة هذا السؤال أولاً.

إن التعاليم الدينية عن الحرب تتخذ صورًا شتى. وقد ذكرنا فيما سبق تعاليم العهد القديم، التي جاءت في التوراة إلى موسى تأمره بدخول أرض كنعان بالقوة لهزيمة سكانها وإسكان شعبه فيها. (التثنية ٢٠: ١٠ – ١٨)

وعلى الرغم من وجود هذا التعليم في شريعة موسى، وعلى الرغم من تطبيقه عمليًا على يد النبي يوشع والنبي داود وآخرين، فإن اليهود والمسيحيين لا يزالون يشيدون بأنبيائهم ويعتبرون كتبهم كتبًا سماوية من عند الله تعالى.

وعندما انتهى العهد القديم، وجدنا يسوع يعلّم في الإنجيل:

"وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضًا" (متى ٥: ٣٩).

ولطالما ذكر المسيحيون هذا البيان الصادر عن يسوع، واحتجوا به على أنه كان يعلم ويعظ تعليمًا مضادًا للحرب، ولكنا نجد في أناجيل العهد الجديد فقرات مفادها العكس تمامًا، تقول فقرة منه على سبيل المثال، في إنجيل متّى ١٠: ٣٤:

"لا تظنوا إني جئت لألقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا".

وفي فقرة أخرى يقول:

"فقال لهم: ولكن الآن من له كيس فليأخذه ومِزوَد كذلك، ومن ليس

له فليبع ثوبه ويشتر سيفًا" (إنجيل لوقا ٢٢ :٣٦).

هاتان الفقرتان الأخيرتان (من الفقرات الثلاث السابقة) تناقضان الأولى، فإذا كان المسيح قد جاء للحرب، فلماذا يدعو إلى إدارة الخد الآخر؟ من الواضح أنه ينبغي إما التسليم بوجود تناقض في الإنجيل، أو أن علينا تأويل التناقض على وجه مناسب.

ولسنا معنيين في هذا المقام بقضية ما إذا كانت إدارة الخد الآخر أمرًا قابلاً للتطبيق على وجه الإطلاق، ولكن ما يعنينا هنا أن نشير ونؤكد أن الدول المسيحية كلها طوال التاريخ لم تتردد في الذهاب إلى الحرب ولم يديروا الخد الآخر. وعندما نال المسيحيون الملك والسُلطة لأول مرة، فإنهم دخلوا الحروب مهاجمين ومدافعين. وهم الآن قُوى مسيْطرة في العالم، ولا زالوا متورطين في الحروب مدافعين ومهاجمين. وفي هذا العصر الحالي نجد أنه إذا انتصر جانب منهم، مجّدته بقية الشعوب المسيحية، واعتبروا انتصاره انتصارًا للحضارة المسيحية، وأصبحت الحضارة المسيحية في كل صورها تعني الهيْمنة والنجاح. وعندما تتحارب دولتان مسيحيتان، فإن كلاً منهما تدّعي أنها تحمى المثل المسيحية، ويتم تمجيد الدولة المنتصرة باعتبارها الدولة المسيحية الحقيقية. ومن الواضح أنه منذ زمن المسيح وإلى عصرنا هذا، ظلت المسيحية تخوض غمار الحروب، وتشير كل الشواهد إلى أنها سوف تظل على نفس الحال.

وإذن فالفتوَى العملية للمسيحية هي أن الحرب تُعبر عن التوجيه الحقيقي لتعاليم العهد الجديد، وأن موضوع إدارة الخد الآخر هذا، لم يكن إلا تعليمًا انتهازيًا أملاه العجز التام للمسيحيين الأوائل، أو أن المقصود به هو أن يُطبّق على الحالات الفردية، لا على الدول ولا على الشعوب.

وثانيًا، حتى لو افترضنا أن المسيح قد أمر بالسلام لا الحرب، فلا يعني هذا أن من لا يتّبعون تعاليمه لم يكونوا قديسين أو شرفاء. فقد دأبت المسيحية دائمًا

وأبدًا على احترام أعمدة الحرب، مثل موسى وداود ويوشع. وليس هذا فقط، بل إن الكنيسة نفسها قد كرّمت الأبطال القوميين الذين دخلوا الحروب، ونصّبتهم قدّيسين على يد البابوات.

تعليم القرآن المجيد عن الحرب والسلام

يختلف القرآن المجيد في تعاليمه عن تعاليم التوراة والإنجيل. إنه وسط بين الاثنين؛ فهو لا يأمر بالعدوان كما جاء في التوراة، ولا هو يفعل كما تفعل المسيحية هذه الأيام، فيأمرَ بأمرين متناقضين: أي يطلب منا أن ندير الخد الآخر، وفي نفس الوقت يأمرنا أن نبيع الملابس لشراء السيوف. إنّ تعاليم الإسلام تطابق الفطرة الطبيعية للإنسان وتتناسب معها، وتدعو لنشر السلام بالطريقة الوحيدة الممكنة.

يحرّم الإسلام الاعتداء على الناس، ولكنه يحث على القتال إذا كان القعود عنه يعرّض السلام للخطر ويشجّع الحرب. وإذا كان القعود عن القتال يؤدّي إلى الاستئصال التام لحرية الاعتقاد وحرية البحث عن الحقيقة، فإن واجبنا أن نقاتل.

هذا هو التعليم الذي يمكن أن يُبنى عليه سلام دائم، وهذا هو التعليم الذي بَنى عليه الرسول ﷺ سياساته الخاصة وممارساته العملية. لقد عانى ﷺ باستمرار وبصبر في مكة، ولكنه لم يقاتل العدوان القاسي الذي كان هو ضحية بريئة له. ولما هاجر إلى المدينة، وخرج العدو لاستئصال شأفة الإسلام، كان قتال العدو حينئذ هو العمل الذي لا بد منه، من أجل الدفاع عن الحق وحرية الفكر والعقيدة.

وسنعرض في ما يلي للآيات القرآنية التي تشتمل على موضوع الحرب.

أولاً: في سورة الحج: ٤٠-٤٢ نجد ما يلي:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾.

تقول الآيات إن ضحايا العدوان قد سمح لهم بالقتال، وأن الله تعالى قدير على أن يعين هؤلاء الضحايا، الذين طُردوا من بيوتهم بسبب عقائدهم. وهذا التصريح لهم بالقتال هو فعل حكيم، فلو لم يدفع الله تعالى الظلم والقسوة، بواسطة المخلصين من عباده الصالحين، فلن توجد في العالم حرية للإيمان ولا للعبادة، ولذا فلا بد أن يعين الله ﷻ أولئك الذين يعملون على إقرار حرية الفكر وحرية العبادة. ويعني ذلك بالتالي أن القتال مسموح به عندما تطول معاناة الناس من عدوان ظالم، حين لا يكون لدى المعتدي سبب للعدوان، ويبتغي بعدوانه التدخّل في اختيار الناس لدينهم. وعليهم إذا تقلّدوا السُلطة أن يقيموا دعائم احترام حرية الدين والعقيدة، وأن يحموا كل الأديان وجميع أماكن العبادة. ولا يجوز لهم استخدام سُلطتهم أو قوّتهم من أجل مجدهم الخاص، ولكن من أجل مصالح الفقراء، وتقدّم البلد كلها، وتعميم السلام على الجميع. وهذه التعاليم بقدر ما هي واضحة ودقيقة فهي رائعة، ولا غبار عليها. وإنها لتعلن للعالم حقيقة أن المسلمين الأولين ذهبوا إلى الحرب حيث لم يكن أمامهم من سبيل سوى ذلك، وحيث حرّم الإسلام عليهم الحرب العدوانية. لقد وعدهم الله تعالى بالنصر السياسي والسُلطة، ولكنه ﷻ حذّرهم من استخدام هذه السُلطة لتعظيم أنفسهم واستعلائهم على الناس، بل لتحسين حالة المساكين وإشاعة السلام والتقدم.

ثانيًا: جاء في سورة البقرة الآيات التالية من ١٩١ إلى ١٩٤:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۞ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۞ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

والمعنى: إن القتال يكون هدفه التماس رضوان الله تعالى، وليس بغرض إرضاء رغبة الانتقام أو تعظيم شأن النفس، وينبغي ألا يقوم القتال على أساس العدوان، لأن الله لا يرضى بالاعتداء على الناس أو العدوان على البريء. والقتال يكون فقط بين المتقاتلين، فالتعدّي على الأفراد ممنوع بأمر الإسلام. والعُدوان على الدين يجب أن يُقابَل بمقاومة فعّالة، لأن عدوانًا من هذا القبيل لهو أخطر من سفك الدماء. وعلى المسلمين ألا يقاتلوا أحدًا قريبًا من المسجد الحرام إلا إذا بدأ العدوّ بالهجوم، فالقتال قريبًا من المسجد الحرام يتعارض مع الحق العام في الحج، ولكن إذا بدأ العدوّ بالهجوم فللمسلمين حقّ ردّه، فهذا هو الجزاء العادل للعدوان. أما إذا توقف العدوّ فعلى المسلمين التوقف كذلك، بل ونسيان الماضي وغفرانه. ويظل القتال مشروعًا حتى ينتهي الاضطهاد الديني وتستقر أعمدة الحرية الدينية، لأن الحساب على أمر الدين متروك لله ﷻ. إن استعمال القوّة أو الإكراه في أمور الدين خطأ فادح، وإذا انتهى الكافرون عن ذلك، وأطلقوا الحرية الدينية، فعلى المسلمين الكفّ عن قتال الكفار. ولا يُرفع السلاح إلا على الذين يرفعونه ويقصدون العدوان، ولكن عندما يتوقف العدوان فإن القتال يجب أن يتوقف أيضًا بشكل تام.

ويمكننا أن نقول إن الآيات ترشد إلى القواعد التالية:

أ- تُشنّ الحرب ابتغاء وجه الله تعالى، وليس التماسًا لأية دوافع نفسية، ولا للاستكبار في الأرض، ولا للاستكثار من أية فوائد أخرى.

ب- يجوز لنا أن نحارب الذين يبدأوننا بالهجوم ولا سواهم.

ج- ويجوز لنا أن نقاتل الذين يرفعون علينا السلاح، من المقاتلين وحدهم، ولا يجوز لنا قتال من لا يساهم في المعركة.

د- وحتى بعد أن يبدأ العدوّ الهجوم، فإن علينا الحفاظ على إبقاء مجال الحرب في أضيق الحدود، فمن الخطأ توسيع رقعة القتال، سواء من حيث المساحة على الأرض أو بالنسبة لنوعية الأسلحة المستخدمة.

هـ- ينبغي ألا نقاتل سوى الجيش النظامي الذي أخرجه العدو للقتال، ولا يجوز مقاتلة الآخرين الذين لا يقاتلون في صفه.

و- أثناء الحرب يجب المحافظة على حُرمة كل الطقوس والشعائر الدينية، وأماكن وأزمنة تأديتها. وإذا حافظ العدوّ على الأماكن التي تقام فيها المناسك الدينية، فإن على المسلمين أيضًا أن يكفّوا عن القتال في هذه الأماكن.

ز- إذا استخدم العدوّ أماكن العبادة كقواعد للانطلاق في هجومه، فإنه يمكن للمسلمين رد هذا الهجوم، ولا لوم عليهم حين يفعلون. ولا يجوز القتال حتى في جوار الأماكن المقدسة، فمن المحظور بشكل مطلق أن تهاجم الأماكن المقدسة أو تهدم أو تخرّب أو يوجّه إليها أي فعل يضرّ بها. وإذا اتخذ العدو مكانًا مقدسًا كقاعدة لعملياته فإن ذلك يمكن أن يستجلب ردًّا مضادًا، وفي هذه الحالة فإن مسؤولية أيّ تلف يصيب المكان ستقع على العدوّ لا على المسلمين.

ح- إذا أدرك العدو خطأه في اتخاذ مكان مقدّس كقاعدة لعدوانه، وتنبّه للخطر الذي ينتج من ذلك فابتعد عن ذلك المكان المقدس، فعلى المسلمين أن يأخذوا ذلك التغيير في الاعتبار. ولا يجوز للمسلمين أن يهاجموا ذلك المكان

لمجرّد أنّ العدوّ قد بدأ هجومه منه. ولكن حرصًا على قداسة المكان، ينبغي للمسلمين تغيير جبهة القتال بعيدًا عن ذلك المكان المقدس، بمجرد أن يبتعد عنه العدوّ.

ط- يستمر القتال حتى ينتهي التدخل بالجبر والإكراه في الدين وفي الحرية الدينية، وعندما تتحقق حرية الدين، وعندما لا يُسمح بالإكراه في الدين، ويعلن العدوّ ذلك ويبدأ في الالتزام به والسلوك بمقتضاه؛ عند ذلك تنتهي الحرب معه، رغم أن العدوّ هو الذي بدأها.

ثالثًا: في سورة الأنفال، وفي الآيات ٣٩ إلى ٤١، نجد لدينا ما يلي:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ۞ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

ومعنى ذلك أن الحرب تكون مفروضة على المسلمين، ولكن إذا توقف العدوّ وانتهى عنها، فعلى المسلمين فعل الشيء نفسه، وعليهم غفران الماضي. ولكن إذا لم ينته العدوّ وظل يكرر الهجوم، فعليه إذن أن يتذكر مصير أعداء الأنبياء السابقين. ويحق للمسلمين القتال حتى ينتهي الاضطهاد الديني، أو طالما أن الدين ليس متروكًا إلى الله تعالى، أو طالما أن العدوّ لم يتوقف عن التدخل والإكراه في الدين. فإذا انتهى المعتدي فعلى المسلمين الانتهاء كذلك، وليس لهم حق الاستمرار في القتال بسبب بطلان عقائد العدوّ، إن الله يعلم جيدًا قيمة العقائد ووزن الأعمال وسوف يجزي عليها بفضله. وليس للمسلمين الحق في التحرّش بدين قوم آخر مهما بدت عقائد هذا الدين زائفة. وإذا استمر العدوّ في الحرب بعد عرض السلام عليه، فعلى المسلمين أن يكونوا على يقين من النصر مهما كان عددهم قليلاً، لأن الله سوف يعينهم، ومن أحسن من الله عونًا ونصرًا؟

لقد نزلت هذه الآيات في أيام معركة بدر، التي كانت أول معركة منظمة بين المسلمين وبين العدوّ، وفيها كان المسلمون ضحايا هجوم لا مبرر له. لقد اختار العدوّ تدمير سلام المدينة والمنطقة المحيطة بها، ورغم ذلك كان النصر من نصيب المسلمين، ولقي القادة الكبار من رجال العدوّ مصرعهم. وبينما بدا أن الانتقام من عدوان كهذا هو أمر طبيعي وعادل وضروري، إذا بالمسلمين يتلقون أمر الله تعالى بأن يوقفوا القتال حالما يوقفه العدوّ، وكل ما على العدوّ أن يلتزم به هو منح حرية الاعتقاد والعبادة.

رابعًا: في سورة الأنفال أيضًا، وفي الآيات ٦٢، ٦٣ نقرأ قوله تعالى:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

والمعنى أنه لو مال الكافرون إلى إنهاء القتال قبل موقعة ما أو بعدها وعرضوا السلام، فالواجب على المسلمين أن يقبلوا عرض السلام، حتى مع وجود خطر احتمال المخادعة. فعليهم أن يضعوا ثقتهم في الله ربهم، لأن الخيانة لن تجدي الكافرين نفعًا ضد المسلمين الذين يتوكلون على الله. إن انتصاراتهم ليست من عند أنفسهم بل من عند الله تعالى الذي يقف إلى جانب رسوله وأصحابه، وسوف يساندهم ضد أي خداع أو خيانة للعدوّ. ولذلك لا بد من قبول عرض السلام، ولا يجوز رفضه بحجة احتمال أن يكون مجرد حيلة يلتمس بها العدوّ كسب الوقت، أو كسب فرصة لتنظيم صفوفه واستئناف الهجوم.

والتركيز على السلام في هذه الآيات ليس بلا معنى، إنه يستبق السلام الذي وقّعه الرسول ﷺ في الحديبية، وقد أخبر الله تعالى رسوله هنا أنه سيأتي الوقت الذي يطالب العدوّ فيه بالسلام، فلا يجوز رفض السلام على خلفية أن العدوّ كان هو المعتدي، وأنه قد أصرّ على عدوانه، أو أنه غير جدير بالثقة. إن الصراط

المستقيم الذي يقرّه الإسلام يُلزم المسلم أن يقبل عرض السلام، وكل من التقوَى والحكمة السياسية يحبّذان هذا القبول.

خامسًا: في سورة النساء والآية ٩٥ نقرأ قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

أي عندما يذهب المسلمون للحرب فعليهم واجب التحقق؛ وطريقه هو أن يوَضّحوا للعدوّ عبثيّة الحرب وسوء مآلها، وأنه مع ذلك لا يزال يصر عليها. وحتى في هذه الظروف فإن عليهم ألا يرفضوا عرض السلام لو جاءهم من طرف فرد أو مجموعة، وليس لهم أن يعتذروا بأن العرض غير صادق. ولو رفض المسلمون عرض السلام فلن يكون قتالهم حينذاك في سبيل الله، بل لأجل أنفسهم ولأجل المكاسب الدنيوية. وعليهم أن يعلموا أن المغانم الدنيوية تأتي من عند الله تعالى، تمامًا كما تأتي من لدنه الهداية الربانية.

إن القتل يجب ألا يكون هدفًا، فإن من يُراد قتله اليوم قد يهتدي غدًا. وهل كان للمسلمين أنفسهم أن يصبحوا مسلمين لو لم يكن الله تعالى قد أبقاهم أحياء؟ لذلك فعلى المسلمين أن يمتنعوا عن القتل، لأن النفس التي يبقون عليها قد تتحوّل إلى نفس مهتدية، والله تعالى وحده هو الذي يعلم تمامًا ماذا يفعل الناس وما هي غاياتهم وما هي نيّاتهم ودوافعهم إلى ما يفعلون.

إن الآيات تعلمنا أنه حتى بعد بدء الحرب فإن واجب المسلمين أن يتأكدوا في أنفسهم تمامًا أن العدوّ يجنح للعدوان، فغالبًا ما يحدث أن تنعدم نيّة العدوان، ولكن شروع العدوّ في الاستعدادات للحرب تبعث الخوف والانزعاج.

وعلى المسلمين ألا يخرجوا للحرب ما لم يتحقّقوا أن العدوّ قد خطط للعدوان

والهجوم، وإذا تبين أن الاستعدادات كانت للدفاع عن النفس، أو قال العدوّ ذلك، فعلى المسلمين التوَقف عن الحرب وقبول زعم العدوّ. وليس للمسلمين أن يحتجّوا بأنه لا سبب للاستعدادات سوى العدوان، فربما نوَى العدوان ثم عدل عن نيته. ألا تتغير النيّات وتتحوّل المقاصد باستمرار؟ ألم يحدث مرارًا أن أعداء الإسلام قد صاروا من أتباعه؟

سادسًا: يقول القرآن المجيد في عدم انتهاك المعاهدات:

﴿إلا الَّذينَ عَاهَدْتُمْ منَ الْمُشْرِكينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٤).

المشركون الذين دخلوا في اتفاق سلام مع المسلمين، وحافظوا على عهدهم، و لم يساعدوا عدوًّا ضدهم، فمن حقهم أن ينالوا نفس المعاملة من المسلمين، فإن من مستلزمات التقوَى على المسلمين أن يفوا من جانبهم بما عليهم في الميثاق نصًّا وروحًا.

سابعًا: يأمر القرآن المجيد بما يلي فيما يختص بالعدوّ الذي يرغب في فهم رسالة الإسلام رغم أنه في حرب مع المسلمين:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ منَ الْمُشْرِكينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٦).

أي أن على المسلمين منح اللجوء لهم لمدة مناسبة تكفي لغرض الشرح والإيضاح، إذا ما طلب اللجوء إلى المسلمين أحدُ أفراد العدوّ المحارب، يبتغي أن يسمع رسالة الإسلام للدراسة والتمعّن.

ثامنًا: ويقول القرآن المجيد عن أسرى الحرب:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ

عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٨).

أي أنه لا يجوز أسر أحد، إلا من المقاتلين الذين يشتركون فعلاً في ميدان القتال، فلم يُشرّع الله تعالى لأحد من الأنبياء أن يتّخذ أسرى إلا من الأعداء المقاتلين الذين قاموا بالعدوان وسفكوا الكثير من الدماء. وقد حرّم الإسلام خطف الأفراد من القبائل المعادية وهي العادة التي كانت منتشرة قبل الإسلام، وظل غير المسلمين يمارسونها بعده، فليس من الجائز شرعًا عند الله تعالى أن يؤخذ أسير دون حرب وممارسة قتال فعلي.

تاسعًا: وضع القرآن المجيد قواعد إطلاق سراح الأسرى كما يلي:

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (محمد: ٥).

إن الوضع الأفضل في الإسلام هو إطلاق سراح الأسير دون فدية، ولما كان هذا غير ممكن في كل حالة، فلذلك نص الله تعالى على السماح بقبول الفدية.

عاشرًا: هناك نص يختص بأسرى الحرب الذين لا يستطيعون أن يدفعوا الفدية، وليس لهم وليّ يستطيع أو يوافق على أن يدفع الفدية. وغالبًا ما يدفع أقارب الأسير فديته لإطلاق سراحه، ولكن يحدث أحيانًا أن يُفضّل بعضهم ترك القريب أسيرًا، ربما ليقوم باختلاس أمواله في غيابه، وقد فتح القرآن المجيد السبيل أمام هؤلاء لنوال حريتهم. يقول تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾(النور: ٣٤)

أي أن أولئك الذين لا يستحقّون أن يُطلَقوا دون فدية، ولكن ليس لهم أحد يدفع نيابة عنهم، فبإمكانهم أن ينالوا حريتهم إذا وقّعوا على كتاب يتعهّدون فيه بالدفع إذا سُمح لهم بالعمل والكسب، وذلك إذا كانت لديهم الحرفة الملائمة والقدرة على العمل والكسب. فإذا تبينت أهليّتهم وإمكاناتهم في العمل

والكسب، يمكن للمسلمين أن يساعدوهم على ذلك بإمدادهم بما يستطيعون من عناصر العمل والربح. والأفراد المسلمون القادرون ماليًّا على المساعدة فعليهم أن يدفعوا عنهم، أو يتم إنشاء اكتتاب عام يشترك فيه المتبرعون لمساعدة هؤلاء البائسين ليقفوا على أقدامهم.

لقد عرضنا فيما سبق الآيات القرآنية التي تحتوي على تعاليم الحرب والسلام في الإسلام، وهي تخبرنا عن الظروف والشروط التي بها ندخل الحرب الدفاعية، والحدود التي يجب على المسلمين مراعاتها عندما يضطرون إلى خوض الحرب.

السنّة النبوية حول الحرب

إن تعاليم الإسلام لا يحتويها القرآن المجيد وحده، بل تتجلى أيضًا في وصايا الرسول ﷺ وسنّته في حياته. فما فعَله وما علَّمه وأمر به في وقائع موثّقة معينة، يُعتبر أيضًا جزءًا أساسيًا من تعاليم الإسلام، ونذكر فيما يلي ما تفيده بعض أقوال الرسول ﷺ في موضوع الحرب والسلام.

١- يحرم على المسلمين جميعا أن يمثلوا بجثث القتلى (صحيح مسلم).

٢- يحرم على المسلمين أن يلجئوا إلى الغدر والخيانة. (صحيح مسلم)

٣- لا يجوز قتل النساء ولا الأطفال، وقد استنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان (صحيح مسلم).

٤- لا يجوز التدخّل في عمل الرهبان والقسس والعاملين على إقامة الشعائر والقادة الدينيين (الطحاوي).

٥- لا يجوز قتل الشيوخ والعجزة والأطفال والنساء، ويجب أن يكون نصب أعيننا دائمًا أن نتيح الفرصة لإحلال السلام (أبو داود).

٦- عندما يدخل المسلمون أرض العدوّ يجب ألا يُرَوّعوا سكان البلد، ولا

يجوز أن يسمحوا بأية إساءة في معاملة الناس عامة (مسلم).

٧- لا يجوز للجيش المسلم أن يضرب معسكره في مكان يتسبب في إزعاج الجمهور العام. وعندما يتحرك على الطريق فلا يجوز له سد الطرق أو أن يسبب إزعاجًا لعابري هذه السبل.

٨- لا يجوز تشويه الوجوه (البخاري ومسلم).

٩- عند إيقاع القصاص بالعدوّ فعلى المسلمين تكبيده أقل خسائر ممكنة (أبو داود).

١٠- يجب الحفاظ على بقاء الأقارب الأسرى معًا، وعدم التفريق بينهم عندما يوضع أسرى الحرب تحت الحراسة (أبو داود).

١١- يجب أن يحيا الأسير في ظروف مريحة، ويجب أن يهتم المسلمون بأَسْراهم فيرعوا راحة الأسرى أكثر مما يرعون راحتهم هم (الترمذي).

١٢- يجب استقبال الوفود والرسل من البلاد الأخرى بحفاوَة بالغة، ويجب تجاهُل ما يصدر عنهم من فظاظة وأخطاء (أبو داود كتاب الجهاد).

١٣- أي سوء معاملة تحدث من مسلم نحو أسير، فكفارتها إطلاق سراح هذا الأسير، دون أن يدفع فدية عن نفسه. "من لطم مملوكًا فكفّارته عتقه".

١٤- إذا وُضع أسير حرب تحت رعاية أحد المسلمين، فعليه أن يُطعمه من نفس طعامه ويكسوه من نفس ثيابه (البخاري).

ولقد بلغ من إصرار الرسول ﷺ على هذه القواعد السلوكية للجيش المقاتل أنه أعلن لمن لم يُراعِ هذه الوصايا أنه لا يقاتل في سبيل الله، بل من أجل نفسه الأمّارة (أبو داود).

وقد أصدر أبو بكر رضي الله عنه، الخليفة الراشد الأول للإسلام، بعض التعليمات في موضوع الحرب والسلام، وأصبحت جزءًا من التعاليم التي يلتزم بها المسلم،

ونذكر منها:

١٥- المنشآت العامة والأشجار المثمرة وحقول المزروعات لا يجوز إتلافها (الموطأ).

ومن أقوال الرسول ﷺ وتعليمات الخليفة الأول للإسلام ﷺ يتضح أن الإسلام قد شرّع وشيّد أُسسًا لها آثارها في منع أو إيقاف الحرب، أو تقليل ويْلاتها وبشاعتها. وكما سبق أن ذكرنا فإنّ الأسس التي أمر بها الإسلام ليست مجرد مُثُل عليا للتقوَى وسننها فقط، بل إن لهذه الأسس تجلياتها العملية في أسوَة الرسول ﷺ وخلفاء الإسلام الأوّلين. وكما يعلم العالم كله، فإن الرسول ﷺ لم يكتف بتلقين هذه الأسس، بل سلك بموجبها، وعمل بمقتضاها، وأصرّ على رعايتها حق رعايتها.

وإذا نظرنا إلى عصرنا الحاضر، فلن نجد تعليمًا آخر قدّم حلاً لمشكلة الحرب والسلام. فتعاليم موسى عليه السلام بعيدة عن مفاهيمنا للعدالة والإنصاف، ولا يمكن تطبيقها في أيامنا هذه. وأما تعليم المسيح عليه السلام فليس عمليًا على الإطلاق، ولم يكن عمليًا في يوم من الأيام، ولم يحاول المسيحيون في تاريخهم أن يضعوه يومًا قط موضع التطبيق. إن تعليم الإسلام هو التعليم العملي، وهو التعليم الوحيد الذي تم التبشير به كما تم تطبيقه أيضًا بيد أنصاره المخلصين، بالممارسة العملية التي يمكنها فعلاً حفظ السلام في هذا العالم. وفي هذا العصر يقوم السيد غاندي بتقديم تعليم جليّ يقول: "إننا حتى لو فُرض علينا القتال والحرب، فليس علينا الذهاب إليه، ويجب ألا نقاتل". ولكن هذا التعليم لم يوضع موضع الاختبار في أيّ وقت خلال التاريخ، إنه لم يدخل إلى بوتقة التجربة لتثبت جدارته، فمن المحال أن نحدد قيمة هذا النهج إذن بلغة الحرب والسلام.

لقد عاش السيد غاندي طويلاً ليرى اتحاد الولايات الهندية وهي تنال استقلالها السياسي، ولم يحدث أن قامت حكومة الاتحاد بتسريح الجيش، ولا أية

قوات هندية مسلحة، بل كل ما فعلته هو وضع الخطط لصبغها بصبغة هندية، بل إن لها خططًا في إعادة تعيين الضباط الهنود الذين كانت السلطات البريطانية قد فصلتهم خلال هجوم اليابان على بورما والهند في المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الحديثة، والذين كانوا قد قاموا بتشكيل الجيش الهندي الوطني. ولقد رفع السيد غاندي صوته داعيًا في مناسبات عدة إلى التقليل من شأن جرائم العنف، وحث على إطلاق سراح الذين اقترفوا جرائم العنف، وهذا يدل على أن التعليم الذي يدعو إليه لا يمكن أن يطبق، والسيد غاندي يعرف ذلك جيدًا، كما يعرفه أتباعه كذلك. ولا يوجد مثال عملي واحد يمكن عرضه على العالم ليرى كيف يمكن تطبيق سياسة اللاعنف عندما ينشأ نزاع مسلح بين أمة وأمة أو بين دولة ودولة، أو كيف أن اللاعنف يمكنه إيقاف أو منع الحرب.

إن الدعوة إلى طريقة لإيقاف الحرب، مع عدم القدرة بتاتًا على تقديم مثال عملي على نجاح هذه الطريقة يدل على أن هذه الطريقة غير عملية. ويبدو لنا واضحًا إذن أن التجربة الإنسانية والحكمة الإنسانية تشيران إلى طريقة وحيدة فقط لمنع وإيقاف الحرب، هذه الطريقة هي التي جاءت بها تعاليم الإسلام ووُضعت في حيز التطبيق العملي على يد نبيّ الإسلام ﷺ.

هجوم واعتداءات متفرّقة للكافرين

عاد الأحزاب من معركة الخندق منكسرين محبطين، ولكن لم يكونوا قد فقدوا قدرتهم بعد على مضايقة المسلمين والتحرّش بهم، فمع أنهم كانوا منكسرين إلا أنهم كانوا يدركون أنهم لا زالوا أغلبية مُسَيطرة. وقد كانوا يستطيعون بسهولة اضطهاد الأفراد المسلمين، فكانوا يضربونهم ويقتلونهم. ولقد أرادوا التنفيس عن إحساسهم بالعجز أمام المسلمين بهذه الإساءات والاضطهادات التي صبّوها على الأفراد هنا وهناك. وبعد مرور وقت قصير على معركة الخندق، راحوا يعتدون على المسلمين حول المدينة، فأغار رجال من

فزارة يركبون الإبل على مسلم قرب المدينة، وساقوا الإبل التي وجدوها ترعَى في المكان، وصحبوا معهم امرأة أسيرة وانطلقوا بالغنيمة. واحتالت المرأة لنفسها وتمكنت من الهروب، ولكن رجال فزارة نجحوا في الفرار بعدد من الإبل. وبعد ذلك بشهر قام رجال من قبيلة غطفان بالهجوم من جهة الشمال في محاولة لسلب قطعان إبل المسلمين. وأرسل الرسول ﷺ محمد بن مسلمة مع عشرة راكبين من أصحابه للاستطلاع ولحماية قطعان الماشية، ولكن العدوّ كمن لهم على الطريق وهاجمهم هجومًا قاتلاً وتركهم جميعًا صرعى إلا محمد بن مسلمة الذي سقط مغمى عليه، ثم أفاق واستجمع نفسه وقواه وعاد إلى رسول الله ﷺ ليخبره بما حدث.

وبعد هذه الحادثة بأيام قلائل، هوجم مبعوث من رسول الله ﷺ إلى عاصمة الروم وسرقوه، وكان الفاعلون رجالاً من قبيلة جذام. وبعد ذلك بشهر هاجم بنو فزارة قافلة للمسلمين وفرّوا بغنائم جمة، ومن المحتمل ألا يكون الدافع إلى هذا الهجوم هو العداء الديني، فبنو فزارة كانوا قبيلة من قطاع الطرق المتمرّسين بأعمال القتل والسلب.

أما يهود خيبر، وهم المحرّض الأساسي على معركة الخندق، فقد عقدوا العزم على الانتقام للهزيمة الساحقة التي لحقت بهم في هذه الموقعة، فجاسوا خلال مضارب القبائل العربية يثيرونهم على الإسلام، وراحوا إلى قواد الجيوش الرومانية يحرّضونهم على محاربة المسلمين. وهكذا بعد أن فشل المشركون العرب وقادتهم في إحراز نجاح حاسم بالهجوم المباشر على المسلمين، راحوا يتآمرون مع اليهود ليجعلوا حياة المسلمين جحيمًا لا يطاق.

كان الرسول ﷺ حتى هذه اللحظة يجهز ويدبر أمره من أجل الإعداد لمعركة حاسمة، فقد يؤدي ذلك بالعرب إلى طلب السلام، وينتهي بذلك الصراع في الجزيرة العربية.

خروج رسول الله ﷺ إلى مكة في ألف وخمسمئة من أصحابه

رأى الرسول ﷺ خلال تلك الأيام رؤيا ذكرها القرآن المجيد كما يلي:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(الفتح: ٢٨)

ويعني هذا أن الله ﷻ قضى أن يدخل المسلمون المسجد الحرام بسلام، فيكون البعض منهم حليقًا والبعض مقصّرًا شعره (العلامة الخارجية للحجيج والمعتمرين) ولا ينتابهم الخوف. غير أن المسلمين لم يعلموا على وجه التحديد كيف يتم هذا. وبالإضافة إلى ذلك، فقبل أن يؤدّي المسلمون شعائر الحج في سلام، قضى سبحانه أن يجعل لهم نصرًا قريبًا.

كانت الآية الكريمة تنبئ بالنصر المبين للمسلمين، وهو مسيرهم الآمن إلى مكة، وفتح البلد الحرام بدون استخدام السلاح. ولكن الرسول ﷺ فَهِمَ الرؤيا على أنها أمر من الله تعالى أن يقوم من فوره مع المسلمين ليطوف بالكعبة. وقد صار هذا الخطأ في تفسير الرؤيا هو الفرصة التي بها سيمنح الله المسلمين النصر القريب الموعود في الرؤيا.

وهكذا خطط الرسول ﷺ للمسير إلى الكعبة، فأعلن الرؤيا وتفسيره لها للمسلمين، وطلب منهم الاستعداد؛ وأخبرهم أنهم سيذهبون من أجل الطواف حول الكعبة فقط، وليس من أجل أية اشتباكات مع العدو. وأخيرًا خرجوا في شهر فبراير/ شباط عام ٦٢٨ ميلادية (ذي القعدة من العام السادس للهجرة)، فكانوا ألفًا وخمسمئة* حاج يقودهم الرسول ﷺ، واتخذوا سبيلهم في رحلة إلى

* في هذه العُمرة التي تم التخطيط لها بعد عام من معركة الخندق، لم يصحب رسول الله ﷺ سوى ١٥٠٠ من أصحابه، وعلى ذلك فلا بد أن عدد المسلمين المقاتلين في غزوة الخندق كان أقل من هذا العدد ولا يمكن أن يكون أكثر منه. وقد أخطأ المؤرخون

مكة، يتقدمهم على مسافة منهم حرس راكب للاستطلاع، يتكوّن من عشرين رجلاً لينذرهم إذا تربّص بهم العدوّ ليباغتهم بالهجوم.

و لم يلبث أهل مكة أن علموا بأخبار هذه القافلة. كان الطواف بالكعبة حقًّا عامًّا للعرب حسبما أرسته التقاليد، ولن يكون من اللائق على الإطلاق أن ينكر العرب هذا الحق على المسلمين، خاصة وقد أعلنوا بشكل واضح أن غايتهم من مسيرتهم هذه أن يطوفوا بالكعبة ليس إلا، ومنَع الرسول ﷺ كل مظهر من مظاهر استعراض القوة، فلا تنازع ولا جدال ولا أية مطالبات. وعلى الرغم من ذلك فإن أهل مكة بدأوا يستعدون كما لو كان الأمر نزاعًا مسلحًا، ونصبوا الدفاعات على كل جوانب مكة، واستصرخوا القبائل المحيطة للعون، وبدوا مصممين على القتال.

وعندما بلغ الرسول ﷺ مكانًا قريبًا من مكة، علِم أن قريشًا قد أعدت للقتال، وارتدَوا جلود النمور، وصحبوا معهم النساء والأطفال، وأقسموا بالله في عزم أكيد ألا يدعوا المسلمين يمرّون إلى مكة. وكان ارتداء جلود النمور رمزًا للعزم المستميت على القتال. و لم تلبث أن التقت فرقة من الفرق الاستطلاعية لأهل مكة مع المسلمين، وعند ذلك توقف المسلمون، فلم يكن لهم أن يتقدموا خطوة بعد هذا إلا إذا امتشقوا سيوفهم. غير أن الرسول ﷺ كان قد عقد العزم ألا يفعل شيئًا من هذا القبيل، واستخدم دليلاً ماهرًا ليدل قافلة المسلمين على طريق بديل خلال الصحراء. وبقيادة هذا الدليل، بلغ الرسول ﷺ وصحبُه ماءَ الحديبية، وهي بقعة شديدة القرب من مكة، وعندها بركت ناقة الرسول السريعة، ورفضت التحرك. وظن أحد الصحابة أن الناقة قد تعبت من طول المسير، فقال للرسول ﷺ: الأفضل أن تركب مطية أخرى. فقال الرسول ﷺ:

الذين ذكروا أن عدد المقاتلين المسلمين في الخندق كان ٣٠٠٠ أو نحوهم، فالمعقول إذن أن يكون الرقم ١٢٠٠مقاتل. (المؤلف)

كلا، إنها لم تتعب، بل يبدو أن الله تعالى يريد أن نتوقف هنا ولا نتقدم أكثر. فأرى أن نخيم هنا ونسأل أهل مكة ما إذا كانوا يسمحون لنا بأداء العمرة أم لا. والذي نفسي بيده، لا يسألونّي خطّةً يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها. (انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٣)

كان جيش مكة في هذا الوقت قد خرج من مكة، وكان قد ابتعد على مسافة منها على الطريق الرئيسي المؤدّي للمدينة، كي يتصدّى للمسلمين. ولو كان الرسول ﷺ يريد أن يحتل مكة، لترك أصحابه الألف والخمسمئة يدخلونها ويستولون عليها دون مقاومة، ولكنه كان يريد أن يطوف بالبيت فقط، إذا رضيت مكة بذلك. فهو لن يخوض حربًا مع مكة إلا إذا بدأها أهل مكة، وهكذا ترك الطريق الرئيسي وعسكر عند الحديبية.

وسريعًا ما وصلت الأخبار إلى قادة مكة، الذين أمروا رجالهم بالانسحاب والمرابطة قريبًا من البلدة، وأرسلوا سيدًا من سادتهم، وهو بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي، للتفاوض مع الرسول ﷺ. وأوضح رسول الله لبُديْل أنه والمسلمين لا يريدون إلا الطواف بالبيت، ولكن إذا أرادت مكة القتال، فإن المسلمين على استعداد لذلك. وبعده أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي – الذي كان زوجًا لابنة لأبي سفيان – بالشيء نفسه. كان عروة رجلاً فظًّا، سلك على نحوٍ غاية في الجلافة، وقال إنه لا يرى في المسلمين أحدًا من كرام الناس، بل يرى أوْباشًا خليقًا بهم أن يفروا ويتركوا الرسول ﷺ. وقال إن أهل مكة لن يدعوهم يدخلون مكة. ثم جاء بعده العديد من أهل مكة، وتفاوضوا أكثر وأكثر، وكان آخر ما عرضوه على المسلمين أن عليهم على الأقل أن يعودوا أدراجهم هذا العام، فلن يدعوهم يطوفون هذه المرة، لأن أهل مكة سيشعرون بالعار والمهانة إذا سمحوا للمسلمين بدخول مكة والطواف بالكعبة هذا العام، ولكنهم قد يسمحون لهم بذلك إذا عادوا في العام التالي.

وقد احتجت بعض القبائل المتحالفة مع أهل مكة عليهم، وطلبوا من القادة السماح للمسلمين بالطواف، لأن كل ما أرادوه هو حق الطواف، فلماذا يحرمون حتى من هذا؟ ولكن أهل مكة ظلوا على عنادهم وصلابتهم، وعند ذلك هدّد قادة القبائل بالانفصال عن جيش مكة، ما دام أهل مكة لا يريدون السلام. وخشي أهل مكة أن يُنفّذ قادة القبائل تهديداتهم، فسعوا إلى الوصول إلى تسوية مع المسلمين. وما إن علم الرسول ﷺ بذلك حتى أرسل عثمان بن عفان ﷺ، الذي أصبح الخليفة الراشد الثالث في الإسلام، إلى أهل مكة، وكان له أقرباء عديدون فيهم، فجاءوا وأحاطوا به وعرضوا عليه أن يطوف هو بالبيت إن أراد، ولكنهم لن يدعوا الرسول يفعل ذلك حتى العام القادم. ورفض عثمان أن يطوف هو إلا أن يكون في صحبة حبيبه وقائده ﷺ. وطال التفاوض بين عثمان وبينهم، وانتشرت إشاعة مغرضة أنه قُتل، وبلغت الإشاعة آذان الرسول ﷺ. وعند ذلك جمع رسول الله ﷺ أصحابه وأخبرهم أن احترام الرسل أمر معمول به في كل الأمم، وأنه سمع بأن أهل مكة قتلوا عثمان، فلو كان هذا صحيحًا فعليهم أن يدخلوا مكة مهما ترتب على ذلك. وهكذا كان لا بد أن تتغير نيّة الرسول ﷺ في دخول مكة بسلام بعد أن تغيرت الظروف. وتابع الرسول ﷺ حديثه فقال لهم إن أولئك الذين عاهدوا الله تعالى إذا لقوا الذين كفروا زحفًا ألا يولوهم الأدبار، عليهم أن يتقدموا ليبايعوه على ألا يفروا. وما إن أنهى الرسول ﷺ حديثه، حتى نهض الألف والخمسمئة صحابي وقفزوا مسرعين إلى يد الرسول ﷺ يصافحونها ويبايعونه على ألا يفروا، فإما النصر أو الشهادة. وكان لهذه البيْعة أهمية خاصة في تاريخ الإسلام الباكر، وهي تسمى بيْعة الشجرة، لأن الرسول ﷺ كان يجلس تحت شجرة عندما بايعه المسلمون وكذلك تُسمى أيضًا بيْعة الرضوان، وكل من اشترك في هذه البيْعة ظل فخورًا بها إلى آخر أيام حياته. ولم يحدث أن تردّد واحد من الألف والخمسمئة في المبايعة، ولا تراجع أحد. لقد وعدوا جميعًا أنه إن لم يرجع مبعوث الرسول ﷺ، وإن كان قد قُتل، فسوف

يتقدّمون، فإمّا فتحوا مكة ونالوها قبل الغسق أو قتلوا جميعا دون هدفهم. ولم تكن البيْعة قد انتهت عندما عاد عثمان ﷺ وأبلغ الرسول ﷺ أن أهل مكة لن يتركوا المسلمين يطوفون بالكعبة حتى العام القادم، وأنهم قد عينوا وفدًا لتوقيع عهد مع المسلمين.

ولم يلبث أن جاء إلى الرسول ﷺ بعد ذلك سُهَيْل بن عمرو، على رأس وفد مكة، ووصلوا إلى اتفاق على شروط المعاهدة وتم تسجيلها.

صلح الحديبيـة

وكانت المعاهدة تنصّ على أن توضع الحرب بين الطرفين عشر سنين. ومَن أحبّ أن يدخل في عقد الرسول ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخَل فيه. ومن أتى الرسولَ ﷺ من رجال قريش من غير إذن وليِّه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشا من المسلمين لم يردّوه عليه. وعلى المسلمين أن يرجعوا من عامهم ذلك فلا يدخلوا مكة، وإذا كان العام القابل دخلها محمد (ﷺ) وأصحابه فأقاموا بها ثلاثا وقاموا بالطواف، معهم سلاح الراكب، وتبقى السيوف في القُرَب كعادة العرب، ولا يتعرّض لهم أحد بأي نوع من أنواع التعرض، وتنسحب قريش مع أبنائها إلى جبال مكة المحيطة حتى تمضي الأيام الثلاثة. وفيما يلي ما سجله التاريخ عن هذه المعاهدة:

> باسْمِكَ اللَّهُمَّ. هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْد الله وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو عَلَى وَضْعِ الْحَرْب عَشْرَ سنينَ، يَأْمَنُ فِيهَا النَّاسُ وَيَكُفُّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى رَسُولَ الله ﷺ مِنْ أَصْحَابه بغَيْر إذْن وَلِيِّه رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ أَتَى قُرَيْشًا ممَّنْ مَعَ رَسُول الله ﷺ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْه. وَإنَّ بَيْنَنَا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً وَإنَّهُ لا إسْلالَ وَلا إغْلالَ. وَكَانَ في شَرْطهمْ حِينَ كَتَبُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِه

دَخَلَ فِيهِ وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ، فَتَوَاثَبَتْ خُزَاعَةُ فَقَالُوا نَحْنُ مَعَ عَقْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَهْدِهِ، وَتَوَاثَبَتْ بَنُو بَكْرٍ فَقَالُوا نَحْنُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ. وَأَنَّكَ تَرْجِعُ عَنَّا عَامَنَا هَذَا فَلاَ تَدْخُلْ عَلَيْنَا مَكَّةَ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ عَامُ قَابِلٍ خَرَجْنَا عَنْكَ فَتَدْخُلُهَا بِأَصْحَابِكَ وَأَقَمْتَ فِيهِمْ ثَلاَثًا مَعَكَ سِلاَحُ الرَّاكِبِ، لا تَدْخُلْهَا بِغَيْرِ السُّيُوفِ فِي الْقُرُبِ. (مسند أحمد)

وحدث أثناء التوقيع أمران هامّان، ففي بداية الأمر وبعد تحديد الشروط، بدأ الرسول ﷺ في إملاء الكتاب، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم. فاعترض سُهيل وقال إنهم يعرفون الله، ولكنهم لا يعرفون ما الرحمن وما الرحيم، وإن هذا اتفاق بين طرفين فيجب إذن احترام عقائد الطرفين. ووافق الرسول ﷺ على الفور وقال لكاتبه: "اكتبْ باسمك اللهم". واستمر الرسول ﷺ في إملاء شروط الاتفاق. كانت جملة الافتتاح هي: "هذا ما صالحَ عليه محمد رسول الله أهلَ مكة"، فاعترض سُهيل ثانية وقال: "لو نعرف أنك رسول الله ما قاتلناك". ووافق الرسول ﷺ على الاعتراض أيضًا، وبدلاً من "محمد رسول الله"، أمر بأن يُكتب: "محمد بن عبد الله". وأحس الصحابة بالاضطراب وهم يرون رسول الله ﷺ يوافق على كل مقترحات وشروط أهل مكة المجحفة، وبدأت دماؤهم تغلي في العروق، وكان عمر رضي الله عنه أكثر المنفعلين جميعًا، فذهب إلى الرسول ﷺ وسأله: "يا رسول الله: ألسنا على الحق"؟ فأجاب ﷺ: "بلى، إنّا على الحق". فقال عمر: "ألم يخبرنا الله أننا سنطوف بالكعبة"؟ فأجاب رسول الله بالإيجاب، فسأل عمر: "فَلِمَ نعطي الدنية في ديننا؟ وما هذا الاتفاق"؟ وأجاب الرسول ﷺ موافقًا أن الله تعالى وعدهم بطواف الكعبة في أمن وسلام، ولكنه سبحانه لم يقل إن هذا سوف يتم هذا العام، وأنه قد أوّل الرؤيا بما يفيد أن الطواف ربما يتم هذا العام، ولكنه يمكن أن يخطئ في تأويل الرؤيا.

وسكت عمر رضي الله عنه.

ولكن الصحابة الآخرين قدموا اعتراضات جديدة، وسأل بعضهم: لماذا وافق على رد كل شاب يتحوّل للإسلام إلى وليّه في مكة، بينما لم يحصل على نفس الشرط للمسلم الذي يرجع إلى الكافرين؟

فشرح الرسول ﷺ لهم أنه لا خطورة عليهم من ذلك، فكل من يصبح مسلمًا يكون كذلك لأنه يقبل الإسلام عقيدة وشرعة، وليس لأنه سينضم لحزب ويتبنى عاداته وتقاليده، ورجل مثل هذا سيشع منه نور الإسلام ورسالته حيثما حل، وسيعمل كأداة لانتشار هذا الدين. ولكن رجلاً يطرح عنه ثوب الإسلام، هو شخص لا قيمة له ولا فائدة للإسلام منه، فإذا لم يتمسك بكل ما عليه المسلمون بقوّة فهو ليس منهم، ومن الأفضل أن يذهب عنهم حيث يشاء. ولقد أقنع هذا الرد أولئك الذي تشككوا في حكمة النهج الذي اتبعه الرسول ﷺ. وهو اليوم كفيل بإقناع أولئك الذين يظنون أن عقوبة المرتد هي الموت، فلو كان الأمر في عقوبة الردّة عن الإسلام كذلك، لأصرّ الرسول ﷺ على إعادة المرتد إليه كي يقيم عليه حد الإسلام الذي يدّعونه.

عندما تمت كتابة الاتفاق وتم التوقيع عليه، حدثت حادثة كان من شأنها اختبار نيّات الأطراف الموقعة على الاتفاق، فإن أبا جندل، ابن سُهيل بن عمرو، أي ابنُ السفير المكّي المفوّض الذي وقع معه العهد، مثُل أمام الرسول ﷺ يرسف في قيوده، جريحًا منهكًا، قد جاء زاحفًا من محبسه هاربًا، وسقط عند أقدام الرسول ﷺ قائلاً:

"يا نبيّ الله إنني مسلم من صميم قلبي، ولقد عانيت العذاب على يد أبي بسبب إيماني. إن أبي معك هنا، ولذلك هربت وتدبّرت أمري حتى جئت إليك". فقال سُهيل: "هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده". فقال الرسول ﷺ: "إنا لم نقض الكتاب بعد". فقال سُهيل: "فوا الله إذن لا أقاضيك على شيء أبدًا". فقال الرسول ﷺ: "فأجزه لي". فقال سُهيل: "ما أنا بمجيزه لك". قال: "بلى

فافعل". قال: "ما أنا بفاعل". وضرب سُهيل أبا جندل في وجهه، وأخذ بتلابيبه وجرّه ليرده إلى المشركين. وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: "يا معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين ليفتنوني عن ديني"؟ فقال رسول الله: "يا أبا جندل، اصبرْ واحتسبْ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا. إنّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، فلا نغدر بهم".

بعد توقيع الميثاق، رجع الرسول ﷺ إلى المدينة. وبعد العودة بقليل، جاء شاب مسلم من مكة هو أبو بصير، ولكن الرسول ﷺ ردّه إلى مكة حسب شروط المعاهدة، وفي طريق عودته قاتلَ حارسَيْه فقتل أحدهما وفر الآخر. وذهب أهل مكة إلى الرسول ﷺ واشتكوا إليه طالبين أن يردّه إليهم. فقال الرسول ﷺ إنه سلمه إليهم، ولكنه فرّ منهم، وليس من واجب المسلمين أن يبحثوا عنه ويقبضوا عليه ويعيدوا تسليمه إليهم. وبعد عدة أيام فرّت امرأة مسلمة إلى المدينة، فجاء أقرباؤها وطالبوا بعودتها، فقال لهم الرسول ﷺ إن الميثاق يشمل الرجال لا النساء، ولذلك رفض إعادة المرأة.

رسائل رسول الله ﷺ إلى مختلف الملوك

عندما استقر الرسول ﷺ في المدينة بعد عودته من الحديبية، وضع خطة أخرى لنشر رسالته، وهي أن يرسل إلى ملوك العالم. وعندما ذكر ذلك لأصحابه قال له الذين يعرفون عادات ومراسيم القصور الملكية، إن هؤلاء الناس لا يقبلون كتابًا إلا مختومًا، وبناء عليه اتخذ الرسول ﷺ خاتمًا منقوشًا عليه: محمد رسول الله.

واحترامًا للفظ الجلالة، كانت كلمة "الله" في القمة، وتحتها كلمة "رسول" وأخيرًا "محمد". وفي المحرم من عام ٦٢٨ ميلادية، أي العام السابع من الهجرة، أرسل الرسول ﷺ رسله إلى عواصم مختلفة، كل منهم يحمل كتابًا منه يدعو

الحكام إلى قبول الإسلام.

ذهب الرسل إلى هرقل، عظيم الروم وإلى ملوك الفُرس والحبشة ومصر (كان ملك مصر حينئذ واليًا لقيصر على مصر)، وذهبوا إلى ملوك آخرين كذلك. وحمل دحْيَة الكلبى الرسالة المرسلة إلى قيصر، وكان الرسول ﷺ قد أمره أن يدفع الكتاب إلى حاكم بُصرَى ليدفعه إلى قيصر. وعندما قابل دحية الحاكم المذكور، تصادف أن كان قيصر بالشام في جولة بالإمبراطورية. فقدّم حاكم بُصرى دحيةَ نفسه فورا إلى هرقل. وعندما دخل دحية إلى بلاط الملك قيل له إن كل من يتم استقباله أمام الجمهور ينبغي عليه أن يسجد لقيصر. فرفض دحية قائلاً إن المسلمين لا ينحنون أمام أيّ إنسان. وهكذا جلس دحية أمام القيصر دون أن يؤدي له طقوس الخضوع المفروضة. وتناول قيصر الرسالة وقرأها بواسطة مترجمه، وسأل إن كانت هناك قافلة عربية، وقال إنه يرغب في سؤال رجل من العرب حول هذا الرسول العربي الذي أرسل إليه دعوة لقبول الإسلام.

وحدث أن أبا سفيان كان في تلك المدينة مع قافلة للتجارة بالشام، فأخذه بعض العاملين في بلاط قيصر مع نفر من أصحابه إلى هرقل. وأمره هرقل أن يقف أمام أصحابه من العرب، وأمرهم أن يصححوا مقالته إن كذب أو خالف الحقيقة. ثم أخذ هرقل يسأل أبا سفيان، وجرت المحاورة بينهما كما سجلته صحائف التاريخ على النحو التالي:

روَى البخاري عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجارًا بالشام في المدة التي كان رسول الله مادَّ (أي صالحَ وعاهد) فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوْه وهم بإيلياء (أي بيت المقدس) فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم. ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ؟

فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم إليه نسبا.

فقال: أَدْنُوه مني وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه (ليقول للعرب الآخرين) قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذَبني فكذّبوه.

قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء أن يؤثروا عليّ كذبا لكذبت عنه.

ثم قال هرقل: كيف نسبه فيكم؟

فأجاب أبو سفيان: هو فينا ذو نسب

هرقل: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

أبو سفيان: لا

هرقل: فهل كان من آبائه من ملك؟

أبو سفيان: لا

هرقل: فأشراف الناس يتّبعونه أم ضعفاؤهم؟

أبو سفيان: بل ضعفاؤهم

هرقل: أيزيدون أم ينقصون؟

أبو سفيان: بل يزيدون

هرقل: فهل يرتدّ أحد منهم سخْطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

أبو سفيان: لا

هرقل: فهل تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

أبو سفيان: قلت لا

هرقل: فهل يغدر؟

أبو سفيان: لا، ونحن منه في مدّة لا ندري ما هو فاعل فيها (ولم تمكنني كلمة أُدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة)

هرقل: فهل قاتلتموه؟

أبو سفيان: نعم

هرقل: فكيف كان قتالكم إياه؟

أبو سفيان: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه

هرقل: ماذا يأمركم؟

أبو سفيان: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال هرقل للترجمان قل له: سألتك عن نسبه، فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فذكرتَ أن لا، فقلتُ: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلتُ: رجل يأْتَسي بقولٍ قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه مِن ملِك، فذكرتَ أن لا، قلتُ: فلو كان من آبائه مِن ملِك قلت: رجل يطلب ملكَ أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرتَ أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أنّ ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد سخْطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدميَّ هاتين. (البخاري، كتاب بدء الوحي)

وأزعج هذا الحديث حاشية الملك، وبدأوا يلومونه لإطرائه إمام طائفة أخرى غيرهم، وارتفعت الأصوات المعترضة واللغط، فأمر هرقل الضباط بإخراج أبي سفيان وأصحابه.

كان نص كتاب الرسول ﷺ كما جاء في التاريخ المدوّن كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم

الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أَسْلِمْ تَسْلَمْ يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون". (البخاري، كتاب بدء الوحي)

كانت الدعوة إلى الإسلام المدوّنة في كتاب الرسول ﷺ إلى قيصر، دعوة إلى الإيمان أن الله واحد وأن محمدًا هو رسوله، وعندما قال الخطاب إن هرقل سينال أجره مرتين لو آمن وأصبح مسلمًا، فإنما يرجع ذلك إلى حقيقة أن تعليم الإسلام يحتوي على الإيمان بعيسى ومحمد كليهما.

ويُروَى أن بعض الحاشية اقترحوا على الملك تمزيق الخطاب ورميه بعيدًا حالما قُدِّمَ الكتاب بين يديه، فقد كان الخطاب إهانة للإمبراطور حسبما قالوا، فلم يوصف الإمبراطور بصفته إمبراطورًا، بل مجرد "صاحب الروم" أي عظيم الروم. وردّ الإمبراطور بأنه مهما يكن، فليس من الحكمة تمزيق الكتاب بدون قراءته. وأضاف أيضًا أن مخاطبته باعتباره عظيم الروم ليست خطأ، فإن عظيم الكون كله هو الله، وأيّ إمبراطور فليس إلا مجرد كبير القوم.

وعندما علم الرسول ﷺ بالطريقة التي استقبل بها هرقل كتابه بدا راضيًا وسعيدًا، وقال إن مُلكه سوف يستمر بسبب الاستقبال الذي تلقّى به كتابه، وأن نسله سيستمر طويلاً في حكم الإمبراطورية. وهو ما حدث فعلاً، ففي الحروب التي تلت ذلك، خرج من يد الروم جزء كبير من إمبراطورية الروم تحقيقًا لنبوءة أخرى من نبوءات الرسول ﷺ. وبعد ستمئة سنة من هذا الحادث كانت أسرة هرقل لا تزال باقية تحكم في القسطنطينية، وكان خطاب الرسول ﷺ محفوظًا لا يزال في أرشيف الدولة لوقت طويل. وحدث أن قام سفير أحد الملوك المسلمين وهو الناصر قلاوون، بزيارة إلى البلاط الروماني، وهناك أرُوه

الخطاب مودعًا في حافظة. وقال له الإمبراطور الرومي الذي أراه الخطاب، إن جدّه الأول قد تلقاه من نبيّهم، وأنه قد تم الاحتفاظ به بكل عناية.

كتاب رسول الله ﷺ إلى ملِك الفُرس

تم إرسال كتاب إلى ملك الفُرس مع عبد الله بن حذافة السهمي، وكان نصه كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك". (الزرقاني والخميس)

قال عبد الله بن حذافة إنه حين بلغ بلاط كسرى، التمس تسليم الكتاب إلى الملك. وتسلم الملك الكتاب، وأمر المترجم أن يقرأ ما فيه وأن يشرح محتواه. وما إن سمع بالأمر حتى سخط، واستعاد الكتاب ومزّقه إربًا. وأبلغ عبد الله بن حذافة الرسول ﷺ بالخبر، وما إن سمع الرسول ﷺ القصة حتى قال: "مزّقَ اللهُ مُلكَه".

كانت نوبة الغرور التي انتابت كسرى في هذه المناسبة نتيجة للدعاية المدمّرة التي كان يقوم بها اليهود ضد الإسلام، وهم أولئك الذين هاجروا من أراضي الدولة الرومانية إلى أرض فارس (إيران حاليًا). فقد ساهم هؤلاء اللاجئون اليهود في تدبير المكائد ضد الروم مدعومين من الفُرْس، وأصبحوا من أجل ذلك مقرّبين لدى البلاط الفارسي. لذلك، كان قلب الإمبراطور كسرى مليئًا بالحنق على الرسول ﷺ، وبدا له أن الروايات التي حملها إليه اليهود صحيحة، وقد أكّدها ذلك الكتاب. وظن أن الرسول ﷺ كان مغامرًا عدوانيًا يحمل الشر نحو

أرض فارس. فأرسل لفوره إلى حاكم اليمن يقول له إن واحدًا من قريش في الجزيرة العربية قد أعلن نفسه نبيًّا، وإن دعواه قد تجاوزت الحدود. وطلب من الحاكم أن يرسل إليه رجلين قويين ليقبضا على هذا القرشي، ويصحباه إلى البلاط الفارسي. وقام "باذان" الذي كان يحكم اليمن باسم كسرى، فأرسل أحد قواد جيشه في صحبة قوة راكبة إلى الرسول ﷺ، وأرسل معهم خطابًا يقول فيه للرسول ﷺ إنه يجب عليه حالما استلم الخطاب أن يرافق الرسولين لفوره حتى البلاط الفارسي. وكانت رحلة الشخصين قد قصدت مكة ولكنهما علما عند الطائف أن الرسول ﷺ يعيش في المدينة. وعند وصولهما إليها أخبر قائد الوفد رسول الله ﷺ أن باذان حاكم اليمن قد تلقى أمرًا من كسرى أن يُعدّ عدّة للقبض على النبيّ وإحضاره إلى أرض فارس، وأنه لو رفض الطاعة فإنه هو وشعبه سيتم القضاء عليهم، وستتحول ديارهم إلى خراب يباب. وأصر الوفد اليمني دون أي شفقة أن يطيعهم الرسول ليقودوه إلى أرض فارس. واستمع الرسول ﷺ لهما ثم اقترح أن يلقياه في الغد. وخلال الليل دعا الله تعالى، فأخبره سبحانه بأن عجرفة كسرى قد كلفته حياته. وقال الوحي إن الله تعالى قد حرّك قلب ابن كسرى ضد أبيه، وسيقتل هذا الابن أباه في يوم الاثنين ١٠ جمادى الأولى من ذلك العام. وقالت رواية إن الوحي كان: "لقد قتل الابن الأب في نفس الليلة". ويحتمل أن تلك الليلة نفسها كانت ليلة ١٠ جمادى الأولى. وفي الصباح أرسل الرسول ﷺ إلى الوفد اليمني وأبلغهما بما أُوحي إليه ليلاً، ثم زوّدهما بكتاب إلى باذان قال فيه: إن كسرى سيتمّ قتله في يوم كذا من شهر كذا. وعندما تلقّى حاكم اليمن الرسالة قال: "لو كان هذا الرجل نبيًّا حقًّا فسيكون ما قال، وإن لم يكن فليساعدْه الربُّ هو وبلدُه كلها". ولم يمض قليل زمن حتى رست سفينة على شاطئ اليمن تحمل رسالة إلى حاكم اليمن من إمبراطور الفُرس، وكان يحمل خاتمًا مختلفًا عن خاتم كسرى، فاستنتج من ذلك أن نبوءة النبيّ العربي قد تحققت وثبتت صحتها، فالخاتم الجديد يعني ملكًا

جديدًا. وفتح باذان الكتاب وقرأ ما يلي:

"من كسرى شيرويه إلى باذان حاكم اليمن، لقد قتلت أبي لأن حكمه أصبح فاسدًا وظالمًا، وعاملَ الرعية بوحشية. وعليه حالما يتلقى الرسالة أن يجمع قادته وأن يطلب إليهم توكيد ولائهم لي. وأما بالنسبة لما أمر به أبي من القبض على النبيّ العربي، فلتعتبر هذه الأوامر ملغاة". (الطبرى ج ٣ ص ١٥٧٢ – ١٥٧٤، وابن هشام ص ٤٦)

لقد بلغ من تأثر باذان بهذه الأحداث أنه آمن في الحال ومعه بعض أصدقائه، وأبلغوا الرسول ﷺ بذلك.

الكتاب إلى النجاشي

حمل عمرو بن أمية الضمري كتاب الرسول ﷺ إلى النجاشي ملِك الحبشة، وكان كما يلي:

> بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أحمد إليك اللهَ الذي لا إله إلا هو الملِك القُدّوس السلام المؤمِن المهيمِن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول... وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله ﷻ. وقد بلّغتُ ونصحت، فاقبَلْ نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى. (الزرقاني)

عندما وصل هذا الكتاب إلى النجاشي أظهر تقديرًا واحترامًا عظيمين له، ووضعه بين عينيه، ونزل عن عرشه، ووضعه في حُقٍّ من عاجٍ وهو يقول: "طالما كان هذا الكتاب محفوظًا فإن الله سيحفظ ملكي". ولقد ثبت صدق قوله، فلألف سنة قادمة ذهبت جيوش المسلمين إلى كل اتجاه، ومرت بالحبشة على

كل جانب، ولكنهم لم يمسوا مملكة النجاشي الصغيرة هذه. لقد انقسمت الإمبراطورية الرومانية، وفقد كسرَى مُلكه، واختفت ممالك في الهند والصين، ولكن هذه المملكة الصغيرة بقيَت مصونة لأن حاكمها استقبل اللاجئين المسلمين الأولين وشملهم بالحماية، وأظهر الاحترام والتبجيل لكتاب رسول الله ﷺ إليه، وبهذه الطريقة ردّ المسلمون على الشهامة التي أبداها النجاشي.

قارنْ ذلك بالمعاملة التي لقيتها مملكة النجاشي المسيحية من أحد الشعوب المسيحية الأخرى باسم المدنية والحضارة في عصرنا هذا، لقد دكّوا مدنهم بالقنابل من الجو وحطموها، واضطرت العائلة المالكة إلى اللجوء خارج البلاد عدة سنوات.

لقد عومل نفس الشعب معاملتين مختلفتين من شعبين مختلفين، لقد حفظ المسلمون الحبشة مصونة وآمنة بسبب الشهامة لدى أحد حكامها، وهاجم شعب مسيحي أوروبي هذا البلد وسلبه ونهبه تحت شعار الحضارة. وهذه المقارنة تُظهر إلى أيّ مدى تُثبت تعاليم الرسول ﷺ وقدوته أنها نافعة وراسخة التأثير.

لقد شعر المسلمون بالامتنان نحو مملكة مسيحية جعلت المسلمين في أمان معها، وقام شعب مسيحي طمّاع بالعدوان على هذه المملكة دون أن يبالي بأنها كانت بلدًا مسيحيًّا.

الكتاب إلى حاكم مصر (المقوقس)

حمَل حاطب ابن أبي بلتعة كتاب الرسول ﷺ إلى المقوْقس، وكان نصه تمامًا كما كان كتابه إلى هرقل إمبراطور الروم. وبينما قال كتابه إلى إمبراطور الروم إن إثم إنكار الرومان سيتحمله هو على نفسه، فإن كتابه إلى المقوقس قال إن إثم إنكار القبط سيقع على المقوقس الحاكم، وكان الكتاب كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس

عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلمْ يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإنما عليك إثم القبط. ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾". (السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٧٥)

عندما وصل حاطب إلى مصر، لم يجد المقوقس في العاصمة، فتبعه إلى الإسكندرية حيث كان له بلاط قريب من البحر. ذهب حاطب على قارب، وكان القصر محروسًا حراسة شديدة، عند ذلك رفع حاطب يده بالكتاب على مسافة منهم وبدأ يصيح عاليًا، فأمر المقوقس أن يقرّبوه منه، وأمره أن يحضر الكتاب. وقرأ المقوقس الكتاب ثم قال: "لو كان هذا الرجل صادقًا فلم لم يستنْزل الهلاك على أعدائه"؟ فأجاب حاطب: "أنت تؤمن بالمسيح، ولقد أُسيئت معاملته على يد شعبه، ولكن هل دعا عليهم بالهلاك"؟ عند ذلك أعطى المقوقس إلى حاطب هدية وقال له: "لقد كانت كلمتك تمثيلاً حكيمًا من رجل حكيم أجاد في الإجابة على السؤال الموجّه إليه". عند ذلك أكمل حاطب حديثه: "إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فلا تستكبر، آمن برسول الله هذا، وبالله ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبيّ أدرك قومًا فهُم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه. وأنت ممن أدركه هذا الرسول، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به".

عندما سمع المقوقس ذلك أشار إلى أنه سمع تعاليم الإسلام، فوجد أن هذا النبيّ لا يأمر بإثم ولا ينهَى عن خير، وأنه بحث في أمره فلم يجده بالساحر ولا بالكاهن، وأنه سمع ببعض نبوءاته التي تحققت. ثم أرسل يطلب حُقًّا من عاج فوضع فيها الكتاب، وختمه ودفعه إلى خادمة عنده وأمرها بحفظه في مكان آمن.

وكتب ردًّا على الرسول ﷺ حفظ التاريخ نصه وهو كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم، من المقوقس ملك القبط إلى محمد بن عبد الله، سلام عليك، وبعد: فلقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرتَ فيه وما تدعو إليه. وقد علمتُ أن نبيًّا بقيَ وكنت أظن أنه يخرج بالشام. وقد أكرمتُ رسولك وأعطيتُه ألف دينار وخمسًا من الخِلع هدية، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم. وأهديتك أيضًا عشرين ثوبًا من نسيج مصر من أحسن ما فيها، وأهديتك بغلةً لتركبها. والسلام عليك. (الزرقاني والطبري)

يتضح من هذا الخطاب أن المقوقس لم يعتنق الإسلام، رغم أنه تلقّى كتاب الرسول ﷺ إليه باحترام.

الكتاب إلى عظيم البحرين

وأرسل الرسول ﷺ أيضًا إلى عظيم البحرين المنذر التيمي، مع الصحابي العلاء بن الحضرمي. ولقد فقد التاريخ نَص هذا الكتاب، غير أنه عندما وصل الكتاب إلى هذا الزعيم دخل في الإسلام، وأرسل إلى الرسول ﷺ يقول إنه هو وكثير من أصدقائه قد قرروا الانضمام لصف الإسلام، وأن هناك البعض ممن قرروا أن يظلوا خارجه على أية حال. وأضاف أن بأرضه يهودًا ومجوسًا، وسأله ماذا يفعل معهم؟

وردَّ الرسول ﷺ عليه في كتاب جاء فيه:

لقد سعدتُ بقبولك الإسلام. فمن واجبك الآن أن تطيع رسلي. فمن أطاع رسلي فقد أطاعني. وإنّ رسلي قد أثنوا عليك خيرًا، وأكدوا لي إخلاصك في الإيمان. لقد دعوت الله تعالى لقومك، فاسع الآن أن تعلّمهم شعائر الإسلام وسننه، واحفظْ أملاكهم. لا تسمح لأحد أن

تكون له أكثر من أربع زوجات. قد غُفر لهم ما تقدم من الذنوب. إنا لن نعزلك عن إمارة قومك ما دمت صالحًا ورعًا. ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية، فلا تطالبهم بأكثر من ذلك. أما عامة الناس الذين ليست عندهم أرض كافية لمعاشهم فلكل واحد منهم أربعة دنانير وكسوة. (الزرقاني والخميس)

وأرسل الرسول ﷺ كذلك إلى ملك عُمان، وزعيم اليمن، وملك غسّان، وسيد بني فهد، وهي قبيلة من اليمن، وسيد همدان، وهي قبيلة يمنية أخرى، وسيد قبيلة بني عليم، وسيد قبيلة الحضرمي، وأكثرهم أصبحوا مسلمين.

تدل هذه الرسائل على مدى اكتمال ثقة الرسول بالله ﷻ، وتدل أيضًا منذ البدايات الأولى على يقين الرسول ﷺ أنه لم يُرسَل لقوم معينين، بل للناس كافة في الأرض كلها. صحيح أن الرسائل استُقبلت بطرق مختلفة من طرف الذين خوطبوا بها، فبعضهم أسلم لفوْره، والبعض عامل الكتب باحترام شديد ولكنه لم يقبل الإسلام، وبقي آخرون عاملوها بلطف عادي وآخرون أظهروا الاحتقار والغطرسة.

ولكن من الصحيح أيضًا، والتاريخ شاهد على ذلك، أن الذين تلقوا هذه الرسائل هم وشعوبهم قد لقوا نفس المصير الذي لقيَته الرسائل عندهم، وقد عاملهم الله بنفس معاملتهم لخطابات الرسول ﷺ.

سقوط خيبر

وكما سبق أن قلنا، فإن اليهود وخصوم الإسلام الآخرين كانوا الآن مشغولين جدًّا في استثارة القبائل ضد المسلمين، وقد تكوّنت لديهم دلائل مقنعة أن الجزيرة العربية لن تصمد طويلاً أمام تنامي قوة الإسلام، وأن قبائل العرب لم تعد قادرة على مهاجمة المدينة متحدة وفي وقت واحد. لذا لجأ اليهود إلى الكيْد

مع القبائل المسيحية على جنوب جبهة إمبراطورية الروم، وفي نفس الوقت بدأوا يكتبون إلى إخوانهم في الدين في العراق ضد الرسول ﷺ. لقد التمسوا بالدأب على المراسلة الحاقدة الخبيثة أن يثيروا كسرى الفُرس ضد الإسلام، ولقد ثار كسرى فعلاً ضده نتيجة لمؤامراتهم وحيَلهم، حتى إنه أرسل إلى عامله على اليمن أن يلقي القبض على الرسول ﷺ.

ولقد بقي الرسول ﷺ آمنًا بسبب التدخل الإلهي والرحمة الإلهية، ولقيت خطة إمبراطور الفرس الخيبة والفشل. ومن البيّن الواضح أنه لولا العوْن الإلهي العظيم الذي رافق الرسول ﷺ خلال قيامه برسالته النبوية، لكانت حركة الإسلام الغضّة الناشئة خليقة أن يتم قصمها وتقويضها وهي في مهدها تحت ضغط العداء والكراهية والمعارضة من طرف أباطرة الروم والفرس. فعندما أصدر كسرى أمره بالقبض على الرسول ﷺ، حدث عندئذ أن عُزل الإمبراطور ولقي مصرعه على يد ابنه قبل أن يأخذ التنفيذ مجراه، وتم إلغاء الأمر الصادر، وكان ذلك الإلغاء على يد حاكم مختلف، وأدّى التأثير المعجز لهذا الحدث على حاكم اليمن وقادته أن تحوّلت مقاطعة اليمن إلى جزء من إمبراطورية الإسلام.

ولا ننسى أن المكائد التي ظل اليهود يرسمون خططها في المدينة ضد المسلمين ومدينتهم، جعلت من الضروري إجلاءهم عنها، وإلا فقد كان تزايد زخم هذه المكائد مهدّدًا بوصولها لحد خطير، يؤدّي إلى سفك الدماء وتزايد أشكال العنف. لذلك فبعد عودة الرسول ﷺ من الحديبية، انتظر خمسة أشهر ثم قرر إقصاءهم من خيبر، فقد كانت خيبر على مسافة قليلة من المدينة ومن هنا وجد اليهود أنه من السهل اليسير عليهم الاستمرار في الكيد والتآمر ضد المسلمين. ولهذا سار الرسول ﷺ إليهم في وقت ما من أغسطس/ آب (٦٢٨ بعد الميلاد) ومعه ١٦٠٠ رجل، وكانت خيبر جيّدة التحصين كما أسلفنا حيث كانت تحيطها عدة أراض صخرية، على كل منها أقيم حصن صغير، ولم يكن من السهل على قوة صغيرة كتلك التي صاحبت الرسول ﷺ أن تفتح مكانًا كهذا.

وبعد قتال محدود سقطت القوات الصغيرة المرصودة في ضواحي خيبر، ولكن اليهود قاموا بتجميع قواتهم في المدينة الحصينة، وفشلت محاولات الهجوم عليهم. وتلقى الرسول ﷺ وحيًا في يوم من الأيام أنه تعالى سيفتح على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفي الصباح التالي أعلن الرسول ﷺ ذلك على المسلمين، ودعا بالراية السوداء وقال: "اليوم أعطي الراية لرجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله والمؤمنون، يفتح الله خيبر على يديه". وهكذا دعا الرسول ﷺ عليًّا ودفع إليه الراية. ولم ينتظر عليّ، بل قاد رجاله وهاجم قوات الحصن لفوره.

وبالرغم من أن اليهود قد جمعوا حشود قواتهم داخل هذا الحصن، فإن عليًّا وصحبه قاموا بفتح الحصن قبل حلول الظلام، وتم توقيع اتفاق السلام، وكانت الشروط هي أن يغادر خيبر كل اليهود وأزواجهم وأطفالهم، إلى مكان آخر بعيد عن المدينة. وأن كل ما يملكون قد صار مآله إلى أيدي المسلمين. وأن هذا العهد لا يحمي من أخفى شيئًا من ممتلكاته أو كنوزه، أو كذب على المسلمين بشأن مكانها، وسيتم عقابه لنقض الميثاق.

وخلال حصار خيبر، حدثت أحداث ثلاثة لها أهمية خاصة، يدل واحد منها على آية من آيات الله، ويدل الاثنان الآخران على مدى رقي المستوى الروحي والخلقي لرسول الله ﷺ.

كان الرسول ﷺ قد تزوّج صفية بنت حُيي بن أخطب، وهي أرملة رجل يُسمى كنانة، وكان أبوها أحد زعماء خيبر. فلما أتاها الرسول ﷺ رأى على وجهها أثر صفعة، فسألها عنها، فأجابت قائلة: إنها رأت قبل ذلك أن القمر وقع في حجرها، فذكرت ذلك لزوجها، فلطم وجهها وقال: إنك لتريدين لأن تكوني زوجة لملك العرب. فلم يزل الأثر في وجهها إلى أن تزوّجها رسول الله ﷺ. (ابن هشام: قصة صفية أم المؤمنين).

كان القمر هو الشعار القومي للعرب، وسقوط القمر في الحضن يعني اتصالاً حميمًا مع ملك العرب، وانشقاق القمر وسقوطه إلى الأرض يعني انشقاق الدولة أو سقوطها. إن رؤيا السيدة صفية تدل على صدق الرسول ﷺ، وتدل على تفاعلات خاصة بهذه السيدة بشأن الإسلام في نفسها، وضد الاتجاه العام المتحامل لقومها والمتحيّز ضد النبي، وتدل على أن الله تعالى يوحي بأمور من المستقبل لعبده في المنام، وينال المؤمنون من هذه النعمة نصيبًا يفوق نصيب الكافرين. وكانت السيدة صفية يهودية حين رأت هذه الرؤيا، وحدث أن زوجها قُتل خلال حصار خيبر التي كانت عقابًا لليهود على خرقهم العهود. ووقعت السيدة صفية في الأسر، وعند توزيع الأسرى على الصحابة، وقعت السيدة صفية في سهم أحد الصحابة. ولما عرف أنها أرملة أحد الزعماء وابنة زعيم خيبر، وجد أن من التكريم لها أن تعيش في بيت الرسول، واختار الرسول ﷺ أن يكرمها بزواجها، فوافقت السيدة صفية. وبهذه الطريقة تحققت رؤياها.

أما الحادثتان الأخريان، ففي إحداهما، أن راعيًا أسلم قبل استسلام الحصن وكان يرعى غنمًا لأحد زعماء اليهود، وقال للرسول ﷺ بعد إسلامه إنه لا يستطيع العودة إلى أهله بعد الآن، وسأل: ماذا يفعل بالماعز وبالغنم التي هي لسيده العجوز؟، فأمره الرسول ﷺ أن يوجّه وجهها إلى خيبر ثم يدفعها إلى هناك ويدعها، والله سيهديها إلى سيدها. وفعل الراعي كما سمع، وفعلاً بلغ القطيع الحصن، واستقبله الحراس. (ابن هشام، ج٢ ص ١٩١)

وتدل هذه الحادثة على جدّية تناول الرسول ﷺ لقضية الحقوق الفردية والملكية، كما تدل على مدَى حرصه ﷺ على أن يؤدّي المؤتمن الأمانة إلى من ائتمنه عليها. ففي الحرب تؤول إلى المنتصر الممتلكات المادّية التي تنتمي للخاسر، ولكن صاحب الغنم المحارب لم يكن قد خسر بعد. فهل يمكن أن نرى شيئًا كهذا في عصرنا الحالي المسمى عصر التمدن والثقافة؟ هل حدث قط أن انسحب عدوّ خاسر فوُجدت في المتروكات خلفه كنوز أو ثروات كان المنتصر

قد أعادها إلى مالكيها أثناء القتال؟ ففي هذه الحالة التي بين أيدينا، كانت الماعز والغنم مملوكة لأحد الذين يقاتلون المسلمين، وكان في عودة القطيع معنى إعطاء الفرصة للعدوّ للبقاء والمقاومة لعدة شهور مستخدمًا القطيع كغذاء، ولكن الرسول ﷺ سمح لها بالعودة ليغرس في تابعه الجديد روح الأمانة وضرورة أدائها.

وفي الحادثة الثالثة حاولت امرأة يهودية تسميم طعام الرسول ﷺ، وسألت أصحابه عن الجزء المفضل لديه في الشاة، وقالوا لها إنه يفضل كتف الحمل أو الماعز. وقامت المرأة بذبح ماعز وشوَته على الصخر الحار، وخلطته بسم مميت، وخصّت بالسم قطع الكتف باعتبار أن الرسول ﷺ سيفضل الأكل منها.

كان الرسول ﷺ قد عاد لخيمته بعد أن أمّ المصلين في جماعة العشاء، فرأى هذه المرأة بجوار خيمته تنتظر، فسألها عما يمكنه أن يفعل لأجلها. فقالت له: "بلى يا أبا القاسم. هل تقبل مني هدية"؟ فطلب الرسول ﷺ من أصحابه أن يأخذوا منها ما أحضرت. وعندما جلس الرسول ﷺ لتناول طعامه، كانت هذه الهدية المشوية من اللحم قد وُضعت أمامه. فنهس منها نهسة، وكذلك فعل البشر بن البراء بن معرور، ومد الصحابة الموجودون أيديهم إلى اللحم، فأوقفهم الرسول ﷺ قائلاً إنه يظن اللحم مسمومًا، وعندئذ قال بشر إنه يظن نفس الشيء، وإنه أراد أن يلقي باللحم بعيدًا ولكنه خشي إزعاج الرسول ﷺ. وقال: "لقد رأيتك تنهس نهسة ففعلت مثلك، ولكني سرعان ما تمنيت لو أنك لم تفعل أبدًا".

وبعد ذلك مرض بِشر، وفي بعض الروايات أنه مات في ذلك بعد فترة. وأرسل الرسول ﷺ يطلب المرأة وسألها عما إذا كانت قد سممت اللحم؟ فسألته كيف عرف ذلك؟ وكان الرسول ﷺ ممسكًا بقطعة من اللحم في يده، فقال لها: ''لقد قالت لي يدي ذلك''، يعني أنه كان قادرًا على معرفة ذلك من طعمها، فاعترفت المرأة بما فعلت. فسألها الرسول ﷺ عما حملها على ذلك.

فقالت: "إن قومي كانوا يقاتلونك، ولقد قُتل أقاربي في المعركة، فقررت وضع السمّ لك، وقلت لو كان كاذبًا فسوف يموت ونحيا في أمن، ولو كان صادقًا فسينجيه الله".

وعندما سمع الرسول ﷺ ذلك منها، غفر لها ما فعلت، رغم أنها كانت تستحق عقوبة الموت على هذه الفعلة (صحيح مسلم). كان الرسول ﷺ على استعداد للمغفرة في كل وقت، ولم يعاقب إلا عندما كان العقاب ضروريًا، عندما يهدد العفو بتمادي المجرم في إجرامه.

تحقُّق رؤيا رسول الله ﷺ

في السنة السابعة للهجرة، وفي شهر فبراير/ شباط ٦٢٩م على وجه التحديد، استعد الرسول ﷺ أن يذهب إلى مكة لطواف العمرة، وكان هذا ما تم الاتفاق عليه مع قادة مكة. وعندما حان وقت الرحيل، جمع ﷺ ٢٠٠٠ من أتباعه واتخذ معهم طريقه إلى مكة. وعندما بلغ مرّ الظهران حيث يحط الحجيج، أمر أصحابه أن يغمدوا أسلحتهم، وأن يضعوا عنهم الدروع، حيث جمعت في مكان هناك. وحرصًا على دقة تنفيذ الميثاق الموقّع في الحديبية، دخل رسول الله ﷺ وصحبه المنطقة الحرام وسيوفهم في أغمادها، كما ينص عليه اتفاق الحديبية.

لم يكن دخول مكة بعد مرور سبع سنوات من البعد عنها أمرًا عاديًّا لرسول الله ﷺ وصحابته. لقد تذكروا العذاب الذي تعرّضوا له أيام كانوا في مكة، وفي نفس الوقت رأوا مدى فضل الله تعالى ورحمته بهم أن أعادهم إلى مكة ليطوفوا بالبيت العتيق في سلام. كان غضبهم يتساوَى مع سرورهم. وأما أهل مكة، فقد تركوا منازلهم وصعدوا إلى قمم الجبال ليروا المسلمين. كان الحماس يملأ المسلمين، وتفيض قلوبهم بهجة وفخرًا. ولقد أرادوا بحماسهم أن يقولوا لأهل مكة إن الله قد صدقهم الوعد. وبدأ عبد الله بن رواحة ينشد بعض أغاني الحرب الحماسية، لكن الرسول ﷺ منعه وأمره ألا يفعل ذلك، بل يقول: "لا إله إلا الله

وحده، نصَر عبده، وأعزَّ جنده، وهزَم الأحزابَ وحده". (السيرة الحلبية ج٣ ص ٧٣)

مكث الرسول ﷺ في مكة ثلاثة أيام بعد أن طاف بالكعبة وسعَى بين الصفا والمروة. وقد اقترح عليه عمه العباس أن يتزوّج شقيقة زوجه الأرملة واسمها ميمونة، فوافق الرسول ﷺ. وفي اليوم الرابع طلب أهل مكة انسحاب الرسول ﷺ وصحبه، فأمر رسول الله أتباعه بالانسحاب والتوجّه شطر المدينة. وقد التزم الرسول ﷺ بتنفيذ شروط الاتفاق التزامًا دقيقًا، وذلك بسبب عمق التزامه بأوامر الدين الذي يفرض عليه الوفاء بالعهود، ولحرصه البالغ على احترام مشاعر أهل مكة، وقد اضطره ذلك إلى ترك زوجته الجديدة السيدة ميمونة خلفه في مكة، ورتّب معها أن تلحق به مع مؤخرة القافلة التي تقوم بجمع الحاجيات الشخصية للمعتمرين بعد انسحابهم. وامتطى الرسول ﷺ ناقته وسرعان ما خرج من حدود المنطقة الحرام، وعسكر لقضاء الليل في مكان اسمه "سرف"، حيث لحقت به في خيمته السيدة ميمونة رضي الله عنها.

ولعله كان من الأوْلى إهمال ذكر هذه الحادثة وعدم إبراز تفاصيلها، خاصة وأننا نكتب لمحات مختصرة عن حياة الرسول ﷺ. ولكن للحادثة أهمية خاصة، وذلك بسبب الهجوم الذي يشنّه كُتّاب الغرب على الرسول ﷺ بسبب تعدّد زوجاته. فهم يتصوّرون أنّ التعدّد دليل على الضعف الشخصي وحب المتع الدنيوية. غير أن هذا التصوّر الخاطئ يكذّبه تمامًا إخلاص أزواجه له، وحبّهن الفائق لما يمثله، بشكل ملك عليهن أنفسهن.

إن هذا الحب والإخلاص يثبت أن حياة الرسول الزوجية كانت طاهرة ولا أنانية فيها، وكانت غنية بالمشاعر الروحية. ولقد كان أمرًا غريبًا وفريدًا أننا لا نجد رجلاً عامل زوجته الواحدة معاملة طيبة تقوم على المودّة والرحمة، كما عامل الرسول ﷺ زوجاته أجمعين.

ولو كانت مشاعر اللذة هي المحرك لحياته الزوجية، لوجدنا يقينًا أن أزواجه يختلفن معه ويعاندنه، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك، فقد كانت كل أزواجه في حالة ود وتوافق معه، وكان هذا الود نتيجة لعدم أنانيته وأسْوته الحسنه الرشيدة الراقية السلوك، وكان رد فعلهن إزاء عدم الأنانية والسموّ الذي يمثله محضره أنهن أعطينه حبًّا وإخلاصًا سخيًّا غير ضنين. وقد سجل التاريخ أحداثًا عديدة تدل على ذلك، وأحدها يختص بالسيدة ميمونة نفسها. فلقد دخلت عليه أول مرة في خيْمة وسط الصحراء، وما كان لها أن ترى في هذا اللقاء الأول ذكرى غالية عزيزة، لو كانت علاقتها الزوجية مع الرسول ﷺ تحمل أي طابع للخشونة، أو لو كان الرسول ﷺ يفضّل بعض أزواجه على بعض بسبب الجمال الجسدي، بل إنها ما كانت لتحفظ ذكرى ذلك اللقاء بود عميق واعتزاز بالغ. ولو أن ذكرياتها مع الرسول ﷺ كان يشوبها أيّ جفاء أو مرارة، لكان جديرًا بها أن تنسَى كل شيء حول هذا اللقاء. فقد عاشت طويلاً بعد الرسول ﷺ، وماتت بعد أن بلغت من العمر عتيًّا، ومع ذلك فلم تنس خلاله أبدًا ماذا كان يعني بالنسبة لها لقاؤها مع الرسول ﷺ. وعند موتها، بعد أن شارفت الثمانين من عمرها، وبعدما غابت ونُسيت جميع المباهج الجسدية، ولم يعد يحرك القلب غير القيم العليا، ولا يؤثر في النفس والوجدان سوى الفضائل الكريمة، طلبت السيدة ميمونة أن تُدفن على مسيرة يوم خارج مكة، في نفس المكان والبقعة التي عسكر فيها الرسول ﷺ أثناء عودته إلى المدينة، والتي لقيته فيها لأول مرة. إن العالم يعرف قصصًا كثيرة عن الحب، منها الحقيقي والخيالي، ولكن لا شيء من بينها أكثر تحريكًا للقلب من هذه القصة.

بعد أن تمت هذه العُمرة التاريخية، انضم إلى الإسلام قائدان شهيران من قادة العدوّ، وأثبتا بعد ذلك أنهما قائدان فذّان من قادة الإسلام. كان أحدهما خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي هزّت بطولته وعبقريته دعائم الإمبراطورية الرومانية، وانضمّت إلى الدولة الإسلامية تحت راية قيادته الدول المحيطة الواحدة تلو

الأخرى. وكان القائد الثاني هو عمرو بن العاص ﷺ الذي فتح مصر.

موقعة مؤتة

لدى عودته من العمرة، بدأ الرسول ﷺ يتلقى أخبارًا تقول إن القبائل المسيحية على حدود الشام تُعد للهجوم على المدينة نتيجة التحريض والإغواء من طرف اليهود والمشركين. فأرسل مجموعة من خمسة عشر رجلاً لتقصّي الحقيقة، فرأوا جيشًا يتجمع على حدود الشام. ولكنهم تأخروا بدلاً من الرجوع في الحال كي يقدّموا تقريرهم للرسول ﷺ. لقد دفعهم حماسهم إلى اتخاذ قرار متسرّع بالدعوة إلى الإسلام وشرح حقائقه لهم فلعلهم يهتدون، ولكن نيّاتهم الحسنة أحدثت تأثيرًا معاكسًا لم يرغبوه ولم يتوقّعوه.

وإذا راجعنا الأحداث بتفكيرنا الحالي، نستطيع أن نرى أن أولئك الذين كانوا يخططون لغزو بلد الرسول ﷺ بتحريض من العدوّ، لم يكن من المتوقع منهم أن يتصرّفوا بأي أسلوب آخر. فبدلاً من الإنصات والاستماع للدعوة التي تُعرض عليهم، إذا بهم يتناولون أقواسهم ونشّابهم، ويمطرون الوفد النبويّ بوابل من السهام. وصمد الوفد المكوّن من خمسة عشر رجلاً للسهام دون حركة، فقد تلقوا سهامًا على ما قدموه من حجج وبراهين، ومن ثم لم يتراجعوا. خمسة عشر وقفوا صامدين أمام الآلاف، وسقطوا جميعًا صرعَى.

وجهز الرسول ﷺ حملة لعقاب المعتدين على هذه القسوة والوحشية الطائشة، ولكنه في نفس الوقت تلقى أخبارًا تقول إن القوات التي كانت تتجمع محتشدة على الحدود قد تفرقت فأجّل خطته، غير أنه بعث برسالة إلى إمبراطور الروم (أو إلى عظيم قبيلة غسّان الذي كان يحكم بُصرى باسم الروم). ولعله في هذه الرسالة كتب يشكو من الاستعدادات التي شُوهدت على حدود الشام، ومن المذبحة الحمقاء الظالمة التي لقيَها الخمسة عشر مسلمًا الذين أُرسلوا لمعرفة أخبار ما يحدث على الحدود.

وحمل الرسالة صحابي اسمه الحارث بن عُمير الأزدي، فعرض له في الطريق عند مؤتة.. شُرَحبيل بن عمر الزعيم الغسّاني، وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قِبَل قيصر.

سأله الزعيم الغسّاني شرحبيل: "هل أنت رسول محمد؟ لعلك تحمل رسالة منه".. وبمجرد أن أجاب الصحابي بالإيجاب قام الزعيم الغسّاني بالقبض عليه، وأوثقه ثم عذبه بالضرب المبرح إلى أن مات. ولعل هذا الزعيم الغسّاني كان هو قائد الجيش الذي لقي الجماعة المكونة من ١٥ مسلمًا، وقام بقتلهم، هؤلاء الذين لم يفعلوا شيئًا سوى أنهم حاولوا أن يبشروا بدينهم. إن حقيقة سؤاله للحارث عن احتمال حمله رسالة من الرسول ﷺ توضح أنه كان يخشى أن تبلغ شكوى الرسول ﷺ مسامع قيصر عن هجومهم وقتلهم الخمسة عشر مسلمًا.

كان خائفًا أن تتم محاسبته على ما حدث، وظن أن قتل حامل رسالة الرسول ﷺ سيكون أمانًا بالنسبة إليه، ولكن توقعه لم يتحقق. فقد بلغت أخبار القتل الرسول ﷺ، فجهز جيشًا من ٣٠٠٠ مقاتل للانتقام من هذه الحادثة والتي سبقتها، وبعث بهم إلى الشام تحت إمرة زيد بن حارثة، مملوكه الذي حرره، والذي ذكرناه فيما قصصنا عن حياته في مكة. وعيّن الرسول ﷺ جعفر بن أبي طالب ليخلف زيدًا لو قتل، وعبد الله بن رواحة فيما لو قتل جعفر، وفوّض للمسلمين اختيار من يخلف عبد الله بن رواحة لو قتل.

وعلّق على ذلك رجل من اليهود كان حاضرًا فقال للرسول ﷺ: "يا أبا القاسم! لو كنت نبيًّا حقًّا فإن هؤلاء الثلاثة الذين سميتهم سيموتون فعلاً، لأن الله لا بد أن يصدق ما يقول الرسول"، والتفت إلى زيد قائلاً: "خُذْها مني، لو كان محمد نبيًّا فلن تعود حيًّا". ولما كان زيد من المؤمنين المخلصين أجابه قائلاً: "إن محمدا رسول الله حقًّا، سواء عدتُ حيًّا أو لم أعد." (السيرة الحلبية ج ٣ ص ٧٥)

في الصباح التالي حمل الجيش المسلم عدّته واستقبل وجهته في رحلة طويلة. وصحبهم الرسول ﷺ ورفاقه لبعض الطريق. ولم يحدث أبدًا أن خرجت حملة بهذه الأهمية والحجم بدون قيادة الرسول ﷺ نفسه، وبعد ما سار الرسول ﷺ بعض الوقت ليوَدّع الحمْلة، أوصاهم وأمرهم ونصحهم عند ثنية الوداع التي تعَوّد أهل المدينة أن يُوَدّعوا عندها المسافرين إلى الشام من الأصدقاء والأقارب، فقال:

أوصيكم بتقوى الله والعدل فيمن معكم من المسلمين. اغزوا باسم الله في سبيل الله، وقاتلوا عدوّ الله وعدوكم في الشام. ستجدون قومًا عاكفين على عبادة الله منعزلين في صوامعهم، فلا تتعرضوا لهم، ولا تؤذوهم. لا تقتلوا في أرض العدو وليدًا ولا امرأة ولا أعمَى ولا شيخًا فانيًا. ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة، ولا تهدموا بناء.(السيرة الحلبية ج ٣)

بعد ذلك عاد الرسول ﷺ وتقدم الجيش إلى الأمام. كان ذلك أول جيش يرسل للحرب ضد قوة مسيحية، وعندما بلغ المسلمون حدود الشام سمعوا أن قيصر نفسه مع مئة ألف من جنوده في الميدان، ومئة ألف آخرين مجنّدين من القبائل المسيحية العربية. ولما وجد المسلمون أنفسهم في مواجهة هذا العدو الهائل، فكّروا أن يتوقفوا في طريقهم ليرسلوا رسالة إلى الرسول ﷺ في المدينة ليرسل إليهم مددًا أو يرسل إليهم تعليمات جديدة.

وعندما اجتمع القادة للمشاورة، وقف عبد الله بن رواحة وقد امتلأ بشعلة من الحماس فقال: يا قوم، والله إن التي تكرهون لَلَّتي خرجتم تطلبون؛ الشهادة. وما نقاتل الناس بعَدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين. فإذا كان العدو أكثر منا عددًا وعتادًا بكثير فلا بأس. انطلِقوا فإنما هي إحدى الحسنيين؛ إما ظفرٌ وإما شهادة في سبيل الله.

وسمع الجيش ما قال ابن رواحة، وأحدث فيهم بالغ الأثر، واستقر رأيهم على

ما دعاهم إليه. وتحرك الجيش إلى الأمام، وعندما رأوا الجيش الرومي يتقدم نحوهم انحاز المسلمون إلى مؤتة وعسكروا هناك وتعبأوا للقتال، وهناك التقى الفريقان في المعركة. ولقي زيد قائد المسلمين مصرعه سريعًا، وحمل الراية بعده ابن عم رسول الله ﷺ جعفر ابن أبي طالب فقاد الجيش. وعندما رأى ضغط العدو الهائل والمسلمين غير قادرين على التماسك بسبب قلة عددهم بشكل واضح، ترجّلَ عن فرسه وعقَرها، وكان هذا الفعل يعني أنه لن يفر أبدًا، وأنه قرر تفضيل الموت على الفرار، إن قطع أقدام الركوبة في عادة العرب يعني تجنب الهرب والهلع. وقُطعت يمناه وهو يقاتل، فأمسك الراية بيسراه فقطعت كذلك، فاحتضن الراية بعضديه وضمها إلى صدره، وسقط وهو يقاتل موفيًا بوعده، واستلم عبد الله بن رواحة الراية كما أمر الرسول ﷺ، وتولى القيادة فسقط هو أيضًا قتيلاً.

وكان أمْر الرسول ﷺ حينئذ أن يتشاوروا معا ليختاروا قائدا لهم، ولكن الوقت لم يكن يسمح بهذا الاختيار. وكان خليقًا بالمسلمين أن ينهاروا إزاء الأعداد الهائلة للعدو، ولكن خالد بن الوليد قبل نصيحة صديق له فأخذ الراية وقاتل إلى المساء. وفي اليوم التالي نزل إلى الميدان ثانية مع قواته المجهدة المحدودة، وصنع حيلة حربية بتغيير الجناح الأيمن محل الأيسر، ووضع القلب في الخلف وجاء بالقوات الخلفية إلى المواجهة، ورفع بعض الشعارات الحربية. وتصوّر العدوّ أن المسلمين قد جاءتهم الإمدادات خلال الليل فداخلهم الخوف، وأخذ المسلمون خلال المعركة ينسحبون والعدوّ لا يلاحقهم خوفًا من المكيدة، وأنقذ خالد بقايا قواته وعاد إلى المدينة. وتلقّى الرسول ﷺ الأخبار عن طريق الوحي، فجمع المسلمين في المسجد. وعندما نهض يخطبهم كانت عيناه مبللتين بالدموع وهو يقول:

> أود أن أخبركم عن الجنود الذين خرجوا إلى حدود الشام. لقد تصدوا للعدو وقاتلوا. لقد أخذ الراية زيد فأصيبَ، ثم أخذها جعفر فأصيب،

ثم أخذها ابن رواحة فأصيب. فادعوا لهم جميعًا. ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد، فأنقذ جيش المسلمين من الهلاك ورجع. (زاد المعاد ج١ والزرقاني)

وأصبح وصف الرسول ﷺ لخالد شائعًا شعبيًا، وأصبح يُدعى بعدها سيف الله، ودخل المدينة ليجد نفسه معروفًا بذلك.

كان خالد يُعَيَّر بسبب تأخر إسلامه من المسلمين الآخرين، واشتبك مرة في عراك مع عبد الرحمن بن عوف، فاشتكى عبد الرحمن إلى الرسول ﷺ فعنّف الرسول خالدًا وقال له:"يا خالد، أتسيء إلى رجل حضَر بدرًا؟ والله لو أنفقت مثل أحُد ما بلغ ذلك مُدَّ عبد الرحمن ولا نصيفه." وأجاب خالد: "ولكنهم عيروني وكان لا بد أن أرد عليهم". عند ذلك التفت الرسول ﷺ إليهم قائلاً: ''لا تعيروا خالدًا، إنه سيف من سيوف الله سلّه الله على الكافرين''. وتحققت كلمات الرسول ﷺ حرفيًا بعد سنوات قلائل.

عند عودة خالد إلى المدينة مع الجيش المسلم، قام بعض المسلمين بوصف انسحابهم على أنه فرار وضعف في الإيمان. كان النقد الشائع يقوم على أساس أن واجبهم هو الموت مقاتلين. وعنّف الرسول ﷺ المنتقدين، ونفَى عن خالد وجنوده أن يكون إيمانهم ضعيفًا، فقد كانوا جنودًا ينسحبون ليتحيّزوا إلى فئة ليعاودوا الهجوم.

كان لهذه الكلمات معنى أعمق مما يبدو على السطح، فلقد كانت نبوءة بما سيحدث من القتال في الشام بعد ذلك.

مسير الرسول ﷺ إلى مكة في عشرة آلاف من أتباعه

في العام الثامن للهجرة في شهر رمضان (ديسمبر/ كانون الأول سنة ٦٢٩ ميلادية) خرج الرسول ﷺ في طريقه إلى آخر حملة غرست أعمدة الإسلام عميقًا

في أرض الجزيرة العربية.

في الحديْبية تم الاتفاق بين الرسول ﷺ والمشركين على أن يُسمح للقبائل العربية الأخرى بالانضمام لحلف يضمهم مع المشركين أو مع المسلمين على السواء، واتُّفق أيضًا على إيقاف الحرب عشر سنوات بين الطرفين ما لم ينقض أحدهما أو المتحالفون معه الاتفاق بالهجوم على الطرف الآخر، وفي إطار هذا الاتفاق دخلت بنو بكر في حلف مع مكة، ودخلت خزاعة في حلف مع الرسول ﷺ.

ولما كان احترام العرب للمعاهدات ضئيلاً، خاصة معاهداتهم مع المسلمين، حدث أن كان بين بني بكر وخزاعة ثارات قديمة، فاستشارت بنو بكر بعض أهل مكة أن يعينوهم لأخذ ثأرهم من خزاعة، وبرّروا لهم طلبهم بأن خزاعة قد ألقت حذرها بعد توقيع معاهدة الحديبية وأحسّت بالأمن بعد حلفهم مع الرسول، فهذا هو الوقت الأنسب للانتقام منهم في مذبحة مريعة. ووافقهم أهل مكة، وانتهزوا فرصة الظلام ليشتركوا في هجوم ليلي، ولقيَ كثير من رجال خزاعة مصرعهم. فأرسلت خزاعة وفدًا من أربعين رجلاً على جِمال سريعة ليخبروا الرسول ﷺ بخيانة قريش للاتفاق المعقود معه، ولينا‌شدوه النصر على مكة انتقامًا لهذه المذبحة.

والتقى الوفد مع الرسول ﷺ، فأخبرهم بجلاء قاطع أنه يعتبر مصابهم هو مصابه الخاص. وأشار ﷺ إلى سحابة ممطرة في السماء وقال: كما ترون قطرات المطر نازلة من السماء ستنـــزل عليكم نصرة جنود المسلمين.◈

وخافت قريش العواقب، وأزعجها خبر وفد خزاعة إلى المدينة، فأرسلوا أبا سفيان سريعًا لتجديد الصلح منعًا لهجوم المسلمين. وبلغ أبو سفيان المدينة، وبدأ

◈ نص ما ورد في السيرة النبوية لابن هشام هو: "ثم عرَض لرسول الله ﷺ عنانٌ (أي سحاب) من السماء فقال: "إن هذه السحابة لتستهلّ بنصر بني كعب".

يبرر طلبه بأنه لم يكن موجودًا في عهد الحديبية، ولذا يلزم توقيع عقد سلام جديد. ورأى الرسول ﷺ أن ليس من الحكمة قبول العذر. واهتاج أبو سفيان وذهب إلى المسجد وأعلن: أيها الناس إني قد جئت لتجديد الهدنة نيابة عن أهل مكة. فلم يفهم سكان المدينة معنى لقوله، فضحكوا منه. (الزرقاني)

وقال الرسول ﷺ لأبي سفيان إن كلامه من طرف واحد، وإن الطرف الآخر لم يوافق عليه. وأرسل الرسول ﷺ إخطارًا إلى كل القبائل، ولما تأكد له أنها على أهبة الاستعداد، أمر المسلمين أن يقوموا بتسليح أنفسهم والاستعداد.

وفي أول يناير بدأ زحف جيش المسلمين نحو مكة، وعند محطات مختلفة على الطريق انضمت إليه القبائل المسلمة الأخرى. وعندما دخل الجيش بريّة فاران بعد انقضاء عدة أيام قلائل، كان عدد المسلمين هو نفسه التي تنبأ به النبي سليمان عليه السلام من قبل، بعد أن تضخم حتى بلغ عشرة آلاف. وعندما تحرك هذا الجيش نحو مكة بدا الصمت المخيّم على كل مكان نذيرًا بالويل والثبور لأهل مكة. فأقنعوا أبا سفيان بالخروج مرة أخرى ليتبيّن نيّات المسلمين، فخرج ليجد كل الفلاة وقد أضاءتها نيران المعسكرات على مسيرة أقل من يوم من مكة. كان الرسول ﷺ قد أمر بإيقاد النار أمام كل خيْمة، فكانت تلك النيران ذات سعير مخيف في ظلام الليل وسكونه.

وسأل أبو سفيان أصحابه: ماذا يمكن أن يكون هذا؟ أهذا جيشٌ هبط من السماء؟ أنا لا أعرف جيشًا عربيًا بهذه الضخامة. وذكر أصحابه أسماء بعض القبائل، ومع كل اسم كان أبو سفيان يقول إن تلك القبيلة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

وبينما أبو سفيان ورفاقه يتأملون الأمر إذ صاح به صوت في الظلام:

"أبا حنظلة". (حنظلة كان اسم ولد لأبي سفيان وكان يُكنى به).

"العباس؟ أأنت هنا"؟ هكذا رد أبو سفيان وقد عرف الصوت.

"نعم"، رد العباس، "إنه جيش الرسول جاءكم بما لا قِبَل لكم به".

كان العباس وأبو سفيان صديقين قديمين، وأصرّ العباس أن يحمل أبا سفيان على بغلته معه ليذهبا إلى الرسول ﷺ. وأمسك بيدَي أبي سفيان وشده وجعله يركب الدابة، ثم همز البغلة التي انطلقت مسرعة لتصل إلى معسكر الرسول ﷺ. كان العباس يخشى أن يسقط عمر على أبي سفيان ويقتله، فقد كان عمر حارسًا لخيمة الرسول ﷺ، ولكنه ﷺ على سبيل الاحتياط كان قد أعطى أمره المعلن لكل من يلقى أبا سفيان ألا يحاول قتله. وأثّرت هذه الأحداث في نفس أبي سفيان بعمق شديد، لقد هزّته رفعة الشأن التي نال منها الإسلام حظًا عظيمًا. فها هنا كان الرجل الذي نُفي من مكة ليس معه إلا صاحب واحد. لقد مرّت سبع سنوات صعبة منذ ذلك اليوم، وها هو الآن يدق أبواب مكة مع عشرة آلاف من أتباعه المخلصين.

لقد انقلبت الموائد تمامًا، فالرسول ﷺ الذي خرج من مكة منذ سنوات سبع، هاربًا بدينه، قد عاد إلى مكة، وتقف أمامه مكة عاجزة كل العجز عن أن تقاوم عودته.

فتح مكة

ولعل أبا سفيان كان يتفكر بعجب: أليس هذا التغيير مذهلاً، إذ تم في سنوات سبع ليس إلا؟ وماذا عليه الآن أن يصنع كقائد لمكة؟ أيقاوم.. أم أنّ عليه الاستسلام؟ وأزعجته هذه الخواطر حتى بدا للناظر إليه ما يعانيه من دهشة وذهول.

وشاهد الرسول ﷺ هذا القائد المضطرب، فأمر العباس أن يذهب به وأن يستضيفه الليلة على وعد برؤيته في الغد، فأمضى أبو سفيان ليلته مع العباس. وفي الصباح استدعاهما رسول الله ﷺ، وكان ذلك في وقت صلاة الصبح، وفوجئ أبو سفيان بفوْرة النشاط والتحرّكات في تلك الساعة المبكرة، فلم يكن

من عادته هو ولا من عادة قومه أن يكونوا يقظين في هذا الصباح الباكر كما يفعل المسلمون بعد أن أصبحوا خاضعين لنظام الإسلام، ورأى المسلمين الذين هم في المعسكر جميعًا وقد أخذوا يتجهّزون لصلاتهم الصباحية، بعضهم يروح ويجئ بحثًا عن الماء للوضوء، والآخرون يشرفون على تسوية صفوف العابدين من أجل الصلاة. ولم يستطع أبو سفيان أن يستوْعب فهم هذه الحيوية الباكرة في الصباح، وخطر بباله خاطر مخيف؛ هل كانت هذه خطة جديدة لإدخال الرعب في قلبه؟

وسأل في ذهول وقلق بالغين: "ماذا يفعل كل هؤلاء"؟

وأجاب العباس: "لا شيء يدعو إلى الخوف، إنهم يستعدّون للصلاة ليس إلا".

ورأى أبو سفيان آلاف المسلمين وقد اصطفوا خلف رسول الله، يقتدون به ويفعلون مثلما يفعل، ركوعًا وسجودًا وقيامًا، وهكذا.

كان العباس في نوبة حراسته، لذلك كان حرًّا يمكنه أن يصحب أبا سفيان، وأن يبادله الحوار. وسأل أبو سفيان: "ماذا هم فاعلون الآن"؟

وأجابه العباس: "كل ما يفعله رسول الله يفعله الباقون مثله. ما ظنك بهذا؟ إنهم يطيعون كل ما يأمرهم به لتوهم، حتى لو أمرهم بترك طعامهم وشرابهم، فإنهم لفورهم يطيعون".

وأجاب أبو سفيان: "حقًّا! لقد رأيتُ عروشًا عظيمة، لقد رأيتُ بلاط كسرى وبلاط قيصر، ولكني لم أر شعبًا يحب قائده ويخلص له كما يفعل المسلمون لنبيّهم". (السيرة الحلبية ج٢ ص٩٠)

ومضى أبو سفيان يتساءل، وقد ملأه الخوف وتنازعه الإحساس بالذنب لكل ما حدث، وأفزعته مشاعر الخوف على ما يمكن أن يحدث لقومه وأهله في مكة،

فسأل عما إذا كان العباس محجمًا عن طلب العفو أو المغفرة لقومه، يعني بهم أهل مكة؟؟

وانتهت صلاة الفجر، وقاده العباس إلى الرسول ﷺ.

وسأل رسول الله ﷺ أبا سفيان: "ويحك يا أبا سفيان. ألم يأْن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله"؟ وأجابه أبو سفيان: "بأبي أنت وأمي. ما أحْلمَك وأكْرمَك وأوْصلك، لقد ظننتُ أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عني شيئًا بعد".

"ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله"؟

"بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأوصلك وأكرمك، أمّا هذه ففي النفس منها شيء".

وبينما كان أبو سفيان في تردده في الاعتراف برسول الله كرسول لرب العالمين، دخل في الإسلام اثنان من أصحابه الذين رافقوه في مسيرته من مكة، كان أحدهما حكيم بن حزام. ولم يلبث أبو سفيان بعدها إلا قليلاً ثم دخل هو أيضًا في دين الإسلام، لكن إذعانه الداخلي تأخر إلى أن تم فتح مكة.

وسأل حكيم بن حزام الرسول عما إذا كان المسلمون عازمين على قتل ذويهم في مكة؟ فأجابه بأنهم كانوا قساة على المسلمين، وأثبتوا أنهم لا عهد لهم، ونقضوا اتفاق السلام الذي عقدوه في الحديبية، وهاجموا خزاعة بوحشية، واستحلوا القتل في الحرم الذي عظّم الله حرمته. فأجاب حكيم بن حزام: إنه لَحَقٌ كل ما قاله، فقد فعل القوم كل ذلك تمامًا. واقترح عليه أن يغزو هوازن بدلاً من مسيره إلى مكة.

وأجابه الرسول بما يفيد أن هوازن كذلك كانوا قساة وهمجيين، وأنه يأمل أن يمكّنه الله تعالى من تحقيق أهداف ثلاثة: فتح مكة، وإشاعة الإسلام، وهزيمة هوازن.

إلى هذا الحد كان أبو سفيان جالسًا ينصت، وحينئذ سأل أبو سفيان رسول الله: "إذا لم تسلّ مكة سيفًا فهل ينالون السلام"؟

وأجابه الرسول ﷺ بالإيجاب، فمن أغلق عليه بابه فهو آمن. وهنا تدخل العباس قائلاً: "يا رسول الله. إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا".

قال: "نعم. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن".

وبعد إعلان هذه الكلمات نادى أبا رويحة وسلمه راية الإسلام، وكان أبو رويحة الأنصاري قد تآخى مع بلال، ذلك العبد الحبشى الذي صار ما صار. وقال الرسول ﷺ وهو يسلمه الراية: "ومن قام تحت هذه الراية فهو آمن".

وفي نفس الوقت وجّه الرسول أمره إلى بلال أن يمضى أمام أبي رويحة مناديًا لكل من يعنيه السلام أن هناك سلامًا تحت تلك الراية التي يحملها أبو رويحة.

رسول الله ﷺ يدخل مكة

كان كل شيء يمضي في ترتيب حكيم. عندما كان المسلمون يعذَّبون في مكة، كان بلال هدفًا سهلاً لهذا العذاب، فكان يُربط بحبل في قدميه ويُجَرّ في طرقات البلدة. لم تعط مكة سلامًا لبلال، وكل ما ناله منها هو الآلام البدنية والمهانة والنكران، ولنا أن نتخيل مدى الرغبة في الانتقام التي كان بلال يحسّها تملأ قلبه في يوم عودته ذاك إلى مكة حُرًّا عزيزًا.

وكان من الضروري أن ينال بلال فرصة ليثأر لنفسه من القسوة الوحشية التي ذاقها في مكة، ولكن في الحدود التي أحاط بها الإسلام رغبة الانتقام هذه. فلم يسمح له الرسول ﷺ بسل سيفه وضرب أعناق الذين اضطهدوه من قبل، فلم يكن ذلك من الإسلام، ولكنه بدلاً من ذلك، أعطى الراية، راية الإسلام، إلى أخي

بلال، وكلف بلالاً بمهمة عرض السلام على معذبيه السابقين تحت الراية التي يحملها أخوه. فما أروع ذلك الانتقام وما أجمله! ولنتخيّل صورة بلال يمشي بين يدي أخيه وهو يرفع صوته مناديًا أعداءه إلى السلام، وإزاء ذلك لم تكن هناك فرصة لرغبته في الانتقام أن تدوم طويلاً، ولا بد أنها ذابت شيئًا فشيئًا وهو يتقدّم مناديًا أهل مكة إلى السلام تحت الراية التي يرفعها أخوه عالية خفّاقة.

وأمر الرسول ﷺ العباس أن يأخذ أبا سفيان وصَحْبه إلى قمة مناسبة لاستعراض جيش الإسلام، ورؤية سلوكهم وشمائلهم. وفعل العباس ذلك، ومن زاوية مناسبة أمكن لأبي سفيان وصديقَيه أن يروا القبائل العربية وهي تمر عليهم وتمضي عنهم، ومعها يمضي ذلك العهد الذي كان فيه أهل مكة يجمعون ويحشدون للقضاء على الإسلام معتمدين على تلك القبائل نفسها التي تمر الآن جنودًا مجنّده للإيمان بدلاً من حشدها جنودًا للكفر، وإنهم الآن ليرفعون شعارات الإسلام لا شعارات أيام وثنيتهم، إنهم ليزحفون في تشكيلات عسكرية ليضعوا حياتهم فداء للرسول ﷺ لا لكي يقضوا على حياته، يزحفون لا لسفك دمه بل لسفك دمائهم دفاعًا عنه. لم يكن طموحهم في هذا اليوم يرنو إلى مقاومة الرسالة النبوية والحفاظ على وهم قومي أجوف، يتصوّر رسالة الرسول ﷺ تهديدًا له وخطرًا مضادًا للوطنية، بل كان طموحهم إلى حمل رسالة النور هذه إلى كل أنحاء العالم، تلك الرسالة التي طالما قاوموها، صار رجاؤهم الآن هو تأسيس وحدة إنسانية وتضامن وأخوّة تضم بني الإنسان.

وتمر الجموع والصفوف واحدًا بعد الآخر، حتى لاحت جموع قبيلة "أشجع" لعيون أبي سفيان، وكان يمكن للرائي أن يلمح في وجوههم آثار الإخلاص والتضحية بالذات والحماس الفائق، ولذلك كان هذا الحماس محسوسًا في نبرة تغنّيهم وإنشادهم لشعارات الإسلام.

ويسأل أبو سفيان: "من يكونون هؤلاء"؟

ويأتيه الجواب: "هذه قبيلة أشجع".

وبدأ أبو سفيان مندهشًا وهو يقول: "لم يكن أحد أعدَى لمحمد من هؤلاء".

وردّ العباس عليه بأن الفضل لله في ذلك، لقد غير الله قلوب العدوّ عندما رآهم مستعدين لذلك ومؤهلين للتغيير.

وأخيرًا، لاح مشهد الرسول ﷺ في كتيبته الخضراء، محاطا بالمهاجرين والأنصار مصفوفين قريبًا من ألفي مدرّع، والفاروق عمر يوجّه خطاهم نحو مكة. كان هذا المشهد هو الأكثر تأثيرًا بين كل المشاهد. كان إخلاص هؤلاء المسلمين وتصميمهم وحماسهم يبدو وقد فاق كل الحدود، فائضًا فائرًا يتدفّق غامرًا، وعندما وقعت عين أبي سفيان عليهم ملأه الخضوع والخشوع لفوْره، و لم يملك نفسه أن يسأل العباس قائلاً: "من كان هؤلاء"؟

وردّ العباس: "هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار".

وقال أبو سفيان: "ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة". ثم توجّه بالخطاب إلى العباس خاصة وقال: "لقد أصبح ابن أخيك اليوم أقوى ملِكٍ في العالم".

وردّ العباس: "يا أبا سفيان، لا تزال بعيد عن الحق. إنه ليس ملِكًا بل نبيّ الله".

قال أبو سفيان: "نعم نعم. إنه نبي وليس ملِكًا".

وخلال مرور جيش الإسلام على أبي سفيان، كانت راية الأنصار مع سعد بن عُبادة، فوقعت عيناه على أبي سفيان، و لم يستطع أن يقاوم كلمة اختلجت في نفسه فقال: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشًا". ولدى مرور الرسول ﷺ، رفع أبو سفيان صوته مخاطبًا الرسول قائلاً: "يا رسول الله! ألم تسمع ما قال سعد"؟ قال: "وما قال"؟ فقال: "قال كذا وكذا". فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: "يا رسول الله، ما نأمن أن يكون له في قريش

صوْلة". فقال رسول الله ﷺ: بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشًا. وهكذا عبر أبو سفيان للرسول ﷺ عن مخاوفه أن يسمح بمذبحة في عشيرته حسبما هدّد سعد وصحبه، دون أن يراعوا حرمة مكة، ورغِب في عفو الرسول وغفرانه، وما عُرف عنه من احترامه للإنسانية.

ولم يذهب رجاء أبي سفيان أدراج الرياح. إن هؤلاء المسلمين المخلصين الذين تعَوّدوا على الضرب والإهانة في طرقات مكة، وأُرغموا بذلك على ترك ممتلكاتهم ومنازلهم في تلك البلدة، بدأت تخالجهم مشاعر الرحمة نحو معذبيهم القدامى، حتى إنهم كانوا يخشون أن تكون للقصص الرهيبة التي رواها المهاجرون للأنصار عن التعذيب الوحشي وعن الاضطهاد الذي ذاقوه على يد أهل مكة، آثار بالغة باقية مع الزمن بحيث تدفعهم إلى الانتقام من أهل مكة على ما اقترفت أيديهم، وهذا ما عبر عنه سعد بن عبادة. وعبّروا عن مخاوفهم لرسول الله الذي تفهّم الموقف حالاً، والتفت إلى أبي سفيان ليبين له خطأ سعد ويصحح له الصورة المتوقعة، فلن يكون هذا يوم الانتقام، بل سيكون يوم الغفران. وأرسل إلى سعد يأمره أن يسلم راية الأنصار إلى ابنه قيس بن سعد، وهكذا انتقلت قيادة الأنصار من سعد إلى قيس. لقد كان قرارًا سديدًا وخطوة حكيمة، هدّأت من روْع أهل مكة، وفي نفس الوقت لم تخرج القيادة من الأنصار، فلقد كان القائد هو ابنه، وكان شابا نقيًّا ورعًا يحظى بالثقة الكاملة للرسول ﷺ. ويمكن تبين مدَى تقواه من حادثة متأخرة قبل موته، وكان يستقبل عُوّاده من الأصدقاء على فراش مرضه الذي مات فيه. ولاحظ أن بعضهم لم يأت ليعوده، ولم يفهم السبب، وسأل عنهم فقيل له: "إنك تداينُ الناس وبعضهم يخشى المطالبة إذا جاء يعودك". فقال: "إذن فأنا السبب في بعدهم عني. أعلِنوا على الملأ أن كل من يدين لقيس بديْن فهو له، ولا ديْن لي على أحد". وعقب هذا الإعلان تلقى قيس عددًا هائلاً من الزيارات والدعاء في أيامه الأخيرة، حتى انهارت درجات السلّم المؤدّية لبابه من كثرة الزوّار.

عندما اكتمل استعراض الجيش المسلم طلب العباس من أبي سفيان أن يسرع إلى مكة ليُعْلم أهلها بقدوم الرسول ﷺ، ويشرح لهم طريقة التأمين الذاتي لكل منهم. وبلغ أبو سفيان مكة فعلاً وبدأ يُعلن شروط السلام لبلدته. ولكن هند زوجته لقيته، وهي المشهورة بعدائها الشديد للمسلمين، وبكفرها العنيد، وكانت شجاعة، فأمسكت بلحية زوجها وقالت للناس: اقتلوه من زوج جبان. وهكذا اتهمته بالعار، ونادت الناس للثورة عليه قائلة إنه بدلاً من تحريك بلده للدفاع عن شرف بلدهم والتضحية بأرواحهم في سبيلها، فقد جاء يدعوهم للسلام.

ولكن أبا سفيان كان يرَى الحقيقة، ويرى زوجته تتصرف بحمق، ويرى أن هذا الزمن الذي تعيش فيه زوجته قد ولى، وأن عليها أن تذهب لمنْزلها لتقبع خلف بابه المغلق. وصاح في قومه: "لا تغرّنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به". وقال لهم إنه شاهد الجيش الذي جاء إلى مكة، وعرف نوعية مقاتليه، وأن أهل الجزيرة العربية بأكلمها لا يستطيعون أن يصمدوا أمامه. ثم أخذ يشرح لهم شروط السلام التي قررها الرسول ﷺ، والتي تحدّدت حدودها في الإعلان النبوي عن الأماكن الآمنة وكيفيّة نوال السلامة والأمن.

ولقد استثنى إعلان الأمان أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، كانت الأعمال التي اقترفوها بشعة للغاية. لم تكن جرائمهم أنهم كفروا، أو أنهم شاركوا في حرب ضد الإسلام، بل كانت أعمالاً مجرمة، بربرية لا إنسانية، لا يمكن تركها تمر دون عقاب. ولكن في النهاية، اقتصر الأمر على أربعة أشخاص فقط لقوا عقاب الموت.

كان رسول الله قد أمر خالدًا بن الوليد ألا يسمح بقتال إلا إذا قوتل هو أولاً، و لم يكن إعلان السلام وشروطه قد بلغت هذا الجزء من المدينة الذي دخل

منه خالد، واحتشد أهل هذا الجانب من مكة، وتحدّوا خالدًا ودعوه إلى القتال، وحدثت معركة سقط فيها اثنا عشر رجلاً أو ثلاثة عشر. كان خالد رجلاً ذا طبع حاد باتر، وخشي بعض الناس مغبّة ذلك، فأسرع بالخبر لرسول الله ليوقفه، فأرسل الرسول ﷺ لخالد ينهاه عن ذلك سائلاً إياه: "ألم أنهك عن القتال"؟ وأجاب خالد بالإيجاب، ولكن عذره أن هؤلاء الناس هاجموه أولاً وبدأوا برمي السهام، وأنه لم يفعل بهم شيئًا في البدء وبيَّن لهم أنه لا يريد قتالاً، ولكنهم لم ينصتوا ولم يتوقفوا عن الرماية، فاضطر للرد عليهم وتفريقهم. كانت هذه هي الواقعة الوحيدة المؤسفة في تلك المناسبة، ولكن من الناحية العملية وبوجه عام، يمكن اعتبار أن فتح مكة قد تم سلميًا دون إراقة دماء.

ودخل الرسول ﷺ مكة. وسألوه أين سيقيم، فسألهم عما إذا كان عقيل قد ترك دارًا أو منْزلاً في مكة. كان عقيل ابن عم الرسول ﷺ، وأثناء فترة غيابه بعد هجرته إلى المدينة، باع أقرباؤه كل بيوته، فلم يكن قد بقي مكان يمكن أن يعتبره الرسول ﷺ بيتًا له. لذلك قال لهم إنه سينْزل في خيف بني كنانة، وكان مكانًا مفتوحًا، حيث تعاهدت قريش وكنانة وأقسموا أنه ما لم يسلّم بنو هاشم وبنو عبد المطلب رسول الله إليهم يفعلون به ما شاءوا، فإنهم لن يتعاملوا مع القبيلتين، لا بيع ولا شراء معهم، فلجأ رسول الله وعائلته وأتباعه إلى شعب أبي طالب وعانوا مقاطعة مريرة استمرت مع حصار طال حتى بلغ السنوات الثلاث.

وهكذا كان المكان الذي اختاره الرسول ﷺ لإقامته ذا مغزى معيّن. لقد اجتمع أهل مكة هناك يومًا، وأقسموا أنه لن يقوم سلام مع عشيرته ما لم يقوموا بتسليمه إليهم. وها قد جاء الرسول ﷺ إلى نفس ذلك المكان، وكأنه قد جاء ليقول لهم: لقد كنتم تطلبونني، فها أنا ذا، ولكن ليس كما كنتم تريدون. لقد كنتم تريدونني سجينًا، مهينًا، ضعيفًا رهن رحمتكم. ولكن ها أنا ذا وقد منحني الله القوّة والمَنعة، فليست عشيرتي وحدها هي التي تقف معي، بل إن أهل الجزيرة العربية كلها يقفون إلى جواري. لقد كنتم تريدون من عشيرتي أن تُسلّمني

إليكم، ولكنهم بدلاً من ذلك قد سلّموكم أنتم إليّ.

كان يوم الفتح هذا هو يوم الاثنين، وهو نفس اليوم أيضًا الذي غادر فيه الرسول ﷺ وأبو بكر غار ثور في طريقهما إلى المدينة. في ذلك اليوم، ألقى ﷺ بنظرة على مكة وقال: "يا مكة، والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله، وأحب بلاد الله إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجت".

وحينما دخل الرسول ﷺ مكة، كان يمتطي ناقته، ويمشي بجواره أبو بكر وهو يتوكأ على عصا، بينما كان يتلو بعض الآيات الكريمة من سورة الفتح التي أنبأت بفتح مكة منذ سنوات مضت.

الكعبة تتطهر من الأصنام

توجّه الرسول ﷺ مباشرة إلى الكعبة المشرّفة وهو لا يزال على ناقته، فطاف سبع مرات حول البيت الذي بناه إبراهيم وابنه إسماعيل – عليهما السلام – من أجل عبادة الله الواحد الأحد، والذي بسبب ضلال ذريتهما قد تحوّل ذلك البيت ليكون مستودعًا للأصنام. وضرب الرسول ﷺ بعصاه الأصنام، الواحد تلو الآخر من تلك الأصنام التي بلغ عددها ثلاثمئة وستين صنما، وكلما سقط أحدها أو تحطم، كان ﷺ يتلو قوله تعالى: ﴿جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، وكانت هذه الآية الكريمة قد نزلت قبل أن يغادر الرسول ﷺ مكة إلى المدينة، وهي في سورة الإسراء التي جاء فيها ذكر خروج الرسول ﷺ من مكة ودخوله إليها مرة أخرى. وسورة الإسراء سورة مكّية، وقد اعترف بذلك الكُتّاب الغربيون أنفسهم. وكانت الآيات التي تذكر نبأ خروج الرسول ﷺ ودخوله، ومن ثم دخوله منتصرًا كما يلي:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ۞ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ

كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١، ٨٢)

لقد جاء ذكر فتح مكة هنا بصيغة دعاء أُمر الرسول ﷺ أن يدعو به، فقد أُمر أن يدعو لدخول مكة وللخروج منها، وأن يجعل له الله تعالى سلطانًا نصيرًا من لدنه على ذلك. ثم يتبع الدعاء تأكيد يقيني من لدن الله تعالى بصيغة الماضي، كأن الحدث قد تم بالفعل، أن الحق سوف يعلو وأن الباطل سوف يزهق. وقد تحققت النبوءة حرفيًا، وكان من المناسب أن يتلو أبو بكر رضي الله عنه آيات الكتاب الحكيم التي كانت تهز مشاعر المسلمين وتثير من فرحهم بتحقق وعد الله تعالى، وفي نفس الوقت تُذكّر أهل مكة بعدم جدوَى مقاومة أمر الله عز وجل، وبصدق الوعود التي وعد الله بها رسوله.

وبفتح مكة، عادت الكعبة لتقوم بالدور الذي بُنيَت من أجله منذ ألوف السنين من قبل إبراهيم عليه السلام. لقد عادت الكعبة المشرفة لتكون المكان المخصص لعبادة الله الواحد الذي لا شريك له. وتحطمت الأصنام، وكان أحدها هو الصنم الأكبر الذي كانوا يسمونه "هُبَل". ولما سدّد الرسول ﷺ إليه ضربة قوية بعصاه أوقعته فتناثر حطامه، ارتسمت على شفتي الزبير بن العوّام ابتسامة نظر على إثرها إلى أبي سفيان، وراح يذكّره بما حدث في معركة أُحُد، فقال: "هل تذكر ذلك اليوم الذي وقف فيه المسلمون مكلومين مُنهكين بجوار الجبل، ثم زدت أنت من آلامهم حين هتفت: اعْلُ هُبَل، اعْلُ هُبَل؛ فهل كان هبل الذي أعطاكم النصر في ذلك اليوم؟ لو كان ذلك فانظر إلى ما آل إليه هبل".

وتأثر أبو سفيان كثيرًا، واعترف بأنه لو كان هناك حقًّا ربٌّ غير ربّ محمد، لما آل أمرهم إلى الهزيمة والهوان التي أُصيبوا بها في ذلك اليوم.

وأمر الرسول ﷺ بإزالة الصوَر التي كانت تشوّه جدران الكعبة، وفور إصداره للأمر صلى ركعتين شكرًا لله، ثم انسحب إلى خارج الكعبة في الحرم المفتوح وصلى ركعتين أخريين. وكان ﷺ قد وكّل إلى عمر بن الخطاب أمر

إزالة الصور، فأزالها كلها وطمسها إلا صورة إبراهيم، وعندما عاد الرسول ﷺ ليتأكد من الإزالة وجد هذه الصورة سليمة فسأل عمر: لِمَ لم يُزِلها؟ ألم يذكر شهادة القرآن أن إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولكنه كان حنيفًا مسلمًا؟ (آل عمران: ٦٨). لقد كان إهانةً لذكرى إبراهيم عليه السلام، الذي كان رمزًا وعمادًا لدين التوحيد، أن تكون له هذه الصورة على جدران الكعبة، فقد كان وجود الصورة يوحي كما لو أن إبراهيم يمكن أن يُعبد مثل الله تعالى.

لقد كان يومًا مشهودًا، يوم فيه احتشدت آيات الله البيّنات، وها هي وعود الله التي بدت مستحيلة التحقيق يوم تلقاها الرسول ﷺ قد تحققت في النهاية. لقد كان الرسول ﷺ في ذلك اليوم مرْكزًا للحب والإيمان، فقد تجلّى الله جل جلاله من خلال شخص الرسول وأظهر وجهه الكريم كما فعل من قبل. وقد حدث أن أرسل الرسول ﷺ يطلب بعضًا من ماء زمزم، فشرب بعضه وتوضأ بالبقية. وكان المسلمون لشدة حبهم لشخص رسولهم الأكرم لا يسمحون لقطرة ماء أن تسقط من وضوء الرسول ﷺ إلى الأرض، فكانوا يتلقون الماء المتساقط في كفوف أيديهم ثم يبللوا به أجسامهم. وبهذه الطريقة من التوقير والاحترام كانوا يمنعون الماء من التساقط على الأرض. راح المشركون الذين رأوا ذلك المشهد يؤكدّون ويكرّرون في دهشة وعجب، أنهم لم يروا ملكًا من ملوك الأرض يحبّه شعبه كل هذا الحب (السيرة الحلبية ج٣ ص٩٩).

الرسول ﷺ يعفو عن أعدائه

بعد أن تمت كل الشعائر، توجّه الرسول ﷺ بالخطاب لأهل مكة قائلاً: "يا معشر قريش، ماذا ترون أني فاعل بكم"؟ لقد رأوا أن وعود الله تعالى التي كان يسردها على مسامعهم قد تحققت، وجاءت ساعة الحساب، لينالوا العقاب الذي يستحقونه على التعذيب والمظالم والبشاعات التي ارتكبوها ضد أناس لا ذنب لهم سوَى أنهم دعوهم إلى عبادة الله وحده وألا يشركوا به شيئًا.

وكان جوابهم عليه أنهم توقعوا منه معاملة كريمة، كما عامل يوسف إخوته الخاطئين.

لقد كانت مصادفة ذات معنى عميق أن يستعمل أهل مكة في طلبهم الصفح نفس الكلمات التي استخدمها الله تعالى في سورة يوسف، والتي نزلت إلى الرسول ﷺ قبل فتح مكة بعشر سنوات. وهنا يطلبون من الرسول ﷺ أن يعامل القساة الغلاظ الظالمين من أهل مكة كما عامل يوسف عليه السلام إخوته. وبسؤالهم أن يجزيهم كما جازى يوسف إخوته، اعترف أهل مكة أن النبي ﷺ كان مثيلاً ليوسف عليه السلام، وكما نصر الله تعالى يوسف على أخوته، فكذلك نصر الله تعالى رسوله على مكة.

وكان رد النبي ﷺ عليهم: لا تثريب عليكم اليوم. اذهبوا فأنتم الطلقاء". (ابن هشام)

وبينما كان الرسول ﷺ يعبر عن شكره لله ﷻ بتأديته شعائره سبحانه في بيته المحرّم بامتنان وتواضع وإخلاص وإقبال، وبينما كان يخاطب أهل مكة معلنًا قراره بالعفو والغفران عنهم وتناسي ما حدث، كانت بعض الهواجس تعتمل في فكر عقول نفر من الأنصار، وأصابهم القلق من مشاهد عودة الرسول ﷺ والمهاجرين إلى بلدهم وأهليهم وبيوتهم، وما تم من تصالح وتواصل ومحبة ونسيان لكل ما حدث، فراحوا يسائلون أنفسهم في قلق: هل كان الرسول ﷺ بسبيله لينفصل عن صحبتهم، وهم أصحابه ورفاقه في المحنة الذين أعطوا الإسلام مأواه الأول؟ هل كان الرسول ﷺ بسبيله ليستقر في مكة، وهي المدينة التي اضطرته لأن يفرّ منها ناجيًا بحياته؟ ولقد بدت لهم هذه المخاوف معقولة قريبة التحقيق، بما أن مكة قد فُتحت وأسلم أهلها، فلعل الرسول ﷺ قد مال إلى البقاء فيها.

وقد أخبر الله ﷻ نبيّه بكل هذه الهواجس التي راودت الأنصار، فرفع الرسول ﷺ رأسه ونظر إلى الأنصار، وقال لهم إنهم يظنون أنه قد غلبه الحنين إلى بلده

الذي يحبه وقومه الأقربين؟ فلما أجاب الأنصار بالإيجاب، رد عليهم مطمئنًا إياهم، وأزال هواجسهم بأن قال لهم إنه عبد الله ورسوله، فكيف يدَعهم وقد نصروه وضحّوا بحياتهم حين لم يكن له أحد في الأرض يمدّ له يد العون من أجل تثبيت الإيمان بالله تعالى، فكيف ينفصل عنهم ويعيش في مكان آخر. إنه ما كان له أن يترك مكة ثم يعود إليها، فإن المحيا محياهم والممات مماتهم.

وتأثر الأنصار بهذا التعبير الفريد عن الحب والولاء، فتغيرت مشاعرهم، واعتذروا نادمين لما خالجهم من هواجس تجاه الله ورسوله، ففاضت الدموع وبكوا وسألوا العفو عنهم، وذكروا أن السبب في تلك الهواجس هو إحساسهم بفقدان السلام إذا ترك رسول الله بلدهم وذهب لأيّ مكان آخر. وأجابهم الرسول ﷺ بأنه يقدّر مخاوفهم ومشاعرهم، وأن الله راض عنهم، ورسوله راض عنهم، لسلامة وبراءة مشاعرهم، وأنه يشكر لهم ولاءهم وإخلاصهم.

تُرى، ماذا كان شعور أهل مكة الذي انتابهم في تلك اللحظات؟ صحيح أنهم لم يذرفوا الدموع حبًّا، ولكن لا بد أن قلوبهم قد امتلأت ندمًا وأسفًا وأسىً. ألم ينبذوا هم بأيديهم هذه الجوهرة الغالية التي كانت موجودة في مكة مدينتهم؟

لقد حُقَّ لهم جميعًا أن يأسفوا عظيم الأسف، لأن الرسول ﷺ الذي عاد إلى مكة، قرر أن يتركها ليعود ثانية إلى المدينة، ولقد كان ذلك سببًا هائلاً كافيًا للشعور بالأسف والأسَى.

عكرمة يدخل الإسلام

كان من بين أولئك الذين لم يشملهم العفو العام بعض الأشخاص الذين نالوا عفو الرسول ﷺ بعد أن تشفّع لهم بعض الصحابة الكرام، وكان من هؤلاء الذين نالوا العفو عكرمة بن أبي جهل. كانت زوجة عكرمة قد أسلمت بقلبها، وقد تشفّعت لدى الرسول ﷺ لكي يعفو عن زوجها، فعفا عنه. وفي أثناء ذلك،

كان عكرمة قد هرب من مكة في طريقه لاجئًا إلى الحبشة. وخرجت زوجته تحاول اللحاق به، فأدركته قبل أن يركب البحر. فعنّفته وقالت له: "أهارب أنت من رجل ليّن كريم كرسول الله"؟

تعجّب عكرمة وسألها ما إذا كانت تظن أنه من الممكن حقًّا أن يعفو رسول الله عنه؟ وطمأنته زوجته أنه ﷺ سوف يعفو حتى عن رجل مثل عكرمة، وأنه في حقيقة الأمر قد عفا عنه بالفعل. وتخلى عكرمة عن عزمه الهروب إلى الحبشة، وعاد ليرى الرسول ﷺ. وعندما قابله قال له إن زوجته أخبرته بأن رسول الله يمكن أن يعفو حتى عن رجل مثله. فأخبره الرسول ﷺ بأن زوجته على حق، وأنه قد عفا عنه فعلاً.

وأدرك عكرمة أن إنسانًا يمكن أن يغفر لأشد أعدائه ضراوَة، لا يمكن أن يكون كذّابًا ولا مدّعيًا. ولذلك فقد أعلن على الفور قبوله الإسلام وهتف لسانه يعبر عما في وجدانه فقال: "أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك عبده ورسوله". وبعد أن قال ذلك غمره إحساس عميق بالندم والخجل لكل ما ارتكبه فأطرق برأسه وهو في حضرة رسول الله، حتى إن الرسول ﷺ راح يخفّف عنه، فقال له إنه لم يغفر له فحسب، بل إنه يريد أن يعبر له أيضًا عن تقديره له، وإنه لذلك يدعوه لكي يطلب منه ما يشاء من أمنية مما هو في وسعه أن يحققه له.

وأجاب عكرمة أنه ليس أحب إليه من أن يطلب من رسول الله أن يدعو الله له كي يغفر له ما اقترفت يداه من أعمال شائنة ضد الإسلام، وما ارتكبه من جرائم منكرة في حق رسول الله.

حينئذ دعا الرسولُ اللهَ تعالى أن يغفر عداوة عكرمة له، وأن يعفو عن كل السباب والإهانات التي تلفّظت بها شفتاه.

ونهض الرسول ﷺ ووضع عباءته على عكرمة، وقال إن من يأتي إليه مؤمنًا

بالله فهو منه، ويعتبر بيته بيتًا له.

لقد حققت المحادثة بين رسول الله وعكرمة رؤيا كان قد ذكرها الرسول ﷺ لأصحابه قبل عدة سنوات، إذ كان قد قال لهم إنه رأى رؤيا رأى نفسه فيها في الجنة ورأى عنقودًا من العنب، فلما سأل لمن هذا العنب قيل له إنه لأبي جهل. وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذه الرؤيا أثناء حديثه مع عكرمة، وقال إنه لم يفهم هذه الرؤيا في أول الأمر، إذ لم يفهم كيف يمكن لأبي جهل، وهو عدوّ المسلمين، أن يدخل الجنة، وكيف يمكن أن يقدّم له عنقود من العنب. ولكنه فهم الآن معنى تلك الرؤيا؛ إذ أن عنقود العنب كان لعكرمة، ولكنه شاهد الأب في الرؤيا بدلاً من الابن، وهو أمر يحدث عادة في الرؤَى والأحلام. (السيرة الحلبية ج٣، ص١٠٤)

كان من بين الحفنة من الأفراد الذين لم يشملهم العفو العام رجل كان قد تسبّب في مقتل زينب ابنة الرسول ﷺ، وكان اسمه حبّار، وكان قد قطع حزام سرج الجمل الذي كانت تركبه زينب، مما أدى إلى سقوطها إلى الأرض. ولما كانت حاملاً في ذلك الوقت، فقد أدى وقوعها من على الجمل إلى سقوط الجنين، ثم ماتت بعد ذلك بفترة قصيرة. وكانت هذه إحدى الجرائم التي ارتكبها حبّار والتي استحق بسببها العقاب. وقد جاء هذا الرجل إلى الرسول ﷺ وقال: "يا رسول الله.. لقد فررت منك وذهبت إلى فارس، ولكني فكرت في نفسي أن الله خلّصنا من الشرك وأنقذنا من الضلال، فلماذا لا أذهب إلى الرسول نفسه وأطلب منه العفو معترفًا بذنبي بدلاً من طلب اللجوء إلى الآخرين".

وتأثر الرسول ﷺ بما قاله حبّار، وعبر له عن عفوه إزاء كل ما فعل من قبل، ما دام الله تعالى قد غرس في قلبه حب الإسلام.

إن المرء لا يمكنه أن يصف الجرائم البشعة التي ارتكبها هؤلاء الناس ضد الإسلام والمسلمين، ومع ذلك، فقد عفا عنهم الرسول ﷺ ببساطة ويسر. وقد

حوّلت روح العفو هذه أشد الناس عداوة وأكثرهم قسوة إلى أولياء مخلصين للرسول ﷺ، قدموا حياتهم للدفاع عن الدين.

معركة حُنين

كان دخول الرسول ﷺ مكة مفاجئًا. وظل الخبر فترة قبل أن تعيه القبائل المجاورة لمكة وخاصة في الجنوب. وعند ما سمعوا به بدأوا يجمعون قواتهم ويُعدّون أنفسهم لقتال المسلمين. وكانت قبيلتا هوازن وثقيف تفخران بشجاعتهما وبطولاتهما. فاجتمعت القبيلتان وتشاورتا معًا، وبعد بعض المداولات، اختار الطرفان أميرًا عليهم هو "مالك بن عوف". وعندئذ قاموا بدعوة القبائل المحيطة لتنضم إليهم، وكان منهم قبيلة بني سعد، التي تنتمي إليها مُرضع الرسول (حليمة) عندما كان طفلاً عاش ونشأ بينهم. وقد قام رجال هذه القبيلة بجمع قواتهم واتجهوا إلى مكة، مصطحبين معهم أفراد أسرهم وممتلكاتهم، ولما سُئلوا عن سبب ذلك أجابوا بأن الجنود إذا ذكروا أسرهم وأزواجهم وما يملكون عند القتال أبوا أن يتراجعوا خوفًا على نسائهم من السبي وعلى مالهم من الغنيمة.

وهكذا كان إصرارهم على القتال والقضاء على المسلمين يبلغ هذا القدر من الشدة والتصميم. نزلت كل هذه القوات إلى وادي أوطاس، وكان أنسب مكان يمكن اتخاذه قاعدة للقتال، بسبب ملاجئه الطبيعية وتوافر العلف والماء، وسعة تصلح لمناورة الفرسان وتحركاتهم. وعندما علم الرسول ﷺ بذلك، أرسل صاحبه عبد الله بن أبي حدرد ليستطلع الأمر. وأبلغه عبد الله أن هناك حشدًا عسكريًا في هذا المكان وأن هناك تصميمًا يملكهم أن يقتلوا المسلمين أو يموتوا دون ذلك. وكانت هذه القبيلة معروفة بمهارتها في الرماية، وكانت القاعدة التي اختاروها أرضًا للمعركة توَفر لهم ميزة عظيمة في هذا الصدد. وتقدّم الرسول ﷺ إلى صفوان، أحد سادات مكة الأغنياء، وطلب منه بعض الأسلحة والدروع، فرد عليه صفوان قائلاً: "هل تظن أنك ترهبني بقوتك لأعطيك ما تريد"؟ فرد

الرسول ﷺ بما يفيد أنه لا يريد الاستيلاء على شيء، بل سيقترض ويعطيه الضمان المناسب. فرضي صفوان ووافق على إقراضه المواد المطلوبة، وجملة ما زوّد به الرسول كان ١٠٠ حلة مدرّعة وعددًا مناسبًا من السيوف. واستعار الرسول ﷺ ثلاثة آلاف رمح من ابن عمه نوفل بن الحارث، واقترض ثلاثين ألف درهم من عبد الله بن ربيعة (الموطأ، المسند، السيرة الحلبية).

وعندما اتخذ الجيش المسلم وجهته نحو هوازن، أعرب أهل مكة عن رغبتهم في الانضمام إليه، و لم يكونوا قد أسلموا بعد لكنهم وافقوا على أن يعيشوا تحت نظام الإسلام. وهكذا انضم ألفان منهم للمسلمين. وفي الطريق أتوا على مزار عربي شهير يسمى "ذات أنواط"، وهو شجرة عنب معمّرة يقدّسها العرب في هذا المكان، وعندما يشترون سلاحًا يذهبون به أولاً ويعلقونه في هذا المزار ليتلقى السلاح البركات. وعندما مر جيش الإسلام على هذا المكان صاح بعض الجنود: "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط". فاستنكر الرسول ﷺ ذلك وقال إنهم قالوا كما قال قوم موسى له لما جاوز الله بهم البحر: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، مشيرًا إلى قوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الآية ١٣٩)

رسول الله ﷺ ينادي كم

لم يدّخر الرسول ﷺ وسعًا في حثّ المسلمين أن يذكروا عظمة الله تعالى، وأن يتضرّعوا إليه لينجيهم من خرافات الأمم السابقة، وقبل أن يصل جيش المسلمين إلى "حُنين" كانت "هوازن" وحلفاؤها قد أعدّوا عددًا من الكمائن لمباغتة المسلمين بالهجوم، كما هو الحال في مرابض المدفعية المموّهة والحفر المستورة في الحرب الحديثة. كانوا قد بنوا سواتر وحوائط مموّهة، وكمنوا خلف

تلك الحوائط في الانتظار، بعد أن تركوا ممرًا ضيقًا للمسلمين ليمروا منه.

كان الجزء الأكبر من جيش العدوّ قد ذهب إلى هذه الكمائن، بينما اصطف عدد محدود منهم أمام إبلهم. وظن المسلمون أن عدد الأعداء قد اقتصر على من رأوهم، لذلك تقدموا للهجوم. وبعد أن توغلوا في تقدمهم، وأيقن العدوّ الكامن أن الهجوم عليهم بات سهلاً، فعلى الفور اصطف الجنود أمام إبلهم وهاجموا قلب جيش المسلمين، بينما أمطر الرماة المختفون ميْمنته وميْسرته بالسهام. هذا الهجوم المزدوَج للعدوّ لم يتحمّله أهل مكة الذين انضمّوا لجيش الرسول ﷺ طمعًا في فرصة لإظهار شجاعتهم، وفرّوا عائدين إلى مكة. كان المسلمون قد اعتادوا مواجهة الأوضاع المعقّدة الصعبة، ولكن عندما شق ألفان من الجنود طريقهم عبر الجيش المسلم وهم يمتطون خيلهم وإبلهم، سبّب ذلك ذعرًا في صدور الإبل والخيل لبقية الجيش. وتضاعف ذلك الذعر بشكل متصاعد عندما اشتدّ الضغط على الجيش من ثلاثة جوانب. وفي هذه الأثناء ثبت رسول الله واثنا عشر من أصحابه لا يتزحزحون. ولا يعني هذا أن كل الصحابة فرّوا من الميدان، فقد كان هناك مئة أو زهاؤها ممن لم يتراجعوا، لكنهم كانوا على بعد عن مكان الرسول ﷺ، ولكن الاثني عشر وحدهم كانوا يحيطون بالرسول ﷺ. وروَى أحد الصحابة أنه وأصدقاءه فعلوا كل ما استطاعوا لكي يلووا أعناق المطايا نحو ميدان المعركة، ولكن الرعب كان قد ملك المطايا، ولم يبد أن هناك نفعًا من أيّ جهد مبذول. لقد شدّوا الأعنّة لكن الخيل والإبل لم تطع، ولم تكن تتوجّه إلى جهة المعركة مهما همز وكرر عليها المهماز، بل كانت تتراجع أكثر وتشتد في الإباء. وروَى ذلك الصحابي أن قلبه كان يدق خوفًا أن يكون الرسول ﷺ قد أصابه مكروه، لكنه لم يكن يستطيع شيئًا. وكانت هذه هي الحال التي وجد كل الصحابة أنفسهم فيها.

لقد ثبت الرسول ﷺ نفسه في قلة من أصحابه، يتعرض لوابل السهام من ثلاثة جوانب، وكان خلفهم ممر ضيق للعبور لا يستطيع سوَى قلة أن يعبروا فيه

معًا، وترجّل أبو بكر عن دابّته وأمسك بعنان بغلة الرسول ﷺ وقال: "يا رسول الله، فلننسحب برهة ريثما يستجمع الجيش نفسه"، فأمره الرسول ﷺ أن يدع عنان البغلة، ثم ركضها في الممر الضيق نحو الأعداء والسهام تتطاير من الجانبين وهو يقول هاتفًا: ''أنا النبيّ لا كذبْ، أنا ابن عبد المطلب'' (البخاري).

هذه الكلمات التي قيلت في ذلك الوقت، وقالها الرسول ﷺ وهو يتعرّض للخطر في أقصى صوره وأقسى أشكاله، كان لها ثقلها ومغزاها، وهي تؤكد الحقيقة الصارخة أن الرسول ﷺ كان نبيًّا حقًّا، وليس في الأمر سحرٌ ولا حيلة. وهو بهذا التوكيد كان يقصد أنه لا يهاب الموت ولا يخشَى حتى انهيار آثار دعوته، فإن ظل سالمًا رغم كل هذه السهام التي تتطاير من حوله، فلا يجب بسبب ذلك أن ينسب إليه المسلمون أية صفة تأليهية، لأنه لم يكن أكثر من إنسان، فهو ابن عبد المطلب. لقد كان الرسول ﷺ حريصًا حرصًا مطلقًا على أن يميز لأصحابه بين الإيمان والخرافة، وأن يُرسّخ ذلك التمييز في أعماقهم، حتى ولو كان ذلك في أحلك الأوقات.

وبعد أن نطق بهذه الكلمات الخالدة، نادى على عمه العباس، وكان جهْوَريّ الصوت، وقال له: ''يا عباس، ناد في الناس''. وأمره أن ينادي المسلمين قائلاً: "إن رسول الله يناديكم".

ورفع العباس صوته الجهوَري، ووقع صوته الذي يحمل نداء الرسول ﷺ وقوع الرعد على السامعين، لم يقع النداء على آذان صمّاء بل على آذان ملهوفة، فأحدث فيهم أثرًا كما لو أن الكهرباء قد مستهم.

ونفس الصحابة الذين كانوا قد فقدوا كل حيلة إزاء حث مطاياهم نحو الميدان، بدأوا يشعرون أنهم ليسوا في هذا العالم، بل وكأنهم في العالم الآخر، في مواجهة الله ﷻ يوم الدين. ولم يعد صوت العباس يبدو لهم أنه صوت العباس نفسه، بل وكأنه صوت أحد ملائكة الله يطالبهم أن يقدموا حسابًا عن أعمالهم.

وحينئذ، لم يكن من شيء يمكن أن يمنعهم من العودة إلى ميدان المعركة مرة أخرى. لقد ترجّل الكثير منهم عن راحلته، مكتفيًا بالدرع والسيف مسرعًا إلى أرض المعركة، لا يبالي أين ذهبت مطيته. وبعضهم ضرب عنق الحيوان، وأسرع مترجّلاً إلى الرسول ﷺ. وقيل إن الأنصار أسرعوا وعطفوا إليه بسرعة الناقة الأم نحو وليدها إذا استغاث صارخًا. ولم يمض وقت طويل حتى اجتمع إلى الرسول ﷺ عدد من المسلمين، راح يتزايد حتى أحاط بالرسول ﷺ جمع من أصحابه. وبدأ القتال، ومرة أخرى تجرّع العدو مرارة الهزيمة وعانى الانكسار.

كان هناك مغزى عظيم لوجود أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بجانب الرسول ﷺ في هذا اليوم، فكان في ذلك إشارة إلهية وآية ربانية، آية على عظمة قدرة الله من جهة، ومن جهة أخرى كانت دليلاً على التأثير البالغ للرسول ﷺ في تزكية النفوس. فمنذ أيام قليلة كان أبو سفيان عدوًا لدودًا، يتعطش لدم الرسول ﷺ، ولكن ها هو الآن، كان نفس الشخص يقف بجانب الرسول ﷺ صديقًا وتابعًا وصاحبًا له. وعندما فرّت إبل العدو مذعورة مشتتة، ترجّل أبو سفيان عن جواده، وأمسك بسرْج بغلة الرسول ﷺ، وبدأ يتحرك على قدميه والسيف في يده والأخرى ممسكة بالركاب، يمشي بجانب الرسول ﷺ عازمًا ألا يدع أحدًا يقترب من شخص الرسول دون أن يدفعه ويقتله. ورأى الرسول ﷺ هذا التغيير في أبي سفيان وهو سعيد مندهش، وراح يتأمل بعمق هذا الدليل الجديد على عظمة قدرة الله ﷻ. فقد كان هذا الرجل عدوًّا للإسلام منذ أيام قلائل، ولكن التغير قد حدث، فها هنا هو يقف الآن بجانب الرسول ﷺ كأي جندي عادي، يمسك بركاب بغلة سيده، ويملؤه العزم والتصميم على أن يموت فداءً له. ورأى عباس ملامح الدهشة السعيدة في نظرة الرسول ﷺ إلى أبي سفيان فقال: "يا رسول الله؛ هذا أبو سفيان ابن عمك، وهو أخوك أيضًا. ألست سعيدًا به"؟ وأمّن الرسول ﷺ على قوله، ودعا بالمغفرة لأبي سفيان على كل ما فعله، ثم التفت إليه وناداه قائلاً: ''يا أخي''، عندها لم يملك أبو سفيان أن يتغلب على

العواطف الجياشة التي ملأت قلبه وفاضت في وجدانه، فانحنى ليقبّل قدم الرسول ﷺ في الركاب الذي يمسك به* (السيرة الحلبية).

وبعد معركة حُنين، أعاد الرسول ﷺ عُدّة الحرب التي كان قد اقترضها، وجعل للمقرضين منحة سخية تعادل أضعاف قيمة ما استعار منهم. وقد تأثر كثيرًا أولئك الذين أقرضوه العدة والسلاح، فقد مسّ شغاف قلوبهم هذا الاحترام الذي أبداه الرسول ﷺ عند إعادة ما اقترض، ولسخائه الكريم عند رد القرض، وأدركوا أن هذا الرجل ليس إنسانًا عاديًا، بل رجل يعتلي قمة خُلقية عالية، تجعل منه قدوة حسنة تفوق كل الآخرين. ولا عجب أن اعتنق صفوان الإسلام على الفور.

العدو الحقود يتحوّل إلى تابع مخلص

دائمًا ما تُذكّر موقعة حُنين المؤرخين بحادثة مهمة أخرى جرت أثناء تطور الأحداث. كان "شيْبة" من سكان مكة، وكان يعمل في خدمة الكعبة، واشترك في المعركة ضمن صفوف العدوّ. وكان يقول إن أمله الوحيد في هذه الموقعة عندما يلتقي الجيشان، أن يجد فرصة لقتل الرسول ﷺ. كان في قلبه تصميم جازم أن لو اتبع العالم كله هذا الرسول، ناهيك عن كل العرب، فسيظل هو يعارضه ويعارض الإسلام. وعندما حمي وطيس المعركة استل شيْبة سيفه وتقدم من الرسول ﷺ، وعندما صار قريبًا منه فوجئ برباطة جأشه تتبخر وشجاعته تتلاشَى، وبدأ عزمه يهتز وتصميمه يضطرب. ويحكي شيْبة أنه في هذه اللحظات رأى لهبًا يوشك أن يلتهمه، وسمع صوت الرسول ﷺ يقول له: "شيْبة.. اقترب مني". وعندما اقترب منه وضع الرسول ﷺ يده على صدر شيبة ومسح عليه في

* نذكّر القارئ مرة أخرى أن هذا الحادث لم يقع مع أبي سفيان بن حرب ﷺ بل مع أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ﷺ. (المترجم)

حنان ومحبة، وراح يدعو الله تعالى أن يطهّر صدر شيْبة من كل خاطر شيطاني. وحدث الانقلاب؛ وبهذه اللمسة الحنونة الصغيرة تلاشَى كلّ خاطر شيطاني من فكره، وتغيرت معها الكراهية وتبخرت العداوة، ومنذ تلك اللحظة شعر شيْبة أن رسول الله أحبّ لديه من كل شيء آخر في هذا العالم. وبعد هذا التحوّل الذي طرأ على شيبة، دعاه الرسول ﷺ أن يتقدم ويقاتل في سبيل الله. ويقول شيْبة: "في تلك اللحظة، كان كل ما يدور في خلدي من فكر هو أن أموت فداء للرسول ﷺ، حتى ولو كان أبي هو الذي يعترض طريقي، فلن أتردد لحظة أن أغمد سيفي في صدره". (السيرة الحلبية)

وتحرك الرسول ﷺ إلى الطائف، المدينة التي رجمته بالحجارة وطردته منها، وحاصرها ولكنه عدل عن ذلك نزولاً على مشورة بعض صحابته، وبعد مدة اعتنقت هذه المدينة الإسلام طائعة.

الرسول ﷺ يوَزّع الغنائم

بعد فتح مكة والنصر في حُنين، كان على الرسول ﷺ أن يقوم بتوزيع المال والثروة التي تراكمت من الغنائم والأموال المدفوعة فدية للأسرى. ولو تم الأمر على ما جرت العادة عليه، لتم توزيع الغنائم على الجنود المسلمين الذين اشتركوا في المعركة. ولكن في هذه المرة، وزّع الرسول ﷺ الغنائم على أهل مكة والمحيطين بها بدلاً من الجند المسلم المشترك في القتال.

كان بعض هؤلاء القوم مسلمين ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، وكان كثير منهم منكرين مجاهرين بالإنكار للرسول ﷺ. والذين أعلنوا إسلامهم كانوا حديثي عهد به، ولم يمارسوا بعد مبدأ إنكار الذات، ولا يعرفون كيف يكون الشخص بعد إسلامه مضحيًّا منكرًا لذاته. وبدلاً من اقتدائهم بالمثل الذي ضربه صحابة الرسول ﷺ أمامهم في نكران الذات والتضحية بها، وبدلاً من رد جميل المعاملة الطيبة التي لقوها من المسلمين؛ فإنهم على العكس أصبحوا أكثر طمعًا

وجشعًا من أيّ وقت مضى، وظلت مطالبهم من الرسول ﷺ تتكاثر. وشاع بينهم أن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة فانتزعوا رداءه فقال: لم يبق عندي ما أعطيكم. لو كان عندي شيء لوزعته عليكم. لست بخيلاً ولا خسيسًا.◈(البخاري: كتاب فرض الخمس)

ثم قام إلى جنب بعيره فأخذ من سنامه وبَرَة، فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها فقال: "أيها الناس، والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخُمُس، والخُمُس مردود عليكم" .. أي يُنفَق على المصالح العامة. (ابن هشام)

لقد ادّعى النقاد الحاقدون أن الرسول ﷺ تاقت نفسه أن يصبح ملكًا، وأن تكون له مملكة. ولكن فلنتصوّر أنه قد صار ملكًا وأنه كان محاطًا بشرذمة من الدهماء، فلو أن غايته كانت فعلاً أن يكون ملكًا وطمع أن تكون له مملكة، فهل كان يرضَى أن تعامله مجموعة من المتسولين بهذا الشكل، وأن يكون كريمًا في معاملته لهم كما كان هو؟ هل يضطر الملك للشرح والإيضاح وتقديم الأدلة والبيّنات؟ إن الأنبياء فقط ورسل الله تعالى هم الذين يقدّمون هذا المثل الكريم من السلوك المثالي.

إن كل الغنائم والأموال والمواد القيّمة التي كانت بسبيل التوزيع تم توزيعها بين المستحقين والفقراء، ورغم ذلك بقيَ هؤلاء الذين لا يشبعون، وراح البعض من الذين احتشدوا حول الرسول ﷺ يحتجّون على التوزيع، ويتهمونه بعدم العدالة.

ومنهم كان ذو الخويصرة، الذي اقترب من الرسول ﷺ قائلاً: "هذه قسمة ما عدل فيها، هذه قسمة ما أُريدَ بها وجه الله". فردّ عليه الرسول ﷺ قائلاً:

◈ نص الحديث: "أَعْطُونِي رِدَائِي، فَلَوْ كَانَ عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ (الشجر) نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلا كَذُوبًا وَلا جَبَانًا".

"ويلك! فمن يعدل إن لم أعدل؟" (مسلم: كتاب الزكاة)

كان المؤمنون الصادقون في ثورة وغضب لما سمعوه، وقال بعضهم بعد انصراف ذي الخويصرة: "إنه يستحق الموت، مُرنا فلنقتله يا رسول الله". فرد الرسول ﷺ بالرفض قائلاً ما معناه: "إذا استقبل قبلتنا و لم يفعل ما يوجب قتله فكيف نقتله؟" فقالوا إنه يبطن غير ما يظهر. فرد الرسول ﷺ قائلاً: ''إني لم أؤمر أن أشق عن صدور الناس''.

واستمر الرسول ﷺ يحدّث المؤمنين أن مثل هذا الرجل ومن يخرج على نهجه سيخرقون في الإسلام خرقًا واسعًا. وقد تحقّق ما قاله ﷺ. ففي زمن عليّ – كرم الله وجهه – الخليفة الرابع للإسلام، قام أمثال ذلك الرجل بتمرّد ضد الخليفة، وأحدثوا في الإسلام حدثًا، وصاروا قادة لطائفة مارقة مدانة من عموم المسلمين، وهم الخوارج.

بعد التعامل مع قبيلة هوازن، عاد الرسول ﷺ إلى المدينة. وكان يومًا عظيمًا آخر لأهلها. كان وصول الرسول ﷺ مهاجرًا لاجئًا من سوء معاملة مكة هو أحد أيامهم العظيمة، ولكن في هذا اليوم العظيم الآخر، كان الرسول ﷺ يدخل المدينة مليئًا بمشاعر الفرح، ويغمره تصميم واع ووعد مبذول أن يتخذ المدينة وطنًا له.

مكيدة أبي عامر الراهب

لقد حان الآن أن نلتفت إلى ما فعل رجل يسمى أبا عامر، وهو ينتمي إلى قبيلة الخزرج. وقد اكتسب عادة التفكر الصامت وكثرة ترديد أسماء الله من طول معايشته لليهود والنصارى. وبسبب هذه العادة اشتهر باسم أبي عامر الراهب، رغم أنه لم يكن مؤمنًا بالمسيحية. وعندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، فرَّ أبو عامر من المدينة وذهب إلى مكة. وعندما خضعت مكة للتأثير المتنامي للإسلام، بدأ أبو عامر يخطط لمؤامرة جديدة ضد الإسلام. فغير اسمه وعاداته

التقليدية في الملبس واستقر في قباء، وهي قرية قرب المدينة. وبسبب غيابه الطويل عن المدينة، وتغيير اسمه ومظهره وملابسه، لم يتعرف عليه أهل المدينة، ولكن المنافقين عرفوه وأقاموا معه علاقة سرية، فاتخذهم رجالاً موضع ثقته. ووضع بالتعاون معهم خطة للذهاب إلى الشام لتحميس وإثارة الحكام المسيحيين والمسيحيين العرب ليقوموا بمهاجمة المدينة المنوّرة. وبينما انخرط هو في مهمته الشريرة في الشمال فقد خطط لإشاعة الاستياء والرعب في المدينة. وقام فريق من المنافقين بنشر الإشاعات الكاذبة أن المدينة بسبيلها للوقوع فريسة للهجوم القادم من الشام. وقد قصد أبو عامر من خطته هذه أن يوقع بين المسلمين وأهل الشام المسيحيين لتقع الحرب بينهما، أو أن يقوم المسلمون من جانبهم بالهجوم على الشام متأثرين بما سمعوه. وأيّا كان الحال فسوف تنشب حرب بين الطرفين، الأمر الذي يسعد أبا عامر كثيرًا. وهكذا ذهب أبو عامر إلى الشام ليتم مهمته بعد أن أثار القبائل العربية المسيحية، ولم يدّخر أولياؤه المنافقون وسعًا في بثّ الإشاعات عن أرتال القوافل المسلحة التي قالوا إنها شوهدت متّجهة إلى المدينة لمهاجمتها، وحين ترقّب الناس ولم تظهر هذه القوات، لم يعدموا أن يجدوا تبريرًا يقدمونه.

حملة تبوك

ظلت هذه الإشاعات تتردد حتى ظن الرسول ﷺ أن الأمر يستحق أن يقود بنفسه جيشًا إلى الشام. كان ذلك الوقت من أصعب الأوقات، فقد كانت المجاعة تضرب أنحاء الجزيرة بسبب الجفاف، وكان محصول العام السابق من الحبوب والفاكهة قليلاً، ولم يكن محصول العام الحالي قد آن حصاده بعد. كانت نهاية سبتمبر أو بداية أكتوبر عندما اتخذ الرسول ﷺ طريقه لتنفيذ مهمته. وكان المنافقون يرون أن الإشاعة التي راجت هي من بنات أفكارهم، وأن خطتهم قد أثمرت في دفع المسلمين إلى الهجوم على الشام، إذا لم يهاجم أهلُ الشام المسلمين. وفي الحالتين فإن صراعًا ينشأ مع الإمبراطورية الرومانية العظيمة لن

يؤدي إلا إلى القضاء على المسلمين. كان درس مؤتة ماثلاً أمام عيونهم، ففي مؤتة اضطر المسلمون لمواجهة جيش ضخم لم ينجحوا حتى في الانسحاب من أمامه إلا بصعوبة بالغة. ووضع المنافقون آمالهم في خوض المسلمين غمار مؤتة ثانية، وربما فقد فيها الرسول ﷺ حياته. وبينما شغل المنافقون أنفسهم بنشر الإشاعات عن هجوم أهل الشام، لم يدّخروا وسعًا في بثّ الرعب في قلوب المسلمين وتسميم أفكارهم، قائلين إن بإمكان أهل الشام إعداد جيوش بالغة الضخامة لا قِبَل للمسلمين بها، وحثّوا المسلمين أن يمتنعوا عن الاشتراك في الحرب ضد الشام. كانت خطتهم هي أن يثيروا المسلمين ليخرجوا لحرب الشام من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يخيفوا المسلمين حتى لا يخرجوا بأعداد كبيرة. لقد أرادوا أن يخرج المسلمون للقاء جيش الشام، ولكن وهم ضعفاء، وذلك ليمنوا بهزيمة محققة. غير أنه ما إن أعلن الرسول ﷺ عزمه على قيادة جيشه في حملته الجديدة حتى سرَى الحماس قويًا عاليًا في المسلمين، ومضوا قدمًا يعرضون التضحية بحياتهم في سبيل دينهم. ولم يكن تسليح المسلمين مناسبًا لحرب كتلك، وكانوا خلوا من المال الكافي، وقليل من الأغنياء من كانت لديه القدرة للتبرّع من أجل الحرب، وتنافس أفراد المسلمين في إظهار روح التضحية فداء لإيمانهم. ورُوي أن الرسول ﷺ ناشد المسلمين تمويل الغزوة، فتنازل عثمان عن الجزء الأعظم من ثروته. وكانت مساهمته تقدر بألف دينار من الذهب، وساهم المسلمون الآخرون حسب استطاعتهم، وتم تزويد الجنود الفقراء بمطايا وسيوف ورماح لتسليحهم. وسرَى الحماس عاليًا. وجاء إلى الرسول ﷺ رجال من الأشعريين الذين هاجروا إلى المدينة من اليمن، وكانوا فقراء، فعرضوا الخدمة في صفوف الحملة وقالوا: "يا رسول الله خذنا معك، ولا نبتغي شيئًا إلا الوسيلة التي تحملنا". وقصّ القرآن قصّتهم وما عرضوه على الرسول ﷺ في قوله تعالى:

﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (التوبة:

(٩٢

والمعنى أنه لا لوم على الذين لم يخرجوا للقتال بسبب فقرهم إلى وسيلة الانتقال، وذهبوا إلى الرسول ﷺ ليزوّدهم بها فلم يستطع لأنه لم يكن يملكها، فعادوا آسفين لذلك باكين تفيض أعينهم بالدمع لعدم قدرتهم على المساهمة مع المسلمين في المعركة.

كان أبو موسى زعيمًا لهذه المجموعة، وعندما سُئل عما طلبوه من الرسول ﷺ قال: "لم نكن نطلب إبلاً ولا خيْلاً، بل طلبنا أحذية ونعالاً، فلم نكن نستطيع قطع الرحلة الطويلة حفاة الأقدام. ولو كنا نملك النعال وحدها لخرجنا مشاة وساهمنا في الحرب مع إخواننا المسلمين".

وعندما سلك الجيش طريقه نحو الشام، لم يكن المسلمون قد نسوا ما حدث وما عانوه في مؤتة، وكان القلق على سلامة الرسول ﷺ يملأ قلب كل مسلم. وقامت نساء المدينة بدورهن المنوط بهن، فحثّوا رجالهن والأبناء لينخرطوا في المعركة وشغلن بهذا التحريض. وحدث أن عاد أحد الصحابة إلى المدينة من سفره بعد أن كان الرسول ﷺ قد غادرها مع جيشه، ودخل الرجل إلى بيته يتوقع أن تلقاه زوجه بالتحية والود والعواطف التي تلقَى بها الزوجة زوجها عادة بعد غياب طويل. وشاهد زوجته في الفناء فتحرك ليعانقها ويقبلها، ولكنها رفعت يديها ودفعته عنها، ونظر الزوج المشدوه إلى زوجه وقال: "أهذه هي المعاملة التي يجب أن تلقى بها امرأةٌ زوجها بعد غياب طويل"؟ فقالت الزوجة: "ألا تخجل أن يكون رسول الله في حملة خطيرة وأنت مع زوجك في عناق وقُبَل؟ إن عليك أن تذهب إلى المعركة أولاً، ثم ننظر بعد ذلك إلى ما يجب". ويُروَى أن الصحابي خرج من بيته في الحال والتوّ ليشد رحله ويلحق بالرسول مسرعًا، فأدركه على مسيرة ثلاثة أيام.

ولعل المنافقين قد ظنوا أن الرسول ﷺ سينقض على جيوش الشام لفوره،

ودون أي تفكير، متأثرًا بإشاعاتهم التي لفّقوها ونشروها، ونسوا أنه كان حريصًا على تقديم المُثل والسُنن التي سوف تقتدي بها الأجيال التالية من التابعين في كل عصر يأتي بعده. وحين اقترب الرسول ﷺ من الشام توقف، وأرسل رجاله إلى اتجاهات مختلفة لاستطلاع الأحوال والشؤون. وعاد الرجال ليبلغوه بعدم وجود حشود في أي مكان. وقرر ﷺ العودة، ولكنه بقي أيامًا قليلة لإبرام اتفاقيات صلح مع بعض القبائل الحدودية.

استغرقت الرحلة ما يقرب من شهرين ونصف الشهر، ولم تقع حرب ولا حدث قتال. ولما رأى المنافقون أن خطتهم في إشعال نار الحرب بين المسلمين وأهل الشام قد فشلت، وعاد الرسول ﷺ آمنًا وسالمًا، خافوا أن تكون مكيدتهم قد انكشفت، وخافوا من العقوبة التي كانوا قد استحقوها بفعلتهم. لكن ذلك لم يجعلهم يكفّون عن آثامهم وخططهم الدنيئة، فأعدّوا مجموعة من الرجال وسلّحوهم، وكمنوا للرسول ﷺ على جانبي ممر ضيق لا يتسع إلا لراكب واحد في مكان لا يبعد كثيرًا عن المدينة. وجاء الوحي إلى الرسول ﷺ بالأمر حين اقترب الجيش من البقعة المذكورة، فأرسل أصحابه لاستطلاع الأمر. وشاهد الصحابة رجال الكمين مختفين على أهبة الاستعداد، وما إن رآهم رجال الكمين حتى هربوا مسرعين. وبلغ الخبر الرسول ﷺ غير أنه لم يقرر ملاحقتهم.

وبلغ الرسول ﷺ المدينة. وجاء المنافقون الذين تخلّفوا عن المعركة يقدموا الأعذار الواهية. وقَبِل الرسول ﷺ منهم، وأحس في نفس الوقت أن الوقت قد حان لفضح نفاقهم، وأمره الله أن يهدم مسجدهم الذي بنوه في قباء، والذي كانوا يستعملونه للقاء معًا في سرية لتدبير المكائد، ولم تتقرر لهم عقوبة أخرى سوى أن عليهم القيام بأداء صلواتهم مع سائر المسلمين.

ولدى عودته إلى المدينة، وجد الرسول ﷺ أن أهل الطائف قد خضعوا للإسلام. وتبعهم بقية قبائل العرب وافدين يعلنون الدخول في الإسلام. وفي

وقت جدّ قصير كان علم الإسلام يرفرف على كل الجزيرة العربية.

حجة الوداع

وفي السنة التاسعة للهجرة خرج الرسول ﷺ إلى مكة للحج، وفي يوم الحج الأكبر تلقى وحيًا يتضمن الآية القرآنية المشهورة التي تقول:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٤)

لقد قالت هذه الآية في واقع الأمر إن الرسالة التي جاء بها الرسول من ربه، وظل يؤكدها بقوله وفعله كل هذه الأيام الطويلة، هذه الرسالة قد كملت. إن كل جزء في هذه الرسالة كان بركة، والآن لقد كملت الرسالة وضمّت في ثناياها أعلى وأسمى بركة يمكن للإنسان أن ينالها من الله ﷻ. وتتلخص الرسالة في اسم "الإسلام" الذي يعني الاستسلام لله تعالى ونشر السلام، هذا الاستسلام ونشر السلام كان هو دين المسلم حيثما كان، دين الإنسانية جميعًا أو دين النوع الإنساني. وتلا الرسول الكريم ﷺ هذه الآية الكريمة في وادي المزدلفة حيث اجتمع الحجيج، وتوقف ﷺ في مِنى وهو في طريق عودته من المزدلفة في اليوم الحادي عشر من ذي الحجة. وواجه الرسول ﷺ الجمهور الحاشد من المسلمين، ووجه إليهم خطابه الشهير المعروف في التاريخ باسم خطبة الوداع وفيه قال:

''أيها الناس! اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا. إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، إنّ الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصيّته، ولا تجوز وصيّته في أكثر من الثلث.

إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم من آدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. الولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى

غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

أيها الناس! إن لنسائكم عليكم حقًّا، ولكم عليهن حق أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يُدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعظوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساء عندكم عوان. لا يملكن لأنفسهن شيئًا، أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله. فاتقوا الله في النساء واستوْصوا بهن خيرًا.

أيها الناس! استوْصوا بالأسارَى خيرًا، فهم إخوانكم وخَولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تطعمون، واكسوهم مما تلبسون. ومن فعل منهم خطأ و لم تغفر له فادفعه إلى أخيك ليكون عنده.

أيها الناس! اسمعوا قولي هذا وعوه، المسلم أخو المسلم، والناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوَى. (وبينما كان يقول ذلك شبك أصابع يديه معًا ورفعهما) وقال: الناس سواسية كأصابع اليدين فلا يفخر أحد على أحد.

ثم سأل الرسول ﷺ: أي شهر هذا؟ أي بلد هذا؟ أي يوم هذا؟

فأجاب المسلمون: إنه الشهر الحرام والبلد الحرام ويوم الحج المحرم.

فقال ﷺ: إن الله قد حرّم دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم كحُرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا إلى أن تلقوا ربكم، فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

وفي النهاية قال مختصرًا: بلِّغوا عني إلى أقصى الأرض، فرُبّ مبلَّغ أوعَى

من سامع، ورُبّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقهُ منه". (الستّ الصحاح والطبري وابن هشام والخميس)

لقد لخصت خطبة الرسول ﷺ هذه زُبدة تعاليم الإسلام وروحه. لقد أظهرت إلى أيّ مدى عميق كان الرسول ﷺ معنيًا بصالح الإنسان وسلام العالم، وكذلك إلى أيّ مدى كان عمق احترامه لحقوق النساء والمخلوقات الضعيفة الأخرى. لقد عرف الرسول أن موته صار قريبًا، ولقد تلقّى من الله تعالى ما يشير إلى قرب وفاته. وكان مما عبر عن حرصه وقلقه عليه واهتمامه به هو قلقه واهتمامه بالمعاملة التي تلقاها النساء من الرجال. واهتم بألا يغادر هذا العالم إلى الآخرة دون أن يحقق للنساء المكانة التي هي حق لهن. ومنذ ميلاد الإنسانية، والمرأة يُنظر إليها على أنها عبد وخادم للرجل. كان هذا هو همّ الرسول الأول، وهمه الثاني كان الأسير أو السجين الحربي. لقد كان يُنظر إليهم باطلاً على أنهم عبيد، وكانوا يتعرّضون لكل ألوان القسوة والعدوان، وأحسّ الرسول ﷺ أنه لا يصحّ له أن يغادر هذا العالم دون أن يؤكّد لأسرى الحرب حقوقهم التي هي لهم في نظر الله ﷻ. وكذلك سببت التفرقة بين الإنسان والإنسان حزنًا وغمًّا للرسول. وأحيانًا كانت التفرقة تصل إلى درجات لا يمكن أن تحتمل، إذ تم رفع بعض الناس إلى السماوات، وتم حطّ آخرين إلى أسفل سافلين.

إن الظروف التي أدّت لهذه التفرقة وعدم المساواة، هي نفسها التي أدّت إلى الخصومة والحرب بين أمّة وأمّة، وبين شعب وآخر. لقد تدبّر الرسول ﷺ بعمق كل هذه الصعوبات التي تعترض خير بني الإنسان، ورأى أنه ما لم يتم القضاء التام على روح التفرقة، فلا يمكن أن يتحقق التقدم، ولا يمكن أن يحلّ السلام في العالم حقًّا، ما لم يتم إزالة الظروف والقيود التي تشجّع شعبًا أن يغتصب حق شعب آخر، وأن يستلب أمواله ويزهق أرواحه؛ تلك الظروف التي تسود وتنتشر عندما تتحلل أخلاق الإنسان. كانت تعاليم الرسول ﷺ هنا أن الحياة الإنسانية والممتلكات الإنسانية لها نفس قداسة الأيام المعظمة والأشهر المقدسة والأماكن

المقدسة. ولم يحدث أن أظهر إنسان ما اهتمامًا كهذا ولا عناية كهذه بسعادة النساء، أو بحقوق الضعفاء، أو بالسلام بين أمة وأخرى؛ كما فعل نبيّ الإسلام، ولم يقم إنسانٌ أبدًا بنفس ما قام به الرسول ﷺ لترويج المساواة وإشاعتها بين الناس. ولم يملأ التوق الشديد قلب إنسان نحو خير الناس كما ملأ قلب الرسول محمد ﷺ. فلا عجب إذن أن الإسلام قد دعّم وساند دون تحفظ حقّ النساء لتحتفظ بما تمتلك من مال أو بما ترثه. ولم تستطع الأمم الأوروبية أن تتصوّر للنساء هذا الحق إلا بعد ١٣٠٠ سنة من مقدم الإسلام إلى الأرض. وكل مسلم يدخل الإسلام يصير لفوره أخًا لكل مسلم آخر، ولا يهم الأمّة التي كان منها ولا الشريعة التي كان عليها. والحرية والمساواة هما من المساهمات المميّزة التي قدّمتها الثقافة الإسلامية إلى العالم. وما أبعد التصورات التي تقدّمها الأديان الأخرى عن الحرية والمساواة، ما أبعدها عن ذلك الأفق الشامخ الذي بشّر به الإسلام وعلّمه للعالم وصار تجربة عملية مستقرّة. وفي مسجد المسلمين يقف الملك، وعالم الدين، والرجل العادي جنبًا إلى جنب، لهم نفس المكانة دون فرق بينهم، بينما تظهر تلك الفروق حتى يومنا هذا في أماكن العبادة لكل دين آخر، مهما ادّعت تلك الأمم والأديان أنها فعلت من أجل إعلاء حرية الإنسان والمساواة بين الناس، أكثر مما فعل الإسلام.

الرسول ﷺ يُلمّح عن قرب وفاته

في طريق العودة، كرر الرسول ﷺ على مسامع أصحابه أن وفاته باتت قريبة، وقال لهم إنه ليس إلا بشرًا مثلهم يوشك أن يأتيه داع إلى ربه، وقد أعلمه ربه أن نبيًّا يعيش نصف عمر نبيّ قبله◈، وإنه يظن أنه مفارِقٌ لهم ليجيب الداعي

◈ هذه ليست قاعدة عامة، وإنما كان الأمر خاصًا بالنبي ﷺ. ذلك لأنه قد ورد في الحديث أن عيسى عليه السلام عاش قرابة مئة وعشرين سنة. ولما كان النبي ﷺ قد بلغ عندها ٦٢ أو ٦٣ عامًا فأيقن أن أجله قريب. (الناشر)

وسيلحقون به. ثم سألهم: "فماذا أنتم قائلون"؟

ما إن سمع الصحابة ذلك حتى قالوا: "نقول إنك قد بلّغت وأحسنت، ونسأل الله أن يجزيك خير ما جازى نبيًّا عن أمّته، فسألهم قائلاً:

"أتشهدون ألا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الجنة والنار حق، وأن كل نفس ذائقة الموت، والآخرة حق، وأن الحساب حق، وأن كل نفس ميّتة سوف تبعث يومًا، ويحشرهم الله جميعًا؟" فأجاب الصحابة بالإيجاب، وأنهم يشهدون أن هذا كله حق.

عند ذلك اتجه الرسول ﷺ إلى ربه قائلاً: "اللهم قد بلّغتُ، اللهم فاشهدْ".

وعقب هذه الحجة، كان الشغل الشاغل للرسول ﷺ أن يعمل على تعليم أتباعه وأن يزكيهم بشكل عملي بأن يرفع من مستواهم الخلقي، ويصلح من سلوكهم، ويهذب من طباعهم. وصدر عنه عدة إشارات متكررة عن قرب لحوقه بربه، فأخذ في تهيئة المسلمين لهذا الأمر.

وفي أحد الأيام أبلغ المؤمنين أن الله قد أوحى إليه ما يلي:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (سورة النصر)

ويعني هذا أن الوقت قد جاء لكي يُقبل الناس بعون الله على اعتناق دين الإسلام، وفدًا بعد وفد، وفوجًا بعد فوج. ولذلك ينبغي للرسول وصحبه أن يتوجّهوا إلى الله بالحمد والتسبيح وطلب العفو عنهم، ليرفع سبحانه كل عقبة تعترض الطريق أمام جهود تأسيس الإيمان.

وذكر الرسول ﷺ لهم مثلاً في هذه الآونة: ''إن عبدًا قد خيره الله بين ما عنده أو أن يؤخره إلى حين، فاختار ما عند الله''. كان أبو بكر رضي الله عنه بين

السامعين، واستمع لهذا الخطاب في قلق بالغ وانفعال متوهج بالحماس. أما الحماس فكان حماس وإيمان المؤمن العظيم، وأما القلق فكان قلق الصديق المخلص والتابع الوفي. لقد رأى في الخطاب نذيرًا واضحًا بقرب موت رسول الله، فلم يتمالك نفسه وانهار باكيًا. ودُهش الصحابة الذين كانوا في المجلس لبكاء أبي بكر، إذ لم يكونوا قد بلغوا أعماق الكلمات ووقفوا عند ظاهرها. وسألوا ما خطب أبي بكر؟ إن الله يُبشر رسوله بالنصر القادم بينما هو يبكي. ونظر عُمر باستغراب إلى أبي بكر، وتعجّب كيف يسوق الرسول ﷺ أخبارًا سارة ثم يبكي هذا الشخص؟

ولكن رسول الله وحده كان يفهم ما يحدث. فأبو بكر كان هو الوحيد بين الناس الذي وعَى كلامه جيدًا، وهو الذي فهم معنى الرسالة بشكل صحيح. فالبشرَى بالنصر القادم كانت تحمل معها أيضًا نذيرًا بقرب وفاة الرسول ﷺ.

ومضَى رسول الله يقول لهم إن أبا بكر هو أحب الناس إليه، ولو كان متخذًا أحدًا خليلاً لاتخذ أبا بكر خليلاً، ولكنه اتخذ الله ﷻ خليلاً. ثم أمرهم أن يُغلقوا كل باب إلى المسجد إلا باب أبي بكر. ولم يعد هناك شك أن هذا الأمر الصادر للصحابة كان يتضمّن نبوءة عن المنصب الذي سيشغله أبو بكر ﷺ بعد رسول الله كخليفة له، فقد كان له أن يُترك بابه مفتوحًا بين المسجد وبيته كي يؤمّ المسلمين في الصلاة.

بعد هذا الموقف بسنوات، وعندما أصبح عمر ﷺ خليفة، سأل الصحابة عن معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾، ومن الواضح أنه تذكر الظروف التي علمهم الرسول ﷺ فيها معنى هذه الآية والآيات التالية لها، ولا بد أنه قد تذكر كيف أن أبا بكر وحده هو الذي وعَى مضمون هذه الآيات. وها هو عمر الآن يمتحن المسلمين عن معرفتهم بهذه الآيات، فهم لم يفهموها بكل عمقها حين نزلت، فهل يمكنهم الآن إدراك معناها؟!!

كان ابن عباس في الحادية عشرة من عمره حين نزلت هذه الآيات، وهو الآن في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، وبادر ابن عباس متطوّعًا بالإجابة فقال إن الآيات كانت تشير إلى نهاية أجل رسول الله حين أتم عمله وأدّى رسالته، فلم يرغب أن يطول به الأجل في هذا العالم. وكما أن الآيات تبشّر بقرب تحقّق النصر للإسلام، فلها وجه حزين آخر، وهو قرب مغادرة رسول الله لهذه الدنيا. وأكّد عُمر على كلام ابن عباس وأثنى عليه قائلاً إن أبا بكر وحده هو الذي فهم ذلك حينما نزلت هذه الآيات أول مرة.

الأيام الأخيرة في حياة رسول الله ﷺ

عندما اقترب اليوم الأخير الذي كتب الله على كل إنسان أن يواجهه، كان عمل الرسول ﷺ قد تم، واكتمل كل ما أراد الله تعالى أن يوحيه إليه من أجل سعادة الإنسان وفائدته. لقد نفخ ﷺ حياة جديدة في قومه بتأثير من روحه المتألقة، ونهضت إلى الوجود أمّة جديدة، مع أسلوب جديد للنظر إلى الحياة ومع أُسس وموازين جديدة للمجتمع الإنساني. وباختصار، لقد خلق الله أرضًا جديدة وسماء جديدة، ووُضعت الأسس لنظام جديد. لقد تم حرث الأرض وريّها، وتم بذر البذور في التربة مقدمة لحصاد جديد. وها هو الحصاد قد بدأ الآن يلوح للأعين، ولكن، لم يكن للرسول ﷺ نفسه أن يحصد. كان عليه فقط أن يحرث ويغرس ويسقي. لقد جاء كعامل كادح، وظل عاملاً كادحًا، وسيغادر الآن حقله.. مجرد عامل كادح. ولقد وجد أجره الحق في رضا الله خالقه، وفي قبول مولاه لعمله، وليس في شيء من حطام هذه الدنيا. وعندما جاء وقت الحصاد، فضّل أن يلحق بربه تاركًا الحصاد للآخرين.

وثقل المرض على الرسول ﷺ. واستمر أيامًا يزور المسجد ويؤم الصلاة، حتى صار أضعف من أن يستطيع ذلك أيضًا. وكان أصحابه قد تعوّدوا صحبته، ولم يكن سهلاً عليهم أن يصدقوا أنه قد يموت، لكنه كان يخبرهم مرارًا عن موته.

وحدث ذات يوم أن أشار إلى هذا الأمر فقال: "من أخطأ إلى أخيه فليقصّه في هذا العالم قبل ألا يكون ثمة دينار ولا درهم. ومن كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه". وتأثر الصحابة فبكوا، وانحدرت الدموع من مآقيهم، فكم تحمّل هذا الإنسان العظيم من الآلام، وكم عانى من أجلهم فوق ما يحتمل.

لقد عانى واحتمل الجوع والعطش كي يستطيع الآخرون أن يَطعموا ويرتووا. ولقد أصلح ما تمزّق من ثيابه، ورقّع حذاءه كي يتمكن آخرون أن يرتدوا زيًا حسنًا، ثم ها هو الآن يطلب منهم أن يقتصّوا من أخطاء متخيلة محتملة، ربما يكون قد اقترفها بحق شخص آخر. فيا لله! ما كان أعظم احترامه لحقوق الآخرين، وما أبلغ حرصه على أن ينال كل إنسان حقه، مهما كان!

وتلقى الصحابة عرض الرسول ﷺ للقصاص في صمت وقور، ولكن أحدهم تقدم قائلاً: "بلى يا رسول الله، لقد ضربتني في جانب بطني حين مررتَ على الصفّ في المعركة فوكزتني، إنك لم تتعمد ذلك ولكنك ذكرتَ أن نقتصّ منك حتى ولو كان الأذَى غير مقصود، فأقدني هذا الخطأ، يا رسول الله". وامتلأت قلوب الصحابة سُخطًا وغضبًا لذلك الطلب. لقد تلقّى جميع الصحابة الحاضرين عرض رسول الله بصمت حزين وقلوب منكسرة، فكيف لهذا الرجل الأحمق ألا يفهم روح السموّ في ذلك العرض النبيل، أو يغفل عن إدراك معنى هذه اللحظة المهيبة؟

لكن الصحابي بدا عنيدًا مصرًا على أن يطالب الرسول ﷺ بالتنفيذ الحرفي لما نطق به. فدعاه الرسول ﷺ ليأخذ منه حقه ويقتصّ منه. فطلب الرجل من الرسول ﷺ أن يكشف له ظهره، لأنه حين وكزه، وكزه على اللحم. فاستجاب له الرسول ﷺ، وكشف عن ظهره، وطلب منه أن يضربه كما ضربه.

ولكن بدلاً من الاقتصاص، إذا بالصحابي ينحني على ظهر الرسول ﷺ بعيون

دامعة ويقبّله. فتساءل الرسول ﷺ عما يفعله، فقال الرجل إنه فهم من كلام رسول الله أن أيامه صارت معدودة، وربما لن تتاح لهم فرصة مثل تلك مرة أخرى ليعبروا له عن مدى الحبّ والمودّة التي يحملونها له في قلوبهم، وصحيح أن رسول الله كان قد وكزه مرة دون قصد، ولكن من ذا الذي يمكن أن يفكر في أن يقتص لذلك من رسول الله. لقد خطرت هذه الفكرة على باله في التوّ والحال، فرأى أن ينتهز الفرصة ويقبّل جسد رسول الله بحجّة الاقتصاص.

أما بقية الصحابة الذين كانوا يغالبون دموعهم، فقد تمنوا لو أن تلك الفكرة قد خطرت أيضًا على بالهم.

اللحاق بالرفيق الأعلى

كان المرض يشتد بالرسول ﷺ وتتطوّر حاله بشكل يزداد معه اقترابه من الموت. وكان الحزن والألم يخيّمان على قلوب الصحابة. كانت الشمس التي طلعت على سماء المدينة تتألق ساطعة كما كانت تتألق كل يوم، ولكنها كانت تبدو في عيون الصحابة شاحبة، يزداد شحوبها يومًا بعد يوم. ثم جاء يوم انبثق صباحه كما كان ينبثق صباح كل يوم، ولكن الصحابة رأوه صباحًا يجلب معه الظلمة لا النور، فقد جاء أخيرًا أوان مغادرة الروح الكريمة لإطارها المادّي كي تلحق بخالقها الرحيم. ومع مرور الوقت، صار تنفّسه ﷺ أصعب، وكان يقضي أيامه الأخيرة في غرفة السيدة عائشة، فطلب منها أن ترفع رأسه قليلاً نحوها، ففعلت لما عبّر لها عن صعوبة تنفسه. وجلست وهي تضم رأسه إليها.

وبدأت تشتد عليه سكرات الموت، وارتعش بشدة وعيناه تدوران هنا وهناك، وهو يردد: "لعَن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد". وكأن هذه كانت وصيّته الأخيرة لأتباعه ولأمّته وهو على فراش الموت. وكأنه أراد أن يقول لهم إنهم سوف يعلمون ويشهدون أن الله تعالى قد فضّله على سائر الأنبياء، وجعل مسعاه هو الأنجح، ولكن عليهم أن يحذروا أن يجعلوا قبره قِبلة

للعبادة، وعليهم أن يدعوا قبره مجرّد قبر، وليعبد الآخرون قبور أنبيائهم ويحجّوا إليها ويجعلوها أماكن لتقديم القرابين ليكفّروا عن خطاياهم لديها وينسبوا إليها المحامد والشكران. إن للآخرين أن يفعلوا ذلك، وأمّا أمّته فلا يليق بها ذلك، فعليهم أن يذكروا قبلتهم الحقيقية، ألا وهي عبادة الله، ولا أحد غير الله الذي لا إله غيره.

وبعد أن أنذر الرسول ﷺ الأمّة، وحمّلهم واجبهم وعرّفهم مسؤولياتهم، وهي أن يحرسوا المبدأ الأسمى في الحياة وهو وحدانية الله تعالى وواجب التفريق بين الله والإنسان، بدأ بعدها يغلق عينيه، وكل ما قاله حينئذ: ''مع الذين أنعمتَ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى''. وبعدها أسلم الروح.

وبلغت الأخبار المسجد حيث كان كثير من الصحابة مجتمعين، بعد أن تركوا كل شؤونهم الخاصة وجاءوا إلى المسجد يتوقعون أخبارًا حسنة بدلاً مما سمعوه عن موت رسول الله، وكان لوقع النبأ عليهم أثر نزول الصاعقة من السماء. لم يكن أبو بكر رضي الله عنه هناك ساعتئذ، وكان عمر رضي الله عنه في المسجد، ولكن الحزن قد أصابه بالذهول التام، فكان يغضب كل الغضب إذا سمع أحدًا يقول إنّ رسول الله قد مات، بل سلّ سيفه وهدّد به من يقول ذلك. إذ كان يرى أنه لا زال هناك الكثير من العمل ليقوم به الرسول ﷺ، وعلى ذلك فلا يمكن أن يموت، ولا بد أن روحه فارقت جسده ليلقَى خالقه كما ذهب موسى عليه السلام للقاء ربه ثم عاد، لذلك فلا بد من عودة رسول الله ليتم العمل، فهناك المنافقون مثلاً لم يتم حسم أمرهم بعد، فلَيرجعن رسول الله، فليقطعن أيدي وأرجل أولئك الذين يزعمون أنه مات. هكذا كان عمر تتجاذبه الخواطر والأفكار، يذهب ويجيء والسيف في يده كأنه قد فقد عقله وهو يتمتم ببعض الكلمات، فكان يقول: "من قال إن رسول الله مات ضربت عنقه".

ومال بعض الصحابة إلى تصديق قول عمر، بل لعلهم كانوا يأملون أن يكون محقًّا في كلامه، ولعل هناك خطأ ما، ولعل النبيّ لا يمكن له أن يموت.

وهرع بعض الصحابة ليبحثوا عن أبي بكر ﷺ، فلما وجدوه وأخبروه بالأمر اتخذ أبو بكر طريقه مباشرة إلى المسجد، ولم يكلم أحدًا حتى دخل على عائشة في غرفتها فسألها: "هل مات رسول الله"؟ فأجابت عائشة بالإيجاب. فقصد إلى حيث كان جسد رسول الله مُسجّى على فراشه، فكشف عن وجهه وأكبّ عليه فقبّله وبكى حبيبه حزينًا وقال: "بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين أبدًا".

كانت جملة عميقة المغزَى غنيّة المعنى، فكانت ردًّا على ما كان عمر يردّده في حزنه دون وعي، فالنبي ﷺ قد مات مرة، وكان هذا هو موت الجسد، الموت الذي على كل إنسان أن يذوقه، ولكن لم يكن له أن يذوق موتًا ثانيًا، فليس عليه بعد ذلك من موت تذوقه الروح، كما أنه لن تموت عقائد الحق التي غرسها في أتباعه، ولن يموت النبت الذي تحمّل التعب والآلام من أجل زراعته في تربة هذا العالم. وإحدى هذه العقائد.. إحدى العقائد الهامة.. هي ما علمهم من أن كل الأنبياء كانوا من البشر، وأن البشر لا بد أن يموتوا، ولا يصح للمسلمين أن ينسوا هذه الحقيقة فوْر موت نبيهم ورسولهم.

وخرج أبو بكر ﷺ بعد أن قال هذه العبارة العظيمة عند جثمان رسول الله، واخترق صفوف المسلمين وتقدم من المنبر صامتا. وعندما نهض ليتكلم، وقف عمر إزاءه وسيفه في يده، وعبّر عن عزمه أن يضرب عنق أبي بكر لو قال إن الرسول ﷺ قد مات. وبدأ أبو بكر في الكلام فأمسك عمر بتلابيب ثوبه ليمنعه من الكلام، فنَزَع أبو بكر ثوبه من يد عمر، وتلا هذه الآية الكريمة:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِه الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا

وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾(آل عمران:١٤٥)

وهذا يعني أن رسول الله هو إنسان يحمل رسالة من الله تعالى، وقد كان هناك رسل آخرون، كلهم من البشر، وكانوا يحملون رسائل من الله تعالى، وقد ماتوا جميعًا. فهل لو مات محمد تنقلبون على كل ما علّمكم إياه وكل ما تلقيتموه منه؟ لقد نزلت هذه الآية بعد معركة أُحُد، عندما سرَت إشاعة بأن العدوّ قد قتل رسول الله، وأدّى ذلك إلى أن الكثير من المسلمين فقدوا لبّهم ورباطة جأشهم وانسحبوا من أرض المعركة. لقد نزلت الآية من السماء وقتها لتربط على قلوبهم وتشدّ رباطهم، وكان للآية نفس التأثير في هذه المناسبة، في ذلك اليوم الحزين. وأضاف أبو بكر بعد تلاوة الآية الكريمة فقال: "من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت".

استعاد الصحابة توازنهم لدى سماع ذلك، وتغير عُمر نفسه عندما سمع الآية التي تلاها أبو بكر، وبدأ يستعيد رجاحة عقله التي غابت عنه بعض الوقت. وعندما انتهَى أبو بكر من كلامه، أدرك عمر أن الرسول ﷺ قد مات فعلاً. وما إن تكشفت له الحقيقة الحزينة إلا وبدأت ساقاه ترتعشان وسرعان ما سقط مغشيًا عليه. هكذا كان الرجل الصلب القوي، الذي أراد أن يتصدّى لأبي بكر ويرهبه بسيفه المسلول في يده، إذا به يتحوّل بعد سماعه كلمات أبي بكر إلى إنسان لا يقوَى على الوقوف على قدميه، ولم يجد بُدًّا من أن يذعن للحقيقة الحزينة. وأحس الصحابة أن هذه الآية لم تنْزل إلا في ذلك اليوم لأوّل مرة، وكان لها أثر بالغ ووقع عظيم عليهم، وفي نوبة حزنهم العميق الذي ملأ نفوسهم، وفي غمْرة الأسَى الحزين الذي عمّ وجدانهم، نسوا من هول مصابهم أن الآية الكريمة كانت في القرآن المجيد.

لقد عبر الكثيرون عن الحزن الذي أصاب المسلمين عند وفاة الرسول ﷺ، كما رثاه الكثيرون من الأدباء والشعراء، ولكن الرثاء الأعظم الذي ظل حتى

اليوم يفوق كل ما قاله الآخرون في رثاء الرسول ﷺ وفي التعبير عن حزن المسلمين، كان هو ما عبّر به حسان بن ثابت، شاعر الرسول ﷺ الذي أفصح عن حزنه في مقطع من الشعر يقول فيه:

كنتَ السّوَاد لناظري فعمَى عليك الناظرُ

من شاء بعدك فليمت فعليك كنتُ أحاذرُ

لقد عبر هذا المقطع عن إحساس كل مسلم. ولعدة شهور بعد ذلك.. ظل الرجال والنساء والصبيان ينشدون هذا المقطع الشعري في جنبات المدينة وفي طرقاتها، وظلت كل طريق خطا عليها رسول الله، وكلّ حبة رمل سار فوقها، تردّد صدَى ذلك الشعر الرقيق الذي أنشده حسان بن ثابت.

شخصية رسول الله ﷺ وأخلاقه

بعد أن قمنا بعرض مختصر للأحداث البارزة في حياة النبيّ الأكرم ﷺ، نقدّم الآن محاولة لعرض الخطوط العامة للملامح التي تميّز سلوكه الخلقي. ولدينا في هذا الشأن شهادة قومه التي أقروا بها قبل دعواه بالنبوة، ففي تلك المرحلة كان معروفًا في قومه "بالصادق" و "الأمين". (ابن هشام)

ولا شك أن في كل عصر عاشت أعداد كبيرة من الناس دون أن يتّهمهم أحد بعدم الأمانة، وهناك أيضًا أعداد كبيرة من البشر لم يحدث لهم أن تعرّضوا للتجربة والامتحان، وكان سلوكهم في مجالاتهم العادية يتّسم بالأمانة والنّزاهة، ولكن لا يعتبر الناس أنهم يتميّزون بشيء خاص في هذا الصدد، إذ أن من يستحق أن ينال التميّز الخاص هم أولئك الذين تفيض حياتهم الشخصية بدرجة عالية من صفات الخلق السامي الكريم.

إن كل جندي يدخل المعركة يضع حياته في مهب الأخطار، ولكن ليس كل جندي بريطاني ينال وسام الملكة فيكتوريا، ولا يستحق كل جندي ألماني وسام الصليب الحديدي. وهناك مئات الألوف من الناس في فرنسا يعملون في وظائف تستدعي منهم استعمال العقل والتفكير، ولكن لا يفوز كل منهم بوسام الشرف. وعلى هذا فإن مجرد أن يكون الإنسان أمينًا أو صادقًا لا يدل على أنه يتميّز بشيء خاص عن سائر الناس، ولكن عندما يقوم شعب بأكمله بالإجماع على منح شخص لقب "الصادق" و"الأمين"، فإن هذا يدل على أنه بلغ في الأمانة والصدق مبلغًا عظيمًا، وأن له في الصدق والأمانة خواصًا استثنائية خارقة عهدها الناس عليه. ولو كان من عادة أهل مكة أن يمنحوا تميّزًا كهذا لشخص ما في كل جيل من الأجيال، فحتى حينذاك لا بد أن يكون ذلك الشخص قد بلغ شأنًا عاليًا في خصال الصدق والأمانة. ولكن تاريخ مكة، بل وتاريخ الجزيرة العربية كلها، لا يشير من قريب أو بعيد إلى أن العرب قد اعتادوا منح هذه

الألقاب أو ما يشابهها في أيّ جيل من أجيالهم. ولكن على العكس من ذلك، إن تاريخ العرب يبين أنه لم يحدث أنهم أطلقوا لقب "الصادق" أو "الأمين" على أحد سوَى الرسول ﷺ، مما يدل على أنه ﷺ قد بلغ في هذا الشأن سموًا لم يبلغه أحد، ونال رفعة لم يصل إليها سواه، حتى إن ذاكرة قومه لم تعرف شخصًا يساويه في هذا المضمار، ولا رأت عيونهم إنسانًا يباريه في هذا المجال. لقد كان العرب معروفين بتوقّد الذهن، وإذا ما اختاروا شيئًا واعتبروه نادر المثال، فهو في الحقيقة إذن فريد نادر المثال.

وعندما دعا الله تعالى رسوله الكريم ليحمّله أعباء النبوة ومسئولياتها، فإن زوجه السيدة خديجة – رضي الله تعالى عنها – راحت تشهد بصفاته الخلقية الراقية، وهي حادثة سبق الإشارة إليها في سيرته التي أسلفنا ذكرها. وسوف نقدّم الآن بعضًا من صفاته الأخلاقية العالية، ليستطيع القارئ أن يقدّر رسول الله حق قدره في تلك المجالات التي لم يتمّ التعريف بها.

طهارة الفكر ونظافة البدن

يُروَى عن الرسول ﷺ أنه كان نقيّ الحديث دائمًا، وأنه لم يكن يستعمل القسَم تلو القسَم لتوكيد كلامه، كما كان معاصروه غالبًا يفعلون. ولم يكن هذا بالأمر العادي بين العرب، ولا يعني هذا أن العرب في عصر الرسول ﷺ كانوا يعتادون الكلام البذيء، ولكن مما لا شك فيه أنهم كانوا معتادين على الكلام الذي يشوبه الكثير من الأيْمان المغلّظة، وهي عادة تمكنت منهم حتى إلى أيامنا هذه. أما رسول الله فكان يحفظ لاسم الله تعالى وقاره واحترامه، ولم يحدث أبدًا أن تفوّه به إلا إذا كان هناك ما يبرر ذلك.

وكان دقيقًا في اهتمامه بالنظافة البدنية حتى في الشكليات الخارجية، فكان من عادته أن يستاك عدة مرّات في اليوم، وكان يشدّد على الاهتمام بهذه العادة حتى تكرر منه القول بأنه لولا خشيته أن يشق على أمّته لأمرهم بالسواك عند

كل صلاة. كان يغسل يديه قبل الطعام وبعده، وكان يغسل فمه فور تناول طعام مطبوخ؛ وكان يرى أنه من المستحب لكل شخص أكل طعامًا مطبوخًا أن يغسل فمه قبل كل صلاة، ففيه استنارة للفم. (البخاري)

إن المسجد في الإسلام هو المكان الذي يُعقد فيه اجتماع المسلمين، ولذلك اهتم الرسول ﷺ اهتمامًا خاصًا بنظافة المساجد، خاصة في الأوقات التي يزدحم المسلمون داخلها، ولذلك حث على إيقاد البخور في هذه المناسبات لتحسين رائحة الهواء (أبو داود). وأرشد المسلمين ألا يذهبوا إلى المساجد في الصلوات الجامعة بعد تناول الأطعمة التي تصدر عنه رائحة منفّرة (البخاري).

وأصر على أن تظل الشوارع والطرقات نظيفة من الأغصان والحجارة، وكل المواد والأشياء التي قد تعوق السير أو تثير الاشمئزاز. وكان يزيل الأذى من الطريق بنفسه إذا وجده، وكان من عادته التذكير بأن كل من يميط الأذَى عن الطريق محافظًا عليه نظيفًا فإنه يكتسب رفعة عند الله وقوة في الإيمان. ورُوي عنه أنه أمر ألا تُستعمل الطرقات لإعاقة المارة، وألا يُلقَى في الطريق أي شيء أو مادة غير مرغوب فيها، وألا يُدنّس الطريق بأية صورة، فإن كل فعل من تلك الإساءات تُغضب الله تعالى.

وكان شديد الحرص على أن تُصان كل مصادر الماء التي يستعملها الإنسان نظيفة نقية. وعلى سبيل المثال هنا، فلقد حرّم إلقاء أي شيء في الماء الراكد حتى لا يفسد، ولا في أي خزّان ماء يُستفاد منه حتى لا يتلوث (البخاري ومسلم- كتاب البِر والصلة).

بساطة حياة النبيّ ﷺ

كان طعامه وشرابه غاية في البساطة، ولم يشْكُ مطلقًا من سوء طبخ الطعام أو سوء إعداده. وكان يُقْدم على تناول طعام كهذا ليعفي الشخص الذي قام بإعداده من الحرَج، وأحيانًا كان الطعام لا يؤكل وحينئذ يكفّ عن تناوله، ولم

يحدث أن عبر أبدًا عن رفضه لطعام. وكان إذا جلس لطعامه اتجه نحوه، وكان يُعلّم أصحابه أن لا يفرّقوا بين أنواع الطعام. وعندما يوضع الطعام أمامه، كان يشترك فيه مع الحاضرين. وفي مرة أهداه أحدهم تمرًا، فنظر حوله وقدّر عدد أصحابه الذين كانوا معه، ثم قسم التمر بينهم بالتساوي، فأعطى كل واحد منهم سبع تمرات. وقد روَى أبو هريرة أن الرسول ﷺ لم يأكل حتى الشبع من طعام قط حتى ولا من خبز شعير (البخاري).

ومر يومًا على قوم بين أيديهم شاة مشويّة في وليمة، وعندما رأوا الرسول ﷺ دعوه ليشاركهم فأبى، ولم يكن ذلك كراهية منه للّحم المشوي، ولكن لأنه لم يكن يرضَى أن يستمتع الناس بوليمتهم من الشواء في مكان مفتوح للمارة بحيث يراهم الفقير الذي لا يجد ما يأكل، فتنكسر نفسه. ورُوي عنه في مناسبة أخرَى أنه أكل اللحم المشوي. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما شبِع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعًا حتى قُبض" (البخاري- كتاب الأطعمة). وكان يشدّد على ألا يذهب إنسان إلى بيت شخص آخر لطعام إلا إذا دُعي إليه. وفي مرة دعاه إنسان إلى طعام، وأذن له أن يصحب أربعة آخرين معه، وعندما وصل إلى منْزل المضيف وجد شخصًا سادسًا قد انضم إلى المجموعة، وخرج صاحب البيت إلى الباب ليلقَى الرسول ﷺ وصحبه. فلفت ﷺ نظره إلى الشخص السادس الذي انضم إليهم، وترك للمضيف حق قبول هذا الضيف الزائر أو رفضه، وقبل المضيف بطبيعة الحال هذا الشخص الزائر (البخاري كتاب الأطعمة).

وكان إذا جلس ﷺ لطعام سمّى اللهَ ودعا بالبركة، فإذا فرغ حمد الله بهذه الكلمات: "الحمد لله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه غير مَكفي ولا مودَّع ولا مستغنى عنه ربنا". والمعنى هو أن كل المحامد لله الذي أطعمنا، حمدًا فائضًا من قلب مخلص محض، حمدًا متزايدًا باستمرار، حمدًا لا يدَع لدينا انطباعًا في عقولنا أننا حمدناه تعالى بما يكفي، بل حمدًا يخلق فينا إحساسًا أننا لم نقل بعد ما يكفي

لحمد الله، حمدًا لا ينتهي بل يجعلنا نشعر دومًا أن كل أفعال الله تستحق الحمد، حمدًا يتضرع إلى الله أن يملأ القلب بهذه المشاعر اللائقة بتقديسه.

وأحيانًا كان يقول: "الحمد لله الذي كفانا وأروانا غير مَكفي ولا مكفور". والمعنى هو أن الحمد لله كل الحمد الذي أطعمنا وسقانا، اللهم اجعل قلوبنا دائمًا وأبدًا مشتاقة لحمدك لا تكتفي، ونعوذ بك أن تنكر قلوبنا نعمتك فلا تمتنّ لك.

وكان يُذكّر أصحابه عند الطعام ألا يملأ أحد بطنه بالطعام، وكان يقول إن طعام الواحد يكفي الاثنين. وكان إذا أُعِدّ في بيته طعام خاص أوصَى أن يُهدَى بعضٌ منه للجيران، وكانت عادته أن يهدي الطعام وغيره من الماعون إلى بيوت جيرانه (مسلم، كتاب الأدب والبخاري).

وكان دائمًا يحاول التفرّس في وجوه أصحابه ليتوسّم إن كان أحدهم في حاجة لمعونة ماسّة، وقد روَى أبو هريرة هذه الحادثة: "والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشُدُّ الحجَر على بطني من الجوع، ولقد قعدتُ يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، (أي من المسجد) فمر أبو بكر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل. ثم مر بي عُمر، فسألته عن آية من كتاب الله تعالى، ما سألته إلا ليشبعني، فمر فلم يفعل. ثم مرّ بي أبو القاسم، فتبسّم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي. ثم قال: أبا هرّ! قلت: لبيك يا رسول الله. قال: الحقْ، ومضى فتبعتُه، فدخل فاستأذن فأذن لي فدخل فوجد لبنًا في قدح فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة، قال: أبا هرّ، قلت: لبيك رسول الله. قال: الحق إلى أهل الصُفّة فادعهم لي. قال أبو هريرة: وأهل الصُفّة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. فساءني ذلك، فقلت في نفسي: وما هذا اللبن في أهل الصُفّة؟ أنا أحقّ أن أصيب

من هذا اللبن شربة أتقوّى بها، فإذا جاءوا أمرني، فكنت أنا أعطيهم، وما عسَى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بُد. فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم، فأخذوا مجالسهم من البيت فقال: يا أبا هرّ، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: خذ فأعطهم، فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يُروَى، ثم يرد عليَّ القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يُروَى، ثم يرد عليَّ القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يُروَى، ثم يرد عليَّ القدح. حتى انتهيت إلى الرسول وقد رَوَى القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إليّ فتبسم، ثم قال: أبا هرّ، قلت: لبيك يا رسول الله. قال: بقيتُ أنا وأنت؟ قلت: صدقتَ يا رسول الله. قال: اقعد فاشرب فقعدتُ فشربتُ. فقال: اشرب، فشربت. فما زال يقول اشرب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا. فقال: فأرني، فأعطيته القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة (البخاري، كتاب الرقاق).

ربما كان هدف الرسول من تكرار عرض اللبن على أبي هريرة آخر المجموعة هو أن يعلمه التحمل والصبر على آلام الجوع، وأن يجعل ثقته في الله تعالى، وألا يبالي بظروفه الخاصة مهما كانت صعبة غير مواتية.

وكان ﷺ يأكل دائمًا بيمينه ويشرب بها، ويتوقّف في الشرب ثلاث مرات ليتنفّس خلال شُربه، وربما كان السبب أن الشخص لو شرب الماء دفعة واحدة، لاستوعب منه ما يفيض عن حاجته مما يصيبه بعسر الهضم.

وكان نهجه في الطعام هو أكل كلّ حلال طيب، ولكن بعيدًا عن الأسلوب الذي فيه رائحة النهم، أو فيه حرمان لآخرين من نصيبهم المستحق. وكما سبق القول، فقد كان طعامه بسيطًا، ولكنه لم يكن يرفض طعامًا يهديه إليه إنسان، ولم يكن شديد التوْق إلى أطايب الطعام، وإن كان يفضّل العسل والتمر. أما عن التمر، فقد كان يقول إن هناك شبهًا بين المؤمن وبين النخلة، حيث يُستفاد من

الثمر سواء الرطب منه أو الناضج، والسّعف والجريد واللحاء أو الليف، وحتى النوَى داخل الثمرة له فوائد عدة، فلا شيء في هذه الشجرة خال من الفائدة، وهكذا حال المسلم، يجب أن تكون كل حركاته وأفعاله ذات جدوَى، وأن تكون كل مساعيه من أجل خير الإنسانية كلها (البخاري ومسلم).

وكان ﷺ يفضّل الملابس البسيطة، وكانت ملابسه تشمل إزارًا ورداء أو رداء وسروالاً. وكان يرتدي إزاره أو سراويله بحيث يغطي بدنه دون الكعبين. ولم يُجزْ كشف أي جزء من البدن فوق الركبتين إلا لضرورة قصوَى، كما لم يُجزْ استخدام قماش عليه صور بارزة أو مرسومة لأشخاص، سواء للملابس أو للستائر، خاصة إذا كانت هذه الرسومات كبيرة أو تمثّل آلهة أو مما يُعبد من دون الله. ورأى ذات مرة في بيته ستارة عليها صوَر ذات حجم كبير فأمر بإزالتها. ولم يكن على كل حال يرى حرجًا من استخدام قماش عليه رسوم صغيرة أو رسوم لا تُفسر على نحو العبادة والتقديس. ولم يكن يرتدي الحرير ولم يسمح به لرجال المسلمين، ولقد اتخذ خاتمًا بغرض توثيق الرسائل التي يبعث بها إلى حكام وملوك العالم ليدعوهم للإسلام، لكنه أوصَى أن يصنع الخاتم من فضة لا من ذهب، لأنه نهى رجال المسلمين عن لبس الذهب. ومع أنه كان يسمح لنساء المسلمين بارتداء الحرير وحُلي الذهب، غير أنه كان يرى أن الإسراف في ذلك كريه مقيت. وفي إحدى المناسبات دعا إلى الصدَقة لإنقاذ بعض الفقراء، فنَزعت امرأة أساورها من يدها ووضعتها في حجر الرسول ﷺ، فقال لها إنّ من حقّ يدها الأخرى أن تنجو أيضًا من النار، فخلعت المرأة أساورها من اليد الثانية وقدمتها إليه. ولم يحدث أن امتلكت امرأة من نساء بيته حُليًّا ذات قيمة، ولا ملكت امرأة من النساء المسلمات على عهده تلك الحليّ الغالية إلا فيما ندر. وقد استنكر أن يكنز أحد الذهب والفضة المسبوكة، وذلك حسب تعاليم القرآن المجيد. وكان يرى أن الاكتناز بوجه عام يضر بمصلحة القطاع الفقير من المجتمع، ويؤدّي إلى انهيار اقتصاد الأمة والوطن، لذلك كان يعتبر أن الاكتناز إثم من

الآثام.

واقترح عُمر ﷺ ذات مرة على الرسول ﷺ أن يرتدي حلة ثمينة يستقبل بها سفراء الدول الكبرى في المناسبات الرسمية، فرفض مبيّنًا أن الله تعالى لا يرضَى عن ذلك، وأنه ينبغي له أن يقابل الناس بالملابس التي يرتديها عادة. وجاءته مرة هديّة من قماش حريري فبعث به إلى عُمر، فتساءل عمر كيف يرتديه وقد نهى عن ذلك، فقال له إن الهدية ليست دائمًا للاستعمال الشخصي، ومن الممكن أن تستعمل نساؤه ذلك القماش. (البخاري-كتاب اللباس)

وكان فراشه كذلك بسيطًا. لم يستخدم الأسرَّة أبدًا أو المتّكآت، وكان ينام على حصير مفروش على الأرض، وكان فراشه هذا من جلد أو من نسيج من شعر الإبل. وروَت السيدة عائشة أن هذا الفراش كان ضيقًا، حتى إنها كانت تنام على جانب منه وهي متمددة الأقدام، فإذا قام الرسول ﷺ ليلاً للتهجّد، فهبط للسجود؛ جمعت رجليها، حتى إذا قام ونهض.. مدتها، فإذا سجد انكمشت ثانية وهكذا. (مسلم والترمذي، والبخاري-كتاب الأطعمة)

وقد انتهج نفس البساطة في ترتيبات المسكن، فقد كان منْزله عادة يتكوّن من غرفة واحدة وفناء صغير، وكان هناك حبل معلق يقسم الغرفة إلى نصفين بحيث يعلق ستار من قماش على ذلك الحبل عندما يكون لديه زائر، فينفصل مكان لزوجه عن مكان الحاضرين الآخرين. كانت حياته بسيطة للغاية، وقد روَت السيدة عائشة أن طعامه بوجه عام طوال حياته معها، كان التمر والماء. وعندما مات ﷺ لم يكن في البيت يومها سوى بضع تمرات قليلة.

العلاقة مع الله ﷻ

لقد سيطر حبه لله تعالى وإخلاصه له على جميع مجالات حياته كلها، ولقد اصطبغت كل مناحي حياته بصبغة هذا الحب وذلك الإخلاص. ولقد كان

يصرف الجزء الأكبر من وقته في الليل والنهار يصلي لله، ويسبح بحمده، رغم كل الأعباء الثّقال التي كان يحملها على عاتقه، والمسؤوليات الجسام التي كانت تُطوّق عنقه. وكان يهجر فراشه، ويكرّس نفسه لعبادة الله تعالى حتى يحين وقت الخروج إلى صلاة الفجر. وأحيانًا، كان يقف طويلاً في الصلاة من آخر الليل حتى تتورّم قدماه، وكل من شاهده على هذا الحال تأثّر له كثيرًا. وفي مرة قالت له السيدة عائشة: "يا رسول الله! لقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر". فقال لها: "أفلا أكون عبدًا شكورًا". (البخاري- كتاب الجمعة)

ومعنى ذلك أنها كانت تقول له إن الله تعالى شرّفه بقربه، وأكرمه برضاه عنه، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلماذا يجهد نفسه هذا الجهد في الصلاة والعبادة، فيقول لها إن واجبه إزاء ذلك أن يزداد شكرًا، فإن زيادة الشكر تجلب مزيدًا من القُرب.

و لم يكن أبدًا يبدأ عملاً إلا بأمر الله تعالى، ولقد سبق أن ذكرنا في سيرته أنه لم يترك مكة إلا بعد أن تلقّى أمرًا سماويًا بذلك، على الرغم من خطورة وقسوَة الاضطهاد الذي كان يتعرض له من أهل مكة. ولقد رفض الهجرة مع أصحابه إلى الحبشة حين اشتدّ الاضطهاد عليهم، وأمرهم بالهجرة إليها و لم يستجب لرغبتهم في أن يصحبهم، لأن الله تعالى لم يكن قد أذن له بذلك. وفي الوقت الذي تشتدّ فيه الأزمات والمتاعب، يميل الناس عادة لاستبقاء أصدقائهم وأقربائهم على مقربة منهم، ولكن الرسول ﷺ أمر أصحابه باللجوء للحبشة، بينما بقي هو نفسه خلفهم في مكة بسبب عدم تلقّيه توجيها من الله تعالى بمغادرتها.

كان قلبه يفيض تأثرًا، وتنحدر الدموع من عينيه كلما سمع كلمات الله تُتلى عليه، خاصة حينما تذكر تلك الكلمات مسؤولياته هو ومهامّه النبويّة. ويرْوي عبد الله بن مسعود أن الرسول ﷺ سأله مرة أن يتلو عليه بعض الآيات من

القرآن المجيد، فقال عبد الله: "يا رسول الله! كيف أقرؤه عليك وعليك أُنزل؟ (يقصد أن رسول الله هو الأعلم به) ولكنه رد عليه قائلاً: "إني أحب أن أسمعه من غيري". فبدأ عبد الله يتلو من سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤٢)، فقال له الرسول ﷺ: "حسبك.. حسبك". فنظر عبد الله بن مسعود إلى الرسول ﷺ ليجد الدموع تنهمر من عينيه (البخاري، كتاب فضائل القرآن).

كان ﷺ شديد الحرص على أداء الصلوات المفروضة، حتى في حالة مرضه الشديد الذي لا يمكنه معه الصلاة إلا في الفراش؛ كان يحرص على الذهاب إلى المسجد ليؤمّ المصلين بنفسه. وفي مرة لم يستطع القدوم إلى المسجد؛ فأمر أبا بكر ﷺ أن يصلي بالناس، ولكنه حالما أحس ببعض القوة والتحسن في مرضه، طلب أن يسندوه ليَصل المسجد. واتّكأ على كتفي رجلين وهو بالغ الضعف حتى إن قدميه كانتا تجرّان على الأرض، وتصنعان خلفها خطوطًا كما تروي السيدة عائشة (البخاري).

إن التصفيق باليدين علامة شائعة للتعبير عن السعادة أو لجذب الانتباه إلى أمر ما، وقد تعَوّد العرب على ذلك أيضًا. ولكن الرسول ﷺ لشدّة حبه لذكر الله، أحلّ الحمد والتسبيح وذكر الله محل التصفيق في مناسبات إظهار السرور أو لفت الانتباه.

في مرة من المرات شغله أمر هام عن حضور الصلاة لأوّل الوقت، فأناب أبا بكر ليؤم المصلين، ولكنه سريعًا ما فرغ من الأمر الذي كان بصدده، ثم بادر لفوره إلى المسجد وأبو بكر قائم يؤمّ الناس، ولكن جمهور المصلين شعر بوصول الرسول ﷺ فبدأوا في التصفيق تعبيرًا عن سرورهم بوجوده، ولتنبيه أبي بكر لوجود شخص الرسول ﷺ بينهم. فتراجع أبو بكر ﷺ عن مقامه، وأفسح المكان للرسول ﷺ ليؤمّ الناس. ولما انتهت الصلاة، سأل أبا بكر: لماذا تراجعتَ

وقد أمرتُك أن تؤمّ الناس؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما كان لابن أبي قحافة أن يؤمّ الناس ورسول الله قائم. ثم وجّه الرسول ﷺ كلامه إلى الناس فقال لهم إنه ليس من المستحب أن يصفّقوا في الصلاة، فإذا انتاب أحدهم في الصلاة أمر فليسبحوا اسم الله ويجهروا به بدلاً من التصفيق. (البخاري)

ولم يكن الرسول ﷺ يقبل أن تكون عبادة الإنسان أو صلاته تعذيبًا لذاته، أو عبئًا ثقيلاً في إحساسه. وفي إحدى المناسبات دخل البيت، فرأى حبلاً ممدودًا بين عمودين، فسأل عنه فقيل إن زوجه زينب تتعلق به إذا نهضت في صلاتها عندما تتعب من طول التهجّد، فأمر بإزالة الحبل وقال إن على المرء أن يؤدّي صلاته وهو يشعر بالنشاط، فإذا فتر فليقعد، لأن الصلاة ليست عذابًا للنفس، وأنها تفقد قدرتها على تزكية النفس إذا أدّاها المرء وجسده منهك من التعب (البخاري، كتاب الجمعة).

وكان يمقت كل فعل وكل ممارسة تمتّ بأدنى صلة ولو بعيدة إلى أطياف الوثنية أو آثارها. وعندما اقتربت وفاته وأحس بسكرات الموت، كان يتقلّب من جانب إلى جانب وهو يحذّر من فعل اليهود والنصارى بسبب اتخاذهم قبور أنبيائهم وأوليائهم مساجد. وكان يقصد أولئك الذين كانوا يخرّون ساجدين عند قبور أنبيائهم وأوليائهم، ويوجّهون الخطاب إليهم في الصلوات ويصلّون لهم. وقصد أن المسلمين لو فعلوا ذلك، وسقطوا في هذه الممارسات، فإنهم بذلك يتبرأون من نبيّهم، بدل أن يستحقوا صلواته عليهم.

ولقد سبق الحديث في السيرة عن غيرته الشديدة على تمجيد الله وشرف ذكره إلى أقصى الحدود. لقد حاول أهل مكة معه بكل وسائل الفتنة والإغراء، والترغيب والترهيب، ليكفّ عن معارضته لعبادة الأصنام (الطبرى). ولقد حاول عمه أبو طالب أن يقنعه ليعدل عن طريقه، وعبر له عن خوفه من موقف صعب، يجد فيه نفسه مخيرًا بين مرارة عداء قومه، وبين تسليمه لهم متخليًا عن حمايته، إذا

أصر على موقفه في شجب الوثنية وتخطئة نهجها. وكان ردّ الرسول ﷺ الوحيد على ذلك هو: "والله يا عمّ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه". (الزرقاني)

وفي أُحُد، وعند سفح أحد التلال، بينما يحيط به الجرحى من المسلمين، والعدوّ قد تملَّكَه الفرح يعبّر عن شماتته، وينفّس عنه شعوره بالانتصار على المسلمين بصيحات منكرة، وأبو سفيان قائدهم يصرخ: "اعْلُ هُبَل، اعْلُ هُبَل"، في هذا الظرف الدقيق، ورغم ما يهدد سلامته من خطر، ورغم أن العدد الصغير المحيط به من أصحابه ظلوا صامتين، فإنه لم يملك إلا أن يأمرهم بالردّ عليه قائلين: "الله أعلى وأجَلّ." (البخاري)

وكان من العقائد الشائعة عند أتباع الأديان المختلفة قبل الإسلام، أن الآيات الكوْنية في السماء والأرض تساهم في التعبير عن مشاعر الأنبياء والقديسين والصالحين حزنًا وفرحًا، بل إنهم يمكن أن يتحكموا بحركات الأجرام السماوية. وعلى سبيل المثال، فقد رُوي عن بعضهم أنه تسبّب في وقوف الشمس في مسارها، أو أن القمر قد توقّف، أو أن الأنهار قد توقّفت عن الجريان. وقد جاء الإسلام يعلّم الناس أنّ عقيدة كهذه لا أساس لها من الصحة، وأنّ ما جاء من ذلك في الكتب المقدسة السابقة كان أمثلة رمزية، تم تحويلها إلى تصوّر خرافي بدلاً من تأويلها على معناها الصحيح. ورغم ذلك فقد كان بعض المسلمين يميلون إلى نسبة بعض الظواهر الطبيعية إلى أحداث معيّنة في حياة الأنبياء. ولقد كُسفت الشمس عندما مات إبراهيم ابن الرسول ﷺ في عامه الثالث. فروّج بعض المسلمين في هذا اليوم تلك الفكرة التي تقول إن الشمس أظلمت لموت إبراهيم كنوع من التعزية لمشاعر الرسول الكريم. وعندما بلغ الأمر الرسول ﷺ، عبر عن بليغ استنكاره وضيقه بهذه التصوّرات، فقال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان لحياة أحد ولا لموته". وهكذا شرح لهم وبيّن للناس كيف أن الشمس والقمر وأجرام الكوْن السابحة يحكمها قانون الله تعالى وحده،

وأن حركتها والظواهر المرتبطة بها لا تخضعان لموت أحد ولا لحياته (البخاري).

والجزيرة العربية بلد جاف، ولذلك يستقبل أهلها المطر بحفاوَة، وينتظرونه بشغف شديد. وكان العرب قد اعتادوا تخيّل أن الأمطار مرتبطة بحركة النجوم، ولكنّ الرسول ﷺ كان يُظهر الامتعاض البالغ إذا ذُكر أمامه شيء من هذا القبيل، وكان ينصح قومه ألا ينسوا نعمة الله تعالى التي يتفضل بها عليهم، ولا ينسبوها إلى أيّ مصدر آخر غير الله ﷻ. وكان تعليمه هو أن المطر وكل ظواهر الطبيعة خاضعة لنظم الله تعالى وحده، وتأتمر بأمره، ولا تخضع لرغبة أحد أو سُلطته، ولا لحركة أيّ مخلوق آخر من دون الله ﷻ. (مسلم، كتاب الإيمان)

ومهما كان من تراكم الظروف المعاكسة عليه، فقد كانت ثقته في الله لا تهتز إزاء ذلك. حدث ذات يوم أن رآه أحد الأعداء نائمًا، لا يحرسه أحد. فوقف عند رأسه، والسيف مسلول في يده وهدّد الرسول ﷺ بالقتل لفوره، وقبل أن يهوي بسيفه عليه سأله قائلاً: "من يمنعك مني"؟ فرد الرسول ﷺ في رباطة جأش: "الله". ولقد تفوّه الرسول ﷺ بهذه الكلمة بقوة وجلال ويقين، حتى إنّ قلب العدوّ الكافر لم يتمالك نفسه فأدرك على الفور أن الرجل الذي أمامه شامخ الإيمان والثقة في الله تعالى، ولا يمكن أن يكون كاذبًا. لذلك سقط السيف من يد الرجل، ووقف في هيئة صاغرة كمن ينتظر صدور الحكم عليه، بعد أن كان منذ لحظة يقف عازمًا على قتل الرجل الذي أمامه. (مسلم-كتاب الفضائل، والبخاري-كتاب الجهاد)

وعلى العكس من ذلك كان موقفه ﷺ بالغ التواضع أمام الله تعالى، فكان يقف أمامه بكل خشوع ومذلة. وروَى أبو هريرة أنه سمع الرسول ﷺ يقول إن أحدًا لن يدخل الجنة بعمله، فسأل أبو هريرة: "ولا أنت يا رسول الله"؟ فرد عليه قائلاً: "ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته". (البخاري: كتاب الرقاق)

ولقد ظل دائمًا يحضّ الناس أن يلتزموا في كل أعمالهم بالصراط المستقيم،

وأن يبذلوا جهدهم في تحرّي الوسائل التي تقرّبهم من الله تعالى. وكان يعلمهم أن الإنسان لا يصحّ له أن يتمنى الموت، لأنه لو كان يسلك السلوك الحسن فلعله يستزيد منه، وإن كان سيئًا فلعله يتوب ويعود إلى فعل الخيرات. ولقد عبر ﷺ عن حبه لله وإخلاصه له بطرق شتى، فمثلاً.. كان قد طال الجفاف، وطال أيضًا انتظار المطر، فلما بدأت القطرات الأولى تتساقط من السماء، أخرج لسانه يستقبل به قطرة من هذه القطرات، وهو يعبّر عن سعادته وامتنانه لله تعالى قائلاً ما يعني أن هذه أحدث نعمة تتنَزّل عليه من لدن الله تعالى. وكان دائمًا مشغولاً بدعاء الله ليغفر له ويرحمه، وكان ذلك يحدث كثيرًا خاصة في مجالس أصحابه كي يعلمهم أن يقوا أنفسهم من عذاب الله وأن يستكثروا من فضله. ولم يكن يغادره بتاتًا إحساسه بأنه دائمًا وأبدًا في معيّة الله تعالى، فكان إذا أراد النوم قال: "اللهم باسمك أموت وأحيا"، يقصد بذلك أنه يذهب إلى نومه واسم الله تعالى على شفتيه، ويستيقظ واسم الله على شفتيه.

فإذا استيقظ كان يقول: "الحمد لله الذي أحيانًا بعد ما أماتنا وإليه النشور" (البخاري). وكان يُتوق باستمرار لكل ما يقرّبه من ربه. ومن دعائه المتكرر قوله: ''اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي بصري نورًا، وفي سمعي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، واجعل لي نورًا" (البخاري). وفي رواية: "واجعلني نورًا".

وروَى ابن عباس أنه قبل موت الرسول ﷺ بقليل، قدم مسيْلمة الكذّاب المدينة فجعل يقول: "إنْ جعل لي محمد الأمرَ من بعده تبعتُه". وقدم المدينة في عدد كثير من قومه، إذ كانت قبيلته أكبر القبائل العربية. فأقبل إليه رسول الله ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وكان في يد رسول الله قطعة جريد، حتى وقف على مسيْلمة في أصحابه فقال ﷺ: "لو سألتني هذه القطعة (الجريد) ما أعطيتُكها، ولن تعدوَ أمرَ الله فيك، ولئن أدبرتَ ليعقرنّك الله، وإني لأراك الذي أُريتُ فيه ما رأيتُ، وهذا ثابت ابن قيس يجيبك عني. ثم انصرف ﷺ عنه. قال

ابن عباس: "فسألت عن قول رسول الله: إنك ترى الذي أريت فيه ما رأيت"؟ فأخبرنى أبو هريرة إن رسول الله قال: "بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمَّني شأنهما، فأُوحِيَ إليّ في المنام أن نفخْهما، فنفختُهما فطارا، فأوّلتُهما كذّابيْن يخرجان بعدي." (البخاري)

كان ذلك في أواخر حياة الرسول ﷺ، و لم تكن أكبر القبائل العربية قد آمنت بعد، وكان شرطها كي تتبعه هو أن يُعيّن زعيمهم خليفة له من بعده.

لم يكن للرسول ﷺ ولد من نسله، ولا قريب طامح يقف أمام رغبته ﷺ في توحيد الجزيرة العربية كلها إن قبل بهذا العرض. ولو كان ﷺ مدفوعًا بأيّ دافع شخصي، لما وقف شيء ضدّ رغبته في وحدة العرب، بأن يعد فقط رئيس أكبر قبيلة فيها أنه سيكون خليفته. ولكنه لم يكن يرى نفسه متصرفًا في أي شيء في العالم مهما كان صغيرًا، و لم يكن يرى نفسه مالكًا لشيء. لذلك رفض التعامل مع مسيْلمة، ورفض عرضه بكل ازدراء. وكان ينظر إلى قيادة المسلمين لا كهدية يهديها هو إلى من يشاء، بل كأمانة إلهية مقدّسة يهبها الله تعالى لمن يستحقها ويناسبها. لذلك قال لمسيْلمة أن يدع عنه قيادة المسلمين جانبًا، فلن ينال منه ولا حتى قطعة جافة من الجريد.

كان ﷺ إذا تحدث عن الله ﷻ، بدا للناظرين وكأن وجوده كله يذوب في حبّ عميق لله ﷻ، وينبض كيانه كله بنشوَة إخلاص فريد لله ﷻ.

وكان يرى دائمًا ضرورة أن تكون العبادة بسيطة دون تعقيد. وكانت أرضية مسجده من الرمل والحصباء، ذلك المسجد الذي بناه وصلى فيه أكثر صلواته إمامًا، وكان سقف المسجد من الجريد والسعف الذي كان ينفذ منه ماء المطر إذا هطل. وفي بعض الأيام ابتل الرسول ﷺ وصحبه في الصلاة بالماء، وأصابهم طين الأرض، و لم يمنعه ذلك من إتمام الصلاة للنهاية، و لم يؤجّل أية صلاة، و لم يغلق المكان لحين إتمام الإصلاحات التي تعمل على إحكام السقف ضد عوامل

الجو (البخاري، كتاب الصوم).

وكان يراعي أحوال أصحابه مع الله تعالى. كان عبد الله بن عمر رجلاً حريصًا على التقوَى والتطهر، فقال عنه الرسول ﷺ: نِعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل. وعندما بلغ ذلك عبد الله، لم يترك قيام الليل بعدها. وحدث مرة أن كان الرسول ﷺ في بيت ابنته فاطمة، فسألها هي وزوجها عليًّا ما إذا كانا يصليان ليلاً، فقال له عليّ: يا رسول الله! إنما أنفسنا بيد الله فإن شاء بعثها. فتولى عنه الرسول ﷺ وأخذ يضرب ركبته في الطريق ويكرر آية من القرآن وهي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا﴾(الكهف)، بمعنى أن الإنسان يتردّد في الاعتراف بخطئه، ويحاول تحميل أعماله الاختيارية على الله تعالى (البخاري، كتاب الجمعة).

وقصد الرسول بذلك أن عليًّا لا يجوز له أن ينسب إهمال صلاة الليل إلى إرادة الله تعالى، بادّعائه أن الله إذا شاء عدم نهوضه للصلاة فإنه لفوره يصبح عاجزًا عن التهجّد، ولكن واجب عليّ هو التسليم بضعفه عن أداء الأمر، وعليه أن يواجه نفسه ويلومها.

رفض تعذيب النفس

رفض الرسول ﷺ رفضًا باتًّا أن تكون العبادة أمرًا شكليًا، وأدان قيام الشخص بتعذيب نفسه بأيّة صورة متصوّرًا أنه بذلك التعذيب يعبد الله تعالى ويتقرّب إليه. لقد وهب الله ﷻ الإنسان ملكاته وحواسّه كي يحسن استخدامها وشكرها. ولقد علّم الرسول ﷺ الناس أن العبادة الحقّة تكمن في الانتفاع الأمثل بتلك العين وذلك السمع وهذا الشم وذلكم التذوّق والإحساس. إن الله تعالى وهبنا العين لنرى بها، وإنه لمن الكنود لله أن نغلقها أو أن نقتلعها. وليس شكر نعمة الرؤية هو أن نعتبر الرؤية إثمًا، فالله وهبنا هذه الملكات ليس على أنها إثم نحمله، بل نعمة للتقدّم والرقيّ. وإنه لعقوق من جانب الإنسان أن يحرم نفسه من نعمة وهبها الله

له كالسمع مثلاً، كما أنه من العقوق والإثم أيضًا أن يستخدم هذه الحاسّة في الاستماع إلى الأكاذيب والغيْبة. والامتناع عن تناول الطعام، (ما لم يكن صومًا مفروضًا أو عملاً تقتضيه الحكمة)، قد يؤدي إلى قتل النفس، وهو ذنب لا يُغتفر. وكما أن الإضراب التام عن الطعام والشراب إثم وعقوق، فإن من النكران والعقوق كذلك أن نأكل طعامًا محرّمًا أو نشرب ما لا يحل شربه. وهذه قاعدة ذهبية للحياة، أكّدها الرسول ﷺ وشدّد على أهميتها. ولم يقم من قبل نبيّ آخر بغرس هذه القاعدة في التعليم والحياة.

إنّ الاستخدام الصحيح لملكاتنا الطبيعية، وحُسن استعمال الميول الحسّية، هو الذي يؤدّي إلى أن تترسّخ فينا الصفات الأخلاقية العليا. وإنه من الحماقة أن نُبطل عمل هذه الملكات الطبيعيّة التي فطرها الله فينا أو نلغيها، كما أنه من الحمق أيضًا أن نسفّهها بأداء سفيه. إنّ الإثم لا يكمن فيها، بل يكمن في سوء استخدامها، ولذلك فإنّ في حُسن استخدامها فضيلة مؤكّدة وخُلُقًا طيبًا. وهذه هي خلاصة التعاليم الخلقية التي أكّدها الرسول ﷺ وشدّد على أهميتها، وكان عليها مدار حياته وزبدة أفعاله. رُوي عن السيدة عائشة أن الرسول الكريم ﷺ لم يُخيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا أو شُبهة، فإنّه يكون أبعد الناس عنه (مسلم، كتاب الفضائل). وإن ذلك لهو النهج الأعلى والسبيل الأمثل الذي جعله الله تعالى للإنسان.

إن كثيرًا من الناس يحاولون أن يتقرّبوا إلى الله تعالى بالحرمان وتحمّل الآلام تطوّعًا منهم، والله يأبى ذلك. فليس رضا الله في الحرمان والعذاب، والفوز برضا الله لا يأتي عن طريق عذاب عبثي لا هدف منه، وحرمان للذّات لا فائدة منه إلا خداع الناس.

وهناك من البشر ممن ضعفت صفاتهم الخلقية، يحبّون أن يموّهوا بالتغطية على أخطائهم، ويريدون بتأثيرات وهمية أن يبدوا في عيون الآخرين كأنهم من

أصحاب الفضائل وذَوي المكانة. أما النبيّ الأكرم ﷺ فكان هدفه هو نوال الفضيلة حقيقة، وبلوغ رضا الله فعلاً، والفوز بقرب الله ﷻ، لذلك كان ﷺ خاليًا تمام الخلوّ من كل تظاهر وادّعاء.

وسواء عليه رأى الناس هذا الشيء حَسنًا أو رأوه سيئًا، فالأمر المهم عنده كيف يجده هو نفسه، وماذا يحسّ تجاهه من أعماقه، وكيف يحكم الله عليه. فإذا أضيف حكم الناس وتقديرهم إلى رضاه هو عن ضميره ورضا الله وقبوله، فإنه يشكرهم ويمتنّ لهم. ولكن إذا نظروا إليه بعين الإنكار أو الاشمئزاز، فإنه يأسف عليهم ولا يُلقي بالاً إلى رأيهم.

حاله ﷺ مع أزواجه

كان ﷺ عطوفًا كل العطف وعادلاً كل العدل مع زوجاته، وإذا أخطأت إحداهن في موقف ما ولم تفِ بما عليها من واجب الاحترام تجاهه، فإنه كان يبتسم ويمرّر الأمر. وقال يوما للسيدة عائشة: ''إني لأعرف إذا كنت عني راضية وإذا كنت عليّ غضبَى''. قالت: "من أين تعرف ذلك"؟ فقال:"أمّا إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا وربّ محمد، وإذا كنت عليّ غضبى قلت: لا وربّ إبراهيم". قالت: "أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك" (البخاري، كتاب النكاح).

كانت السيدة خديجة هي أوّل أزواجه، وقد ضحّت أعظم التضحيات معه، وكانت تكبره سنًّا. وبعد وفاتها تزوّج بنساء أصغر سنًّا، لكنّ ذكراها لم تخفت في قلبه. وعندما كانت تزوره صديقة من صديقات السيدة خديجة، كان ينهض قائمًا ليستقبلها (مسلم). وإذا تصادف ورأى شيئًا يخص السيدة خديجة، كان قلبه ينبض بالعاطفة في الحال، ويفيض وجدانه بالحنين إلى ذكرياته معها. وحدث أن كان زوج ابنته زينب من بين أسرى المسلمين في معركة بدر، ولم يكن يملك شيئًا يفتدي به نفسه، فبعثت زينب إلى المدينة بقلادة تفتَدي بها زوجها، وكانت

القلادة أصلاً لأمّها السيدة خديجة. وعندما رأى الرسول ﷺ القلادة عرفها، وتأثر لرؤيتها، ورقّ قلبه، فاستأذن أصحابه أن يردّوها إليها ويطلقوا لها زوجها، فقبل الصحابة ذلك بسعادة بالغة لما قال لهم إن القلادة كانت هديّة الزفاف من السيدة خديجة إلى ابنتها (السيرة الحلبية ج٢). وكان كثيرًا ما يمدح السيدة خديجة أمام أزواجه الأخريات، ويذكر كم ضحّت في سبيل الإسلام. فغارت السيدة عائشة من ذلك يوما وقالت: "كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة". فتأثر الرسول ﷺ كثيرًا لقولها وقال لها إنها كانت وكانت، وراح يذكر ويعدّد أعمالها ومناقبها (البخاري).

علوُّ أخلاقه ﷺ وسموّها

كان الرسول ﷺ صبورًا دائمًا في المحن، و لم يتراجع أبدًا أمام الظروف الصعبة والابتلاءات، و لم يدع الأهواء الشخصية تستولي عليه. ولقد عرفنا أن أباه قد توفي وهو جنين لم يولد بعد، وتُوفيت أمه صغيرًا ليكفله جدّه حتى الثامنة من عمره. وبعد وفاة هذا الجد بعد ذلك بقليل، كفله عمّه أبو طالب. كان أبو طالب يرعَى الصغير ويعطف عليه، وكان يتسامح معه لسببين أوّلهما العاطفة الطبيعية نحو ابن أخيه، وثانيهما لأن عبد المطلب جدّ الرسول ﷺ كان قد أوصاه به. ولكن زوج أبي طالب لم تكن تحمل للصغير نفس الشعور، و لم تكن تحكمها نفس الاعتبارات. لذلك كان يحدث أحيانًا أن تقسم شيئًا ما بين صغارها هي، تاركة ابن عمّهم الصغير دون نصيب. فإذا تصادف أن دخل أبو طالب المنْزل في ظرف كهذا، فإنه كان يجد ابن أخيه الصغير جالسًا على جانب، دون أثر للعبوس أو الضيق أو الإحساس بالضّيْم على وجهه، وكأنه تجسيد تام للشعور بالكرامة، فيسرع العم إلى الصغير مدفوعًا بدواعي العاطفة الجائشة وإحساسه ووعيه بالمسئولية فيضمّه إلى صدره صائحًا: "انظروا إلى طفلي هذا أيضًا.. انتبهوا إلى طفلي هذا أيضًا". كان هذا يحدث مرات عديدة، ومن شهدوا هذه الوقائع أجمعوا على أن محمدًا، الصبيّ والشاب، لم يبد مرة واحدة أية بادرة تدل على أنه

قد تأثر بهذه التفرقة، أو أنه كان لديه أيّ شعور بالغيرة من أبناء عمه. ومضت الحياة، وجاء الزمن الذي كان يمكنه أن يفعل شيئًا من نوع الثأر، لو كان قد ترسّب في نفسه شعور مخزون عن ذلك. لكن الذي حدث أنه أخذ على عاتقه كفالة وتربية اثنين في بيته من أبناء عمه هذا، وهما عليّ وجعفر. ولقد تحمل المسئولية على أعلى مستوى ممكن.

لقي الرسول الكريم ﷺ خلال حياته تجارب متوالية كانت أشد وقعًا من ذلك، فقد وُلد يتيمًا، وماتت أمه وهو طفل صغير، وفقد جده وهو في الثامنة من عمره، وبعد زواجه عانى ثكل عدة أبناء واحدًا بعد الآخر. وبعد ذلك فقد زوجته الحبيبة وقرينته المخلصة السيدة خديجة. ولقد ماتت عدّة أزواج له ممن تزوجهن بعد السيدة خديجة. وعند قرب وفاته تحمل آلام الحزن على فقد ابنه الصغير إبراهيم. لقد تحمّل جميع هذه المصائب برضًى وسكينة، ولم تتأثر رقّته ودماثته ولا عزيمته بتوالي المحن عليه.

ولم يُنفّس أبدًا عن أحزانه الخاصّة جهْرة على الملأ، وكان يلقَى كل إنسان بوجه بشوش عذب. وعامل الجميع على السواء بنفس الإحساس ولطف المعشر. وفي مرة رأى امرأة تبكي على قبر ابنها الفقيد بلوْعة، وتصرخ متألمة، فنصحها بالصبر وقبول إرادة الله. ولم تكن المرأة تعرف أنّ محدثها هو الرسول الكريم ﷺ، فردّت عليه قائلة: "إليك عني فإنك لم تُصب بمثل مصيبتي". ثم قالت له المرأة لو أنه فقد ابنه مثلها لعرف مدى صعوبة الصبر على تلك المصيبة، فأخبرها أنه فقد سبعة من أبنائه لا واحدًا فقط، واستمر في طريقه. ولم يكن يفكر كثيرًا فيما أصابه من مصائب، إلا إذا أرجعته حادثة كهذه ليذكرها، ولكنه لم يتركها تحول دون أداء مهمته في خدمة الإنسانية التي أرسله الله تعالى من أجلها، ولا في القيام بما كلّفه به سبحانه من حمل أعباء الناس، ومشاركتهم أحمالهم وأثقالهم وآلامهم بكل رضًا وسرور.

ضبط النفس

لقد كان ﷺ في حالة دائمة من السيطرة على النفس، وكان يعرف كيف يتحكّم تمامًا في مشاعره، خاصة عندما يخطئ الآخرون في أسلوب تعاملهم معه. وحتى عندما أصبح حاكمًا، كان يستمع لكل شخص في صبر وأناة. وعندما يعامله شخص بوقاحة، كان يتحمله ولم يحاول أبدًا الانتقام لشخصه. ومن المعروف لدى العرب أنهم عندما يخاطبون إنسانًا ويظهرون له الاحترام، فإنهم لا ينادونه باسمه المجرّد. وقد اعتاد المسلمون خطاب الرسول بقولهم "يا رسول الله"، ولم يتعوّد أيّ من المسلمين أن يناديه بأبي القاسم (القاسم اسم أحد أبنائه). وفي أحد الأيام، جاءه يهودي في المدينة وأخذ يحاوره، وخلال المحاورة كان يناديه باسمه المجرّد: يا محمد، يا محمد. ولم يعر الرسول ﷺ اهتمامًا لأسلوب خطابه، واستمر في شرحه لموضوع الحوار صابرًا. فغضب أصحاب الرسول ﷺ لجفاء الخطاب من هذا المتحدّث، حتى إنّ أحدهم لم يتمالك نفسه فقال لليهودي ناصحًا إياه أن يخاطب الرسول ﷺ بكنيته "أبا القاسم" لا باسمه المجرّد. فقال اليهودي إنه يناديه بالاسم الذي سماه به أبواه. فتبسّم الرسول ﷺ وقال: ''لقد صدق، لقد سميت محمدًا عندما وُلدت، ولا ضير عليه أن يناديني باسمي''. وأحيانًا كان الناس يستوْقفونه في الطريق، وينخرطون معه في حديث، ويشرحون له حاجتهم، ويقدّمون له مطالبهم، فكان دائمًا يقف معهم صابرًا حتى ينتهي صاحب الحاجة ويمضي، وبعد ذلك يتحرك هو. وأحيانًا كانوا يلقونه فيصافحه أحدهم، ويحتفظ بيد الرسول ﷺ في يده لبعض الوقت، فلم يكن يسحب يده من يد مصافحه أولاً، مع أنه كان يجد في هذا مضيعة لبعض الوقت، وتصرّفًا غير ملائم.

وكان الناس يذهبون إليه دون صعوبة، ويضعون أمامه مشاكلهم ومعاناتهم ويطلبون معونته، فإن كان يستطيع المساعدة فلا يتردّد في تقديمها. وأحيانًا كانوا يلاحقونه بالمطالب المتطرّفة ويضغطون عليه بها، فيستمر في الاستجابة لهم ما دام

قادرًا على التلبية. وأحيانًا بعد تلبية المطلب كان ينصح السائل أن يثق في الله أكثر وألا يسأل الناس. ومرة سأله أحد المسلمين المخلصين عدة مرات، فكان يعطيه في كل مرة، وفي النهاية قال له إن الأجمل للمسلم أن يضع ثقته في الله تعالى وألا يسأل الناس شيئًا. وكان هذا الشخص وفيًّا لهذه النصيحة، فلم يردّ للرسول ما أعطاه رعاية لمشاعره، لكنه قرر في الحال أنه لن يسأل أحدًا بعد اليوم شيئًا مهما كانت الظروف. وبعد سنوات كان هذا المسلم مشتركًا في معركة من المعارك راكبًا على فرس، فسقط منه سَوطه في معمعة القتال والضجيج الثائر، بينما كان اشتباك السيوف واختلاط الرماح في قمته، فانحنى أحد المسلمين من الجند المشاة على السوْط ليلتقطه له، فرفض ذلك المسلم الفارس، وهبط عن حصانه والتقط سَوطه بيده بنفسه. ولما رأى المسلم الماشي ذلك تعجّب، فشرح له كيف أنه منذ وعد رسول الله ألا يسأل أحدًا شيئًا فإنه يفي بذلك، ولو أنه سأله أن يناوله سوطه فإنه يخشى أن يكون بذلك قد نقض هذا الوعد.

العدالة ونزاهة التعامل

كانت المحاباة شائعة في العرب، وكانوا يطبّقون معايير عدة في التعامل مع الأشخاص، وحتى في يومنا هذا نرى أنهم في بعض الأمم المتحضرة يحجمون عن محاسبة المشاهير وأصحاب المناصب الرفيعة على أعمالهم، بينما يُطبق القانون بكل صرامة ضد الشخص المواطن العادي. لكن الرسول ﷺ كان فريدًا في معاملة الجميع بعدالة ونزاهة متساوية. ومرة جيء بقضية اتهمت فيها امرأة بالسرقة، وكانت المتهمة من عائلة ذات مكانة وشأن، وقد ثبتت عليها التهمة. ولقد أحدث هذا الأمر فزعًا كبيرًا، إذ لو طُبقت عليها عقوبة السارق، فإن العار والمهانة ستلحق القبيلة بأسرها من جرّاء ذلك. وقد أراد الكثير من الناس أن يطلبوا من الرسول ﷺ الشفاعة فيها، ولكنهم كانوا يخشون من هذه الوساطة. وفي النهاية أخذ أسامة ابن زيد على عاتقه هذه المهمة، وذهب إلى الرسول ﷺ،

وما إن شعر بالأمر حتى تغيّرَ وجهه وقال: "حسبك، إنما أهلكَ مَن كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم القوي تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها" (البخاري: كتاب الحدود). ولقد رُوي أن العباس، عمّ رسول الله، كان قد أُسر في بدر، وتم ربطه بحبل شأنه شأن بقية الأسرى لمنعه من الهرب، وكان الحبل مشدودًا على العباس بقوة حتى إنه كان يئن ليلاً، وسمع الرسول ﷺ أنينه ولم يستطع النوم. فشعر بذلك أصحابه، وأرخوا الحبل قليلاً عن العباس، وعندما علم الرسول ﷺ بذلك طلب منهم الاختيار بين إرخاء الحبل عن الجميع أو إعادة شدّ رباط عمه العباس، وأمرهم بالعدل في معاملة جميع الأسرى. عند ذلك قام الصحابة من جهتهم بإرخاء رباط الجميع وتشديد الحراسة عليهم (الزرقاني ج٣).

وحتى في ظروف الحرب وما تقتضيه من ضرورات قاهرة، كان ﷺ شديد الاهتمام بمراعاة القواعد السليمة واحترام المعاهدات والأعراف المعتمدة. وقام مرة بإيفاد جماعة من أصحابه في حملة استطلاعية فواجهوا بعضًا من رجال العدوّ في آخر يوم من شهر رجب، أحد الأشهر الحرُم، وظنّوا أن من الخطورة عليهم أن يدعوهم يفلتون ليحملوا إلى مكة خبر هذه الجماعة الاستطلاعية القريبة منهم فهاجموهم. وأثناء القتال قُتل أحد أفراد العدوّ، وعندما رجع هذا الوَفد الاستطلاعي إلى المدينة، راح أهل مكة يعترضون على ما حدث قائلين إنّ المسلمين انتهكوا حرمة الشهر الحرام وقتلوا رجلاً منهم.

كان أهل مكة ينتهكون حرمة الأشهر الحرُم ضد المسلمين متى كان ذلك ملائمًا لهم حسب هواهم، وكان من الممكن الردّ على اعتراضهم ردًا مناسبًا بالقول إنهم أيضًا ينتهكون حُرمة الأشهر الحرم، فلا يحقّ لهم أن يطالبوا المسلمين أن يلتزموا بذلك. ولكنّ الرسول ﷺ لم يكن ليستعمل مثل هذا الرد. لقد ألقى باللائمة على أفراد الحملة بشدة، ورفض قبول الغنائم التي غنموها بل إنه قد أدّى دية القتيل كما جاء في إحدى الروايات، حتى نزلت الآيات من عند الله

تعالى، فأوضحت الأمر برمّته. (البقرة: ٢١٨)

ويحافظ الناس عمومًا على مشاعر أصدقائهم وأقاربهم فلا يجرحونها. ولكن الرسول ﷺ كان يشدّد على مراعاة هذا الأمر باعتباره حقًّا للجميع، حتى بالنسبة للذين يقفون منه موقف المعارضة. وحدث مرة أن جاءه يهودي وشكا إليه أنّ أبا بكر قد أساء إلى مشاعره حين قال له إنّ محمدًا أعظم من موسى. فاستدعى الرسول ﷺ أبا بكر وسأله عما حدث. فقال له إنّ اليهودي هو الذي بدأ فقال حالفًا: "لا والذي فضّل موسى على البشر". فردّ عليه أبو بكر بقوله: "لا والذي فضّل محمدًا على موسى". فقال الرسول ﷺ بأنه ينبغي للمسلمين ألا يفعلوا ذلك رعاية لمشاعر الآخرين، وأمر ألا يفضّله المسلمون على موسى عليه السلام (البخاري: كتاب التوحيد).

ولا يعني هذا أن محمدًا ﷺ، ذلك الرسول الكريم العظيم، لا يتسنّم مكانة عند الله أعلى من موسى عليه السلام، ولكنه قصد أن تصريحًا كهذا يطلقه المسلم في وجه يهودي جدير أن يجرح مشاعره، وهذا شيء يجب تجنبه تمامًا.

احترام الفقراء

كان الرسول ﷺ يعمل دائمًا على تحسين أحوال الفقراء في المجتمع، كما كان يهتم برفع مكانتهم في المجتمع الإنساني. كان رسول الله ﷺ يومًا في أصحابه جالسين معه، فمرّ عليهم رجل من الأثرياء، فسأل رسول الله بعض أصحابه: "ما تقول فيه"؟ فأجاب: رجلٌ من أشراف القوم، وهذا، والله، حريٌّ إن خطَب أن يُنكح، وإن شفَع أن تُشفَّع. وبعد قليل مرّ رجل آخر، وكان فقيرًا معدمًا، فسأله الرسول ﷺ عنه كالأول، فأجاب: يا رسول الله، هذا رجل فقير. هذا حريٌّ إن إن خطَب أن لا يُنكَح، وإن شَفع ألا يشفَّع، وإن قال أن لا يُسمَع لقوله. فقال

الرسول ﷺ: إن هذا الفقير خير من هذا ملء الأرض ذهبًا.◈ (البخاري: كتاب الرقاق)

وكانت امرأة مسلمة فقيرة تكنس مسجد الرسول ﷺ في المدينة. ومرت بضعة أيام لم يرها الرسول ﷺ فيها، فسأل عنها، فأخبروه أنها ماتت. فقال: لِمَ لم تخبروني بوفاتها؟ وأضاف وقال: أتمنى أن أكون قد صليت عليها الجنازة. ربما لم تعيروا لها اهتمامًا لفقرها؛ وهذا غير مناسب. دُلُّوني على قبرها. فأتى قبرها، فصلى عليها صلاة الجنازة. (البخاري: كتاب الصلاة).

وكان ﷺ يقول: "رُبَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب، لو أقسمَ على الله لأبرَّه". (مسلم: كتاب البر والصلة)

وفي مرة كان بعض أصحابه جالسين معًا، ممن كانوا قبل ذلك عبيدًا وتحرروا، فمر بهم أبو سفيان الذي كان قائدًا عظيمًا، وظل يقاتل المسلمين حتى فتْح مكة ثم أسلم حينئذ. وهنا أخذت المجموعة تُذكّره بالنصر الذي وهبه الله للإسلام وهزيمة المعارضة المسلحة، فسمع أبو بكر ﷺ ذلك فلم يرض عن قولهم، ووبّخ المجموعة قائلاً: "أتقولون هذا لسيد قريش"؟ ثم ذهب إلى الرسول ﷺ وروَى له القصة، فقال له: "يا أبا بكر! لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربّك". فعاد إليهم أبو بكر لتوّه وأخذ يسترضيهم قائلاً: "يا إخواني، هل أغضبتكم"؟ وظل يناشدهم حتى قالوا له إنهم لم يشعروا بأية إساءة مما قال، ودعُوا الله تعالى أن يغفر له (مسلم-كتاب الفضائل).

◈ نص الحديث: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا؟ فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا، وَاللَّهِ، حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ. قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا.

وبينما كان الرسول ﷺ يحثّ على احترام الفقير، وعدم جرح إحساس المسكين، وبذل كل جهد لقضاء حاجتهم، والحضّ على إطعامهم، فإنه في نفس الوقت كان يطلب منهم الإحساس التام بالعزّة، وعلّمهم ألا يسألوا الناس. وكان يقول: ليس المسكين مَن تردّه التمرة ولا التمرتان، أو اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين من لا يجد غنًى يغنيه، ولا يُفطَن له فيُتصدق عليه (البخاري، كتاب الزكاة). وكان يقول: إن الله تعالى يبارك الوليمة التي يُدعى إليها المسكين. وروَت السيدة عائشة أنّ امرأة مسكينة زارتها ومعها ابنتان لها صغيرتان، و لم تكن السيدة عائشة آنئذ تملك غير تمرة واحدة، فأعطت المرأة التمرة، فقسمت المرأة التمرة بين ابنتيها وانصرفت. وجاء الرسول ﷺ البيت فقصّت عليه السيدة عائشة القصّة، فقال لها: مَن رزقه الله من هؤلاء البنات شيئًا فربّاهن وأدّبهن كنّ له سترًا من النار، وأخبرها أن الله تعالى قد وهب الجنة لهذه المرأة لعطفها على ابنتيها. (مسلم)

وسمع يومًا أنّ أحد أصحابه الأغنياء يتفاخر بثروَته على آخرين، فراح يعلمهم ألا يظن أحد أن الثروَة والمكانة والقوّة تأتي من جهد الشخص الخاص، ولكن ليعلموا أنّ هذه الثلاثة تُكتسب من خلال هؤلاء الفقراء.

وكان من دعائه ﷺ: اللهم أَحْيِني مسكينًا، وأَمِتْني مسكينًا، واحشُرْني في زمرة المساكين. (الترمذي، كتاب الزهد)

وفى أثناء مروره في الطريق مرة، وكان الجو حارًا، لاحظ أحد المسلمين يحمل حملاً ثقيلاً من مكان إلى آخر، وكان الرجل فقيرًا جدًّا، شديد البساطة يكسوه العرق والتراب، وتزيده الكآبة البادية على وجهه بؤسًا. فلم يتأفف منه الرسول ﷺ، واقترب منه يداعبه، فوقف خلفه ووضع يديه على عيني الرجل ليخمّن من هو؟ وتحسّس الرجل بطرف يده الخالية وجه الرسول ﷺ من خلفه وأدرك أنه هو، ولعل ما ساعده على معرفة الرسول ﷺ أنه لم يكن يظن أنّ أحدًا يقبل إظهار هذا التعاطف مع رجل في مثل هيئته المزرية إلا الرسول الكريم ﷺ،

وتشجّع فانضوى في صدر الرسول ﷺ، ولعله كان يريد أن يعرف إلى أي مدى يمكنه أن ينال عطف الرسول ﷺ. وابتسم ﷺ ولم يزجره، بل قال له مداعبًا: "لديّ عبدٌ فهل يريد أحد أن يشتريه؟" وأدرك الرجل أنه المراد من الدعابة، فقال: إنه لا يرى أحدًا يقبل أن يشتري من هو مثله. فطمأنه الرسول ﷺ وأخبره بأن له عند الله تعالى قيمة عظيمة. (شرح السنة)

ولم يقتصر ﷺ على مراعاة الفقراء دَومًا بنفسه، بل كان أيضًا يحثّ الآخرين دائمًا أن يفعلوا ذات الشيء. وروَى أبو موسى الأشعري أن الرسول ﷺ كان إذا جاءه سائل التفت إلى من حوله يطلب منهم مساعدته والاشتراك في فضل العمل الصالح وإشاعته في الناس (البخاري ومسلم)، وهدفه من ذلك أن يغرس في نفوس أصحابه مشاعر اللهفة إلى مساعدة الفقير، ومن ناحية أخرى يضع في وجدان المحتاج إحساسًا مؤكدًا بالعطف والتعاطف الذي يحمله تجاههم إخوانه الموسرون.

صيانة مكاسب الفقراء

عندما تحقق نصر الإسلام وبدأ قبوله على نطاق واسع في جزيرة العرب، تلقّى الرسول ﷺ عندئذ مبالغ كبيرة من الأموال، فقام بتوزيعها على الفور بين المحتاجين إليها. وجاءته ابنته فاطمة ذات مرة، وأرته راحتي يديها وقد تصلبتا وغلظ جلدهما بسبب الرّحَى التي تطحن بها الحَبّ، وسألته أن يكون لها عبد يعينها على هذا العمل، فأجابها الرسول:ألا أدلّك على خير لك من عبد، إذا ذهبت إلى فراشك فسبِّحي الله ثلاثًا وثلاثين، واحمَدِيْه ثلاثًا وثلاثين، وكبِّرِيْه ثلاثًا وثلاثين، فإن فعلت فإنه خير لك من عبد (البخاري).

وفى إحدى المرّات كان يوزع بعض المال، وحدث أن سقطت من يده قطعة نقد وتدحرجت حتى غابت عن بصره أثناء عدّ المال. وانتهى التوزيع، وذهب الرسول ﷺ إلى الصلاة فأمّ الناس. وكان من عادته أن يمكث بعد الصلاة قليلاً مشغولاً بحمد الله وتسبيحه، ثم يردّ بعدها على أسئلة الناس أو يجيب مطالبهم.

ولكنه هذه المرة سارع بعد الصلاة مباشرة وعاد إلى البيت حالما تذكر أمر القطعة النقدية الساقطة، وبحث عنها ليدفعها إلى محتاج؛ لقد خشي أنه إن لم يفعل فقد يقف أمام الله ليسأله عن ذلك، فكان هذا سبب تركه المسجد مسرعًا ليجد القطعة النقدية (البخاري). ولم يدّخر وسعًا في بحثه الدائب عن وسيلة لحفظ مكاسب الفقراء والمحتاجين، حتى لقد أعلن أن آله لا تجوز عليهم الصدقة، ولا يأكلون الصدقات، خشية أن يندفع المسلمون بصدقاتهم على آل محمد لشدة حبهم وإخلاصهم له، فيجوروا على حقّ الفقراء والمحتاجين الذي أوجبه الله في الصدقات.

ومرة جاءه رجل بكمية من تمر وعرضها عليه على أنها صدقة. وجاء حفيده الإمام الحسن، وكان عمره عامان فقط، فالتقط منها واحدة ورفعها إلى فمه، فوضع الرسول ﷺ أصابعه لفوره في فم الطفل وأخرج التمرة منه وهو يقول: كِخْ كِخْ، أما علِمتَ أنّا لا نأكل الصدقة. إنها للفقراء من خلق الله. (البخاري)

معاملته للعبيد

ولقد حض ﷺ الذين يملكون عبيدًا على أن يحسنوا معاملتهم دائمًا والعطف عليهم، وأعلن أن من أساء معاملة عبده أو ضربه فكفارة ذلك عتقه (مسلم، كتاب الإيمان). ولقد وضع الوسائل لتحرير العبيد وشجّع على ذلك بكل ذريعة ومبرر، وكان يقول: ''إن من أعتق عبدًا أعتق الله من النار بكل جزء من أجزاء جسد العبد جزءًا من جسد من حرّره''. وأعلن كذلك أنّ العبيد لا يُكلّفون عملاً فوق الطاقة بل يُؤمرون فقط بما في طوقهم، وأنّ السيد إذا أمر عبده بعمل فعلى السيد أن يعين عبده حتى لا يحس العبد بمهانة (مسلم). وإذا سافر السيد مع عبده فعلى السيد أن يشرك معه العبد في الراحلة يركبانها معا أو يتعاقبانها الواحد بعد الآخر. وكان أبو هريرة يقضي كل وقته مع الرسول ﷺ بعد أن هاجر إليه مسلمًا، ولقد سمع الرسول ﷺ مرارًا يوصي بحسن معاملة العبيد،

وكان أبو هريرة يقول إنه لولا صحبة الرسول ﷺ وشهوده معه المعـــارك وأداء الحج معه، ولولا واجب خدمة أمّه العجوز، لتمنى أن يموت عبدًا من كثرة مـــا سمع الرسول الكريم يوصي دائمًا بالعبيد، وأن يعامَلوا بلطف وحسن المعشر.

وروَى معرور بن سُوَيْد أنه رأى أبا ذر الغفّاري يلبس ثوبًا يماثل الثوب الذي يرتديه عبده، فسأله عن السبب في هذا، فقال: "لقد عيّرتُ رجلا بأمّه لأنها كانت أَمَةً، وكان ذلك أيام حياة الرسول ﷺ، فوبّخني الرسول قائلاً: "أعيّرتَه بأُمّه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية. إنهم إخوانكم وخَوَلُكم جعلهم الله تحت أيديكم. فمن جعل الله له سلطانًا على أخيه فليُطعمه مما يأكل، وليكسه مما يلبس، ولا يكلّفه ما لا يطيق، وليُعِنْه ما استطاع أو إذا سأله.

وفى مناسبة أخرى قال الرسول ﷺ: "إذا طبخ لك عبدك طعاما وقدّمه لك، فادعُه ليجلس معك ويأكل، وإلا فليذقْ منه نصيبًا معك، لأنه هو صانعه فله إذنْ حقٌّ فيه. (مسلم)

معاملة النساء

كان رسول الله معنيًّا كل العناية بتحسين ظروف حياة النساء في المجتمع الإنساني، ولتأمين مكان كريم لهن يضمن العدالة والإنصاف في معاملتهن. والإسلام أول دين أعطى المرأة حق الإرث، وأعطى القرآن البنات الحق مع البنين أن يرثن مما ترك الوالدان. وجعل الأم وريثة لابنها وابنتها وجعل الزوجة وارثة لزوجها، مما تركوا من مال. وإذا ورث أخ من مال أخيه المتوفى فإن أخته ترث معه كذلك من هذه التركة، و لم يحدث لأيّ دين قبل الإسلام أن قنّن حقّ النساء في الميراث أو أن يملكن ثروة خاصة بهن. والمرأة في الإسلام تملك ثروتها بشكل مطلق، ولا حقّ لزوجها في التحكم في ثروتها بسبب العلاقة الزوجية، وللمرأة كل الحق والحرية أن تتصرف في مالها كما تشاء.

ولقد اهتمّ الرسول ﷺ بنوع المعاملة التي تلقاها النساء، حتى وجد الناس حوله صعوبة في التكيّف مع هذه المقاييس الجديدة التي كان معنيّا بغرسها

وصيانتها، وهي النظر إلى المرأة على أنها مُعين ورفيق وشريك في الحياة. فقد رُوي عن عُمر ﷺ قوله: "إن امرأتي راجعتْني مرةً في القول في شأن من الشئون، فوبختُها قائلا إن العرب لا تسمح للنساء بمراجعة الرجال. فردتْ عليَّ قائلة: إن ذلك قد فات أوانه، فنبيُّ الله يسمح لنسائه أن يراجعنه ولا يمنعهن، أفأنت خير منه؟ فقلت لها: إذا فعلت عائشة ذلك فإن لها مكانة خاصة، ولكن حذار أن تفعل ذلك ابنتُكِ (حفصة) حتى لا تنال شر الجزاء على ذلك يومًا ما من غضب رسول الله عليها. وحدث بعد ذلك أن رسول الله ﷺ غضب لأمر ما وقرّر أن يقضي بعض الوقت بعيدًا عن أزواجه، وعندما علمتُ بذلك قلت لامرأتي: "لقد حدث ما كنت أخشاه". فذهبتُ إلى بيت حفصة ابنتي (زوج الرسول ﷺ) ووجدتها تبكي، فسألتها عن السبب وهل طلقها النبيّ ﷺ؟ فردّت أنها لا تدري شيئًا عن الطلاق، ولكن رسول الله قرر هجر أزواجه إلى حين. فقلت لها: ألم أقل لك وأحذّرك مرارًا ألا تنظري إلى عائشة لتصنعي مع الرسول كما تصنع هي، فإن الرسول يحبها حبًّا خاصًا، وما أراكِ إلا قد جلبت على نفسك غضبه الذي كنت أخشاه. ثم ذهبتُ إلى الرسول ﷺ فوجدته نائمًا على حصير خشن، وكان ساعتها لا يرتدي قميصه، ورأيت أثر الحصير على جنبه (طبع الحصير شكل نسيجه عليه) فجلست قربه وقلت: كسرى وقيصر في الحرير يرفلون، وأنت رسول الله ومع ذلك تعيش في مشقة؟ فقال الرسول ﷺ: ليس الأمر هكذا. إن رسل الله لا يعيشون عيشة الترف، لأن حياة الترف من دأب ملوك الدنيا. ثم روَيتُ له ما جرى بين وامرأتي وبنتي حفصة، فضحك الرسول ﷺ وقال: إنني لم أطلق أزواجي، ولكني رأيت من الأفضل قضاء بعض الوقت بعيدًا عنهن. (البخاري، كتاب النكاح)

وكان ﷺ حريصًا على مراعاة شعور النساء، حتى إنه في إحدى المناسبات بينما كان يؤم الصلاة سمع بكاء طفل فأسرع في أداء الصلاة، وذكر بعدها أنه عندما سمع صوت بكاء الطفل أدرك أنّ الأم سوف تشعر بالقلق والوَجْد لبكائه،

وهذا ما دفعه إلى التعجيل بإنهاء الصلاة حتى تتمكن الأم من العناية بطفلها.

وعندما كانت النساء يشتركن في أسفاره مع المسلمين، كان يوصي دائمًا بهدوء الخطى والسير الرفيق. وفي مناسبة من هذه الأسفار، حدث أن دفع الرجال المطايا ليتقدّموا مسرعين، فصاح بهم الرسول ﷺ: "رِفقًا بالقوارير، رِفقًا بالقوارير". وقصد بذلك أنّ النساء المسافرات سوف يعانين المتاعب من رجّة الحركة السريعة للجمال والخيل (البخاري، كتاب الأدب).

وفي إحدى المعارك، حدثت فوضى بين صفوف الجند الذين كانوا يمتطون إبلهم وخيولهم واستعصت قيادة المطايا، وسقط الرسول ﷺ من فوق حصانه، وسقطت بعض النساء أيضًا من فوق مطاياهن. وجاء أحد الصحابة فترجّل عن جمله وأسرع نحو الرسول ﷺ صائحًا: "فداك أبي وأمي يا رسول الله"، وكانت قدمه معلقة في الركاب فخلصها منه، فقال له الرسول ﷺ في عجلة أن يدعه وينظر ماذا فعلت النساء.

وقبل موته ﷺ، أوصَى وشدّد في خطابه للمسلمين على حسن معاملة النساء وإيلائهن العطف والاحترام، وكان مما قاله وأعاد القول فيه مرارًا أنّ من رزقه الله من البنات فربّاهن وعلمهن وأحسن تأديبهن، كنّ له سترًا من عذاب النار يوم القيامة (الترمذي).

وكان من عادة العرب إيقاع الأذى على بدن المرأة لأقل خطأ يصدر عنها، فعلّمهم الرسول ﷺ أنّ النساء شقائق الرجال، خلقهم الله جميعًا سواء، ولسن عبيدًا للرجال ولا يصحّ ضربهن. وعندما عرفت النساء ذلك، حدث أن تطرّف بعضهن في معارضة الرجال في كل شيء، فكان أن اختلّ السلام في كثير من البيوتات وتهدّد استقرارها. وشكا عُمر رضي الله عنه من ذلك إلى الرسول ﷺ قائلاً إن النساء إذا لم يعاقَبن فسوف يفلت زمام التحكم، ولن يكون في المستطاع ضبط الحياة في البيت. ولم يكن التنْزيل الحكيم قد جاء بالنظام الأمثل لمعاملة النساء بعد، فأشار الرسول ﷺ بأنه يمكن عقاب المرأة إذا ارتكبت جنوحًا جسيمًا يهدد

استقرار الأسرة واستمرارها. ولكن هذا القول قد أسيء فهمه، فجنح بعض الرجال للعودة إلى عادة العرب الأولى، وجاء دور النساء ليشتكين، وبسطن مظلمتهن بين يدي نساء النبيّ. عندئذ عاتب ﷺ الرجال لائمًا، وقال لهم إنّ النساء جئن يشتكين من ضرب الرجال، وإنّ الذين يفعلون ذلك ليسوا من خيار المسلمين. ومنذ ذلك الحين تم تكريس حقوق النساء، ولأول مرة بدأت المرأة تُعامَل كفرد آدمي كريم حر، وباعتبارها شخصا كامل الأهلية والمقوّمات الإنسانية والمسئولية الخاصة (أبو داود، كتاب النكاح).

وروَى معاوية القشيري أن امرأته اشتكته إلى الرسول ﷺ فأمره أن يطعمها مما يأكل مما رزقه الله من فضله، وأن يكسوها مما يلبس، وألا يضربها ولا يسيء عشرتها ولا يخرجها من بيته. وكان من حفاظه على أحاسيس النساء أنه كان يوصي الذين يضطرون للسفر أن يعودوا إلى أزواجهم حالما ينتهي هذا الاضطرار، حتى لا يعاني الأبناء والأزواج من هذا الفراق. وكان الرسول ﷺ إذا عاد من سفره فلا يدخل البيت إلا نهارًا، وكان إذا اقترب من المدينة مع اقتراب الليل عسكرَ خارج المدينة حتى الصباح، كراهية أن يطرق البيوت ليلاً. وأوصَى أصحابه بأنه إذ رجع أحدهم من سفره فلا يطرق المنزل فجأة، بل يرسل من يؤذن بعودته (البخاري ومسلم). فقد كان يرى أن العلاقة بين الزوجين تتأثر بالهيئة التي يرى فيها كل منهما الآخر، وفي غياب الزوج قد تهمل المرأة أمر العناية ببدنها أو ملابسها، فإذا عاد الزوج فجأة إلى بيته فقد تختل مشاعر أحدهما بسبب هذا المشهد. ولكن بتوجيه هذا الأمر (وهو أن يعمل الزوج على أن تكون عودته من سفره نهارًا ليستعدّ لملاقاة أهله، وأن يخبر أهله بخبر وصوله) فإنه قد ضمن بذلك أن تكون هيئة الأفراد لائقة مناسبة عند استقبال المسافر.

معاملة الميت واحترامه

حضّ الرسول ﷺ كل شخص أن يترك وصيّة يبين فيها الترتيبات اللازمة التي

تنظم الأمور وشئون الحياة من بعده بحيث لا يسبّب المعاناة لأبنائه أو أقاربه بعد موته. وأعلن أنه لا يحق لإنسان أن يتحدث عن ميّت بسوء، بل نذكر حُسن الفعال إذا تحدثنا، فلا فائدة من ذكر السيئات أو مواطن الضعف لدَى من مات، أما ذكر المحاسن فيشجع الناس أن يدعوا له (البخاري).

وكان يحضّ أيضًا على سداد ديون الميت قبل دفنه، وغالبًا ما كان يقوم بسدادها بنفسه، فإذا لم يستطع ذلك فإنه يشجّع الوَرثة والأقارب الأدنى إلى الميت أن يقوموا بذلك، أو يحث المسلمين الآخرين أن يتحمّلوا سداد الديون، ولا يقوم بصلاة الجنازة على ميّت ما لم تُقضَ ديونه عنه.

معاملة الجيران

كان ﷺ يعامل جيرانه باحترام ووُدٍّ بالغيْن إلى أقصى حد، وكان يقول إن جبريل عليه السلام ظل يوصيه بالجار حتى ظن أنه سيوَرّثه. وروَى أبو ذر رضي الله عنه أن الرسول الكريم ﷺ قال له: إذا طبخت لأهلك فزِدْ في المرق حتى تعطي منه جارك. وليس معنى هذا أن الجار لا يشترك في غير ذلك من الطعام، ولكن لما كان طعام العرب المفضل هو من اللحم، لذلك كان للمرق شأن فيه. ولقد اتخذ الرسول ﷺ من طبق المرق مُنطلقًا ليضرب به مثلاً يعلمنا أن لا يقتصر فكر المرء على الاستمتاع بمذاق الطعام فقط، بل عليه أن يُفكر أيضًا في جاره فيشركه معه في طعامه، وبذلك يتم التوازن بين الرغبة والواجب.

وروَى أبو هريرة أن الرسول ﷺ أعلن يوما قائلاً: والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. فسأله أصحابه: "من هو يا رسول الله"؟ فأجاب قائلاً: من لا يأمَن جارُه بوائقَه.. أي شروره. وخاطب النساء مرة قائلاً: إذا لم تجد المرأة سوى كُراع أو رِجل ماعز فطبختها فعليها أن تشرك فيها جارتها.

وأمر الناس ألا يدقّوا الأوتاد في جدران بيوت الجيران، ولا يغرسوا الأخشاب التي تحمل السقف في حوائطهم.

وروَى أبو هريرة أنّ رسول الله قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرِمْ جارَه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرِمْ ضيفه، ومن كان يؤمن بـــالله واليوم الآخر فليقُلْ خيرًا أو ليصمت. (مسلم)

معاملة الأقارب

هناك عيب شائع في أغلب الناس، وهو أنهم يبدأون في إهمال والديهم عندما يتزوّجون وينتقلون للإقامة في بيوتهم الخاصة بهم، ولذلك أكّد الرسول ﷺ على استحقاق الوالدين لخدمة الابن ورعايته، وحقهما في نوال التوقير والمعاملة العطوفة.

وروَى أبو هريرة أن رجلا جاء إلى الرسول ﷺ يسأله عن أحقّ الناس بحسن صحبته؟

فقال الرسول ﷺ: أُمُّك. فقال الرجل: ثم مَن؟ فكرر الرسول ﷺ قوله: أمك. فسأل الرجل للمرة الثالثة: ثم من؟ فأعاد الرسول ﷺ جوابه: أمك. فأعاد الرجل سؤاله للمرة الرابعة فقال: ثم من؟ وحينئذ قال الرسول ﷺ: أبوك، ثم الأقربـــون؛ الأقرب ثم الأبعد.

لقد مات والده قبل مولده، ومات جدّه في بداية نشأته، ولكن بعض زوجاته كان لهن آباء وأمهات أحياء، فكان يعاملهم باحترام وتوقير عظيمين. وفى إحدى المناسبات عند فتح مكة، بعد أن دخلها ﷺ قائدًا منتصرًا، جاء أبو بكر رضي الله عنه بأبيه ليلقَى الرسول ﷺ، فعاتب ﷺ أبا بكر لإزعاجه أبيه حتى يأتي إليه، وقال إنه كان من الأوْلى أن يذهب هو إليه بنفسه. (السيرة الحلبية ج٣ ص٩٩)

ومن أقواله ﷺ: ويل لمن أدرك أبويْه الكبرُ عنده و لم يُدخلاه الجنةَ. ويعني هذا أن خدمة الوالدين عند الكبر كاف لنُزول البركة الإلهية ورضوان الله وفضله، فمن أتيحت له الفرصة ليخدم والديه المسنّين ويحسن إليهما و لم يفعل ذلك على أكمل وجه، فالويل له. ولقد تظلم رجل مرة إلى الرسول ﷺ أنه كلما ازداد

إحسانًا ورحمة إلى أقاربه زادوه عداء، وكلما عاملهم بلطف وعطف عاملوه بجفاء، وكلما انبسط إليهم تجهّموا في وجهه وعبسوا له. فقال الرسول ﷺ: لو كان ما تقول حقًّا فكأنما تُسِفُّهم المَلَّ (أي تقيم عليهم الحجة) ولا يزال معك عليهم من الله ظهير ما دمتَ على ذلك. أي: إذا كان حقًّا ما يقول فما أسعده، لأن فضل الله تعالى سوف يتوالى في التنَزّل عليه طالما استمر على ذلك (مسلم: كتاب البر والصلة).

وكان الرسول ﷺ يحث المسلمين مرة على الصدقة والزكاة، فجاء أحد صحابته وهو أبو طلحة الأنصاري وعرض بستانًا له صدقةً، وكان من أحبّ ماله إليه. فتهلل وجه الرسول ﷺ وعبّر للصحابة عن حسن فعله وأثنى عليه قائلاً: بخ بخ، ذاك مال رابح. ثم قال له: إني أرى أن تجعلها في الأقربين.. أي توزعها على أقاربك الفقراء (البخاري: كتاب التفسير). وجاءه رجل مرة وصرّح له برغبته في الجهاد في سبيل الله لينال رضا الله تعالى، فسأله الرسول ﷺ عما إذا كان أحد من والديه لا يزال حيًّا؟ فرد عليه أنّ كليهما لا زال حيًّا، ولقد تركهما يبكيان. فأرشده الرسول ﷺ أن يجعل جهاده في خدمتهما ومؤانستهما ورضاهما، وأن يُضحكهما كما أبكاهما، فهذا هو رضوان الله عليه في حالته تلك.

ولقد حدّد بوضوح قاطع للمسلمين أن الوالديْن غير المسلمين لهما نفس الحق كالوالديْن المسلمين في الرعاية، وجاءت زوجة لأبي بكر تزور ابنتَها "أسماء" في المدينة، ولم تكن هذه المرأة قد أسلمت، فجاءت ابنتُها إلى الرسول ﷺ تسأله: هل تكرمها وتصلها؟ فأجابها بالإيجاب قائلاً: إنها أُمّكِ (البخاري: كتاب الأدب).

ولم يعامل ﷺ بالحسنى عشيرته الأقربين وحدهم، بل عامل بالاحترام الوافر كلّ من يتّصل بهم من صلات قربى وصداقة. فحين يذبح، كان يرسل نصيبًا من

اللحم لصديقات زوجه المتوفاة، السيدة خديجة؛ وكان يوصي أزواجه الأخريات ألا يغفلن صديقات السيدة خديجة في مثل هذه المناسبات. وبعد سنوات عديدة من موت السيدة خديجة، جاءت أختها "هالة" تستأذن على الرسول ﷺ وهو في معيّة بعض أصحابه. لقد رنّ صوتها في أذنيه شبيهًا بصوت السيدة خديجة، وحين سمع الرسول ﷺ صوتها تستأذن هتف قائلاً: "يا رباه، هذه هالة أخت خديجة". حقًا، إن العاطفة الحقيقية الصادقة تتجلى وتعلن عن نفسها، فيشعر المرء بالحب والاحترام تجاه كل من تربطه صلة بمن يحب ويحترم.

وروَى أنس بن مالك أنه كان في رحلة سفر مع جرير بن عبد الله، فوجد جريرًا يخدمه ويعامله كما لو أنه سيده. كان جريرًا أكبر سنًّا من أنس، لذلك اعترض أنس على جرير أن يضع نفسه دون مقامه الواجب. لكن جريرًا أجاب بأنه رأى الأنصار وحبهم وخدمتهم لنبيّ الله، فتأثر بذلك كثيرًا، وآلى على نفسه أن يخدم كل أنصاري يكون في رفقة معه كخادم له، وأنه بخدمته لأنَس فإنما يفي لنفسه بما عزم عليه؛ لذلك لا ينبغي لأنس أن يثنيه عن عزمه (مسلم). وهذه الواقعة تؤكد أن المرء حين يحب إنسانًا حبًّا حقيقيًّا، فإنّ مشاعره تمتد إلى الذين يخدمون محبوبه بإخلاص. وهكذا، فإنّ من يجلّون ويحترمون آباءهم وأمهاتهم، فإنهم ينظرون لكل من يكون صديقًا أو قريبًا لآبائهم بنفس عين الرعاية والاحترام.

وذات مرة شدّد الرسول ﷺ في خطابه على هذه المسألة، باعتبارها فضيلة عليا وأنها من أعمال البر. وكان ممن سمع هذا التشديد أحد صحابته وهو عبد الله ابن عمر رضي الله عنه. وبعد سنين عدة مرّت على ذلك، لقي عبد الله بن عمر رجلاً بدويًا أثناء الحج، فعرض عبد الله عليه راحلته ليركبها البدوي، كما أهدى إليه عمامته. وشاهدَ صاحبٌ له ما يحدث، فوجد أن عبد الله يبالغ في إكرام الرجل، بينما الرجل في نظره يكفيه أقل من ذلك. فقال عبد الله بن عمر: إنه كان صديقًا لعُمر رضي الله عنه، وإني سمعت الرسول ﷺ يقول: إن مِن أبرِّ البرِّ أن يصل الرجل أصدقاء أبيه.

دوام الصحبة الصالحة

كان الرسول ﷺ يحب دوام صحبة الفضلاء والصالحين، وإذا رأى ضعفًا أو عيبًا في أحد أصحابه نصحه في لطف وعلى انفراد. وروَى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن نبيّ الله ضرب مثلاً يوضّح به الفوائد التي تعود على الإنسان من الصديق الصالح والجليس الطيب الفاضل، ويشرح المصائب التي يمكن أن تصيب الإنسان من الصديق السيئ والجليس الخبيث، فقال: مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ (يُهديك) وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً. وكان يقول: الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ (البخاري ومسلم).

اجتناب سوء الظن

كان نبي الله ﷺ شديد الحرص على أن يجتنب الناس سوء الظن. وحدث أن جاءت زوجه السيدة صفية يومًا إلى المسجد وهو معتكف لتراه. وعندما حان وقت عودتها كان الجو قد أظلم، فقرر الرسول ﷺ اصطحابها إلى بيتها. وفى الطريق مر عليه رجلان، فأوقفهما خشية أن يمر في خيالهما أي خاطر بسوء الظن حينما رأياه يسير ليلاً في صحبة امرأة، وكشف عن وجهها وقال: تَعَالَيَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ. فقال الرجلان: يا رسول الله! حاشاك أن نظن بك شيئًا. فأجاب ﷺ: إِنَّ الشَّيْطَانَ (أي الفكر الآثم) يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يُلْقِيَ فِي أَنْفُسِكُمَا شَيْئًا. (البخاري، كتاب الاعتكاف).

التجاوز عن أخطاء الآخرين

لم يفضح ﷺ أبدًا عيوب الآخرين أو تقصيرهم، وحضّ الناس ألا يجهروا بمعاصيهم الخاصة، وكان يقول: مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ (أي عيبه) سَتَرَ اللهُ

عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَة. وقال أيضًا: كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَة أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ باللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْه فَيَقُولَ يَا فُلانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ. (البخاري ومسلم)

يظن بعض الناس خطأ أنّ الاعتراف بالإثم يساعد على التوبة والتطهر منه، والحقيقة أن الاعتراف بالإثم لا يساعد إلا على التمرّد والجرأة. فالإثم خطيئة، ومن ينْزلق إليها يصبح فريسة للإحساس بالخجل والندم، وله فرصة أن يفرّ عائدًا إلى طريق الطهر والتقوَى من خلال ممر التوبة. ومثله كمثل شخص أغرته الخطيئة، ولكن نداء التقوَى يدعوه، فيستجيب للنداء ويعود، فيتلاشى تأثير الإثم عليه. لكن هؤلاء الذين يجاهرون بآثامهم ويفخرون بها يفقدون كل إحساس بالصلاح، ويفقدون قابليتهم للندم والتوبة.

وحدث مرة أن جاء رجل إلى الرسول ﷺ وقال له إنه قد زنى، (وهذه جريمة إذا ثبتت بدليل واضح فإن عقوبتها الجلد حسب الشريعة الإسلامية)، وحالما سمع الرسول ﷺ اعتراف الرجل أعرض عنه إلى ناحية أخرى وانشغل بأمر آخر. وكان قصده من ذلك أن التوبة هي الطريق لمعالجة الموقف وليس الاعتراف. ولكن الرجل لم يفهم ذلك، وتصوّر أن الرسول ﷺ لم يسمعه، فذهب وواجه الرسول ﷺ وخاطبه مكررًا اعترافه. فأعرض عنه ثانية، ولكن الرجل ذهب وواجه الرسول ﷺ ليكرر نفس الاعتراف. وعندما فعل ذلك أربع مرات، عبر الرسول عن غرضه من إعطاء الفرصة له. ثم أمر بسؤال المرأة، فإن أنكرت فالعقوبة على الرجل وحده، وإذا اعترفت عوقبت معه. وكانت عادة الرسول ﷺ أن ينفذ حكم التوراة فيما لم ينْزل فيه القرآن المجيد، وكان نصّ التوراة في الزاني هو الرجْم حتى الموت، فنطق الرسول بالحكم على الرجل بناء على ذلك. وعند تنفيذ الحكم حاول الرجل الفرار، ولكن الناس لاحقوه ونفّذوا فيه الحكم. وعندما علم الرسول ﷺ بالأمر، لم يرض عما فعلوه، وأفهمهم أنه حكم على

الرجل بناء على اعترافه هو، ومحاولته الفرار تعني سحب اعترافه والعودة عنه، وبناء عليه فلم يعد عُرضة للعقوبة التي وجبت بناء على اعترافه.

وأعلن الرسول ﷺ أن العقوبة في الدنيا لا تجوز إلا على الأعمال الظاهرة الواضحة، وليس على ما يكنّ الإنسان في قلبه. وقد حدث مرة خلال القتال أنّ أحد رجال العدوّ كان يتتبع بعض المسلمين، ويكمن لهم، فإذا رأى مسلمًا منفردًا عن صحبه قتله. وفي هذه المرة أدركه أسامة بن زيد وأمسك به، ثم استل سيفه ليقتله، فلما رأى الرجل أن لا مهرب أمامه، نطق بشهادة ألا إله إلا الله، وكان ذلك يعني قبوله الإسلام. فلم يُلق أسامة بالاً إلى ذلك وقتله. وعندما رُويت هذه الواقعة على مسامع الرسول ﷺ، من بين ما رُوي من قصة الحملة، أرسل إلى أسامة وسأله عنها، فلما أكّد له صحة الواقعة، سأل الرسول ﷺ أسامة عما سيفعله إذا جاء هذا الرجل يوم القيامة يحمل شهادته معه؟ فأجاب أسامة: "يا رسول الله! لقد قتل هذا الرجل المسلمين، وإنما قال الكلمة خدعة لينجو من العقاب". ولكن الرسول ﷺ ظل يكرر: ''ماذا تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة''؟ ومعنى ذلك أن الله سيُحمّل أسامة مسئولية موت الرجل، لأنه وإن كان قتل المسلمين إلا أن تلاوته للشهادة كانت دليلاً على أنه تاب عن فعله السيئ. ولما اعترض أسامة بأن الرجل لم ينطق بالشهادة إلاَّ خوفًا من الموت وليس بسبب التوبة، قال له الرسول ﷺ: "أَفَلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لا". وظل يكرر: "ماذا تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة". ويقول أسامة: "فما زال يكررها حتى تمنيتُ أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ" (مسلم، كتاب الإيمان).

كان هذا الرسول الكريم ﷺ على استعداد دائمًا للعفو عن أخطاء الناس وتجاوزاتهم. كان أحد الأشخاص قد تورّط في قذف زوج الرسول ﷺ السيدة عائشة، وكان يعتمد في نفقات معيشته على صدقة من أبي بكر، والد عائشة. وعندما ثبتت براءة السيدة عائشة، وتبين زيف الاتهامات، أوقف أبو بكر معونته

لهذا الرجل. وكان ذلك يُعتبر ضبطًا محمودًا للنفس من جهة أبي بكر؛ لأن الرجل العادي في ذلك الموقف كان جديرًا أن يتوَغّل في النقمة إلى أقصى مدى ضد فقير عالة قام بتشويه سمعة ابنته. ولكن لما عرف الرسول ﷺ ما صنعه أبو بكر كلَّمه، وأشار إلى أن الرجل وإن كان قد أخطأ، إلا أنه لا يُنتظر من رجل مثل أبي بكر أن يقطع عنه وسائل معيشته بسبب خطئه. وعند ذلك رجع أبو بكر إلى كفالة الرجل (البخاري: كتاب التفسير).

الصبر عند البلاء

كان ﷺ يقول: عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاءُ شكَر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاءُ صبَر فكان خيرًا له. وعندما اقتربت وفاته، كان يتأوّه من شدة الألم، ولم تتحمّل السيدة فاطمة مشهده وهو يعاني فقالت: "وا كرب أبتاه". فقال لها إذ ذاك: لا كرب على أبيك بعد اليوم. وكان يقصد أنّ متاعبه محصورة في حدود هذا العالم، ولكنه منذ اليوم سينطلق من هذه الحياة ليدخل في حضور مع الله خالقه، ولن يكون مُعرَّضًا بعد اليوم لأيّ كرب.

وعندما كان ينتشر أيّ وباء، لم يكن يقبل أن ينتقل الناس من البلدة الموبوءة إلى أخرى، لأن ذلك يعمل على توسيع رقعة الوباء، وكان يقول ما يشير إلى أن من يمكث في بلده وقت الطاعون ويحجم عن نقل المرض إلى منطقة أخرى غير موبوءة، ثم يموت هذا الإنسان بسبب الوباء، فإنه يُعتبر شهيدًا عند الله تعالى (البخاري، كتاب الطب).

التعاون المتبادل

وكان من تعليمه ﷺ أن من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، وأن الناس لا يصح أن ينشغلوا بنقد الآخرين أو يتدخّلوا في شئونهم التي لا تعنيهم. وهذه قاعدة

أساسية، لو تم تبنّيها ورعايتها وتنفيذها لأدّت إلى ضمان السلام وانتظام أمر هذا العالم. إنّ معظم مشاكلنا تأتي من ميْل أغلبية الناس إلى الاستمتاع بالتطفل والتدخّل في أمور الآخرين، وفي نفس الوقت يمتنعون عن مدّ يد المساعدة لمن يحتاج منهم للمعونة، ولا يتقدمون لإغاثة الملهوف حين يقتضي الموقف ذلك. وقد حثّ الرسول ﷺ مشدّدا على ضرورة تبادل التعاون بين الناس. وجعلها قاعدة سارية: أنه إذا طولب أحد المسلمين بدفع قدْر من المال بسبب عقوبة موقّعة عليه، وكان عاجزًا عن الوفاء بكل المبلغ، فإن أفراد عائلته أو جيرانه أو أهل بلده، يجب عليهم مساعدته للوفاء بالباقي عن طريق المساهمة المشتركة. وكان بعض المسلمين يتركون مَواطنهم ليسكنوا قريبًا من الرسول ﷺ، ليكرّسوا كل وقتهم وجهدهم لخدمة الإسلام بشتى الطرق، فكان الرسول ﷺ ينصح أقاربهم أن يمدّوهم بحاجاتهم الضرورية. ورُوي عن أنس رضي الله عنه أن شخصًا كان قد أسلم هو وأخوه، فمكث أحدهما مع الرسول ﷺ متفرّغًا، وظل الآخر في مشاغله العادية، فجاء هذا بعد مدة يشتكي للنبيّ ﷺ أن أخاه يضيّع وقته متبطلاً، فقال له إنه يُرزق بسببه. أي أن عليه أن يعطي أخاه ليتفرّغ لخدمة الدين لأن الله تعالى يعطيه من أجل أخيه هذا قصدًا (الترمذي).

وفي أحد الأسفار، عندما بلغ ركب الرسول ﷺ مكانًا ليعسكروا فيه، انشغل صحابته على الفور بأداء واجباتهم الخاصة بتجهيز المعسكر استعدادًا لقضاء الليلة. ورأى الرسول ﷺ أنهم لم يتركوا له عملاً، فأعلن بالتالي أنه سيذهب ليجمع الحطب للطهي، فاعترض الصحابة قائلين إنهم يكفونه هذا العمل، فأخبرهم أنّ واجبه هو مشاركتهم فيما يجب عمله مهما كان، وفعلاً ذهب في البرية يجمع الحطب للطبخ (الزرقاني ج ٤ ص ٣٠٦).

الصدق

وكما سبق ذكره، كان الرسول ﷺ شديد الاستمساك بأعلى مستويات

الصدق، حتى عُرف بين الناس بالصادق والأمين. وبنفس الأسلوب، كان حريصًا على أن يتّخذ المسلمون نفس السبيل في التمسك بأعلى مراتب الصدق مثله، وكان يعتبر الصدق قاعدة لكل الفضائل والخيرات والصالحات، وعلّم الناس أنّ الشخص الصادق هو الذي يصدق، ويظل يصدق، ويؤكّد صدقه، حتى يُكتب عند الله صدّيقًا.

ومرة جيء بسجين مذنب إلى الرسول ﷺ كان يقتل المسلمين بشكل وحشي، وكان عُمر بن الخطاب ﷺ موجودًا أيضًا، وكان يرى أنّ الرجل مستحق تمامًا لعقوبة القتل، وأخذ ينظر إلى الرسول مرارًا يتوقع منه في أية لحظة أن يشير بقتله. وبعد أن عفا الرسول ﷺ عن الرجل، قال عُمر للنبيّ ﷺ إنه كان يستحق الموت عقوبة على جرائمه. فقال له الرسول ﷺ: فلم لم تقتله؟ فقال عُمر: "يا رسول الله! لو غمزت لنا بطرف عينيك لفعلنا". فقال ﷺ عند ذلك: "ما كان لنبيّ أن تكون له خائنة الأعين" (ابن هشام ج٢ ص٢١٧).

وجاء رجل إلى الرسول ﷺ واعترف له أنه يعاني من ثلاث رذائل: الكذب وشرب الخمر والزنا، وأنه قد حاول تركها ولكنه فشل في ذلك، وسأله علاجًا للمشكلة. فأوضح له الرسول ﷺ أنه لو ضمن له أن يدع واحدة منهن فهو يضمن له علاج البقية، فوعد الرجل بذلك وطلب منه ذكر الواحدة، فقال له ﷺ أن يدع الكذب. وبعد فترة من الزمن جاء الرجل للنبيّ ﷺ وصرّح له أنه عوفي من الرذائل الثلاث لما اتبع نصيحته بأمانة. فطلب منه ﷺ أن يروي تفصيل ذلك. فقال الرجل: أردت أن أشرب الخمر يومًا، وعندما كدت أفعل تذكرت وعدي لك، ورأيت أنه لو أنّ أحدًا من صحبي سألني هل شربت، فإنني سأضطر إلى قول الحق وأعترف له أني فعلت، مما يعني أن أكتسب سمعة خبيثة بين أصحابي فيهجروني، فأقنعت نفسي بتأجيل الشراب إلى وقت آخر، ومع مرور الزمن صرت قادرًا على مقاومة الإغراء. وبنفس الطريقة حدث أن وجدت من نفسي ميلاً إلى الزنا، فحاججت نفسي بأن الاستمتاع بهذه الخطيئة سيعرّضني لفقد

احترام أصدقائي؛ إذ أنني إما أن أكذب عليهم فأخلف وعدي معك، أو أن أعترف بذنبي. وهكذا استمر الصراع بين إصراري على الوفاء بالوعد الذي قطعته لك، وبين رغبتي في متعة الشرب والزنا. وبمرور الوقت فقدت ميلي إلى هذه الخطايا، وأنقذني إصراري على الصدق والبعد عن الكذب من الخطيئتين الأخريين أيضًا.

التحسس والتجسس

كان الرسول الكريم ﷺ يحث دائمًا على نبذ التجسس، وأن يظن كلّ بالآخر ظنًّا حسنًا. وكان يقول: إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيث. وَلا تَحَسَّسُوا، وَلا تَجَسَّسُوا، وَلا تَنَافَسُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذُلُهُ وَلا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَا هُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِه ثَلاثَ مَرَّات. بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ. إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ. (مسلم: كتاب البِرّ والصلة)

الوضوح والشفافية والتعامل المستقيم

كان ﷺ يهتم كثيرًا بحماية المسلمين من داء الانغماس في أي شكل من أشكال الظلم أو الخداع أو الغش في تبادل السلع والتجارة. حدث أن مّر في السوق يومًا فرأى كوْمة من حبوب تُباع، فأدخل يده فيها فوجد بللاً تحت الطبقة الجافة، فسأل البائع عن السبب، فقال إن السماء أمطرت فجأة فأصابها البلل. فقال له: أفلا أظهرته للناس؟ وكان غرضه أن يعرف الشاري حالة البضاعة الحقيقية، فقال: مَن غشَّنا فليس منا (مسلم). أي ليس عضوًا نافعًا في الجماعة.

وكان حريصًا على أن تكون سوق التجارة حرة تمامًا من كل آثار الممارسات الماكرة المحتالة وريبها، وكان يحثّ الشاري على فحص ما يريد شراءه من بضاعة وأدوات، ونهى المسلم أن يفاوض على شراء شيء بينما هناك شخص آخر يفاوض عليه، وحرّم على التجّار احتكار السلع بغرض رفع أسعارها، وأوصى بأن يستمر إمداد السوق بالسلع دون انقطاع.

التشاؤم

وكان الرسول ﷺ عدوًّا للتشاؤم. وكان يقول إن من كان مسؤولاً عن نشر روح اليأس والتشاؤم بين الناس يكون مسؤولاً أمام الله تعالى عن هلاكهم، لأن الأفكار اليائسة والمتشائمة تحط من عزيمة الناس وتؤدي إلى خذلانهم وتحرمهم من التقدم (مسلم).

كذلك فقد حذّر الرسول ﷺ قومه أيضًا من الخيلاء والفخر من ناحية، ومن التشاؤم واليأس من ناحية أخرى ، وحضّهم على اتخاذ طريق الوسط بين هذين الطرفين. فعلى المسلمين أن يعملوا بكدّ وجدّ كاملين، وأن يكونوا على ثقة تامة أنّ الله تعالى سيبارك سعيهم ويؤتيهم أحسن الثمرات، وعلى كل منهم أن يسعى من أجل التقدم، ملتمسًا فعل الخيرات، ويعمل ما فيه تقدم الجماعة الإنسانية كلها، ولكن عليه أيضًا أن يتحرّر من كل مشاعر الفخر وأيّ نزوع أو ميل نحو الخيلاء.

القسوة على الحيوان

كذلك فإنه ﷺ حذّر الناس من القسوة على الحيوان، وأمر برفق المعاملة معه. وكان يروي قصة المرأة اليهودية التي عاقبها الله لأنها حبست قطتها حتى ماتت، وكذلك كان يروي قصة المرأة التي وجدت كلبًا يعاني من شدة العطش قريبًا من بئر ماء عميق، فأخذت حذاءها ونزلت البئر وأخذت بعض الماء وسقت الكلب

العطشان، فكانت النتيجة أن غفر الله لها كلّ ما سبق من آثامها بسبب هذا العمل الصالح.

وروَى عبد الله بن مسعود: بينما نحن في سفر مع رسول الله إذ رأينا فرْخي حمام في عش فأخذناهما، فجاءت أمهما فلم تجدهما في العش، فأخذت تحوم حولهما وتحوم. فجاء رسول الله ورأى الحمامة فأمر بإعادة الفرخين إلى عشهما (أبو داود).

وروَى عبد الله بن مسعود أيضًا أنهم رأوا مرة جحر نمل فوضعوا عليه بعض الحطب وأشعلوا النار فيه، فتعرّضوا لتأنيب الرسول ﷺ على عملهم هذا. وفي مرة رأى ﷺ حمارًا (موسومًا) قد كُوِيَ على وجهه فسأل عن السبب فقيل له إن الروم تلجأ إلى هذا الفعل حتى تتميز السلالات الجيدة من الحيوان. فقال لهم إنّ الوجه جزء حساس من الكائن، وإن وسم الحيوان في وجهه عمل قبيح، وإن كان لا بد، فليكن على مكان في المؤخرة (على جاعرتيه) (أبو داود والترمذي).

ومنذ ذلك الحين والمسلمون يسِمُون الحيوان على مؤخرته، واتّبعهم الأوروبيون في هذه العادة على نفس المنوال.

التسامح في القضايا الدينية

لم يؤكد ﷺ على أهمية وضرورة التسامح في الأمور الدينية فحسب، بل وضع مقاييس هامة وقدّم بنفسه مثالاً غاية في الرقي في هذا الشأن.

فقد زاره بالمدينة وفد من نصارى نجران لتبادل الآراء والمناقشة حول المسائل الدينية، وكان يضم عدة رجال من أصحاب المقامات في الكنيسة. وعُقدت المحادثات في المسجد، وطالت عدة ساعات. وفى مرحلة من مراحل النقاش، طلب زعيم الوفد السماح لهم بالخروج من المسجد لكي يؤدوا صلاتهم في مكان مناسب. فأخبرهم الرسول ﷺ ألا حاجة لهم إلى الخروج من المسجد، لأن

المسجد نفسه قد بُني لعبادة الله، ويمكنهم أداء صلاتهم وتعبدهم فيه (الزرقاني).

الشجاعة

لقد سبق الحديث عن عدّة أمثلة لشجاعة الرسول ﷺ وإقدامه في الجزء السابق من السيرة، ويكفي هنا أن نروي مثالاً واحدًا لا غير.

ملأت الإشاعات المدينة في وقت من الأوقات أنّ الروم يُعدّون جيشًا جرّارًا لغزوها، وكان المسلمون في هذه الآونة يبيتون مسهّدين ليلاً. وفي إحدى الليالي، سُمعت ضجّة من ناحية الصحراء، فأسرع المسلمون إلى بيوتهم، واجتمع بعضهم في المسجد ينتظرون رسول الله أن يأتي ليخبرهم بالأمر الذي يناسب التعامل مع هذا الطارئ المفاجئ، وللتوّ رأوا رسول الله ﷺ على صهوَة حصان آتيًا من جهة الصوت، وعندها اكتشفوا أن الرسول ﷺ امتطى فرسه عاريًا من السرج فور سماعه الصوت المنذر بالخطر، واتخذ طريقه جهة مصدره ليتحرّى الأمر، ولم ينتظر أن يجتمع الناس ليخرج في صحبتهم نحو مصدر الخطر. وقد أخبرهم ﷺ أنه لا خوف هناك ولا روع عليهم لينصرفوا إلى النوم آمنين (البخاري: باب الشجاعة في الحرب).

مراعاته لغير المتحضرين

وكان ﷺ يوجّه رعاية خاصة لأولئك الأجلاف الذين يجهلون السلوك المناسب لنقص التحضّر. كان هناك أعرابي حديث عهد بالإسلام يجلس في صحبة الرسول ﷺ في المسجد، فنهض وسار بعيدًا عدة خطوات ثم جلس يبول في ركن من أركان المسجد. فنهض بعض أصحاب الرسول ﷺ لمنعه، فحجزهم ﷺ عنه حتى لا يزرموه فيحدث له ضرر صحي، ونصحهم أن يصبوا الماء في هذه البقعة ليطهروها بعد ذلك.

الوفاء بالعهود

كان الرسول ﷺ شديد الحرص في موضوع الوفاء بالعهود. وحدث أن جاءه رسول مبعوث من الخارج في مهمة رسميّة خاصة، وبعد أن مكث عدة أيام بصحبته، دخل في قلبه الإيمان بالإسلام، فاقترح على الرسول ﷺ أن يعلن ولاءه للإسلام. فأخبره ﷺ أن هذا الأمر غير مناسب، إذا أنه هنا له صفة تمثيلية، وينبغي له أن يعود إلى قيادته دون أن يكتسب هذا الولاء الجديد. وبعد عودته إلى أهله، إن آنس من نفسه الاقتناع التام بأن الإسلام حق، فيمكنه حينئذ أن يعود كفرد حر، ليعلن قبوله وولائه للإسلام (أبو داود، كتاب الوفاء بالعهد) .

إجلال العاملين على خدمة الإنسانية

وكان ﷺ يولي إجلالاً خاصًا لأولئك الذين يهبون حياتهم ومالهم لخدمة نوع الإنسان. كانت قبيلة طيّ العربية قد بدأت العدوان على الرسول ﷺ، ولما احتدمت المعركة أصيبت قبيلة طيّ بهزيمة منكرة، ووقع البعض منهم في الأسر، وكانت منهم ابنة حاتم الطائي؛ الذي كان العرب يضربون به المثل في الكرم. وعندما أخبرت الابنة رسول الله بنسبها، عاملها باحترام جم، وعفا عن كل ما صنعه قومها من عدوان تقديرًا لأعمال أبيها (الحلبية ج٣ ص٢٢٧).

إن سلوك الرسول ﷺ وأخلاقه الكريمة متعددة الجوانب، لذلك فإنه يصعب استيفاؤها في صفحات معدودة. ولأن هذا البيان لم يكن غرضه الرئيس بحث أعماله وأخلاقه ﷺ، لذلك سنكتفي بما سطرنا هنا في الحدود التي تقيّدنا بها كمقدمة عامة لفهم القرآن المجيد.

جمع القرآن المجيد

لقد بيّنا في الأجزاء الأولى من هذه المقدمة، أنه لم يحدث قط أن حُفِظَ أي نص من الكتب المقدسة التي تعلن أنها أُنزلت قبل القرآن المجيد، فقد طالتها كلها يد العبث بالحذف والإضافة، حتى إن الباحث عن الحق بإخلاص يجد أنه من المستحيل عليه أن يتّخذ أيًّا منها وسيلة للهداية أو للسلوك السوي. وفي المقابل، نجد أن القرآن المجيد قد تم حفظه سليمًا بنصه ولفظه، وقد وصلت إلينا كل كلمة من كلماته دون أي تدخل أو عبث أو إضافة، تمامًا كما نزل بها الوحي إلى الرسول ﷺ منذ ألف وثلاثمئة وخمسين عامًا.*

وقد بدأ نزول القرآن المجيد مع بداية دعوة الرسول ﷺ، وكان الوحي الأول الذي جاءه يتضمن آيات قليلة فقط تلقَّاها في غار حراء، ثم استمر نزول الوحي بعد ذلك إلى حين انتقاله إلى الرفيق الأعلى. وعلى هذا، فقد استغرق زمن نزول القرآن بأكمله ثلاثة وعشرين عامًا. ونحن نعلم، حسب شهادة معاصريه، أنه في البداية كان الوحي يتنَزّل عليه على فترات وفي أجزاء صغيرة، وبمرور الوقت ازداد الوحي في حجمه وفي تكرار نزوله، حتى إنه في العام الأخير، ازداد نزول الوحي إلى أن صار كأنه نهر متدفق. وأحد أسباب نزول الوحي على فترات وفي أجزاء صغيرة، بالإضافة إلى الكثير من الأسباب الأخرى، أن ما جاء به الوحي كان يحمل أمورًا جديدة، ولم يكن من اليسير على الناس أن يفهموا كل مضمونه بسهولة. ولذلك كان لا بد أن يأتي الوحي في البداية في أجزاء صغيرة، ولكن بعد أن استوعب الناس جيدًا المبادئ الأساسية التي يقوم عليها الإسلام، وصاروا أكثر فهمًا للتعاليم والموضوعات التي تناولها القرآن المجيد، بدأ الوحي يتنَزّل بشكل أسرع وبحجم أكبر، وكان الغرض أن يتمكن المسلمون جميعًا من

* أي من وقت كتابة هذه المقدمة. (الناشر)

استيعاب تعاليم القرآن المجيد. كذلك فإن أحد الأسباب الأخرى هو أن عدد المسلمين في بداية الدعوة كان صغيرًا للغاية، ولما كان الله تعالى يريد أن يحفظ النص القرآني بشكل دقيق لا يأتيه شك ولا باطل من قريب أو بعيد، لذلك فقد أنزل سبحانه في البداية أجزاء صغيرة من الوحي القرآني، على فترات امتدت في بعض الأحيان إلى عدة شهور بين مجموعة من الآيات وما يليها. وبهذا استطاع عدد كبير من المسلمين أن يحفظوا النص كله عن ظهر قلب، لكي يظل النص سليمًا محفوظًا بشكل لا يداخله أي شك على الإطلاق. وعندما أخذ عدد المسلمين في الازدياد، وصار أمر حفاظة النص القرآني أكثر سهولة، بدأ الوحي يتنَزل بسرعة أكثر. وباقتراب نهاية حياة الرسول الأعظم ﷺ زاد عدد المسلمين عن مئة ألف، وصار حفظ القرآن المجيد عن ظهر قلب أكثر سهولة. وعندئذ ازداد أيضًا نزول الوحي بشكل أسرع، وهكذا كانت مشيئة الله تعالى أن يظل النص القرآني على طهارته ونقاوته، بما لا يدع أي مجال للريب أو الشك.

وفي زمن خلافة عثمان رضي الله عنه أرسل الخليفة سبع نسخ من القرآن المجيد إلى الأنحاء المختلفة من العالم الإسلامي، وقد أصبحت كل نسخة من هذه النسخ الأساس المرجعي الذي نُسخت منه نُسخ أخرى، وهكذا اعتاد مئات الألوف من الناس في كل جيل أن يحفظوا النص القرآني بأكمله عن ظهر قلب. ولم يستطع أشد أعداء الإسلام ضراوة، أن ينسب أي تدخل في متن القرآن منذ عهد عثمان رضي الله عنه. وأولئك الذين يحاولون أن يثيروا بعض الشبهات عن سلامة النص القرآني، يوجّهون كل جهودهم إلى الفترة بين وفاة الرسول ﷺ وخلافة عثمان رضي الله عنه.

وعندما كان أي جزء من الوحي الإلهي يتنَزّل على الرسول ﷺ، كان يحفظه مباشرة، وكان ﷺ دائم التلاوة لهذا الوحي القرآني من بدايته لنهايته، وكان دائمًا وفي كل وقت يحمل في ذاكرته النص القرآني بأكمله. وبالإضافة إلى هذا، فقد اتخذ الوسائل التالية من أجل المحافظة على سلامة النص، وضمان عدم المساس به بأي شكل من الأشكال:

(١) كان الرسول ﷺ بمجرّد أن يتلقى الوحي يأمر بكتابته فورًا، وكان يتولى إملاءه بنفسه. وكان هناك عدد من الأشخاص معروفين بأنهم كتبة الوحي، إذ كان الرسول ﷺ يستخدمهم في كتابة ما يتلقاه من الوحي القرآني. ومن هؤلاء، جاء في الأحاديث ذكر خمسة عشر اسمًا (فتح الباري، ج٩، ص١٩) وهم - رضوان الله عليهم أجمعين:

١- زيد بن ثابت.
٢- أبيّ بن كعب.
٣- عبد الله بن سعد بن أبي السّرح.
٤- الزبير بن العوّام.
٥- خالد بن سعيد بن العاص.
٦- أبان بن سعيد بن العاص.
٧- حنظلة بن الربيع الأسدي.
٨- مُعيقيب بن أبي فاطمة.
٩- عبد الله بن الأرقم الزهري.
١٠- شُرحبيل بن عبد الله بن المُطاع المشهور بشُرحبيل بن حسنة.
١١- عبد الله بن رواحة.
١٢- أبو بكر الصديق.
١٣- عمر بن الخطّاب.
١٤- عثمان بن عفّان.
١٥- عليّ بن أبي طالب.

وكلما تلقى الرسول ﷺ آيات من الوحي القرآني، كان يستدعي أحد هؤلاء، ويمليه بنفسه نص الوحي الذي تلقاه.

(٢) كما هو معروف جيدًا، على كل مسلم أن يؤدي الصلوات الخمس

اليومية، ومن الأفضل أن تُؤدّى في جماعة، ولا بد أن يقرأ المرء في كل منها قسطًا من القرآن المجيد، وعلى ذلك ينبغي على كل مسلم أن يحفظ عن ظهر قلب قسطًا من القرآن المجيد. ومن المعروف أن عدد أصحاب الرسول ﷺ قد بلغ أكثر من مئة ألف، فإذا تقاسم كل مئة من أصحابه حفظ القرآن المجيد كله فيما بينهم، فإن هذا يعني أن النص القرآني كان محفوظًا بالكامل في الصدور أكثر من ألف مرة.

(٣) إن الشريعة والعقيدة، والفلسفة، والأخلاقيات، والتعاليم الأخرى، كلها موجودة في القرآن المجيد. ويتطلب بناء الأمة وتربيتها استخدام جميع هذه الوسائل. وقد اعتاد الرسول ﷺ أن يُعدّ المسلمين للقيام بالعديد من المهمات المنوطة بهم، وتأدية المسؤوليات المتنوعة التي عليهم أن يحملوها من أجل بناء مجتمع متحضر ومثقف وتنظيمه. فمثلاً، كانت هناك الحاجة إلى وجود القضاة، ورجال القانون، والمشرّعين، وأولئك الذين يتولّون شرح العقائد، وتعليم الناس الأوامر الشرعية والمبادئ الأخلاقية التي يأمر بها الإسلام، وجميع هؤلاء لا يستطيعون القيام بواجبهم خير قيام بدون أن يكونوا قد حفظوا القرآن المجيد عن ظهر قلب. ولذا كان ينبغي على كل هؤلاء أن يكونوا من حفظة القرآن المجيد.

(٤) كان الرسول ﷺ يبين دائمًا للمسلمين فضل تلاوة القرآن المجيد، وعظمة فضل حفظه عن ظهر قلب، حتى قال: من حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب حفظه الله من عذاب النار. وقد أنعم الله تعالى على رسوله الكريم بصحابة كانوا دائمًا حريصين أشد الحرص على نوال رضا الله تعالى بفعل كل ما يرضي الله ورسوله، ولذلك ما إن أعلن الرسول ﷺ هذا القول عن حفظ القرآن المجيد، إلا وأسرع عدد كبير منهم إلى حفظ القرآن بأكمله، بما فيهم أولئك الذين لم يكونوا على درجة كبيرة من العلم. وورد أيضا عن عبد الله بن عمر أن رجلاً جاء إلى الرسول ﷺ وقال له: "يا رسول الله! لقد حفظت القرآن بأكمله، ولكني لم أستطع أن أفهم كل معانيه". ويبين هذا أن عادة حفظ القرآن المجيد عن ظهر

قلب، لم تكن منتشرة بين المتعلمين فقط، وإنما كان الناس العاديون يشاركونهم في حفظ القرآن المجيد. وفي حديث آخر عَنْ عَبْد اللَّه بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بابْنٍ لَهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إنَّ ابْنِي هَذَا يَقْرَأُ الْمُصْحَفَ بالنَّهَارِ وَيَبِيتُ باللَّيْلِ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَا تَنْقِمُ أَنَّ ابْنَكَ يَظَلُّ ذَاكِرًا وَيَبِيتُ سَالِمًا" (مسند أحمد). أي وما الضرر في أن ابنك يقضي نهاره في ذكر الله ويرتاح بالنوم بالليل بدلاً من أن يقضيه في معصيته تعالى. ويبين هذا أنه حتى الناس الذين كانوا يعيشون بعيدًا عن الرسول ﷺ تعوّدوا هم أيضًا على حفظ القرآن المجيد عن ظهر قلب.

معلِّمو القرآن المجيد

(٥) مع التزايد المستمر في شغف الناس بحفظ القرآن المجيد، اختار الرسول ﷺ أربعة من المعلمين، كانوا يقومون بحفظ القرآن المجيد تحت إشرافه شخصيًّا، ثم بعد ذلك كانوا يقومون بتعليم الناس الآخرين كيفية حفظه. وقد درّب هؤلاء الأربعة بدورهم عددًا آخر من المسلمين ليقوموا بتعليم وتحفيظ القرآن المجيد. وهؤلاء الأربعة هم:

١- عبد الله بن مسعود.
٢- سالم مولى أبي حُذيفة.
٣- مُعاذ بن جبل.
٤- أُبيّ بن كعب.

كان الأول والثاني من هؤلاء المعلمين من المهاجرين من مكة، وكان الثالث والرابع من الأنصار من أهل المدينة. وكان عبد الله بن مسعود عاملاً يشتغل أحيانًا برعي الغنم، وكان سالم عبدًا مُحرّرًا. أما معاذ وأُبيّ فكانا من زعماء وقادة أهل المدينة، وهذا يدل على أن الرسول ﷺ قد عيّن معلمي القرآن من مختلف القطاعات حتى لا يجد أحد أية صعوبة في الوصول إليهم والتعلم منهم. وكان الرسول ﷺ يقول: "اسْتَقْرِئُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،

فَبَدَأَ بِهِ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ" (البخاري- كتاب المناقب). لقد تعلم هؤلاء الأربعة القرآن المجيد تحت إشراف الرسول ﷺ مباشرة، وغيرهم أيضًا الكثير من الصحابة تعلم أجزاء كثيرة من القرآن المجيد تحت إشرافه المباشر كذلك. وحدث مرة أن كان عبد الله بن مسعود يتلو بعض الآيات من القرآن المجيد في أحد المجالس، فأشار عمر بن الخطاب إلى أنه نطق كلمة معينة بطريقة غير صحيحة، فاعترض عبد الله بن مسعود قائلاً إنه تعلم القرآن من رسول الله ﷺ وأنه ينطقه كما تعلم. فأخذه عمر إلى الرسول ﷺ وشكى إليه أن ابن مسعود نطق كلمة معينة من القرآن بطريقة غير صحيحة، فطلب منه الرسول ﷺ أن يتلو أمامه الآيات التي كانت تحتوي الكلمة محل الخلاف، فلما تلا عبد الله الآيات قال الرسول ﷺ إن تلاوته صحيحة. وحينئذ ذكر عمر أنه قد تعلم نطق هذه الآيات نفسها من الرسول ﷺ نفسه، وأنه نطق الكلمة المذكورة بطريقة مختلفة. فأمره الرسول ﷺ بتلاوة الآية التي تحتويها، ولما فعل ذلك قال الرسول ﷺ إن تلاوته صحيحة أيضًا.

وتبين هذه الواقعة أنه بالإضافة إلى الأربعة الذين اختارهم الرسول ﷺ لتعليم القرآن المجيد، كان هناك آخرون أيضًا يتعلمون القرآن من الرسول ﷺ مباشرة. وقول عمر بن الخطاب أنه تعلم من الرسول ﷺ نطق كلمة معينة بطريقة خاصة يدل على أنه أيضًا تعلم أجزاء من القرآن المجيد من الرسول ﷺ مباشرة.

والاختلاف الذي نشأ بين عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود، لا يتعلق بأي اختلاف حول النص القرآني، وإنما كان يتعلق بحركة معينة من حركات أحد حروف الكلمة. والحركات صفة خاصة تتصف بها اللغة العربية، وأحيانًا يمكن أن تتغير حركة بعض الأفعال ولا يحدث تغييرًا في المعنى. فمثلاً، في بعض الأحيان، يمكن قراءة الكلمة بالفتحة أو بالكسرة، إما كأسلوب بديل للقراءة، أو كأسلوب في النطق لدى بعض القبائل أو العشائر، ولكن يظل المعنى كما هو دون تغيير. ولما كان الرسول ﷺ يضع في اعتباره هذه الأساليب المعمول بها في

النطق، فقد أذن ﷺ تحت توجيه من الله تعالى باستعمال هذه البدائل، حيث إنها لم تكن تسبب أي تغيير في معنى الكلمة. ولما كان غير العرب يجهلون هذه الخصوصية للغة العربية، فإنهم يقعون عادة في وهم أن هذا الاختلاف في النطق يعني اختلافًا في النص، وبالتالي يدّعون أن الرسول ﷺ اعتاد أن يعلم بعض آيات القرآن المجيد بطريقة معينة لشخص ما، وبطريقة أخرى لشخص آخر. وفي الحقيقة أن هذا غير صحيح بتاتًا. إن التغاير الذي صار موضوعًا للنقاش لم يكن تغايرًا في النص ولا في الآية ولا حتى في الكلمة، وإنما كانت كلها حالات يختلف فيها نطق الحركات، الأمر الذي لم يكن له أي تأثير بالمرة على معنى الكلمة ولا يغير معنى النص. إن الاختلاف الوحيد كان في طريقة نطق بعض القبائل من العرب لبعض الأفعال أو بعض الكلمات، وكان من حقهم أن يستمروا على ذلك.

قرّاء القرآن المجيد

بالإضافة إلى المعلمين الأربعة الذين أعدّهم الرسول ﷺ بنفسه لتعليم القرآن المجيد، كان هناك البعض من الآخرين الذين كانوا معروفين بأنهم من قرّاء القرآن المجيد، أي الذين كانوا يحفظون القرآن المجيد بأكمله في ذاكرتهم. وكان من بين هؤلاء:

(١) زيد بن ثابت، الذي كان أحد كُتّاب الوحي أيضًا.

(٢) أبو زيد قيس بن السكن، وهو من الأنصار من قبيلة بني نجّار، وهي القبيلة التي كانت تنتمي إليها أم الرسول ﷺ (فتح الباري، ج٩، ص٤٩).

(٣) أبو الدّرداء الأنصاري (البخاري).

(٤) أبو بكر رضي الله عنه الذي كان معروفًا عنه أنه تعوّد على حفظ القرآن الكريم منذ البداية.

(٥) عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي لم يكن يحفظ النص القرآني عن ظهر قلب فحسب، بل إنه بعد وفاة الرسول ﷺ أراد أن يكتب الآيات القرآنية حسب

ترتيب نزولها.

(٦) يروي النَسائي أن عبد الله بن عمر كان يحفظ القرآن أيضًا عن ظهر قلب، وأنه اعتاد أن يقرأه كله في ليلة واحدة. ولما سمع بذلك الرسول ﷺ نصحه بأن يختم القرآن في شهر، ولا يحاول ختمه في ليلة واحدة لأن هذا قد يكون شاقًا عليه.

(٧) يروي أبو عُبيْد أسماء بعض من كانوا يحفظون القرآن المجيد من بين المهاجرين وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، وحُذيفة، وسالم مولى أبي حذُيفة، وأبو هريرة، وعبد الله بن سائب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس.

ومن بين النساء:

السيدة عائشة، والسيدة حفصة، والسيدة أم سلمة.

معظم هؤلاء حفظوا القرآن المجيد أثناء حياة الرسول ﷺ، وبعضهم حفظه بعد وفاته. ويذكر ابن أبي داود في كتابه "الشريعة" أن تميم بن أوس الداري وعقبة بن عامر من بين المهاجرين حفظوا أيضًا القرآن المجيد عن ظهر قلب. ويذكر المؤرخون الآخرون في هذه القائمة عمْرًا بن العاص وأبا موسى الأشعري.

ومن بين الأنصار كان أيضًا أولئك الذين عُرفوا بأنهم من حُفّاظ القرآن المجيد وهم:

عبادة بن الصامت، مُعاذ بن جبل، مجمع بن حارثة، فضالة بن عُبيْد، مَسلَمة بن مُخلّد، أبو الدرداء، أبو زيد، زيد بن ثابت، أبي بن كعب، سعد بن عبادة، أم ورقة.

القرآن يُحفَظ عن ظهر قلب

من المعروف أن عددًا كبيرًا من صحابة الرسول ﷺ قد حفظوا القرآن المجيد عن ظهر قلب. وكما جاء ذكره في الجزء الخاص بحياة الرسول ﷺ، فيما يتعلق بواقعة بئر معونة، أرسل الرسول ﷺ في السنة الرابعة من الهجرة سبعين رجلاً من

صحابته ليقوموا بتعليم الإسلام والقرآن المجيد لبعض القبائل، وكان كل واحد منهم من حفظة القرآن.

كان حفظة القرآن يقضون معظم أوقاتهم في تلاوته للآخرين أثناء الليل والنهار. ويُروى أنه بلغ الرسولَ ﷺ أن أبا موسى الأشعري يُعلّم بعض الناس تلاوة القرآن المجيد في بيته. فطلب الرسول ﷺ أن يأخذوه إلى مكان من البيت بحيث يستطيع أن يسمع أبا موسى دون أن يشعر به أحد. ولما استمع ﷺ للقرآن المجيد يتلوه أبو موسى أعربَ عن سروره وقال له: "لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ. لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ" (مسلم: كتاب صلاة المسافرين). ويبين هذا أن الرسول ﷺ كان شديد الحرص على أن يتأكد بنفسه من سلامة تلاوة الآخرين للقرآن المجيد، وكان لا يترك مناسبة بغير أن يتيقن من أن صحابته يحسنون تلاوة القرآن بغير لحن أو خطأ. ومن أجل ذلك أشرف بنفسه على إعداد أولئك المعلمين الأربعة ليقوموا بدورهم بتعليم المسلمين، حتى لا تتسلل الأخطاء إلى قراءتهم.

ويروي الإمام أحمد بن حنبل عن جابر بن عبد الله خرج علينا رسول الله في المسجد ووجد أناسًا يتلون القرآن الكريم، فقال: اتلوا القرآن وأحسنوا تلاوته، واسعوا أن تنالوا به رضا الله تعالى، من قبل أن يأتي زمان يقرأ الناس فيه القرآن قراءة صحيحة، ولكن ليس من أجل طهارة قلوبهم، وإنما من أجل كسب الدنيا. (مسند أحمد)

ويذكر جابر أن القوم الذين كانوا يتلون القرآن في هذه المناسبة لم يكونوا من المهاجرين والأنصار فقط، بل كان بينهم البدو والعجمي أيضًا. ◈

◈ نصُّ ما ورد في الحديث: عن جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن وفينا العجمي والأعرابي، قال: فاستمعَ فقال: اقرؤوا، فكلٌّ حسنٌ، وسيأتي قوم يقيمونه كما يقام القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه. (مسند أحمد، مسند جابر بن عبد الله) ⇔

إن عدد أولئك الذين برعوا في تلاوة القرآن المجيد أثناء حياة الرسول ﷺ بلغ الآلاف. وقد حدث بعد وفاته مباشرة، عندما أعد مسيلمة جيشًا من مئة ألف مقاتل وزحف به إلى المدينة، أن أرسل أبو بكر ﷺ جيشًا بقيادة خالد بن الوليد ليتصدّى له، كان يبلغ ثلاثة عشر ألف مقاتل. ولما كان جيش خالد يضم الكثيرين ممن دخلوا حديثًا في الإسلام، ولم يكونوا قد اصطبغوا بعد بصبغة الإسلام، ولا تأثروا بروحه وتقاليده، فقد اخترق العدو جيش المسلمين في عدد من المواقع. وهنا اقترح بعض صحابة الرسول ﷺ من حفظة القرآن، أن يجتمع كل من يحفظ القرآن المجيد عن ظهر قلب في جيش منفصل، وأن يُبعث بهم لملاقاة جيش مسيلمة. وكان القصد من هذا أن أولئك الذين فهموا قيمة الإسلام وضرورة الدفاع عنه بأرواحهم، فإن إخلاصهم وحماستهم سوف تتغلب على عدو يتفوّق عليهم في العدد تفوّقًا عظيمًا. وقد وافق خالد بن الوليد على هذا الاقتراح، وكوّن القوة الخاصة التي تتكون من حفظة القرآن المجيد، والتي بلغ عددها ثلاثة آلاف مقاتل. وقد تصدّت هذه القوة لجيش مسيلمة بشدة وعنف شديدين، فاضطر إلى التراجع، مما أدّى فيما بعد إلى هزيمته والقضاء عليه. وقد اختار أولئك الرجال الثلاثة آلاف شعارًا لهم، يقول: "يا من تحفظون سورة البقرة عن ظهر قلب"، (وقد اختيرت سورة البقرة باعتبارها أطول سور القرآن). وقد قُتل في تلك المعركة خمسمئة من هذه القوة التي كانت تتكون من ثلاثة آلاف. ويقول السير وليام موير: "كانت المجزرة التي تعرض لها "القرّاء" (أي أولئك الذين يحفظون القرآن عن ظهر قلب) شديدة، مما حدا بعمر بن الخطاب أن يفكر في جمع النص القرآني خوفًا من أن يُفقد أي جزء منه" (الخلافة).

وفي رواية عن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ السّاعِدِيّ قال: "خَرَجَ عَلَيْنَا رسولُ اللّه ﷺ يَوْماً وَنَحْنُ نَقْتَرِىءُ، فقال: الْحَمْدُ للّه، كِتَابُ اللّه وَاحِدٌ، وَفِيكُم الأَحْمَرُ وَفِيكُم الأَبْيَضُ وَفِيكُم الأَسْوَدُ. اقرَؤوهُ قَبْلَ أنْ يَقْرَأَهُ أقوام يُقِيمُونَهُ كَمَا يُقَوَّمُ السّهْمُ، يُتَعَجّلُ أجْرُهُ ولا يُتَأَجّلُهُ". (أبو داود: كتاب الطهارة، باب ما يجزئ الأمي والأعجمي من القراءة)

وهكذا نجد أنه كان يتم تدوين القرآن المجيد في زمن الرسول ﷺ نفسه، وأنه قد حُفظ في الذاكرة، وكان كثيرًا ما يُتلى وتتكرر تلاوته، وأن ألوفًا من النـــاس كانوا يحفظون النص القرآني بأكمله عن ظهر قلب، رغم أنه حتى ذلك الحين لم يكن قد تم جمعه كله في كتاب واحد.

جمع القرآن المجيد في كتاب واحد

لما وجد عمر بن الخطاب أن خمسمئة من حفظة القرآن المجيد قـــد قُتلـــوا في المعركة التي خاضها المسلمون ضد جيش مسيلمة، اقترح عمر علـــى أبي بكـــر (الذي كان خليفة المسلمين في ذاك الوقت) أنه إذا أخذ حُفّاظ القرآن المجيـــد في التناقص بهذه الدرجة الكبيرة، فإنه قد يكون من الصعب المحافظة على ســـلامة النص القرآني، وأن الوقت قد حان لجمع القرآن كله في كتاب واحد. وقد تردد أبو بكر قليلاً في أول الأمر، ثم وافق بعد ذلك وعيّن زيد بن ثابت، باعتباره أحد كتبة الوحي الذين اختارهم الرسول ﷺ لتدوين النص القرآني، ليجمـــع الـــنص القرآني في كتاب واحد، واختار عددًا من كبار صحابة الرسول ﷺ لمساعدته في هذه المهمة. وقد أمر أبو بكر ﷺ أن يُجمع النص القرآني من اللفافات التي كان القرآن يُسجل عليها فور نزوله، وأن يشهد على دقة النص وصحته اثنان ممـــن يحفظون النص بأكمله عن ظهر قلب. وقد تم تنفيذ هذه المهمة، وكُتب الـــنص القرآني كله في كتاب واحد، وشهد أولئك الذين يحفظون القرآن على صـــحة ودقة النص المكتوب. وبناء على هذه الحقائق، هل يمكن أن يكون هناك ما يدعو لأدنى شك في أن تكون الأخطاء أو الخلافات قد تسربت إلى النص القرآني بين زمن وفاة الرسول ﷺ والزمن الذي أمر فيه أبو بكر ﷺ بجمع القرآن في كتاب واحد تحت إشراف زيد بن ثابت؟ هل يمكن أن يقال، بشيء من العقـــل، إنـــه كانت هناك صعوبة ما في جمع كتاب كانت محتوياته تُتلى باستمرار كل يـــوم بواسطة أعداد كبيرة من الناس، وأنه كان من المعتاد أن يُتلى النص بأكمله مـــن

أوله إلى آخره في شهر رمضان أثناء صلاة الجماعة، بواسطة أناس حفظوه بأكمله عن ظهر قلب، وأن عددًا كبيرًا من المصلين أنفسهم كانوا أيضًا يحفظونه عن ظهر قلب، وكان الرسول ﷺ يمليه بنفسه فيُكتب النص على الفور كلما نزل الوحي بآيات منه؛ بل وكان الشخص الذي أُسندت إليه مهمة جمع النص في كتاب واحد، هو نفسه من أولئك الذين كانوا يتولون كتابة نص الوحي فور نزوله، وكان يحفظه كله عن ظهر قلب؟ لو كان ذلك الكتاب يحتوي غلطة واحدة تختلف عن النص الذي أملاه الرسول ﷺ، أو تختلف عن النص الذي كان يحفظه زيد بن ثابت، أو عن النص الذي كان يحفظه أيضًا في ذاكرتهم ذلك العدد الكبير من حفظة القرآن، الذين قاموا بالتصديق على صحة النص في ذلك الكتاب، لأمكن اكتشافها وتصحيحها على الفور. إن يقينية ودقة النص القرآني قد تأكّدت وثبتت بأدلة لا تقبل الشك، ولا يمكن لعاقل أن يردّها أو يرفضها. وليس هناك من نص لأي كتاب سماوي في العالم يمكن أن ينازع القرآن المجيد في أن صحته ودقته فوق مستوى كل الشبهات.

توحيدُ نُسَخِ القرآن المجيد

أثناء خلافة عثمان رضي الله عنه بدأت الشكاوى تأتي إليه من الأمصار، أن بعض القبائل تنطق بعض الكلمات في القرآن المجيد بطريقة خاصة، ونتج عن ذلك أن بعض غير المسلمين الذين سمعوا هذه الكلمات تُنطق بطريقة مختلفة، ساورهم الظن بأن هناك اختلافًا في النص القرآني. وقد سبق بيان أن هذه الاختلافات في النطق، كانت بسبب ما تعودت عليه بعض القبائل أو بعض العشائر، ولا تتعلق بتاتًا بوجود أي اختلاف في النص، أو وجود أي تأثير على معنى الكلمة المختلف في نطقها. ومع ذلك، فقد رأى عثمان رضي الله عنه أن من الحكمة إزالة كل الاختلافات حتى في نطق الحركات. وقد أمر بإعداد عدة نسخ من المصحف الذي تم تجميعه في زمن أبي بكر رضي الله عنه، وأرسل هذه النسخ إلى العديد من البلاد التي كانت تحت

النفوذ الإسلامي، وأصدر أمرًا بعدم السماح بأية اختلافات في تلاوة القرآن المجيد عن النص الموحّد، حتى ولو كان اختلافًا في نطق حركة من حركات أي حرف في النص. وفي زمن الرسول ﷺ كانت حياة المجتمع العربي تقوم على التقسيم القبلي؛ فكان لكل قبيلة وجود مستقل عن القبائل الأخرى. وكان لكل قبيلة عاداتها الخاصة في نطق بعض الكلمات. ولما دخلت هذه القبائل في الإسلام التحموا جميعًا في مجتمع واحد له ثقافة إسلامية، وأصبحت اللغة العربية على الفور أداة هذه الثقافة. وانتشر تعلّم القراءة والكتابة بسرعة بين العرب، وأصبح من السهل عليهم أن يتّبعوا النطق الأدبي السليم لكل الكلمات العربية. وصارت لغة مكة هي الأساس الذي توحّد عليه الجميع. ولذلك لم يعد هناك من سبب في زمن عثمان رضي الله عنه يبرر استمرار الاختلاف في نطق حركات الكلمات حسب ما تعودت عليه القبائل، خاصة وقد صار هناك احتمال أن تخلق هذه الاختلافات في النطق سوء الفهم لدى غير العرب. لقد كان العمل الحصيف الذي قام به عثمان رضي الله عنه والذي جاء في وقته المناسب، هو الأساس الذي اتّخذه الكُتّاب غير المسلمين لاتهامه بأنه أدخل بعض التغييرات في القرآن المجيد، أو أن نُسخ القرآن التي نشرها، كانت تختلف في شكل من الأشكال عن النص الموحّد، أو النص الذي نزل على الرسول ﷺ. ويتصوّر هؤلاء النقّاد أنهم قد اكتشفوا سلاحًا ماضيًا في التهجّم على دقة وصحة النص القرآني، غير أن أولئك الذين هم على شيء من المعرفة باللغة العربية وتاريخ جمع القرآن المجيد، لا يسعهم إلا أن يبتسموا في عجب من ضحالة ذكائهم الذي غرّر بهم.

ليس هناك من شك في أن النص الذي نشره عثمان رضي الله عنه كان هو نفس النص الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ. وليس هناك من شك في أن النص القرآني قد استمر على نقائه دون أي تغيير أو تحريف منذ أن بعث عثمان رضي الله عنه بنُسخ من النصّ الموحّد إلى مختلف البلاد في الدولة الإسلامية. لقد تكرر إصدار هذه النسخ بسرعة فائقة وبشكل واسع، حتى إنه لم يمض زمن طويل إلاَّ وصار كل مسلم

يعرف القراءة يقتني نسخته الخاصة من القرآن المجيد. وقد ورد أنه بعد سنوات قلائل، حين قام نزاع بين عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، أن جنود معاوية ربطوا مصاحفهم على أسنة الرماح، وأعلنوا أنهم يريدون تحكيم القرآن في النّزاع الذي نشب بين الطرفين (الخلافة للسير وليام موير). ويدل هذا على أنه في ذلك الوقت كان من عادة كل مسلم أن يحتفظ بمصحفه الخاص.

استمرار عادة حفظ القرآن المجيد

إن تلاوة القرآن الكريم، والقيام بنسخه ونشره، كانت تُعتبر دائمًا من الأعمال الفاضلة في الإسلام. ويخبرنا التاريخ أن الكثير من الرجال العظماء الذين اشتغلوا بالأمور الدينية، بل وحتى الملوك المسلمين، كانوا يشغلون أنفسهم بكتابة نسخ من القرآن المجيد. وحتى في بلد غير عربي مثل الهند، وبعد انقضاء العديد من القرون منذ حياة الرسول ﷺ، عندما أخذ المسلمون يتّبعون أساليب الهندوس وعاداتهم في أمور كثيرة، كان الإمبراطور المغولي العظيم "أورنغزيب" يكرّس الكثير من ساعات راحته ليكتب نُسخًا من القرآن المجيد. وجاء في الأثر أنه كتب بيده سبع نسخ كاملة للقرآن المجيد.

ولم تكن عادة حفظ النص القرآني مقصورة على زمن الرسول ﷺ أو زمن الخلفاء الأوائل، فحتى بعد كتابة العديد والكثير من نسخ القرآن المجيد، وبعد أن صارت تلك النسخ في متناول أيدي الناس، كان عدد كبير من الناس في كل عصر وكل زمن، يحفظون في ذاكرتهم جميع آيات القرآن الكريم. ومن التقديرات المتواضعة أن عدد حفّاظ القرآن المجيد كان يتراوح بين مئة ألف إلى مائتي ألف من المسلمين في كل عصر من عصور التاريخ الإسلامي، وكثيرًا ما كان يزيد عدد الذين يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب عن هذا التقدير المذكور. والكُتّاب الأوروبيّون الذين لم يدركوا مدى ما في وجدان المسلمين من مشاعر الحب للقرآن المجيد، ومقدار ما يحدثه ذلك الكتاب العزيز في قلوبهم من أحاسيس

الود تجاهه، نراهم يترددون في تصديق أن نقاء القرآن وحفظه من كل كلمة أو حرف دخيل عليه، قد تم عن هذا الطريق وبهذا الأسلوب. وهم يرون أن التاريخ لم يسجل أبدًا أن شخصًا واحدًا قد حفظ الكتاب المقدس بأكمله عن ظهر قلب، ولذلك يبدو لهم أنه أمر يصعب تصديقه أن يكون القرآن المجيد بأكمله في ذاكرة أعداد كبيرة من الناس في كل جيل من الأجيال. غير أنه يجب ألا يعزب عن البال أن إحدى السمات الخاصة التي يتصف بها القرآن المجيد، أن لغته تتميز بأن لها إيقاعًا متناغمًا، وأنه من السهل الاحتفاظ به في الذاكرة. والابن الأكبر للكاتب، ميرزا ناصر أحمد*، الذي تخرّج في جامعة البنجاب بمرتبة الشرف، ثم حصل على الماجستير من جامعة أكسفورد، كان قد قام تحت إشراف والده بحفظ القرآن المجيد كله عن ظهر قلب، وذلك قبل أن يبدأ دراساته العلمية. وفي قرية صغيرة مثل قاديان، يوجد طبيبان والعديد من الخريجين الذين يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب. وقد استطاع أحد هذين الطبيبين أن يحفظ النص القرآني بأكمله في مدة أربعة أو خمسة شهور. كذلك فإن والد السيد محمد ظفر الله خان، قاضي المحكمة الفيدرالية بالهند، استطاع أن يحفظ القرآن عن ظهر قلب في عدة شهور عندما بلغ الخمسين من عمره. واستطاع الحافظ غلام محمد، الذي كان في وقت من الأوقات المبشر الذي يمثل الجماعة الإسلامية الأحمدية في موريس، أن يحفظ القرآن المجيد كله في مدة ثلاثة شهور. وحين ذهب الكاتب لأداء فريضة الحج في مكة المكرّمة، قابل حفيد منشي محمد جمال الدين خان (الذي كان وزيرًا لولاية بهوبال لعدة سنوات)، وقد أخبر الكاتب بأنه نجح في حفظ القرآن المجيد خلال شهر واحد. وتبين هذه الأمثلة أن النص القرآن قد صِيغ في لغة سهلة، تجعل من اليسير على الإنسان أن يحفظها بسرعة. وقد أخبر أحدُ الرجال الطاعنين في السن الكاتبَ أن ميرزا كُلْ محمد، والد جدّ مؤسس

* الذي انتُخب خليفة ثالثًا للإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام بعد وفاة والدِه الخليفةِ الثاني مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه. (الناشر)

الجماعة الإسلامية الأحمدية، الذي عاش في زمن الإمبراطور المغولي "عالَمْغِير الثاني"، كان يتولى الإنفاق على خمسمئة شخص في بلاطه، كانوا جميعًا يحفظون القرآن عن ظهر قلب. وكان ميرزا كُلْ محمد واحدًا من الزعماء الذين كانوا يملكون على منطقة تبلغ مئتين وخمسين ميلاً مربعًا. وفي بعض المناطق من الهند، وهي البلد التي لم تكن اللغة العربية منتشرة فيها، كان من عادة معظم المسلمين خلال كافة العصور أن يحفظوا القرآن المجيد عن ظهر قلب.

وإحدى الوسائل التي اتّخذها المسلمون للحفاظ على سلامة ونقاء النص القرآني، والتي اتبعها المسلمون طوال قرون عديدة، هي أن الأطفال الذين كانوا يولدون عميًا، أو الذين يفقدون حاسة الإبصار في طفولتهم، كانوا يلقون تشجيعًا من ذويهم للانكباب على حفظ القرآن المجيد. وكان هذا يحدث باعتبار أنه لما كان الشخص الأعمى لا يستطيع أن يعمل في مهنة عادية، فإنه يستطيع أن يُحوّل إعاقته إلى ما ينال به التقدير، وذلك بأن يكون من أولئك الذين يحافظون على سلامة النص القرآني بحفظه عن ظهر قلب. وقد انتشرت هذه العادة بشكل واسع في الهند لدرجة أن كل أعمى صار يُطلق عليه لقب "حافظ"، مما يعني أنه شخص يحفظ القرآن المجيد بحفظ متنه عن ظهر قلب.◈

وخلال شهر رمضان المبارك، يُتلى القرآن المجيد بأكمله بصوت عال في صلاة التراويح التي يؤديها المصلون جماعة في المساجد الرئيسة في جميع أنحاء العالم. وفي العادة يتلو الإمام القرآن في الصلاة، ويقف وراءه حافظ آخر ليراجع دقة التلاوة، وقد يقوم في بعض الأحيان بتصحيح الإمام إذا استدعى الأمر. وبهذه الطريقة يُتلى القرآن الكريم خلال شهر رمضان في مئات وألوف المساجد في جميع أنحاء العالم.

هذه هي بعض الوسائل التي اتّبعها المسلمون للمحافظة على نقاء النص

◈ لعل السبب نفسه أدى إلى إطلاق تسمية كل أعمى في مصر بلقب "شيخ"، والله أعلم. (المترجم)

القرآني ودقّته، حتى إن أعدى أعداء الإسلام اضطر للاعتراف بأنه قد تم المحافظة على متن القرآن المجيد بشكل تام وكامل منذ زمن الرسول ﷺ. لذلك يمكن التأكيد بكل ثقة ويقين على أن متن القرآن الموجود اليوم هو نفس المتن الذي أعطاه الرسول ﷺ للعالم. ونذكر فيما يلي شهادة بعض الكُتّاب الغربيين في هذا الصدد:

يلخص السير وليام موير رأيه في هذا الموضوع في كتابه "حياة محمد" (ص ٢٨) كما يلي:

"إن ما لدينا، رغم أنه من الجائز أنه (أي محمد ﷺ) قد صحح هو نفسه، إلا أنه لا يزال نفس كلامه ...."

"إننا نستطيع أن نؤكد، حسب أقوى القرائن، أن كل آية من آيات القرآن هي نفس كلام محمد بنفسه بدون تغيير" (ص٢٨).

"وهناك ضمان كامل، داخلي وخارجي، أن لدينا نفس النص الذي أعطاه محمد وكان يستعمله" (ص٢٧).

وأيضًا يقول: ".... واستنتج بتقدير دقيق ما قرره 'فون هامر' أن القرآن الذي لدينا هو بالتأكيد الكلام الذي جاء به محمد، والذي يعتبره المسلمون كلام الله" (ص٢٨).

ويقول نولدكه: "قد تكون هناك بعض الأخطاء الإملائية، ولكن قرآن عثمان لا يحتوي سوى العناصر الأصلية، رغم أنها أحيانًا في ترتيب غريب. وإن مجهودات العلماء الأوروبيين لإثبات وجود إضافات تمت فيما بعد على النص قد باءت كلها بالفشل" (دائرة المعارف البريطانية، الطبعة التاسعة، تحت كلمة "قرآن").

ترتيب السور والآيات في القرآن المجيد

يُقال أحيانًا إن ترتيب السور في القرآن المجيد كان من فعل عثمان بن عفـــان

ﷺ، وهذا غير صحيح. فمن المعروف جيدًا أن الرسول ﷺ اعتاد أن يتلو القرآن كله في شهر رمضان، وكان بعض صحابته يفعلون ذلك أيضًا. وجاء في الحديث الشريف أن جبريل كان يراجع القرآن كله مع الرسول ﷺ خلال شهر رمضان (البخاري). وقد لا يقبل الشخص غير المسلم هذه المقولة الأخيرة، ولكن مما لا يرقى إليه الشك بتاتًا أن الرسول ﷺ كان يتلو القرآن، ولا بد أنه كان يتلوه حسب ترتيب معين.

وبعد وفاة الرسول ﷺ، لم يقم عليّ بن أبي طالب بزيارة أبي بكر لبعض الوقت، وكان الناس قد اختاروا أبا بكر ليكون الخليفة الأول. وقد أرسل أبو بكر إلى عليّ يسأله عما إذا كان قد استاء بسبب انتخابه خليفة، فأجاب عليّ بالنفي، وأوضح أن الأمر ليس كذلك، بل إنه كان مشغولاً بنسخ القرآن المجيد بالترتيب الذي نزل به، لأنه كان قد قطع على نفسه عهدًا عند وفاة الرسول ﷺ أن يقوم بذلك. وتبين هذه الواقعة أنه في زمن الرسول ﷺ كان من المعتاد أن يتلو الناس القرآن حسب ترتيب معين، وأن هذا الترتيب كان يختلف عن ترتيب نزوله، ولذلك فقد قرر عليّ ﷺ أن ينسخه بالترتيب الذي نزل به، حتى يحفظ التاريخ هذا الترتيب أيضًا.

وهناك أحاديث شريفة أخرى تبين أيضًا أنه كلما نزلت آية أو مجموعة من الآيات القرآنية إلى الرسول ﷺ، كان يبعث لاستدعاء واحد من كتبة الوحي ويأمره أن يكتب الآية أو مجموعة الآيات، وكان يبين له في نفس الوقت في أية سورة وفي أي مكان منها يكتبها. ويبين هذا أنه في الوقت الذي كان يتلقى فيه الرسول ﷺ الوحي، كان جبريل عليه السلام يخبره أيضًا عن المكان الذي يوضع فيه.

وإن أقوى الأدلة التي تؤيد وجود ترتيب خاص لسور القرآن المجيد وآياته الكريمة، هو تسلسل الموضوع الذي تتناوله السور والآيات. فإن دراسة القرآن المجيد تبين أن موضوع كل سورة يرتبط بموضوع السورة السابقة لها، وأيضًا بموضوع السورة التالية لها. فإذا كان عثمان هو الذي قام بترتيب السور القرآنية

حسب طول كل منها، فكيف يبين نسق الترتيب وجود اتصال وتسلسل بين موضوع كل سورة؟ فمثلاً، سورة الفاتحة نزلت في مكة، وهي فاتحة القرآن المجيد. وسورة البقرة نزلت في المدينة، وهي تتبع مباشرة سورة الفاتحة، تاركة العديد من السور التي نزلت في الفترة بين السورتين. ويزعم الكُتّاب المسيحيون أن سورة البقرة قد وُضعت في المقدمة لأنها أطول سور القرآن الكريم. إنهم يغفلون أن أول السور في القرآن المجيد ليست هي سورة البقرة، وإنما هي سورة الفاتحة، وهي سورة قصيرة جدًّا ولا تحتوي إلا على سبع آيات فقط. وبالإضافة، عندما نقرأ سورة الفاتحة، نجد أنها تنتهي بالدعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وسورة البقرة التي تتبعها مباشرة تبدأ بقوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. فإذا كان اختيار سورة البقرة لتتبع مباشرة سورة الفاتحة، يقوم فقط على مجرد أنها أطول سورة في القرآن المجيد، فلماذا جاءت في بدايتها الآية التي تعطي الجواب على الدعاء الذي جاء في نهاية سورة الفاتحة؟ إن سورة الفاتحة تنتهي بدعاء لطلب الهداية، وسورة البقرة تبدأ بالآية التي تشير إلى الهداية التي جاء الدعاء من أجلها في نهاية السورة السابقة. إن هذه ليست مجرد صدفة، فإن استمرار تسلسل الأفكار والموضوعات موجود على مدى القرآن المجيد بأكمله، رغم أنه يحدث أحيانًا أن سورة نزلت في مكة تتبع سورة نزلت في المدينة، والعكس صحيح أيضًا. إن هذا يدل بوضوح على أن ترتيب سور وآيات القرآن المجيد قد تم حسب توجيه الوحي الإلهي.

والسؤال الذي قد ينشأ هنا هو لماذا اختلف ترتيب السور والآيات في القرآن عن الترتيب الذي نزلت به. والإجابة هي أنه أثناء نزول القرآن المجيد، كانت التعاليم والعقائد التي احتواها جديدة تمامًا وغير مألوفة للعرب، وكان من الضروري تعويد عقولهم على تقبُّل هذه التعاليم الإسلامية، وإدخال هذه العقائد إلى قلوبهم، ولذلك جاءت الآيات الأولى في شكل سور قصيرة تحتوي على أساسيات تعاليم الإسلام، مثل وحدانية الله تعالى، والعطف على الفقراء، وأهمية

عبادة الله تعالى، والفوائد التي تعود على الإنسان من عبادته ودوام ذكره، وأيضًا النبوءات التي تبين أنواع المعارضة التي كان من المقدّر أن يلقاها الرسول ﷺ، وأية معاملة سوف يلقاها المسلمون، وكيف أنه من المقدّر للإسلام أن يتقدم وينتشر، وأي نهاية سوف يلقاها أعداء الإسلام ومعارضوه. ومع ازدياد عدد المسلمين وانتشار الإسلام، بدأ الوحي الذي يحتوي على قوانين الشريعة الإسلامية وأوامرها يتنَزّل. وعلى هذا، فإن الترتيب الذي نزل به الوحي القرآني، كان هو الترتيب الأكثر ملائمة لاحتياجات الظروف التي نزل فيها. ولكن بعد أن اكتمل نزول القرآن، ودخل الإسلامَ مئاتُ الألوف من الناس، وحتى غير المسلمين صاروا على علم بخلفية ما يحويه من أمور، أصبح من الضروري تقديم تعاليمه وعقائده للمسلمين وغير المسلمين من زاوية جديدة. ولتحقيق هذه الغاية، كان الرسول ﷺ يعطي تعليماته تحت توجيه الوحي الإلهي، لترتيب سور القرآن وآياته ترتيبًا دائمًا للمستقبل. ولا شك أن هذه إحدى معجزات القرآن المجيد العظيمة، أنه نزل بالترتيب الأنسب لاحتياجات المرحلة التي كان يتنَزّل فيها، ثم تم ترتيبه للاستعمال الدائم الذي تقتضيه احتياجات المسلمين في المراحل والعصور التالية. إن كتابًا يتنَزّل على شكل نُتف وأجزاء متفرقة على مدى ثلاث وعشرين سنة، بترتيب أنسب ما يكون لمتطلبات تلك الفترة، وفي نفس الوقت يصبّ في قالب معين ليأخذ الشكل الذي يكون أنسب ما يكون لعصور المستقبل، لا شك أنه عملٌ من المستحيل تحقيقه إلا تحت إشراف وتوجيه الوحي السماوي.

وقد ذكرنا في مقدمة كل سورة من سور القرآن شرحًا لموضوع السورة، وأوضحنا العلاقة بين موضوع السورة وموضوع السورة التي سبقتها، ويتبين بذلك التسلسل المتوالي لمواضيع سور القرآن المجيد.

بعض نبوءات القرآن المجيد

لقد شرحنا من قبل في الأجزاء المتقدمة من هذه المقدمة العامة، أن الصحف المقدسة التي أنزلها الله تعالى قبل القرآن المجيد، كانت تحتوي نبوءات تتعلق بنُزول القرآن. ويدّعي الكُتّاب الغربيون أن القرآن المجيد نفسه لا يحتوي على أية نبوءات. وهذا غير صحيح. إن الكلمات الأولى من الوحي القرآني التي تلقاها الرسول ﷺ في غار حراء، كانت تحتوي نبوءة تفيد بأن الإنسان سوف يتلقى عن طريق القرآن المجيد ما لم يكن يعلم من العلوم والمعارف. وبالتالي فإننا نجد الكثير من الآيات الكريمة في القرآن المجيد، قد تعرضت للأخطاء التي تسربت إلى الصحف الأولى، والتي أثبتت الأحداث صحة ما جاء به القرآن المجيد. فمثلاً، جاء في القرآن المجيد أنه لما غرق فرعون، نجا جسده وتم حفظه ليكون آية للأجيال التالية، إذ يقول تعالى في القرآن المجيد:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۞ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (يونس: ٩١-٩٣)

أي أن الله تعالى حمل بني إسرائيل إلى بر الأمان عبر البحر، وقد اتبعهم فرعون وجنوده بسبب عداوتهم وعدوانهم، وظلوا يطاردونهم إلى أن انتهى بهم الأمر إلى الغرق، وفي تلك اللحظة قال فرعون: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وعندئذ قضى الله: "إنك تعلن اليوم إيمانك بينما كنت من قبل من العاصين وكنت من المفسدين، وفي مقابل هذا الإيمان الذي جاء في اللحظة الأخيرة، فإننا سوف ننجّي بدنك فقط، وذلك ليكون آية للأجيال القادمة، رغم أن أغلبية الناس لا يلقون بالاً لآيات الله بل هم عنها غافلون".

إن هذه الحادثة لم يأت ذكرها في الكتاب المقدس، ولا في أي كتاب من الكتب اليهودية، ولا في أية سجلات معتمدة لهذه الفترة من التاريخ. وقد ذكرها القرآن المجيد منذ ما يزيد عن ثلاثة عشر قرنًا. وبعد مرور ثلاثة عشر قرنًا، تم اكتشاف بدن هذا الفرعون، وأمكن التعرّف على شخصيته، وثبت أنه بعد أن غرق أمكن إنقاذ جسده وتم تحنيطه وحفظه. وكان من الممكن أن يفسد الجسد، أو يتلف ويباد بسبب اضطرابات الطبيعة التي وقعت في أرض مصر منذ عهد موسى عليه السلام، ولكنه نجا من كل هذه الأخطار، وظل محفوظًا ليكون آية ودرسًا للأجيال التالية، ويؤكد على صدق القرآن المجيد.

وأيضًا، كانت إحدى الآيات القرآنية التي تلقاها الرسول ﷺ في أوائل الدعوة قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ (الليل: ٢)، أي أن الله تعالى يُقسم بالليل عندما ينتشر، وذلك إشارة إلى أن الإسلام سوف يتعرّض لابتلاءات متتالية وموجات من الاضطهاد. وقد جاءت هذه النبوءة في الوقت الذي لم يكن الرسول ﷺ نفسه يتوقع أن يعارضه قومه بهذا الشكل العنيف الذي تصرفوا به. وحدث أنه بعد أن تلقى الوحي لأول مرة، أخذته خديجة – رضي الله عنها – إلى ابن عمها ورقة بن نوفل. وبعد أن قص الرسول ﷺ عليه ما حدث له، قال له ورقة: "هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى"، وذكر له أنه لو بقي حيًّا فسوف يؤيده عندما يُخرجه قومه من بلده. فتعجب الرسول ﷺ كثيرًا وسأله قائلاً: "أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟" (البخاري). فقد كان يعلم أنه يتمتع بمكانة كريمة بين قومه، ولم يتوقع أن يلقى منهم معارضة واضطهادًا يصل إلى حد إخراجه من مكة. وقد أخبره الله تعالى في ذلك الوقت أن الإسلام والمسلمين سوف يمرّون خلال فترة من الظلام وليل من المعارضة والاضطهاد. وسرعان ما بدأت تلك الليلة، واستمرت لمدة عشر سنوات عصيبة.

وقد سبق أنْ ذكر القرآن المجيد أيضا استمرار الاضطهاد لمدة عشر سنوات. ففي بداية سورة الفجر يُقسم الله تعالى بليال عشر تسبق بزوغ الفجر. ويتفق

السير وليام موير والكُتّاب المسيحيون الآخرون على أن هذه السورة نزلت قرب نهاية السنة الثالثة من دعوة الرسول ﷺ. وإلى ذلك الوقت لم تكن معارضة أهل مكة للإسلام قد اتّخذت شكلاً قاسيًا وحشيًّا بعد. وفي ذلك الوقت ذكر القرآن المجيد أن المسلمين سوف يجتازون فترة مظلمة تمتد لعشر ليال من الاضطهاد. ومن المعروف لمن هم على دراية بالتعبيرات المستعملة في الكتب المقدسة، أن الحديث عن يوم أو ليلة يعني فترة سنة، ويحتوي الكتاب المقدس على العديد من الأمثلة المشابهة، غير أنه يستعمل لفظ "يوم" ليرمز به لمدة سنة، أما القرآن المجيد فيستعمل لفظ "الليل" ليرمز به عن فترة من ظلام المصاعب والابتلاءات تمتد لمدة سنة. وعلى ذلك فإن هذه الآية تلفت الأنظار إلى أن زمن الابتلاءات الشديدة والاضطهاد العنيف، سوف يستمر لمدة عشر سنوات. وقد بدأت تلك الفترة على الفور تقريبًا بعد نزول هذه الآية، واستمرت لمدة عشر سنوات.

وقد يعترض أحد الخصوم المعادين، فيدّعي أنه في الوقت الذي جاءت فيه هذه الآية، كان باستطاعة الرسول ﷺ أن يتوقع من أهل مكة أن يغيّروا معارضتهم الشديدة إلى اضطهاد شديد. ولكن، هل كانت لديه أية وسائل، غير الوحي الإلهي، تمكنه من التأكيد على أن فترة الاضطهاد سوف تمتد لمدة عشر سنوات، وليس لمدة خمس، أو ثماني، أو اثنتي عشرة، أو ثلاث عشرة سنة؟ لقد حددت الآية مدة عشر سنوات، وقد سمح أهل مكة للرسول ﷺ بالبقاء فيها لمدة عشر سنوات فقط، ظل خلالها هو وأتباعه يتعرضون للاضطهاد الشديد. وبعد عشر سنوات اضطر إلى الخروج من مكة، ووصل إلى المدينة حيث أتاح الله تعالى له الفرص لانتشار وتقدم الإسلام والمسلمين، وصارت مغادرته مكة تمثل فجر انتشار الإسلام وتقدمه.

وقد يقال إن فترة السنوات العشر كانت تخمينًا ذكيًّا من جانب الرسول ﷺ. ولكن هل كان الأمر أيضًا مجرد تخمين ذكي أنه بعد انتهاء فترة السنوات العشر، سوف يدخل الإسلام أعداد كبيرة من أهل المدينة، وأنه سوف يهاجر إلى تلك

البلدة؟ هل كانت له حرية اختيار إدخال أهل المدينة في الإسلام، وهل كانت له حرية القيام بالهجرة في سلام من مكة إلى المدينة؟

غير أن الوحي الإلهي لم ينته عند هذا الحد، بل استمرت الآيات تقول: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ (الفجر: ٥). ويقسم الله تعالى في هذه الآية بالليل الذي يزول وينتهي، أي بعد انتهاء ليالي الاضطهاد العشر، لن يزول الظلام تمامًا، وإنما بعد أن ينبثق الفجر سوف تكون هناك ليلة أخرى، ينقشع خلالها الظلام وينتهي، ولن تأتي بعدها ليال مظلمة أخرى. وهذا ما حدث تمامًا. إن الهجرة إلى مكة تبعتها سنة أخرى من الحذر والترقب، حيث كان المسلمون في المدينة في خوف مستمر من أن يغزوهم أهل مكة ويقضوا عليهم. وقد وقعت غزوة بدر بعد سنة تقريبًا من بعد الهجرة. وكما جاء عن هذه الغزوة في الكتاب المقدس، وكما سبق أن ذكرناه عنها في الجزء السابق من هذه المقدمة، أن تسببت هذه الغزوة في القضاء على مجد قيدار أي قريش، وانتهت بذلك السلسلة الطويلة من الاضطهاد الذي تعرض له المسلمون على أيدي أهل مكة. صحيح أنه كان على المسلمين أن يخوضوا غمار معارك أخرى، ولكن معركة بدر جعلت منهم قوة مستقلة ذات سيادة يُحسب لها ألف حساب، بينما أطاحت برؤوس الكفر، ودمّرت قادة قريش الذين كانوا هم سبب الاضطهاد والعذاب الذي قاسى منه المسلمون.

وأيضًا، بينما كان الرسول ﷺ لا يزال في مكة، تلقى الوحي التالي:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(القصص: ٨٦)

وتعني الآية أن الله تعالى الذي أنزل القرآن على رسوله، وفرض عليه أمر طاعته، يضمن له أنه سوف يعيده مرة أخرى ويردّه إلى مكة. ولا تعني هذه الآية الكريمة أنه سوف يتحتّم على الرسول ﷺ أن يهاجر من مكة فحسب، بل إنها تذكر أيضًا نبوءة عن عودته ظافرًا إلى مكة. ولا يمكن لأي إنسان يمر في مثل

الظروف التي كان يمر بها الرسول ﷺ في مكة، في الوقت الذي نزلت فيه هذه الآية، أن يخمّن أو يتخيّل أنه بعد أن يضطر إلى الخروج من مكة سوف يعود إليها فاتحًا وظافرًا. وهناك أيضًا آية قرآنية أخرى تتعلق بنفس الواقعة، وقد نزلت كذلك بينما كان الرسول ﷺ لا يزال في مكة، إذ يقول تعالى:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٨١)

في هذه الآية الكريمة يوجّه الله تعالى رسوله إلى أن يدعو لكي يُدخله الله (أي يجعل دخوله في البلد الذي يرسله إليه مهاجرًا) دخولاً ناجحًا صادقًا، وبعد ذلك يمكّنه أن يخرج منه بنجاح ليشن هجومه على أعدائه، وأن يكون نصيرًا له في ذلك الهجوم. إن هذه الآية تذكر أن الرسول ﷺ سوف يهاجر من مكة إلى المدينة، وأنه سوف يغزو مكة من المدينة، وأن مكة سوف تفتح له أبوابها ليدخلها فاتحًا منتصرًا.

ولما كان الرسول ﷺ لا يزال في مكة، تلقى وحيًا مؤدّاه أن ساعة النصر تقترب، وأن القمر قد انشق ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر:٢). والقمر هو رمز لسُلطة العرب، وانشقاق القمر يعني أن شوكة العرب على وشك أن تنكسر. وقد نزلت هذه الآية في الوقت الذي اضطر المسلمون فيه أن يهاجروا إلى أماكن مختلفة، بينما كان الرسول في مكة يعاني من الاضطهاد، ولا يستطيع حتى أن يؤدي صلاته في الكعبة. وقد حدث مرة أنه أراد أن يصلي في الكعبة، فجرّوه منها بطريقة مهينة. وفي ذلك الوقت، عندما كانت مكة كلها تشتعل بنيران الاضطهاد للرسول ﷺ وللإسلام، أخبر الله تعالى رسوله بأن قوة أهل مكة سوف تنكسر، وأن زمن انتصار الإسلام يقترب سريعًا. وفي خلال بضع سنوات، تحققت هذه النبوءة بأوضح ما يكون. ففي معركة بدر، تحطمت تلك القوة المتبجحة، وانكسر مجد قيدار، وارتفع لواء الإسلام ليثبت إلى الأبد. لقد انشق القمر بالفعل، وكان ذلك اليوم هو يوم الدينونة للعرب. في ذلك اليوم

خلق الله تعالى سماوات جديدة وأرضًا جديدة.

وحين كان الإسلام والمسلمون لا يزالون هدفًا لاضطهاد العرب من أهل مكة، جاءت الأنباء تحمل خبر انتصار الفرس على الرومان في الحرب. وقد تسبب هذا في ابتهاج عظيم بين أهل مكة، لأن الفرس كانوا مشركين بينما كان الرومان مسيحيين. وقد اعتبر أهل مكة أن انتصار الفرس فأل حسن، يدل على انتصارهم في نهاية الأمر على المسلمين. وفي هذه المناسبة تلقى الرسول ﷺ وحيًا من الله تعالى يخبره أن الرومان قد لاقوا الهزيمة في أرض قريبة، ولكنهم خلال تسع سنوات سوف تنقلب هزيمتهم إلى نصر مرة أخرى. يقول تعالى:

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣-٧)

إن الكلمة التي جاءت في هذه الآية، وهي كلمة ﴿بِضْعِ﴾ تفيد رقمًا بين ثلاثة وتسعة. وحين تم إعلان هذه الآية بين أهل مكة ضحكوا وسخروا من المسلمين. وراح البعض منهم يراهنون أبا بكر على مئة جمل أن هذه النبوءة لن تتحقق، فقد كانت الظروف السائدة آنذاك تبين أنه من المستحيل أن يتغلب الرومان على الفرس، فإن هزيمتهم في الشام تبعتها هزائم أخرى لجيش الرومان، ودفع جيش الفرس المنتصر القوات الرومانية إلى الخلف، حتى وصلوا إلى سواحل بحر مرمرة، وانعزلت القسطنطينية عن أراضيها الشرقية، وتقلصت الإمبراطورية الرومانية لتصبح في حجم بلد صغير. غير أنه كان من المحتم أن تتحقق كلمة الله، وقد تحققت. ورغم أن الرومان كانوا أقل عددًا وأقل عدّة من الفرس، فقد حققوا نصرًا حاسمًا على الفرس الذين اضطروا للهرب، وكانت النتيجة أنهم انسحبوا إلى داخل بلاد فارس، وأعاد الرومان استيلاءهم على ممتلكاتهم في آسيا وأفريقيا.

ويحتوي القرآن المجيد على الكثير من النبوءات التي تتعلق بآخر الزمان، وقد تحقق البعض منها. فمثلاً، يقول تعالى:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ (الرحمن: ٢٠-٢٥)

وتبين هذه الآيات أن بحرين سوف يلتقيان، ويخرج من هذين البحرين اللؤلؤ والمرجان، وسوف تبحر في هذين البحرين سفن سريعة وكبيرة كالجبال. وقد تحققت هذه النبوءة بعد أن تم بناء قناة السويس وقناة بنما، ومن المعروف عن البحار التي التقت بواسطة هاتين القناتين أنها مشهورة بصيد اللؤلؤ والشعاب المرجانية.

وتحتوي سورة الكهف على نبوءات تتعلق بظهور وتقدم الأمم المسيحية، وبنائهم الأساطيل البحرية، وتسلطهم على أكثر دول الأرض، وأن الحروب سوف تقع بينهم. كذلك فقد جاء ذكر الانتصار النهائي للإسلام. وقد تحقق الجزء الأكبر من النبوءات عن ظهور واندحار الدول المسيحية، وما تبقى هو تحقق النبوءات عن ظهور الإسلام وانتصاره على الدين كله. إن الأوروبي المسيحي، أو الأوروبي الملحد، الذي يحكم فقط من وجهة نظر الظروف والأحوال الحاضرة للمسلمين، قد يضحك ويسخر من هذه الكلمات. ولكن الله تعالى الذي أوحى هذه النبوءات وأنزلها من لدنه، والذي حقق النبوءات التي تتعلق بظهور وانتصار الدول المسيحية، سوف يحقق حتمًا النبوءات التي تتعلق بظهور وانتصار الإسلام. إن أيام انتصار الإسلام قد اقتربت، وبدأت أشعة نور الإسلام تخترق حجب الظلام الكثيفة. إن ملائكة الله ﷻ يتنَزلون من السماء. صحيح أن الأرض لا زالت في قبضة القوى الشيطانية، ولكن أيام انتصار قُوى السماء على قوى الشيطان تقترب بسرعة. وحينئذ سوف يتم توطيد وتثبيت

توحيد الله في الأرض، وسوف يدرك الناس كافة ويقرون بأن القرآن المجيد وحده هو الذي يستطيع أن يحقق السلام بين الإنسان والله تعالى، وهو الكتاب الذي يمكن أن يحقق العدل والقسط بين الإنسان وأخيه الإنسان، وهو الشريعة التي يمكن بحسن اتّباعها إقامة ملكوت الله على الأرض.

خصائص التعاليم القرآنية

إن إحدى الخصائص التي تميّز القرآن المجيد عن الصحف المقدسة الأخرى، أنه يتناول بشكل واف جميع المشاكل التي تنشأ في مجال الدين. وهو يؤكد على أهمية أثر الدين وفاعليته، كما يلفت النظر إلى المميزات التي يمكن أن تعود على المرء منه. إن قارئ العهد القديم أو الجديد، أو الفيدا، أو الزندافستا، يشعر أن شخصًا ما في مرحلة متوسطة في منتصف ظاهرة طبيعية طال استهلاكها، أخذ يصف تلك المراحل التي كان يشهدها. ولكن ليس هذا هو الحال مع القرآن المجيد. فإنه يشرح فلسفة الخلق وكل ما يرتبط به، كما يبين لماذا خلق الله الكون، والغرض من خلق الإنسان، وكيفية تحقيق ذلك الغرض. كذلك فإنه يُلقي الضوء على وجود الله تعالى وصفاته ﷻ، والكيفية التي تتجلى بها هذه الصفات فيظهر أثرها. وفيما يتعلق بالغرض الذي من أجله خلق الله الإنسان، يشرح القرآن المجيد القوانين التي يقوم على أساسها الكون، كما يشير إلى أنه من أجل تقدم الإنسان المادي ولتحقيق تطوره، جعل الله تعالى القوانين الطبيعية التي تنظم الظروف المادية والذهنية للإنسان، وأن مجموعة من الملائكة قد أسند الله إليها تفعيل هذه القوانين. ومن أجل رقيّ وتنوير الروح الإنسانية أنزل الله تعالى قوانين الشريعة بواسطة أنبيائه. وفي بعض الأحيان، كانت تلك القوانين محدودة في خصائصها، ولكنه أنزل أيضًا التشريع الكامل والتام. وفي بعض الأحوال، كان الغرض من إنزال الوحي هو تجديد الشريعة وإعادتها إلى حالتها الأصلية التي

كانت عليها، بعد أن عانت من التدخل البشري فيها. أي أن الله تعالى يرسل الأنبياء بين البشر لتحقيق أغراض مختلفة. فبعض الأنبياء يأتون بشريعة من لدن الله تعالى، وبواسطة هؤلاء يبدأ تكوين أمة جديدة، بينما تنحصر مهمة بعض الأنبياء في تطوير الشريعة الموجودة بالفعل، ويقوم البعض الآخر بمهمة تنقية الشريعة من سوء التفسير والتطبيق. ويشرح القرآن المجيد أيضًا الحاجة لوجود الشريعة والفوائد التي تُكتسب من وجودها، وأثرها في رقيّ الإنسان.

الإيمان بالإله الحي

ويشرح القرآن المجيد الفرق بين الله تعالى وصفاته، وعندما نفهم ذلك الفرق يمكننا تقدير الخطأ الذي وقع فيه من قالوا "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله" (إنجيل يوحنا ١:١). فالتعليم القرآني يقول إن الصفة الإلهية لا يمكن أن تكون بديلاً للذات الإلهية، فكل منهما يختلف تمامًا عن الآخر.

ويُبين القرآن المجيد إلى أي مدى يكون الإنسان حُرًّا في تصرّفاته، وما هو مدى خضوعه للقيود والإلزام. كما يبين أن للإنسان قدرًا من حرية الاختيار يجعله مسؤولاً عن أعماله أمام الله تعالى، ويمكّنه من الاستمرار في طريق تقدّمه الروحي. ومن ناحية أخرى فإن مجال أعماله محدود، ولا يستطيع أن يتعدّى حدوده. وبالرغم من كل جهد، فلا يستطيع الإنسان أن يتجاهل الحدود التي تخضع لها الحياة الإنسانية. فهو لا يستطيع أن يهبط إلى حالة من الجمود الثابت، ولا أن يسمو إلى حالة من الوجود الأثيري. غير أنه في نطاق بشريته يتمتّع بملكات عظيمة وقدرات هائلة، وهو قادر على الرقيّ المستمر وعلى التقدم.

ويشرح القرآن المجيد الحاجة إلى الإيمان بالله تعالى، ويلفت النظر إلى دلائل وجوده ﷻ، كما يؤكد أيضًا على أن الله تعالى كان يُنْزل دائمًا كلمته عن طريق الوحي في الأوقات التي يعم فيها الظلام والضلال، وأنه ﷻ يُظهر قوته بآيات مُعجزة، وبذلك يدلل على وجوده بدلائل لا يمكن دحضها. وأنه لا غنى

عن وجود الأنبياء وأتباعهم الكُمّل من أجل خلق الإيمان الكامل بالله تعالى في قلوب الناس. ولو توقّف الله تعالى عن إظهار صفاته عن طريق الأنبياء وأتباعهم، لسقط الناس ضحية الشك وعدم اليقين، ولضاع الإيمان بوجود الله. ولذلك كان من الضروري أن يستمر تنَزّل الوحي الإلهي على الناس طالما استمر وجود الناس، فإن الإيمان بوجود الله تعالى يمكن أن يستمر فقط عن طريق استمرار نزول الوحي الإلهي. ومنذ بداية خلق الإنسان، ظل الله تعالى يُكلم الناس من خلال أنبيائه، بداية بآدم عليه السلام إلى عيسى بن مريم عليه السلام ورسول الإسلام ﷺ، تمامًا كما ظل دائمًا يتجلى بصفات الخلق والسمع والبصر. وسوف يستمر كلامه إلى النهاية مع من يختاره من عباده، وسوف يستمر في إظهار وجوده بهذا الطريق. إن العقل يرفض فكرة أن الله تعالى كان يتجلى بكلامه إلى زمن المسيح ابن مريم عليه السلام ولكن ظل صامتًا بعد ذلك، أو أنه كان يتجلى بكلامه إلى زمن الرسول ﷺ ثم بعد ذلك صمت عن الكلام مع البشر إلى الأبد. وكما نستنكر فكرة أن الله تعالى ظل يرى ويسمع إلى زمن المسيح عليه السلام أو إلى زمن الرسول ﷺ، ثم بعد ذلك توقف عن الرؤية والسمع؛ أو أنه ظل يخلق إلى زمن المسيح عليه السلام أو إلى زمن الرسول ﷺ، ثم بعد ذلك توقف عن الخلق؛ أو أنه سبحانه كان قديرًا إلى زمن المسيح عليه السلام أو إلى زمن الرسول ﷺ ثم بعد ذلك لم يعد يتجلى بهذه الصفة. كذلك يتحتم علينا أن نستنكر أنه سبحانه كان يتكلم مع خلقه إلى زمن معين ثم توقف بعد ذلك عن الكلام. إن هذه حقيقة منطقية، ومع ذلك فإن المسيحيين واليهود والزرادشتيين وعددًا كبيرًا من أغلبية أولئك الذين يعتبرون أنفسهم مسلمين، قد أصبحوا يؤمنون بأن الوحي الإلهي قد انقطع وتوقف بعد زرادشت، أو بعد أنبياء بني إسرائيل أو بعد المسيح عليه السلام أو بعد الرسول الأكرم ﷺ. والقرآن المجيد يرفض بشدة هذا المفهوم الخاطئ، فإن تعاليمه تدعو إلى الإيمان بأن الله تعالى إله حيّ، ويقدم الدلائل على أنه سبحانه سوف يظل يتكلم مع عباده المخلصين كما كان يفعل دائمًا في الماضي. إن هذه الحقيقة التي

يؤكدها القرآن المجيد، قد تجلّت في هذا العصر بظهور الإمام المهدي والمسيح الموعود، مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام. ومرة أخرى يقف الوحي الذي تلقاه هو والمخلصون من أتباعه، شاهدًا يتحدّى أولئك الذين يزعمون، إن لم يكن بأفواههم فعلى الأقل بمعتقداتهم، أن الله جل جلاله وتعالى شأنه قد توقفت لديه صفة الكلام مع خلقه من البشر.

وتنص تعاليم القرآن المجيد على أن الوحي الإلهي لم يكن مقصورًا على أمّة بعينها، وإنما أرسل الله تعالى إلى كل أمّة رسولاً، كما يبين أيضًا لماذا كان من الضروري أن يرسل الله تعالى الأنبياء الواحد تلو الآخر، ولماذا لم يُنْزل سبحانه الشريعة الكاملة في المراحل الأولى من التاريخ الإنساني. ويعالج القرآن المجيد موضوع وحدانية الله تعالى بتفصيل واسع، ويقدّم الدلائل التي تبين وحدانيته، كما يبين أن تعدّد الآلهة أمر يتناقض مع العقل السليم كما يتناقض مع الحقيقة والواقع، ويشرح كيف أن عقيدة وحدانية الله تعالى تعين الإنسان في رقيّه الروحي.

ويلقي القرآن المجيد الكثير من الضوء على موضوع النبوّة، فإن كلمة "نبي" أو ما يعادلها قد استخدمت على نطاق واسع في الصحف المقدّسة، ولكن لم يشرح أيّ منها مفهوم النبوّة ومقامها. فمن الذي يمكن أن يُسمى نبيًّا، وما هي أنواع النبوة؟ إن القرآن المجيد وحده هو الذي يُعرّف النبي، ويبيّن الفرق الذي يميّز بين مختلف أنواع الأنبياء. وهو يبين الفرق بين النبي وغير النبي، ويحدّد واجبات ومسؤوليات النبي وعلاقته بالله تعالى. كما أنه يشرح أيضًا لماذا يبعث الله تعالى الأنبياء، وما هي العلاقة التي ينبغي أن تكون بينهم وبين أتباعهم، وبينهم وبين أولئك الذين لا يؤمنون بهم، ويحدّد حقوق النبي، ويشرح ما إذا كان النبي يقف عائقًا بين الله والإنسان، أم أنه مجرّد هاد ومعين.

ويتناول القرآن المجيد بتفصيل كبير موضوع الملائكة ووظائفهم، والغرض الذي من أجله خلقهم الله تعالى. كذلك فإنه يشرح ما هو الشيطان، وبأي

وسيلة يمكن أن يكون في وجود مثل هذا الكائن عوْن للإنسان. ما هي العلاقة بين الإنسان والشيطان؟ كيف يمكن للإنسان أن يحفظ نفسه من وساوس الشيطان؟ هل للشيطان السُلطة أن يجبر الإنسان على فعل شيء معين؟ ويبين القرآن المجيد أن الملائكة تدفع الإنسان دائمًا إلى فعل الخيرات، وأن الشيطان يعمل على دفع الإنسان لفعل الشرور، وأن للإنسان الحرية والخيار في قبول أو رفض دوافع الخير من الملائكة، كما أن له الحرية والخيار أيضًا في قبول أو رفض دوافع الشر من الشيطان. ويبين القرآن المجيد أن هذه الدوافع الخيّرة والشرّيرة، قد خُلقت من أجل مساعدة الإنسان على الوصول إلى الكمال، ولكي تجعل لوجوده قيمة. فإذا غابت دوافع الخير والشر، لن يكون الإنسان مستحقًّا لنوال أي ثواب ولا أي عقاب. إن مجاهدة الإنسان ضد الدوافع الشيطانية تجعله مستحقًّا للثواب، وتفتح أمامه طريق التقدم والرقيّ؛ وأما انصرافه عن الدوافع الملائكية فيجعله مستحقًّا للعقاب.

ويشرح القرآن المجيد فلسفة الدعاء، ويبين الكيفية التي ينبغي للإنسان أن يدعو بها، ومتى يكون الدعاء مقبولاً، وما هو الدعاء الذي لا يكون مقبولاً، وما هو المجال الذي يعمل فيه الدعاء ويكون مؤثرًا.

كذلك فإن القرآن المجيد يبحث في ماهية الخير والشر ويُعرّف كل منهما، ويبين الحدود التي يلتقي عندها كل من الخير والشر، ويبين ما هو الخير المطلق والشر المطلق، وما هو الخير النسبي والشر النسبي، ويوضّح الطريق الذي يمكن بواسطته التخلق بالأخلاق العالية والاتصاف بالصفات الطيبة، وكيف يمكن تجنّب الشر. كما يلقي الضوء على مصادر الخير والشر، ويُعلم الإنسان كيف يتغلب على مصادر الشر.

يتناول القرآن المجيد أيضًا موضوع التوبة وما هي التوبة الحقيقية، ويعدد المنافع التي تعود على الإنسان من التوبة، ويشرح متطلبات التوبة الحقيقية، ومتى يلجأ المرء إليها. كذلك يبين القرآن المجيد أيضًا المبادئ التي يقوم عليها الثواب أو

العقاب، والعوامل التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند الحكم بأي منهما. كذلك يشرح العلاقة بين الجريمة والعقاب، وكيف ينبغي أن يتناسب كل منهما مع الآخر.

المفهوم القرآني للنجاة

يشرح القرآن المجيد ما هي النجاة وكيفية الحصول عليها. وهو يبين أن النجاة ثلاثة أنواع: (١) النجاة الكاملة؛ (٢) النجاة غير الكاملة؛ (٣) النجاة المؤجّلة. ويمكن للمرء أن يحقق النجاة الكاملة في هذه الحياة الدنيا. أما الذي لا يحقق في الدنيا سوى النجاة غير الكاملة، فإنه يستكمل وسائل تحقيقها بالتدريج بعد الموت. وأما النجاة المؤجّلة فلا يمكن الحصول عليها إلا بعد فترة من العقاب في جهنم. وتتفق تعاليم الإسلام والمسيحية فيما يختص بالنجاة المؤجّلة في إحدى السّمات التي يمكن أن تتشابه بينهما، ولكنهما يختلفان عن بعضهما البعض اختلافًا أساسيًا. فالمسيحية تقول إنه حتى هذه النجاة المؤجّلة لا يمكن أن يحصل عليها إلا أولئك الذين يؤمنون إيمانًا راسخًا بالعقائد المسيحية، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحصلوا على النجاة الكاملة في هذه الحياة الدنيا، وهؤلاء سوف يقضون فترة من العذاب في جهنم، ثم بعدها سوف ينالون النجاة الكاملة. أما الإسلام فيقول إن كل إنسان قد خُلق بغرض الوصول إلى هذه النجاة الكاملة. وأن أشد الكافرين كفرًا، وأكبر العاصين معصية، سوف ينال هذه النجاة في النهاية ويدخل الجنة، ولكن بعد أن يخضع لأنواع معينة من المعالجة، التي تعمل على تطهيره من الكفر والمعصية، وأحد أنواع هذه المعالجة هو العذاب في جهنم. وفي هذا الشأن يؤكد القرآن المجيد على موضوع وزن الأعمال ومعادلتها. فهو يذكر أن رجحان كفة الأعمال الصالحة في حياة الإنسان، يُعتبر دليلاً على أنه بذل مجهودًا كبيرًا للوصول إلى النجاة، وأن الشخص الذي يموت وهو في جهاد صادق ومخلص في تحقيق غرض معين يماثل الجندي الذي يُقتل في المعركة قبل تحقيق النصر. إن الله وحده هو الذي بيده أمر الحياة والموت. والجندي الذي

يحارب في أرض المعركة لا يملك تأخير موته إلى حين أن يتحقق النصر، فكذلك الشخص الذي يجاهد بإخلاص للوصول إلى النجاة، لا يستطيع أن يؤخر الموت إلى أن يحقق النجاة بالفعل. فإذا مات هذا الشخص خلال جهاده، يكون مستحقًّا لنوال فضل الله تعالى ورحمته، بدلاً من أن يكون محل غضبه وعقابه. ولا توجد هناك أمّة تلقي باللوم على جنودها المقاتلين الذين ماتوا قبل أن يحققوا النصر، وكل جندي يبذل أقصى جهده في القتال يلقى التكريم والاحترام من أمّته. وهذا هو الحال مع من يجاهد للتغلب على الشيطان، فإنه رغم نجاحاته وسقطاته، يستمر في المحاولة، ويبذل أقصى ما يستطيع بإخلاص وإصرار حتى النهاية، من أجل أن يؤسس في قلبه عرش الله تعالى. فمثل هذا الشخص، كما يبين القرآن المجيد، يستحق أن ينال النجاة. ولا يُعتبر ضعفه، أو عدم وصوله إلى الغرض الذي يسعى إليه عيبًا يدعو للخجل، بل فخرًا يتشرّف به، لأن ذلك الضعف لم يَفُتَّ في عضده، ولم يثنه عن عزمه في اللحاق بأولئك الذين يجاهدون في الله تعالى، ولم يتردد في التضحية بنفسه في سبيله تعالى.

ويصف القرآن المجيد مراحل الرقي الروحي، ويبين عددها وتفاصيلها. فهو يشرح مثلاً الأنواع المختلفة لدرجات الطهر والعفة والكرم والصدق والرحمة والمعاملة الطيبة وغيرها. وهو بذلك يمكّن المرء من التصرّف حسب إمكاناته الأخلاقية والروحية التي يحتاجها من أجل تقدمه. وهو يشجع المرء على المضي قُدُمًا في طريق التقدم، وذلك لأنه يجعل الهدف في متناول يده. ثم بعد ذلك يقدم له العديد من الأهداف المتتالية، يعلو كل هدف منها على الهدف السابق له، وبذلك يحثّه على بذل المزيد من الجهد في كل مرحلة من مراحل التقدم. فهو يأخذ بيد المرء إلى الأمام على طريق التقدم، خطوة بعد خطوة ومرحلة بعد أخرى.

ويُلقي القرآن المجيد أيضًا ضوءاً على الرقيّ الذهني للإنسان وكيفية حدوثه، ويبين أن العدالة الربانية تأخذ في الاعتبار مدى رقيّ الإنسان الذهني عند الحكم

على أعماله. فمن كان من حسن حظه أنه نشأ في مناخ مناسب، وجد فيه طريق الفضيلة ممهّدًا له، سوف يحاسب على أساس يختلف عن ذلك الذي يحاسب به شخص آخر ذو ملكات ذهنية محدودة بالمقارنة مع الأول، ولم يكن المناخ الذي نشأ فيه مناسبًا كما هو الحال مع الشخص الأول. فهذا الشخص الثاني يلقى من التسامح أكثر مما يلقاه الأول.

ويشرح القرآن ما هو الإيمان، وكيف يُكتسب، وكيف يُعرف المؤمن. كما يشرح أيضًا الحاجة إلى الشريعة وفلسفتها. فهو يُبين أن شريعة الله تعالى تقوم على الحكمة، وأن المقصود منها هو مساعدة الإنسان على المضي قُدُمًا في طريق التقدّم. فليس المقصود بالأوامر الإلهية إنزال العقاب بالإنسان، أو تحميله ما لا يطيق، ولكن كل أمر من هذه الأوامر يعمل كدعامة وسند يعين الإنسان في طريق تقدّمه، ويساعده على تحسين ظروف مجتمعه الذي يعيش فيه. ولا يؤيد القرآن المجيد فكرة فرض الأوامر الإلهية بالقسر والإكراه، ويقرر أن الله تعالى لا يدين أحدًا بغير الاعتبار الكامل لكافة الظروف التي قد تبرر عمله، أو ربما تلتمس له بعض الأعذار. كذلك يقرر القرآن المجيد أنه لا عقاب على أحد ما لم يصله التحذير المناسب أولاً.

المعجزات

إن الكُتّاب المسيحيين يؤكدون على أن القرآن المجيد، بالإضافة إلى تفرّده في لغته وأسلوبه وفلسفته، فإنه لا يعترف بوقوع أية معجزات على يد الرسول ﷺ. ولذلك فمن الضروري أن نشرح في كلمات وجيزة نظرة القرآن المجيد تجاه المعجزات.

إن القرآن المجيد يقرر مبدأين أساسيين. أولاً، هناك بعض السنن والنواميس الإلهية التي لا تتغير. فمثلاً، يؤكد القرآن المجيد على أن الميّت لا يعود مرة أخرى إلى الحياة في هذه الدنيا، كما يقول تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ

صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِنْ وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٠-١٠١)

ويقول أيضًا:

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ ۞ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٦-٩٧)

وتعني هذه الآيات أن الله تعالى قد قدّر أن الناس الذين غادروا هذه الدنيا لن يرجعوا إليها، إلى أن يُطلق سراح يأجوج ومأجوج فينتشروا في الأرض، قادمين من أعلى قمة كل جبل ومن فوق كل موج البحر. والآيات تبين بجلاء أن الأموات لا يعودون مرة أخرى إلى الحياة في الأرض، وذكْر يأجوج ومأجوج في الآية الأخيرة، لا يعني أن الأموات سوف يعودون إلى الحياة في ذلك الوقت. فكما أن إطلاق سراح يأجوج ومأجوج يُعتبر أحد علامات اقتراب قيام الساعة، فالآية تعني أن هذا التقدير الإلهي سوف يستمر إلى قيام الساعة. ويفسر بعض علماء اللغة هذا الجزء من الآية الكريمة بأنه بعد ظهور يأجوج ومأجوج في الأرض، سوف تُبذل المحاولات لإعادة الحياة إلى الموتى، غير أن هذه المحاولات سوف تبوء بالفشل، مما يعني أن العلم سوف يقوم ببعض المحاولات غير الناجحة لحل لغز الموت. وباختصار، إن القرآن المجيد يقرر أن الميّت لا يمكن أن يعود إلى الدنيا مرة أخرى.

كذلك يقرر القرآن المجيد أيضًا أنه لا أحد سوى الله ﷻ له القدرة على الخلق. قد يكون هناك الكثير من الحرفيين الذين يتقنون صنع الأشياء الدقيقة، والكثير من الفنيين والمخترعين، ولكن صفة الخلق والإيجاد من العدم لا تظهر إلا من الله ﷻ. فيقول القرآن المجيد:

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (النحل: ٢١-٢٢)

كذلك يقرر القرآن المجيد أن الحكمة صفة من صفات الله تعالى، وعلى ذلك،

لا يمكن أن يُنسب إليه شيء يتعارض مع مقتضيات الحكمة. وقد جاء ذكر صفة "الحكيم" هذه في العديد من الآيات القرآنية، ولذلك يقول القرآن المجيد:

﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا﴾ (نوح: ١٤)

وفي هذه الآية يبكّت الله تعالى الكافرين، الذين يدّعون أن جميع أعمالهم قائمة على أساس من العقل والحكمة، غير أنهم لا يعترفون لله تعالى بما يصفون به أنفسهم من الحكمة، فيسنبون إليه أمورًا تتعارض مع الحكمة.

ويترتّب على ذلك أنه إذا قال أحد بحدوث أي أمر يتعارض مع هذه القوانين الثلاثة، التي جاء ذكرها على سبيل المثال، فإن القرآن المجيد يرفض ذلك الرأي، سواء قيل إن هذا الأمر قد حدث باعتباره معجزة، أو أنه سر من الأسرار، أو أنه سحر يُؤْثَر. إن القرآن المجيد لا يعترف بإمكان حدوث شيء من هذا القبيل، ولا ينسب إلى أي نبي من الأنبياء قيامه بعمل معجزة من هذا النوع، ولا هو ينسب إلى الرسول ﷺ قيامه بعمل مثل هذا النوع من المعجزات الذي يتعارض مع تقدير الله تعالى أو مع حكمته. فلا يمكن أن يتوقع أحد من إنسان حكيم أن يضع قانونا أو يقرر أمرًا، ثم يبدأ هو في مخالفته والعمل بما يناقضه. فكيف يمكن الظن بأن الله تعالى، الذي هو أحكم الحكماء، يمكن أن يتصرّف بهذا الأسلوب؟ إن من ينسب إلى نبي من أنبياء الله الكرام، أنه قام بعمل من هذا النوع، فإنه لا يُضفي شرفا على ذلك النبي، ولا يزيد مقامه رفعة أو عظمة، وإنما هو يخطئ خطأ جسيمًا ويرتكب إثمًا كبيرًا، إذ أنه يصف الأنبياء بما لا يليق بشأنهم من حيث اتهامهم بأنهم قاموا بعمل يتعارض مع قوانين الله تعالى وقوله وحكمته. وإنه لمن واجب كل إنسان سوي الفكر سليم العقل، أن يدحض أية ادّعاءات من هذا القبيل، لأنها لا تعتبر مدحًا، بل إهانة في حق من تُلصق بهم تلك الادّعاءات.

ومن ناحية أخرى، فإن القرآن المجيد لا ينكر وقوع المعجزات، بل إنه يؤكد بقوة على أن الله تعالى يجعل أنبياءه وسائل لإظهار بعض التجلّيات، التي لا

تتعارض بأي شكل من الأشكال مع قوانينه الأساسية. هذه هي الحقيقة التي لا تُنقض، وهذه هي المعجزات التي يذكر القرآن المجيد أنها كانت للرسول ﷺ. أليس من المعجزات أن يخبر الله تعالى إنسانًا من البشر بأمور مخبوءة في رحم المستقبل؟ أليس من المعجزات أن يضفي الله تعالى نجاحًا وانتصارًا على شخص ضعيف يبدو أنه لا يملك أية وسائل يواجه بها جحافل أعدائه الأقوياء؟ إن القرآن المجيد لا يؤكد فقط على أنه فريد ومعجز في ذاته، بل يقرر أيضًا أن الله تعالى آتى النبي ﷺ من علم الغيب، وأنه كان دائمًا يتجلّى بقوته ومجده تأييدًا للرسول ﷺ. فكيف يمكن بعد ذلك أن يُقال إن القرآن المجيد لا يذكر أية معجزة للرسول ﷺ؟ الحقيقة إن القرآن المجيد يقرر مرارًا وتكرارًا أن الرسول ﷺ قد أوتي الكثير من المعجزات. ألم تكن معجزة أن الله تعالى قد أنبأ الرسول ﷺ بالمعارضة الشديدة، والاضطهاد الفظيع الذي سيتعرض له على أيدي أهل مكة، في وقت لم يكن هناك ما يستدعي فيه من قريب أو بعيد وقوع معارضة أو حدوث اضطهاد؟ ألم تكن معجزة أن يعلم الرسول ﷺ أنه سوف يضطر إلى الهجرة من مكة، بل وأن يعلم حتى موعد الهجرة مقدمًا؟ ألم تكن معجزة أنه قبل وقوع غزوة بدر بعدة سنوات، علم الرسول ﷺ بأن هذه المعركة سوف تقع، وأن المسلمين سينالون فيها نصرًا عظيمًا، وأن أعداءهم سوف يُهزَمون ويُولّون الدّبر؟ ألم تكن معجزة أن علِم الرسول ﷺ قبل عدة سنوات من الهجرة أنه لن يهاجر فقط من مكة، بل إنه سوف يعود إليها ويدخلها منتصرًا؟ ألم تكن معجزة أنه بعد أن هُزم الرومان على أيدي الفرس في الشام، أن يعلن الرسول ﷺ أنه خلال تسع سنوات سوف ينتصر الرومان على الفرس؟ ألم تكن معجزة أن علم الرسول ﷺ أن الإسلام سوف ينتشر في أرجاء البلاد العربية، وأنه سوف يظهر بعد ذلك على الدين كله؟ فلما تحقق كل نبأ من هذه الأنباء في موعده الذي حُدّد له، فأي شك يبقى بعد ذلك في أن كل واحد من تلك الأنباء كان معجزة في ذاته؟ إن كل هذه الأمور، والكثير المشابه لها، قد جاء ذكرها في القرآن المجيد، فكيف

يمكن أن يقال بعد ذلك إن القرآن المجيد لا يعترف بوقوع المعجزات للرسول ﷺ؟ إن أولئك الذين يدّعون هذه الأقوال، إنما يفعلون ذلك نتيجة عدم معرفتهم باللغة العربية واصطلاحاتها وأسلوب القرآن المجيد. فمثلاً، عندما يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلآ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء: ٦٠)

يظن أولئك الكُتّاب المسيحيون أن الله تعالى قد توقّف عن إظهار المعجزات، بينما تعني الآية أن الأقوام الأولين، الذين من أجلهم أظهر الله تعالى الكثير من الآيات في العصور السابقة، لم يقبلوا تلك الآيات. ولعل ذلك كان سببًا يدعو لعدم إظهار المزيد من الآيات، ولكن الله تعالى لن يتوقف عن إظهار آياته بناء على هذا السبب. إن الأولين كذّبوا بالآيات التي أظهرها الله تعالى على أيدي الأنبياء الأولين، ولكنه سبحانه ظل يُظهر آياته تأييدًا للأنبياء المتأخرين؛ وعلى هذا، ليس هناك من سبب يدعو لعدم إظهار الآيات تأييدًا للرسول ﷺ.

وأيضًا، حينما وجّه الله تعالى رسوله الكريم في القرآن المجيد أن يرد على مطالب الكفار فيقول إنه ليس إلاَّ بشرًا مثلهم، فلا يعني هذا أن الله تعالى لم يظهر الآيات تأييدًا له. إن كل ما يعنيه هذا أن الله تعالى هو الذي يُظهر الآيات، وأن الرسول ﷺ لا يستطيع أن يظهرها حسب إرادته أو بقدرته الذاتية. إن هذه حقيقة أساسية، وإقرارها من جانب القرآن المجيد يزيد من تقديرنا له. فَمَن بين الاثنين هو الذي على الحق ومن يكون على باطل: هل هو ذلك الذي يقرر أن الله تعالى قد تخلى عن صفاته وعن سُلطته لبعض مخلوقاته، أم هو ذلك الذي يؤكد على أنه مخلوق من مخلوقات الله ﷻ، وأنه سبحانه هو الذي يُظهر آياته من خلال عباده المقرّبين؟

وبالإضافة إلى نبوءات الغيب، يذكر القرآن المجيد أنواعًا أخرى من المعجزات. فمثلاً، ذكر القرآن المجيد المعجزة التالية. فقد حدث عند هجرة الرسول ﷺ وفي صحبته أبو بكر ﷺ، أنهما غادرا مكة واتخذا ملجأ في غار ثور، الذي يقع على

بعد ثلاثة أميال من مكة. ولما أدرك أهل مكة أن الرسول ﷺ قد أفلت من أيديهم، أتوا بأفضل قصّاصي الأثر، وراحوا يتتبعون آثارهما إلى أن وصلوا إلى باب الغار. ويذكر القرآن المجيد أنه لما رأى أبو بكر أن قصاصي الأثر ومعهم أهل مكة قد وصلوا إلى باب الغار، أخذه الخوف من أن يصيب الرسول ﷺ أذى عندما يكتشف أهل مكة وجودهما داخل الغار. غير أن الرسول ﷺ طمأنه قائلاً:

﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠)

مما يعني أن الأعداء لن ينجحوا في الوصول إليهم، رغم أنهم على بعد خطوات منهم. أليس ما حدث بعد ذلك يعتبر معجزة لا مثيل لها؟ رجلان ليس لهما في الدنيا من سند ولا معين، يهربان من المؤامرة المدبّرة لقتل الرسول ﷺ، ثم يلتجآن إلى غار منعزل. ولما يدرك الأعداء أنهما قد غادرا البلدة تحت جنح الظلام، إذا بهم يستشيطون غضبًا ويمتلئون غلاًّ وحنقًا، ويشعرون أن إفلات الضحية سوف يصيبهم بالخزي والعار الأبدي. فيعلنون عن جائزة قدرها مئة ناقة لمن يستطيع أن يأتي بمحمد ﷺ حيًّا أو ميّتًا، ويستخدمون خير قصاصي الأثر الذين يقودونهم إلى باب الغار الذي يقبع فيه الهاربان بدينهما. وبينما يؤكد قصاص الأثر أن آثار الرجلين قد انتهت إلى داخل الغار، ورغم أن المجموعة التي تحاول اللحاق بالهاربيْن تحترق غيظًا وتتحرّق عطشًا لسفك دمائهما، وبعد ملاحقة استمرت لمسافة ثلاثة أميال وصلوا أخيرًا إلى فوهة الغار، على بعد أقدام من الهدف الذي يبحثون عنه، لم يكن عليهم سوى أن ينحنوا فقط قليلاً لينظروا داخل فوهة الغار التي أمام أطراف أقدامهم ليكتشفوا وجود بغيتهم. ولكن الله تعالى الذي يتحكّم في عقولهم وأعينهم، صرف أذهانهم عن النظر داخل الغار، وبذلك عادوا أدراجهم خاسرين خائبين. فهل رأت الدنيا معجزة أكبر من هذه؟

ومرة أخرى، يذكر القرآن المجيد مشيرًا إلى غزوة بدر، أن الرسول ﷺ ألقى بحفنة من الحصَى في اتّجاه جيش الأعداء، مما أثار الفوضى والارتباك في

صفوفهم، كما جاء في سورة الأنفال. وقد جاء وصف تلك الحادثة بشيء من التفصيل في الأحاديث. ويبدو أنه عندما كانت المعركة على أشدها، وكان جيش الأعداء يحمل بشدة على المسلمين، أخذ الرسول ﷺ حفنة من الحصَى وألقاها في اتّجاه العدو قائلاً: "شاهت الوجوه" (الطبري والزرقاني). وفي اللحظة والتوّ بعث الله تعالى ريحًا شديدة، هبّت من ناحية المسلمين متّجهة إلى جيش أهل مكة، فحملت معها الرمال وصوّبتها إلى وجوههم وعيونهم. فكانت النتيجة أن أهل مكة فقدوا القدرة على رؤية جيش المسلمين بوضوح، وأصبح من الصعب عليهم أن يصوّبوا سهامهم إليه. كذلك فقد أعاقت قوة الريح على سرعة السهام التي يلقي بها أهل مكة، فكانت تسقط إلى الأرض في منتصف طريقها إلى أهدافها. ومن ناحية أخرى، كان المسلمون يرون جيدًا ما حل بجيش أهل مكة من فوضى وارتباك، بينما كانت الريح تحمل سهامهم وتزيدها قوة وتأثيرًا. وقد أعطى هذا للحفنة القليلة من المسلمين الغلبة والنصر في المعركة، رغم قلة عددهم وعدّتهم، وضعف تسليحهم بالمقارنة مع أعداد جيش أهل مكة، التي تزيد عن ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، مع كونهم أكثر عدّة وسلاحًا، وأفضل حمولة وركوبًا. ألم تكن هذه معجزة؟ وألم يذكرها القرآن المجيد باعتبارها معجزة عظيمة؟

إن القرآن المجيد يذكر بوضوح وقوع المعجزات على أيدي الرسول ﷺ، ولكنه لا ينسب إليه تلك الخزعبلات التي تتعارض مع سُنة الله تعالى، مثل إعادة الموتى الذين قضى عليهم الموت إلى هذه الحياة المادية مرة أخرى، أو إيقاف الشمس والقمر في أفلاكهما، أو وقف جريان الماء في الأنهار، أو تحريك الجبال من أماكنها. إن الروايات التي تحكي مثل هذه الأحداث ليست سوى خرافات وأكاذيب مختلقة، لا تصلح إلا لتسلية الأطفال في فراشهم. والقرآن المجيد لا ينسب مثل هذه الأمور إلى الرسول ﷺ، ولا إلى أحد من الأنبياء الآخرين. ومن ناحية أخرى، قدّم القرآن المجيد شرحًا لبعض المقاطع التي جاءت في الصحف

القديمة، والتي أدّى تفسيرها الحرفي إلى جعل الناس يصدّقون أن هذه الأمور قد حدثت بالفعل كما جاء ذكرها بحرفيتها. وقد أشار القرآن المجيد إلى أن الأسلوب اللغوي، الذي استُعمل في وصف هذه الأمور، كان أسلوبًا مجازيًّا، ولا يصح أن يُفهم بحرفيته.

عبادة الله ﷻ

يتناول القرآن المجيد بالتفصيل موضوع عبادة الله تعالى، وهو يقسّم العبادة إلى أربعة أقسام:

(١) العبادة التي من شأنها تقوية علاقة الإنسان بالله تعالى، وزيادة حب المرء لخالقه ﷻ.

(٢) العبادة التي تهدف إلى تحسين أحوال الإنسان، وتحثّه على بذل التضحيات في سبيل الله تعالى.

(٣) العبادة التي من شأنها نشر الوئام والوحدة بين الناس، وخلق رابطة مركزية تربطهم جميعا.

(٤) العبادة التي تهدف إلى تحقيق عناصر عدالة ورخاء اقتصادي في المجتمع.

ويذكر القرآن المجيد الكثير من العبادات تحت كل نوع من هذه الأنواع الأربعة، كما يبين أن العبادة ليست مجرّد أن يكرّس الإنسان وقته لتعظيم الله فحسب، بل أن يعتني أيضًا بالناس الآخرين. كذلك يبين القرآن المجيد أن العبادة ليست فردية فقط، وإنما جماعية أيضًا. فلا يقتصر واجب المرء على إعداد نفسه للوقوف أمام الله تعالى، وإنما عليه أن يُعدّ الآخرين أيضًا للوقوف أمامه سبحانه. ولذلك فإن جميع التعاليم القرآنية التي تتعلق بالعبادة لها جانب جماعي كما أن لها جانبًا فرديًّا.

وتحت القسم الأول يضع القرآن المجيد الصلوات الخمس اليومية. وتختلف الصلاة الإسلامية عن الصلاة المفروضة في الأديان الأخرى، إذ يؤدّيها المرء

منفردًا كما يؤديها مع الآخرين في جماعة، كما أنها تخلو تمامًا من الطقوس الاستعراضية. وقد ألغى القرآن المجيد ضرورة وجود أماكن مكرّسة لأداء الصلاة، مثل الكنائس والمعابد، كما أزال جميع الشكليات التي تُقام عادة لعبادة الله تعالى، إذ يقرر القرآن المجيد أن كل مكان من الأرض صالح لإقامة الصلاة وعبادة الله ﷻ. وهذا ما قصده الرسول ﷺ عندما قال: "جُعلتْ لي الأرض مسجدًا وطهورًا" (البخاري). ولقوله هذا العديد من المعاني، أحدها أن المسلم يستطيع أن يؤدّي صلاته في أي مكان يكون فيه عندما يحين موعد أداء الصلاة، وليس من المفروض عليه أن يتوجه إلى معبد أو إلى كنيسة لأداء صلاته تحت إرشاد واحد من القساوسة أو رجال الكهنوت، فالإسلام لا يقر نظام الكهنوت. إذ يعتبر الإسلام كل إنسان صالح خليفة الله، وله الصلاحية أن يؤم الصلاة.

المساجد في الإسلام

يستخدم المسلمون المساجد من أجل إقامة الصلاة الجماعية، أي صلاة الجماعة، ولكن هذا لا يعني أن لأبنية هذه المساجد أو لأماكنها قداسة خاصة يجعلها مخصصة للعبادة. إذ يُبنى المسجد لتمكين المسلمين الذين يسكنون في المنطقة المحيطة به أن يجتمعوا سويًّا لإقامة صلاة الجماعة. فالمساجد تسهل أداء صلاة الجماعة، كما أنها تُستعمل في أغراض أخرى، دينية واجتماعية أيضًا. وليس هناك من طقوس معينة يجب أداؤها من أجل تخصيص المسجد لإقامة الصلاة وعبادة الله تعالى، كما هو الحال بالنسبة للكنائس والمعابد. وأي بناء يقيم المسلمون فيه الصلاة يُعتبر مسجدًا. وليس هناك من تصميم خاص يجب أن يكون عليه المسجد، ولا يتحتم أن يكون مقسّمًا إلى بهو وأجنحة كما هو الحال في الكنائس، كما لا يوجد في المسجد أي شيء يشابه مذبح الكنيسة، ولا توضع في المسجد أية صور أو تماثيل، أو آثار من بقايا الأولياء أو القديسين. ويجتمع المسلمون في المسجد بأسلوب سهل بسيط، وتخلو الصلوات تمامًا من

وسائل اللهو أو التأثيرات النفسية. فلا توجد موسيقى، ولا غناء، ولا رقصات كالرقصات التي تعقد في بعض المعابد، ولا رداء كهنوتي، ولا إشعال شموع، ولا أية محاولة لخلق جو نفسي معين باستخدام الأرغن أو إحراق البخور. ولا تُعتّم الأضواء داخل المساجد من أجل خلق جو من الرهبة في النفوس، ولا توجد بها صور أو تماثيل للأولياء التي تصرف انتباه المصلين عن التفكير في الله ﷻ. وعندما يحين موعد الصلاة يجتمع المصلون في المسجد، وينظمون أنفسهم في صفوف، تعبيرًا عن أنهم بعد أن أدّوا الصلاة المنفردة في بيوتهم أو في المسجد، أصبحوا الآن على استعداد لإقامة صلاة الجماعة. وهم يحمدون الله تعالى في صلاتهم ويشكرونه، ويدعونه من أجل رقيّهم الروحي والأخلاقي والمادي، وأيضًا من أجل أقاربهم وأصدقائهم والناس عامة. وهم يفعلون ذلك في جو هادئ تمامًا، بعيدًا عن أي إزعاج ولو كان لحنًا موسيقيا. وأثناء انشغال المصلين بالصلاة والدعاء، لا يلتفت أحد يمينًا ولا يسارًا، ولا يتحدث مع آخر من المصلين. ويقف الغني بجوار الفقير، كتفًا إلى كتف؛ وقد يجد الملك ماسح أحذيته واقفًا إلى جواره؛ وقد يجد القاضي بجواره أحد المتهمين الذين يحاكمهم؛ وقد يقف قائد اللواء بجوار الجندي. وليس من حق أحد المصلين أن يعترض على وقوف أحد إلى جواره، كما لا يجوز أن يُطلب من أحد التخلي عن مكانه لآخر. إنهم جميعًا يقفون في تواضع وخشوع في حضرة الله تعالى، ويركعون ويسجدون ثم يقفون مرة أخرى تحت قيادة الإمام. وخلال بعض الصلوات، يقرأ الإمام بصوت عال بعض الآيات القرآنية التي يريد أن تؤثر معانيها في نفوس جموع المصلين. وخلال هذه الصلاة يدعو المصلي ببعض الأدعية المأثورة، أو بعض الأدعية التي تكون من إنشائه.

وبالإضافة إلى الصلوات المكتوبة، يدعو المسلمون في صمت، ويذكرون الله تعالى ويتفكرون في صفاته، خلال الليل أو النهار، أو حينما يجدون الفرصة المناسبة لذلك. إن المساجد لا تستعمل فقط لصلاة الجماعة أو صلاة المرء بمفرده،

ولكن لجميع الأغراض الدينية والفكرية. وكذلك تستخدم المساجد كمدارس، ولاجتماعات عقد القران وإعلان الزواج، وأيضًا كساحة قضاء، وأماكن يتقابل فيها الناس لبحث أمر يتعلق بمصالح المجتمع الاجتماعية والاقتصادية أو إقراره.

الصيام في الإسلام

الصيام هو النوع الثاني من العبادة التي تهدف إلى تحسين أحوال الإنسان الصحية. والصيام في الإسلام يختلف عن الصيام المفروض في الأديان الأخرى. فالهندوسي مثلاً يستطيع أن يأكل بعض الأطعمة أثناء صيامه؛ وأثناء الصيام الكبير في المسيحية يمتنع الصائم عن أكل بعض الأنواع من الأطعمة، مثل اللحوم والخبز المخمّر. أما المسلم فلا يستطيع أن يأكل شيئًا أو يشرب شيئًا بدءًا من الفجر إلى بعد غروب الشمس. ومن متطلبات الصيام الإسلامي بالإضافة إلى الامتناع عن الطعام والشراب خلال ساعات الصيام، أن على المسلم أن يبذل جهدًا خاصًّا خلال شهر الصيام لبلوغ مستوى أعلى من التقوى والفضيلة. وأحد الدروس المستفادة من الصيام هو أن المرء الذي ينبغي أن يمتنع خلال فترة الصيام عن القيام بأعمال هي غير محرمة أصلاً، ينبغي ألا ينغمس في الأشياء المحرّمة أبدًا. وفترة الصيام، أي من وقت الفجر إلى بعد غروب الشمس، تنطبق على جميع الأماكن التي يتعاقب فيها الليل والنهار خلال ٢٤ ساعة، أما في المناطق البعيدة التي لا يحدث فيها هذا التعاقب، فتقدّر فترة الصيام حسب فترة النهار العادي.

وهذا النوع من العبادة يمارس بصفة فردية وبصفة جماعية أيضًا. فمن المتوقع أن يصوم المسلمون بصفة فردية في بعض الأيام الأخرى خلال السنة، ولكن خلال شهر رمضان ينبغي على المسلمين في كل مكان أن يصوموا الشهر المبارك.

الحـــج

النوع الثالث من العبادة التي قررها الإسلام هو فريضة الحج إلى مكة المكرّمة. والغرض من هذه العبادة هو خلق شعور في قلوب المسلمين تجاه مركز لهم. ومن أجل أداء هذه الفريضة، يتجمّع المسلمون القادرون على القيام بهذه الرحلـــة، في مكة المكرّمة في فترة معيّنة. وبذلك تكون هناك فرصة للمسلمين من مختلف أنحاء العالم للاجتماع سويًّا، وتقوية علاقاتهم بعضهم مع البعض، وتبـــادل وجهـــات النظر عن المشاكل المحلية والعالمية. وهذه العبادة أيضًا تـــؤدَّى بـــشكل فـــردي وجماعي. فالحج يؤدّى خلال أيام معدودة من السنة فقط، وأما العُمرة فيمكن أن تُؤدّى في أي يوم من أيام السنة. فمتى استطاع المسلم أن يقوم بالرحلة إلى مكة، يمكنه أن يؤدّي العُمرة. وتهدف هذه العبادة إلى تعليم المسلمين أنه مـــن أجـــل المحافظة على مركز للإسلام وتقويته، يتحتم عليهم أن يكونوا علـــى اســـتعداد لتقديم التضحيات الفردية والجماعية.

النوع الرابع من العبادة هو التصدّق والإحسان. وهذه العبادة أيضًا تُـــؤدّى على المستوى الفردي والجماعي، وهي تؤدّى تطوّعًا وفرضًا كذلك. فمـــثلاً في مناسبة عيد الفطر المبارك، يكون فرضًا على كل مسلم، رجلاً كان أو امـــرأة، طفلاً كان أو بالغًا، أن يقدم ثلاثة أرطال من القمح أو الذُرة أو ما يعادل قيمتها نقودًا كصدقة فطر، من أجل إعانة الفقراء، وذلك قبل أداء صـــلاة العيـــد. ولا يُستثنى من هذه الفريضة حتى أشد الناس فقرًا. وعلى القادرين أن يقدّموا هـــذه الصدقة من أموالهم الخاصة، وأما الفقراء الذين لا يملكون شيئًا يقدمونه، فعليهم أيضًا أن يقدموا من الصدقات التي يتلقونها في ذلك اليوم.

الزكـــاة

وهناك فريضة مالية أخرى على المسلمين وهي فريضة الزكاة، التي تُفـــرض على كل مسلم يملك حدًّا أدنى من المال أو البضائع أو الماشية. وتختلف نـــسبة

القيمة التي ينبغي دفعها، فمثلاً ينبغي دفع عشرة بالمئة بالنسبة للغلّة الزراعية، واثنتين ونصف بالمئة بالنسبة لرأس المال التجاري والأرباح. وقد يبدو هذا للوهلة الأولى أنه غير متوازن ومتحيّز، ولكن النسبة المئوية المفروضة على رأس المال والأرباح ليست بسيطة كما يبدو. فبينما يكون تقدير نسبة الزكاة على الغلة الزراعية وحدها دون قيمة الأرض، فإن نسبة الزكاة في التجارة تُقدّر على رأس المال وعلى الأرباح أيضًا. وليس غرض الزكاة هو توفير وسائل إعانة الفقراء والمعوزين فقط، أو رفع المستوى الاقتصادي لطبقات المجتمع الأقل حظًّا فحسب، وإنما تهدف الزكاة إلى منع تراكُم الأموال والبضائع عند البعض فقط، وبالتالي ضمان التداول السريع لكل منهما، مما يؤدّي إلى الانتعاش والعدالة الاقتصادية للمجتمع كله.

ويشرح القرآن المجيد بالتفصيل المبادئ التي ينبغي أن يقوم عليها التعامل بين الناس، ويؤكد على أهمية التعاون وضرورته، كما يحدد حقوق وواجبات الفرد والمجتمع. كذلك فإنه يشرح الأصول التي تقوم عليها الحكومة والتزاماتها، والعلاقة التي ينبغي أن تكون موجودة بين الحكومة والشعب. كما ينظم العلاقة بين السيد والمسود، ويضع المبادئ التي ينبغي أن تحكم العلاقات الدولية وتنظمها.

ويؤكد القرآن المجيد على ضرورة عدم السماح بتكدّس الثروة في أيدي قليلة، وأنه ينبغي أن تظل الأموال في تداول مستمر. ولتحقيق ذلك يحرّم القرآن المجيد إقراض الأموال بالربا، الذي عن طريقه يستطيع عدد قليل من الناس الحاذقين أن يحتكروا الجزء الأكبر من الثروة في المجتمع، ولذلك فإنه يفرض أيضًا توزيع الميراث. ولا يسمح لأحد أن يترك كل ثروته لشخص واحد من بين الورثة العديدين، أو أن يزيد نصيب أحد الورثة على حساب وريث آخر. ويعمل القرآن المجيد على التوزيع العادل للثروة، عن طريق الزكاة والصدقات والإحسان إلى الناس، لأن من أوّل واجبات الحكومة أن توفر الرفاهية والرقيّ للفئات الفقيرة

من المجتمع. ومن خلال كل هذه الوسائل تستطيع الحكومة أن تحقق الانتعاش والتقدم الاقتصادي لجميع الناس.

ويؤكد القرآن المجيد على أهمية التعليم والترقي الذهني وضرورته، ولذلك يحث على التفكر والتأمل، باعتبار أن ذلك واجب ديني. كذلك فإنه ينصح الناس بعدم الدخول في صراعات، أو الانغماس في قتال بعضهم مع البعض، كما أنه يمنع العدوان بتاتًا. ويضع القرآن المجيد قواعد مفصّلة لتنظيم العلاقات بين أتباع الأديان المختلفة، ويمنع المسلمين من قول أي شيء يحط من شأن مؤسسي الأديان الأخرى أو قادتها. وفيما يختص بالمناقشات الدينية، يشير القرآن المجيد إلى ضرورة عدم السخرية من عقائد الأديان الأخرى أو إهانتها، حتى لا يكون ذلك سببًا في إعطاء الآخرين الحق في إهانة المقدسات الإسلامية. ويقرّ القرآن المجيد بأن جميع الأديان الكبرى في العالم تقوم أساسًا على الوحي الإلهي، وأن تدهور تلك الأديان كان بسبب ما حل بها من فساد على أيدي الإنسان. وعلى هذا، فإن القرآن المجيد يمنع إدانة الأديان الأخرى وإهانتها بشكل عام.

والقرآن المجيد يحفظ حقوق المرأة، وهو أول الصحف المقدسة التي تقرر بألفاظ واضحة أن الرجال ملزمون بالوفاء بحقوق النساء، تمامًا كما أن النساء أيضًا ملزمات بالوفاء بحقوق الرجال. ويشرح القرآن المجيد حقوق وواجبات كل من الآباء والأمهات، والإخوة والأخوات، والأزواج والزوجات، والأبناء والبنات، والجيران، والفقراء، واليتامى، والأرامل، والأصدقاء، والغرباء، وأبناء البلد، والغرباء الذين يقيمون في البلد، أو الذين يقومون بزيارتها.

شكل الحكومة في الإسلام

أدخل القرآن المجيد أفكارًا جديدة تمامًا في الحقل السياسي، فهو أول كتاب مقدس يقرر المبدأ العام الذي ينص على عدم حق أحد في أن يحكم الآخرين عن طريق وراثة الحكم. وهو يبين أن الحكم أمانة، ويجب أن تُعطَى هذه الأمانة لمن

يختارهم الناس للحكم. وعلى ذلك، فإن مبدأ الديمقراطية الذي يفخر به الغرب كثيرًا، والذي يُساء استعماله اليوم بكثرة أيضًا، كان القرآن المجيد هو أول من وضعه. ومن ناحية، يحض القرآن المجيد على النظام والطاعة والالتزام، ومن ناحية أخرى يقضي بضرورة تأدية الموظفين العموميين لالتزاماتهم بشرف وأمانة. وهو أول كتاب سماوي يحدّ من قُوى أولئك الذين يتولون السلطة ونفوذهم، ويجعلهم خاضعين للقانون والعقاب. ولا يعترف القرآن المجيد بحق أي فرد في أن يتولى السلطة المطلقة على أي مجتمع، كما لا يعترف أيضًا بأن الحكم بالعدل والإحسان منّة يمنّ بها الحاكم على المحكومين. فالقرآن المجيد يؤكد مبدأ أن الحكم أمر يخص الناس، وأن أولئك الذين يتولون الحكم، إنما يتولونه بصفة أمانة نيابة عن الله تعالى (النساء: ٥٩). وإن تولي السلطة وحمل مسؤولياتها، ليس معروفًا يقدمه أصحاب السلطة إلى الناس، بل هو وفاء بواجب وتأدية لأمانة حُمّلوا إياها. وعلى هذا، يؤكد القرآن المجيد على أن حق التصويت لاختيار أصحاب السلطة، يجب ألا يتأثر بنفوذ حزب أو بعاطفة شخصية، وإنما يكون المحكّ الأول في الاختيار هو صلاحية الإنسان الذي يُراد تحميله أمانة السلطة وأهليته. وحينئذ فقط، يمكن أن يكون الشخص المنتخب في موقف يسمح له أن يقوم بمسؤولياته، ويؤدي أمانته بشكل أفضل. ومن يعمل على أن يتولى السلطة شخص غير صالح، بناء على تقديرات حزبية أو اعتبارات شخصية، فإنه يتحمّل معه مسؤولية سوء الحكم، ولا يستطيع أن يدفع بأن إساءة استخدام السلطة لم تكن مسؤوليته، لأنه كان وسيلة في وضع ذلك الشخص في موقع يخوّله إساءة التصرّف بمصالح الجماهير.

ويقرر القرآن المجيد ضرورة التزام الحكومة وأفراد السلطة العامة بالمعايير الأخلاقية، بنفس القوة والدرجة التي يلتزم بها كل فرد في المجتمع، فهو لا يعترف بفكرة عدم التزام الحكومة والإدارة بالمعايير الأخلاقية الصارمة. إذ يقرر أن الحق قيمة أخلاقية غالية ولها أهميتها، ولا يمكن الاستغناء عنها في حالة رجل الدولة أو

رجل الشارع، وأن الفساد شر مكروه ومستنكر، سواء كان من جانب الإدارة أو من جانب الفرد. ويحض القرآن على التعامل بالعدل من جانب الحكومة ليس فقط تجاه رعاياها، بل كما هو الحال بالنسبة للأفراد، تجاه الحكومات المجاورة أيضا.

إن القرآن المجيد يقضي أن يكون المؤمن في حالة دائمة من اليقظة والحرص، وهو يحث المسلمين على العمل وبذل الجهد، ويدين الجبن والتعصّب والاستئساد على الضعفاء، ويشجع على التعقل واستخدام الفكر والمنطق والتأمل. وهو يُحرّم الانتحار، وكل عمل من شأنه الإساءة إلى النفس. ويضع على الحكومة مسؤولية تأمين حدود الدولة، بينما يدين العدوان بشدة، إلا أنه يحض على مقاومة العدوان بكل وسيلة. وفي حالة الحرب، لا يسمح بشن هجوم مباغت أثناء الليل. ويصرّ بشدة على احترام المعاهدات، كما يحضّ على عدم إهدار أية فرصة لتحقيق السلام.

القرآن المجيد والرقّ

لا يسمح القرآن المجيد باسترقاق المواطنين من أهل البلد، أو من الغرباء المقيمين فيه، وإنما يسمح بأخذ أسرى الحرب. غير أنه يقرر أن كل سجين حرب له حق نوال حريته بعد دفع فدية ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (محمد: ٥). وليس من حق أحد أن يُبقي شخصًا ما في الأسر، بعد أن يكون ذلك الشخص قد دفع فديته. وإذا كان الشخص الذي وقع أسيرًا في الحرب لا يستطيع أن يدفع على الفور الفدية المطلوبة، فمن حقه أن يكسب حريته من خلال العمل. فإذا كان لا يقدر على العمل والكسب، فإن القرآن المجيد يحث المسلمين على تقديم المساعدة له، والعمل على إيجاد الوسائل التي تمكنه من استعادة حريته ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾ (النور: ٣٤). وقد

يحدث أن يُفضّل أحد الأسرى البقاء مع سيده المسلم، بدلاً من الرجوع إلى قومه من غير المسلمين ليعيش تحت حكومة غير مسلمة. وفي هذه الحالة، يحض القرآن المجيد على معاملته بالعدل والقسطاس. وقد قال الرسول ﷺ إنه في هذه الحالة، ينبغي على السيد أن يُطعم أسيره من نفس الطعام الذي يأكل منه، ويكسوه من نفس الملابس التي يرتديها هو، وأن يوفّر له ركوبة كما أن له ركوبة، أو يشاركه ركوبته (البخاري).

ويؤكد القرآن المجيد على المساواة بين الناس جميعًا، وهو أول كتاب سماوي يقرر أن الإنسانية كلها عبارة عن مجتمع واحد. وهو يعترف بوجود الأوطان والأمم والقبائل، ولكنه يبين أن تقسيم الناس إلى شعوب وقبائل إنما كان بغرض تسهيل التعارف، أما من حيث الحقوق فإن الكل يتساوون فيها. ويستنكر جميع التمايز القائم على العرق، أو التفاضل الاقتصادي، أو أيّ تفوّق آخر يمكن تصوّره. ولذا يحذّر القرآن المجيد، أن الذين ينسبون لأنفسهم أي نوع من الاستعلاء على غيرهم من الناس، سوف يلقون الذل والهوان، وأن أولئك الذين كانوا يتعالون عليهم وينظرون إليهم نظرة دونية، سوف يتفوّقون عليهم يومًا ما. وإذا اقتنع العالم بهذا التعليم الذي يحض عليه القرآن المجيد، تكون العقبات الرئيسة التي تعترض طريق تحقيق السلام العالمي قد زالت من الوجود.

ويحرّم القرآن المجيد كل ما من شأنه إثارة الناس، وما يميل بهم إلى ارتكاب الحماقة أو العبث. فمثلاً، يحرّم الإسلام لعب القمار وشرب المسكرات، ولا يؤيد السلوك العبثي والمستهتر. ويحرّم أيضًا على الرجال لبس الحرير واتخاذ الحليّ، بينما يبيح ذلك للنساء بحد معقول.

الروح البشرية

القرآن المجيد هو الكتاب السماوي الوحيد الذي تناول بتفصيل طويل موضوع الروح الإنسانية وخلقها. وأما الكتب المقدسة الأخرى، فهي إما

تتجاهل الموضوع برمّته، أو أن كل ما تذكره مجرد تخمينات. يقول القرآن المجيد:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا﴾ (الإسراء: ٨٦)

إن هذه الآية الكريمة تدحض النظرية التي تقول بأن أرواح البشر أزلية، موجودة بذاتها كما لو أنها كانت في كون آخر، ثم تنْزل إلى الأرض من وقت لآخر لتدخل الجسم الإنساني. فتشير الآية إلى أن الله تعالى يخلق الروح، شأنها في ذلك شأن بقية المخلوقات، وهي تنمو وتتطور بتوجيه الله تعالى. وتبين الآية أيضًا أن مولد الروح ليس بعملية منفصلة عن مولد الجسم. فإن سلسلة التطورات التي تؤدي إلى ولادة الجسم، هي نفسها التي تؤدي إلى ولادة الروح وتعمل على رقيها. ويعالج القرآن المجيد هذا الموضوع في مكان آخر حيث يقول:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَة مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٣-١٥)

وتبين هذه الآية أن الإنسان يولد نتيجة للتغذية التي يتناولها الرجل والمرأة للمحافظة على قوتهما واستمرار حياتهما. وتُنتج هذه التغذية في الجسم الإنساني مادة يتم بها التناسل، وحين تدخل هذه المادة في الرحم، فإن الجزء الذي له خاصية التكاثر فيها يلتصق بالرحم ويبدأ في تلقي الغذاء. وخلال عدة أيام تأخذ في التكثّف وتتغلّظ، فتتحوّل إلى مضغة لينة، ومنها تبدأ العظام في التشكّل، وفيما بعد عندما تكتسي هذه العظام باللحم، ومن ثم تكتمل مراحل التطور الجسماني. وفي نفس الوقت الذي يحدث فيه هذا التطور، يحدث نوع من التكثف ينتج عنه تكوين صفات كائن حي، مما يؤدي في النهاية إلى ميلاد كائن بشري عاقل. وتبين الآية بوضوح أن الروح لا تدخل الجسد من الخارج، وإنما تترشح من المادة التي تكونت في رحم الأم. وهي بلا شك تختلف عن المادة التي ترشحت منها،

ولها القدرة على إضفاء الصفات الحيوانية على هذه المادة، وتحويلها إلى إنسان بشري يتمتع بملكات العقل والإدراك والذكاء، والقدرة على الارتقاء. ولتوضيح هذا الأمر يمكن للمرء، كنوع من المقارنة التقريبية، أن يلفت النظر إلى بعض العمليات الكيميائية التي تتحد فيها بعض المواد لتُكوّن مادة جديدة لها صفات مختلفة خاصة بها. فمثلاً يتم تقطير الكحول من البنجر، والقمح، والذرة، والخرّوب. وللكحول خواص وصفات تختلف تمامًا عن تلك التي لهذه المواد الأولية التي يتكوّن منها. وبينما يمكن أن تفسد هذه المواد وتتعفن، إلا أن الكحول لا يفسد ويعتبر من المواد الحافظة. وأيضًا، بينما لا يؤثر استعمال هذه المواد الأولية على قوة الوعي لدى الإنسان، فإن للكحول تأثيرًا شديدًا في هذا المجال.

وباختصار، إن القرآن المجيد يقدّم مفهومًا جديدًا تمامًا لمولد الروح البشرية، ولا يوجد له مثيل في الكتب السابقة. وكما سبق ذكره، فإن بعض هذه الكتب صامت كلية عن هذا الموضوع. وتقتصر هذه الكتب على التعامل مع الإنسان كما تجده في الحياة، ولا ترى حاجة لبحث موضوع خلق الإنسان أو خلق الروح. وأما تلك الكتب التي تزعم معالجة هذا الموضوع تقدم إحدى نظريتين. تقول واحدة منها إن الله تعالى لم يخلق الأرواح البشرية، ولكنها أزلية قائمة بذاتها مثل الله تعالى، وأنه سبحانه يجعل هذه الأرواح الأزلية تدخل في الأجسام البشرية في الوقت المناسب. والنظرية الأخرى تقول إن الأرواح مخلوقة وليست قائمة بذاتها، ولكن الله تعالى خلق العدد المطلوب منها عندما خلق الكون، وأن هذه الأرواح موجودة في مكان محفوظ، ومن هذا المكان المحفوظ يُنْزل الله بعضا منها لتدخل في الأجسام البشرية من وقت لآخر. والقرآن المجيد هو الوحيد بين الكتب السماوية، كما أنه أولها كلها، الذي قدّم حقيقة هذا الأمر. فهو يقرر أن مولد الروح هو المرحلة النهائية في عملية تكوين الجسم البشري أثناء خلقه. وهي لا تدخل الجسم من الخارج، وإنما تنشأ نتيجة للتغييرات التي تحدث في

الجسم أثناء تكوينه، ومع ذلك فهي شيء آخر يختلف في كنهه عن الجسد. وهي ليست مجرد القوة المحرّكة للجسد، ولكنها تختلف عن الجسد ولها طبيعة دائمة، وقد ترشّحت من مادة الجسد، كما أن الكحول أو الخل يختلف في صفاته وخواصه عن الذرة أو الفاكهة التي استقطر منها.

وقد أدّى إلقاء القرآن المجيد الضوء على هذه الحقيقة إلى تغيير شامل في نظرة الإنسان وفهمه للعلاقة بين الروح والجسد. فإن أولئك الذين يؤمنون بأن الأرواح أزلية قائمة بذاتها، أو أنها كلها قد خُلقت مرة واحدة عند خلق الكون، ثم تنْزل إلى الأرض حسب الحاجة من وقت لآخر، ينكرون أن الحالات البدنية والتطورات الجسمانية تؤدّي أي دور في تطور الروح ورقيها. ومن ناحية أخرى، فإن القرآن المجيد بكشفه عن هذه الحقيقة الواقعة، قد أكّد على أن حالة الإنسان وتطوره، يرتبط بصلة قوية بحالته الروحية وتطوّره الجسماني. صحيح أنه من المحتم لكل جسد أن يُنشئ روحًا في مرحلة معينة، ولكن القرآن المجيد يلفت النظر بقوة إلى أنه إذا خُصّصت العناية الكافية للعناية بالجسد الإنساني، من ناحية النظافة الصحية والصحة العامة، فإن الشخصية التي تنتج عن ذلك تكون أكثر حيوية وأشد ذكاءً، عما إذا أهمل الإنسان العناية بهذه الأمور. وبلفت الأنظار إلى هذه الحقيقة، فإن القرآن المجيد قد فتح آفاقًا جديدة للنمو الفكري، والرقيّ الروحي للإنسان.

ويؤكد البعض من الناس أن الروح ليس لها قدرات خاصة بها، وبالتالي فلا يمكن أن تتأثر بأي تغيير يحدث للجسد. وهذا غير صحيح. فإن القول بأن الروح ليس لها قدرات خاصة قول لا معنى له. فإذا لم يكن لها قدرات خاصة، فالأوْلى ألا يكون لها وجود مستقل. لا شك أن للروح قدرات خاصة، ولكنها لا تستطيع إظهار هذه القدرات إلا عن طريق الجسد. وهناك أمثلة في العالم المادي تبين أن أشياء معينة لا تستطيع أن تظهر قدراتها إلا من خلال أجسام أخرى. فمثلاً نحن نشاهد في كل حين تأثير ظاهرة الكهرباء، ونرى أنها لا تظهر إلا من خلال مواد تختلف عنها.

وعلى نفس النمط، نجد أن قدرات الروح لا تظهر ولا تتجلى إلا من خلال الجسد.

إن القرآن المجيد يعالج جميع هذه الموضوعات والمشابهة لها، ولكن لا يمكن بحثها كلها في نطاق هذه المقدمة. ويعلن القرآن المجيد أنه تناول كل أمر يتعلق برقيّ وتقدم الإنسان الطبعي والأخلاقي والروحي، وقد تبيّنت هذه الحقيقة في كل عصر من العصور. وفي هذا القرن العشرين، حيث يُفترض أن العلوم والمعارف قد وصلت إلى مرحلة عليا من التقدم، نجد أن القرآن المجيد قد حقق جميع الحاجات الحقيقية للإنسان، ولم يكن هناك من أمر يتعلق برقيّ الإنسان الطبعي والأخلاقي والفكري، أو طهارته الروحية وتقدمه، لم يُعالج بما يستحقه في القرآن المجيد. ولا يمكن هنا سوى الإشارة والتلميح فقط إلى هذه الأمور، وأما التفاصيل فيمكن الحصول عليها من شرح وتفسير الآيات القرآنية. وقد اضطررنا لإبقاء الشرح والتفسير في حده الأدنى، ولكن هناك المزيد من التفاصيل عن هذه الأمور في تفسير القرآن باللغة الأردية.

منهج القرآن المجيد للكون الروحاني

بعد أن قدّمنا باختصار خصائص التعاليم القرآنية، نلفت الأنظار إلى منهج الكون الروحاني التي يصفه القرآن المجيد. فما نلاحظه هو أن الكون المادي يقوم على نظام معين، وفي المجموعة الشمسية تدور الأرض ومعها عدة كواكب أخرى حول الشمس، ثم تتحرك الشمس ومجموعتها من الكواكب نحو هدف يقول العلماء إنه مركز تدور حوله الكثير من الأنظمة الشمسية. وسواء كانت هذه الأقوال مجرد تخمينات أو حقائق صحيحة، فإن ما لا يمكن إنكاره أن الكون المادي كله يقوم على نظام معين؛ وإلا لكان انتهى منذ زمن طويل إلى فوضى شاملة. هذا النظام الكوني تحكُمه قوانين تضبط الأشكال المختلفة من المادة، ونتيجة لذلك يمتلئ الكون بمجموعات لا حصر لها من مكونات مادية وعناصر. ويتوقف تطور الكون المادي وتقدمه على استخدام هذه المكونات والعناصر المادية والإفادة منها.

ويقرر القرآن المجيد أن العالم الروحاني يعمل أيضًا حسب نظام يدور هو الآخر حول مركز شامل جامع، يحتوي كل شيء ويسيطر على الكون بأسره، ولا يوجد شيء في الكون خارج عن سلطة هذا المركز أو لا يعتمد عليه في وجوده. وهذا المركز هو كائن قائم بذاته وغير مخلوق، ولا يعتمد على شيء آخر من أجل تنفيذ إرادته، وهو لا يلد ولم يولد، وليس له شريك ولا رفيق يقاسمه قواه وقدراته وأفعاله. وقد أوضح القرآن المجيد هذا بكل وضوح في سورة الإخلاص (رقم ١١٢). ففي هذه السورة يوجه الله تعالى رسوله إلى إعلان حقيقة أن الله واحد أحد، فريد في جميع قواه وصفاته. وقد يحدث أحيانًا أن يكتشف المرء تشابهًا بين صفات شيء ما أو شخص ما وصفات الله ﷻ، ولكن هذا التشابه ظاهري وسطحي فقط. فمثلاً، نقول إن الله موجود، ويمكن أن يُقال أيضًا إن الناس والحيوانات موجودة كذلك. فالكلمة المستخدمة تعبر عن فكرة الوجود في الحالتين، ولكنها لا تصف نفس الحقيقة في كل حالة. فعندما نقول إن الله موجود، فإننا نعني أنه موجود بذاته، وهو كامل في ذاته، فلا يعتمد في وجوده على شيء آخر ولا على كائن آخر. ولكن حين نقول إن الإنسان موجود أو إن الحيوان موجود أو إن شيئًا آخر موجود، فكل ما نعنيه هو أنه طالما استمرّت تلك الأسباب والظروف التي يحدث نتيجة لتفاعلها خلق الإنسان أو الحيوان أو خلق ذلك الشيء، فإنه سوف يستمر في الوجود؛ ولكن إذا تغيرت الأسباب وتبدلت الظروف، أو تأثر الإنسان أو الحيوان أو ذلك الشيء ماديًّا، فيتوقف هذا الوجود أو يتأثر ماديًّا. فمثلاً، يقال إن الإنسان يكون حيًّا طالما استمرت العلاقة قائمة بين روحه وجسده. غير أن هذه العلاقة مؤقتة ويمكن أن تنتهي، وعندما تنتهي يظل الجسم موجودًا، ولكنه لا يكون حيًّا. وأيضًا، يتكون الجسد من ألوف الملايين من الذرّات التي تتّخذ أشكالاً معينة، وتدخل في تجمّعات وتوْليفات معينة، تحت ظروف معينة. وحينما تنفك هذه التجمعات والتوْليفات، يتوقف الجسد عن الوجود كجسد. فعندما يُدفن الجسد الميّت في التراب، تحدث بعض العمليات

الكيميائية ويتعفن الجسد أو يتحلل. غير أن الذرات التي يتكون منها الجسد لا تزال موجودة، ولكن الأسباب والظروف التي كانت تسبّب تجمّعها في أشكال معينة تُكوّن في مجموعها شكل الجسد، قد تغيرت. وبهذا ينتهي وجود الجسد بانفكاك الذرات التي تُكوّن هذه التجمعات، فينعدم وجود الجسد. ونفس الشيء يحدث حينما يتحلل الجسد بسبب الماء أو النار أو الكهرباء. إن الذرات التي كانت تُكوّن مادة الجسد لا تزال موجودة، ولكنها تأخذ أشكالاً جديدة، وبذلك لا يستطيع الجسد أن يظل في نفس الشكل الذي كان عليه. وجميع هذه الاعتبارات لا تنطبق على الله تعالى. فليس هناك أسباب خارجية تسببت في وجوده، أو ساعدت على استمرار كينونته. إنه موجود لأنه هو الكمال المطلق، وهو يسمو على قيود الزمن. ويقال أحيانًا إن العقل البشري لا يستطيع أن يفهم كيف يمكن أن يسمو وجود الله تعالى على قيود الزمن، بينما كل شيء يخضع لقيود الزمن. ولكن حقيقة الأمر أن وجود الله تعالى يختلف عن وجود الإنسان أو وجود الأشياء أو الكائنات المادية، والتشابه بين الوجودَيْن ليس إلا سطحيًّا وظاهريًّا فقط. فالله ﷻ فريد في ذاته، ولا يشترك في صفاته مع شيء آخر، أو مع كائن آخر. وفي مكان آخر من القرآن المجيد، يذكر الله تعالى أنه هو خالق السماوات والأرض، وأنه خلق الإنسان والحيوان وكل شيء في زوجين، وأنه جعل هناك وسائل لتقدم ورقيّ الكون المادّي، وذلك كما قال تعالى:

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١٢)

ويعني هذا أن الناس والحيوانات والنباتات وحتى الجمادات قد خُلقت في أزواج. ويمكن تسمية هذه الأزواج ذكر وأنثى، أو موجب وسالب، أو أية تسمية أخرى، ولكن الكون كله يتحرّك إلى الأمام على أساس أن كل شيء قد خُلق في شكل أزواج.

وأيضًا يقول القرآن المجيد:

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذّاريات: ٥٠)

أي أن الإنسان حين يتفكر في الكون، ويرى أن كل شيء قد خُلق في زوجين، فلا بد له أن يستنتج أن الله تعالى لا يمكن أن يكون أحد هذه الأشياء المخلوقة، لأن كلاً منها غير كامل في ذاته، ولا يستطيع الاستمرار في الوجود، ولا يمكن له أن يؤدّي وظائفه بشكل واف، إلا بمساعدة الزوج الآخر.

وباختصار، يقرر القرآن المجيد أن مركز الكون هو كائن فريد في ذاته، ليس كمثله شيء، ولا يتشابه معه أي إنسان أو أي كائن آخر تشابهًا حقيقيًّا. الكون بأكمله يعتمد عليه في وجوده، وفي استمرار تأدية وظائفه، ولكن ذلك الكائن الفريد في ذاته، الذي هو مركز الكون، لا يعتمد في وجوده على كائن آخر، ولا تتجلى صفاته وتظهر قدراته بمساعدة من أحد. ويقرر القرآن المجيد أن ذلك الكائن لا يلد ولم يولد، وهذا ما يميّز التعليم القرآني في هذه النقطة عن تعليم المسيحية. فالمسيحية، وبعض العقائد الآرية (الهندوسية)، تنسب إلى الله تعالى ولادة الأبناء. وأما القرآن المجيد، فيقرر أن الكائنات التي يمكن أن تواجه الاندثار والانقراض فقط هي التي تكون في حاجة إلى الأبناء. ولما كان الله تعالى لا يعتمد على أحد، ووجوده دائم ولا يتعرّض للانقراض، فهو ليس في حاجة إلى أبناء. ولما كان قائمًا بذاته، فهو ليس في حاجة إلى أب. وعلى هذا فإنه سبحانه فريد في أنه لم يولد وأنه لا يلد، وأنه فريد أيضًا في أنه لا يوجد أي كائن آخر يشابهه في صفاته أو قدراته. أي أن الله ﷻ لم يُخلق، ولم يولد، ولم يلد، ولم يكن له من كفؤٍ أحد. وهذا التعليم القرآني يدحض فكرة تعدد الآلهة، التي تقولها بعض الأديان مثل الزرادشتية.

إن سورة الإخلاص، بآياتها القليلة الموجزة، تعلن أن مركز الكون كله هو الله تعالى، الذي هو كائن فريد في ذاته وفي صفاته. هو مصدر الكون، ولا يعتمد على أي كائن آخر أو أي شيء آخر في تجلي صفاته. لم يلد ولم يولد. وليس

كمثله شيء، وليس هناك من قوة تتوازَى مع قوته، أو تشترك معه في صـــفاته. وليس هناك من كائن له مقام منافس له، أو يكون ضدًّا له. إن هذه السورة ذات الكلمات القليلة تعلن وحدانية الله تعالى، وتدحض الأخطاء الموجودة في الأديان الأخرى عن الله ﷻ.

إله الناس كافّـة

يعتقد أتباع بعض الأديان أن لله تعالى علاقة خاصة بهم وحدهم من دون الناس جميعًا، لا يتمتع بها غيرهم. فهم يعتقدون أنه رغم أن الله خالق الكون بأكملـــه، فهو إلى حد ما إله قوم معين، كبني إسرائيل مثلاً، أو كالهندوس، أو الزرداشتيين. والقرآن المجيد يرفض هذه العقيدة، ويقرر أن الله تعالى ليس فريدًا في ذاته فحسب، بل إنه مصدر الكون بأكمله. إن كلمة ﴿أَحَد﴾ التي جاءت في الآية الأولى مـــن سورة الإخلاص، تعني أنه واحد وأنه أيضًا فريد، أي أنه المصدر الذي يخرج عـــن قانون العدد، ولكن تخرج منه كل الأعداد. وتبين هذه الآية أن الله تعالى هو أيضًا الهادي للناس كافة، وليس له رابطة خاصة بقوم معين دون قوم آخر. وهو يهدي إلى طريقه أولئك الذين يجاهدون ليظفروا بقربه. والجميع متساوون لديه، ســـواء العرب أو اليهود أو الإيرانيون أو الهنود أو الصينيون أو اليونانيون أو الأفارقة، لأنه هو الذي خلق هؤلاء جميعًا. إنه الوحدانية التي هي مصدر التعددية في الكـــون. وبإعلان القرآن المجيد أن الله تعالى لم يولد، فإنه قد دحض العقيـــدة المركزيـــة في المسيحية وفي عدة مذاهب هندوسية، لأن من وُلد لا يمكن أن يكون الله، لأنـــه يعتمد في وجوده على شخص آخر. وبتقرير القرآن المجيد أنه ليس لله تعالى ضـــد ينافسه، فإنه قد دحض العقيدة الموجودة في بعض الأديان، والتي تقول إن النـــور والظلام قوتان متضادتان، وأنهما في واقع الأمر يمثلان إلهين متضادّين.

الله ﷻ – السبب المطلق لكل الخليقة

من تعاليم القرآن المجيد أيضًا أن الله تعالى هو السبب المطلق لكل الخليقة؛ أي

أن الخليقة كلها جاءت منه، وأنها سوف تعود إليه. فهو يقول: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد: ٤)

وهذا يعني أن كل شيء في الكون يدين بوجوده لله تعالى، وأن نهاية كل شيء تحدث أيضًا حسب القوانين الإلهية. وإن لم يشأ الله تعالى أن يهب الكون وجوده، لما كان له وجود؛ ولو لم يضع الله تعالى القوانين اللازمة لانتهائه وفنائه، لما أمكن له أن يفنى. وعلى هذا فإن الوجود والفناء محكومان بالقوانين الإلهية، وهذا ما يدل على أن الذي وضع نظام الكون كائن عاقل واع. ويقول القرآن المجيد:

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لآ إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الأنعام: ١٠٢-١٠٣)

تقرر هذه الآيات أن الله تعالى هو مصدر كل خلق، وهو بذلك ليس في حاجة إلى ولد. والولد يأتي إمّا بطريق الصدفة، أو لتلبية حاجة معينة. والتزاوج بين ذكر وأنثى، حتى ولو لم يكن غرضه التناسل، يمكن أن يؤدي إلى مولد الولد. أما احتمال حدوث ذلك بالنسبة لله تعالى، فقد ألغته الآية تمامًا بتقرير أن الله تعالى لم تكن له صاحبة.

ويقال إنه من الممكن أن يخلق الله تعالى شخصًا ما ويعيّنه في مقام الابن. ولكن الابن يُطلب من أجل أن يساعد أباه على أداء مهماته، وأن يُخلد اسم أبيه. ويشير القرآن المجيد إلى أنه لما كان الله تعالى هو خالق كل شيء، وهو الوكيل على كل شيء، فهو لا يحتاج إلى مساعدة من أحد، وكونه أزليًا دائمًا فإن اسمه سوف يبقى أيضًا على الدوام. وعلى هذا، ليس هناك من غرض يمكن أن يتحقق من اتّخاذه ولدًا. إن الإنسان قد يعمل على توفير بعض المؤن للمستقبل لمجابهة أية ظروف غير متوقعة، ولكن القرآن المجيد يشير إلى أن الله بكل

شيء عليم، وبذلك فهو لا يخضع لضرورة الاحتياط للمستقبل، فهو يعلم الماضي والمستقبل، ولا يحتاج لأن يحتاط للمستقبل.

ثم يمضي القرآن المجيد ليلفت النظر إلى حقيقة أن الله تعالى ليس خالق الإنسان فحسب، بل إنه أيضًا ربه، أي أنه هو الذي يربّيه، فيرقّيه من ضعف وتخلّف إلى قوّة وتقدّم. فلا إله إلا هو، خالق الكون، وخالق كل شيء فيه. والناس كافة لديه، سواء كانوا من الفرس أو العرب، أو من اليهود أو الهنود، كلهم سواسية عنده. إنه خالقهم جميعًا، وهو الذي يوفر لهم جميعًا وسائل التقدم. ولذلك ينبغي على الناس كافة أن يعبدوه وحده، لأنه هو وحده الذي بيده أمر كل شيء، وهو على كل شيء وكيل. ولن ينجو الإنسان من الهلاك والدمار إلا بتقوية علاقته بربه، ولا يمكن أن يجد الإنسان الأمن والسلام إلا بواسطته ﷻ.

ويبين القرآن المجيد أن الله عليم بكل شيء في الكون، وليس من شيء يخرج عن محيط علمه، إذ يقول:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ (البقرة: ٢٥٦)

ثم يقول مرة أخرى:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَآءِ وَلآ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلآ أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (يونس: ٦٢)

وتبين هذه الآيات أن الحالة التي يكون فيها عقل الإنسان، وكل ما ينطقه من كلمات بفمه، وكل ما يفعله مستخدمًا أطرافه وجوارحه، كله مشهود معروف لدى الله تعالى. وكل ما في الكون، مهما كان صغيرًا مثقال ذرّة أو أصغر من ذلك، ليس خافيًا عن الله تعالى. إنه يرى أصغر ما في الكون وأكبر ما فيه، ولا يخرج شيء عن علمه، بل إنه يشهد كل ما يُعمل من عمل، وما يحدث من

أفعال، فيحفظه إلى أن يُنتج نتيجته المقدّرة له، في الوقت المقدّر له. وتقول الآية الكريمة إن كل هذه الأمور تُسجل في كتاب مبين واضح، وهذا يعني أنه بينما تكون المعلومات المسجلة في الكتب العادية مخفيّة عن أعين الناس، بل إنها تختفي عن أعين صاحبها بعد تسجيلها وإغلاق الكتاب، فإن السجل الإلهي الذي يُسجل فيه كل ما يحدث وما يُقال، يتحدث عن نفسه، أي أن كل عمل يؤدّي إلى نتيجة معينة حسب ما قررته المشيئة الإلهية، وحسب القانون الإلهي الذي وضعه الله تعالى لذلك.

ويقول القرآن المجيد أيضًا ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ (الأنعام: ١٠٤)، أي أن الذات الإلهية تختلف عن كل الأشياء المادية، ولذلك لا يمكن أن يُرى الله بواسطة أيّ من الحواس المادّية.

كذلك يبين القرآن المجيد أيضًا أن الله تعالى قادر على أن يفعل ما يشاء أن يفعله، فيقول: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١١٠). أي أن الله تعالى قدير على فعل كل ما تقتضيه مشيئته، وليس مجرد كل شيء على الإطلاق، سواء شاءته إرادته أم لم تشأه، فإن ذلك يفتح المجال أمام الأغبياء من الناس لإثارة العديد من الأسئلة المنافية للعقل. فمثلاً، تساءل البعض عمّا إذا كان الله يقدر على أن يدمّر نفسه، أو ما إذا كانت لديه القدرة على أن يخلق إلهًا مثله. ومن الواضح أنه مما ينافي العقل أن يفعل الله شيئًا من هذا القبيل، فهو لا يتفق مع مشيئته، ولا يليق بعظمته وكماله المطلق أن يفعل شيئًا سخيفًا لا يتفق مع العقل. ولما كان الله تعالى هو الكمال المطلق، فإنه لا يفعل ولا يشاء إلا ما هو كامل، وإنها لمن قمة الحماقة أن يُنسب إلى الله الحكيم أن يشاء القضاء على نفسه، أو أن يخلق إلهًا آخر مثله.

الصفات الإلهية الأساسية

تبين سورة الفاتحة أن الصفات الإلهية التي تؤثر على الإنسان تنبثق من أربع صفات رئيسة.

أولى هذه الصفات هي ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي أن الله تعالى يخلق كل شيء ويرعاه، أي أنه يربيه ويحسّنه، وبالتدريج يأخذه نحو الكمال.

ثانيًا، هو ﴿الرَّحْمَنِ﴾؛ أي أن الله تعالى يهب مخلوقاته من فضله، دون أي جهد من جانبهم، فيهبهم كل ما هو ضروري لنموّهم وتطورهم ورقيّهم.

ثالثًا، هو ﴿الرَّحِيمِ﴾؛ أي أن أولئك من بين خلقه الذين وهبهم إرادة وإدراكًا، واختاروا أن يفعلوا صالحًا وأن يقاوموا الشر والفساد، فإن الله تعالى يُضفي عليهم أعلى جزاء، ويكافئهم بثواب لا ينقطع.

رابعًا، هو ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ أي أن له الحكم النهائي فيما يختص بكل شيء. إن كل شيء مدين بوجوده له، وبيده أيضًا نهاية كل شيء. إن الإنسان، وغيره من المخلوقات، قد يستطيع أن يحقق تغييرًا مؤقتًا سرعان ما يزول أثره، ولكن ليس لديه القدرة على تحقيق تغيير دائم في الكون. فمثلاً، لا يستطيع الإنسان أن يخلق المادة أو الروح. وهو أيضًا ليس لديه القدرة على أن يقضي على أي منهما، رغم أن في مقدوره أن يحقق تغييرًا مؤقتًا في المادة، فيعطيها أشكالاً مختلفة من الناحية الظاهرية. ولما كانت صفة الخلق والإيجاد يختص بها الله تعالى وحده، فكذلك له وحده القدرة على إنهاء الوجود والإهلاك، فلا يمكن أن يهلك شيء إلا إذا قضى سبحانه بهلاكه. وهذه حقيقة منطقية، يؤكدها القرآن المجيد حين يؤكد على أن الله تعالى هو مالك يوم الدين. أي أن الحكم النهائي فيما يختص بكل شيء يتحرك، يكون في يد الله تعالى، وهو وحده الذي يقرر هذه الأحكام باعتبار أنه "مالك" الكون، وليس مجرد قاض يقضي بين طرفي خصام أمامه. إذ إن القاضي ملزم بأن يحكم بالعدل بين طرفي النّزاع، مراعيًا حقوق وواجبات كل من الطرفين، ولكن الله تعالى ليس ملزَمًا بهذا. فرغم أن الله تعالى لا يظلم أحدًا عند حكمه، ولا هو يغمط أحدًا حقه، إلا أن له الحق أن يتنازل عن حقوقه التي له لدى أحد. فهو كمالك، له أن يعامل عباده برحمة، ويتصرّف تجاههم بإحسان، ويشملهم بفضله، فيغفر خطايا عباده، ويتجاوز عن

سيئاتهم، ويغمرهم بفضله وإحسانه. وعدم القدرة على فهم هذه الصفة الإلهية أدّى بالمسيحيين إلى اختراع عقيدة يتعذّر قبولها أو الدفاع عنها بالعقل والمنطق، وهي عقيدة الكفّارة. ومؤدّى هذه العقيدة المسيحية أن الله، شأنه في ذلك شأن أيّ قاض مدني من قضاة الدنيا، ليس لديه القدرة على أن يغفر أخطاء أي شخص يقف للمحاكمة أمامه. وبهذا الافتراض الخاطئ عن الله تعالى، لم يدرك المسيحيون حقيقة أن القاضي الدنيوي يحكم بين طرفين أمامه، فهو شخصيًّا ليس طرفًا في النّزاع، وليس له أيّ حق يتعلق بموضوع النّزاع. غير أن العلاقة بين الله تعالى وعباده تختلف تمامًا عن تلك التي بين القاضي وطرفي النّزاع. فالله ﷻ خصمٌ في القضية التي يقف العبد أمامه ليحاسب عليها، وله تعالى أيضًا السلطة أن يصدر حكمه في القضية. أما القاضي العادي في الدنيا فلا يمكن أن يكون أبدًا طرفًا في القضية التي يحكم فيها، وإنما يتولى فقط تحديد حقوق كل من الطرفين الواقفين أمامه. أي أن على القاضي أن يفصل بين طرفين يطالب أحدهما بحق من الآخر. هذان الطرفان يمكن أن يكونا فردين أو أن يكون أحدهما ممثلاً للدولة أو لفرد عادي. أما الله تعالى فيحكم بينه وبين عباده، ولذلك فهو يشغل موقعين، أي أنه خصم وحكَم في نفس الوقت. وبصفته كخصم يكون من حقه أن يتنازل عن جميع حقه أو على جزء من حقه إذا شاء. وهذا التنازل يعتبر رحمة وليس مخالفة للعدالة، لأن التنازل يتعلق بحق الله تعالى، ولا يُنقص شيئًا من حقّ الشخص الذي يُحاكم. وهذا أمر يتفق تمامًا مع العقل والمنطق.

ومن ناحية أخرى، فإن عقيدة الكفّارة تتعارض تمامًا مع العقل والمنطق. فإذا كان الإيمان بصلب المسيح يُعتبر أمرًا محتمًا لمغفرة الخطايا، فكيف نال النجاة الأنبياء السابقون للمسيح وأتباعهم؟ ألم يكن من الأوْلى والأوْفق أن تحدث عملية الصلب هذه في فجر تاريخ الكون، حتى يمكن للبشر جميعًا أن ينالوا الخلاص والنجاة؟ وأيضًا، كيف يمكن أن تُغفر الخطايا من خلال الإيمان بصلب المسيح، ولا تُغفر من خلال عملية التوبة، التي تُعتبر العملية الطبيعية لتطهير القلب من

الإثم؟ إن الإيمان بأمر خارجي ليس هو الوسيلة الطبيعية لتطهير القلب. إنه لمما يثير الدهشة والعجب أن يؤمن المسيحيون بأن قلب الإنسان المذنب يمكن أن يتطهّر بالإيمان بصلب المسيح، ونتيجة لذلك فإن الله يغفر ذنوبه، ولكنهم يرفضون قبول حقيقة أنه حينما يشعر المذنب بالندم على ما اقترف من ذنوب، ويعترف بأخطائه أمام الله تعالى، ويطلب منه المغفرة، فإن الله تعالى يغفر له ذنوبه وخطاياه.

إننا نلاحظ أن المسيحيين يتّبعون هذا المبدأ خلال أعمالهم اليومية. فإذا أخطأ أحدهم في حق أحد، وشعر بندم شديد على ما فعل، واعترف بخطئه، ووعد بالإصلاح، فإنهم يغفرون له هذا الخطأ. فمثلاً، إنهم يتّبعون هذا المبدأ في مدارسهم، فعندما يرى المدرّس أن التلميذ قد أخطأ، أو كان مهملاً في أداء واجباته المدرسية، وكان المدرّس على قناعة بأن التلميذ نادم بالفعل على خطئه، وعلى استعداد أن يُصلح من خطئه في المستقبل، فإنه يعفو عنه. ومع ذلك، لو أن عقيدة الكفّارة كانت صحيحة، فكل ما ينبغي على التلميذ المخطئ أن يفعل في مثل هذه الحالة، أن يقول إنه يؤمن بصلب المسيح، وعلى هذا ينبغي العفو عنه. ولكن هذا لا يحدث أبدًا. إذ إن المدرّس يصرّ على أنه إذا أراد التلميذ أن ينال العفو، فعليه أن يبين أنه خجل من خطئه، وأنه سوف يصلح هذا الوضع في المستقبل. فالمدرّس لا يغفر أبدًا لمجرد إيمان التلميذ بصلب المسيح.

ومع ذلك، فقد يُقال إن الإيمان بعقيدة الصليب يعادل تطهير القلب. غير أن سلوك المسيحيين في العالم كله يُكذّب هذا الادّعاء، لأن المفاسد والشرور التي تُرتكب في الدول المسيحية تكاد لا توجد في الدول الأخرى.

وعلى هذا، ما الذي استفاده المسيحيون من الإيمان بعقيدة الكفّارة؟ إذا كانوا يصرّون على أنهم سوف ينالون النجاة بإيمانهم بهذه العقيدة، فهذا أمر يصعب على العقل قبوله، كما سبق أن أوضحنا أن النجاة الحقيقية يمكن نوالها عن طريق التوبة الصادقة والأعمال الصالحة، وأن الأنبياء السابقين وأتباعهم الذين جاءوا قبل

المسيح، قد نالوا النجاة عن هذا الطريق فقط. وإذا كان المسيحيون يدّعون أن الإيمان بعقيدة الكفّارة يؤدّي إلى طهارة القلب، فإن طهارة القلب هذه لم تتحقق للمسيحيين رغم إيمانهم بالكفّارة. ونحن لا نقصد القول بعدم طهارة قلب أحد من المسيحيين، ولكنا نؤكد على أنه إذا كان قلب أحد المسيحيين قد تطهّر، فقد تطهّر مثل قلوب بقية الناس، من خلال الندم والتوبة أو من خلال عبادة الله، أي من خلال الصلاة والصيام، فكما قال المسيح عليه السلام بنفسه: "هذا الجنس لا يمكن أن يخرج بشيء إلا بالصلاة والصوم" (مرقس ٩: ٢٩).

الصفات الإلهية الأخرى

من المستحيل الدخول هنا في شرح مفصّل لمختلف الصفات الإلهية المذكورة في القرآن المجيد، سواء جاء ذكرها تصريحًا أو تلميحًا، والتي تنبثق من الصفات الأربع الأساسية التي ذكرناها فيما سبق. ويمكن فيما يلي ذكر قائمة ببعض هذه الصفات أو الأسماء الحسنى:

(١) الملك	(٢) القدّوس	(٣) السلام	(٤) المؤمن
(٥) المهيمن	(٦) العزيز	(٧) الجبّار	(٨) المتكبر
(٩) الخالق	(١٠) البارئ	(١١) المصوّر	(١٢) الغفّار
(١٣) القهّار	(١٤) الوهّاب	(١٥) الرزّاق	(١٦) الفتّاح
(١٧) العليم	(١٨) القابض	(١٩) الباسط	(٢٠) الخافض
(٢١) الرافع	(٢٢) المعز	(٢٣) المذل	(٢٤) السميع
(٢٥) البصير	(٢٦) الحكم	(٢٧) العدل	(٢٨) اللطيف
(٢٩) الخبير	(٣٠) الحليم	(٣١) العظيم	(٣٢) الغفور
(٣٣) الشكور	(٣٤) العليّ	(٣٥) الكبير	(٣٦) الحفيظ
(٣٧) المُقيت	(٣٨) الحسيب	(٣٩) الجليل	(٤٠) الكريم
(٤١) الرقيب	(٤٢) المجيب	(٤٣) الواسع	(٤٤) الحكيم

(٤٥) الودود	(٤٦) المجيد	(٤٧) الباعث	(٤٨) الشهيد
(٤٩) الحق	(٥٠) الوكيل	(٥١) القوي	(٥٢) المتين
(٥٣) الوليّ	(٥٤) الحميد	(٥٥) المحصي	(٥٦) المبدئ
(٥٧) المعيد	(٥٨) المحيي	(٥٩) المميت	(٦٠) الحيّ
(٦١) القيّوم	(٦٢) الواجد	(٦٣) الماجد	(٦٤) القادر
(٦٥) المقتدر	(٦٦) المقدّم	(٦٧) المؤخّر	(٦٨) الأوّل
(٦٩) الآخر	(٧٠) الظاهر	(٧١) الباطن	(٧٢) الوالي
(٧٣) المتعالِ	(٧٤) البرّ	(٧٥) التوّاب	(٧٦) المنعم
(٧٧) المنتقم	(٧٨) العفُوّ	(٧٩) الرؤوف	(٨٠) مالك الملك
(٨١) المقسط	(٨٢) الجامع	(٨٣) الغنيّ	(٨٤) المغني
(٨٥) المانع	(٨٦) الضّار	(٨٧) النافع	(٨٨) النور
(٨٩) الهادي	(٩٠) البديع	(٩١) الباقي	(٩٢) الوارث
(٩٣) الرشيد	(٩٤) الصبور	(٩٥) ذو العرش	(٩٦) ذو الوقار
(٩٧) المتكلم	(٩٨) الشافي	(٩٩) الكافي	(١٠٠) الواحد
(١٠١) الأحد	(١٠٢) الصمد	(١٠٣) ذو الجلال والإكرام	

ثلاث مجموعات للصفات الإلهية

إن هذه الصفات، إما أنها مذكورة صراحة في القرآن المجيد، وإما من الممكن استنتاجها من الآيات القرآنية. ويمكن بفهم هذه الصفات الربانية تصوّر خطة العالم الروحاني التي يقدّمها القرآن المجيد. ويمكن تقسيم هذه الصفات إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى تحتوي تلك الصفات التي يختص بها الله تعالى، مثل الحيّ؛ القدير؛ الماجد، وغيرها.

المجموعة الثانية تضم تلك الصفات التي تتعلق بخلق الكون، وتبين وجود علاقة

بين الله تعالى وخلقه، وما يفعله سبحانه من أجل الخلق، مثل الخالق؛ الملك، وغيرها.

المجموعة الثالثة تشمل تلك الصفات التي تتجلى بحسب الأعمال الطيبة أو السيئة لمخلوقات الله تعالى التي لها إرادة، مثل الرحيم؛ الذي يكافئ الأعمال الطيّبة التي يتطوّع الإنسان بعملها مكافأة كبيرة ومتكررة، ومالك يوم الدين؛ والعفوّ؛ الذي يتجاوز عن أخطاء عباده، والرؤوف، وغيرها.

وقد يبدو أن بعض هذه الصفات متكررة، ولكن بشيء من التدبر فيها يتبين أن هناك تمايزًا بينها. فمثلاً، الكثير من هذه الصفات تتعلق بالخلق مثل "خالق كل شيء"، والبديع، والفاطر، والخالق، والبارئ، والمعيد؛ والمصوّر، والرّب. وللوهلة الأولى يبدو أن هذه الصفات تتداخل بعضها مع البعض، ولكنها في الحقيقة لها معان متميزة.

"خالق كل شيء"، يعني أن الله تعالى هو الذي خلق كل شيء في الكون، أي أنه خلق المادة والروح. ويعتقد بعض الناس أن الله تعالى يصنع ولكنه لا يخلق. فهم مثلاً لا يعتبرونه خالق المادة أو خالق الأرواح، وإنما يؤمنون أن كلاً من المادة والأرواح موجودة بذاتها، وهي أزلية مثل الله تبارك وتعالى. ولو كان الله تعالى قد وُصف في القرآن المجيد بأنه "الخالق" فقط، لادّعى أولئك الناس أنهم يؤمنون أيضًا بأن الله خالق، من حيث أنه يجمع بين الجسد والروح، وبذلك يصنع، أو إلى حد ما، يخلق الإنسان. وكان من الممكن أن يترك هذا التفسير المعنى الحقيقي لصفة الخلق في محل شك. وقد وسّع القرآن المجيد مجال صفة الخالق بوصف الله تعالى بأنه "خالق كل شيء"، وبذلك فقد حوت هذه الصفة خلق المادة والروح.

"البديع"، يعني أن الله تعالى قد صمّم ونظّم الكون، وعلى هذا فإن هذا النظام ليس عفويًّا، ولا هو منقول عن نظام مشابه.

"الفاطر"، هو من يستخرج شيئًا بكسر القشرة. وتبين صفة الفاطر أن الله تعالى

خلق المادة، وجعل فيها خواصًا كامنة للنمو والتطور، وفي الوقت المناسب يكسر القشرة أو الغطاء الذي يحبس فاعلية هذه الخواص، ويجعلها تبدأ نشاطها وتأثيرها. فمثلاً، البذرة فيها خاصية النمو لتكون نباتًا أو شجرة ضخمة، ولكن هذه الخاصية تبدأ فاعليتها في موسم محدد فقط، وفي ظروف معيّنة. وعندما تتحقق هذه الظروف ويحلّ هذا الموسم، تبدأ البذرة في استخدام هذه الخواص لتنمو. وعلى هذا، فإن هذه الصفة تبين أن الله تعالى خلَق الكون، وجعله خاضعًا لمجموعة من القوانين، وأن جميع أجزاء الكون في نمو مستمر بحسب هذه القوانين. وطوال الوقت، تظل أجزاء من الكون تجتاز بعض المراحل الأوّلية، ثم تأخذ الخواص الكامنة فيها في النشاط في أوقات معينة، وبذلك تبدأ أنواع جديدة من الحياة في الظهور.

وصفة الخلق تعني أيضًا التدبير، فالخالق يعني أن الله تعالى يدبر أمر كل شيء، حسب النظام المناسب، وأن الكون يخضع لنظام معين.

"البارئ"، صفة تعني أن الله تعالى يبدأ مظاهر مختلفة للخلق ثم يجعل لها القوانين التي تمكنها من التكاثر وتكرار نوعها. وهذه الصفة تساندها صفة "المعيد" التي تحمل معنى التكرار.

"المصوّر"، صفة تعني أن الله تعالى أعطى كل مخلوق الشكل الذي يتناسب مع وظائفه. ويبين هذا أن إحكام كمال الخلق لا يتحقق فقط بمجرد منح الشيء المخلوق القدرات المناسبة، وإنما بإعطائه أيضًا الشكل المناسب.

"الرب"، صفة تعني أن الله تعالى بعد أن يخلق شيئًا يستمر في تحسين وتطوير قواه وقدراته على مراحل، إلى أن يوصلها إلى الكمال.

إن جميع هذه الصفات تعني أوجه مختلفة للخلق. وهكذا الأمر أيضًا مع الصفات الأخرى، التي قد تبدو للوهلة الأولى وكأنها متداخلة مع صفات أخرى، أو أنها مجرّد تكرار لها، بينما هي في الحقيقة تتعلق بفروق دقيقة. وبفهم المعنى الحقيقي لكل صفة، يمكن للمرء أن يفهم ويقدّر جمال الكون الروحاني الذي

يصفه القرآن المجيد وعظمته.

ولا يذكر العهد الجديد الكثير من صفات الله تعالى، كما لا تذكر التوراة أيضًا جميع هذه الصفات الإلهية. أما إذا أخذنا في الاعتبار جميع الصحف اليهودية، فمن الممكن أن نجد فيها، في أماكن متفرقة، عددًا كبيرًا من هذه الصفات التي ذكرناها فيما سبق، ولكننا لا نجدها كلها. ومن الشائع بين عامة المسلمين أن لله تعالى تسعة وتسعين اسمًا، غير أن أصل هذه الفكرة الشائعة ينبع من الروايات اليهودية، التي تقوم على ما جاء في الصحف اليهودية من ذكر للصفات الإلهية. ويذكر القرآن المجيد العديد من الصفات الإلهية التي تزيد عن المئة والثلاث صفة التي ذكرناها فيما سبق، ولكننا لم نذكرها هنا. وفي حقيقة الأمر، إن الكثير من الصفات الإلهية التي لا يتعلق تأثيرها بالإنسان لم يذكرها القرآن المجيد، ولذلك لا يصح أن نضع عددًا معيّنًا لصفات الله تعالى. وحيثما جاء ذكر عدد ما للصفات الإلهية في الأدبيات الإسلامية، فإن المقصود به مقابلة ما يقول به اليهود، وليس الغرض منه تحديد رقم معين.

أما الفيدا فتذكر عددًا قليلاً جدًّا من الصفات الإلهية، تمامًا كما هو الحال مع الزندافستا. والحقيقة أنه لما كان القرآن المجيد هو الكتاب الكامل، الذي يحتوي على الهدى الكامل والتام لجميع مراحل التقدّم والرقيّ الروحاني، فإنه ذكر جميع الصفات الإلهية التي من الضروري أن يعرفها الإنسان، بما فيها تلك الصفات التي ذُكرت في الصحف المقدسة السابقة، والتي لم تُذكر فيها كذلك.

الصفات الإلهية ليست متناقضة

يُقال أحيانًا إن بعض هذه الصفات الإلهية لا تتوافق مع الصفات الأخرى. فمثلاً، الله رحيم، ومع ذلك فإنه يعاقب. وهو لا يخضع لأية حاجة، ومع ذلك فهو يخلق ويقدم الهدى للناس، مما يدل على وجود رغبة لديه في خلق الإنسان والمخلوقات الأخرى. ومثل هذه الاعتراضات تنشأ عادة في العقول التي لم تتعوّد

على التفكير العميق. ولا يدرك هؤلاء أن جانبًا كبيرًا من جمال الكون الحقيقي يعود إلى الاختلاف والتباين الموجود فيه، وأن ما يعتبرونه تناقضًا أو تنافرًا إنما هو دليل على ثراء وخصابة الأوجه المختلفة للكون. إن كل شيء في الكون يتحرّك في نطاق المجال المقدّر له، ويعتبر مجرّد حلقة في سلسلة طويلة ضخمة.

صحيح أن الله تعالى يعاقب، ولكن هذا يتم حسب قوانينه التي وضعها لتنظيم العقوبة والجزاء. وعندما يقتضي فعل هذه القوانين إيقاع عقوبة، فإن الله تعالى يوقع العقاب. وفي المقابل من هذا، وضع الله تعالى قوانين أخرى تتجلى من خلالها صفات الرحمة والمغفرة. وحينما يقتضي فعل هذه القوانين ظهور صفة الرحمة أو المغفرة، تتجلى هذه الصفة وتعمل. وعلى هذا، في نفس الوقت الذي تتجلى فيه صفة العقوبة بالنسبة لشخص ما، تتجلى أيضًا صفة المغفرة أو الرحمة بالنسبة لشخص آخر. إن طفلاً يولد تبعًا لتجلي صفة الله تعالى الخالق، وفي نفس اللحظة يموت شخص آخر تبعًا لتجلي صفة الله المميت. والسؤال الذي كثيرًا ما يُسأل هو: لماذا يسبب الله تعالى الموت، مع أن صفة "رب العالمين" تقتضي أن يربي المخلوق ويرعاه ويتعهده إلى أن يبلغ به الكمال. وهذا السؤال يدل على قلة التدبر من جانب السائل، فالقرآن المجيد لا يقول إن الله رب هذا العالم فقط، وإنما هو رب كل العالمين. وليس الموت سوى انتقال من عالم إلى عالم آخر. وعندما ينتقل المرء إلى العالم الآخر، فإن صفة "الربوبية" تتجلى عليه في العالم الذي انتقل إليه. وكل ما هو موجود في عالم من العوالم يُربَّى تحت صفة الربوبية هذه. فإذا رأينا أن شيئًا ما قد انتهى من الوجود، فإنما يعني هذا أن وجوده انتهى في هذا العالم ليبدأ في عالم آخر، وبالتالي فإن موضوع توقف فعل صفة الربوبية لا محل له على الإطلاق.

يبين القرآن المجيد أن الله تعالى قد وضع قانونيْن من أجل تنظيم فعل الصفات التي تؤثر على الإنسان. القانون الأول هو: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٧). والقانون الثاني جاء في الآية: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَارًا﴾

(نوح: ١٤)، وتعني هذه الآية الكريمة أن ما يفعله الله تعالى، مهما كان، إنما يقوم على الحكمة. إن إحدى الصفات الإلهية التي ذكرها القرآن المجيد هي "الحكيم"، وهي تعني أيضًا نفس الشيء.

هذان القانونان يوضّحان أن كل تجلٍّ وكل ظهور لصفة من الصفات الإلهية، إنما يكون من أجل تحقيق غرض معين. ويبيّنان أيضًا أنه كلما كان هناك صراع بين القوانين التي تقتضي العقاب، والقوانين التي تستنْزل الرحمة، فإن قوانين الرحمة هي التي تغلب، فتخضع لها قوانين العقوبة. والتفكّر في فعل هذين القانونين يملأ قلب المسلم بالحب لله ﷻ، ذلك الحب الذي يعم ويملأ كل كيانه. ومن أجل أن يملأ المسلم قلبه بحب الله والإخلاص له، فإنه لا يشعر بأنه مضطر لأن يلغي عقله، وأن يمتهن ذكاءه بقبول عقيدة الكفّارة وصلب إنسان يتحمل عبء جميع ذنوب البشر. فيكفيه أن يعلم أن كل صفة من الصفات الإلهية محكومة بالحكمة، وأن لها غرضًا محددًا وهدفًا عظيمًا، وأنه لكونه بشرًا، قد يخطئ بسبب ضعفه، فيرتكب ذنبًا أو معصية، ثم إذا شعر بالندم والألم الشديدين على ما جنت يداه، وقرّر بصدق عدم الرجوع مرّة أخرى إلى ارتكاب تلك المعاصي والآثام في المستقبل، فإن حب الله تعالى ورحمته ومغفرته سوف تشمله وتمسح ذنبه. إن هذه المعرفة تجعل قلب الإنسان يلين ويذوب في نشوة غامرة بحب الله ﷻ. إذ يدرك المسلم أنه رغم أن الله تعالى هو الخالق وهو الملك، فإنه يغفر خطايا عباده، ويتجاوز عن ذنوبهم، ويوفر لهم كل سبيل للتقدم والرقيّ والقرب منه. وهو حين يوقع عقوبة، فإن غرضه من ذلك ليس الإيلام والإذلال، وإنما تمكين عباده المذنبين من إصلاح أنفسهم، والتقدم إلى الأمام على طريق الرقيّ. إنه يدرك أن الله تعالى على استعداد دائمًا لتقبل التوبة الصادقة، وهو يستر ويغطي عيوب عباده، ومن خلال الندم والتوبة، فإنه يمسح تلك الذنوب تمامًا، ولا يُبقي لها من أثر. إنه يرى أن الله تعالى، الذي هو رب العظمة ذو الجلال والإكرام يسمع أدعية عباده، وأن رغبته في القرب منهم أكبر كثيرًا من رغبتهم

في القرب منه. وحين يدرك المرء كل هذا، يفيض قلبه بحب الله ﷻ، ويشعر بقوة عارمة من المحبة والإخلاص تجذبه نحو خالقه، أكبر وأشد من تلك التي تجذب الطفل إلى أحضان أمه؛ ويتوَجه الله أيضًا إلى مثل هذا العبد بحبه ورحمته وحنانه، بأضعاف مضاعفة لحب الأم التي تندفع نحو وليدها الذي يبكي موجوعًا مكروبًا.

الإنسان – مركز الكون

يبين القرآن المجيد أن الله تعالى شاء أن يخلق كوْنًا يكون مظهرًا لعظمته ونوره، وأن هذا هو الغرض من خلق الكون. ويقول القرآن المجيد إن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستّة أيام، أي على مدى ستّة مراحل، وقبل ذلك كان الله تعالى يحكم على الماء. وكان غرض الله تعالى من خلق السماوات والأرض من الماء هو أن يأتي إلى الوجود بكائن له إرادة من أجل أن يختار بين الخير والشر. وكان من المقدّر أن تمر هذه الكائنات بمختلف أنواع التجارب والابتلاءات، وأن تتنافس بعضها مع البعض في فعل الخير، وبذلك تُبين أيها وصل إلى الكمال، وإلى هذا يشير قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (هود: ٨)

وتبين هذه الآية الكريمة أن المادة كانت في شكل سائل قبل أن تأخذ شكلها الحالي، أو بمعنى آخر، بدأ خلق الكون المادي بذرّة من الهيدروجين، وأن الكون كله تكوّن تدريجيًا منها. ويقول القرآن المجيد عن مرحلة ما قبل المادة:

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣١)

وتذكر الآية الكريمة أن السماء والأرض كانتا في أول الأمر عبارة عن كتلة واحدة لا شكل لها، ثم شطرها الله تعالى وفصل بين السماء والأرض، وكوّن منهما المجموعة الشمسية، ومنذ البداية كان دائمًا يخلق الحياة من الماء. وتبين

الآية أن العالم الروحي يتكوّن أيضًا بنفس الطريقة التي تكوّن بها العالم المادّي. فحسب القوانين التي وضعها الله تعالى، فتق سبحانه كتلة المادّة فحدث فيها اضطراب وانشقاق، ومن بقاياها المبعثرة تكونت المجوعة الشمسية. وكذلك يُحدث الله تعالى انقلابًا في العالم الروحاني، فعندما تتدهور الأحوال الروحية في المجتمع الإنساني، ويصبح الجو ممتلئًا بالظلم والجور، يُظهر الله تعالى نورًا من لدنه يسبب اضطرابًا وانقسامًا في الظلام، ويهتز النظام القائم وينشق، ويخلق الله تعالى من هذه الكتلة التي تبدو بلا حياة، نظامًا روحيًّا متحركًا على نمط المجموعة الشمسية، يبدأ في الانتشار من المركز، ومع الوقت يشمل البلاد كلها أو الأرض بأكملها، حسب القوة الدافعة التي من ورائها. إن بداية الحياة في العالم المادي تبدأ من الماء؛ وأيضًا تبدأ الحياة في العالم الروحي من الماء السماوي الذي هو الوحي الإلهي.

وحسب القرآن المجيد، نعلم أن الكون المادي مرّ من مرحلة إلى أخرى، إلى أن أخذت الأرض شكلها الحالي، وتكونت فيها الخواص التي تساعد على قيام واستمرار حياة الإنسان. ويبين القرآن المجيد أن خلق الإنسان كان هو الغرض النهائي من الخلق، أو على الأقل من خلق المجموعة الشمسية. وعندما جاءت هذه المرحلة، خلق الله تعالى الإنسان في عالم المادة، ليكون هو مظهرًا للصفات الإلهية، وأن يكون مرآة يتجلّى فيها جمال صورة الله، ويكون الأساس الذي ينبني عليه العالم الروحاني. إن خلق الله تعالى يحتوي على الملايين من الأنواع والأصناف، ويقول القرآن المجيد: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ﴾ (المدّثر: ٣٢). ويشغل الإنسان مقام شرف وكرامة بين جميع المخلوقات، من حيث إنه يعتبر مرآة تتجلى فيها الصفات الربانية. ومن هنا اعتبر المتصوّفون المسلمون الإنسان كوْنًا مصغّرًا، بمعنى أن الإنسان يجمع في نفسه كل الصفات الموجودة في جميع المخلوقات، وبذلك يمكن اعتباره صورة مصغّرة للكون. وكما أن الخريطة الصغيرة تبين في ذاتها جميع الملامح للبلد الذي تمثله، كذلك تتمثل في الإنسان

جميع ملامح الكون. وعلى هذا فإن الإنسان هو المحور، أو مركز الكون. ويقول القرآن المجيد إن الكون بأكمله قد خُلق من أجل الإنسان، ولذلك سخّره الله له. وتؤيد ملاحظاتنا صدق هذه المقولة، وأن الإنسان يحكم جميع المخلوقات، بينما لا يوجد أيّ جزء من الكون يحكم الإنسان. ولا شك أنه يتأثر بالتغيرات الجوية، وبضوء الكواكب والنجوم، وبالرعد والبرق، وبالعواصف والأعاصير، وبالأمراض والأوبئة، ولكن لا يتحكم فيه أيّ من هذه الأشياء والظواهر. وكثيرًا ما يحدث أن يتأثر الحكام بالمحكومين، ولكن لا يصعب أبدًا تحديد من الذي يحكم ومن هو المحكوم. وعلى هذا، برغم أن الإنسان يتأثر بالمخلوقات الأخرى، إلا أنها كلها مسخّرة له، وهو الذي يحكمها. فهو يستطيع أن يتحكم في الأنهار، وفي البحار، وفي الجبال، وفي الرياح، وفي الرعود، وفي الأمطار، وفي العشب والدواء، ومن الواضح أنه النقطة المركزية للخلق، أو على الأقل في ذلك الجزء من الخلق الذي يتعلق بالكون الذي نعيش فيه. إن خلق الله تعالى واسع كبير، وقد تكون هناك من العوالم والأكوان ما لا علم لنا بها، ولذلك لا نستطيع أن ندخل في أية تخمينات عنها.

ذرْوَة عملية التطور

على عكس ما يقول به العهد القديم والعهد الجديد من الكتاب المقدس، فإن القرآن المجيد يقول إن عملية خلق الإنسان تمت بالتدريج. وقد أشرنا إلى هذا الموضوع فيما سبق، وذكرنا المراجع القرآنية الدالة على ذلك. وهناك آية أخرى في القرآن الكريم تبين أن خلق الإنسان كان هو ذروَة عملية تطوّر تدريجية، وليس صحيحًا أن الله تعالى خلق الإنسان من الطين كما يُشكل الفنان تمثالاً من الطين، ثم نفخ فيه من روحه فصار التمثال إنسانًا حيًّا. يقول القرآن المجيد: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح: ١٥)، أي أن الله تعالى خلق الإنسان بأن جعله يمر خلال مرحلة بعد مرحلة، وحالة بعد أخرى. وعلى هذا، وطبقًا للقرآن المجيد، لم

يُخلق الإنسان فجأة أو مرة واحدة، وإنما من خلال عملية تدريجية. كذلك فإن النمو الذهني للإنسان كان أيضًا تدريجيًا. ويشير القرآن المجيد إلى وجود البشر من قبل آدم عليه السلام، ولكنهم لم يكونوا على استعداد بعد لتحمل قوانين شريعة إلهية. وقد كانوا يعيشون في كهوف وفي مغارات في الجبال، ولذلك فقد أطلق القرآن المجيد عليهم اسم "الجن"، الذي يعني حرفيًّا "أولئك الذين يختفون عن الأنظار". وقد أطلق بعض الناس هذا اللفظ على مخلوقات خيالية ذكرتها الأقاصيص والأساطير، ولكن القرآن المجيد لا يؤيد هذا التفسير. فهو يوضح بجلاء أنه عندما خرج آدم عليه السلام وقومه من الجنة (التي كانت منطقة من الأرض حسب القرآن المجيد أيضًا، فلا يجب الخلط بينها وبين جنة الآخرة التي لم ترها عين و لم يخطر ما فيها على قلب بشر)، حذّرهم الله تعالى من إبليس الذي ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ (الكهف: ٥١)، وأمرهم أن يكونوا على حذر منه ومن قومه، حيث كان عليهم جميعًا أن يعيشوا سويًّا في الأرض التي كان من المقدّر لهم أن يحيوا فيها ويموتوا فيها (الأعراف: ٢٦). كذلك فقد أمر الله تعالى آدم وقومه، وإبليس وقومه، أن يتّبعوا الهدى الذي سوف يرسله سبحانه عن طريق أنبيائه ورسله من وقت لآخر (البقرة: ٣٩). ويبين كل هذا أن "الجن" المذكور في زمن آدم عليه السلام وزعيمهم إبليس، لم يكونوا إلا من الجنس البشري. أما جن الأقاصيص والأساطير فلا يعيشون مع البشر، وليس هناك من علاقة تربطهم ببني البشر، والقرآن المجيد لا يؤيد فكرة وجود جن الأقاصيص والأساطير. أما أولئك الذين أطلق القرآن المجيد عليهم اسم الجن في عهد آدم عليه السلام، فهم من البشر الذين كانوا يعيشون في الأرض، ولكن لم يكن إدراكهم الذهني قد اكتمل نموه بعد. ولما اكتمل نمو القوَى الذهنية للإنسان، أنزل الله تعالى شريعته على أكمل رجل من بينهم، أي آدم عليه السلام. وقد اقتصرت تلك الشريعة على بعض القواعد الاجتماعية التي تتعلق بتكوين مجتمع إنساني، وبعض القواعد الخاصة بالطعام وإعداده. فأما أولئك الذين لم يتعوّدوا بعد على اتّباع القوانين الاجتماعية التي

عيّنها الله تعالى، فقد رفضوا أن يخضعوا لآدم عليه السلام، وقد عاقبهم الله تعالى ونصر آدم وقومه عليهم. وقدّر سبحانه أن يستمر إرسال الرسل في المستقبل، وأن أولئك الذين يؤمنون برسله فإنهم يماثلون آدم وقومه، وأولئك الذين يكذّبون رسله فإنهم يماثلون الجن الذين عصوا آدم عليه السلام. لقد بعث الله تعالى كل نبي لكي يساعد الإنسان على صقل قواه الذهنية والروحية، ويأخذ بيده إلى مرحلة أعلى من الرقيّ الروحي والاجتماعي. والذين رفضوا قبول رسل الله، كانوا هم أولئك الذين عارضوا المرحلة التالية من الرقيّ الروحي، ولم يريدوا أن يخضعوا للقيود والقواعد الجديدة التي أراد الله تعالى أن يفرضها عليهم، لتساعدهم على التطور والتقدم في مراحل الرقيّ المختلفة.

وباختصار، يبين القرآن المجيد أن خلق الإنسان المادي وتقدمه قد مر بمراحل من التطوّر، وبالمثل كان تقدّمه ورقيّه الذهني والروحي نتيجة لمراحل من التطور. لم يكن آدم عليه السلام أوّل إنسان من البشر، ولكنه كان أوّل إنسان من البشر يكتمل نموّه الذهني، بحيث يمكّنه من تحمل مسؤولية تلقي الوحي الإلهي. ولم يذكر القرآن المجيد، ولا في آية واحدة، أن الله تعالى أراد أن يجعل في الأرض إنسانًا فخلق آدم، وإنما أراد أن يجعل في الأرض "خليفة" فاختار آدم. وهذا يدل على أنه عندما جعل الله تعالى آدم خليفة في الأرض، كان في الأرض بشر، ولكن لم يكن من بينهم أحد يصلح بعد لتلقي الوحي الإلهي، حيث إن قدراتهم الذهنية لم تكن قد صُقلت بعد ليبدؤوا أول مراحل التطور الروحي والفكري والاجتماعي. فلما وصلت قوى الإنسان الذهنية إلى المرحلة التي تسمح له بتكوين مجتمع إنساني، يعيش فيه حسب مجموعة من القوانين التي تنظم حياته في ذلك المجتمع، أرسل الله تعالى وحيه إلى آدم عليه السلام الذي كان أوّل من وصل إلى أوْج أوّل مرحلة من مراحل النمو الذهني في زمنه، وبذلك كان هو أوّل رسول يبعثه الله تعالى إلى البشر. فهو لم يكن أوّل البشر، ولكنه كان أوّل الأنبياء إلى البشر، وكانت الشريعة التي أنزلها الله تعالى عليه تحتوي على قليل من القواعد

الاجتماعية الأوّلية، والقليل أيضًا من الصفات الإلهية التي تُعرّف الناس بخالقهم.

ويقول القرآن المجيد في سورة الأعراف:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ (الأعراف:١٢)

وتعني الآية الكريمة أن الله تعالى خلق البشر، ثم أعطى صورة معينة، أو شكلاً معيّنًا، لقدراتهم الذهنية، ثم بعد ذلك أمر الله ﷻ الملائكة أن يسجدوا لآدم عليه السلام. وتبين هذه الآية أيضًا بجلاء، أن البشر كانوا موجودين قبل زمن آدم عليه السلام، وأن الإنسان قد مرّ بمراحل كثيرة من التطور، ثم بدأت تنمو له قدرات ذهنية وفكرية، أخذت تتطوّر هي الأخرى، وتأخذ صورًا معينة، إلى أن بدأ يتميّز عن غيره من المخلوقات الحيوانية التي حوله. ولما وصل تطوّره الذهني إلى مرحلة معيّنة من التطوّر، وأصبح على استعداد لتلقي الوحي الإلهي، أنزل الله وحيه إلى آدم عليه السلام.

الغرض من خلق الإنسان

يبيّن القرآن المجيد أن الله تعالى خلق الإنسان لكي تتجلى فيه الصفات الإلهية، فيُظهر الإنسان هذه الصفات في حياته. ويقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ (الذاريات: ٥٧- ٥٨). (وكما سبق بيانه، فإن كلمة "الجن" لا تعني صنفًا من المخلوقات غير المرئية كالتي ذكرتها الأساطير، ولكن تعني فئات معينة من الناس). ويقول تعالى في مكان آخر: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلآئِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ (فاطر: ٤٠). وهذا يعني أنه إذا اختار الإنسان أن يتخلى عن المكانة التي خصصها الله تعالى له، فإنه لن يضرّ الله شيئًا، ولكنه يحرم نفسه من مقام الشرف، وسوف يتحمّل وحده عواقب كفره. وتبين الآيات الكريمة أن الإنسان قد خُلق لكي يُظهر في نفسه الصفات الإلهية، وأنه نائب الله تعالى وخليفته في الأرض. وعلى هذا، فالإنسان هو النقطة المركزية للكون المادي. ولما

كان إرسال الأنبياء من أجل رفعة ورقيّ الإنسان، وتذكيره بالغرض الذي خُلق من أجله، وهدايته على الطريق المستقيم الذي يؤدّي به إلى تحقيق ذلك الغرض، فإن هؤلاء الأنبياء في دوائرهم الخاصة يُعتبرون مراكز لأقوامهم. أي أن الإنسان بمنـــزلة الشمس التي تدور حولها المجموعة الشمسية في العالم المادي، وكل نـــبي هو بمنـــزلة شمس يلتفّ حولها ويدور في فلكها مجموعة من الناس، الذين بُعـــث ذلك النبي لهدايتهم.

قانون الطبيعة وقانون الشريعة

يبين القرآن المجيد أن الله تعالى وضع قانونيْن من أجل مساعدة الإنـــسان في طريق التقدّم، ومن أجل أن يذكّره بواجباته ومسؤولياته. وأحد هذيْن القانونين هو قانون الطبيعة، الذي يتعلق بالتقدم المادّي للإنسان. ولما كان هذا القانون لا يتصل مباشرة بالتقدم الروحي للإنسان، فإن مخالفته تؤدّي إلى الإضرار المادّي به، ولكنها لا تسبّب سخط الله تعالى ولا غضبه. إن الكون المادي كله يقوم علـــى هذا القانون ويسير به، ولم يُضَمّن الله تعالى وحيه شيئًا عن تفاصيل هذا القانون.

القانون الثاني هو قانون الشريعة، الذي ينظم التقدم الروحي للإنسان. ومخالفة هذا القانون تسبّب غضب الله تعالى وسخطه، لأن اتّباع هذا القانون فقط هـــو الذي يؤدّي إلى نجاح الإنسان في تحقيق الغرض الذي خُلق من أجلـــه، وتـــؤدي مخالفته إلى وقف تقدم الإنسان نحو هذا الهدف. ولكن ليست كل مخالفة لقـــانون الشريعة تعني حرمان الإنسان تمامًا من تحقيق هدفه. إذ يبين القرآن المجيد أن قانون الشريعة في مجمله يساعد الإنسان على تحقيق طهارته الروحية ورفعة مكانته. وكما أن كل مخالفة لقانون الطبيعة لا تسبب هلاك الإنسان، ولا كل إهمال في المأكـــل يسبب المرض، كذلك ليست كل مخالفة لقانون الشريعة تستنْزل سخط الله على الإنسان، وتحرمه من كل فرصة للوصول إلى غرضه. إن الغرض الأساســـي مـــن قانون الشريعة هو مساعدة الإنسان على تحقيق أعلى درجة من الكمال الروحي.

وعندما يكون هناك نظام عام شامل يهدف إلى تحقيق غاية معينة، فإن فشل إحدى جزئياته يمكن أن يُصَحّح أو يُعادل بنجاحه في جزئية أخرى، وبذلك يظل تحقيق الغرض النهائي أمرًا ممكنًا. فالجسم البشري مثلاً عبارة عن تنظيم معقد، وتتوقف الحياة على عدة عوامل، مثل الطعام والشراب والهواء وغيرها، التي لا بد منها لاستمرار صحة الجسم. وقد يحدث أحيانًا أن يتلوّث أحد هذه العوامل أو بعضها، ولكن هذا لا يسبب بالضرورة في موت الجسم. فالعيب الناتج عن النقص المؤقت الذي يشوب أحد هذه العوامل، يمكن أن يُعوّض بالتأثير الفعّال للعوامل الأخرى. وهذا ما يحدث أيضًا بالنسبة لقانون الشريعة، فهو يحتوي العديد من القواعد والمبادئ التي تعمل في مجملها على تقدم الإنسان الروحي. وما لم يجحد الإنسان وجود الله تعالى أو يكذب أنبياءه، فإن أي عيب يشوب مسلك الإنسان يمكن علاجه، وإذا كان العيب شديدًا فلا يمكن علاجه إلا بالتوبة الصادقة، والدعاء إلى الله تعالى بإخلاص.

وبالإضافة إلى هذين القانونين، يبين القرآن المجيد أن هناك قانونين آخرين يعملان بصورة دائمة، وهما القانون الاجتماعي والقانون الأخلاقي. غير أنهما في حقيقة الأمر ليسا سوى امتدادٍ لحدود قانون الطبيعة وقانون الشريعة. فالقانون الأخلاقي امتداد لقانون الشريعة، والقانون الاجتماعي امتداد لقانون الطبيعة، وهما يعملان ويؤثران بعضهما على البعض إلى حد كبير. فالكثير من قواعد القانون الاجتماعي تقوم على الأخلاقيات، والكثير من قواعد القانون الأخلاقي تقوم على الاجتماعيات. ولما كان من المقدّر للإنسان أن يعيش كعضو في المجتمع، فهو في حاجة إلى كل من هذين القانونين. وحيث إن القانون الاجتماعي امتداد لقانون الطبيعة، فمن الممكن للإنسان أن يكون له اختيار إلى حد كبير في أمر صياغته. ولما كان القانون الأخلاقي امتدادًا لقانون الشريعة، فإن قانون الشريعة يحكم أصوله الأساسية، رغم أنه يمكن للإنسان أن يختار بعض تفاصيله. ويقوم نظام الكون بأكمله على أساس هذه القوانين. لقد وضع الله

تعالى كلاً من قانون الطبيعة وقانون الشريعة، وليس للإنسان أي دخل في وضع حدودهما. أما القانون الاجتماعي والقانون الأخلاقي، فهما خليط من الأوامر الإلهية والقواعد التي يضعها البشر، وبالربط بين التنظيم البشري والتنظيم الإلهي، يكون الناتج هو النظام الأمثل من أجل استمرار حركة الكون. وطالما ظل هذان النهران يجريان في اتجاه متواز، يستمر العالم في التقدم بسلام، ويستطيع الإنسان أن يضع النظام الصالح للأرض على مثال نظام مملكة الله تعالى. ولكن إذا بدأ هذان النهران يصطدمان في جريانهما فيضادّ أحدهما الآخر، أي عندما يتحوّل الفكر البشري فينحرف عن اتّجاهه الموازي للهداية الربانية، فإنه بذلك يفقد تأييد الله تعالى، ويصبح العالم ضحية للنّزاع والخلاف. وعندئذ لا يحكمه الله تعالى ولا يحكمه الإنسان أيضًا، وإنما يصير نهبًا للقوى الشيطانية في العالم؛ لأن الإنسان يمكن أن يظل متّصفًا بإنسانيته طالما ظل متبعًا للهداية الربانية، وعندما يتوقف عن ذلك فإنه يهبط إلى مستوى البهائم والحيوانات.

ومن أجل أن يظفر الإنسان بالقرب من الله تعالى، كان من الضروري أن يكون حُرًّا ليختار طريقه بنفسه. ويبين القرآن المجيد أن الإنسان حرّ في مجال، وملزَم في مجال آخر. فهو حر في مجال قانون الشريعة، ولكن ليس له سلطة ولا اختيار فيما يتعلق بقانون الطبيعة. فهو ملزم بالخضوع للقوانين الطبيعية، وذلك لأن رقيّه الروحي لا يتعلق بشكل مباشر بفعل وتأثير قانون الطبيعة. وقد أعطيت له الحرية الكاملة في مجال قانون الشريعة، حيث إنه يستطيع أن يصبح محلّ تلقي البركات السماوية إذا ما اختار أن يتّبع قوانين الشريعة، وبدون حرية الاختيار في العمل، لا يمكن أن يكون هناك جزاء على أي عمل، وما يكون الإنسان مضطرًا على فعله خارج إرادته، لا يجتني من ورائه ثوابًا ولا مكافأة.

ويشير القرآن المجيد إلى أن رقيّ الإنسان وتقدّمه الروحي يتأثر بمحيطه المادي، وبما يفرضه ذلك عليه من قيود وقصور، ولكنه يبين أيضًا أن الله تعالى سوف يقيّم أعمال الإنسان آخذًا في الاعتبار جميع الظروف والقيود التي يخضع لها. فمثلاً، إذا

أنفق واحد من أصحاب الملايين جزءًا صغيرًا من ثروته في سبيل الله تعالى، وأنفق شخص فقير آخر لا يملك سوى ما يساوي ذلك الجزء الصغير من المال الذي أنفقه الرجل الغني، فإذا أنفق الفقير كل ما يملك في سبيل الله، فلن يكونا متساويين عند الله تعالى، رغم أن ما أنفقه الغني يساوي تمامًا ما أنفقه الفقير. إن ما أنفقه الغني قد يمثل واحد من الألف أو واحد من مئة ألف جزء من ثروته، وأما الفقير فقد أنفق كل ما يملك. لذلك فإن أجر كل منهما سوف يتناسب مع مقدار ما ضحّى به كل منهما، لأن الله تعالى لا ينظر فقط إلى حجم التضحية التي قدّمها كل منهما، وإنما يأخذ في الاعتبار جميع الظروف التي تم فيها عمل كل إنسان، فهو لا يغفل عن المعوّقات التي يمكن أن تؤثر على أعمال الإنسان فتعوقه عن العمل، كما أنه لا يهمل أيضًا اعتبار القدرات والإمكانات المتاحة له، والتي يمكن أن تساعده على القيام بعمله.

تطوُّر العالم الروحي يصل إلى منتهاه في الرسول ﷺ

نعلم من القرآن المجيد أنه كما أن العالم المادي قد نشأ وتطور بالتدريج، كذلك كان من المقدّر للعالم الروحي أن ينشأ ويتطور أيضًا بالتدريج. ولذلك، لم يُنْزل الله تعالى شريعته الكاملة المانعة عند بداية الكون، وإنما نزلت الشرائع بما يناسب مرحلة التطور التي كان يمر بها الإنسان، وبمرور الوقت وصل الإنسان إلى المرحلة التي يمكن له أن يتحمّل فيها قوانين الشريعة الكاملة. وهنا اقتضت حكمة الله تعالى أن يظهر الإنسان الكامل في شخص رسول الإسلام ﷺ، وأوحى إليه بالشريعة الكاملة والكتاب الكامل. والشريعة الكاملة هي دين الإسلام، والكتاب الكامل هو القرآن المجيد، وبذلك فقد وصل تطور الكون الروحي إلى ذروته، واكتمل في شخص الرسول ﷺ. ولما كان الإنسان هو مركز الكون المادي، وكان كل من الأنبياء يمثل نقطة مركزية بالنسبة لقومه الذين أُرسل إليهم والزمن الذي جاء فيه، فإن الرسول ﷺ هو النقطة المركزية للعالم بأجمعه. وهكذا كانت

الصورة التي قدّمها القرآن المجيد للكون الروحاني، حيث يكون الإنسان مركـــزًا للكون، ويدور الناس، كل في مجاله، حول النبي الذي جاء لهم، ويدور الأنبيـــاء جميعًا حول نبي الإسلام ﷺ، وهو بدوره يدور ويقود الإنـــسانية كلـــها إلى الله تعالى، وبذلك يصل العالم الروحاني إلى نقطة كماله.

القرآن المجيد – الكتاب الكامل

لقد سبق أن ذكرنا أن الله تعالى قد أنزل هدايته للناس بواسطة أنبيائه، عـــن طريق قانون الشريعة والقانون الأخلاقي والقانون الاجتماعي. ولما كان القـــرآن المجيد هو الكتاب السماوي الكامل، فإنه تناول هذه القوانين الثلاثة. وقد عرض القرآن المجيد قانون الشريعة والقانون الأخلاقي بكل تفاصيلهما اللازمة، كمـــا عرض المبادئ الأساسية للقانون الاجتماعي، تاركًا ما تبقّـــى مـــن التفاصـــيل للإنسان ليكيّفها كما يشاء. وفي مجال القانون الأخلاقي، يضع القرآن المجيد مبدأ أساسيًا، وهو أن الاستعمال المناسب للقوى الطبيعية هو ما يُـــشكل الـــصفات الأخلاقية، وأن كبت أو إخماد هذه القوى الطبيعية يعتبر إساءة ضـــد المبـــادئ الأخلاقية، تمامًا كما أن الخضوع الكامل لهذه الرغبات الطبيعية يعتبر أيضًا إثمًـــا مخالفًا للمبادئ الأخلاقية. إن من يعمل على قتل قواه ورغباتـــه الطبيعيـــة، أو يخمدها بشكل كامل، يكون مخالفًا للقانون الأخلاقي. وكذلك من يشغل كـــل تفكيره بتلبية رغباته الطبيعية، ويصرف كل طاقاته لإشباع غرائزه، فإنه يكـــون مخالفًا أيضًا لقانون الشريعة، ويعمل على هلاك نفسه روحيًّا. إن كلاًّ من هذيْن الطريقين يؤدي إلى هلاك المرء وتدمير تقدمه الروحاني، فلا يمكن مخالفة قـــانون الشريعة أو القانون الأخلاقي، والإفلات من النتائج السيئة المترتبة على ذلـــك. ولهذا فإن القرآن المجيد يبين أنه لما كانت كل هذه الرغبات والغرائز الطبيعية قد خُلقت من أجل مصلحة الإنسان، وخدمةً لأهدافه، فإن الإفادة منها وتلبية تلك الحاجات مسموح به، إلا أنه ليس في حل أن يستخدمها في الأمور الضارة به أو

بغيره. وحسب هذا المبدأ يَعتبر الإسلام مبدأ الامتناع عن الزواج خطيئة وليس فضيلة. كذلك فإن الامتناع عن تناول الأنواع الطيّبة من الأطعمة أو الأشربة، أو الامتناع عن استعمال الملابس المريحة، لا يعتبر فضيلة بل خطيئة. فإن مثل هذه القيود تُعد مخالفة لقانون الطبيعة، كما تُعد تعبيرًا عن عدم الامتنان والاعتراف بفضل الله تعالى الذي أوجدها. ومن الخطأ المساوي لذلك أيضًا، صرْف الوقت كله في الاهتمام بتلك الأشياء، وتكريس النفس تمامًا للاستمتاع بها، لأنه بهذا يهمل تحسين وتطوير نفسه، والتقدم على الطريق الروحاني، الذي هو الغرض الحقيقي لوجوده. وكما أنه من الإثم أن يظل المرء يعمل باستمرار ويمتنع عن جميع أنواع الأطعمة، لأنه بذلك سوف يتسبب في موته المحتم، ويترك عمله دون أن يكتمل وبغير أن يتم، كذلك فإنه من الإثم أن ينشغل المرء تمامًا ويكرّس كل وقته في تلبية غرائزه الطبيعية، وأن يمتنع عن الأنشطة الأخرى المفيدة، لأن مثل هذا الشخص سوف يقضي حياته في الاهتمام بالوسائل، ويغفل عن الهدف. إن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى هدفه بغير اتخاذ الوسائل الضرورية التي توصله إلى هدفه، كذلك لا يمكن اتخاذ الوسائل المناسبة بغير أن يكون هناك هدف يُراد الوصول إليه.

المبادئ التي يقوم عليها النظام الاجتماعي

من أجل إقامة نظام في المجال الاجتماعي وتحويله إلى اتّجاه سليم ومفيد، وضع القرآن المجيد المبادئ التالية:

(١) إن الملكية المطلقة هي لله تعالى، فكل شيء مِلكٌ له.

(٢) لقد أخضع سبحانه كل شيء للإنسان، وجعل كل شيء لمصلحة الناس كافة.

(٣) لما كان الغرض من وجود الإنسان هو الوصول إلى الكمال الروحاني، فلا بد أن يكون له شيء من حرية الاختيار في عمله، ويجب أن يكون له مجاله

الذي يعمل وينشط فيه.

(٤) لما كانت المواد التي يتوقف عليها التقدم الإنساني، تعتبر إرثًا مشتركًا بين الناس كافة، لذلك يجب توزيع ناتج عمل الإنسان لتحقيق النصيب العادل لكل من الفرد والمجتمع.

(٥) من أجل تنظيم المجتمع الإنساني، يجب أن توكل إلى شخص ما أمانة السلطة التنفيذية، ويتم انتخابه من بين أفراد المجتمع الذي سيمارس عليه سلطته، ولا تكون مهمته وضع القوانين، وإنما تنفيذ القوانين الإلهية.

(٦) ومع الأخذ في الاعتبار احتمال وجود التباين والاختلاف في الأنظمة السياسية للعديد من المجتمعات الإنسانية، يقرر القرآن المجيد ما يلي:

(أ) عند حدوث نزاع بين دولتين أو أكثر، ينبغي على جميع الدول الأخرى أن تشترك في العمل على حل النّزاع.

(ب) إن لم يمكن التوصل إلى تسوية سلمية بين أطراف النّزاع، تتولى الدول الأخرى اقتراح حل أسباب النّزاع بشكل عادل، يضمن حقوق جميع الأطراف.

(ت) إذا رفض أحد أطراف النّزاع قبول الحل العادل المقترح، أو إذا تم قبوله ولكن لم يوضع موضع التنفيذ، فإن على بقية الدول أن تشترك كلها في إقناع الطرف المتمرّد بقبول قرار الحل المقترح، من أجل الحفاظ على السلم العالمي. فإذا فشل الإقناع، يتحتم عليهم جميعًا أن يجبروا الحكومة المعنيّة بالقوة على الخضوع للقرار.

(ث) إذا قررت الدولة المعاندة الخضوعَ لقرار الحل المقترح، فعلى بقية الحكومات أن تمتنع عن تجاوُزِ حدودِ فرضِ قرارِ الحل للنّزاع الأصلي، ويجب ألا تسعى للحصول على منافع خاصة لنفسها، لأن ذلك سوف يفتح المجال أمام النّزاع لأن ينمو من جديد.

لقد وضع القرآن المجيد كل هذه المبادي منذ ما يزيد عن ثلاثة عشر قرنًا

ونصف القرن، وقد تبنّت منظمة الأمم المتحدة بعض هذه المبادئ، غير أن هناك خطر فشل تحقيقها في إقرار السلام في العالم، لأنها أهملت أن تأخذ بجميع هذه المبادئ. وقد سبق أن فشلت منظمة عصبة الأمم، لأنها لم تأخذ في اعتبارها المبادئ التي قدمها القرآن المجيد، فيما يتعلق بضرورة استعمال القوة لإجبار الدولة المعتدية على الخضوع لقرار المنظمة. ويبدو أن منظمة الأمم المتحدة ليست متحمسة لأن تقرر أنه ينبغي على الدول التي تستعمل القوة لتنفيذ قرار المنظمة، ألا تحقق لنفسها أية فوائد خاصة على حساب الدول المنهزمة، وأن تقتصر جهودهم على فض الخلاف وإنهاء النّزاع فقط، حتى لا يؤدي ذلك إلى قيام الخلاف والنّزاع مجددًا فيما بعد. وما يُخشى منه أن تلقى منظمة الأمم المتحدة نفس المصير الذي انتهت إليه منظمة عصبة الأمم، لأن السلام لا يمكن أن يتم ويقوم إلا على أسس العدل التي وضعها القرآن المجيد.

الحياة بعد الموت

يبين القرآن المجيد أنه عند موت الإنسان تنتقل روحه إلى عالم جديد، كما تتخذ أيضًا جسدًا جديدًا. ويختلف ذلك الجسد عن الجسد المادي الذي يتلاءم مع متطلبات الحياة في هذا العالم المادي. فهو جسد روحي جديد، وله وظائف خاصة، تمكنه من إدراك وفهم الصفات الإلهية. والنفوس التي بلغت درجات الكمال، سوف تتحوّل من فورها إلى الحالة التي جاء وصفها بالجنة، بينما أولئك الذين لم يحققوا الكمال المطلوب، فسوف يلاقون الحالة التي وُصفت بجهنم، التي هي عبارة عن حالة للاستشفاء من الأمراض الروحية. وحين تتم عملية الشفاء الروحي للنفس البشرية، يُسمح لها بعد ذلك أن تتحول إلى الجنة؛ إلى أن يتم بذلك شفاء جميع النفوس البشرية، وتحولها جميعًا إلى الجنة، وتنتهي بذلك حالة جهنم. فالجميع جاءوا من الله تعالى، وإليه سوف يعود الجميع. وستكون كل أفراحهم، وكل لذّاتهم، وكل نعيمهم، روحيًّا. إن ذكر الله تعالى ومحبته ستكون

هي الغذاء الذي يعيشون به، وستكون رؤية الله تعالى هي أعلى وأقصى جـــزاء يلقونه. ويلفت القرآن المجيد الأنظار إلى أن منتهى أمر كل شيء إلى الله تعـــالى ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾(النازعات: ٤٥). أي أن الكون الذي نشأ من الله تعـــالى سوف يؤول إليه ﷻ، أي أن من جاء من عند الله سوف يعود إلى الله. وهذا ما قصده المسيح عليه السلام عندما قال: "وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء" (إنجيل يوحنا ٣: ١٣).

أحمد، المسيح الموعود عليه السلام

يبين القرآن المجيد أن قانون الشريعة الأكمل قد أوحي إلى رسول الإسلام ﷺ، ولذلك لن يأتي بعده نبي بشريعة أخرى من الله تعالى. إن القرآن المجيد هو الكتاب السماوي الأخير، ولن يحل محله كتاب آخر، بل ولن يحل أي وحي آخر محل أي جزء منه. وسوف يظل القرآن المجيد والرسول ﷺ يحكمان الكون الروحاني إلى يوم القيامة. ولكن الإنسان يتعرض دائمًا للنسيان، وهو بسبب ضعفه قابل للوقوع في الخطأ، كما أنه يُصاب أحيانًا بالتمرّد عندما يقع في قبضة الشيطان. ومن أجل استمرار حكم القرآن، كان من المحتم توفير العلاج الناجع لجميع هذه الأمراض. وكان من الضروري أن تكون هناك الوسائل اللازمة لتذكير من ينسى، وتصحيح من يخطئ، وهداية المتمرّد لكي يخضع لأمر الله تعالى. ونحن نعلم من القرآن المجيد أنه كما يحدث في الكون المادي أن القمر يستمد النور من الشمس، ويضيء الأرض عندما يغيب عنها ضوء الشمس المباشر، فكذلك يحدث في الكون الروحاني. إذ يظهر أفراد يستمدون النور الروحاني من الرسول ﷺ، وعن طريقهم تستمر إنارة ظلام الكون الروحاني. هؤلاء الأفراد، حسب درجة الحاجة التي من المقدر لكل منهم أن يلبيها، سوف يظهرون في شكل مجددين. ولكن حين تشتد حدّة الظلام، ويزداد مدى الفساد والظلم والجور في العالم الروحاني، فسيكون من بين هؤلاء المجددين أنبياء، يأتون تحت راية الرسول الأكرم ﷺ، متّبعين سُنته ومنهاجه اتّباعًا كاملاً. ويبين القرآن المجيد في عديد من الآيات الكريمة، مجيء نبي يكون صورة مطابقة تمامًا للرسول ﷺ، حيث يُعتبر مجيئه كأنه مجيء الرسول ﷺ نفسه. وفي الأحاديث الشريفة، جاءت تسمية هذه الصورة المطابقة للرسول ﷺ باسم المسيح بن مريم، وقد ذكر القرآن المجيد هذا الاسم أيضًا في سورة الزخرف، إذ يقول تعالى:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (الزخرف: ٥٨)

كذلك جاءت تسمية أخرى في الأحاديث الشريفة لهذا النبي، وهي "المهدي". وكل من هذيْن الاسمين ينطبق على نفس الشخص، ولكنهما يدلان على وظيفتين أو مهمتين مختلفتين يقوم بهما. وتشير الأناجيل أيضًا إلى هذا المجيء الثاني للرسول ﷺ، بالإشارة إلى المجيء الثاني للمسيح عليه السلام. والعلامات التي ذكرتها الكتب السماوية كلها، بما فيها القرآن المجيد، والتي تبين الزمن الذي سوف يأتي فيه هذا النبي، قد تحققت جميعها في هذا الزمن، مما يدل بدلالة قاطعة على صدق القرآن المجيد. وبحسب النبوءات التي جاءت فيه، بعث الله تعالى رجلاً في هذا الزمن، أعلن أنه الصورة الروحية المطابقة للرسول ﷺ، وأنه مصداق للنبوءات التي جاءت في القرآن المجيد، وفي الكتب السماوية الأخرى. وقد أعلن أن الله تعالى قد بعثه من أجل أن يعيد رفع راية الإسلام عالية، ويجعل له الغلبة على الأديان كلها، ويلقي الضوء على حقيقة التعاليم الصحيحة للقرآن المجيد. هذا النبي هو ميرزا غلام أحمد، مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية. ومنذ ما يقرب من ستين عامًا✪، تلقى من الله تعالى عن طريق الوحي ما يفيد بأنه سبحانه قد اختاره لخدمة دين الإسلام وسُنة الرسول ﷺ، وأن عليه أن يعمل على رفعة اسم الله تعالى ونشر توحيده في العالم. وقد أخبره الله تعالى بأنه سبحانه قد أنعم عليه بنعمة النبوة التابعة، أي التي يُشترط فيها أنه يكون على الدوام خاضعا لسُنة الرسول ﷺ ولشريعة القرآن المجيد، وأن الوحي الذي يتلقاه يكون أيضًا في مرتبة أدنى من القرآن المجيد، ولا يحتوي تشريعًا ولا أحكامًا. وإحدى فقرات هذا الوحي الذي تلقاه هي: "كل بركة من محمد ﷺ، فتبارك مَن علّمَ وتعلّمَ". فمن علّم هو الرسول ﷺ، ومن تعلّم هو أحمد عليه السلام الذي تلقى هذا الوحي (كتاب حقيقة الوحي). وتلقى أيضًا الوحي التالي: "جاء إلى الدنيا نذير، ولكن الدنيا لم تقبله، غير أن الله يقبله ويُظهر صدقه بصول شديد، صول بعد صول" (البراهين الأحمدية). إن كلمة "نذير" في مصطلح القرآن المجيد تعني "نبي"، ولذلك تلقى مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية نفس هذا الوحي مع استبدال كلمة نذير بكلمة نبي (كتاب إزالةُ خطأٍ). وقد كانت مهمته أن يأتي بالإنسان إلى روضة قرب الله تعالى

✪ وذلك زمن تأليف هذا الكتاب. (الناشر)

في هذا العصر الذي اشتد فيه الظلام، وأن يزرع بذور التقدم الروحي في هذا العالم المادي، من خلال آيات جديدة من الوحي. وعندما أعلن عن دعواه في أول الأمر كان وحيدًا بغير معين، وظهر في قرية صغيرة يسكنها حوالي ١٤٠٠ أو ١٥٠٠ من السكان، ليس لديهم أية وسائل من الوسائل البدائية الحديثة، مثل مكتب البريد أو مكتب التلغراف أو خط للقطار الحديدي. وقد أعلن أن الله تعالى سوف ينشر صدقه بآيات عظيمة، وأن اسمه سوف يُذكر في أقصى أطراف الأرض. وبالإضافة إلى إعلان أن الجماعة التي أسسها سوف تثبت وتزدهر وتنتشر في الأرض، وأن أتباعه المخلصين سوف ينالون القرب من الله تعالى، فإنه أعلن أيضًا أن الله تعالى سوف يرزقه بابن في خلال تسع سنوات من التاريخ الذي أعلن فيه هذه النبوءة، وسوف تتحقق من خلاله الكثير من النبوءات، كما سوف ينتشر اسمه في أنحاء الأرض. وسوف يتقدم سريعًا من نجاح إلى نجاح، وسوف يباركه الله تعالى ويؤيده بروح القدس. وعندما أعلن أحمد عليه السلام عن دعواه، ونشر الوحي الذي تلقاه من الله تعالى، قوبل بعاصفة عاتية من المعارضة الشديدة من كل الجهات، ومن أتباع جميع الأديان. وتضافر الهندوس، والمسلمون، والسيخ، والمسيحيون، على معارضته، والعمل على القضاء عليه. وقد كانت المعارضة في ذاتها دليلاً على أن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية مبعوث بالفعل من عند الله تعالى، لأن مثل هذه المعارضة العارمة العاتية، التي تحدث بهذا الشكل العام، من جميع الأنحاء والاتجاهات، هي التي يلقاها الأنبياء الصادقون عادة. ورغم أنه كان وحيدًا، وكانت المعارضة مستعرة على جميع المستويات ومن كل الأديان، إلا أن الله تعالى بدأ يقوّيه ويُعلي صوته، وبدأ الفرد والفردان من الناس يؤمنون به ويلتفون حوله. وبالتدريج، أخذ أتباعه ينتشرون في البنجاب ثم في المقاطعات الأخرى من الهند، بل وخارج الهند أيضًا.

الابن الموعود لمسيح الإسلام

عندما انتقل مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية إلى جوار ربه عام ١٩٠٨، أعلن معارضوه أن الجماعة التي أنشأها سوف تموت بموته. غير أن أفراد جماعته اتفقت كلمتهم، حسب ما تنص عليه التعاليم الإسلامية، وانتخبوا المولوي نور الدين ﷺ ليكون خليفته الأول. وخلال فترة الخلافة الأولى، أخذ بعض أفراد الجماعة الذين كانوا متأثرين بالأفكار الغربية، ينتقدون مقام الخلافة. وقد لاقت أفكارهم استحسانًا لدى بعض أفراد الجماعة، وكانت النتيجة أنه لما تُوفي المولوي نور الدين ﷺ في ١٩١٤، بذلت هذه المجموعة من الأفراد مجهودًا كبيرًا للقضاء كلية على مقام الخلافة. وآنذاك، كنت أنا، ابن أحمد المسيح الموعود مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، في الخامسة والعشرين من عمري، وكنت مجردًا تمامًا من جميع القوى المادية. وكانت اللجنة الإدارية تحت سيطرة هذه المجموعة من الأفراد، الذين تمرّدوا على مقام الخلافة. غير أن الغالبية العظمى من أفراد الجماعة الذين كانوا موجودين في قاديان في ذلك الوقت – والذين اعتبرهم المجموعة المتمردة ضد الخلافة مجرد غوغاء – كانوا قد عقدوا العزم على المحافظة على مقام الخلافة، حسب المبادئ التي جاءت في القرآن المجيد، وأصرّوا على أن أتحمل أنا مسؤوليات الخلافة. وقد قبلتُ في هذه الظروف العصيبة بيعةَ الجماعة، لأكون بذلك الخليفة الثاني للإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام، وبهذه الصفة بدأت خدمتي للجماعة وللإسلام وللإنسانية عامة. ولما كان معظم المناصب القيادية في الجماعة قد تولاها أولئك الذين يعارضون مقام الخلافة، فقد تعرضت الجماعة لأزمة شديدة. وبدأ الآخرون من خارج الجماعة يعربون عن توقعاتهم بانهيار الجماعة وتفككها في خلال أيام. وفي ذلك الوقت أوحى الله تعالى إليّ بأنه سوف يؤيدني وينصرني نصرًا مؤزّرًا، وسوف يخلق فُرقة وانقسامًا بين صفوف أولئك المعارضين الأقوياء، إلى أن تنكسر شوكتهم. وحينئذ حدثت معجزة كبرى. إن

أغلبية أولئك الذين كانوا يُعَدّون من أصحاب العلم والخبرة في الجماعة هجروا الجماعة، وتخلَّوا عنها في ساعة المحنة الشديدة التي تعرضت لها. وأولئك الذين كانوا من أصحاب الجاه والمال تركوا الجماعة. وأولئك الذين كانوا يُعتبرون من أصحاب الفكر والرأي في الجماعة قطعوا صلتهم بها. وأعلن أولئك الذين تمردوا على الخلافة أنه ما دامت أمور الجماعة قد تُركت في يد شاب صغير عديم الخبرة والتجربة، فإن الجماعة سوف تنتهي وتنهار. ولكن قضاء الله تعالى الذي أنزل القرآن المجيد، والذي خلق الكون الروحاني حسب القوانين التي يسير عليها الكون، والذي أوحى إلى أحمد، المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام، أنه في خلال تسع سنوات منذ عام ١٨٨٤ سوف يرزقه بابن يشمله سبحانه بفضله ورحمته، إلى أن يبلغ صيته إلى أقصى الأرض، والذي من خلال دعوته للإسلام سيكون وسيلة لفك أسر المأسورين، وسببًا لإحياء الذين ماتوا روحيًّا، فقد حقق وعده سبحانه وصارت كلمته هي العليا. فكان كل يوم ينبثق فجره يأتي معه بعوامل جديدة تعمل على نجاحي، وكل يوم يمضي كان يخلف وراءه العوامل التي كانت تعمل على سرعة فشل من يعارضونني. لقد جعلني الله تعالى أداة لانتشار الجماعة الإسلامية الأحمدية في جميع أنحاء الأرض. وفي كل خطوة من خطواتي كان سبحانه يهبني فضله وهدايته، وفي مناسبات عديدة كان يشرفني بوحيه الكريم. ثم جاء اليوم الذي كشف لي فيه أنني أنا ذلك الابن الموعود الذي تلقى الإمام المهدي البشرى عنه في عام ١٨٨٦، أي قبل مولدي بثلاث سنوات. ومنذ ذلك اليوم الذي كشف الله ذلك، كان تأييده سبحانه يزداد، وفضله يتنامى بسرعة أكبر، حتى إن مراكز الجماعة الإسلامية الأحمدية تعمل بهمة ونشاط من أجل التبشير بالإسلام ونشره في كل قارة. وجعل الله تعالى كتابه العزيز وقرآنه المجيد كتابًا مفتوحًا لنا بعد أن كان قد انغلق في أيدي المسلمين على تفاسير قديمة، وكل ذلك من خلال أفضال الرسول الأكرم ﷺ وبواسطة عبده المسيح الموعود عليه السلام. وانفتحت لنا بالقرآن المجيد ينابيع جديدة من المعرفة التي أوحاها الله تعالى

لي. وكلما صارت بعض تعاليم القرآن المجيد أو أية عقيدة فيه محل انتقاد أو هدفًا للتخطئة على أساس اكتشاف بعض التطورات العلمية، كان الله تعالى يوحي إليّ بالرد الصحيح الذي يحتويه القرآن المجيد. لقد اختارنا ﷻ لنكون وسيلة لرفع راية نصر الكتاب العزيز، وبفضل الإيمان واليقين الذي نلناه من كلمات الوحي الذي تلقيناه من الله ﷻ استطعنا بفضله ﷻ أن نبين عظمة القرآن المجيد للعالم كله. وعند مقارنة الإمكانات التي لدينا بتلك التي يملكها العالم، نجد أن إمكاناتنا متواضعة جدًّا، ومع ذلك فقد أكّد الله لنا أنه رغم أشد أنواع المقاومة والمعارضة التي تُشن علينا، فإن سُلطة القرآن المجيد وسلطانه سوف يتم تثبيته، وسوف تتوطد أركانه في الأرض. إن الشمس قد تحيد عن مدارها، وقد تتناثر النجوم من أماكنها، وقد تتوقف الأرض عن دورانها، ولكن لن يقف شيء في سبيل النصر المقدّر للإسلام، ولن يستطيع إنسان مهما كان أن يعرقل تحقيق ظهور الإسلام والانتصار الكامل للرسول الأعظم ﷺ. إن سلطان القرآن المجيد سوف يتحقق مرة أخرى، وسينصرف الناس عن عبادة البشر والآلهة التي صاغوها بأيديهم، وسوف يركعون ويسجدون لله الواحد القهار. ورغم أن اتجاه المجتمع الإنساني يبدو اليوم كأنه يميل إلى الاتجاهات المعاكسة لتعاليم القرآن المجيد، إلا أن ملكوت الإسلام سوف يتأسس مرة أخرى بكل ثقة وثبات، حتى إن الناس سوف يتبينون أنه من المستحيل لهم أن يهزوا أساسه أو يقوّضوا أركانه. لقد زرع الله تعالى بذرة مباركة في تربة العالم التي أفسدها الشيطان وجعلها قفرًا موحشًا، وإنني لأعلن أن هذه البذرة سوف تنبت، وتبرعم فروعًا وأغصانًا، وتكون شجرة كبيرة تظلل الدنيا بأسرها، وتخرج أثمارها وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. والأرواح التي كانت تتوق إلى التحليق عاليًا في سماء محبة الله تعالى، والقلوب التي كانت في شوق للقائه ﷻ، سوف تنهض يومًا وتنفض عن عيونها كرى أحلام النجاحات الدنيوية والازدهار المادي، وسوف تُنفخ فيها روح جديدة، ورغبة في أن تحط على أغصان هذه الشجرة المباركة. وحينئذ سوف تختفي الفوضى والاضطراب، وتنتهي آلام

القهر وعذابات الحرمان، وتُؤسس مملكة الله على الأرض، ويعود حب الله تعالى ليكون أغلى الكنوز التي يحرص الإنسان على اقتنائها. إن هذه الثورة سوف تفتح أبواب عصر جديد من الأمن والسلام. وكل الجهود التي تتعارض مع هذه التعاليم أو تخالفها، والتي تحاول أن تحقق السلام في الأرض، سوف تخيب وتكون هباء ينتهي إلى لا شيء.

ترجمات معاني القرآن المجيد إلى اللغات الأخرى

لقد وجّه الله تعالى رسوله الكريم أن يخوض معركته الكبرى في نشر الإسلام بمعونة القرآن المجيد، الذي هو من أشد الوسائل فاعلية وتأثيرًا لتحقيق هذا الغرض، إذ يقول تعالى:

﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان:٥٣)

وعملاً بهذا الأمر القرآني، فإننا نقدم هذا المجلد، الذي ننشر من خلاله الترجمة الإنجليزية لمعاني القرآن المجيد، ونأمل ألا يتأخر كثيرًا نشر الجزء الباقي منه. وبالإضافة إلى الترجمة الإنجليزية، فقد اكتملت الترجمات في سبع لغات أوروبية، وسوف يتم نشرها إن شاء الله عندما تسمح بذلك ظروف ما بعد الحرب. وهذه اللغات هي: الروسية والألمانية والهولندية والفرنسية والإيطالية والبرتغالية والإسبانية. ومن المأمول فيه أن يستمر هذا العمل بفضل الله تعالى إلى أن يتم نشر الترجمات في جميع اللغات الرئيسة*. وقد اكتمل أيضًا العمل في الترجمة باللغة السواحيلية، وهي تحت الطبع حاليًا.

هذا وقد تأسست مراكز الجماعة الإسلامية الأحمدية في أنحاء العالم من أجل نشر الإسلام وشرح معاني القرآن المجيد. فهناك مركز رئيس في إنجلترا، كما تأسست أيضًا مراكز في فرنسا وإسبانيا وإيطاليا وسويسرا. كذلك هناك مراكز

* حتى عام ٢٠٠٦ تم نشر ترجمة لمعاني القرآن المجيد في ٦٢ لغة عالمية. (الناشر)

تأسست في القارة الأمريكية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي الأرجنتين، وتُعدّ العدّة لتأسيس مراكز في كندا وفي البرازيل. وقد تأسست المراكز في جميع أنحاء أفريقيا الغربية، وهناك عشرة مراكز تعمل في أفريقيا الشرقية. كذلك هناك العديد من الأنشطة التبشيرية لنشر الدعوة في مصر والسودان والحبشة، وهناك مراكز في الشرق الأوسط من فلسطين وسوريا وإيران، وفي جنوب شرق آسيا من الملايا وجاوا وسومطرة وبورنيو. ونحن نعتقد أن هذه التراجم وهذه المراكز◈ سوف تساهم في شن حملة واسعة ناجحة من أجل نصرة الإسلام. فإن جهودنا ليست مكرّسة فقط لتنفيذ مشيئة الله تبارك وتعالى، وإنما تُبذل أيضًا هذه الجهود طاعة له وتنفيذًا لأوامره.

وبالإضافة إلى تقديم هذه الهدية الفكرية، فإننا نلفت أنظار جميع أولئك الذين يحبون الحق، مهما كانت الأديان التي ينتمون إليها، إلى القاعدة الذهبية التي تقول إن الشجرة تُعرف بثمرها. إن القرآن المجيد يعطي أثماره في كل زمان وكل أوان، وأولئك الذين أخلصوا في اتّباعه، صاروا يتشرّفون بتلقي وحي الله تعالى، ويتجلى الله ﷻ بعظمته وفضله من خلالهم. فعندما نكب على البحث عن الحقيقة، وبالإضافة إلى استعمال نعمة العقل والفكر، لماذا لا نستعين بالكتب السماوية التي نرى أنها تعطي ثمارا طيبة؟ ولا شك أن العالم سوف يحقق فوائد جمة في بحثه عن الحق، لو أن المسيحيين استطاعوا أن يقنعوا البابا، أو بعض كبار رجالات الكنيسة، أن يقدموا للناس الوحي الذي تلقوه من الله تعالى، ويقارنوه بما تلقيته أنا من وحيه ﷻ، وذلك من أجل تقرير أيهما يُعتبر التجلي الصحيح لقدرة الله تعالى وعلمه. إن البابا، ورجال الكنيسة الذين كان أسلافهم، على عكس تعاليم المسيح المسالمة، يحرضون الدول المسيحية على الحملات الصليبية على المسلمين، عليهم أن يغتنموا هذه الفرصة للاشتراك في هذه الحملة الروحية.

◈ حتى عام ٢٠٠٦م تم إنشاء آلاف من مراكز الجماعة في ١٨٢ دولة من دول العالم. (الناشر)

فإذا قبلوا الدعوة، أو إذا استطاع أتباعهم أن يقنعوهم بها، فمن الممكن بذلك تقديم وسيلة فعالة لمعالجة الشرور والأمراض الروحية التي عانى منها الإنسان لزمن طويل. وسوف تتجلى حينئذ عظمة الله تعالى وقدرته بشكل معجز، وسوف يساعد هذا في تقرير أي الأديان هو الدين الذي يهدي الإنسان إلى طريق الله تعالى، ويساعده في الوصول إلى غايته.

شكر وتقدير

وفي النهاية، أود أن أعبر عن شكري للخدمات التي لا يمكن تقدير حقها، التي قام بها المولوي شير علي، الذي رغم وهنه وضعف صحته، كرّس جزءًا كبيرًا من وقته لترجمة النص القرآني إلى اللغة الإنجليزية. وأود أن أشكر معه أيضًا ميرزا بشير أحمد، وملك غلام فريد، والمرحوم شودهري أبو هاشم خان، للجهد الذي بذلوه في استخراج المادة التي يقوم عليها تفسير الآيات في هذا الكتاب من خطبي وكتاباتي، وإعداد هذه التفاسير. ولم تتح لي فرصة مراجعة هذه التفاسير، ولكن نظرًا لتقديري لخبرة هؤلاء السادة وتفانيهم في العمل، فأنا على ثقة أنهم لابد قد أصابوا في تقديم ما استطعت تحصيله بفضل الله تعالى مباشرة من القرآن المجيد، أو من تعاليم المسيح الموعود عليه السلام. وأود أن أنتهز هذه الفرصة فأشكر القاضي محمد أسلم، الأستاذ بالكلية الحكومية في لاهور، والسير محمد ظفر الله خان، اللذيْن قاما بترجمة هذه المقدمة من اللغة الأردية إلى اللغة الإنجليزية. وأدعو الله تعالى أن يسكب عليهم جميعا وذرياتهم من رحيق فضله وبركاته، وأن يحفظهم ويعينهم في كلّ من هذه الحياة الدنيا والحياة الآخرة. آمين!

كذلك فإني أود أن أذكر أنني لما كنت تلميذًا للمرحوم المولوي نور الدين، الخليفة الأول للمسيح الموعود، فإن الكثير مما حصّلت منه قد جاء أيضًا في شروح الآيات، وعلى هذا، فإن تفسير الآيات يقوم في الواقع على تفسير القرآن المجيد الذي ذكره المسيح الموعود عليه السلام، والخليفة الأول رضي الله عنه، ورأيي الخاص. ولما

كان الله تعالى قد أيد المسيح الموعود بروح القدس، وشرّفه بأن وهبه هذه المعرفة التي كان لا بد منها من أجل تقدم ورقيّ الأجيال التالية، فإني على ثقة أن هـــذا التفسير سوف يكون عونًا على شفاء الكثيرين من عللهم الروحية. وعن طريقه سوف يبصر العُمي، ويسمع الصُمّ، ويتكلم البُكم، ويمشي العُـــرج، وســـوف تباركه ملائكة الله تعالى، حتى إنه سوف ينال النجاح✪ في تحقيق الغرض الذي نُشر من أجله. اللهم يا ربنا استجب بفضلك يا كريم!

ميرزا بشير الدين محمود أحمد
(الخليفة الثاني للمسيح الموعود)
قاديان
٦ ربيع الثاني ١٣٦٦ هجري
٢٨ فبراير/شباط ١٩٤٧ ميلادي
٢٨ تبليغ ١٣٢٦ هجري شمسي

✪ لقد تحقق بفضل الله تعالى ما قاله المؤلف ﷺ. راجع عنوان "تعريف بالمفسر ﷺ" للاطلاع على اعترافات بعض المشاهير. (الناشر)